

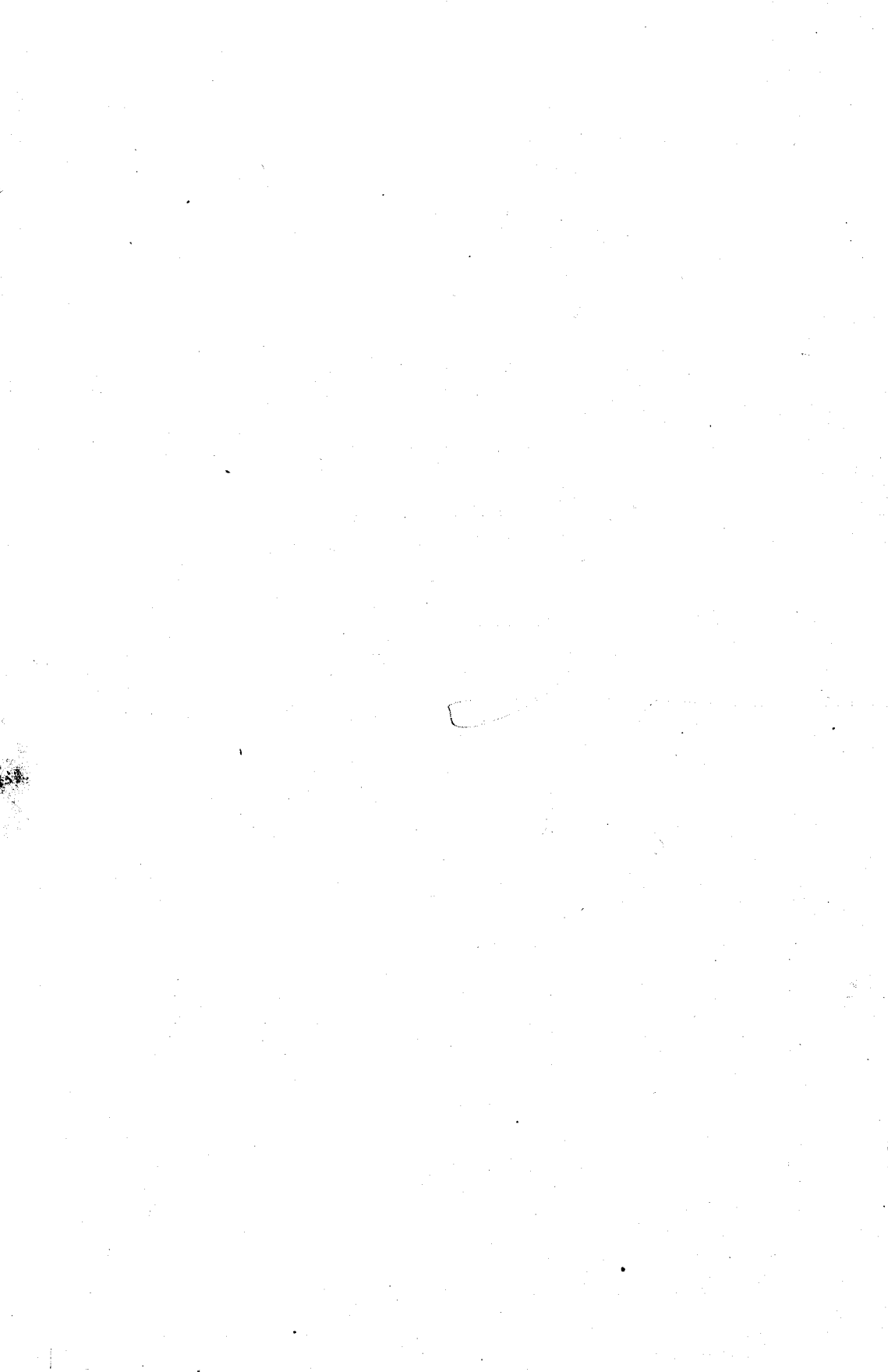
دار الكتب المصرية

صنح الأسيك

الجزء الأول

طبع
بمطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٢٢ - ١٣٤٠ م



كِتَابٌ

صِيحُ الْأَسَدِ

تَالِيفُ

الْشَيْخِ أَبِي الْغُبَّانِ أَحْمَدَ الْقَلَقَشَنْدِي

الجزء الأول

(حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب المصرية)

طبع

بمطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٠ هـ - ١٩٢٢ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله جاعل المرء بأصغريه، قلبه ولسانه . والمتكلم بأجمليه، فصاحته وبيانه .
راقم حقائق المعاني بأقلام الإلهام على صفحات الأفكار . جامع اللسان والقلم على
ترجمة ما في الضمائر، ذاك للأسماع وهذا للأبصار. الذي حفظ برسوم الخطوط ما تكل
الأذهان السليمة عن حفظه . وتبلغ بوسائطها على البعد ما يعسر على المتحمل تأديته
بصورة معناه ولفظه .

أحمده على أن وهب من بنات الأفكار ما يربو في الفخر على ذكُور الصوارم .
ومنح من جواهر الخواطر ما يزكو مع الإنفاق ولا ينقص بالمكارم .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يُوقَّع لصاحبها بالنجاة من النار .
ويُكْتَب قائلها في ديوان الأبرار . وأن مجدداً عبده ورسوله الذي آهتت لهيبته
الأسيرة وشرفت بذكره المنابر . وضافت عن درك وصفه الطروس ونفدت دون
إحصاء فضله المحابر . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين قلدوا أمور الدين فقاموا
بواجبها . وحملوا أعباء الشريعة فانتشرت بهم في مشارق الأرض ومغاربها . صلاة
نُسِّطَر في الصحف . وتفوق بهجتها الروض الأنف .

وبعد فلما كانت الكتابة من أشرف الصنائع وأرفعها . وأريج البضائع وأنفعها . وأفضل المآثر وأعلاها . وآثر الفضائل وأغلاها . لاسيما كتابة الإنشاء التي هي منها بمنزلة سلطانها . وإنسان عينها بل عين إنسانها . لا تلتفت الملوكة إلا إليها . ولا تعول في المهمات إلا عليها . يعظمون أصحابها ويقربون كتابها . خليفها أبدا خليف بالتقديم . جدير بالتبجيل والتكريم .

تَسْرَجَانِيهَا إِذَا مَا جَنَى الظَّمَا * وَتُرْوَى بِمَجَارِيهَا إِذَا بَجَلَ القَطْر

وكانت الديار المصرية . والمملكة اليوسفيه . أعز الله تعالى حماها ! . وضاعف عَلاها ! قد تعلقت من الثريا بأقراطها . ورجحت سائر الأقاليم بقيراطها . بشرى بفتحها الصادق الأمين ، فكانت أعظم بشرى . وأخبر سيد المسلمين أن لأهلها نسبا وصهرا . فتوجهت إليها عزائم الصحابة زمن الفاروق فحاسوا خلال الديار وعمرها وسهلها . وأقتطعتها أيدي المسلمين من الكفار (وكانوا أحق بها وأهلها) .

ثم لم يزل يعلو قدرها . ويسمو ذكرها . إلى أن صارت دار الخلافة العباسيه . وقرار المملكة الإسلامية . وتقرت مملكتها بخدمة الحرمين . وخدمها سائر الملوك والأمم لحيازة القبلتين .

تَنَاهَتْ عَلاَءَ والشَّبَابُ رداؤها * فَمَا ظَنُّكُمْ بِالْفَضْلِ والرَّأْسِ أَشَيْبُ؟

وحظيت من فضلاء الكُتَّاب بما لم تحظ مملكة من الممالك ، ولا مصر من الأمصار . وحوث من أهل الفضل والأدب مالم يحوقطر من الأقطار . فبارحت متوجهة بأهل الأدب في الحديث والتقديم . مطرزة من فضلاء الكُتَّاب بكل مكين

أمين ، وحفيظ عليم .

نُجُومُ سَمَاءٍ كُلَّمَا غَابَ كَوَكَبٌ * بَدَا كَوَكَبٌ تَأْوِي إِلَيْهِ كَوَاكِبُهُ

هذا . والمؤلفون في هذه الصنعة قد اختلفت مقاصدهم في التصنيف . وتباينت
 مواردُهم في الجمع والتأليف . ففرقة أخذت في بيان أصول الصنعة وذكر شواهدِها .
 وأخرى جنحت إلى ذكر المصطلحات وبيان مقاصدها . وطائفة آهتت بتدوين
 الرسائل ليقتبس من معانيها ويتمسك بأذيالها . وتكون أئموذجا لمن بعدهم يسلك
 سبيلها ، من أراد أن ينسج على منوالها . ولم يكن فيها تصنيف ، جامع لمقاصدها .
 ولا تأليف ، كافل بمصادرها الخلية ومواردها . بل أكثر الكتب المصنفة في بابها .
 والتأليف الدائرة بين أربابها . لا يخرج عن علم البلاغة المرجوع فيها إليه . أو الألفاظ
 الرائقة مما وقع اختيار الكُتاب عليه . أو طرف من اصطلاح قد رُفِض . وتغير
 أئموذجه وتُقَض . فلا يغني النظر فيه المقلد من كُتاب الزمان . ولا يكتفي به القاصر
 في أوانٍ بعد أوان . على أن معرفة المصطلح هي اللزوم المحتم . والمهمُّ المقدم .
 لعموم الحاجة إليه . واقتصار القاصر عليه .

إِنَّ الصَّنِيعَةَ لَا تَكُونُ صَنِيعَةً * حَتَّى يُصَابَ بِهَا طَرِيقُ المَصْنَعِ

وكان الأئستور الموسوم "بالتعريف . بالمصطلح الشريف" . صنعة الفاضل
 الألمعي . والمصنّع اللوذعي . ملك الكتابة وإمامها . وسلطان البلاغة ومالك زمامها .
 المقر الشهابي "أحمد بن فضل الله العدوي العمري" سقى الله تعالى عهده العهاد ! .
 وألبسه سواغ الرحمة والرضوان يوم المعاد ! . هو أنفَس الكُتُبِ المصنفة في هذا الباب
 عقدا . وأعدّها طريقا وأعدبها ورذا . قد أحاط من المحاسن بجوانبها . وأُعقمت
 الأفكار عن مثله ففاز من الصنعة بأحمد مذاهبها . فكان حقيقا بقوله في خطبته :

"يا طالبَ الإنشاءِ خُذْ عِلْمَهُ * عَنِّي فِعْلِي غيرَ مَنْكُورٍ !"

"ولا تَقِفْ في بابِ غَيْرِي فما * تَدْخُلُهُ (إلا بدُستُوري)"

إلا أنه قد أهمل من مقاصد المصطلح أمورا لا يسوغ تركها . ولا ينبغي بالفدية لدى القوات نُسكها . كالبطاق ، والملطفات ، والمطلقات . المكبرة في جملة كثيرة من المكاتبات . فلم يقع الغنى به عما سواه . ولا الأكتفاء بالنظر فيه عما عداه .

ثم تلاه المقر التقوى ابن ناظر الجيش (رحمه الله!) بوضع دستور المسعى "بتتقيف التعريف" مقتنيا أثره في الوضع ، وجاريا على سَنَه في التأليف . مع إيراد ما أهمله في تعريفه . وذِكْر ما فاته من مصطلح ما يُكْتَب أو حَدَثَ بعد تأليفه . فاشتهر ذكره وعز وجوده . ووقع الضنُّ به حتى بخل بإعارته من عُرف كرمه وجوده . وكان مع ذلك قد ترك مما تضمنته التعريف مقاصد لا غنى بالكاتب عنها . ولا بد للنبلس بهذه الصناعة منها . كالوصايا والأوصاف ، التي هي عمدة الكاتب . ومرا كرا البريد وأبراج الحمام ، وغير ذلك من ممتات الواجب ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . فصار كلُّ من الدستورين منفرداً عن الآخر بقدر زائد . ولم تقع الغنية بأحدهما عن الآخر ، وإن كانا في معنى واحد .

وكيفما كان فالأقتصار على معرفة المصطلح قُصور . والإضراب عن تعرف أصول الصنعة ضَعْف همةٍ وفُتُور . والمقلد لا يوصف بالأجتهد . وشتانَ بين من يعرف الحكم عن دليل ومن جمد على التقليد مع جزم الاعتقاد .
وَلَمْ أَرِ فِي عُيُوبِ النَّاسِ شَيْئاً * كَنَقْصِ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ

وقد ثبت في العُقُول أن البناء لا يقوم على غير أساس . والفرع لا ينبت إلا على أصل ، والثمر لا يُجْتَنَى من غير غراس .

وكننت في حدود سنة إحدى وتسعين وسبعائة عند استقرارى في كتابة الإنشاء بالأبواب الشريفة السلطانية ، عظم الله تعالى شأنها! . ورفع قدرها! وأعز سلطانها!

أنشأت مقامة بنيتها على أنه لا بد للإنسان من حرفة يتعلق بها . ومعيشة يمسك بسببها .
 وأن الكتابة هي الصناعة التي لا يلبق بطالب العلم من المكاسب سواها . ولا يجوز له
 العُدول عنها إلى ما عداها . وجنحت فيها إلى تفضيل كتابة الإنشاء وترجيحها .
 وتقديمها على كتابة الأموال وترشيحها . ونهت فيها على ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء
 من المواد . وما ينبغي أن يسلكه من الجَوَاد . وضمنتها من أصول الصنعة ما أُرْبِتْ به
 على المطولات وزادت . وأودعتها من قوانين الكتابة ما استولت به على جميع مقاصدها
 أو كادت . وأشرت فيها إلى وجه تعلق بحال هذه الصنعة وإن لم أكن بمطلوبها مَلِيًّا .
 وأنسابي إلى أهلها وإن كنت في النسبة إليها دَعِيًّا .

وَيْسَ دَعِيَّ الْقَوْمِ فِي الْقَوْمِ كَالَّذِي * حَوَى نَسَبًا فِي الْأَكْرَمِينَ عَرِيقًا

إلا أنها قد وقعت موقع الوسخ والإشارة . ومالت إلى الإيجاز فاكتفت بالتلويح
 عن واسع العبارة . فعز بذلك مطلبها . وفات على المحتجني بعد التناول أطيبها . فأشار من
 رأيه مقرون بالصواب . ومشورته عريّة عن الأرتياب . أن أتبعها بمصنّف مبسوط
 يشتمل على أصولها وقواعدها . ويتكفل بحل رموزها وذكر شواهدِها . ليكون
 كالشرح عليها . والبيان لما أجملته والتتمة لما لم يسقهُ الفكر إليها . فامتثلت أمره
 بالسمع والطاعة . ولم أتلكأ وإن لم أكن من أهل هذه الصناعة . غير أن القرية
 بذلك لم تسمع . وصار المقتضى يضعف والمانع يترجّح . لأعذار قد تشابه مُحْكَمُهَا .
 وضرورات ، إن لم يعلمها الخلق فانه يعلمها . إلى أن لاحت لي بوارق الفتح . وظهرت
 والله الحمد آثار المنح . فعند ذلك بلغت النفس أمَلَهَا . وأضفت مواهب الأمتنان
 حللها . وتلا لسان العناية على الغبي الحاسد ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ
 لَهَا ﴾ .

فشرعت في ذلك بعد أن استخرت الله تعالى (وما حَابَ مِن اسْتِخَارٍ) .
 وراجعت أهل المشورة (وما نَدِمَ مِن اسْتِشَارٍ) . مستوعبا من المصطلح ما أشتمل عليه
 "التعريف" و"التثقيف" . موضعا لما أبهماه بتبيين الأمثلة مع قُرب المآخذ وحُسن
 التأليف . متبرعا بأموار زائدة على المصطلح الشريف لا يوسع الكاتب جهلها . مُتَنَقِّلاً
 من توجيه المقاصد ، وتبيين الشواهد ، بما يُعرف به فرع كل قضية وأصلها . آتياً من
 معالم الكتابة بكل معنى غريب . ناقلاً الناظر في هذا المصنّف عن رتبة أن يسأل فلا
 يجاب إلى رتبة أن يُسأل فيجيب . منبها على ما يحتاج إليه الكاتب من الفنون ، التي
 يخرج بمعرفة عن عهدة الكتابة ودرّكها . ذاكراً من أحوال الممالك المكتّبة عن هذه
 المملكة ما يُعرف به قدر كل مملكة وملكها . مبيّناً جهة قاعدتها ، التي هي محل الملك
 شرقاً أو غرباً ، أو جنوباً أو شمالاً . معرّفاً الطريق الموصل إليها ، براً وبحراً ، وأتقظاً
 واتصالاً . ذاكراً مع كل قاعدة مشاهير بلدانها ، إكمالاً للتعريف . ضابطاً لأسمائها .
 بالحروف كي لا يدخلها التبديل والتحريف .

وسمّيته (صبح الأعشى في كتابة الإنشأ) راجياً من الله تعالى أن يكون
 بالمقصود وأفياً . وللخليل شافياً .

ويعذر الواقف عليه ، فتأج الأفكار على اختلاف القرائح لا تنتهي . وإنما ينفق
 كل أحد على قدر سعته ﴿لَا يُكْفِ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ . ورحم الله من وقف فيه
 على سهو أو خطيأ فأصلحه عاذراً لا عاذلاً . ومُنِيلاً لا نائلاً . فليس المبرأ من الخطل
 إلا من وقى الله وعظم . وقد قيل : الكتاب كالمكلف لا يسلم من المؤاخذة ولا يرتفع
 عنه القلم ؛ والله تعالى يقرّنه بالتوفيق ! . ويُرشِد فيه إلى أوضح طريق ! . ﴿وما تَوْفِيقِي
 إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ .

وقد رتبته على مقدّمة ، وعشر مقالات ، وخاتمة .

المقدمة

في مبادي يجب تقديمها قبل الخوض في كتابة الإنشاء ؛ وفيها خمسة أبواب

الباب الأول

في فضل الكتابة، ومدح فضلاء أهلها، وذم حقايم ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول - في فضل الكتابة .

الفصل الثاني - في مدح فضلاء الكُتَّاب وذم حقايم .

الباب الثاني

في ذكر مدلول الكتابة لغةً وأصطلاحاً، وبيان معنى الإنشاء، وإضافة الكتابة إليه، ومرادفة لفظ التوقيع لكتابة الإنشاء في عُرف الزمان، والتعبير عنها بصناعة الترسُّل، وتفضيل كتابة الإنشاء على سائر أنواع الكتابة، وترجيح النثر على الشعر . وفيه ثلاثة فصول .

الفصل الأول - في ذكر مدلولها، وبيان معنى الإنشاء وإضافتها إليه . ومرادفة

التوقيع لكتابة الإنشاء في عرف الزمان، والتعبير عنها بصناعة الترسُّل .

الفصل الثاني - في تفضيل كتابة الإنشاء على سائر أنواع الكتابة .

الفصل الثالث - في ترجيح النثر على الشعر .

الباب الثالث

في صفات الكُتَّاب وآدابهم ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول - في صفاتهم الواجبة والعرفية .

الفصل الثاني - في آدابهم .

الباب الرابع

في التعريف بحقيقة ديوان الإنشاء وأصل وضعه في الإسلام

وتفرّقه بعد ذلك في الممالك ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في التعريف بحقيقته .

الفصل الثاني — في أصل وضعه في الإسلام وتفرّقه بعد ذلك في الممالك بالديار

المصرية وغيرها .

الباب الخامس

في قوانين ديوان الإنشاء، وترتيب أحواله ، وآداب أهله ؛ وفيه أربعة فصول

الفصل الأول — في بيان رتبة صاحب هذا الديوان ورفعة قدره وشرف محله

ولقبه الجارى عليه في القديم والحديث .

الفصل الثاني — في صفة صاحب هذا الديوان وآدابه .

الفصل الثالث — فيما يتصرف فيه متولى هذا الديوان ويديره ويصرفه بقلمه .

الفصل الرابع — في ذكر وظائف ديوان الإنشاء بالديار المصرية ، وما يلزم رب

كل وظيفة منهم ، وما كان عليه الأمر في الزمن القديم ، وما آسستقرّ عليه الحال

بعد ذلك ✖

المقالة الأولى

فيما يحتاج إليه الكاتب ؛ وفيها بابان

الباب الأول

في الأمور العلمية ؛ وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول — فيما يحتاج إليه الكاتب في الجملة .

الفصل الثاني — فيما يحتاج الكاتب إلى معرفته من مواد الإنشاء ، من معرفة اللغة والنحو والتصريف والمعاني والبيان والبديع ، وحفظ كتاب الله تعالى ، والكثير من الأحاديث النبوية ، وخطب البلغاء ورسائلهم ومكاتباتهم ومحاوراتهم ومراوضاتهم ، (وأشعار العرب) والمولدين والمحدثين ، (وأمثال العرب) ومن جرى مجراهم ؛ والمعرفة بالتاريخ (وأنساب العرب) ، ومفانراتهم ، ومنافراتهم ، وحروبهم ، وأوابدهم في الجاهلية ، وأحوال الأمم والأحكام السلطانية ، وأصناف العلوم ، ومن برع في كل علم منها ، والكتب الفائقة في كل فن من فنونها وما يجري مجرى ذلك ؛ والمعرفة بصناعة الكلام وكيفية إنشائه ونظمه ، وتأليفه ، وترصيفه ، وما يحمد من ذلك وما يذم .

الفصل الثالث — في معرفة الأزمنة والأوقات : من الأيام والشهور والسنين على اختلاف الأمم فيها وتفصيل أجزائها ، وما ينخرط في سلك ذلك من الفصول الأربعة وأعياد الأمم .

الباب الثاني

فما يحتاج إليه الكاتب من الأمور العملية ، من الخط وتوابعه ولواحقه ؛ وفيه فصلان الفصل الأول — في ذكر آلات الخط من الدوى وما تُتخذ منه ومقاديرها وكيفياتها ، ومعرفة أصناف الأقلام وصناعة برآيتها : فتحا ونحنا وشقا وقطبا ؛ ومقادير أطولها وعدد ما يكون في الدواة منها ، وكيفية عمل الحبر ، وحل الذهب ، وإذابة اللازورد والمغرة العراقية ، وغير ذلك مما يُحتاج إليه في كتابة الديوان .

الفصل الثاني — في الكلام على نفس الخط وأصل وضعه واختلاف الأمم فيه ، وما يختص من ذلك بالخط العربي من تنويع أقلامه التي أحدثها أئمة الكتابة وتبين

أشكالها وأختلاف أوضاعها؛ وما يستعمل منها في ديوان الإنشاء، وما يلتحق بذلك من النقط والشكل والهجاء .

المقالة الثانية

في المسالك والممالك؛ وفيها أربعة أبواب

الباب الأول

في ذكر الأرض على سبيل الإجمال؛ وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول — في معرفة شكل الأرض وإحاطة البحر بها، وبينان جهاتها الأربع، وما آسّمت عليه من الأقاليم السبعة الطبيعية؛ وبينان موقع الأقاليم العرفية كصمر والشام من الأقاليم الطبيعية، وذكر حدودها الجامعة لها .

الفصل الثاني — في ذكر البحار التي يتكرر ذكرها بذكر البلدان في التعريف بها والسفر إليها من البحر المحيط والبحار المنبثّة في أقطار الأرض ونواحي الممالك مما هو متصل به ومنقطع عنه وما بها من الجزائر المشهورة .

الفصل الثالث — في استخراج جهات البلدان والأبعاد الواقعة بينها .

الباب الثاني

في ذكر الخلافة ومنّ وليها من الخلفاء ومقرّاتهم في القديم وما أنطوت عليه

ممالكهم من الأقطار؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في ذكر الخلافة ومنّ وليها من الخلفاء الراشدين من الصحابة

(رضوان الله عليهم)، وخلفاء بني أمية بالشام، وخلفاء بني العباس بالعراق، ثم بالديار

المصرية، وخلفاء الفاطميين بمصر، وخلفاء بني أمية بالأندلس، والمدعين الخلفاء من بقايا الموحدين بأفريقية .

الفصل الثاني — فيما أنطوت عليه الخلافة العباسية في الزمن القديم وما كانت عليه من الترتيب وما هي عليه الآن .

الباب الثالث

في ذكر الديار المصرية ومضافاتها من البلاد الشامية وما يتصل بها؛

وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول — في الديار المصرية وذكر فضائلها ومحاسنها ، وخواصها وعجائبها وما بها من الآثار القديمة ، وذكر نبيلها ومبدئه ونهايته ، وزيادته ونقصه ، ومقاييسه ، وما انتهى اليه في الزيادة وما يصل اليه في النقص ، والخلجان المتفرعة عنه ، وجسورها الحابسة لمياه النيل على أرضها ، وبحيرات الديار المصرية ، وجبالها وزروعها ورياحينها وفواكهها ، ومواشيتها ووحوشها وطيورها ؛ وذكر حدودها وأبتداء عمارتها وتسميتها مصر، وتفرع الأقاليم التي حولها عنها ؛ وذكر أعمالها وقواعدها القديمة، والمباني العظيمة الباقية على ممر الأزمان ، وقواعدها المستقرة وما آشمت عليه من محاسن الأبنية ؛ وذكر من ملكها جاهليةً وإسلاماً قبل الطوفان وبعده ؛ وترتيب أحوالها ؛ وذكر معاملاتها ونقودها ، وترتيب مملكتهما في القديم والحديث ؛ وبيان وظائف دولها القديمة والمستقرة لأرباب السيوف والأقلام .

الفصل الثاني — في البلاد الشامية وما يتصل بها من بلاد الجزيرة الفراتية وبلاد الثغور والعواصم المعبر عنها الآن — ببلاد الأرمن — وبلاد الدربندات المعروفة الآن — ببلاد الروم — مما هو مضاف إلى مملكة الديار المصرية ، وفضل الشام وخواصه

وعجائبه وحدوده وأبتداء عمارته وتسميته شاما ، وذكر أنهاره وبحيراته وجباله المشهورة ، وذكر زروعه وفواكهه ومواشيه ووحوشه وطيوره ، وذكر أعماله وجهاته وأجناده وكوره القديمة والمستقرة وقواعده العظام وما كانت عليه في الزمن السابق ومن ملكها جاهلية وإسلاما وما آستقرت عليه الآن من النيابات ، وترتيب أحوالها ، وذكر معاملاتها ونقودها ، وترتيب نياباتها وما بها من وظائف وأرباب السيوف والأقلام وما آشتمت عليه من العربان .^(١)

الفصل الثالث — في البلاد الحجازية وما يخترط في سلكها ، وذكر فضل الحجاز وخواصه وعجائبه وأبتداء عمارته وتسميته حجازا ، وذكر مياهه وعيونه وجباله المشهورة وزروعه وفواكهه ورياحينه ومواشيه ووحوشه وقواعده وأعماله ونواحيه ومعاملاته ونقوده وملوكه جاهلية وإسلاما .

الباب الرابع

في الممالك والبلدان المحيطة بمملكة الديار المصرية من الجهات الأربع

والطرق الموصلة إليها ، وفيه أربعة فصول

الفصل الأول — في الممالك والبلدان الشرقية عن الديار المصرية ، وما سامت ذلك ووالاه من الجهة الجنوبية والجهة الشمالية ، وما آشتمت عليه هذه الجهة من مملكة إيران التي هي مملكة الفرس قديما ، وما آنطوت عليه من بلاد الجزيرة الفراتية وبلاد العراق وبلاد خوزستان وبلاد الأهواز وبلاد فارس وبلاد كرمان وبلاد سيستان وبلاد أرمينية وأذربيجان وبلاد الجبال المعبر عنها بعراق العجم وبلاد الديلم وبلاد الجبل المعبر عنها بكيلان وبلاد مازندران وبلاد قومس وبلاد زابلستان وبلاد الغور

(١) اشتهر هذا الجمع على الألسنة ولم نعر عليه في معجم اللغة التي بأيدينا وإن كان القياس لا يباه .

وغيرها ، ومملكة تُوران المعروفة بمملكة الترك قديماً ، وما آشملت عليه من قسم ماوراء
النهر من بخارى وسمرقند ومضافاتهما وبلاد تركستان وما مع ذلك ، وقسم خوارزم
ودشت القبچاق المشتمل على خوارزم والدشت وأعمال السراى وبلاد القرم وبلاد
الأزق وما ينضم إلى ذلك من بلاد السرب والبغار وبلاد الأوقاق وبلاد الآص
وبلاد الروس وغيرها ، وقسم ما بيد صاحب التخت المعبر عنه (بالقان الكبير) المشتمل
على بلاد الخطا وبلاد الصين ، وما اتصل بهاتين المملكتين مما يلي الجنوب من بلاد
البحرين ومملكة اليمن وما منها بيد أولاد رسول وما منها بيد إمام الزيدية ، وممالك
الهند المتصلة ببلاد الصين والواقعة في جزائر البحر الهندى .

الفصل الثانى — فى الممالك والبُلدان الغربية عن مملكة الديار المصرية ، من
مملكة تونس المشتملة على بلاد أفريقية ، ومملكة تلمسان المشتملة على بلاد الغرب
الأوسط ، ومملكة فاس المشتملة على بلاد الغرب الأقصى إلى البحر المحيط وما إلى
ذلك من ممالك جزيرة الأندلس وما بقى منها بيد المسلمين وما استعاده منها ملوك الكفر .

الفصل الثالث — فى الممالك والبُلدان الجنوبية عن مملكة الديار المصرية
وما آشملت عليه من بلاد السودان من مملكة البرنو ومملكة الكانم ومملكة مالى
ومملكة الحبشة ، وبيان ما من ذلك بيد ملوك المسلمين وما منه بيد ملوك الكفر .

الفصل الرابع — فى الممالك والبُلدان الشمالية عن مملكة الديار المصرية مما
بيد المسلمين من البلاد المعروفة الآن ببلاد الروم وما بيد ملوك النصارى من جزائر
بحر الروم كجزيرة قبرس وجزيرة رودس وجزيرة أقریطش وجزيرة المصطكى وجزيرة
صقلية وغيرها وما إلى ذلك مما شمالى بحر الروم من مملكة القسطنطينية ومملكة البندقية
ومملكة جنوه ومملكة رومية ومملكة فرنسة وغير ذلك .

المقالة الثالثة

في ذكر أمور تشترك فيها أنواع المكاتبات والولايات وغيرها من ذكر الأسماء والكنى والألقاب، وكيفية تعيين صاحب ديوان الإنشاء القصص والمربعات ونحوها على كُتَّاب الإنشاء، ومقادير قطع الورق وما يناسب كل مقدار منها من الأقلام، ومقادير البياض في أول الدرَج وحاشيته وبعده ما بين السطور في الكُتَّابات، وبيان المستندات التي يصدر عنها ما يكتب من ديوان الإنشاء من المكاتبات والولايات وغيرها، وكتابة الملخصات، وبيان الفواتح والخواتم؛ وفيها أربعة أبواب .

الباب الأول

في الأسماء والكنى والألقاب؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في الأسماء والكنى ومواضع ذكرهما في المكاتبات والولايات وما يجري مجراها .

الفصل الثاني — في ذكر الألقاب وأصل وضعها وما استعمله الكُتَّاب منها وما كان يلقَّب به أهل كل دولة وما حدث من الزيادة بعد ذلك حتى صار الأمر إلى ما عليه الحال في زماننا، والألقاب التي أصطلح عليها لأرباب السيوف والأقلام وغيرهم وما وضع منها لأهل الكفر، وبيان معنى كل لقب في اللغة ومن يقع عليه في الاصطلاح، وكيفية ترتيب بعضها على بعض .

الباب الثاني

في بيان مقادير قطع الورق وما يناسب كل مقدار منها من الأقلام، ومقادير

البياض الذي يراعيه الكاتب في كتابته؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في مقادير قطع الورق المستعملة بدواوين الإنشاء في القديم والحديث

الفصل الثاني — في بيان ما يناسب كل مقدار من مقادير قطع الورق المتقدمة الذكر من الأقلام ، ومقادير البياض الذي يراعيه الكاتب في أعلى الدرَج وحاشيته وبعْد ما بين السطور في الكتابة .

الباب الثالث

في بيان المستندات وكتابة الملخصات ، وكيفية التعيين ، ومقادير قطع الورق وما يناسبها من الأقلام ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في بيان المستندات التي يصدر عنها كتابة ما يكتب من تلقى كاتب السر الأمر في ذلك عن السلطان أو تلقيه وتلقى كتاب الدست بدار العدل ، أو شمول القصة بالخط الشريف ، أو كونه برسالة الدوادار أو بإشارة النائب الكافل أو إشارة أستاذ الدار أو إشارة الوزير أو بقائمة من ديوان الخصاص وغيره ، وكتابة الملخصات التي تكتب من الكتب المطولات الواردة على الديوان ، وترجمة الكتب الواردة بغير العربية إلى العربية .

الفصل الثاني — في بيان كيفية تعيين صاحب ديوان الإنشاء القصص والمربعات وما في معناها ، وبيان مقادير قطع الورق المستعمل في دواوين الإنشاء من الكامل والثلاثين والنصف والثالث والعادة وما يناسب كل مقدار منها من مختصر الطومار وثقل الثلث وخفيفه والتوقيعات والرقاع ومقادير البياض المرعية في الكتابة في أعلى الدرَج وحاشيته وبعْد ما بين السطور .

الباب الرابع

في الفواتح والخواتم واللواحق ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في الفواتح من البسملة والحمدلة والتصلية والسلام في أول الكتب والبعديّة التي يقع بها فصل الكلام، وبيان أصول ذلك وأصل مشروعته.

الفصل الثاني — في الخواتم واللواحق من كتابة إن شاء الله في آخر المكتوب وكتابة التاريخ ومعرفة معناه ومعرفة التواريخ القديمة وأصل وضع التاريخ في الإسلام والتاريخ بالهجرة والوقت الذي يؤرخ فيه؛ وبيان بناء التاريخ العربي على الليالي دون الأيام، واختلاف مذاهب النحاة والكتّاب في التعبير عن ذلك، وبناء تاريخ العجم على الأيام دون الليالي، ومعرفة استخراج كل تاريخ من تواريخ الأمم من الآخر، وكتابة المستند والحمدلة في آخر الكتب والتصلية على النبي صلى الله عليه وسلم بعدها، والاختتام بالحسبة، وبيان مواضع ذلك جميعه من الورق وكيفية وضعه .

المقالة الرابعة

في المكاتبات ؛ وفيها بابان

الباب الأول

في أمور كلية : تتعلق بالمكاتبات ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في مقدمات المكاتبات من أصول يعتمدها الكتّاب فيها من حسن الافتتاح وبراعة الاستهلال وتقديم مقدمة تناسب المكتوب فيه في أول المكتبة، ومعرفة الفرق بين الألفاظ الجارية في الخطاب ونحوه في المكاتبات وما يناسب المكتوب إليه منها، ومواقع الدعاء فيها، والإتيان لكل مقصد من مقاصد المكاتبات بما يناسبه، ومخاطبة كل أحد من المكتوب اليهم على قدر طبقة

من اللغة العربية، ومراعاة الفصاحة والبلاغة في الكتابة إلى من يتعاناها، ومراعاة رتبة المكتوب عنه والمكتوب إليه، ومواقع الشعر من المكاتبات وحسن الاختتام وما يجري مجرى ذلك، وبيان مقادير المكاتبات وما يناسبها من البسط والإيجاز وما يلائمها من المعاني، ومعرفة ما يختص من ذلك بالأجوبة وبيان ترتيبها .

الفصل الثاني — في بيان أصول المكاتبات وترتيبها وبيان لواحقها ولوازمها ومذاهب الكُتَّاب فيما تُفتمَّح به المكاتبات في القديم والحديث، وما يخاطب به أهل الإسلام وأهل الكفر في المكاتبات، وبيان كيفية طي الكتاب وختمه وحمله وتأديته وفضه وقراءته وحفظه في الإضبارة .

الباب الثاني

في مُصْطَلَحِ المكاتبات الدائرة بين كُتَّابِ الإسلام في كل زمن من الصدر

الأوَّل وإلى زماننا؛ وفيه ثمانية فصول

الفصل الأوَّل — في الكُتُبِ الصادرة عن النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهل الإسلام وملوك الكفر، واختلاف أفتتاحها بحسب المقاصد .

الفصل الثاني — في الكتب الصادرة عن الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم، وخلفاء بني أمية، وخلفاء بني العباس، وخلفاء الفاطميين، وخلفاء بني أمية بالأندلس وبقايا الموحدين بأفريقية : آبتداء وجوابا .

الفصل الثالث — في الكتب الصادرة عن الملوك ومن في معناهم مما كُتِبَ به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدين من الصحابة رضوان الله عليهم، وخلفاء بني أمية، وخلفاء بني العباس، وخلفاء الفاطميين بالديار المصرية، وخلفاء

بني أمية بالأندلس ، وبقايا الموحدين بأفريقية ؛ وما كتب به عن الملوك ومن في معناهم إلى الملوك ومن في معناهم من المكاتب الدائرة بين ملوك الديار المصرية وملوك الشرق والغرب ، ووزراء الخلفاء ومنقذى أمر الخلافة اللاحقين بشأو الملوك ، وما يتحقق بذلك من المكاتب الصادرة إلى ملوك الكفر واختلاف الأفتتاح في ذلك .

الفصل الرابع - في الكتب الصادرة عن ملوك الديار المصرية على ما استقر عليه الحال من ابتداء الدولة التركية وإلى زماننا على رأس الثمانمائة مما أكثره مأخوذ من ترتيب الدولة الأيوبية ، التي هي أصل الدولة التركية مما هو صادر عنهم إلى خلفاء بني العباس ، وإلى أهل المملكة بمصر والشام والحجاز ، وإلى عطاء القانات بمالك الشرق كقنان مملكة إيران الجامع لحدودها على ما كان الأمر عليه إلى آخر أيام أبي سعيد ثم من بعده ممن يبلغ شأوه من القانات الصغار كالشيخ واويس ومن تلاه إلى زماننا ، ومن بهذه المملكة من صغار الملوك والحكام ، وقانات مملكة توران من صاحب ما وراء النهر من بخارى وسمرقند وما معها ، وصاحب خوارزم والدشت والقان الكبير صاحب التخت ، وصاحب الهند ، وصاحب اليمن وإمام الزيدية بها . وملوك بلاد المغرب كصاحب تونس ، وصاحب تلمسان ، وصاحب فاس ، وصاحب غرناطة من الأندلس ، وملوك بلاد السودان كملك البرنو وملك الكانم ، وصاحب مالي ، وملوك الأتراك بالبلاد المعروفة ببلاد الروم من الجهة الشمالية ، وملوك الكفر كملك الحبشة من البلاد الجنوبية وملك القسطنطينية وسائر ملوك الفرنج وحكامهم بجزائر الروم وغيرها ممن تقدم ذكره في الكلام على المسالك والممالك .

الفصل الخامس - في الكتب الواردة على الأبواب السلطانية بالديار المصرية من ملوك الممالك المتقدمة الذكر وحكامها من أهل الإسلام والكفر ممن ترد مكاتبه على هذه المملكة .

الفصل السادس — في المكاتبات الإخوانيات مما كان عليه مُصطَلح السلف
فمن بعدهم في كل زمن وما استقرّ عليه الحال في زماننا .

الفصل السابع — في مقاصد المكاتبات من الأمور الخاصة بالملوك والخلفاء .
كالكتب بالإشارة بولاية الخلافة ، والجلوس على تخت السلطنة ، والدعاية إلى الدين ،
والحث على الجهاد ، والإخبار عن الفتوحات ، والأمر بلزوم الطاعة ، والتنبيه على مواسم
العبادة ، والموعظ عند حدوث الآيات السماوية ، والأوامر والنواهي ، والنهي عن
التنازع في الدين ، والكتب إلى من نكت العهد أو خلع الطاعة ، والتنضييق على أهل
الجرائم ، والإشارة بالمواسم ، والأعياد ، ووفاء النيل ، وركوب الميادين ، والعود من الغزو ،
والكتب بالتلقيب على ما كان الأمر عليه في الزمن المتقدم ، وبالإحجام والإذمام ،
والكتب قرين الإنعام السلطاني من الخيل والجوارح ، وسائر أصناف الإنعام ،
والاعتذار عن السلطان في الهزيمة ونحوها ، والأجوبة عن ذلك ، وما يشترك فيه الملوك
ومن عدّاهم من التهانى كالتهنئة بالوظائف ، وتمكئة السلطان ، وتجدد الأولاد ،
والمساكن ، والعود من الحج ، والقُدوم من السفر ، والإبلال من المرض ، ورضا السلطان
وغزوة السنة ، وشهر رمضان ، وعيد الفطر ، وعيد الأضحى ، والنيروز ، والمهرجان ،
والدخول في دين الإسلام ، والصّرف عن الخدمة في سلامة ؛ ومن التعازي كالتعزية
بالأب والأم والولد والقريب والصديق ، والتشوّقات ، والشّفاعات ، والتهادى ،
والاستراحة ، وأسماحة الحوائج ، واختطاب المودّة ، وخطبة الترويح ، والشكر ،
والشكوى ، والاعتذار ، والعتاب ، والمداعبة ، وغير ذلك .

الفصل الثامن — في معرفة إخفاء ما في الكتب من السرّ إقاماً بطريق المترجم ،
وإقاماً بالكتابة بما يظهر بالمعالجة من عرضه على النار ، أو جعل دواء عليه وما أشبه ذلك .

المقالة الخامسة

في الولايات ، وفيها أربعة أبواب

الباب الأول

في بيان طبقاتها وما يقع به التفاوت ، وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول — في بيان طبقات الولايات وما يجب على الكاتب مراعاته في كتابتها مما يكتب في ولاية الخلافة والسلطنة والولايات الصادرة عن الخلفاء والملوك ، وما يكتب عن السلطان بالديار المصرية والشام والحجاز لأرباب السيوف وأرباب الأقلام وأرباب الوظائف الديوانية والوظائف الدينية ، وغير ذلك .

الفصل الثاني — في بيان ما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة الولايات على

سبيل الإجمال .

الفصل الثالث — في بيان ما يقع به التفاوت في رتب الولايات .

الباب الثاني

في البيعات ، وفيه فصلان

الفصل الأول — في معنى البيعات .

الفصل الثاني — في ذكر تنوع البيعات مما يكتب للخلفاء ، وأصل مشروعيتها ؛ وبيان أسباب البيعة الموجبة لأخذها على الرعية ، وما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة البيعة ؛ وبيان صورة ما يكتب فيها ، واختلاف مذاهب الكُتَّاب في ذلك ؛ وذكر نسخ من بيعات الخلفاء مما كان يُكتب به في الخلافة العباسية بالعراق ، وخلفاء الفاطميين بالديار المصرية ، وخلفاء بني أمية بالأندلس وما يلتحق بذلك مما يكتب به لخلفاء بني العباس الآن بالديار المصرية ، وما يكتب من البيعات للملوك على ما أصرَّح عليه كُتَّاب بلاد الغرب والأندلس .

الباب الثالث

في العهود؛ وفيه فصلات

الفصل الأول — في معنى العهد .

الفصل الثاني — في بيان أنواع العهود مما يكتب به للخلفاء عن الخلفاء، وما يكتب به للملوك عن الخلفاء، وما يكتب به عن الملوك لولاة العهد بالسلطنة والملوك المنفردين بصغار البلدان، ومذاهب الكُتَّاب في ذلك، وذكر نُسُخ من ذلك جميعه مما كتب به ببلاد المشرق والمغرب والديار المصرية .

الباب الرابع

في الولايات الصادرة عن الخلفاء لأرباب المناصب، من أصحاب السيف

والأقلام وغيرهم؛ وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول — فيما كان يكتب من ذلك عن الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم، وخلفاء بني أمية بالشام، وخلفاء بني العباس بالعراق، وخلفاء بني أمية بالأندلس، وخلفاء الفاطميين بمصر، ومدعين الخلافة من بقايا الموحيدين ببلاد المغرب، ومذاهب كُتَّاب الدول في ذلك .

الفصل الثاني — فيما يكتب من الولايات عن الملوك لأرباب السيف والأقلام وغيرهم من مصطلح كُتَّاب المشرق بعد انقراض الخلافة العباسية من العراق، ومصطلح كُتَّاب المغرب والاندلس في القديم والحديث، ومصطلح كُتَّاب الديار المصرية في الدولة الطولونية وماولياها من الدولة الإخشيدية، والدولة الأيوبية وماولياها من الدولة التركية، وما استقرَّ عليه الحال فيها الى زماننا، مما يكتب لأرباب السيف

والأقلام وغيرهم عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية من التقاليد والتفاويض والمراسيم والتواقيع على اختلاف مراتبها .

الفصل الثالث — فيما يكتب عن نواب السلطنة بالممالك الشامية لأرباب السيف والأقلام وغيرهم ، وذكر نسخ من ذلك .

المقالة السادسة

في الوصايا الدينية، والمساحات، والإطلاقات، والطرخانيات، وتحويل السنين، والتذاكر؛ وذكر نسخ من ذلك؛ وفيها أربعة أبواب

الباب الأول

في الوصايا الدينية؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — فيما لقدماء الكتاب من ذلك .

الفصل الثاني — فيما يكتب من ذلك، في زماننا .

الباب الثاني

في المساحات، والإطلاقات؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — فيما يكتب في المساحات .

الفصل الثاني — فيما يكتب في الإطلاقات .

الباب الثالث

في الطرخانيات ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في طرخانيات أرباب السيوف .

الفصل الثاني — في طرخانيات أرباب الأقلام .

الباب الرابع

في تحويل السنين ، وما يكتب في التوفيق بين السنين القمرية والشمسية ،

وما يكتب في التذاكر ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في تحويل السنين والتوفيق بين السنين الشمسية والقمرية .

الفصل الثاني — في التذاكر .

المقالة السابعة

في الإقطاعات والمقاطع ، وذكر نسخ من ذلك ؛ وفيها بابان

الباب الأول

في ذكر مقدمات الإقطاعات ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في ذكر أمور تتعلق بالإقطاعات : من بيان معناها ، وأصل

وضعها في الشرع ، وأول من وضع ديوان الجيوش في الإسلام ، ومن يستحق إثباته في الديوان ، وكيفية ترتيبهم فيه .

الفصل الثاني — في بيان حكم الإقطاع وأنقسامه إلى إقطاع تملك وأستغلال .

الباب الثاني

فيما يكتب في الإقطاعات في القديم والحديث؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في أصل ذلك في الشرع، وبيان ما أقطعه النبي صلى الله عليه

وسلم من البلاد والأرضين .

الفصل الثاني — في صورة ما كان يكتب في الإقطاعات في الزمن القديم عن

خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ بِالْعِرَاقِ، وَخُلَفَاءِ الْفَاطِمِيِّينَ بِمِصْرَ، وَعَنِ الْمُلُوكِ الْقَائِمِينَ عَلَى الْخُلَفَاءِ

بِالْعِرَاقِ، وَمُلُوكِ بَنِي أَبِي بَالِدِيَارِ الْمِصْرِيَّةِ، وَمَا يَكْتُبُ فِي الْإِقْطَاعَاتِ فِي زَمَانِنَا مِمَّا

اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ الْحَالُ، وَمَا يَكْتُبُ فِي ذَلِكَ مِنْ دِيْوَانِ الْجَيْشِ مِنَ الْمُرَبَّعَاتِ وَمَاهِي مِثْرَبَةِ

عَلَيْهِ، وَمَا يَكْتُبُ فِي ذَلِكَ مِنْ دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ مِنَ الْمُنَاشِيرِ، وَبَيَانِ مَرَاتِبِهَا؛ وَذَكَرَ قِطْعَ

الْوَرَقِ الَّذِي يَكْتُبُ فِيهِ؛ وَمَا يَكْتُبُ فِي طُرَرِ الْمُنَاشِيرِ وَمَا يَلْتَحِقُ بِذَلِكَ مِنَ الطُّغْرَاوَاتِ

الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى الْأَلْقَابِ السُّلْطَانِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تُلْصَقُ بِأَعْلَى الْمُنَاشِيرِ بَيْنَ الطُّرَّةِ وَالْبَسْمَلَةِ؛

وَمَا يَخْتَصُّ مِنْ ذَلِكَ بِالزِّيَادَاتِ وَالتَّجْدِيدَاتِ .

المقالة الثامنة

في الأيمان؛ وفيها بابان

الباب الأول

في أصول يتعين على الكاتب معرفتها قبل الخوض في الأيمان؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — فيما يقع به القسم من الأقسام التي أقسم الله تعالى بها، والأقسام

التي يُقسِمُ بِهَا الْخَلْقُ مِنْ أَقْسَامِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَالْأَقْسَامِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي يَحْلِفُ بِهَا

الفصل الثاني - في بيان اليمين الغموس ولغو اليمين ، والتحذير من اِحْثِثِ
والوقوع في اليمين الغموس .

الباب الثاني

في نسخ الأيمان الملوكية ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول - في نسخ الأيمان المتعلقة بالخلفاء .

الفصل الثاني - في الأيمان المتعلقة بالملوك مما يحلف به المسامون من أهل
السنة وأرباب البدع وأهل الملل من اليهود والنصارى ، والمجوس وما يحلف به الحكماء .

المقالة التاسعة

في عقود الصلح والقُسُوح الواردة على ذلك ؛ وفيه خمسة أبواب

الباب الأول

في الأمانات ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول - في عقد الأمان لأهل الكفر .

الفصل الثاني - في كتابة الأمانات لأهل الإسلام ، وذكر أصل ذلك من السنة ،

وإيراد نسخ من ذلك .

الباب الثاني

في الدفن ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول - في أصله وكونه مأخوذاً عن العرب .

الفصل الثاني - فيما يكتب في الدفن عن الملوك .

الباب الثالث

فيما يكتب في عقد الذمة وما يتفرع على ذلك؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في الأصول التي يرجع إليها هذا العقد .

الفصل الثاني — في صورة ما يكتب في متعلقات أهل الذمة، وإلزامهم بالجرى

على ما يقتضيه عقد الذمة لهم .

الباب الرابع

في الهدن الواقعة بين ملوك الإسلام، وملوك الكفر؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في أصول يتعين على الكاتب معرفتها من بيان معنى الهدنة

وما يرادفها من الألفاظ، وبيان أصل وضعها في الشرع، وما يجب على الكاتب مراعاته

في كتابتها .

الفصل الثاني — في صورة ما يكتب في المهادئات وأختلاف مذاهب كُتاب

الشرق والغرب والديار المصرية في ذلك، وذكر نسخ منها، وبيان ما يكتب من ذلك

من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بالديار المصرية وما يرد من ذلك مما يكتب

عن ملوك الكفر .

الباب الخامس

في عقود الصلح الواقعة بين مالكيين مسلمين؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في أصول تُعتمد في ذلك .

الفصل الثاني — فيما يكتب في عقد الصلح، وذكر نسخ من ذلك مما كتب به

عن الخلفاء والملوك في القديم والحديث إلى زماننا .

المقالة العاشرة

في فنون من الكتابة يتداولها الكُتّاب ويتنافسون في عملها ليس لها تعلق
بكتابة الدواوين السلطانية ولا غيرها؛ وفيها بابان

الباب الأول

في الحِديّات ؛ وفيه ستة فصول

الفصل الأول — في المقامات وذكر نُسخ منها .

الفصل الثاني — في الرسائل : من الرسائل الملوكية المشتملة على الغزو والصيد
ونحو ذلك ، والرسائل الواردة مورد المدح ، والرسائل الواردة مورد الذم ، ورسائل
المفاجرات بين الأشياء النفيسة : كالمفاجرة بين العلوم والسيف والقلم ونحو ذلك ،
والرسائل المشتملة على الأسئلة والأجوبة ، والرسائل المكتتبة بالحوادث والمآجريات
وذكر نسخ من ذلك جميعه .

الفصل الثالث — في قدمات البندق ، وذكر نسخ منه .

الفصل الرابع — في الصّدقات الملوكية ، وصدقات الأعيان .

الفصل الخامس — فيما يُكتب عن العلماء وأهل الأدب : من الإجازة بالفتاوى
وعراضات الكتب والمرويات ، وما يكتب على الكُتب المصنّفة والقصائد من
التقريظات ، وما يكتب عن القضاة من التقاليد الحُكمية وإسجالات العدالة والمطلقات
وغير ذلك .

الفصل السادس — في العُمرات التي تكتب للحاج .

الباب الثاني

في الهزليات؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — فيما آعتنت الملوك ببعضه .

الفصل الثاني — في سائر أنواع الهزل .

الخاتمة

في ذكر أمور تتعلق بديوان الإنشاء غير أمور الكتابة؛ وفيها أربعة أبواب

الباب الأول

في الكلام على البريد؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في مقدمات يحتاج الكاتب إلى معرفتها: من معرفة معنى البريد

وأول من وضعه في الجاهلية والإسلام، وبيان معالمة .

الفصل الثاني — في ذكر مراكز البريد بالديار المصرية والبلاد الشامية على

اختلاف طرقها .

الباب الثاني

في مطارات الحمام الرسائلي، وذكر أبراجها المقررة بالديار المصرية

والبلاد الشامية؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في ذكر مطاراته وآعتناء الملوك بشأنه في القديم والحديث

ومسافات طيرانه .

الفصل الثاني — في الأبراج المقررة له بالديار المصرية والبلاد الشامية .

الباب الثالث

في ذكر مراكز الثلج الواصل من البلاد الشامية إلى الملوك
بالديار المصرية؛ وفيه فصلان

الفصل الأول - في مراكزه .

الفصل الثاني - في هجته .

الباب الرابع

في المناور والمحرقات؛ وفيه فصلان

الفصل الأول - في المناورات التي كان يُستعمل بها حركة التار إلى البلاد الإسلامية .

الفصل الثاني - في المحرقات التي كان يتوسل بها إلى إحراق زروع التار

ومراعيهم بأطراف بلادهم .

المقدمة

في المبادئ التي يجب تقديمها قبل الخوض في كتابة الإنشاء؛

وفيها خمسة أبواب

الباب الأول

في فضل الكتابة، ومدح فضلاء أهلها، وذم حَمَقاهم؛

وفيه فصلان

الفصل الأول

(في فضل الكتابة)

أعظم شاهد لجليل قدرها، وأقوى دليل على رفعة شأنها، أن الله تعالى! نسب تعليمها إلى نفسه، وأعتده من وافر كرمه وإفضاله فقال عز اسمه: ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ مع ما يروى أن هذه الآية والتي قبلها مفتح الوحي، وأول التنزيل على أشرف نبي، وأكرم مرسل صلى الله عليه وسلم! وفي ذلك من الأهتمام بشأنها ورفعة محلها ما لا خفاء فيه.

ثم بين شرفها بأن وصف بها الحفظة الكرام من ملائكته فقال جلت قدرته: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كَرَامًا كَاتِبِينَ﴾ ولا أعلى رتبة وأبذخ شرفاً مما وصف الله تعالى به ملائكته ونعت به حفظته؛ ثم زاد ذلك تأكيداً ووفر محله إجلالاً وتمظيهاً بأن أقسم بالقلم الذي هو آلة الكتابة وما يسطر به فقال تقدست عظمته: ﴿بِالنَّوْمِ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ والإقسام لا يقع منه

سبحانه إلا بشريف ما أبدع، وكريم ما اخترع : كالشمس والقمر والنجوم ونحوها إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شرفها ورفعة قدرها .

ثم كان نتيجة تفضيلها، وأثرة تعظيمها وتجميلها، أن الشارع ندب إلى مقصدها الأسنى، وحث على مطلبها الأغنى، فقال صلى الله عليه وسلم : ”قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ“ مشيراً إلى الغرض المطلوب منها، وغايتها المحتناة من ثمرتها؛ وذلك أن كل ذى صنعة لا بدَّ له في معاناتها من مادة جسمية تظهر فيها الصورة، وآلة تؤدي إلى تصويرها، وغرض ينقطع الفعل عنده، وغاية تُستثمر من صنعته .
والكتابة إحدى الصنائع فلا بدَّ فيها من الأمور الأربعة .

فمادتها، الألفاظ التي تحيلها الكاتب في أوهامه، وتصوّر من ضمّ بعضها إلى بعض صورةً باطنة تامة في نفسه بالقوة؛ والخط الذي يخطه القلم، ويقيد به تلك الصوّر . وتصير بعد أن كانت صورة معقولة باطنة صورةً محسوسة ظاهرة . وآلتها القلم . وغرضها الذي ينقطع الفعل عنده تقييد الألفاظ بالرسوم الخطية، فتكفل قوة النطق وتحصل فائدته للأبعد كما تحصل للأقرب، وتحفظ صوره، ويؤمن عليه من التغير والتبدل والضّياع . وغايتها الشيء المستثمر منها، وهي انتظام جمهور المعاون والمرافق العظيمة، العائدة في أحوال الخاصة والعامة بالفائدة الجسمية في أمور الدين والدنيا . ولما كان التقييد بالكتابة هو المطلوب، وقع الحُص من الشارع عليه، والحث على الاعتناء به تنبيهاً على أن الكتابة من تمام الكمال، من حيث إن العمر قصير والوقائع متسعة؛ وما ذا عسى أن يحفظه الإنسان بقلبه أو يحصله في ذهنه .
قال ذو الرمة لعيسى بن عمر : ”أُكْتُبُ شِعْرِي فَالْكِتَابُ أُعْجِبُ إِلَى من الحفظ إن الأعرابي لينسى الكلمة قد سهرت في طلبها ليلة فيضع موضعها كلمة في وزنها لاتساويها، والكتاب لا ينسى ولا يبطل كلاماً بكلام“ .

وقد أطنب السلف في مدح الكتابة والحث عليها فلم يتركوا شأواً لمادح حتى قال سعيد بن العاص: "من لم يكتب فيمينه يسرى". وقال معن بن زائدة: "إذا لم تكتب اليد فهي رجل". وبالغ مكحول فقال: "لادية ليد لا تكتب". قال الجاحظ: ولو لم يكن من فضل الكتابة إلا أنه لا يسجل نبي سجلاً ولا خليفة مرضى ولا يقرأ كتاب على منبر من منابر الدنيا إلا إذا استفتح بذكر الله تعالى وذكر رسوله صلى الله عليه وسلم وذكر الخليفة ثم يذكر الكتاب كما هو مشهور في السجلات التي سجلها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل تجران وغيرهم وأكثرها بخط أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في شرفه ونبله وسابقته ونجدته .

ومن ثم قال المؤيد: "الكتابة أشرف مناصب الدنيا بعد الخلافة؛ إليها ينتهي الفضل، وعندها تقف الرغبة".

ومن كلام أبي جعفر "الفضل بن أحمد" في جملة رسالة "الكتابة أس الملك، وعماد المملكة، وأغصان متفرقة من شجرة واحدة. والكتابة قُطب الأدب، وملاك الحكمة، ولسان ناطق بالفصل، وميزان يدل على رجاحة العقل. والكتابة نور العلم، وفدامة^(١) العقول وديان الفضل والعدل. والكتابة حلية وزينة وليبوس وجمال وهيبة وروح جارية في أقسام متفرقة، والكتابة أفضل درجة وأرفع منزلة، ومن جهل حق الكتابة فقد وسِم بوسم الغواة الجهلة؛ وبالكتابة والكتاب قامت السياسة والرياسة، ولو أن فضلا ونبلاً تصورا جميعا تصورت الكتابة، ولو أن في الصناعات صناعة مريوبة لكانت الكتابة رباً لكل صنعة .

قال صاحب مواد البيان: ومن المعلوم أن جميع الصنائع وسائل إلى درك المطالب ونيل الرغائب، وأن عوائدها متفاضلة في الكثرة والقلة بحسب تفاضلها في الرفعة

(١) من معاني الفدامة المصفاة وهي مناسبة هنا .

والضَّعَّة؛ إذا كان منها ما لا يفي بالبُلْغَة من قِوَام العيش : نحو الصنائع المهيّنة السُّوقِيَّة الداخلة في المرافق العامية، ومنها ما يوصل إلى الثروة ويمجاوز حدَّ الكفاية ويُحظى بالمال والنِّعم الخطيرة وهي الصنائع الخاصَّة، وإذا تُؤمِّل ما هذه صفته منها علِمَ أنه ليس منها ما يلحق بصناعة الكتابة ولا يساويها في هذا النوع، ولا ما يُكسب ما تُكسبه من الفوائد والمعاون مع حصول الرِّفاهِيَّة والتنزّه عن دَنَاءة المكاسب ولا ما يوصل إليه من الحظوية ورفاهية العيش ومشاركة الملوك في اقتناء المساكن الفسيحة، والملابس الرقيقة، والمرائب النبيلة، والدوابّ النفيسة، والخدم المستحسنين وغير ذلك من آلات المروءة والأدوات المملوكية في أقرب المدد وأقلّ الأزمنة؛ وناهيك بذلك من فضل هذه الصناعة وشمرفها وارتفاع خَطَرها وسموّ قَدَرها إذ كان لها سعة لمثل هذه الجدوى التي لا يوجد مثلها في غيرها من الصنائع .

وكفى بالكتابة شرفاً أن صاحب السيف يزاحم الكاتب في قلمه ولا يزاحمه الكاتب في سيفه .

قال في موادّ البيان : "ومن ثمَّ صار السلطان الذي هو رئيس الناس ومستخدِم أرباب كلِّ صناعة ومُصَرِّفهم على أغراضه يفتخر بأن تكون فضيلتها حاصلَةً له مع ترفعه عن التلبس بصناعة من الصنائع الحسنة، وأنفته أن يقع اسمٌ من أسماءها عليه" قال : وذلك أنا نرى كل ملك وسلطان يُؤثر أن يكون له حظ من بلاغة العبارة وجودة الخط، وفي ذلك ما يدل على أنها أشرف الصنائع رتبةً وأعلاها درجة، وأن المشاركين للسلطان فيها ممن تكتنفه سياسته أفضل من سائر المتحايين غيرها من الصنائع الأخر فقد علِم أن الصنائع كلّها معاين ومرافق، لا تنتظم عمارة العالم إلا بتضافرها ومُرافدتها بعضها لبعض . وإنما على خريين : خاصة وعامية، فالعامية صنائع المهنة وأهل الأسواق والحرف وإن شاركهم الخاصَّة في الحاجة إليها لأنَّها تنتظم أمور المعاملات وتعمُر

البلاد؛ والخاصية التي تقع في حيز الملوك والسلاطين، ويتوزعها أعوانهم وأتباعهم؛ وهذه الصنائع إنما يقع التمييز بين أقدارها بالنظر إلى مقدار عائدتها في أمور الملك والسلطان والرعية مما كان معلقا بالأمر الأهم، وكانت الحاجة إليه ألزم، وقدر المنفعة به أحجم، والفساد العائد بوقوع خلل فيه على أسباب المملكة أعظم؛ وممر تبته في الصنائع الخاصة أشرف وألطف .

وليس من الصنائع صناعة تجمع هذه الفضائل إلا صناعة الكتابة، وذلك لأن الملك يحتاج في آتظام أمور سلطانه إلى ثلاثة أشياء لا ينظم ملكه مع وقوع خلل فيها . أحدها رسم ما يجب أن يرسم لكل من العمال والمكاتبين عن السلطان ومخاطبتهم بما تقتضيه السياسة من أمر ونهى، وترغيب، ووعد ووعيد، وإحماد وإذمام . والثاني استخراج الأموال من وجوهها . وأستيفاء الحقوق السلطانية فيها .

والثالث تفريقها في مستحقها من أعوان الدولة وأولياؤها الذين يحجون حوزتها، ويسدون ثغورها ويحفظون أطرافها، ويذبون عنها وعن رعاياها، وغير ذلك من وجوه النفقات الخاصة والعامة؛ ومعلوم أن هذه الأعمال لا يقوم بها إلا الكُتَّاب السلطان ولا سبيل للكُتَّاب إلى الكتابة فيها إلا بالتدبير في صنعة الكتابة، فهي إذن من أشرف الصنائع لعظيم عائدتها على السلطان ودولته . قال الجاحظ : ” من أئین فضلها أن جعلت في عليّة الناس “ قال صاحب موادّ البيان : ” وقد عُرِفَ أن الذين وضعوها وأبتدئوها ورسّموا رسومها هم الأنبياء عليهم السلام “ .

وقد ذكر علماء التاريخ : أن يوسف عليه السلام كان يكتب للعزير، وهارون ويوشع بن نون كانا يكتبان لموسى عليه السلام، وسليمان بن داود كان يكتب لأبيه، وأصف بن برخيا ويوسف بن عتقا كانا يكتبان لسليمان عليه السلام، ويحيى بن زكريا كان يكتب للمسيح عليه السلام .

وقد أنتقل جماعة منها إلى الخلافة . فأبو بكر كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم صارت الخلافة إليه بعد ذلك . وعمّر بن الخطاب كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ثم صارت الخلافة إليه . وعثمان بن عفان كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ثم كتب لأبي بكر بعده ثم صارت الخلافة إليه . ومعاوية كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ثم صارت الخلافة إليه بعد الحسن . ومروان بن الحكم كان يكتب لعثمان بن عفان ثم صار الأمر إليه فيما بعد . وعبد الملك بن مروان كان يكتب لمعاوية بن أبي سفيان ثم انتقل الأمر إليه . إلى غير هؤلاء من أهل هذه الصنعة ممن قرع الذروة العلية من السيادة ، والسّام الباذخ من الرياسة ، على تغير الدول وتنقلها بين العرب والعجم ؛ وفي ذلك ما يدل على علوّ خطرهما ، وأرتفاع قدرها .

قال صاحب العقد وقد تنبّه قوم بالكتابة بعد الحؤول ، وصاروا إلى الرتب العلية ، والمنازل السنية . منهم سرجون بن منصور الرومي كان رومياً خاملاً فرَفَعته الكتابة وكتب لمعاوية ويزيد بن معاوية ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان . ومنهم حسّانُ النَّبَطِيّ كاتب المجلج ، وسالمُ مولى هشام بن عبد الملك ، وعبد الحميد الأكبر ، وعبد الصمد ، وجبلة بن عبد الرحمن ، وقحذم جدّ الحجاج بن هشام القَحْدَمِيّ ، وهو الذي قلب الدواوين من الفارسية إلى العربية ، والربيع ، والفضل بن الربيع ، ويعقوب بن داود ، ويحيى بن خالد ، وجعفر بن يحيى ، وآبن المقفّع ، والفضل بن سهل ، وجعفر بن الأشعث ، وأحمد بن يوسف ، وآبن عبد السلام الحُنْدَيْسِيّ البوريّ ، وأبو جعفر محمد بن عبد الملك الزيات ، والحسن بن وهب ، وإبراهيم بن العباس ،

(١) في العقد الفريد جدّ الوليد بن هشام .

ونجاح بن سلامة، وأحمد بن عبد العزيز، وزاد صاحب الريحان والربيعان : مروان^(١) ابن الحكم، وعبد الملك بن مروان . قلت : وهؤلاء بعض من شرفته الكتابة ورفعت قدره . ولو أعتبر من شرف بالكتابة وارتفع قدره بها لفاتوا الحصر وخرجوا عن الحد . وهذا الوزير المهلب كان في أول أمره في شدة عظيمة من الفقر والضائقة، وكان قد سافر مرة ولقى في سفره ضيقة حتى اشتبهى اللحم ولم يقدر عليه فقال أرتجالا :

أَلَا مَوْتُ يَسَاعُ فَأَشْتَرِيهِ ! * فِهَذَا الْعَيْشُ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ !
 أَلَا مَوْتُ لَذِيذُ الطَّعْمِ يَأْتِي * يُحَلِّصُنِي مِنَ الْمَوْتِ الْكَرِيهِ !
 أَلَا رِحْمَ الْمُهَيِّمِ نَفْسَ حُرٍّ * تَصَدَّقُ بِالْوَفَاةِ عَلَى أَخِيهِ !

وكان معه رفيق له فاشترى لحما وأطعمه . ثم ترقى بالكتابة حتى وُزِّرَ لمعز الدولة ابن بويه الديلمي في جلالة قدره . وهذا القاضي الفاضل أصله من بيسان من غير بيت الوزارة رفعت كتابته حتى وُزِّرَ للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وعلت رتبته عنده حتى بلغ من رتبته لديه أن كان يكتب في كتب السلطان صلاح الدين عن نفسه بما أحب، فكتب مرة السلام على الملك العزيز ابن السلطان صلاح الدين في كتاب عن أبيه، ثم كتب شعرا منه .

وغيرية قد جئت فيها أولا * ومن اقتفاها كان بعدي الثاني
 فرسولي السلطان في إرسالها * والناس رسلهم إلى السلطان

وأبلغ من ذلك كله أبو إسحاق الصابي صاحب الرسائل المشهورة، كان على دين الصابئة مشددا في دينه، وبلغت به الكتابة إلى أن تولى ديوان الرسائل عن الطائع

(١) أي فيمن نهبوا بالكتابة . وأما عدما السابق ففي المكتوب لهم .

والمطيع وعن الدولة بن بويه : وجَّهَ فيه عن الدولة أن يسلم فلم يقع له ؛ ولما مات
رثاه الشريف الرضي بقصيدة فلامه الناس لكونه شريفا يرثى صابئيا ، فقال : انما
رثيت فضله .

قال في مواد البيان : ”ولا عبرة بمن قعد به الجُدُّ ، وتخلَّف عنه الحَظُّ من أهل هذه
الصناعة ؛ إذ العبرة بالأكثر لا بالقليل النادر . على أن المبرِّز في هذه الصناعة إن قعدتْ
به الأيام في حالٍ فلا بد أن يُرْفَعَ قدرُه في أخرى : لأنَّ دَوْلَةَ الفاضل من الواجبات ،
ودَوْلَةَ الجاهل من الممكنات ؛ خصوصا إذا صادف الكاتبُ الفاضلُ ملكا فاضلا
أورئيسا كاملا ، فإنه يوفيه حقه ويرقيه إلى حيثُ استحقاقه . فن كلام بعض
الحكماء : تسقط الحظوظ في دولة الملك الفاضل فلا يتسمُّ الرتبة العلية إلا مستوجبها
بالفضيلة .

وبالجملة ففضل الكتابة أكثر من أن يُحصى وأجل من أن يُستقصى ؛ وانما حرمت
الكتابة على النبي ، صلى الله عليه وسلم ! ردًا على الملحدين حيثُ نسبوه إلى الاقتباس
من كتب المتقدمين كما أخبر تعالى بقوله ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى
عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ وأكد ذلك بقوله ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحِطُّهُ
بَيِّنَاتٌ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ .

وقد كان ، صلى الله عليه وسلم ! يأتي من القصص والأخبار الماضية من غير
مُدَارسة ولا نظر في كتاب بما لا يعلمه إلا النبي ، كما روى أن قرئنا بمكة وجَّهت
إلى اليهود : أن عَرَفُونَا شَيْئًا نَسْأَلُهُ عَنْهُ ؛ فبَعَثُوا إِلَيْهِمْ أَنْ سَأَلُوهُ عَنْ أَنْبِيَاءِ آخِذُوا
أَحَدَهُمْ فَرَمُوهُ فِي بئرٍ وَبَاعُوهُ ، فسألوه فزلت سورة يوسف جملة واحدة بما عندهم
في التوراة وزيادة .

قال العتبي : "الأمية في رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ! فضيلة وفي غيره تقيصة لأن الله تعالى لم يعلمه الكتابة لتمكّن الإنسان بها من الحيلة في تأليف الكلام ، وأستنباط المعاني فيتوسل الكفّار إلى أن يقولوا آقتدر بها على ما جاء به" .

قال صاحب موادّ البيان : "وذلك أن الإنسان يتوصل بها إلى تأليف الكلام المنشور وإخراجه في الصّور التي تأخذ بمجامع القلوب ؛ فكان عدم علمه بها من أقوى الحجج على تكذيب معانديه ، وحسم أسباب الشك فيه" .

وقد حكى أبو جعفر النّحاس : أن المأمون قال لأبي العلاء المنقري "بلغني أنك أمي ، وأنتك لا تقيم الشعر ، وأنتك تلحن في كلامك" فقال : "يا أمير المؤمنين ! أما اللحن فربما سبقني لساني بالشيء منه ؛ وأما الأمية وكسر الشعر فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمياً وكان لا ينشد الشعر" . فقال له المأمون : "سألتك عن ثلاثة عيوب فيك فزدتني رابعا وهو الجهل ؛ يا جاهل ! ذلك في النبي ، صلى الله عليه وسلم ! فضيلة وفيك وفي أمثالك تقيصة" .

قال الجاحظ : "وكلام أبي العلاء المنقري هذا من أوامد ما تكلم به الجهال" .
على أن أصحابنا الشافعية رحمهم الله قد حكوا وجهين في أنه صلى الله عليه وسلم هل كان يعلم الكتابة أم لا وصححوا أنه لم يكن يعلمها معجزة في حقه كما تقدم .
قال أبو الوليد الباجي من المالكية : "ولو كتب ، صلى الله عليه وسلم ! لكان معجزة نخرق العادة . قال : وليست بأول معجزاته صلى الله عليه وسلم !" .

وإذا كانت الكتابة من بين سائر الصناعات بهذه الرتبة الشريفة والذروة المنيفة ، كان الكتاب كذلك من بين سائر الناس . قال الزبير بن بكار : "الكتاب ملوك وسائر الناس سوقة" . وقال ابن المقفع : "الملوك أحوج إلى الكتاب من الكتاب إلى الملوك" .
ومن كلام المؤيد "كتاب الملوك عيونهم المبصرة ، وأذانهم الواعية ، وألسنتهم الناطقة" .

وكانت ملوك الفرس تقول: "الكتاب نظام الأمور، وجمال الملك، وبهاء السلطان
وخران أمواله، والأمناء على رعيته وبلاده وهم أولى الناس بالحباء والكرامة، وأحقهم
بمجة السلام".

ومن كلام أبي جعفر الفضل بن أحمد "للكتاب أقرت الملوك بالفاقة والحاجة،
وإليهم ألقيت الأمانة والأزمة، وبهم اعتصموا في النازلة والنكبة، وعليهم أتكلوا
في الأهل والولد والذخائر والعقد وولاية العهد وتدير الملك وقراع الأعداء، وتوفير
الفيء، وحياطة الحريم، وحفظ الأسرار، وترتيب المراتب، ونظم الحروب".

قال في مواد البيان: "وما من أحد يتوسل إلى السلاطين بالأدب، ويمت إليهم من
العلم بسبب، إلا وهو باقله لا ينول ما يتولاه إلا على وجه الإرفاق، خلا الكاتب فإنه يتول
الريائب العظيمة من طريق الاستحقاق، لموضع الافتقار إليه والحاجة؛ ومن المعلوم
أنه لا بد من واسطة تقوم بين الملوك والرعية بعد ما بين الطبقتين: العليا والدنيا، وليس
من طبقات الناس من يساهم الملوك في جلاله القدر وعظيم الخطر، ويشارك العامة
في اتواضع والاقتصاد سوى الكتاب فاحتيج إليهم للسفارة في مصالح الرعية عند
السلاطين، واستيفاء حقوق السلاطين من الرعية والتلطف في الصلة بينهما". قال:
"ولعلم الملوك بخطر هذه الصناعة وأهلها وعائنتها في أمور السلطان صرفوا العناية
إلى الكتبة وخصوهم بالحظوة وعرفوا لهم فضل ما جمعوه من الرأي والصناعة،
وكانت ملوك الفرس لرفعة رتبة الكتابة عندهم تجمع أحداث الكتاب ونواشئهم
المعترضين لأعمال الملك ويأمرون رؤساء الكتابة بامتحانهم فمن رضى أقر بالباب
ليستعان به، ثم يأمر الملك بضمهم إلى العمل، واستعمالهم في الأعمال، وينقلهم
في الخدم على قدر طبقاتهم من حال إلى حال حتى ينتهي بكل واحد منهم إلى

ما يستحقه من المنزلة ، ثم لا يمكن أحد من عرض اسمه على الملك من الخدمة عند أحد إلا بأذن الملك .

وفي عهد سابور - "ولكن كاتبك مقبول القول عندك ، رفيع المنزلة لديك ، يمنع مكانه منك وما يظن به من لطافة موضعه عندك من الضراعة لأحد والمداهنة له ، ليحملة ما أوليته من الإحسان على محض النصيحة لك ، ومناجاة من أراد عيبك وانتقاص حرك". ولم يكن يركب الهاليج في أيامهم إلا الملك والكاتب والقاضي .

قلت : ولشرف الكتابة وفضل الكتاب صرف كثير من أهل البلاغة عنايتهم إلا وضع رسائل في المفاخرة بين السيف والقلم ، إشارة إلى أن بهما قوام الملك وترتيب السلطنة ، بل ربما فضل القلم على السيف ورجح عليه بضروب من وجوه الترجيح كما قال بعضهم مفضلاً للقلم بقسم الله تعالى به :

ان أفتخر الأبطال يوماً بسيفهم * وعدوه مما يكسب المجد والكرم
كفى قلم الكتاب عزاً ورفعة * مدى الدهر أن الله أقسم بالقلم
وكما قال ابن الرومي :

إن يخدم القلم السيف الذي خضعت * له الرقاب ودانت خوفه الأمم
فالموت ، والموت لاشيء يغالبه ، * ما زال يتبع ما يجرى به القلم
كذا قضى الله للأقلام مذبريت * أن السيوف لها مذأرهفت خدم

والمعنى في ذلك أنها تؤثر في إرهاب العدو على بُعد السيوف لا تؤثر إلا عن قرب مع ما فضل به القلم من زيادة الجدوى والكرم ، وإلى ذلك يشير بعضهم بقوله مشيراً للقلم

فلكم يقل الجيش ، وهو عزم ، * والبيض ما سلت من الأعماد
وهبت له الآجام حين نشأها * كرم السيل وصوله الآساد

الفصل الثاني

(في مدح فضلاء الكتاب وذم حقايم)

أما فضلاء الكتاب فلم يزل الشعراء يلهمون بمدح أشراف الكتاب وتقريظهم
ويتغالبون في وصف بلاغاتهم وحسن خطوطهم . فمن أحسن ما مدح به كاتب
قول ابن المعتز :

إِذَا أَخَذَ الْقِرطَاسَ خَلَّتْ يَمِينُهُ * تَفْتَحُ نُورًا أَوْ تُنظِّمُ جَوْهَرًا

وقول الآخر :

يُؤَلِّفُ اللُّؤْلُؤَ الْمَشْهُورَ مَنْطِقُهُ * وَيُنْظِمُ الدَّرَّ بِالْأَقْلَامِ فِي الْكُتُبِ

وقول الآخر :

وَكَاتِبٌ يَرْقُمُ فِي طَرِيسِهِ * رَوْضًا بِهِ تَرْتَعُ الْحَاظُهُ
فَالدَّرُ مَا تَنْظِمُ أَقْلَامُهُ * وَالسَّحْرُ مَا تَنْشُرُ الْفَاطُهُ

وقول الآخر :

إِنْ هَزَّ أَقْلَامُهُ يَوْمًا لِيُعْمَلَهَا * أَنْسَاكَ كُلَّ كَيِّْ هَزَّ عَامِلَهُ
وَإِنْ أَقَرَّ عَلَى رَقٍّ أَنْامِلُهُ * أَقَرَّ بِالرَّقِّ كُتَّابُ الْأَنَامِ لَهُ

وقول الآخر :

لَا يُخْطِرُ الْفِكْرَ فِي كِتَابَتِهِ * كَأَنَّ أَقْلَامَهُ لَهَا خَاطِرُ
الْقَوْلِ وَالْفِعْلُ يَجْرِيانِ مَعًا * لَا أَوَّلُ فِيهِمَا وَلَا آخِرُ

وقول الآخر :

وَشَادِنٍ مِنْ بَنِي الْكُتَّابِ مُقْتَدِرٍ * عَلَى الْبَلَاغَةِ أَحْلَى النَّاسِ لِإِنشَاءِ
فَلَا يُجَارِيهِ فِي مِيدَانِهِ أَحَدٌ * يُرِيكَ سَحْبَانَ فِي الْإِنشَاءِ إِنْ شَاءَ

وكذلك أولعوا بدمم حتى الكُتاب ولهجوا بهجوههم في كل زمن .
فمن ذلك قول بعض المتقدمين يهجو كاتباً :

حمارٌ في الكتابة يدعيها * كدعوى آل حربٍ في زياد
فدع عنك الكتابة لست منها! * ولو غرقت ثيابك في المداد

وقول الآخر :

وكانت كُتبه تُدكرني القُرءان حتى أظلل في عجب
فاللفظ "قالوا قلوبنا غلغ" . * والخط "تبت يدا أبي لَب"

وقول الآخر :

يعي غير ما قلنا ويكتب غير ما * يعيه ويقرا غير ما هو كاتب

وقول الآخر :

وكانت أعلامه * معودات بالغلط
يكشط ما يكتبه * ثم يعيد ما كشط

وقول ابن أبي العيناء يهجو أسد بن جهور الكاتب .

أوما ترى أسد بن جهور قد غدا * منسبها بأجله الكُتاب؟
لكن يُخرق ألف طومارٍ إذا * ما أحتج منه إلى جوابِ كتاب

وقد أكثر الناس من الحكايات المضحكة عن هذا النوع من الكُتاب مما صاروا
به هزواً على ممر الزمان وتعاقب الأيام . كما حكى عن محمد بن يحيى الكاتب أنه قرأ
على بعض الخلفاء كتاباً يذكروه حاضرياً فصحفه حاضرياً فسخر منه أهل المجلس .

ويروى إن كُتاب الدواوين ألزموا بعض العمال مآلاً مخرجاً عليه فبعث بحسابه إلى
عبيد الله بن سليمان فوقع عليه "هذا هذا" ورد الحساب إلى العامل فقدر العامل

بضعف آدابه أنه صحح حجتَه وقبِل الحساب منه كما يقال في تثبت الشيء هو هو وأخرج التوقيع إلى الكُتَّاب وناظرهم على أن ذلك يوجب إزالة المال الذي لزمه عنه فلم يفهم أحد منهم ما أراد عبيد الله بن سليمان فردَّ التوقيع إلى عبيد الله فلم يزدَه في الجواب على أن شدد الكلمة الأخيرة ووقع تحتها "الله المستعان" إعلاماً له أن لفظ هذا بالنشيد بمعنى الهديان .

وحكى العباس بن أسد : أن أبا الحسن علي بن عيسى كتب إلى أبي الطيب أحمد بن عيسى كتاباً من مكة فقرأه ثم رمى به إلى فقال : اقرأ . فقرأت : كتابي إليك يوم القتر ، بالرفع . فقال : ما معنى يوم القتر ؟ فقلت : القتر البرد فقال : إنما هو يوم القتر بالفتح ، حين يقرّ الناس بمئى ، وهو اليوم الثانى من النحر . ومثل ذلك كثير .

قال صاحب نهاية الأرب : "وقد اتسع الخرق في ذلك ودخل في الكتابة من لا يعرفها البتة ، وزادوا عن الإحصاء ، حتى إن فيهم من لا يفرق بين الضاد والطاء . قال : ولقد بلغنى عن بعض من أدخل نفسه في الكتابة وتوسّل إلى أن كتب في ديوان الرسائل : أنه رُسم له بكتاب يكتبه في حق رجل اسمه طرنطاي فقال لكتّاب إلى جانبه طرنطاي يكتب بالساقط أو بالقائم . قال : وصار الآن حدّ الكاتب عند هؤلاء الجهال أنه يكتب على المجود مدة ويتقن بزعمه أسطرا فاذا رأى من نفسه أن خطه قد جاد أدنى جودة أصلح بزّته ، وركب برّذونه أو بغلته ، وسعى في الدخول إلى ديوان الإنشاء والأنضمام إلى أهله ؛ ولعل الكتابة إنما يحصل ذمها بسبب هؤلاء وأمثالهم . والله دتر القائل !

تعبس الزمان ! فقد أتى بعجاب^(٢) * ومحا فنون الفضل والآداب
وأتى بكتّاب لو أنبسطت يدي * فيهم رددتهم إلى الكُتَّاب^(١)

(١) في ضوء الصبح (من مئى) .

(٢) في الأصل بعجاب وقد اخترنا رواية الضوء .

قلت : وإنما تقاصرت الهمم عن التوغل في صناعة الكتابة والأخذ منها بالخط الأوفى لاستيلاء الأعاجم على الأمر، وتوسيد الأمر لمن لا يفرق بين البليغ والأنوك لعدم إلمامه بالعربية والمعرفة بمقاصدها، حتى صار الفصح لديهم أعجم، والبليغ في مخاطبتهم أبكم؛ ولم يسع الآخذ من هذه الصناعة بحظ إلا أن ينشد :

وَصِنَاعَتِي عَرَبِيَّةٌ وَكَأَنِّي * أَلْقَى بَاكَتَرٍ مَا أَقُولُ الرُّومَا
فَلِمَنْ أَقُولُ؟ وَمَا أَقُولُ؟ وَأَيْنَ لِي؟ * فَاسِيرًا، لَا بِلِ أَيْنَ لِي فَأُقِيمَا؟

وقد حكى أبو جعفر النحاس عن بعضهم أنه قال : حضرت مجلس رجل فأجمتُ عن مسألة حاجتي لكثرة جمعه، فرأيتُه وقد أملى على كاتبه ”ولم أكتب بخطي إليك خوفا من أن تقف على رداوته“ فكتب كاتبه ”رداءته“ على ما يجب فقال: أما تحسن الهجاء؟ أين الواو؟ فأثبتها الكاتب فحس حينئذ في عيني، فأجترأت عليه فدنوت منه وسألته حاجتي .

وحكى صاحب ذخيرة الكتاب عن بعض الوزراء : أنه تقدم إلى كاتبه بأن يكتب ألقاب أمير ليثبتها على بُرج أنشأه فكتب ”أمر بعمارة هذا البرج أبو فلان فلان“ وأستوفى ألقابه إلى آخرها، ودفَع المثل إلى الوزير ليوقف عليه فلما قرأه غضب حتى ظهر الغضب في وجهه ، وأنكر على الكاتب كونه كتب أبو فلان بالواو ولم يكتب أبى فلان بالياء محتجا عليه بأن أبو من ألقاب العامة فلا تعظيم بها . فقال الكاتب : إن الحال اقتضت رفعه من حيث إنه في هذا الموضع فاعل؛ فزاد إنكاره عليه وقال : متى رأيت الأمير فاعلا في هذا الموضع يحمل الطين وينقل الحجارة على رأسه حتى تنسبه إلى هذا؟ والله لولا سالف خدمتك لفعلت بك ! .

(١) في الأصل أعجما . . . أبكا .

قال ابن حاجب النعمان: ولما كان أرباب الأمور وولاتها من الخلفاء فمن دونهم يتقدمون ما يكتب به الكتاب عنهم وما يرد عليهم من الكتب، ويناقشون على ما يقع فيها من خطأ أو يدخلها من خلل، ويقدمون الفاضل ويرفعون درجته، ويؤخرون الجاهل ويحطون رتبته، كان الكتاب حينئذ يتبارون على اقتناء الفضيلة. ويترفعون عن أن يعلق بهم من الجهل أدنى رذيلة. ويجهدون في معرفة ما يحسن ألفاظهم، ويزين مكاتبتهم، لينالوا بذلك أرفع رتبة، ويفوزوا بأعظم منزلة.

ولما انعكست القضية في تقديم من غلط بهم الزمان. وغفل عنهم الحدثان. وأستولت عليهم شرّة الجهل. ونفرت منهم أوانس الرياسة والفضل. وصار العالم لديهم حشفاً، والأديب محارفاً، والمعرفة منكراً، والفضيلة منقصة، والصمت لُكنه، والفصاحة هُجّنة، أجتنبت الآداب آجتنب المحارم، وهُجرت العلوم هُجرت المآثم. ولو أنصف أحدهؤلاء الجهّال، لكان بالحشَف أولى، وبالحرُفة والمنقصة أجدر وأحرى، لكنه جهل الواجبات وأضاعها. وسَفِه حقَّ المروءة وأفسد أوضاعها^(١) ويوصف بالحيّ الناطق، والصامت أُرجى منه عند أهل النظر وذوى الحقائق.

الباب الثاني

من المقدمة

في ذكر مدلول الكتابة لغة وأصطلاحاً؛ وبيان معنى الإنشاء وإضافة الكتابة إليه؛ ومرادفة لفظ التوقيع لكتابة الإنشاء في عرف الزمان، والتعبير عنها بصناعة الترسُّل؛ وتفضيل كتابة الإنشاء على سائر أنواع الكتابة وترجيح النثر على الشعر؛ وفيه ثلاثة فصول.

(١) في الأصل وأوضاعها بواو زائدة وهي من زيادة الناصح كما هو ظاهر.

الفصل الأول

في ذكر مدلولها وبيان معنى الإنشاء وإضافتها إليه ومرادفة التوقيع لكتابة
الإنشاء في عُرف الزمان، والتعير عنها بصناعة الترسل

الكتابة في اللغة مصدر كتب يقال كتب كُتِبَ وكتبا وكتاباً وكتابةً ومكتبةً وكتبةً
فهو كاتب ومعناها الجمع، يقال تكتبت القوم إذا اجتمعوا، ومنه قيل لجماعة الخيل
كتيبة، وكتبت البغلة إذا جمعت بين شفرها بحلقه أوسير ونحوه، ومن ثم سمي
الخط كتابة لجمع الحروف بعضها إلى بعض كما سمي خرز القرية كتابةً لضم بعض
الخرز إلى بعض. قال ابن الأعرابي: وقد تطلق الكتابة على العلم ومنه قوله تعالى
(أَمْ عِنْدَهُمُ الْعَيْبُ فَمَهُمْ يَكْتُبُونَ) أي يعلمون. وعلى حد ذلك قوله صلى الله عليه
وسلم في كتابه لأهل اليمن حين بعث إليهم معاذ وغيره "إِنِّي بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ كَاتِبًا".
قال ابن الأثير في غريب الحديث "أراد عالماً سمي بذلك لأن الغالب على من كان
يعلم الكتابة أن عنده عالماً ومعرفةً وكان الكاتب عندهم قليلاً وفيهم عزيزاً".

أما في الاصطلاح فقد عرّفها صاحب موادّ البيان: بأنها صناعة رُوحانية تظهر
باله، جُمَانِيَّةٌ، دالّةٌ على المراد بتوسط نظمها. ولم يبين مقاصد الحد ولا ما دخل فيه
ولا ما خرج عنه، غير أنه فسّر في موضع آخر معنى الرُوحانية فيها بالألفاظ التي يتخيلها
الكاتب في أوهامه ويصور من ضم بعضها إلى بعض صورةً باطنة قائمة في نفسه.
والجُمَانِيَّةُ بالخط الذي يُحطّه القلم وتقيد به تلك الصورة وتصير بعد أن كانت صورةً
معقولةً باطنة صورةً محسوسةً ظاهرة. وفسر الآلة بالقلم وبذلك يظهر معنى الحد
وما يدخل فيه ويخرج عنه، ولا شك أن هذا التحديد يشمل جميع ما يُسَطَّره القلم
ما يتصوره الذهن ويتخيله الوهم فيدخل تحته مطلق الكتابة كما هو المستفاد من

المعنى اللغوي. على أن الكتابة، وإن كثرت أقسامها وتعددت أنواعها، لا تخرج عن أصلين : هما كتابة الإنشاء، وكتابة الأموال وما في معناهما على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

إلا أن العرف فيما تقدم من الزمان قد خصّ لفظ الكتابة بصناعة الإنشاء حتى كانت الكتابة إذا أُطلقت لا يُراد بها غير كتابة الإنشاء والكتاب إذا أُطلق لا يراد به غير كتابها حتى سُمي العسكري كتابه "الصناعتين الشعر والكتابة" يريد كتابة الإنشاء، وسُمي ابن الأثير كتابه "المثل السائر، في أدب الكاتب والشاعر" يريد كاتب الإنشاء إذ هما موضوعان لما يتعلق بصناعة الإنشاء من علم البلاغة وغيرها .

ثم غلب في زماننا بالديار المصرية اسم الكاتب على كاتب المال حتى صار الكاتب إذا أُطلق لا يُراد به غيره وصار لصناعة الإنشاء اسمان : خاص يستعمله أهل الديوان ويتلفظون به وهو كتابة الإنشاء، وعام يتلفظ به عامة الناس وهو التوقيع . فأما تسميتها بكتابة الإنشاء فتخصيص لها بالإضافة إلى الإنشاء الذي هو أصل موضوعها وهو مصدر أنشأ الشيء إذا ابتدأه أو اخترعه على غير مثال يحتذيه، بمعنى أن الكاتب يخترع ما يؤلفه من الكلام ويتكره من المعاني فيما يكتبه من المكاتبات والولايات وغيرها أو أن المكاتبات والولايات ونحوها تنشأ عنه .

وأما تسميتها بالتوقيع فأصله من التوقيع على حواشي القصص وظهورها كالتوقيع بخط الخليفة أو السلطان أو الوزير أو صاحب ديوان الإنشاء أو كُتاب الدست ومن جرى مجراهم بما يعتمد في القضية التي رُفعت القصة بسببها، ثم أُطلق على كتابة الإنشاء جملة .

قال ابن حاجب النعمان في ذخيرة الكُتاب : ومعناه في كلام العرب التأثير القليل الخفيف، يقال : جنب هذه الناقة موقّع إذا أثرت فيه حبال الأحمال تأثيراً خفيفاً.

وحكى أن أعرابية قالت لجارتها "حديثك تزويج وزيارتك توقيح" تريد أن زيارتها خفيفة. قلت: ويحتمل أن يكون من قولهم وَقَعَ الأمر إذا حَقَّ ولزِمَ ومنه قوله تعالى (وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا) أى حَقَّ، أو من قولهم وَقَعَ الصَّيْقُلُ السيف إذا أقبل عليه بميقته يجلوه لأنه بتوقيعه فى الرقعة يجلو اللبس بالإرشاد إلى ما يُعتمد فى الواقعة، أو من مَوْقَعَة الطائر - وهى المكان الذى يألفه من حيث إن الموقَّع على الرقعة يألف مكاناً منها يُوقَّع فيه كحاشية القصة ونحوها، أو من الموقعة بالتسكين - وهو المكان المرتفع فى الجبل لارتفاع مكان الموقَّع فى الناس وعلو شأنه أو غير ذلك .

وجه إطلاقه على كتابة الإنشاء أنه قد تقسم أن التوقيع فى الأصل اسم لما يُكتب على القصاص ونحوها وسيأتى أن ما يكتب من ديوان الإنشاء من المكاتبات والولايات ونحوها إنما يبنى على ما يخرج من الديوان من التوقيع بخط صاحب ديوان الإنشاء أو تُكتب الدست ومن فى معناهم؛ وحينئذ فىكون التوقيع هو الأصل الذى يبنى عليه المنشىء، وقد يكون سُمى بأصله الذى نشأ عنه مجازاً، وقد يعبر عنها بصناعة الترسُّل تسميةً للشئ بأعم أجزائه إذ الترسُّل والمكاتبات أعظم كتابة الإنشاء وأعمها من حيث إنه لا يستغنى عنها ملك ولا سُوقَةٌ، بخلاف الولايات فإنها مختصة بأرباب المناصب العلية دون غيرهم؛ وعلى ذلك بنى الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله تسمية كتابه "حُسن التوسُّل، إلى صناعة الترسُّل".

(١) عبارة اللسان والقاموس والواقع بالتسكين المكان المرتفع من الجبل . فلعل ما فى الأصول من تصحيف

الفصل الثاني

(في تفضيل كتابة الإنشاء على سائر أنواع الكتابة)

قد تقدم في الفصل الذي قبله أن الكتابة وإن كثرت أقسامها وتعددت أنواعها لاتخرج عن أصلين : كتابة الإنشاء ، وكتابة الأموال .

فأما كتابة الإنشاء فالمراد بها كل ما رجع من صناعة الكتابة إلى تأليف الكلام وترتيب المعاني : من المكاتبات والولايات والمسامحات والاطلاقات ومناشير الأقطاعات والمُهدن والأمانات والأيمان وما في معنى ذلك ككتابة الحكم ونحوها .

وأما كتابة الأموال فالمراد بها كل ما رجع من صناعة الكتابة إلى تحصيل المال وصرفه وما يجري مجرى ذلك ككتابة بيت المال والخزائن السلطانية ، وما يُجىء إليها من أموال الخراج وما في معناه ، وصرف ما يصرف منها من الجارى والتنفقات وغير ذلك ، وما في معنى ذلك ككتابة الجيوش ونحوها مما ينبجّر القول فيه إلى صنعة الحساب ، ولا شك أن لكل من النوعين قدرًا عظيمًا وخطراً جسيماً ، إلا أن أهل التحقيق من علماء الأدب ما برحوا يرجحون كتابة الإنشاء ويفضلونها ويميزونها على سائر الكتابات ويقدمونها ، ويحتجون لذلك بأمور .

منها أن كتابة الإنشاء مستلزمة للعلم بكل نوع من الكتابة ، ضرورة أن كاتب الإنشاء يحتاج فيما يكتبه من ولاياته ومكاتباته مما يتعلق بكتابة الأموال إلى أن يمثل لهم في وصاياه من صناعتهم ما يعتمدونه ، ويبين لهم ما يأتونه ويذرونه ، فلا بد أن يكون عالماً بصناعة من يكتب له . بخلاف كاتب الأموال فإنه إنما يعتمد على رسوم مقررة وأموذجات محتررة لا يكاد يخرج منها ، ولا يحتاج فيها إلى تغيير ولا زيادة ولا نقص .

ومنها أشتَمَلُ كتابة الإنشاء على البيان الدال على لطائف المعاني التي هي زُبد الأفكار وجواهر الألفاظ، التي هي حلية الألسنة، وفيها يتنافس أصحاب المناصب الخطيرة، والمنازل الجليلة، أكثر من تنافسهم في الدرّ والجوهر .

ومنها ما تستلزمه كتابة الإنشاء من زيادة العلم، وغزارة الفضيلة، وذكاء القريحة، وجودة الروية : لما يحتاج إليه من التصرف في المعاني المتداولة والعبارة عنها بالألفاظ غير الألفاظ التي عبر بها من سبق إلى استعمالها مع حفظ صورتها وتأديتها إلى حقائقها؛ وفي ذلك من المشقة ما لا يخفاء فيه على من مارس الصناعة، خصوصاً إذا طلب الزيادة والعلو على من تقدمه في استعمالها، أو حداً حدّورسوم المبرزين الذين يتحلون الكلام ويوقعونه مواقع مع مراعاة رشاقة اللفظ، وحلاوة المعنى، وبلاغته ومناسبته مع ما يحتاجه من اختراع المعاني الأبيكار للأمور الحادثة التي لم يقع مثلها، ولا سبق سابق إلى كتابتها - لأن الحوادث والوقائع لا تنتهي ولا تقف عند حد .

ومن هنا تنقص الوزير ضياء الدين بن الأثير في المثل السائر المقامات الحريية وأزدرها جانحاً إلى أنها صور موضوع في قوالب حكايات مبنية على مبدأ ومقطع بخلاف الكتابة فإن أهوالها غير متناهية؛ ولوروعى حال ما يكتبه الكاتب في أدنى مدة لكان مثل المقامات مرات .

ومنها اختصاص كاتب الإنشاء بالسلطان وقربه منه وإعظام خواصه وأعمادهم في المهمات عليه، مع كونه أحرز بالسلامة من أرباب الأقلام المتصرفين في الأموال .

وقد قال بعض الحكماء : الكتاب كالجوارح كل جارحة منها ترغد الأخرى في عملها بما به يكون فعلها، وكاتب الإنشاء بمنزلة الروح المازجة للبدن المدبرة لجميع جوارحه وحواسه .

(١) لعله مصحف عن أجدر أو أخرى - كما سيأتي له بعد .

قال في موادّ البيان "ولا شك في صحة هذا التمثيل : لأنّ كاتب الإنشاء هو الذى يمثل لكل عامل في تقليده ما يعتمد عليه ويتصفح ما يرد منه ويصرفه بالأمر والنهى على ما يؤدى إلى استقامة ماعدق به ، وهو حلية المملكة وزينتها لما يصدر عنه من البيان الذى يرفع قدرها ، ويعلي ذكراها ، ويعظم خطرها ، ويدل على فضل ملكها ، وهو المتصرف عن السلطان في الوعد والوعيد ، والترغيب ، والإحماذ والإذمات ، وأقتضاب المعانى التى تُقتر الوالى على ولايته وطاعته ، وتعطف العدو العاصى عن عداوته ومعصيته . على أن بعض المتعصبين قد ربح كتابة الأموال على كتابة الإنشاء بمغالطات أوردتها ، وتزويرات زخرفها وتمقها ، لا تخفى على متأمل ، ولا تنغى على ذى ذهن سليم .

وقد أورد الحريرى في "المقامة الثانية والعشرين" المعروفة بالقراتية ألفاظا قلائل في المفاخرة بين كتابتى الإنشاء والأموال فقال على لسان أبى زيد السروجى .

"اعلموا أنّ صناعة الإنشاء أرفع ، وصناعة الحساب أنفع ، وقلم المكاتبه خاطب ، وقلم المحاسبة حاطب ، وأساطير البلاغة تُسَخ لتُدرس ، ودساتير الحُسابات تنسخ وتُدرس ، والمنشى جُهينة الأخبار ، وحقية الأسرار ، ونجى العطاء ، وكبير الندماء ؛ وقلمه لسان الدولة ، وفارس الحولة ، ولقمان الحكمة ، وترجمان الهمة ، وهو البشير والندير ، والشفيع والسفير ؛ به تُستخلص الصياصى ، وتملك النواصى ، ويُقتاد العاصى ، ويُستدنى القاصى ؛ وصاحبه برىء من التيجات ، آمن كيد السعات ، مقرظ بين الجماعات ، غير معترض لنظم الجماعات .

ثم عقب كلامه بأن قال :

(١) فى الضوء عزق بالعين المهملة والزاي وهو المناسب ولعل ما فى الاصل تصحيف .

”إلا أن صناعة الحسَاب موضوعَةٌ على التحقيق، وصناعة الإنشاء مبنيةٌ على التلْفِيقِ، وقلم الحاسب ضابط، وقلم المنشىء خابط، وبين إتَاوةِ توظيفِ المعاملات، وتلاوةِ طوامير السّجّلات، بون لا يُدرّكه قياس، ولا يعْتوره التباس؛ إذ الإِتَاوةُ تملأ الأيكاس، والتلاوة تفرغ الراس، وخرّاج الأورج يُغني الناظر، وأستخراج المّدارج يعنى الخاطر.

ثم إن الحسبة حفظة الأموال، وحملة الأثقال؛ والنقابة الأثبات، والسفرة الثقات، وأعلام الإنصاف والانتصاف، والشهود المقانع في الاختلاف؛ ومنهم المستوفى الذى هو يد السلطان، وقطب الديوان، وقسطاس الأعمال، والمهيم على العمال، وإليه المال فى السلم والهرج، وعليه المدار فى الدخل والخرج؛ وبه مناط الضر والنفع، وفى يده رباط الإعطاء والمنع؛ ولولا قلم الحسَاب، لأودت ثمره الأكتساب، ولا تصلّ التغابن إلى يوم الحساب؛ ولكان نظام المعاملات محلولاً، وجرح الظلمات مطلولاً، وجيد التناصف مغلولاً، وسيف النظام مسلولاً. على أن يراع الإنشاء متقول، ويراع الحساب متأول، والحاسب مناقش، والمنشىء أبو براقيش؛ ولكلّهما حمة حين يرقى، إلى أن يلقى ويرقى، وإعنات فيما ينشأ، حتى يغشى ويرشى ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾.

قلت : وقد أوردت فى المقامة التى أنشأتها فى كتابة الإنشاء المشار إليها بالذكر فى خطبة هذا الكتاب من فضل الكتابة ما يشدو بذكره المترجم، وأودعتها من شرف الكتاب ما يدعن له الخصم ويسلم.

الفصل الثالث

(في ترجيح النثر على الشعر)

اعلم أن الشعر وإن كان له فضيلة تخصه ومزية لا يشاركه فيها غيره من حيث تفرّده باعتدال أقسامه وتوازُن أجزائه وتساوي قوافي قصائده، مما لا يوجد في غيره من سائر أنواع الكلام، مع طول بقائه على ممر الدهور وتعاقب الأزمان، وتداوله على ألسنة الرواة وأفواه النقلة لتمكّن القوة الحافظة منه بارتباط أجزائه وتعلّق بعضها ببعض، مع شيوعه وأستفاضته وسرعة أنتشاره وبعُد مسيره وما يؤثّر من الرّفعة والضّعة باعتبار المدح والهجاء، وإنشاده يجالس الملوك الحافلة والمواكب الجامعة بالتقريظ وذكر المفاخر وتعدد المحاسن، وما يحصل عليه الشاعر المحيّد من الجباء الحسيم والمنح الفائق، الذي يستحقّه بحسن موقع كلامه من النفوس وما يحدثه فيها من الأريحيّة، وقبوله لما يرد عليه من الألحان المطربة المؤثّرة في النفوس اللطيفة والطباع الرقيقة وما اشتمل عليه من شواهد اللغة والنحو وغيرهما من العلوم الأدبية وما يجري مجراها وما يُستدلّ به منها في تفسير القرآن الكريم وكلام من أوتي جوامع الكلم، ومجامع الحكم، صلى الله عليه وسلم! وكونه ديوان العرب ومجتمع تمكّنها والمحيط بتواريخ أيامها وذكر وقائعها وسائر أحوالها — إلى غير ذلك من الفضائل الجمّة، والمفآخر الضّخمة، فإن النثر أرفع منه درجة، وأعلى رتبة، وأشرف مقامًا، وأحسن نظامًا، إذ الشعر محصور في وزن وقافية يحتاج الشاعر معها إلى زيادة الألفاظ والتقديم فيها والتأخير، وقصر المدود ومدّ المقصور، وصرف ما لا ينصرف ومنع ما ينصرف من الصرف، وأستعمال الكلمة المرفوضة وتبديل اللفظة الفصيحة بغيرها، وغير ذلك مما تُلجئ إليه ضرورة الشعر فتكون معانيه تابعة لألفاظه؛ والكلام المشور لا يحتاج فيه إلى شيء من ذلك فتكون ألفاظه تابعة لمعانيه؛ ويؤيد ذلك أنك إذا آعتبرت ما نقل

من معاني النثر إلى النظم وجدته قد انحطت رتبته . ألا ترى إلى قول أمير المؤمنين
على كرم الله وجهه ! ” قِيمَةُ كُلِّ أَمْرٍ مَيْحُسِنٌ “ : أنه لما نقله الشاعر إلى قوله
فِي الْأَيْمِي دَعْنِي أَعَالِي بِقِيَمَتِي * فَقِيَمَةُ كُلِّ نَاسٍ مَائِحْسِنُونَهُ

قد زادت ألفاظه وزهبت طلاوته ، وإن كان قد أفرد المعنى في نصف بيت فإنه
قد احتاج إلى زيادة مثل ألفاظه مرّة أخرى توطئة له في صدر البيت ومراعاة
لإقامة الوزن ، وزاد في قوله فقيمة فاء مستكرهة ثقيلة لا حاجة إليها وأبدل لفظ أمرئ
بلفظ الناس ولا شك أن لفظ أمرئ هنا أعذب وألطف ، وغير قوله يُحْسِنُ إلى قوله
يُحْسِنُونَهُ ، والجمع بين نونين ليس بينهما إلا حرف ساكن غير معتد به مستوخم ، وإذا
اعتبرت . انقل من معاني النظم إلى النثر وجدته قد نقصت ألفاظه وزاد حسناً ورونقاً
ألا ترى إلى قول المتنبي يصف بلداً قد علقت القتلى على أسوارها ؟ :

وَكَانَ بِهَا مِثْلُ الْجُنُونِ فَأَصْبَحَتْ * وَمِنْ جُثِّ الْقَتْلِ عَلَيْهَا تَمَائِمٌ

كيف نثره الوزير ضياء الدين بن الأثير في قوله يصف بلداً بالوصف المتقدم :
” وكأما كان بها جنون فبعث لها من عزائمها عزائم ، وعلق عليها من رءوس القتلى تمائم “
فإنه قد جاء في غاية الطلاوة خصوصاً مع التورية الواقعة في ذكر العزائم مع ذكر
الجنون ؛ وهذا في النظم والنثر الفائقين ولا عبرة بما عداهما .

وناهيك بالنثر فضيلة أن الله تعالى أنزل به كتابه العزيز ونوره المبين الذي (لا يأتيه
الباطل من بين يديه ولا من خلفه) ولم يترله على صفة نظم الشعر بل نزهه عنه بقوله
(وما هو بقول شاعرٍ قبلاً ما تؤمنون) وحرّم نظمه على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم
تسريفاً لمحله وتزريهاً لمقامه منها على ذلك بقوله (وما علمناه الشعر وما ينبغي له) وذلك
أن مقاصد الشعر لا تخلو عن الكذب والتحويل على الأمور المستحيلة ، والصفات

المجاوِزة للحدِّ، والنعوتِ الخارجة عن العادة، وقذف المُحصَّات، وشهادة الزُّور، وقول
البهتان، وسبِّ الأعراض، وغير ذلك مما يجب التنزه عنه لآحاد الناس فكيف بالنبي
صلى الله عليه وسلم! ولا سيما الشعر الجاهليّ الذي هو أقوى الشعر وأخله. بخلاف
النثر فإن المقصود الأعظم منه الخُطْب والترسُّل، وكلاهما شريف الموضوع حسن
التعلق؛ إذ الخُطْب كلام مبنّى على حمد الله تعالى وتمجيده وتقديسه وتوحيده والثناء
عليه والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم، والتذكير والترغيب في الآخرة والترهيد
في الدنيا والحض على طلب الثواب، والأمر بالصَّلاح والإصلاح، والحث على
التعاضد والتعاطف، ورَفْض التباغُض والتقاطُع، وطاعة الأئمة، وصللة الرحم، ورعاية
الدم، وغير ذلك مما يجري هذا الجرى مما هو مستحسن شرعاً وعقلاً. وحسبُك
رتبةً قام بها النبي صلى الله عليه وسلم! والخُلَفَاءُ الراشدون بعده. والترسُّل مبنّى
على مصالح الأمة وقوام الرعية لما يشتمل عليه من مكاتبات الملوك وسرّاة الناس
في مهمّات الدِّين وصلاح الحال وبيعات الخلفاء وعُهُودهم، وما يصدر عنهم
من عهود الملوك، وما يلتحق بذلك من ولايات أرباب السيوف والأقلام الذين هم
أركان الدولة وقواعدها. إلى غير ذلك من المصالح التي لا تكاد تدخل تحت الإحصاء
ولا يأخذها الحصر.

قال في موادّ البيان ” وقد أحسَّت العرب بانحطاط رتبة الشُّعر عن الكلام
المنثور كما حكي أن أمراً القيس بنِ حُجر هم أبوه بقتله حين سمعه يترنم في مجلس
شرا به بقوله :

اسْقِيَا حُجْرًا عَلَى عِلَّاتِهِ * مِنْ كَيْتٍ لَوْهَا لَوْنُ الْعَاقِ

وما يروى أن النابغة الجعدي كان سيذا في قومه لا يقطعون أمرا دونه وأن قول الشعر نقصه وخطأ رتبته". قال: "ولا عبرة بما ذهب إليه بعضهم من تفضيل الشعر على النثر أتباعا لهواه بدون دليل واضح".

قال في الصناعتين: "ومع ذلك فإن أكل صفات الخطيب والكاآب أن يكونا شاعرين كما أن من أتم صفات الشاعر أن يكون خطيبا كاتباً". قال: "والذى قصر بالشعر كثرتُه وتعاطى كل أحد له حتى العامة والسفلة فلحقه بالنقص ما لحق الشطرنج حين تعاطاه كل أحد". وسيأتى الكلام على أحتياج الكاتب للشعر في بيان ما يحتاج إليه الكاتب فيما بعد إن شاء الله تعالى!

الباب الثالث

في صفاتهم وآدابهم؛ وفيه فصلان

الفصل الأول

(في صفاتهم؛ وهي على ضربين)

الضرب الأول

(الصفات الواجبة التي لا يسع إهمالها؛ وهي عشر صفات)

الصفة الأولى، الإسلام—ليؤمن فيما يكتبه ويمليه. ويوثق به فيما يذره ويأتيه إذ هو لسان المملكة، المرهب للعدو بوقع كلامه، والجادب للقلوب بلطف خطابه فلا يجوز أن يوثق أحد من أهل الكفر؛ إذ يكون عينا للكفار على المسلمين، ومطلعا لهم على خفائهم فيصلون به إلى ما لا يمكن استدراكه، وقد قال تعالى ﴿بِأَيِّهَا الَّذِينَ

أَمْنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ) والمراد بالبطانة في الآية من يطَّلَع على حال المسلمين كالأطَّلَاع على مقدار خزائنهم من المال، وأعداد جيشهم من الخيل والرجال .

قال أبو الفضل الصُّورِي في تذكرته "وإن من الفِطْرَةِ التي جُبِل كل أحد عليها حينَ كل شخص من الناس إلى مَنْ يرى رأيه ويدين دينه" قال : "وهذا أمرٌ يجده كل أحد في نفسه ، ولذلك شرط بعضهم في الكاتب أن يكون على مذهب الملك الذي يتمذهب به من مذاهب المسلمين ليكون موافقا له من كل وجه".

ولما فتحت الصحابة (رضوان الله عليهم) مصر ، بعث عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى عمرو بن العاص يأمره أن لا يستعمل في عمل من أعمال المسلمين كافرا فأجابه عمرو : بأن المسلمين إلى الآن لم يعرفوا حقيقة البلاد ، ولم يطَّلعوا على مقادير خراجها ؛ وقد آجتهدتُ في نصراني عارف منسوب إلى أمانة إلى حين معرفتنا بها فنزله ؛ فغضب عمر رضى الله عنه وقال : كيف تؤمّنهم وقد خونهم الله؟ وكيف تعزّمهم وقد أذلمهم الله؟ وكيف تقربهم وقد أبعدهم الله؟ ثم تلا (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ) الآية وقال في آخر كتابه "مات النصراني والسلام".

وقد روى أن أبا موسى الأشعري رضى الله عنه قدم على عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ومعه كاتب نصراني فأعجب عمر بخطه وحسابه ، فقال عمر "أحضر كاتبك ليقرأ" فقال أبو موسى "إنه نصراني لا يدخل المسجد" فزَّبره عمر رضى الله عنه وقال "لا تؤمّنوهم ، وقد خونهم الله ، ولا تُدّنوهم ، وقد أبعدهم الله ، ولا تعزّوهم وقد أذلمهم الله".

وقد قال الشافعي رضى الله عنه في كتابه الأم : "ما ينبغي لقايض ولا وائل أن يتخذ كاتباً ذمياً ، ولا يضع الذمى موضعاً يفضّل به مسامحة . ويعزّ على المسلمين أن يكون لهم

حاجة إلى غير مسلم . وجزم الماوردي والقاضي أبو الطيب والبندنجي وأبن الصباغ وغيرهم من أصحابنا الشافعية رحمهم الله أنه يشترط في كاتب القاضي أن يكون مسلما وهو الأصح الذي عليه الفتيا في المذهب .

وإذا اشترط الإسلام في كاتب القاضي والوالي ففي كاتب السلطان أولى لعموم النفع والضرر به .

قال أبو الفضل الصوري : "ولا شك أن كاتب الإنشاء من أحوج الناس إلى الاستشهاد بكلام الله تعالى في أثناء محاوراته وفصول مكاتباته ، والتمثل بنواهيته وأوامره ، والتدبر لقوارعه وزواجره ، وهو حلية الرسائل وزينة الإنشاءات ، وهو الذي يَشُدُّ قُوَى الكلام ، ويثبِّت صحته في الأفهام ؛ فتي خلت منه كانت عاطلة من المحاسن ، عارية من الفضائل : لأنه الحجمة التي لا تُدَحِّض ، والحقيقة التي لا تُرْفَض ؛ فإذا كان الكاتب غير مسلم لم يكن لديه من ذلك شيء ، وكانت كتابته مغسولة من أفضل الكلام . وخالية مما يتبرك به أهل الإيمان والإسلام . ومقصرة عن رتبة الكمال . ومنسوبة إلى العجز والإخلال . فإن تعاطى الكاتب الذمى حفظ شيء منه وكتبه فقد أيجت حرمة كتاب الله تعالى وأتتهكت ، وأمكن منه من يتخذ هزوا ولعبا والله سبحانه يقول في كتابه المكنون ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ . فقد صح أنه لا يجوز أن يرقى إلى هذه الرتبة إلا مسلم" قال : "ولا يُحتج بالصابي وأنه كتب للطبع والطائع من خلفاء بني العباس ، ومعز الدولة ، وعز الدولة من ملوك الديلم ، وهما يومئذ عمدة الإسلام وعُضُد الخِلافة ، وهو على دين الصابئة . فإن الصابي كان من أهل ملة قليلة أهلها ، ليس لهم ذكر ولا مملكة ، وليس منهم محارب لأهل الإسلام ، ولا لهم دولة قائمة فتخشى غائلته وتخاف عاقبته .

الصفة الثانية، المذكورة — فقد صرّح أصحابنا الشافعية، بأنه يُشترط في كاتب القاضى أن يكون ذكرا، وإذا اشترط ذلك في كاتب القاضى ففي كاتب السلطان أولى لما تقدّم من عموم النفع والضرّ به . وقد روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال في حق النساء ”جنبوهُنَّ الكُتّابَةَ، ولا تُسكنوهنَّ العُرفَ، وأسَعِنُوا عليهن بلا : فإنَّ نَعْمَ تُضَرِّينَّ في المسألة“ . ومرّ على كترم الله وجهه على رجل يعلم امرأة الخط . فقال ”لَا تَزِدِ الشَّرَّ شَرًّا“ .

ورأى بعض الحكماء امرأة تتعلم الكتابة فقال : ”أفغى تُسقى سُمًّا“ والله البسامى حيث يقول ! :

مَا لِلنِّسَاءِ وَلِلْكَتَّابَةِ * بِيَةِ الْعَمَالَةِ وَالْخَطَّابَةِ !
هَذَا لَنَا وَهَذَا مِنْنَا * أَنْ يَتَّعِنَ عَلَى جَنَابَةِ

فإن قيل : قد كُنَّ جماعة من النساء يكتبن ولم يرد أن أحدا من السلف أنكر عليهن ذلك . فقد روى أبو جعفر النحاس بسنده إلى الحسن أن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ! كانت تكتب في مكاتباتها بعد البسمة : من المبرأة عائشة بنت أبى بكرٍ حبيبة حبيب الله . وحكى جعفر بن سعيد أنه ذكر لعمر بن مسعدة كاتب المأمون توقيعات جعفر بن يحيى فقال : ”قرأت لأُمّ جعفر توقيعات في حواشى الكُتُبِ وأسافلها فوجدتها أجود أختصارا وأجمع للعانى“ . وذكر محمد بن على المدائنى في كتاب القلم والدواة أن عاملا لزيدة كتب إليها كتابا فوقعت في ظهره ”أن أصلح كتابك وإلا صرفناك عن عمك“ فتأمل فلم يظهر له فيه شيء، فعرضه على بعض إخوانه فرأى فيه في الدعاء لها وأدام كرامتك، فقال : ”إنها تحيلت أنك دعوت عليها فإن كرامة النساء دفنن“ فغير ذلك وأعاد الكتاب إليها فقبلته ، ومن كان هذا شأنه فكيف يقال أنه لم يؤهل للكتابة ؟ .

فالجواب أن حديث عائشة لم يصرح فيه بأنها كتبت بنفسها ولعلها أمرت من يكتب فكتب كذلك بإملائها أو دونه، وإن ثبت ذلك عنها فغيرها لا يُقاس عليها، ومن عداها من النساء لأعبرة به .

الصفة الثالثة، الحرّية — فقد شرطوا في كاتب القاضي أن يكون حرا : لما في العبد من النقص ، فلا يُعتمد في كل القضايا ، ولا يُوثق به في كل الأحوال ؛ فكاتب السلطان كذلك بل أولى كما تقدم .

الصفة الرابعة ، التكليف — كما في كتاب القاضي فلا يعول على الصبي في الكتابة إذ لا يُوثق به ولا اعتماد عليه .

الصفة الخامسة ، العدالة — فلا يجوز أن يكون الكاتب فاسقا فإنه بمنزلة كبيرة، ورتبة خطيرة، يحكم بها في أرواح الناس وأموالهم : لأنه لو زاد أدنى كلمة أو حذف أيسر حرفٍ أو كتّم شيئا قد علمه أو تأول لفظا بغير معناه أو حرّفه عن جهته ، أدى ذلك إلى ضرر من لا يستوجب الضرر، ونفع من يجب الإضرار به، وكان قد موّه على الملك حتى مدح المذموم وذمّ المدوح . ففتى لم يكن له دين يحجزه عن ارتكاب المآثم ويزعه عن احتقاب المحارم كان الضرر به أكثر من الانتفاع ، وأثر فعله من الأضرار ما لم تؤثّر السيوف ، ولله القائل !

وَلَضْرِبَةٌ مِنْ كَاتِبِ بِنَانِهِ * أَمْضَى وَأَقْطَعُ مِنْ رَقِيقِ حُسَامِ
قَوْمٍ إِذَا عَزَمُوا عَدَاوَةَ حَاسِدٍ * سَفَكُوا الدِّمَاءَ بِأَسِنَّةِ الْأَقْلَامِ

وأیضا فإنه لا يُقبل قول الفاسق فتضيع به المصالح، وربما حمله الفسق وعدم الاكتراث بأمور الدين على وهن يدخله على الدين بقلبه، أو ضرر يجلبه بلسانه .

وأيضاً فالكتابة ولاية شرعية والفاسق لا تصح توليته شيئاً من أمور المسلمين ؛ وقد أطلق القاضي أبو الطيب والماورديُّ من أصحابنا الشافعية القولَ باشتراط العدالة في كاتب القاضي فيجب مثله في كاتب السلطان بل أولى على ما تقدّم .

الصفة السادسة ، البلاغة — بحيث يكون منها بأعلى رتبة وأسنى منزلة ؛ فإنه لسان السلطان الذي ينطق به ، ويده التي بها يكتب . ورب كاتبٍ بلغ أصاب الغرض في كتابته فأغنى عن الكتاب ، وأعمل القلم فكفاه إعمال البيض القواضب ؛ وإذا كان جيد الفطنة صائب الرأي حسن الألفاظ ، ثنأى له المعاني الجزلة فيجلوها في الألفاظ السهلة ، ويختصر حيث يكون الاختصار ، ويطيل حيث لايجد عن الإطالة بدأً ويهدد فيملاً القلوب روعةً ، ويشكر فيلبي على النفوس مسرةً ؛ وإن كتب إلى ملك كبير وذى رتبة خطير عظم مملكة سلطانه ونخمها في معارض كلامه من غير أن يوجد أن ذلك قصده .

الصفة السابعة ، وفور العقل ، وجرالة الرأي — فان العقل أسُّ الفضائل وأصل المناقب ؛ ومن لا عقل له لا آتفاع به ، وكلام المرء ورأيه على قدر عقله ؛ فاذا كان تام العقل كامل الرأي ، وضع الأشياء في مكاتباته ومخاطباته في مواضعها ، وأتى بالكلام من وجهه ، وخاطب كل أحد عن سلطانه بما يقتضيه الحال التي يكون عليها ؛ فيشتد ما كانت الشدة نافعة ، ويلين حين يكون إلى اللين محتاجاً ، ويوبخ من لا يقتضى فعله أكثر من التوبيخ ، ويذم من تعدى إلى ما يستوجب الذم ؛ ويأتي بالمكاتبات التي يقتضيها اختلاف الأحوال واقعةً مواقعها صائبةً مرامياً .

الصفة الثامنة ، العلم بمواد الأحكام الشرعية ، والفنون الأدبية ، وغيرها مما يأتي بيانه — إذ الجاهل لا تميزه بين الحق والباطل ، ولا معرفة تُرشده إلى الطرق المعبرة في الكتابة ؛ ومن سلك طريقاً بغير دليل ضل . أو تمسك بغير أصل زل .

الصفة التاسعة ، قوة العزم وعلو الهمة وشرف النفس — فإنه يكاتب الملوك عن ملكه . وكل كاتب يجذبه طبعه وجبيلته وخيمته في الكتابة إلى ما يميل إليه ، ومكاتبة الملوك أحوج شيء إلى التفخيم والتعظيم ، وذكر التهاويل الرائعة والأشياء المرغبة ؛ فكلما كان الكاتب أقوى نفسا وأشدّ عزما وأعلى همة ، كان في ذلك أمضى وعليه أقدر ، ومهما نقص في ذلك نقص من كتابته .

الصفة العاشرة ، الكفاية لما يتولاه — لأن العاجز يدخل الضرر على المملكة ويوجب الوهن في أمر المسامير ؛ وربما عاد عليهم عجزه بالوبال ، أو أدى بهم ضعفه إلى الأضطراب والاختلال .

الضرب الثاني

(الصفات العرفية)

قال المهذب بن ممان في كتابه "قوانين الدواوين" : "ينبغي أن يكون الكاتب أدبيا ، حادّ الذهن ، قوى النفس ، حاضر الحس ، جيد الحدس ، حلوّ اللسان ، له جرأة يثبت بها الأمور على حكم البديهة ، وفيه تودة يقف بها فيما لا يظهر له على حدّ الروية ، شريف الأنفة ، عظيم النزاهة ، كريم الأخلاق ، مأمون الغائلة ، مؤدب الخدام" .

قال محمد بن ابراهيم الشيباني : من صفة الكاتب اعتدال التامة ، وصغر الهامة ، وخفة الهازم وكثافة اللحية ، وصدق الحس ، ولطف المذهب ، وحلاوة الشمائل ، وخطف الإشارة ، وملاحة الزبي . قال : ومن حاله أيضا أن يكون بهي الملبس ، نظيف المجلس ، ظاهر المروءة ، عطر الرائحة ، دقيق الذهن ، حسن البيان ، رقيق حواشي اللسان ، حلو الإشارة ، مليح الاستعارة ، لطيف المسلك ، مستفقر المركب ،

ولا يكون مع ذلك فَضْفَاصَ الجئمة، متفاوت الأجزاء، طويل اللحية، عظيم الهامة؛ فإنهم زعموا أن هذه الصفات لا يليق بصاحبها الذكاء والفظنة؛ والله القائل !

وَسَمُولٍ كَأَنَّمَا أَعْتَصَرُوهَا * مِنْ مَعَانِي شَمَائِلِ الْكُتَّابِ“

وقال أبو الفضل الصوري : ”ينبغي أن يكون الكاتب فصيحاً بليغاً أدبياً، سنيّ الرتبة، قوى الحجّة، شديد العارضة، حسن الألفاظ؛ له ملكة يقتدر بها على مدح المذموم وذم المحمود“ .

قال المهذب بن ممتى : ”أما حسن الهيئة فإنه يرجع في ذلك إلى ما يعلمه من حال خدمومه من إثاره إظهار نعمته على من هو في خدمته أو إخفاءها“ . قلت : وهذا قد يخالف ما تقدم : من أنه ينبغي أن يكون الكاتب بهي الملبس . وبالجملة ففصاحة اللسان، وقوة البيان، والتقدم في صناعة الكتابة هو الذي يرفع الرجل ويعظمه دون أتوابه البهية، وهيئته الزاهية . بل ربما كان التعظيم في الفضل لرتب الحالة المنحط الجانب أكثر، وترجيحه على غيره أقرب .

وقد قال سهل بن هرون كاتب المأمون، وهو من أئمة هذه الصناعة : ”لو أن رجلين خطبا أو تحدثا أو احتجا أو وصفا وكان أحدهما جميلا بهيا، ولبأسا نبيلاً . وذا حسب شريف؛ وكان الآخر قليلاً قبيحاً : وبأذا الهيئة دميماً، وخامل الذكر، مجهولاً : ثم كان كلامهما في مقدار واحد من البلاغة، وفي درج واحد من الصواب، لتصدع عنهما الجمع وعامتهم يقضى للقليل الدميم على النبيل الجسيم، وللبأذا الهيئة على ذى الهيئة؛ ويشغلهم التعجب منه عن مناوأة صاحبه، ولصار التعجب على مساواته له سبباً للتعجب به، والإكثار في شأنه علة للإكثار في مدحه . لأن النفوس كانت له أحقر، ومن بيانه أياس، ومن حسده أبعده؛ فلما ظهر منه خلاف ما قدره وتضاعف

(١) في الأصل المعارضة وهو تصحيف من التامخ .

(٢) هو فعل من دم الرجل باهمال الدال بمعنى قبح منظره وإجمامه في الأصول تصحيف فتنه .

حُسْنُ كلامه في صدورهم كِبُرٌ في عيونهم: لأن الشيء من غير معدنه أغرب؛ وكلما كان أبعد في الوهم كان أظرف؛ وكلما كان أظرف كان أعجب؛ وكلما كان أعجب كان أبداع؛ وإنما ذلك كنوادر الصبيان وملح المجانين؛ فإن استغراب السامعين لذلك أعجب، وتعجبهم منه أكثر. قال: "والناس موكِّلون بتعظيم الغريب وأستظراف البديع، وليس لهم في الموجود الراهن ولا فيما تحت قدرتهم من الرأي والهوى مثل الذي معهم في الغريب القليل وفي النادر الشاذ؛ وعلى هذا السبيل يستظرفون القادم إليهم، ويرحلون إلى النازح عنهم، ويتركون من هو أعمُّ نفعا، وأكثر في وجوه العلم تصرفا، وأخف مؤنةً وأكثر فائدةً".

الفصل الثاني

(في آداب الكتاب؛ وهي على نوعين)

النوع الأول

(حُسْنُ السيرة وشرف المذهب؛ ولذلك شروط ولوازم)

منها اعتماد تقوى الله تعالى في الأسرار والإعلان، والإظهار والإبطان، والمحافظة عليها، والاستناد إليها في مبادئ الأمور وعواقبها. فإنها العروة التي لا تنفصم، والحبل الذي لا ينصرم، والركن الذي لا ينهدم، والطريق التي من سلكها آهتدي، ومن حاد عنها ضلَّ وتردى؛ والمحافظة على شرائع الدين التي فرضها الله تعالى على خلقه، والحذر من الاستخفاف فيها بحقه، وتوقُّف غضبه بتأديتها، والاستجنان من شقاء الدنيا والآخرة بتوقُّفها^(١).

(١) كذا في الأصول من الوقاية ولعله بتوفيتها من الوفاء تأمل.

(١) ومنها طلب الأجر بما يُبيله من عز سلطانه ويُجديه من فواضل نعمائه؛ وهذا هو أصح الأغراض التي يجب على كل عاقل أن يقدمه على كل غرض، ويحصل منه على السهم الوافر؛ فلا خير في دنيا تنقطع السعادة عنها، وإنما السعادة بعد الموت ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾؛ ومن آختر الفاني المنصرم على الباقي الدائم، فقد خسرت صفقته، وبارت تجارتُه .

والطريق الموصل إلى هذا المقصد صلاحُ النية فيما يتولاه من أمور السلطان، وقصدُ النفع العام له ولرعيته، والاجتهادُ في إغاثة الملهوف، والأخذ بيد الضعيف، والنفع بجماهه عند سلطانه، وحمله على العدل في الرعية، فإذا توشى ذلك فاز بثواب الله تعالى، وقضى حقَّ السلطان فيما عرضه له من الشكر والأجر، وقابل نعمة الله التي أقدره بها على هذه الأفعال الجميلة بما يرتبطها عنده ويستقر بها لديه .

ومنها: بجانب الرِّيب والتزُّه عنها، والطهارةُ منها . فانها تُسخط الله تعالى، وتذهب بمهابة المرء، وتُسقطه من العيون والقلوب . وأحقُّ من راعى ذلك من نفسه من بين أتباع السلطان أهل هذه الصناعة لأختصاصهم به، ولطف منزلتهم عنده . إذ المشهور عند قلة الأتار أن الذين تقدموا من صدورهما ومشايخها كانوا من جلة العلماء، وسادة الفقهاء، وأفاضل أهل الورع، المبرئين من الدَّسِّ والطَّمَع، المميزين على القضاء والحُكْم، في الاستقلال بعلوم الإسلام؛ المتميزين عنهم بفضل الآداب، ورواية الأشعار، والعلم بالأيام والسير، والأرتياض بأداب الملوك وعشرتهم ورسوم صحبتهم، وغير ذلك مما ينتظم في صناعتهم . فقد ساوَوْهم في علم الدِّين، وفاقَوْهم فيما تقدّم ذكره مما لا يشاركونهم فيه . والسلطان والدِّين قرينان لا يفترقان، وعونان على صلاح البلاد والعباد، فلا يحتمل السلطان ما ينكره الدِّين لأنه تابعه ورديفه .

(١) أى الثواب ولعله مصحف عن الآخرة كما يدل عليه السياق .

ومنها لزوم العَفَافِ والصَّيَانَةِ فيما يتولاه للسلطان من أعماله ، ويتصرف فيه من أشغاله ، والتعفف عن المطامع الذميمة . والمطاعم الوخيمة ، والترفع عن المكاسب اللثيمة ؛ فان ذلك يجمع القُرْبَةَ إلى الله تعالى والحُطْوَةَ عند السلطان ، وجَمِيلَ السيرة عند الرعية — حتى إن هذه الطريقة قد تقدم بها عند السلطان المتخلفون في الفهم والمعرفة ، وسادوا على مَنْ لا يقاربونه في غِنَاءٍ ولا كفاية ، وحصلوا على الأحوال السنية ، والمنازل العلية ؛ وقرب بها مَنْ كان بعيدا على من كان قريبا ، ومن لا مكانة له ولا حرمة على من له مكانة وحرمة ، وأستدنى لأجلها مَنْ لا يترشح لخدمة السلطان . ثم الذي يلزمه أن يعتمد التمسك بالصيانة والعَفَافِ الذي عليه نظام معيشته ، والأرتفاق فيما يحل ويطيب له من جاه خدمته — فانه قد قيل ”الزم الصحة يلزمك العمل“ .^(١)

لا أنه يمتنع من المنافع التي تصل إليه من أطيب المكاسب ، وتسلم من تبعات العاجل والآجل ، وتخلص من قبيح الأحدثثة وإطلاق ألسن الحَسَدَةِ بالظن والتأنيب ، وينال بجاه السلطان وتفوذ الأمر من غير خيانة للوَتَمين ولا اشتكاء للرعية — فانه اولا هذه المنافع لغني الانسان بالقناعة ، ورضى بالكفَاف ، وسلم من المخاطرة بدينه وديناه في سلامة السلطان . اذ لا يجوز أن يستفرغ وسعه ويعرض نفسه للخطر فيما لا تحسن له عائده ، ولا تخلص منه فائده ، في جاه ولا مال . وقد علم ما كان عليه أهل هذه الطبقة في سائر الدول وما حصلوه من الذخائر وأقتنوه من القُنِيَات النفيسة ، التي أقدرتهم على إظهار مراءتهم ، واتخاذ الصنائع عند الأحرار ، وحراسة النعم على الدوائر والأعقاب .^(٢)

وإنما حصلوا على ذلك من حيث معرفتهم بوجوه المكاسب ، وأبواب المرافق ، لا من الخيانة وذميمة الطعم — لأنهم كانوا في أزمنة لا يبغي فيها عن متكسب من رشوة ولا مصانعة ولا اغتصاب ولا سبب من أسباب الظلم وان جلت منزلته وعظمت مرتبته

(١) هكذا بالأصل . (٢) لعله على الذراري تأمل . (٣) لعله الطمع .

ومنها طلب الثناء والحمد وهو من أفضل المقاصد السنية وأعلىها رتبة — لأنه يتلو الأجر في البقاء والدوام ، وكلما كانت المهمة أعظم وأشرف ، كانت إليه أرغَبَ وبه أكثَفَ . ولفضل هذا رغب فيه الاشراف وعلية الناس حتى قال الخليل عليه السلام ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ . وأولى الناس باقتناء ذخائر الحمد وأفراض فرض الشكر من عرض الله تعالى جاهه ، وطول يده ، وأمضى عند السلطان لسانه ، فينبغي أن يختار هذه المكرمة ، ويقوم بالنصيب الأوفر منها ، ولا يتغفل بجأه ولا ماله على قاصد ولا مؤمل ولا ذى رحم وذمام ، ولا يُضجّع في أمر بطانته وحاشيته وأصحابه ، ولا يضيّق عليهم مع سَعته ، ولا يقصّر بهم في كفايته ، ويجعل آكتسابها بجأه وماله دون أموال سلطانه — فإن كثيرا من المتصرفين بذلوا ما أوثموا عليه في هذا الغرض ورَضُوا به أهل الشفاعات والرسائل ، فأعقبهم ذلك زوال النعم ، وسقوط الرتبة وذهاب المال ، والوسم بميسم الخيانة والبوار إلى الأبد . ولا يبلغ في آبتناء المعالي واقتناء المحامد وبذل الرغائب وارتفاع الهمم ، فإن ذلك مما يختص بالملوك ولا ينبغي لأحد من أتباعهم من كاتب ولا غيره الإقدام عليه مُفاجِئاً ولا مُكثِراً ولا مقاييساً ، فيكون قد عدا طوره ، وأضلّ رُشدَه ، وتعرّض للعطب مع سلطانه ، وأوجد الطريق إلى سوء الظن به ، وفوق سهام الحسدة إليه ، وأطلق ألسنتهم بالظعن عليه ؛ وربما أدى به ذلك إلى سقوط المنزلة ان سامت نفسه .

ومنها الاقتصاد في طلب اللذة ، والاقتصار من ذلك على ما يُقيم المروءة من أفضل الأخلاق وأشرفها : بأن يكون تناوُلُهُم ما يتناولونه من ذلك بسلك طريقة مجودة يظهر فيها أثر التدبير السديد والرأى الأصيل ، من غير خروج الى الإقبال على اللذات . والانهماك في الشهوات . فان ذلك غير مستحسن للملك ولا سؤفة لأنه جالب للأسقام ، قاطع عن الأمور المهمة التي يجب صرف العناية إليها في صلاح المعاش

وأمر الآخرة؛ ولكن لا يكلف ترك اللذات جملة — اذ لا بد لكل أحد من ذوى الرتبة العلية من الأخذ بنصيب منها ، لما جُبِيت عليه الطبائع من الميل إليها والرغبة في الاستمتاع بالنعم والملاذ ولكل منها حظ يضاهى رتبته .

وأهل هذه الصناعة لأختلاطهم بالملوك ومشاركتهم لهم في آدابهم لا غنى بهم عما يقيم مروءاتهم من اللذات المشابهة لأقدارهم ومواضعهم من السلطان .

النوع الثانى

حُسن العِشرة — التى هى من أفضل الخلائق الموجودة فى الغرائز طبعا والحاصلة بالتخلق تكسبا وتطبعا ، وأعوها لمصالح الحياة والمعاش ومحبة الخاصة والعامة وحصول الشاء والشكر والمودة من الأفاضل الأخيار ، وكفاية الأراذل الأشرار ، وان لم يلتزمها الكاتب طوعا حمل عليها كرها .

وأعلم أن أدب المعاشرة على خمسة اضرب :

الضرب الأول

(عِشرة الملوك والعظماء)

قال على بن خلف : ولا يُقُوم بأدائها وأكل رسومها إلا من علّت فى الأدب درجته ، وسمّت فى رجّاحة العقل منزلته ، وتميّز بغريزة فاضلة وأدب مكنتّسب ، وصبر على المشاقّ فى التحلّى بالهمم الشريفة ، والسموّ إلى المنازل اللطيفة ، من عز السلطان ومساعدة الزمان ، وتمكّن من تصريف النّفْسَيْنِ الحيوانية والشهوانية على أغراض الناطقية ومطاوعتها ، وأخذها بقبول ما تُرشد اليه وتبعث عليه لأن صحبة السلطان أمر عظيم وصاحبه راكب خطَر جسم ، بملكه نفسه لمتحكم فى شعره وبشره ، قادر على نفعه

وَضْرَهُ؛ لا يردّه عن مقابلته على يسير الخيانة بكبير النكايّة إلا ما يؤمّل من صَفْحِهِ ومسامحته، ويرجو من عَطْفِهِ ورأفته . وأوّل ما يجب على المتصل بخدمة السلطان النظرُ في عواقب أموره وحفظ نفسه من جريرة يُجرّها عليها باغفاله فرضا من فروض طاعته، وتضييعه المحافظة على حقوق خدمته، والعلم بأن لكل مصحوب خُلُقًا يغلب عليه، ويرجع بغريزة الطبع اليه، لا يمكنه النزوع عنه ولا المفارقة له؛ إذ الانتقال عن الطّباع، شديد الامتناع، في الخدم والأتباع؛ فكيف الملوك والرؤساء الذين لا يقابلون بلوم على خُلُقٍ مذموم؛ بل العادة جارية في أدب خدمتهم بأن يصوّبوا ما يركبونه من خطأ ويحسّنوا ما يواقعونه من قبح. فعليه أن ينزل عن أخلاقه لأخلاق سلطانه، وما خالف سجيته في إصلاح زمانه؛ وأن ينزل عن هواه لهواه، ويتبع فيما يسخطه ويأباه، ما يؤثره سلطانه ويرضاه . وينبغي أن لا يعرض نفسه لما يسقط منزلته ويُفسد عاقبته ولا يوجد للزمن طريقا إلى التنكر له، ويعينه بتفويق سهامه والتصدي لمواقعها . وقد علم أن الزمان وان عم بنوائبه فإنه يخص صاحب السلطان منها بما يزيد على نصيب غيره . ومن أشق الأحوال أن يدفع الإنسان إلى تغيير السلطان مع كون السبب في ذلك شيئا جزه إلى نفسه بسوء اختياره، لما يجتمع عليه في ذلك من مرارة النكبة، وحرارة المغبة، وتقريع من يُزرى على عقله، ويؤنبه بجعله . ثم انه يلزمه بعد الاحتياط فيما تقدم عدّة خصال أيضا .

منها الإخلاص وهو قوام الأمر في المصاحبة؛ فإن من صحب سلطانا بعقيدة مدخولة في ولايته، مشوبة في محبته، لم ينتظم له ولا لسلطانه أمر : لأن الضمائر المدوقة والنيات السقيمة لا بد أن يصرح بما فيها ويظهر ما في دخيلتها؛ وإذا أتضح ذلك للسلطان لم يقنع إلا بإتلاف نفسه، وإذهاب مَهْجَتِهِ .

(١) لعله المندوقة . أى غير الخالصة من قولهم مذاق فلان الورد إذا لم يخلصه . تأمل .

ومنها النصيحة ، وهي تربّ الإخلاص . والطريق الموصل إلى التوفية بها أن يطالع السلطان بكل ما يفتقر إلى العلم به من خاصّ أموره وعامّها ؛ وعلى من استخلصه السلطان لنفسه ، وأتمته على رعيته ، وأنطقه بلسانه ، وأخذ وأعطى بيده ، وأورد وأصدر برأيه ، وتخيّر لهذه المنزلة من بين رؤساء دولته وأعيان مملكته : أن لا يستر عنه دقيقاً ولا جليلاً من أحوال ما فوضه إليه ، ولا يقف عن إنهاء تفاصيله وجمّله توقياً من لوم لائم ، ولا يحمله فرط النصح له على الإضرار برعيته ، ولا الرغبة في إثبات حقه على تضييع حقوقها ، ولا القيام بما يجب له دون ما يجب لها — فإنها به وهو بها . ومنها الاجتهاد فيما يباشره من أحوال سلطانه بما يعود عليه نفعه بحيث لا يبقى في ذلك ممكناً ، ولا يدع فيه شأواً للاحق .

ومنها كتمان السر . وهو من أفضل الآداب في صحبة السلطان وغيره ، وأعودها بالفلاح على صاحبها : لأن كثرة الانتشار الداخل على الدول إنما توجه بتفريط بطائنها وصاحبها في أسرارها ، وإظهارهم بما تقرّر في أذهان الملوك وعزائمهم قبل أن يظهره ؛ فيجد العدو بذلك الطريق إلى معالجة آرائهم بما ينقضها ، ومقابلتها بما يُفسدها . على أن إفشاء السر من الأخلاق التي تُطبع أكثر الناس عليها ، وحيل بينهم وبين الإقلاع عنها ؛ فمن علم من نفسه ذلك فليحدّر معاملة السلطان في أسراره وبواطن أموره ، ولا سيما ما وجد منها في باب حروبه ومكايده ، فإنه إن ظهر منه على خيانة في السر ، عرض نفسه للهلكة .

ومنها الشكر فإنه وإن كان واجبا على الإنسان مع أ كفائه ونظرائه فإنه مع السلطان الذي يستظل بظله ، ويستدرّ أخلاف فضله أوجب . إذ المرء قد يقدر على مكافأة عارفة صديقه بما يُضاهيها ويزيد عليها ، ولا يقدر على مكافأة سلطانه إلا

بشكر نعمته، والمحافظة على حقوق خدمته . ثم الشكر بالقول يرتفع بين الرئيس والمرءوس، والخادم والمخدوم، إلا السير الذي يقضى به حق الخدمة : لأن الإكثار منه داخل في حكم الملق والتثقل؛ وإنما يظهر شكر الخادم من أفعاله .

ومنها الوفاء . وهو من أهم الخصال اللازمة وأكدها؛ إذ هو الطريق إلى صلاح العباد وعمارة البلاد؛ بل هو رأس مال الكاتب وربحهُ ودوام عمله، والسبب الذي لأجله ترغّب السلاطين في صحبته : لأنهم ما برحوا يقرّبون صاحب هذه الخصلة ويروّنه أهلاً للاختصاص، موضعاً للثقة؛ ولا أسوأ حالاً ممن نزل هذه المنزلة وهو بخلافها .

ثم الوفاء يكون بإظهار النصيحة، وبذل الاجتهاد، وقصد المخالصة، ومقابلة كل نعمة تفضّاه عليه بالنهضة فيما أستند إليه ^(١) : ليدعو ذلك سلطانه إلى ربّ النعمة لديه، وإقرارها عليه .

ومن شروط الوفاء أن يلتزمه صاحبه لسلطانه، في حال سعادته، وإقبال دولته، وفي حال تولّيها عنه وعُطلته . أمّا في حال إقبال الدولة عليه فإن يصحبه بقلبه دون بدنه ولا يتطلب صاحباً غيره ينتقل إلى صحبته، ويستبدل بخدمته من خدمته؛ ولا يحدث نفسه بأنه متى وجد أنفع منه عدل إليه؛ ولا أن يرتب له جهة أخرى يجعله مقدّمة لأمر يترقّبه : لما في ذلك كله من الخروج عن حدّ الإخلاص المقدم وجوبه . وأمّا في حال أنصراف الدولة عن صاحبه، فإنه لا يباينه مباينة المساعد للزمان عليه، الموافق للقادير فيه، ولا يجوز له عند حاجته إليه، ولا يُضيع حقوقه عنده وصنائعه لديه؛ ولا ينحاز بكليته إلى من أقبلت أمور السلطان عليه؛ فإن ذلك

(١) في الضوء . أسند . وهي أوضح .

(٢) أى زيادة النعمة .

ما يدل على حُبِّ السجِّية ومقابلتها على الإحسان بالإساءة ، وأستعمال العُقوق ،
وأطراح الحُقوق .

ومنها مجانبة الإدلال . إذ الدالَّة على السلطان والرئيس من أعظم مصارع التلّف ،
وأقرب الأشياء إلى زوال النعم ، ولأجلها هلك من هلك من بطانة السلطان وخاصته
وزرائه ؛ وفي قصصهم عبرة لمن أنعم النظر في تأملها . وعليه أن يعول في الاعتداد
بخدمته ونصائحه له على أشتهارها وظهورها ، ولا يفيض في تعديدها وذكرها ، ولا
يواصل التثقيل بأغراضه والإلحاف بأسئته ، ولا يظهر التشحّب عند التقصير به ،
ولا الغضب أتكالا على سالف خدمة ، وقليل حرمة ؛ وأن يتناسى ما أسلفه من
الخدمة والصحة ، ويكون في كل حال عارفا بعوارفه ، معتدا بفواضله ، موجبا
الفروض له لاعياه ، فإن السلطان مجبول على أنفة النفس وعزّتها ، ولا يحتمل التنازل
لأحد : لتزيله الكلّ منازل الخدم والأرقاء ، وأعتقاده أنه سبب النعمة السابغة على
الكافة ، وثقته بوجود العوض عمّن يفقده من الأعوان والأصحاب ، ومنابرة الناس
على خدمته والانتساب إلى متابعتة لما يصلون إليه من الحظوة ، وينالونه من الجاه
والثروة . وإن كان في باطن حاله على خلاف ما يؤثر ، أظهر الشكر والاعتداد وتلطف
في بلوغ الغرض بأحسن تعريض ، ولم يطلق قلمه كاتباً ، ولا لسانه مخاطباً ؛ فإن ذلك
إزراء على همة المصحوب ، ودلالة على إخلاله بتفقد الصاحب ، لكن يذكر النعمة
وسُبُوحها ، والمنّة وشيوعها ، ويسأل الزيادة فيها ومضاعفتها . فإن ذلك يفضى ببلوغ
آماله ، وسداد أموره ، وسهولة مطالبه . وإذا زاده السلطان رفعة وتشريفاً أزداد له
تعظيماً وتوقيراً . وإذا بسط يديه أن ينقبض عن كل ما يشينه ، وإذا خصه بأثرة
وتقريب أن يزيد الخاصة والعامة بشراً وإناساً ، وإن آتهم بهفوة لم ياتمه في إقامة
العُدْر والأحتجاج على براءة الساحة إلى الغاية القُصوى . بل يتوسط في ذلك ويسأل

من حُسْنِ الصَّفْحِ والإِقَالَةِ وَجَمِيلِ التَّغْمَدِ ^(١) وَالْعَفْوِ مَا يَجْعَلُ لِلإِحْسَانِ وَجْهًا ، وَلِتَعْقِبَهُ
لِلسُّخْطِ سَبِيحًا . فَإِنَّهُ إِذَا صَدَعَ بِالْمُحْجَةِ فِي بَرَاءَةِ السَّاحَةِ ، فَلَا وَجْهَ لِمُعْذَرَتِهِ وَفِيهِ تَكْذِيبٌ
لرئيسه ، وَرَبْمَا أَتَى إِلَى فِسَادٍ وَمُفَاقَّةٍ .

وَمِنْهَا التَّمَسُّكُ بِأَدَابِ الخِدْمَةِ بِالمَوَاطِبَةِ عَلَيْهَا ، وَصَرَفِ الإِهْتِمَامِ إِلَيْهَا ؛ إِذْ هِيَ أَعْظَمُ
الذَّرَائِعِ إِلَى نَيْلِ الرُّتْبِ وَبُلُوغِ المَآرَبِ ، وَالسَّبَبُ الَّذِي يَقْرَبُ البُعْدَاءَ ، وَيَرْفَعُهُمْ عَلَى
أَهْلِ الوَسَائِلِ وَالحُرْمِ ، وَذَوِي المَوَاتِ ^(٢) وَالخَدَمِ ؛ وَيُعْمَى عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَيُصَمُّ عَنْ كُلِّ
طَعْنٍ . وَمَا نَالَ أَحَدٌ عِنْدَ السُّلْطَانِ مَرْتَبَةً إِلَّا وَالمَوَاطِبَةَ عَلَى خِدْمَتِهِ سَبَبًا وَالمَوَاصِلَةَ
مَوْجِبًا . وَأَوْلَى النَّاسِ بِلِزُومِ السُّلْطَانِ كُتَّابُهُ الَّذِينَ لا غِنَى بِهِ عَنْ حُضُورِهِمْ ، فِي لَيْلِهِ
وَنَهَارِهِ ، وَأَحْيَانًا شَغْلُهُ وَفِرَاعُهُ : لِأَنَّهُ رُبَّمَا بَدَّهَ مَا يَحْتَاجُ إِلَى اسْتِكْفَائِهِ إِيَّاهُ وَإِسْنَادَهُ
إِلَيْهِ ، وَإِنْ تَأَخَّرَ عَنْهُ فِي تِلْكَ الحَالِ اسْتَدْعَى مِنْ مَوْجِدَتِهِ وَأَسْتَجَرَ مِنْ لَأْمَتِهِ مَا لَا
يُزِيلُهُ العِذْرُ إِلَّا فِي المَدَّةِ الطَّوِيلَةِ . وَرُبَّمَا أَضْطُرَّ لَغَيْبَتِهِ إِلَى احْتِضَارِ مَنْ يَسْتَكْفِيهِ
مَاعْرَضَ لَهُ وَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى أَصْطِنَاعِهِ وَتَصْيِيرِهِ فِي مَقَامِهِ وَإِنْ كَانَ لا يَسَاوِيهِ فِي فَضْلِ
وَلَا عِلْمٍ وَلَا غِنَاءٍ ، بِخِلَافِ مَا إِذَا وَجَدَهُ مُسَارِعًا إِلَى أَمْتَلْتَهُ ؛ فَإِنْ ذَلِكَ يَزِيدُ فِي حُظُوتِهِ ،
وَيَدْعُو إِلَى اسْتِخْلَاصِ مَوَدَّتِهِ .

فِيحِبُّ عَلَيْهِ أَنْ يُخَصَّ سُلْطَانَتَهُ مِنْ زَمَانِهِ بِالقِسْمِ الأَوْفَرِ ، وَالنَّصِيبِ الأَغْزَرَ ، وَلَا
يُؤْتِرُ نَيْلَ لَذَّةٍ عَلَيْهِ ، وَلَا بُلُوغَ وَطَرٍ إِذَا أَتَى إِلَى تَنَكُّرِهِ ؛ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يُوَافِقَهُ عَلَى
وَقْتٍ يَفْرِضُهُ لَهُ يَتِمَّ كُنْ فِيهِ مِنْ بُلُوغِ أَوطَارِهِ ، وَالْوَصُولِ إِلَى مَقَاصِدِهِ ، كَانَ أَحْمَدَ لِعَاقِبَتِهِ
وَأَبْلَغَ لِقَصْدِهِ ، وَأَحْسَمَ لِأَسْبَابِ اللَّائِمَةِ فِي غَيْبَتِهِ . وَلَا يَنْهَمُكَ فِي المَلَأْدِ أَنَّهُمَاكَ الآمِنُ

(١) التغمدُ السترُ من قولهم تغمده الله برحمته أي ستره .

(٢) جمع مائة — وهي الحرمة والوسيلة .

بل يقف عند الحد الذي يُبقي فيه فضلةً لعوارض السلطان ومهماته الحادثة في آناه الليل، وساعات النهار . فإن تعبه في صلاح زمانه وراحة سلطانه نستبقي لنعمته ، مستدج زيادته . ولا يشتغل بكبير الأمور عن صغيرها ، ولا يتبع بما أصلحه منها حتى ينظر في عواقبه ، ويسوس ما رُد إليه بالسياسة الفاضلة : قيلين في غير ضعف ، ويستد في غير عنف ، ويعفو عن غير حور ، ويسطو من غير جور ، ويقرب بغير تدله ، ويبعد بغير نكر ، ويخص في غير مجازاة ، ويعم في غير تضييع ، فلا يشقى به المحق وإن كان عدواً ، ولا يسعد به وإن كان ولياً .

ومنها إذا حضر بين يدي سلطانه أو رئيسه في المجلس الخاص أو العام أن يعتمد مقابته بالإجلال والإعظام، والتوقير والإكرام، ولا يحمله تأكيد الخدمة وتناول الصحبة على إهمال ذلك بل يحفظ رسمه ولا يغير عاداته .

ومنها أن يتخير لخطابه في الأغراض والأوطار أوقاتاً يعلم خلق سره فيها، وفرآغ باله ، وأنشراح صدره، وأرتفاع الأفكار عن خاطره : إلا إن كان ما يخاطبه فيه أمراً عائداً بانتظام سلطانه ، وأستقامة زمانه ، داخلاً في مهمات أعماله التي متى أخرها نُسب إلى التقصير، فيقدم الكلام فيها خف أو ثقل . وإذا خاطبه رئيسه من سلطان أو غيره في أمر من الأمور ، فعليه أن يُرعيه عينه ويُصمت إليه سمعه ، ويشغل به فكره ، ولا يستعمله فيما يعوقه عنه حتى يستوعب ما يلقى إليه ، ويحبيه عنه أحسن الجواب . ولا يلتفت في حال إقباله عليه إلى غيره ، ولا يصغى إلى كلام متكلم ، ولا حديث متحدث ، حتى لو أمتحنه باستعادة ما فاضه فيه وجده قد أحرز جميعه ؛ فإن التقصير في ذلك مما ينكره الملوك والرؤساء ، ويستدلون به على ضعف المخاطب . وإن كان فيما خاطبه فيه أمر يحتمل التأخير بادر بالاعتذار عنه : للإلا ينسب إلى التقصير بتأخيره عند الكشف عنه ؛ وإن كان فيه ما يخالف الصواب

أمضاه؛ وإن تعذر السبيلُ إلى فعله لم يظهر التقاعُسُ عنه لتخطئته، بل يقابله بالاستصواب. ثم يتلطف في تعريفه مكان الخطأ فيما رآه.

ومنها أن يجرى في الحال في مجالسه على ما يعود بوفائه وإرادته. فإن مال إلى الانبساط أطلق عَنَانَه فيه إطلاق المتجنب للهجر والفحش، ورَفَثَ القول تابعاً لإيثاره، قاضياً لأوطاره. وإن أظهر الأقباض ذهب مذهبه في ذلك، ولا ينبغي أن يخالفه في حال من أحواله، فإن من شروط هذه الخدمة أن يتصرف صاحبها في كل ما يُصَرَّف فيه، ويُسرِعَ الاتقيادَ إلى كل ما يُدعى إليه؛ ولا يكثر من الدعاء لرئيسه والثناء عليه والشكر على ما يوليه من العوارف فإن مثل ذلك يستثقل.

ومنها أن لا يحضُرَ سلطانه في ملبسه التي جرت العادة أن ينفرد بها كالوشى ونحوه؛ إلا أن يكون هو الذي يشرفه بها، وأن يقتصد في لباسه: فينحط عما يلبسه سلطانه ويرتفع عما يلبسه السوقة، ويصرف عنايته إلى التنظيف والتعطر، وقطع الرائحة الكريهة من العرق وغيره، حتى لا تقع عينُ رئيسه على دَنَسٍ في أثوابه، ولا يجد منه كريه رائحة في حال دنوه منه؛ ويواصل استعمال الطيب والبخور الفائق والتضمخ بالمسك؛ فإن الملوك ترى أن من أغفل تعهد نفسه كان لغيرها أشدَّ إغفالاً.

ومنها أن يتجنب التفاضح والتعمق في مخاطبة رئيسه، والافتخار عليه بالبلاغة والبيان: لما في ذلك من الترفع عليه في الكلام. بل يجعل ما يُلقيه إليه ضمن ألفاظ تدلُّ على معانيها بسهولة مع غضٍّ من صوته، وخفيض من طرفه، وسكونٍ من أعضائه: لأنه إنما يُتَسَاحَ بالإتيان بالفصاحة والذهاب بمذهب الحرّالة للخطباء الذين يُنْبِئون على الملوك في المواقف العامة ضرورة احتياجهم إلى استعمال ألفاظ تقع في الأسماع أحسن المواقع.

ومنها أنه إذا تميز عند رئيسه وارتفعت رتبته لديه أن يُجمل القول في خاصته وعامته ،
ويحسن الوساطة لحاشيته ورعيته ، ويتجنب القدح عنده في أكفائه ونظرائه من
بطانته ، والمقرين من حضرته ، ليكون ذلك داعيا إلى محبته والشناء عليه مكافأة له
وإمسالك الألسن عن الطعن فيه .

ومنها أن يبادر إلى المشورة عليه بالصواب فيما يستشير فيه ، ويورده إيراد
مستفيد لا مفيد ، ومتعلم لا معلم ، ويتلطف في أن يوقعه من نفسه موقعا يدعو إلى
العمل به . فإن من عادة الملوك والرؤساء الأنفة من الانقياد إلى ما ينتحله غيرهم من
الآراء ولو كانت صائبة ؛ وإن تمكن من صياغة حديث يودعه فيه فعل محادعة بذلك
لنفسه الأبية وعزته المتعاسة .

الضرب الثاني

(آداب عشرة الأكفاء والنظرَاء)

قال علي بن خلف : ولا شك أن طريقة الاعتدال في ذلك الموافاة في الإخاء ،
والمساواة في الصفاء ، ومقابلة كل حالة بما يضاهاها . أما المسامحة بالحقوق والإغضاء
عن قصر ، والمحافظة على ود من فرط ، فلا خلاف في فضله والتمدح بمثله ، لا سيما
لمثل أهل هذه الصناعة التي يرتفع حق الاعتراء اليها عن حقوق القرابات الدانية ،
والأنساب الراسخة . ولذلك وقع في كلام بعضهم « الكتابة نسب » . قال علي
ابن خلف : والمعنى فيه أن التناسب الحاصل بين أهلها تناسب نفساني لا جسماني ،
يحصل عن تناسب الصور القائمة في نفوسهم بالقوة ، وعن تناسبها بعد خروجها
وظهورها من القوة إلى الفعل ، بدليل ما نراه من اتفاق خواطهم على كثير من
المعاني التي يستنبطونها ، وتواردهم فيها . ولولا تناسب الغرائز وتشابهها ، لم يكن
أن يتواطئوا في أكثر الأحوال على معانٍ متكافئة متوافية .

قال : «وإذا كنا نحفظ من مَتَّ إلينا بالأنساب الجسْمِيَّة التي لاتعارف بينها فأولى أن نحفظ من مَتَّ إلينا بالأنساب النفسانية التي يصح منها التعارف . ولذلك قال الحسن بن وهب : «الكتابة نفسٌ واحدة تجزأت في أبدان متفرقة» . وقال : لآبرة بما يقع بين بعضهم من التنافر والتباين ، لأن المناسبة إنما تقع عند المساواة . أما من وقع دون رتبة الآخر من الفضيلة فليس بمناسب له فيصيرُ القاصر حاسدا لمن فوقه ، للتقصير الذي فيه» .

وبكل حال فإنه يجب عليه أن يعرف لأكفائه حقهم ، ويحفظ مناسبتهم ، ويتوَّخى مساهمتهم ، ويتلقَّاهم بالإكرام والتميز ، ويجعلهم في أعلى المراتب عنده ، ويزيدهم على الإنصاف ولا يقصِّرهم عما يستوجبونه ويستحقونه ، ويتخول بمثل ذلك نظراء في الرياسة من غير الكُتَّاب . وإن تعذر عليه الوصول إلى ملتصمهم أطاب قلوبهم بالوعد الجميل في المستقبل ، وأجتهد في الوفاء به .

الضرب الثالث

(آداب عشرة الأتباع)

قال علي بن خلف : وهي لاحقة بعشرة الأكفاء : لأن الذين يستعين بهم الكاتبُ يدعون كُتَّاباً ولا يدعون أعواناً ، وإنما الأعوان حُدَّام الشرطة ومن يجرى مجراهم . قال : «وهم وإن كانوا أصحاب الكاتب ومرءوسيه وأتباعه ، فاسم الكتابة يجمع بينه وبينهم ، ومعاشرتهم داخلية في باب التكرم ، والتفضيل ، والاستئثار بحاسن الأفعال ومكارم الشيم» .

ثم قال بعد ذلك : «ويبني أن يخصهم بالنصيب الأوفر ، من إكرامه ، والقسم الأغزر ، من ملاحظته وأهتمامه ، ويفرض لهم من التقديم والأختصاص وتفقد

الأحوال والشئون، والذي يتهى إليه أمل المرءوس من الرئيس : ليجهل خدمتهم له بذلك خدمة مئة ومودة، لخدمة خوف ورهبة ؛ وأن يجب خدمته إليهم بترك مناقشتهم ، والتصديق عليهم ؛ وإنا لنتهم من الترفيه في بعض الأوقات ما يجحدون به السبيل إلى الأخذ بنصيب من لذاتهم وأوطارهم التي تميل النفوس إليها، وتهاافت عليها ؛ فإنهم متى لحقهم التعب والنصب ، أعترضهم الضجر والملال، فقصروا في الأعمال، وتهاونوا بالأشغال ؛ فلا بد لهم من راحة تصفوها أذهانهم ويزول عنها الكلال ، ولا يفسح لهم في مواصلة الراحة والإخلال بما يلزمهم ؛ فإن ذلك يجعل على سوء العادة وقبح المذهب . وعليه أن يحفظ لهم حقوق الصعبة والخدمة ويؤجدهم من الإعانة ما فيه صلاح حالهم ؛ فإنه يستعبدهم بذلك ويستخلص مودتهم إذ القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها .

الضرب الرابع

(آداب عشرة الرعية)

قال ابن خلف : "وهو أمر عظيم النفع ، جسيم العائدة ، قاضٍ بالسلامة . إذ لا يطيب لأحد عيش مع بغض الرعية له ، ونفورهم عنه ، وإن علت عند السلطان رتبته ، وأرتفعت طبقته ، وطق بنفسه الاستغناء عنهم" . قال : "فينبغي أن يوقر^(١) العناية على استصلاحهم له ، واستمالة أهوائهم إليه ، ولين الجانب ، ووطأة الكنف ، وخفض الجناح ، والبسط والإيناس وتأليفهم : كما يوفرها على استصلاح السلطان وسياسته ، لتصح له رتبة التوسط بين الطبقتين ، ويسلم من طعن الطاعن ، ولوم اللائم ، ويرأ من البغض والشحناء ، وينقلهم عما تسرع إليه الطباع الرديئة :

(١) أى دمامة الأخلاق كما يؤخذ من القاموس .

من الحسد والإيذاء إلى التألف والمودة . وقد أذب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى ﴿لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ .

الضرب الخامس

(آداب عشرة من يمت إليه بجرمة ، كالجار ، والقاصد ، والآمل ، والمُدبِّل بحقِّ
المفاوضة ، والمطاعمة ، والمحاضرة ، والسلام والمعرفة في الصِّبا ، والصدقة
بين الآباء وغير ذلك من الحرم التي لا يطرحها أهل المروءات)

قال ابن خلف : ”وينبغي أن يوفيهم حقوقهم ، وينهض بما يسنح من أوطارهم
ومهماتهم ، ويعينهم على ما يحدث من نوائب زمانهم ، ويسعد في بلوغ مطالبهم من
سلطانهم ، ولا يرضن عليهم بجاه ولا مال ، ولا يُحَيِّب أمل آملهم ولا قصد ، ويفرض
لهم من إذعانه وأعتنائه ما يعزُّ جانبهم ، ويسهل مآربهم ، ويكف الضيم والظلم عنهم ،
ويسيطر العدل والإنصاف عليهم . فإنه إذا التزم ذلك لهم الترمواله الإعظام والأجلال ،
وأطلقوا ألسنتهم بالثناء عليه ، والأعتداد بأياديه ، وأشاعوا ذلك بين أمثالهم فاجتلبوا
له مودتهم وتعصبهم له“ .

قلت : ومن تمام آداب الكاتب وكالها أن يعرف حقوق مشايخ الصناعة وأئمتها
الذين فتحوا أبوابها ، ودلّوا سبلها ، وسهلوا طرقها ؛ ويعاملهم بالإنصاف فيما عملوا
فيه خوطارهم ، وأتبعوا فيه روياتهم فينزهم منازلهم ولا يخسهم حقوقهم . فمن آفات
هذه الصنعة على ذوى الفضل من أهلها أن القاصر منهم لا يمتنع من ادعاء منزلة
المبرز بل لا يعفيه من ادعاء التقدّم في الفضل عليه ، والمبرز في الفضل لا يقدر على
إثبات نقص المتخلف ﴿والله يعلم المُقْسِدَ مِنَ المُصْلِحِ﴾ .

ثم أصل هذه الآداب الذى ترجع اليه، ويَبُوعها الذى تفجرت منه، رسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب، التى كتبها إلى الكُتّاب يوصيهم فيها . وهى :

أما بعدُ، حفظكم الله يا أهل صناعة الكُتّابة، وحاطكم ووفّقكم وأرشدكم ! فإن الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين، صلوات الله عليهم أجمعين؛ ومن بعد الملوك المكرمين أصنافاً، وإن كانوا فى الحقيقة سواءً، وصرفهم فى صنوف الصناعات، وضروب المحاولات إلى أسباب معاشهم، وأبواب أرزاقهم؛ فجعلكم معشر الكُتّاب فى أشرف الجهات أهل الأدب، والمروءة، والعلم، والرواية . بكم تنتظم للخلافة محاسنها، وتستقيم أمورها؛ وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم، وتعمّر بلادهم . لا يستغنى الملك عنكم، ولا يوجد كافٍ إلا منكم؛ فموقعكم من الملوك موقعُ أسماعهم التى بها يسمعون، وأبصارهم التى بها يبصرون، وألسنتهم التى بها ينطقون، وأيديهم التى بها يبطشون . فامتكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم! ولا تزغ عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم! .

وليس أحدٌ أحوَج إلى اجتماعِ خلال الخير المحمودة، وخصال الفضل المذكورة المعدودة، منكم أيها الكُتّاب، إذا كنتم على ما يأتى فى هذا الكتاب من صفتكم فإن الكاتب يحتاج من نفسه، ويحتاج منه صاحبه الذى يثق به فى مهمات أموره أن يكون حليماً فى موضع الحلم، فهياً فى موضع الحُكم، ومقداماً فى موضع الإقدام، ومحجاً فى موضع الإحجام؛ مؤثراً للعفاف، والعدل والإنصاف، كتموا للأسرار، وفاقاً عند الشدائد، عالماً بما يأتى من النوازل؛ ويضع الأمور مواضعها، والطوارق أما كنها . قد نظر فى كل فنّ من فنون العلوم فأحكّمه، فان لم يُحكّمه أخذ منه بمقدار يكتفى به . يعرف بغيرِة عقله، وحُسن أدبه، وفضل تجربته، ما يرد عليه قبل وروده

وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره؛ فيعد لكل أمر عدته وعتاده، ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته. فتناقسوا يامعشر الكُتَّاب، في صنوف الآداب، وتفقهوا في الدين؛ وأبدؤا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض، ثم العربية فإنها ثِقَافُ ألسنتكم.

ثم أجدوا الخط فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار، وأعرفوا غريبها ومعانيها؛ وأيام العرب والعجم، وأحاديثها وسيرها؛ فان ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم. ولا تضيّعوا النظر في الحساب فإنه قوام كُتَّاب الخراج؛ وأرغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودينها، وسفساف الأمور ومحآقرها، فإنها مدلّة للرقاب، مفسدة للكُتَّاب؛ ونزهوا صناعتكم عن الدنآت، وآريؤا بأنفسكم عن السّعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات؛ وإياكم والكبر والصلف والعظمة، فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة، وتحابؤا في الله عز وجل في صناعتكم، وتواصؤا عليها بالذى هو أليق بأهل الفضل والعدل والتبلى من سلفكم.

وإن نبا الزمان برجل منكم فأعطفؤا عليه ووأسوه حتى يرجع إليه حاله، ويثوب إليه أمره؛ وإن أقعد أحدكم الكبر عن مكسبه ولقاء اخوانه، فزوروه وعظموه وشاوروه، وأستظهروا بفضله تجربته، وقدم معرفته. وليكن الرجل منكم على من أصطنعه وأستظهر به ليوم حاجته إليه أحفظ منه على ولده وأخيه. فان عرضت في الشغل محمّدة فلا يضيفها إلا إلى صاحبه، وإن عرضت مدّمة فليحملها هو من دونه. وليحذر السقطة والزلة والملل عند تغير الحال، فان العيب إليكم معشر الكُتَّاب أسرع منه إلى الفراء؛ وهو لكم أفسد منه لها.

فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبه الرجل، يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه؛ فواجب عليه أن يعتد له من وفائه، وشكره، وأحتماله، وصبره، ونصيحته، وكتمان سره، وتديبر أمره، ما هو جزاء لحقه. ويصدق ذلك بفعاله عند الحاجة إليه، والأضطرار إلى مآلديه.

فاستشعروا ذلكم وفقكم الله من أنفسكم في حالة الرخاء، والشدة، والحرمان،
 والمواساة، والإحسان، والسراء، والضراء؛ فنعمت الشيمة هذه لمن وُسم بها من
 أهل هذه الصناعة الشريفة ! . فاذا ولى الرجل منكم أو صير إليه من أمر خلق الله
 وعياله أمر، فليراقب الله عز وجل، وليؤثر طاعته، وليكن على الضعيف رفيقا،
 وللظلم منصفًا، فإن الخلق عيال الله وأحبهم إليه أرفقهم بعياله . ثم ليكن بالعدل
 حاكما وللأشراف مكرما، وللغنى موفرا، وللبلاد عامرا، وللرعية متألفا، وعن
 إيدائهم متخلفا؛ وليكن في مجلسه متواضعا حلما، وفي سحلات خراجة، وأستقضاء
 حقوقه رفيقا . وإذا صحب أحدكم رجلا فليختبر خلأته، فإذا عرف حسنها وقبيحها
 أعانه على ما يوافق من الحسن وأحتال لصفه عما يهواه من القبيح بألطف حيلة،
 وأبجل وسيلة . وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيرا بسياستها التمس معرفة
 أخلاقها، فإن كانت رموحا لم يهجعها إذا ركبها، وإن كانت شبوبا اتقاها من قبل
 يديها، وإن خاف منها شرودا توقاها من ناحية رأسها، وإن كانت حرونا قمع برفق
 هواها في طريقها، فإن آسمرت عطفها يسيرا فيسلس له قيادها . وفي هذا الوصف
 من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وخدمهم وداخلهم .

والكاتب بفضل أدبه، وشريف صنعته، ولطيف حيلته، ومعاملته لمن يحاوره
 من الناس وينظره، ويفهم عنه أو يخاف سطوته، أو يلقى بالرفق بصاحبه، ومداراته،
 وتقويم أوده من سائس البهيمة التي لا تُحير جوابا، ولا تعرف صوابا، ولا تفهم
 خطابا، إلا بقدر ما يصيرها إليه صاحبها الراكب عليها . ألا فامعنوا رحمكم الله
 في النظر، واعملوا فيه ما أمكنكم من الروية والفكر، تأمنوا بإذن الله ممن صحبتهموه
 النبوة، والأستتقال والحقوة؛ ويصير منكم إلى الموافقة، وتصيروا منه إلى المؤاخاة
 والشفقة إن شاء الله تعالى .

ولا يجاوزن الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه
 وخدمه وغير ذلك من فنون أمره، قدر حقه . فإنكم مع ما فضلكم الله به من شرف
 صنعكم خدمة لا تُحْمَلون في خدمتكم على التقصير، وحفظة لا تُحْتَمَل منكم أفعال
 التضييع والتبذير : وأستمعوا على عفافكم بالقصد في كل ما ذكرته لكم وقصصته
 عليكم . وأحذروا متآلف السرف، وسوء عاقبة الترف؛ فإنهما يُعْقِبَان الفقر ويُدْلَان
 الرقاب؛ ويفضحان أهلها ولا سيم الكُتَاب، وأرباب الآداب؛ وللأمور أشباه
 وبعضها دليل على بعض، فاستدلوا على مؤتلف أعمالكم بما سبقت إليه تجربتكم؛
 ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضَحها محجة، وأصدقها حجة، وأحمدها عاقبة .

وأعلموا أن للتدبير آفةً مُتَلَفَةً — وهي الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ عمله
 ورؤيته؛ فليقصد الرجل منكم في مجلسه قصد الكافي من منطقته، وليؤخر في ابتدائه
 وجوابه؛ وليأخذ بِمَجْمَع حُجَجِهِ؛ فإن ذلك مصلحة لفعله، ومدفعة للتشاغل عن
 إكثاره . وليضرع إلى الله في صلاة توفيقه، وإمداده بتسديده، مخافة وقوعه في الغلط
 المضربيدنه وعقله وأدبه؛ فإنه إن ظن منكم ظاناً، أو قال قائل، إن الذي برز من
 جميل صنعته وقوة حركته، إنما هو بفضل حيلته، وحسن تدييره، فقد تعرّض
 بظنه أو مقالته إلى أن يكلاه الله عز وجل إلى نفسه، فيصير منها إلى غير كاف،
 وذلك على من تأمله غير خاف .

ولا يقل أحد منكم إنه أبصر بالأمور وأحمل لعبء التدبير من مُرَافِقِهِ في صناعته
 ومُصَاحِبِهِ في خدمته؛ فإن أعقل الرجلين عند ذوى الأبواب من رمى بالعُجْب وراء
 ظهره، ورأى أن صاحبه أعقل منه وأحد في طريقته . وعلى كل واحد من الفريقين
 أن يعرف فضل نعم الله جلّ شأؤه من غير اغترار برأيه، ولا تزكية لنفسه، ولا تكاثر

على أخيه أو نظيره، وصاحبه وعشيرته، وحمد الله واجب على الجميع : وذلك بالتواضع لعظمته، والتذلل لعزته، والتحدث بنعمته“ .

وأنا أقول في كتابي هذا ما سبق به المثل (من يلزم الصحة يلزمه العمل) وهو جوهر هذا الكتاب وغرّة كلامه، بعد الذي فيه من ذكر الله عز وجل ؛ فلذلك جعلته آخرًا وتممته به . تولانا الله وإياكم يامعشر الطلبة والكتبة بما يتولى به من سبق علمه بإسعاده وإرشاده! فإن ذلك إليه وبيده . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الباب الرابع

من المقدمة

في التعريف بحقيقة ديوان الإنشاء، وأصل وضعه في الإسلام،

وتفرقه بعد ذلك في الممالك ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول

(في التعريف بحقيقته)

لا خفاء في أنه أسمٌ مرَّكبٌ من مضاف وهو ديوان ومضاف إليه وهو الإنشاء ، أما الديوان فاسمٌ للموضع الذي يجلس فيه الكُتَّاب وهو بكسر الدال . قال النحاس في صناعة الكتاب ” وفتحها خطأ“ قال : ”وأصله دِوَان فأبدلت إحدى الواوين ياء فقيل ديوان“ ويجمع على دواوين . وأختلف في أصله ، فذهب قوم إلى أنه عربي . قال النحاس : ”والمعروف في لغة العرب أن الديوان الأصل الذي يُرجع إليه ويُعمل

بما فيه“ ومنه قول ابن عباس : « إذا سألتُموني عن شيءٍ من غريب القرآن فالتمسود في الشعر فإن الشعر ديوانُ العرب ». ويقال دَوْنْتَه أى أثبتته وإليه يميل كلام سيبويه وذهب آخرون إلى أنه عجمي وهو قول الأضمعي وعليه أقصر الجوهري في صحاحه ، فقال الديوان « فارسيّ معرّب » . وقد حكى المازديُّ « في الأحكام السلطانية » في سبب تسميته بذلك وجهين :

أحدهما — أن كسرى ذات يوم أطلع على كُتَّابِ ديوانه في مكانٍ لهم وهم يحسبون مع أنفسهم فقال « ديوانه » أى مجانين فسمى موضعهم بهذا الاسم ولزمه من حينئذ ثم حذفت الهاء من آخره لكثرة الاستعمال تخفيفاً ، ف قيل ديوان وعليه أقصر أبو جعفر النحاس في صناعة الكتاب .

والثاني — أن الديوان بالفارسية اسم للشياطين ، وسمي الكتاب بذلك لحذقهم بالأمور ووقوفهم على الجليّ منها والخفيّ .

وأما الإنشاء فقد تقدم أنه مصدر أنشأ الشيء ينشئه إذا ابتدأه وأخترعه ، وحينئذ إضافة الديوان للإنشاء تحتل أمرين :

أحدهما — أن الأمور السلطانية من المكاتبات والولايات تُنشأ عنه وتبتدأ منه .

والثاني — أن الكاتب ينشئ لكل واقعة مقالا . وقد كان هذا الديوان في الزمن المتقدم يعبر عنه بديوان الرسائل تسميةً له بأشهر الأنواع التي تصدر عنه لأن الرسائل أكثر أنواع كتابة الإنشاء وأعمها ، وربما قيل ديوان المكاتبات . ثم غلب عليه هذا الاسم وشهر به وأستمر عليه إلى الآن .

الفصل الثاني

(في أصل وضعه في الإسلام وتفترقه عنه بعد ذلك في الممالك)

اعلم أن هذا الديوان أول ديوان وضع في الإسلام؛ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكتب أمراءه، وأصحاب سراياه من الصحابة؛ رضوان الله عليهم! ويكتبونه. وكتب إلى من قرب من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام؛ وبعث إليهم رُسُلَه بكتبه: فبعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة، وعبد الله بن حذافة إلى كسرى أبرويز ملك الفرس، ودحية الكلبي إلى هرقل ملك الروم، وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس صاحب مصر، وسليط بن عمرو إلى هوزة بن علي ملك اليمامة، والعلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين إلى غير ذلك من المكاتبات. وكتب لعمرو بن حزم عهداً حين وجهه إلى اليمن. وكتب لتميم الداري وإخوته بإقطاع بالشام. وكتب كتاب القضية بعقد الهدنة بينه وبين قريش عام الحديبية. وكتب الأمانات أحياناً. إلى غير ذلك مما يأتي ذكره في الاستشهاد به في مواضعه إن شاء الله تعالى.

وهذه المكتوبات كلها متعلقها ديوان الإنشاء بخلاف ديوان الجيش، فإن أول من وضعه وربته أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته.

على أن الفضايح قد ذكر في تاريخه "عيون المعارف". وفنون أخبار الخلائف "أن الزبير بن العوام، وجهيم بن الصلت كانا يكتبان للنبي صلى الله عليه وسلم أموال الصدقات، وأن حذيفة بن اليمان كان يكتب له حرص النخل، وأن المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير كانا يكتبان المداينات والمعاملات. فإن صح ذلك فتكون هذه الدواوين أيضاً قد وضعت في زمنه صلى الله عليه وسلم، إلا أنها ليست في الشهرة وتواتر الكتابة في زمانه صلى الله عليه وسلم: كما تقدم من متعلقات كتابة الإنشاء.

وقد رأيت في سيرة لبعض المتأخرين أنه كان للنبي صلى الله عليه وسلم نيفٌ وثلاثون كاتباً : أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعامر بن فهيرة، وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية، وأبان أخوه، وسعيد أخوهما، وعبد الله بن الأرقم الزهري، وحنظلة بن الربيع الأسدي، وأبي بن كعب، وثابت بن قيس بن شماس، وزيد بن ثابت، وشريحيل بن حسنة، ومعاوية بن أبي سفيان، والمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن زيد، وجهم بن الصلت، والزبير بن العوام، وخالد بن الوليد، والعلاء بن الحضرمي، وعمرو بن العاص، وعبد الله بن رباح، ومحمد بن مسلمة، وعبد الله بن عبد الله بن أبي، ومعيقب بن أبي فاطمة، وطلحة بن زيد بن أبي سفيان، والأرقم بن الأرقم الزهري، والعلاء بن عتبة، وأبو أيوب الأنصاري، وبريدة بن الحصيب، والحصين بن نمير، وأبو سلمة المخزومي، وحويطب بن عبد العزى، وأبو سفيان بن حرب، وحاطب بن عمرو، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وكان ألزمهم له في الكتابة معاوية بن أبي سفيان، وزيد بن ثابت .

وكتب لأبي بكر عثمان بن عفان، وزيد بن ثابت، وعثمان هو الذي كتب عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالخلافة عن أبي بكر رضوان الله عليه كما سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى .

وكتب لعمر رضي الله عنه زيد بن ثابت، وعبد الله بن خلف .

وكتب لعثمان رضي الله عنه مروان بن الحكم .

وكتب لعلي رضي الله بن أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسعيد ابن نجران الهمداني .

وكتب للحسن بن علي رضي الله عنهما عبد الله بن أبي رافع كاتب أبيه .
ثم كانت دولة بني أمية فتوالت خلفاؤهم من معاوية بن أبي سفيان فمن بعده ،
وأمر ديوان الإنشاء في زمن كل أحد مفوض إلى كاتب يُقيمه إلى حين آنقراض
دولتهم . وكان الخليفة هو الذي يوقع على القصص ويُحدّثها بنفسه ، والكاتب يكتب
ما يبرز إليه من توقيعه ويصرفه بقلمه على حكمه . وكان ممن اشتهر من كتّابهم بالبلاغة
وقوة الملكة في الكتابة حتى سار ذكره في الآفاق ، وصار يُضرب به المثل على ممز
الأزمان عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد آخر خلفائهم .

فلما بزغت شمس الخلافة العباسية بالعراق وولي الخلافة أبو العباس السّفاح
أول خلفاء بني العباس ، أستوزر أبا سلمة الخلال . وهو أول من لُقّب بالوزارة
في الإسلام على ما سيأتي ، وتوالت الوزراء بعده لخلفاء بني العباس من يومئذ .
وكان ديوان الإنشاء تارة يُضاف إلى الوزارة ، فيكون الوزير هو الذي ينفذ أموره
بقلمه ، ويتولى أحواله بنفسه ؛ وتارة يُفرد عنه بكاتب ينظر في أمره ، ويكون الوزير
هو الذي ينفذ أموره بكلامه ، ويصرفها بتوقيعه على القصص ونحوها ؛ وصاحب
ديوان الإنشاء يعتمد ما يرد عليه من ديوان الوزارة ، ويمشي على ما يلقي إليه من
توقيعه ؛ وربما وقع الخليفة بنفسه حتى بعد غلبة ملوك الأعاجم من الديلم وبني
سلجوق وغيرهم على الأمر والأمر على ذلك تارة وتارة إلى آنقراض الخلافة من بغداد .

وكان ممن اشتهر من وزراءهم بالبلاغة حتى صار يضرب به المثل يحيى بن خالد
وزير الرشيد ، والحسن بن سهل ، وعمرو بن مسعدة كاتب المأمون ، وأبن المقفّع
مترجم كتاب "كيلة ودمنه" ، وسهل بن هرون الذي ترجمها ، والأستاذ أبو الفضل
أبن العميد ، والصاحب كافي الكفّاة إسماعيل بن عبّاد ، وأبو إسحاق الصابى في جماعة
آخرين منهم .

ثم لما انقرضت الخلافة من بغداد في وقعة هولاكو ملك التتار في سنة (ست وخمسين وستائة) وأستولت المغل والأعاجم على بغداد ، بطل رسم الكتابة المعتبرة وصار أكثر ما يُكْتَب عن ملوك التتار بالمغلية أو الفارسية ، والأمر على ذلك إلى زماننا على ماسياتى بيانه في الكلام على دواوين الأمصار في المكاتب والولايات وغيرهما إن شاء الله تعالى .

وكانت بلاد الغرب والأندلس بأيدي نواب الخلفاء من حين الفتح الإسلامي في خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ولا عناية لهم بديوان الإنشاء للتقرب من البداوة ، وغايته المكاتب إلى ديوان الخلافة ونحو ذلك ، فلما غلب بنو العباس على الخلافة هرب طائفة من بني أمية إلى بلاد المغرب ، وجازت البحر إلى الأندلس فآتزعوه من التواب الذين كانوا به وملكوه ، وصاروا ينصبون فيه خليفة بعد خليفة ، جارين على سنن ما كانوا عليه بالشام من ألقاب الخلافة ، مضاهين خلافة بني العباس ببغداد : من إقامة شعار الخلافة ، واتخاذ ديوان الإنشاء ، وأستخدام بلغاء الكُتَّاب وتعدت دولتهم إلى بر العُدوة من بلاد المغرب فحكوه . ثم تقاصر أمرهم بعد ذلك شيئا فشيئا باستيلاء المستولين المستبدين عليهم بالأمر إلى أن انقرضت دولتهم من الأندلس وبلاد المغرب ، وأستولت عليهما طوائف من الملوك وتقلت بهم الأحوال في أستيلاء الملوك على كل ناحية منهما ، وتتابعت الدول في كل حين كلما خبت دولة نجت أخرى على ما سياتى ذكره في مكاتب ملوكهما إن شاء الله تعالى .

وكان حال ديوان الإنشاء فيهم بحسب ما يكونون عليه من الحضارة والبداوة ، فأوائل الدول القريبون عهدا بالبادية لاعناية لهم بكتابة الإنشاء ، وإذا أستحضرت الدولة صرفت آهتمامها إلى ديوان الإنشاء وترتيبه إلى أن استقر ما بقى من الأندلس بعد ما آرتجعته الفرج منه بأيدي بني الأحمر ، والغرب الأقصى بيد بني مرين ،

والغرب الأوسط بيد بنى عبد الواد، وإفريقية بيد بقايا الموحدين من أتباع المهدي
 ابن تومرت؛ وداخلتهم الحضارة، فأخذوا في ترتيب دواوين الإنشاء بهذه الممالك،
 ومعاونة البلاغة في المكاتب ونحوها؛ وأستمر الحال على ذلك إلى زماننا .

ومن أشهر بالبلاغة من كُتِّبَ المغاربة والوزراء به أبو الوليد بن زيدون،
 والوزير أبو حفص بن برد الأصغر الأندلسي، وذو الوزارتين أبو المغيرة بن خزم،
 والوزير أبو القاسم محمد بن الحد في جماعة أخرى من متقدمي كتبهم . ومن متأخريهم
 عبد المهيمن كاتب السلطان أبي الحسن المريني، وأربى على كثير من المتقدمين ابن
 الخطيب وزير ابن الأحمر صاحب غرناطة من الأندلس ممن أدركه من عاصرناه .

أما الديار المصرية فلدواوين الإنشاء بها خمس حالات :

الحالة الأولى — ما كان الأمر عليه من حين الفتح وإلى بداية الدولة
 الطولونية، ونواب الخلفاء تتوالى عليها واحدا بعد واحد فلم يكن لهم عنايةً بديوان
 الإنشاء، ولا صرفُ همة إليه : للاقتصار على المكاتب لأبواب الخلافة، والترز
 اليسير من الولايات ونحو ذلك . ولذلك لم يصدر عنهم ما يُدَوَّن في الكتب ولا
 يتناقل بالألسنة .

الحالة الثانية — ما كان الأمر عليه في الدولة الطولونية من ابتداء ولاية
 أحمد بن طولون، وأستفحال ملك الديار المصرية في الإسلام، وترتيب أمرها، وإلى
 حين آقراض الدولة الاخشيدية؛ وفي خلال ذلك ترتب ديوان الإنشاء بها، وانتظم
 أمر المكاتب والولايات؛ وكان ممن أشهر من كتبهم بالبلاغة وحسن الكتابة،
 أبو جعفر محمد بن أحمد بن مؤدود بن عبد : كان كاتب أحمد بن طولون، وكان
 مبدأ الكُتَّاب المشهورين بها . وكتب بعده لخمأرويه بن أحمد بن طولون إسحق بن
 نصر العبادي النصراني، وتوالى الكُتَّاب بالديوان بعد ذلك .

الحالة الثالثة - ما كان الأمر عليه من ابتداء الدولة الفاطمية وإلى انقراضها .
ولما ولي الفاطميون الديار المصرية ، صرفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء
وكتابه ، فارتفع بهم قدره ، وشاع في الآفاق ذكره ، وولي ديوان الإنشاء عنهم جماعة
من أفاضل الكتّاب وبلغائهم : ما بين مسلم وذمى ، فكتب للعزير بالله ابن المعز
أبو المنصور بن سوردين النصراني ، ثم كتب بعده لابنه الحاكم ومات في أيامه ،
فكتب للحاكم القاضي أبو الطاهر البهزكي ، ثم كتب بعده لابنه الظاهر . وكتب
للسنصر القاضي ولي الدين بن خيران ، ثم ولي الدولة موسى بن الحسن قبل أنتقاله
إلى الوزارة ، وأبو سعيد العميدى . وكتب للأمر والحافظ الشيخ الأجل أبو الحسن
علي بن أبي أسامة الحلبي إلى أن توفى سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة . فكتب بعده
ولده الأجل أبو المكارم إلى أن توفى في أيام الحافظ ، وكان يكتب بين يديهما الشيخ
الأمين تاج الرأسة أبو القاسم علي بن سليمان بن منجد البصرى المعروف بابن
الصيرفى ، والقاضى كافي الكفأة محمود ابن القاضى الموفق أسعد بن قادوس ، وابن
أبي الدم اليهودى . ثم كتب بهد الشيخ أبي المكارم بن أبي أسامة المتقدم ذكره
القاضى الموفق ابن الخلال أيام الحافظ ، وإلى آخر أيام العاضد ؛ وبه تخرج القاضى
الفاضل البيسانى . ثم شرك العاضد مع الموفق ابن الخلال فى ديوان الإنشاء القاضى
جلال الملك محمود بن الأنصارى وكان فى أيامه القاضى المؤمن كاسيويه . ثم كتب
القاضى الفاضل بين يدى الموفق ابن الخلال قرب وفاته فى سنة ست وستين وخمسمائة
فى وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكتب من إنشائه عدة
سجلات ومكاتبات عن العاضد آخر خلفائهم .

الحالة الرابعة - ما كان الأمر عليه من ابتداء دولة بنى أيوب إلى آخر

انقراضها .

قد تقدم أن القاضي الفاضل رحمه الله كان قد كتب بين يدي الموفق ابن الخلال في وزارة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله عن العاضد آخر خلفاء الفاطميين، فلما استقل السلطان صلاح الدين المذكور بالملك وخطب لبني العباس على ما تقدم في الكلام على ملوك مصر، ففوض إلى الفاضل الوزارة وديوان الإنشاء فكان يتكلم فيهما جميعا، وأقام على ذلك إلى أن مات السلطان صلاح الدين، فكتب بعده لابنه العزيز وأخيه العادل أبي بكر. ثم مات، وكتب للكامل بن العادل القاضي أمين الدين سليمان المعروف بكاتب الدرج إلى أن توفي، فكتب بعده للكامل الشيخ أمين الدين عبد المحسن الحلبي مدة قليلة، وتوالت كتاب الإنشاء في الولاية إلى أن ولي الملك الصالح نجم الدين أيوب فوئى ديوان الإنشاء للصاحب بهاء الدين زهيراً. ثم صرفه وولى بعده الصاحب نحر الدين إبراهيم بن لقمان الإسعدي، فبقى إلى انقراض الدولة الأيوبية.

الحالة الخامسة — ما كان الأمر عليه في الدولة التركية مما هو مستقر إلى الآن .
قد تقدم أن الصاحب نحر الدين بن لقمان بقى في ديوان الإنشاء إلى آخر الدولة الأيوبية .

ولما صارت المملكة إلى الدولة التركية، بقى في صحابة ديوان الإنشاء أيام أيك التركمانى، ثم أيام المظفر قطز، ثم أيام الظاهر بيبرس، ثم أيام المنصور قلاوون . فباشر ديوان الإنشاء في أيامه مدة، ثم نقله إلى الوزارة، وولى مكانه بديوان الإنشاء القاضي فتح الدين بن القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر في حياة والده، فبقى حتى توفي المنصور قلاوون، وأستقر بعده ابنه الأشرف خليل، وأستمر عنده في كتابة السرّ برهة من الزمان وسافر معه إلى الشام، فمات بالشام فوئى الأشرف مكانه القاضي تاج الدين أحمد بن الأثير، وقفل السلطان راجعا إلى مصر، فمات

القاضي تاج الدين في أثناء الطريق بمضى شهر من ولايته ، فوئى مكانه القاضي شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله فأقام بقية أيام الأشرف بن قلاوون ، وأيام أخيه الناصر محمد بن قلاوون في سلطته الأولى ، وأيام العادل كتبغا ، وأيام المنصور لاجين ، وأيام الناصر محمد بن قلاوون في سلطته الثانية ، وأيام مظفر بيبرس الجاشنكير ، وبرهة من أيام الناصر محمد بن قلاوون في سلطته الثالثة .

ثم نقله إلى كتابة السرّ بدمشق المحروسة عوضاً عن أخيه القاضي محي الدين بن فضل الله ، ووئى مكانه بمصر علاء الدين بن الأثير لسابق وعده منه حين كان معه في الكرك ، وبقي حتى مرض بالفالج وبطلت حركته ، فاستدعى الملك الناصر القاضي محي الدين بن فضل الله من الشام ، فولاه ديوان الإنشاء بالديار المصرية في المحرم سنة تسع وعشرين وسبعائة .

وكان ولده القاضي شهاب الدين هو الذى يقرأ البريد على السلطان وينفذ المهمات إلى سنة اثنتين وثلاثين وسبعائة فأعادهما الملك الناصر إلى دمشق ، ووئى مكانهما القاضي شرف الدين بن الشهاب محمود في شعبان من السنة المذكورة ، فبقي حتى حجّ السلطان وعاد إلى مصر ، فأعاد القاضي محي الدين ولده القاضي شهاب الدين إلى ديوان الإنشاء بالديار المصرية ، فبقيا إلى سنة ثمان وثلاثين وسبعائة .

وفي أواخر ذلك تغير السلطان على القاضي شهاب الدين المذكور وصرّفه عن المباشرة وأقام أخاه القاضي علاء الدين مكانه يباشر مع والده ، وبقي الأمر على ذلك مدة لطيفة .

ثم سأل القاضي محي الدين السلطان في العود إلى دمشق ، وقد كبرت سنه وضعفت حركته ، فأعاده وصحبته ولده القاضي شهاب الدين وكتب له تقليد في قطع

الثَّلاثين : بأن يستمر على صحابة دواوين الإنشاء بالملك الإسلامية ، وأن يكون جميع المباشرين لهذه الوظيفة بالبواب الشريف فمن دونه نوابه ، وأنه حيث حلَّ يقرأ القِصص والمظالم ، ويقرر الولايات والعزل والرواتب وغير ذلك ، ويوقع فيها بما يراه ، ويُجهز إلى مصر ليعلّم عليها العلامة الشريفة ؛ وفوض أمر ديوان الإنشاء بالديار المصرية لولده القاضي علاء الدين استقلالاً ، وتجهز القاضي محي الدين للسفر ، فمضى ومات بعد أيام قلائل في شهر رمضان سنة ثمان وثلاثين وسبعائة بالقاهرة . ثم نُقل إلى دمشق سنة تسع ، وبقي ولده القاضي علاء الدين فبقي في الوظيفة بقية أيام الملك الناصر ، ثم أيام ولده المنصور أبي بكر ، ثم أخيه الأشرف بكك ، ثم أخيه الملك الناصر أحمد .

فلما خلع الناصر أحمد نفسه في سنة ثلاث وأربعين وتوجه إلى الكرك ، توجه القاضي علاء الدين معه ، فأقام عنده ؛ وأستقرّ الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون في السلطنة بعد أخيه أحمد ، فمقرّر في ديوان الإنشاء القاضي بدر الدين محمد بن محي الدين بن فضل الله ، فبقي في الوظيفة إلى أن عاد أخوه القاضي علاء الدين من الكرك ، فأعيد إلى منصبه ، وبقي بقية أيام الملك الصالح إسماعيل ، ثم أيام أخيه الكامل شعبان ، ثم أيام أخيه المظفر حاجي ، ثم أيام أخيه الناصر حسن في سلطته الأولى ، ثم أيام أخيه الصالح صالح ، ثم أيام الناصر حسن ثانياً ، ثم أيام المنصور محمد بن حاجي بن محمد بن قلاوون ، ثم أيام الأشرف شعبان بن حسين بن محمد ابن قلاوون فتوفي ؛ وولي الوظيفة بعده ولده القاضي بدر الدين محمد ، فبقي بقية أيام الأشرف شعبان ، ثم أيام ولده المنصور علي ، ثم أيام أخيه الصالح حاجي بن شعبان إلى أن خلع ؛ وجاءت الدولة الظاهرية برقوق فقترّر في ديوان الإنشاء القاضي أوحد الدين عبد الواحد بن التركماني ، فبقي حتى توفي فأعيد القاضي بدر الدين

المذكور وبقي حتى خلع الظاهر برقوق وعاد المنصور حاجي بن الأشرف شعبان إلى السلطنة وهو مستمرّ المباشرة .

فلما عاد الظاهر برقوق من الكرك حضر معه القاضي علاء الدين عليّ الكركي ، فولاه كتابة السرّ وبقي حتى توجه صحبة السلطان إلى الشام في طلب منطاش ، فمات القاضي علاء الدين ، وكان القاضي بدر الدين صحبته فأعيد إلى الوظيفة في سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ، وعاد مولى صحبة الركاب الشريف السلطاني . ثم توجه صحبته إلى الشام عند وصول تمر لبغداد ، فمرض ومات هناك ، فوئى الظاهر مكانه القاضي بدر الدين محمود السراي الكلستاني في شوال سنة ست وتسعين وسبعمائة ، وحضر صحبة الركاب الشريف إلى الديار المصرية ، فبقي حتى توفى في جمادى الأولى سنة إحدى وثمانمائة ، فوئى الظاهر مكانه المقرّ العالی الفتحي فتحّ الله ، ففتح الله به من أبواب ديوان الإنشاء ما كان مغلقا ، وأصغى به من ورده ما كان مكذرا .

وأنقلت السلطنة بعد وفاة الظاهر برقوق إلى ولده الناصر فرج ، فأجراه من المباشرة والإجلال والتعظيم على عادة أبيه . ثم صرفه عن الوظيفة في شهور سنة ثمان وثمانمائة ، وأقام مكانه في الوظيفة المقرّ السعدى إبراهيم بن غراب ، وهو يومئذ مشير الدولة بعد تنقله في وظائف الديار المصرية والمشار إليه . وأقام بها مدة لطيفة ، وعادت إلى المقرّ الفتحي فتحّ الله المشار إليه ، وقيل : ﴿ هَذِهِ بَصَاعَتَنَا رَدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ جفرا فيما على الأسلوب الأول والمهيّج السابق : من العدل والإنصاف ، والإحسان إلى الخلق ، وإيصال البرّ إلى مستحقه ، والمساعدة في الله لمن عرف ومن لم يعرف ؛ والله هو المكافئ لعباده على جميل الصنع !

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَمْ يَعْدَمْ جَوَازِيَهُ * لَنْ يَذْهَبَ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

الباب الخامس

من المقدمة

في قوانين ديوان الإنشاء، وترتيب أحواله، وآداب أهله؛ وفيه أربعة فصول

الفصل الأول

(في بيان رتبة صاحب هذا الديوان ورفعة قدره وشرف محله

ولقبه الجارى عليه في القديم والحديث)

أما رفعة محله وشرف قدره، فأرفع محل وأشرف قدر؛ يكاد أن لا يكون عند الملك أخض منه ولا أزم مجالسته؛ ولم يزل صاحب هذا الديوان معظماً عند الملوك في كل زمن، مقدماً لديهم على من عداه: يُلَقَّون إليه أسرارهم، ويخصونه بخفايا أمورهم، ويُطلعونه على ما لم يطلع عليه أخص الأخصاء: من الوزراء والأهل والولد، وناهيك برتبة هذا محلها!

قال صاحب مواد البيان "ليس في منزلة خدام السلطان والمتصرفين في مهماته أخض من كاتب الرسائل. فإنه أول داخل على الملك وآخر خارج عنه، ولا غنى له عن مفاوضته في آرائه، والإفضاء إليه بمهماته، وتقريبه من نفسه في آناء ليله وساعات نهاره وأوقات ظهوره للعامة وخلواته، وإطلاعه على حوادث دولته ومهمات مملكته؛ فهو لذلك لا يثق بأحد من خاصته ثقتَه به، ولا يركن إلى قريب ولا نسيب رُكُونَه إليه، ومحلّه منه في عائدة خدمته وأثرة دولته محلّ قلبه الذي يؤامره في مشكل رأيه حتى يتفحّح، ويراجعه في مهمّ تدييره حتى يتضح؛ ولسانِه الذي يقرر بتربيته أوليائه على الطاعة والموافقة، ويستقر بتربيته عن المعصية والمشاqqة، ويقر بأوامره

(١) كذا في الأصل ولعله مصحف عن بفر. أو يستقر كما يقتضيه المقام

ونواهيه أمور سلطانه، ويُتْرَافُ منازلها في متمدّد مجالسها، ويتمكن من سياسة أجناده، وعمارة بلاده، ومصالحة رعيته، وأجتلاب مودّتهم، وأستخلاص نيّاتهم؛ وعينه التي تلاحظ أحوال سلطانه، ويُرْعِيها مهمات شأنه؛ وأذنه التي يثق بما وعته، ولا يرتاب بما سمعته؛ ويده التي يبسطها بالإنعام، ويبطشُ بها في النقص والإبرام .

قال : ومن كانت هذه رتبته فالسبب الذي رتبّه فيها أفضل الأسباب، وأجدرها بالتقديم على الاستحقاق والأستيجاب .

قال ابن الطوير في ترتيب الدولة الفاطمية ” وكان هذا المنصب لا يتولّاه في الدولة الفاطمية إلا أجلُّ كتاب البلاغة، ويُخاطَب بالأجلّ، وإليه تسلّم المكتّبة واردة مختمة فيعرضها على الخليفة من يده؛ وهو الذي يأمر بتزليلها والإجابة عنها وربما بات عند الخليفة ليالي؛ وهذا أمر لا يصل إليه غيره “ . قال ” وهو أوّل أرباب الإقطاعات في الكسوة والرسوم والملاطفات، ولا سبيل أن يدخل إلى ديوانه أحد ولا يجتمع بأحد من كتابه إلا الخواص؛ وله حاجب من الأمراء الشيوخ، وله في مجلسه المرتبة العظيمة والمخّاذ والمُسند، والدواة العظيمة الشأن؛ ويحمل دواته أستاذ من خواص الخليفة عند حضوره إلى مجلس الخلافة “ .

قلت : ومرتبته في زماننا أرفع مرتبة، ومحلّه أعظم محل؛ إليه تلقى أسرار المملكة وخفاياها، وبرأيه يُستضاء في مشكلاتها، وعلى تديره يعول في مهماتها، وإليه تردّ المكتّبات، وعنه تصدر؛ ومن ديوانه تُكْتَبُ الولايات السلطانية كافة، ويقوم توقيعُه على القِصص في نفوذ الأوامر مقام توقيع السلطان؛ وجميع ما يعلم عليه السلطان من جليل وحقير في مزرتّه حتى ما يُكْتَبُ من ديوان الجيش من المناشير، وما يُكْتَبُ من ديوان الوزارة وديوان الخاص وغيرهما من المُرَبّعات ونحوها . وليس

لأحد من المتولين لهذه المناصب التعرُّض لأخذ علامة سلطانية البتة، وناهيك بذلك رفعةً وشرفاً باذخاً .

وأما لقبه الجارى عليه فى كل زمن فقد تقدم أنهم كانوا فى زمن بنى أمية وما قبله يعبرون عنه بالكاتب، لا يعرفون غير ذلك كما أشار اليه القضاعى فى "عيون المعارف". فلما جاءت الدولة العباسية، وأستقر السَّفاح أول خلفائهم فى الخلافة، لُقّب كاتبه أبا سلمة الخلال بالوزارة وترك اسم الكاتب؛ وأستقر لقب الوزارة على من يليها من أرباب السيوف والأفلام إلى انقراض الخلافة من بغداد . وتقدم أيضا أن هذا الديوان كان تارة يضاف إلى الوزارة فيكون الوزير هو الذى يباشره بنفسه أو يفوضه إلى من يتحدث فيه عنه، وتارة ينفرد عنها، فحيث أنفرد عن الوزارة لُقّب متوليه بما يتضمن إضافته إلى صحابة الديوان وولايته بحسب ما يشتهر به الديوان فى ذلك الزمن .

فحيث كان الديوان مشهورا بديوان الرسائل، كما كان فى الزمن الأول، لُقّب متوليه بصاحب ديوان الرسائل أو متولّى ديوان الرسائل، وربما قيل صاحب ديوان المكاتب، أو متولّى ديوان المكاتب، وحيث كان الديوان مشهورا بديوان الإنشاء كما فى زماننا بالديار المصرية لُقّب متوليه بصاحب ديوان الإنشاء . وربما جمعوا لفظ الديوان تعظيما لمتوليه، فقالوا صاحب دواوين الإنشاء بالممالك الإسلامية . وعلى هذا مصطلح كُتاب الديوان فى زماننا فى تعريفه فيما يكتب له من تقليد أو غيره؛ على أنه لو قيل ناظر دواوين الإنشاء لكان أعلى فى الرتبة لما أشتهر فى العرف من أن لفظ ناظر الديوان أعلى من صاحب الديوان .

قال ابن الطوير : "وكانوا يلقبونه فى الدولة الفاطمية بالديار المصرية كاتب

قلت : وأتتهى الأمر إلى أوائل الدولة التركية والحال في ذلك مختلف ، فتارة يلى الديوان كاتبٌ واحد يعبر عنه بكاتب الدَّست ، وربما عُبِّر عنه بكاتب الدَّرَج ، وتارة يليه جماعةٌ يعبر عنهم بِكُتَّاب الدَّست . ويقال إنهم كانوا في أيام الظاهر بيبرس ثلاثة نفر ، أرفعهم درجةً القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر . وبقى الأمر على ذلك إلى أن ولى الديوانَ القاضي فُحَّحُ الدين بن عبد الظاهر في أيام المنصور قلاوون على ما تقدّم ذكره ، فلقَّب بكاتب السر ، ونقل لقب كاتب الدَّست إلى طبقة دُونَهُ من كُتَّاب الديوان . واستمر ذلك لقباً على كل من ولى الديوان إلى زماننا على ما سيأتى ذكره . ويضاهيه في ذلك من العُرف العام متولى ديوان الإنشاء بدمشق ، وبحلب ، وبطرابلس ، وبجماه ، وبصَفد ؛ إلا أنه لا يقال في واحد منهم في مصطلح الديوان صاحب دواوين الإنشاء كما يقال في متولى ديوان الإنشاء بالديار المصرية ؛ بل يقال في متولى ديوان دمشق صاحب ديوان الإنشاء بالشام ، وفي متولى ديوان حَلَب صاحب ديوان المكتَّبات بحلب ، وكذا في الباقيات . أما غزّة ، والكرّك ، والإسكندرية وغيرها من النيابات الصَّغار فإنما يقال في متولى شئ من دواوينها كاتب درَج ولا يطلق عليه كاتب سرّ بوجه .

وأعلم أن العامة يبدلون الباء من كاتب السَّرِّمِمْ فيقولون كاتب السر ، وهو صحيح المعنى ؛ إما لأنه يكتم سرّ الملك ، أو من باب إبدال الباء بالميم على لغة ربيعة وإن كانوا لا يعرفون الثانى .

الفصل الثانى

(في صفة صاحب هذا الديوان وآدابه)

قال أبو الفضل الصورى في مقدمة تذكرته : ” يجب أن يكون صبيح الوجه ، فصيح الألفاظ ، طلق اللسان ، أصيلاً في قومه ، رفيحاً في حيّه ، وقوراً ، حليماً

مؤثراً للجد على الهزل، كثير الأناة والرفق، قليل العجلة والخرق، نزر الضحك، مهيب المجلس، ساكن الظل، وقور النادى، شديد الذكاء، متوقد الفهم، حسن الكلام إذا حدث، حسن الإصغاء إذا حدث، سريع الرضا، بطيء الغضب، رؤوفا بأهل الدين، ساعيا في مصالحهم، محباً لأهل العلم والأدب، راغبا في فمهم، وأن يكون محبا للشغل أكثر من محبته للفراغ، مقسماً للزمان على أشغاله : يجعل لكل منها جزءا منه حتى يستوعبه في جميع أقسامها، ملازما لمجلس الملك إذا كان جالسا، وملازما للديوان إذا لم يكن الملك جالسا : ليتأشى به سائر كتاب الديوان، ولا يجحدوا رخصة في الغيبة عن ديوانهم ؛ وأن يغلب هوى الملك على هواه ورضاه على رضاه — مالم ير في ذلك خلا على الملكة، فإنه يجب أن يهدى النصيحة فيها للملك من غير أن يوجد فيه تقصير من رأيه فسادا أو نقصا، لكن يتحيل لتقص ذلك وتهجينه في نفسه وإيضاح الواجب فيه بأحسن تأن وأفضل تल्पف ؛ وأن يتحل الملك صائب الآراء ولا ينتحلها عليه ؛ ومهما حدث من الملك : من رأي صائب أو فعل جميل أو تدبير حميد، أشاعه وأذاعه، وعظمه ونغمه، وكرر ذكره، وأوجب على الناس حمده عليه وشكره . وإذا قال الملك قولاً في مجلسه أو بحضور جماعة ممن يخدمه فلم يره موافقا للصواب، فلا يجبهه بالرد عليه واستهجان ما أتى به — فان ذلك خطأ كبير؛ بل يصبر الى حين الخلو، ويدخل في أثناء كلامه ما يوضح به نهج الصواب من غير تلق برد، ولا يتبجح بما عنده، ويكون مائبا للملك على أخلاقه الفاضلة، وطباعه الشريفة : من بسط المعدلة ومد رواق الأمانة، ونشر جناح الإنصاف، وإغاثة الملهوف، ونصرة المظلوم، وجبر الكسير، والإنعام على المعتبر المستحق، والتوفر على الصدقات، وعمارة بيوت الله تعالى، وصرف الهمم الى مصالحها، والنظر في أحوال الفقهاء، وحمل كتاب الله العزيز بما يصلح، والاتفات الى عمارة البلاد، وجهاد الأعداء،

ونشر الهيبة، وإقامة الحدود في مواضعها، وتعظيم الشريعة، والعمل بأحكامها .
 فيكون لجميع ذلك مؤكّداً ، ولأفعاله فيه موطّداً ممهداً . وإن أحسن منه بحلّة تُتأق
 هذه الخلال، أو فعلةٍ تخالف هذه الأفعال، نقله عنها بأطف سعى وأحسن تدرّيج،
 ولا يدعُ ممكاً في تبين قُبْحها، وإصلاح رداءة عاقبتها، وفضيلة مخالفتها إلا بينه
 وأوضحه الى أن يعيده إلى الفضائل التي هي بالملك النبلاء أليقُ ، وأن يكون مع
 ذلك بأعلى مكانة من اليقظة والاستدلال بقليل القول على كثيره ، وبيعض الشيء
 على جميعه ، ويستغنى عن التصريح بالإشارة والإيماء، بل الرمز والإيحاء : لينبه الملك
 على الأمور من أوائلها، ويعترفه خواتم الأشياء من مُفتَحاتها ، ويحدّده حين تبدوله
 لوأخ الأمر من قبل أن يتساوى فيه العالم والجاهل — كما حكى عن خالد بن برمك :
 ”أنه كان مع قُطْبَةِ في معسكر، جالسين في خيمة إذ نظر خالد إلى سِرْب من الطباء
 قد أتى حتّى كاذ يخالط العسكر ، فأشار على قُطْبَةِ بالركوب فسأله عن السبب ،
 فقال الأمر أعجل أن أئين سببه . فركب وأركب العسكر، فلم يستتموا الركوب إلا
 والعدو قد دهمهم، وقد آستعدوا له فكانت النصرة لهم على العدو . فلما آقضى
 الحربُ سأل قُطْبَةُ خالداً من أين أدرك ذلك ؟ فقال : رأيت الطباء وقد أقبلت حتّى
 خالطت العسكر، فعرفت أنها لم تفعل ذلك مع نُفورها من الإنس إلا لأمر عظيم
 قد دهمها من ورائها“ . وأن لا يكتب عن الملك إلا ما يقيم منار دولته ويعظّمها ،
 ولا يخرج عن حكم الشريعة وحدودها ، ولا يكتب ما يكون فيه عيب على المملكة :
 ولا ذم لها على غابر الأيام، ومستأنف الأحقاب؛ وإن أمر بشيء يخرج عن ذلك،
 تلتطف في المراجعة بسببه ، وبين وجه الصواب فيه إلى أن يرجع به الى الواجب .
 وأن يكون من كتمان السر بالمنزلة التي لا يُدانيه فيها أحد، ولا يقاربه فيها بشر، حتّى
 يقرّر في نفسه إمامة كل حديث يعلمه، ويتناسى كلّ خبر يسمعه . وأن لا يُطلع والدا

ولا ولدا؛ ولا أبا شقيقا، ولا صديقا صدوقا، على ما دق أو جل؛ ولا يعلم بما كثر منه ولا قل؛ ويتوهم بل يتحقق أن في إذاعته ما يعلم به وضع منزله وخط رتبته، ويجتهد في أن يصير له ذلك طبعاً مرجحاً وأمرأ ضرورياً .

قلت : وهذه الصفة هي الشرط اللازم، والواجب المحتم : بها شهر، وبالإضافة إليها عرف . وقد قال المأمون وهو من أعلى الخلفاء مكاناً، وأوسعهم علماً : "الملوك تحمل كل شيء إلا ثلاثة أشياء : القُدح في الملك، وإفشاء السر، والتعرض للحرم" .

ومن كلام بعض الحكماء : "سرك من دمك" قال صاحب العقد : يعنون أنه ربما كان في إفشاء سرك سفك دمك . وإلى ذلك يشير أبو محجن الثقفي بقوله :

قد أظعن الطعنة النجلاء عن عرض * وأكتم السر فيه ضربة العنق

وقال الوليد بن عتبة لأبيه : "إن أمير المؤمنين أسر إلى حديثاً أفلا أخبرك به ؟ قال يا بختي : إن من كتم سره كان الخيار له ومن أفشاه كان الخيار عليه ؛ فلا تكن مملوكاً بعد أن كنت مالكا" . وقد كانت ملوك الفرس تقول "أعظم الناس حقاً على جميع الطبقات من ولي أسرار الملوك" .

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ إِذَا كَانَ إِفْشَاءُ السَّرِّ بِمَا أَفْضَى إِلَى الْهَلَكَةِ خُصُوصًا أَسْرَارَ الْمُلُوكِ ، فَعَلَى صَاحِبِ هَذِهِ الْوِظِيْفَةِ الْقِيَامُ مِنْ ذَلِكَ بِوَأَجْبِهِ وَكَيْفَانُ السَّرِّ حَتَّى عَنْ نَفْسِهِ ؛ فَقَدْ حَكِيَ صَاحِبُ "الرَّيْحَانِ وَالرَّيْعَانِ" : أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ طَاهِرٍ تَذَاكَرَ النَّاسَ فِي مَجْلِسِهِ حَفْظَ السَّرِّ ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ :

وَمُسْتَوْدِعِي سِرًّا تَضَمَّنَتْ سَرَّهُ * فَأَوْدَعْتُهُ فِي مُسْتَقَرِّ الْحَشَا قَبْرًا

فَقَالَ ابْنُهُ عِبِيدُ اللَّهِ ، وَهُوَ صَبِيٌّ :

وَمَا السَّرُّ مِنْ قَلْبِي كَمَا وَبِحُفْرَةٍ * لِأَنِّي أَرَى الْمَدْفُونِ يَنْتَظِرُ الْحَشْرًا

وَلِكَيْنِي أَخْفِيهِ حَتَّى كَانَتْنِي * مِنَ الدَّهْرِ يَوْمًا مَا أَحْطَتْ بِهِ خَبْرًا

وعلى صاحب هذه الرتبة الاحتياط حالة تلقى السر عن الملك بأن لا يتلقاه عنه بحضرة أحد . فقد حكى أن بعض ملوك العجم استشار وزيريه ، فقال أحدهما : " لا ينبغي للملك أن يستشير منّا أحدا إلا خالياً فإنه أصون للسر وأحزم للرأى وأجدر بالسلامة وأعنى لبعضنا من غائلة بعض ، فإن إفشاء السر إلى رجل واحد أو ثقت من إفشائه إلى اثنين وإفشاؤه إلى ثلاثة كإفشائه إلى جماعة ، لأن الواحد رهن بما أفشى اليه . والثاني مُطلق عليه ذلك الرهن . والثالث علاوة ، وإذا كان السر عند واحد كان أخرى أن لا يُظهره رغبةً أو رهبةً ، وإن كان عند اثنين كان على شبهة وآسعت عن الرجلين المعارضين ، فإن عاقبهما عاقب اثنين بذنب واحد ، وإن آتهمها آتهم بريئاً بجنابة مجرم ، وإن عفا عنهما كان العفو عن أحدهما ولا ذنب له ، وعن الآخر ولا حجة معه " .

قلت : وكما يجب عليه الاحتياط حالة تلقى السر عن الملك فكذلك يجب عليه الاحتياط حالة إلقائه إلى كاتب يكتبه ، فلا يلقيه إلى كاتبين جميعا ، ولا يخاطب فيه أحدهما بحضرة الآخر لتكون العهدة في دركه على واحد بعينه . على أنه ربما أفشى السر مع أحتراز صاحبه عن إفشائه ، فقد قيل : إن الجحّ تنقل الأخبار ، وتُفشى ما تُطّلع عليه من الأسرار . وقد حكى عن علي بن الجهم أنه قال : دخلت على أمير المؤمنين المتوكل فرأيت الفتح بن خاقان وزيره واقفا على غير مرتبته التي يقوم عليها ، متكئا على سيفه ، مُطرقا إلى الأرض فأنكرت حاله ، وكنت إذا نظرت اليه نظر الخليفة إلىّ ، وإذا صرفت وجهي إلى نحو الخليفة أطرق ؛ فقال لي الخليفة يا عليّ أنكرت شيئا ؟ - قلت نعم يا أمير المؤمنين ! - قال : ما هو ؟ - قلت : وقوف الفتح بن خاقان في غير منزلته ، - قال : سوء اختياره أقامه ذلك المقام ، - قلت :

(١) في الأصل أموت . وهو تصحيف ظاهر .

(٢) لعل الأظهر على .

ما السبب يا أمير المؤمنين؟ — قال: خرجت من عند جارية لي فأسررت إليه سرا
 فما عداني السر أن عاد إلى. — قلت لعلك أسررت الى غيره، — قال: ما كان
 هذا! — قلت فلعل مستمعا أستمع إليك، — قال لا ولا هذا أيضا. قال فأطرقت
 مليا ثم رفعت رأسي، فقلت: يا أمير المؤمنين قد وجدت له مما هو فيه مخرجا. —
 قال وما هو؟ — قلت: خبر أبي الجوزاء، حدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين قال حدثنا
 المعتمر بن سليمان عن أبي الجوزاء قال: طلقت امرأتى في نفسى وأنا بالمسجد ثم
 أنصرفت إلى منزلى، فقالت لي امرأتى: طلقتنى يا أبا الجوزاء! قلت من أين لك
 هذا؟ قالت حدثتنى به جارتى الأنصارية قلت: ومن أين لها هذا؟ قالت ذكرت
 أن زوجها خبرها بذلك قال: فغدوت على ابن عباس رضى الله عنهما فقصةت
 عليه القصة فقال: أما علمت أن سواس الرجل يحدث سواس الرجل؟ فمن
 هنا يفشو السر، فضحك المتوكل، وقال إلى يا فتح! فصب عليه خلعة، وحمله
 على فرس، وأمر له بمال، وأمر لي بدونه فانصرفت إلى منزلى، وقد شاطرنى
 الفتح فيما أخذ فصار إلى الأكثر.

قال أبو نعيم وكان في نفسى من حديث أبي الجوزاء شيء حتى حدثني حمزة
 ابن حبيب الزيات. قال: خرجت سنة أريد مكة فينا أنا في الطريق إذ ضللت
 راحلتى فخرجت أطلبها فإذا أنا بأثنين قد قبضا على أحس حسهما ولا أرى شخصهما
 بل أسمع كلامهما، فأخذانى إلى شيخ قاعد وهو حسن الشيبة فسأمت عليه فرد على
 السلام فأفرخ روعى. ثم قال من أين والى أين؟ قلت من الكوفة إلى مكة.
 قال: ولم تخلفت عن أصحابك؟ قلت ضللت راحلتى فبحثت أطلبها، فرفع رأسه
 الى قوم عنده، وقال: أينجوا راحلته، فأينجت بين يدي. ثم قال: تقرأ القرآن؟

(١) فى الأصول بالجيم وهو تصحيف. وصوابه بالحاء المعجمة يقال أفرخ روعه أى زال فزعه. أنظر القاموس.

قلت نعم . قال فافراً ، فقرأت حم الأحقاف حتى أتيت ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً
من الجن﴾ فقال مكانك ، أندري كم كانوا ، قلت لا . قال كُأ أربعة : وكنْتُ
أنا المخاطب عن النبي صلى الله عليه وسلم لهم ، فقلت : ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾
ثم قال أتقول الشعر ؟ قلت لا . قال فترويه ؟ قلت نعم . قال هاتمه ، فأنشدته
قصيدة زهير بن أبي سلمى "أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى" فقال لمن هذه ؟ قلت لزهير بن أبي سلمى
قال الجنى ؟ قلت لا بل الإنسى . ثم رفع رأسه الى قوم عنده ، فقال اتنوني بزهير
فأتى بشيخ كأنه قطعة لحم فألقى بين يديه — قال يا زهير — قال لبيك ! قال "أمن
أم أوفى" لمن هي ؟ قال لي — قال هذا حمزة الزيات يذكر أنها لزهير بن أبي سلمى ؛
قال : صدق وصدق ، قال وكيف هذا ؟ قال هو إلفي من الإنس وأنا تابعه
من الجن ، أقول الشيء فألقيه اليه في فهمه ويقول الشيء فأخذ عنه ، فأنا قائلها في الجن
وهو قائلها في الإنس . قال أبو نعيم : فصدق عندي حديث أبي الجوزاء أن وسواس
الرجل يحدث وسواس الرجل .

الفصل الثالث

(فيما يتصرف فيه صاحبُ هذا الديوان بتدييره، ويصرفه بقلمه،

ومتعلق ذلك اثنا عشر أمراً)

الأمر الأول

(التوقيع والتعيين)

أما التوقيع فهو الكتابة على الرقاع والقصاص بما يعتمده المكاتب من أمر الولايات
والمكاتبات في الأمور المتعلقة بالملكة ، والتحدث في المظالم ؛ وهو أمر جليل ،
ومنصب حفيظ ، إذ هو سبيل الاطلاق والمنع ، والوصل والقطع ، والولاية والعزل

إلى غير ذلك من الأمور المهمات والمتعلقات السنية . وأعلم أن التوقيع كان يتولاه في ابتداء الأمر الخلفاء ، فكان الخليفة هو الذى يُوقَّع فى الأمور السلطانية ، وفصل المظالم ، وغيرهما .

الأمر الثانى

(نظره فى الكُتُب الواردة عليه)

قال أبو الفضل الصورى : ” كان الواجب أن لا يقرأ الكُتُب الواردة على الملك إلا هو بنفسه ؛ ولما كان ذلك متعذرا عليه لوفورها ، وآتساع الدولة ، وكثرة المكاتبين من أصناف أرباب الخدم ، ووصول الكُتُب إليه من الأقطار النائية ، والممالك المتباعدة ، وضيق الزمان عن تفرغه لذلك ، وجب تفويضه إلى متولى ديوان رسائله .“

قال : ” ولما كان حال متولى صاحب الديوان كذلك لأشتماله بالحضور عند الملك فى بعض الأوقات لقراءة الكُتُب الواردة ، وتقرير ما يجاب به عن كل منها ، مع شغله بتصفُّح ما يكتب فى الديوان والمقابلة به ، احتاج أن يرد أمرها إلى كاتب يقوم مقامه “

على ما سيذكر فى صفات كُتَّاب الديوان فيما بعد إن شاء الله تعالى .

الأمر الثالث

(نظره فيما يتعلق برده الأجوبة عن الكُتُب الواردة على لسانه)

قال أبو الفضل الصورى : ” ومن أهم ما يلزم صاحب هذا الديوان إشعار الملك ما يراه من الآراء الصائبة ويعلمه أن من أعظمها خطرا أن يُصدَّر جواب كل كتاب يصل إليه فى يومه ولا يؤخره إلى غده ويؤخره فى آخره بتاريخ ذلك اليوم “

فيقال : ” وكُتِب فى يوم وصول كتابك ، وهو يوم كذا “

فإن ذلك يقيم للملك هبة كبيرة ، ويدل

على تطلّعه للأُمور، وانتصابه للتدبير، وقلة إهماله لأُمور دولته، وكثرة احتفاله باستقامة شُؤونها، ويؤثّر في نفس المكاتبين تأثيرا كبيرا، ويستشعرون منه حدّرا وخيفة“.

قال : ”وينبغي أن يأخذ جميع أرباب الخدم في البلاد بتاريخ كتبهم ويحدّثهم من ترك ذلك؛ فإن في إهماله ضررا كبيرا من حيث إنه إذا ورد غير مؤرّخ لم يعلم بعدّ العهد بما ذكر فيه من قُربه، ولا هل فات وقت النظر فيما تضمّنه أم لا؛ وإذا كان مؤرّخا عرف ذلك وزالت الشبهة فيه، وإذا وصل إليه كتاب اقتضى تاريخه زيادة زمن على مسافة الطريق، أنكر ذلك على حامله فإن خرج عن العهدة بإقامة الحجّة على أنه لم يتأخّر به قدرا زائدا على مسافة طريقه، وأن العذر من تقدّم التاريخ قبل إرساله، أنكر ذلك على مرسله إنكارا يردّعه عن ذلك ويزجره عنه .

الأمر الرابع

(نظره فيما تفاوت به المراتب في المكاتب والولايات : من الأفتتاح

والدعاء، والألقاب، وقطع الورق ونحو ذلك)

وقد كان هذا الباب في الزمن المتقدم في غاية الضبط والتحرير، خصوصا في زمن الخلفاء من بنى العباس والفاطميين؛ لا يُزاد أحد في الألقاب على ما لقبه به الخليفة كبيرا كان أو صغيرا، ولا يُسمح له بزيادة الدعوة الواحدة فضلا عما فوقها. أما الآن فقد صار ذلك موكولا إلى نظر صاحب ديوان الإنشاء ينزل كل أحد من المكاتبين وأرباب الولايات منزله على ما يقتضيه مصطلح الزمان من علو وهبوط؛ وحينئذ فعليه أن يحتاط في ذلك ويؤاخذ كتاب الإنشاء بالمشاحة فيه، والوقوف عند ما حدّ لهم من غير إفراط ولا تفريط. فقد قال صاحب موادّ البيان : ”إن الملوك تسمح ببدرات المال، ولا تسمح بالدعوة الواحدة“ وناهيك بذلك تشديدا واحتياطا .

الأمر الخامس

(نظره فيما يكتب من ديوانه وتصفحه قبل إخراجِه من الديوان)

قال أبو الفضل الصموري : " على متولى الديوان أن يتصفح ما يكتب من ديوانه من الولايات والمناشير والمكاتبات ؛ إذ الكاتب غير معصوم من الخطأ واللحن وسبق القلم ؛ وعيب الإنسان يظهر منه لغيره مالا يظهر له ، فما أبصره من لحن أو خطأ أصلحه ونبه كاتبه عليه فيحذر من مثله فيما يستأنفه ، فإن تكرر منه زجره عن ذلك ، وردعه عن العود إلى مثله ؛ إذ الغرض الأعظم أن يكون كل ما يكتب عن الملك كامل الفضيلة خطأ ولفظاً ومعنى وإعراباً حتى لا يجد طاعن فيه مطعناً ، فربما زلّ الكاتب في شيء فيزل بسببه متولى الديوان . بل السلطان . بل الدولة بأسرها . قال : فإذا فرغ من عرض الكتاب والوقوف عليه ، كتب عليه بخطه ما يدل على وقوفه عليه ليكون ملزماً بذكره " .

وكانه يشير إلى ما تقدم من كلامه : من أنه إن كان رسالة كتب عنوانها بخطه ؛ وإن كان منشوراً ونحوه ، كتب تاريخه بخطه .

ثم قال : " فإن كان متولى الديوان مشغلاً بحضور مجلس السلطان ومخاطباته والتلقّ عنه ، ولا يمكنه مع ضيق الزمان توفية كل ما يكتب بالديوان حق النظر فيه وتصفح ألفاظه ومعانيه ، نصب له في ذلك نائباً كامل الصنعة حسن الفطنة موثقاً به فيما يأتي ويذكر ، يقوم مقامه في ذلك " . قال : " وليس ذلك لأنه يغنى عن نظر متولى الديوان ، ولكن ليتحمل عنه أكثر الكل ويصير إليه وقد قارب الصحة أو بلغها فيحصل على الراحة من تعبها ، ويصرف نظره إلى ما لعله خفى على المتصفح من دقائق المعاني وعويص المدارك ، فيقلّ زمن النظر عليه ، ويظفر بالغرض المطلوب في أقرب وقت " .

(١) العويص بالعين المهملة وهو ما يعسر فهمه . وانجامة في الأصول تصحيف .

الأمر السادس

(نظرة في أمر البريد ومتعلقاته، وهو من أعظم مهمات السلطان،

وأكد روابط الملك)

قال زياد لحاجبه : ”وليتك حجابي وعزيتك عن أربع : هذا المنادى إلى الله في الصلاة والفلاح فلا توجّهنّ عنى ، ولا سلطان لك عليه ؛ وصاحب الطعام ، فإن الطعام إذا أعيد تسخينه فسد ؛ وطارق الليل فلا تحجبه فشرّ ما جاء به ، ولو كان خيرا ما جاء في تلك الساعة ؛ ورسول الثغر ، فإنه ان أبطأ ساعة أفسد عمل سنة فادخله على ولو كنت في لحافي“ . وقد تقدّم أن صاحب ديوان الإنشاء هو الذى يتلقى المكاتبات الواردة ويقرؤها على السلطان ويجاوب عنها ، فيجب على صاحب هذه الوظيفة أن يكون متيقظا لما يرد على السلطان من نواحي ممالكه وقاصيات أعماله فإنه المعتمد عليه في ذلك والمعول عليه في أمره .

وقد كان أمر البريد في الزمن المتقدم والدوادارية يومئذ أمراء صغار وأجناد معدون لصاحب ديوان الإنشاء ، تخرج رسالة السلطان على لسان بعض الدوادارية بما يرسم به لمن يركب البريد في المهمات السلطانية وغيرها ويأتى بها إلى صاحب ديوان الإنشاء فيعلق رسالته على ما تقدّم في تعليق الرسالة ويعمل بمقتضاها . وكان للبريد ألواح من نحاس كل لوح منها بقدر راحة الكف أو نحوها منقوش على أحد وجهيه ألقاب السلطان ، وعلى الوجه الآخر لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . وفى رقبة شربة من حير أصفر يجعلها راكب البريد فى عنقه ويرسل اللوح على صدره علامة له . فإذا حضرت الرسالة إلى كاتب السر دفع إلى البريدى لوحا من تلك الألواح وكتب له ورقة بخطه إلى أميرأخور البريد بالإصطبل السطاني بما تبرّزه الرسالة من الخيل ،

ويكتبُ اسمه في آخر الكتاب الذي يُنفذ معه بين السطور، ويختم الكتاب،
ويُسَلِّمُ إليه، ويكتب له ورقة طريق بالتوجه إلى جهة قصده، وحمله على ما رَسِمَ
له به من خيل البريد على ما سيأتي ذكره في الكلام على كتابة أوراق الطريق،
ويترك اسمه وتاريخ سفره، والجهة التي توجه إليها، والشغل الذي توجه بسببه بدفتر
بالديوان.

فلما عظم أمر الدوادارية وأستقرت عند الدوادار كاتب من كتّاب الدست يعلق
عنه الرسالة على ما تقدم في الكلام على تعليق الرسالة، رجع أكثر الأمر في ذلك إلى
الدوادار، وصار كاتب الدست الذي يخدمه يعلق الرسالة عنه بذلك كما يعلقها عنه
في غيره على ما تقدم. فإن كان البريد إلى جهة الشام كتب في ورقة لطيفة يرسم
برسالة المقرّ المحذوم الفلاني أمير دوادار الناصري أو الظاهري مثلا أعز الله تعالى
أنصاره أن يكتب ورقة طريق شريفة باسم فلان الفلاني المرسوم له بالتوجه إلى
الجهة الفلانية، ويحمل على فرس أو فرسين أو أكثر من خيل البريد. ثم يؤرخ.
وإن كان البريد إلى الوجه القبلي أو البحري أو غير ذلك كتب: أن يكتب ورقة
فرس بريد باسم فلان الفلاني من غير تعرض لذكر ورقة طريق، وباقي الكلام على
نحو ما تقدم، ويؤرخ ويجهز تلك الورقة صحبة البريدي إلى صاحب ديوان الإنشاء
فيخلد الورقة بديوانه عند دواداره في جملة أضياب الديوان، ويكتب له في ورقة
صغيرة أيضا ما مثاله: أميرأخور البريد المنصور، يحمل فلان الفلاني على فرس واحد
أو أكثر من خيل البريد المنصور عند توجهه إلى الجهة الفلانية ويؤرخ، ويدفع
إلى البريدي ليدفعها إلى أميرأخور البريد تخلد عنده، ويكتب اسم البريدي
في آخر الكتاب على ما سيأتي في أول المكاتبات إن شاء الله تعالى، ويختم الكتاب
ويدفع إليه.

قلت : وقد بطل الآن ما كان من أمر الألواح وتركت ، وصار كل بريدي عنده سُرابة حرير صفراء يجعلها في عنقه من غير لوح . اللهم إلا أن يتوجه البريدي إلى مملكة من الممالك النائية ، فيحتاج إلى اللوح لتعارف أمر المملكة القديمة . وكذلك الحكم فيمن يتوجه إلى الأبواب السلطانية من نيابة من نيابات المملكة في ورقة الطريق وخيل البريد . ولصاحب ديوان الإنشاء التنبه على مصالح مراكز خيل البريد في الديار المصرية وغيرها .

وسأتي الكلام على مراكز البريد بمصر والشام ، مفصلة في موضعها إن شاء الله تعالى .
وأعلم أنه يجب على الناظر في أمر البريد : من الملك فمن دونه أن يحتاط فيمن يرسله في الأمور السلطانية ، فيوجه في كل قضية من يقوم بكفائها وينهض بأعبائها ، ويختص الملوكة وأكابر النواب بأكابر البريدية وعقلائهم وأصحاب التجارب منهم ، خصوصا في المهمات العظيمة التي يحتاج الرسول فيها إلى تميم الكلام ، وتحسين العبارة ، وسماع شبهة المرسل إليه ، ورد جوابه واقامة الحجج عليه ، فإنه يقال : يُستدل على عقل الرجل بكتابه وبرسوله . وقد قيل : من الحق على رسول الملك أن يكون صحيح الفكرة والمزاج ، ذا بيان وعارضة ولين وأستحكام منعة ؛ وأن يكون بصيرا بخارج الكلام وأجوبته ، مؤديا للألفاظ عن الملك بمعانيها ، صدوقا بريئا من الطمع . وعلى مرسله امتحانه قبل توجيهه في مقاصده ؛ ولا يرسل إلى الملوكة الأجانب ، إلا من آخبره بتكرير الرسائل إلى نوابه وأهل مملكته . فقد كان الملوكة فيما سلف من الزمن إذا آثروا إرسال شخص لمهم ، قدموا امتحانه بإرساله إلى بعض خواص الملك ممن في قرار داره ، في شيء من مهماته ، ثم يجعل عليه عينا فيما يرسل به من حيث لا يشعر ، فإذا أدى الرسول رسالته رجع بجوابها وسأل الملك عينه ، فإن

(١) في الأصل ويرد وهو تصحيف ظاهر .

طابق ما قاله الرسول ما أتى به من هو عين عليه وتكرر ذلك منه ، صارت له الميزة
والتقدمة عند الملك ووجهه حينئذ في مهمات أموره .

وكان أردشير بن بابك آخر ملوك الفرس يقول : ”حق على الملك الحازم إذا وجهه
رسولا إلى ملك أن يردفه بأخر، وإن وجهه برسولين وجه بعدهما باثنين، وإن أمكنه
أن لا يجمع بين رسله في طريق فعل“ .

ومن الحزم أن الرسول إذا أتاه برسالة أو كتاب في خير أو شر أن لا يحدث في ذلك
شيئا حتى يرسل مع رسول آخر يحكى له كتابه أو رسالته حرفا حرفا ومعنى معنى فإن الرسول
ربما فاتته بعض ما يؤمله فأفعل الكتب ، وغير ماشوفه به فأفسد ما بين المرسل والمرسل
إليه : من ملك أو نائب ونحوهما ؛ وربما أدى ذلك إلى وقوع فتنة بين الملكين ،
أو خروج النائب عن الطاعة وتفانم الأمر بسبب ذلك وسرى إلى ما لا يمكن تداركه .

وقد حكى أن الإسكندر وجه رسولا إلى بعض ملوك الشرق بخفاء برسالة شك
الإسكندر في حرف منها فقال له : ”وَيْلَكَ ! إن الملوك لا تخلو من مقوم ومسدد
إذا مالت وقد جئتنى برسالة صحيحة الألفاظ بينة المعاني ، وقد وجدت فيها حرفا
ينقضها ؛ أفعلين يقين أنت من هذا الحرف أم شك فيه ؟ فقال بل على يقين منه
أنه قاله . فأمر الإسكندر أن تكتب الألفاظ حرفا حرفا ويعاد إلى الملك الذي جاء
ذلك الرسول من عنده مع رسول آخر فيقرأ عليه ويترجم له . فلما وصل الرسول
الثاني إلى ذلك الملك وقرأ عليه ما كتب إليه به الإسكندر في أمر ذلك الرسول ،
أنكر ذلك الحرف الذي أنكره الإسكندر وقال للترجم : ”ضع يدك على هذا الحرف“
فوضبها فأمر أن يعلم بعلامة وقال : ”إنى أجل ما وصل عن الملك أن أقطعه
بالسكين ، ولكن ليصنع هو فيه وفي قائله ما شاء“ . وكتب إلى الإسكندر :
”إن من أسس المملكة صحة لهجة الرسول ؛ إذ كان عن لسانه ينطق ، وإلى أذنه

يؤدى". فلما عاد الرسول إلى الإسكندر دعا برسوله الأول وقال: "ما حملك على كلمة قصدت بها إفساد ما بين ملكين؟" فأقر أن ذلك كان منه لتقصير رآه من الملك، فقال له الإسكندر: "فأراك قد سعيت لنفسك لا لنا! فاتك ما أملت بما لا تستحقه على من أرسلت إليه فجعلت ذلك نارا تُوقعه في الأنفس الخطيرة الرفيعة! ثم أمر بلسانه فتزع من قفاه." وكأنه رأى إتلاف نفس واحدة أولى من إتلاف نفوس كثيرة بما كان يُوقعه بين الملكين من العداوة ويشير من الإحن وضعائن الصدور.

وقد كان أردشير بن بابك يقول: "كم من ديم سفك الرسول بغير حله! وكم من جيوش هزمت وقيل أكثرها! وكم حرمة انتهكت! وكم مال هُيب وعقد نُقض بخيانة الرسل وأكاذيب ما يأتون به!"

الأمر السابع

(نظره في أمر أبراج الحمام ومتعلقاته)

سيأتى فيما بعد أن شاء الله تعالى أن بالديار المصرية أبراج الحمام الرسائلى يجمل البطائق في أجنحته من مكان إلى مكان؛ منها برج بقلعة الجبل، وأبراج بطريق الشام بمدينة بلبليس، وأبراج بطريق الإسكندرية. وكان قبل ذلك يدرج إلى قوص، ومنها إلى أسوان وعيذاب ما يقطع ^(١) ذلك الآن. وحمام كل برج يُنقل منه في كل يوم إلى البرج الذى يليه ليطلب برجه الذى هو مستوطنه إذا أرسل. فإذا عرض أمر مهم أو ورد بريد أو غيره ممن يحتاج إلى مطالعة الأبواب السلطانية به إلى مكان من الأمكنة التى فيها برج من أبراج الحمام، كتب إليها المتحدث فيها بذلك للأبواب السلطانية، وبعث بها على أجنحة الحمام. وقد جرت العادة

(١) كذا في الأصل ولعله فاقطع ذلك الآن.

(٢) صوابه مما كما هو واضح.

أن تكتب بطاقتان وتؤرخان بساعة كتابتهما من النهار، ويعلق كل منهما في جناح طائر من الحمام الرسائلي ويُرسلان، ولا يكتفى بواحد لأحتمال أن يعرض له عارض يمنع من الوصول إلى مقصده . فاذا وصل الطائر إلى البرج الذي وجه به إليه ، أمسكه البراج وأخذ البطاقة من جناحه وعلقها بجناح طائر من حمام البرج الذي يليه أى من المتقول إلى ذلك البرج، وعلى ذلك حتى ينتهي إلى برج القلعة فيأخذ البراج الطائر والبطاقة في جناحه ويحضره بين يدي الدوادر الكبير فيعرض عليه ، فيضع البطاقة عن جناحه بيده . فإن كان الأمر الذي حضرت البطاقة بسببه خفيفا لا يحتاج إلى مطالعة السلطان به ، استقل الدوادر به ، وإن كان مهماً يحتاج إلى إعلام السلطان به ، استدعى كاتب السر وطبع لقراءة البطاقة على السلطان كما يفعل في المكاتبات الواردة . وكذلك الحكم فيما يطراً من المهمات بالأبواب السلطانية فإنه يوجه بالحمام من برج القلعة إلى الجهة المتعلقة بذلك المهم . وفي معنى ذلك كل نيابة من النيابات العظام بالممالك الشامية كدمشق، وحلب، وطرابلس ونحوها مع ما تحتها من النيابات الصغار والولايات ، على ما سيأتى ذكره في مواضعه إن شاء الله تعالى .

الأمر الثامن

(نظره في أمور النداوية)

وهم طائفة من الإسماعيلية المنتسبين إلى إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ! ، من فاطمة بنت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم . وهم فرقة من الشيعة معتقدتهم معتقد غيرهم من سائر الشيعة أن الإمامة بعد النبي صلى الله عليه وسلم !

انتقلت بالنص إلى علي بن أبي طالب رضى الله عنه، ثم إلى ابنه الحسن، ثم إلى أخيه الحسين، ثم تنقلت في بني الحسين إلى جعفر الصادق، ثم هم يدعون انتقال الإمامة من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل، ثم تنقلت في بنه .

وسموا الفداوية لأنهم يقادون بالمال على من يقتلونه . ويسمون في بلاد العجم بالباطنية لأنهم يبطنون مذهبهم ويخفونه، وتارة بالملاحدة لأن مذهبهم كله إلحاد . وهم يسمون أنفسهم أصحاب الدعوة الهادية . وسأتي الكلام عند ذكر تخليفهم في الكلام على الأيمان إن شاء الله تعالى . وكانوا في الزمن المتقدم قد علت كلمتهم ، وأشدت شكيهم ، وقويت شوكتهم ، وأستولوا على عدة قلاع ببلاد العجم وبلاد الشام . فأما بلاد العجم فكان بداية قوتهم وانتشار دعوتهم في دولة السلطان ملكشاه السلجوقي في المائة الخامسة . وذلك أنه كان من مقدميهم رجل اسمه عطاش فنشأ له ولد يسمى أحمد فتقدم في مذهبهم وارتفع شأنه فيهم ، وألم به من في بلاد العجم منهم ، فغلب على قلعة بأصبهان ، كان قد بناها السلطان ملكشاه المتقدم ذكره ، وقلعة بالطالقان تعرف بقلعة الموت ؛ وكان من تلامذته رجل يقال له الحسن بن الصياح ذو شهامة وتقدم في علم الهندسة والحساب والنجوم والسحر ، فآتهم بالدعوة للخلفاء الفاطميين ، وهم من جملة طوائف الإسماعيلية ففر الحسن بن الصياح منه هاربا إلى مصر ، وبها يومئذ المستنصر بالله خامس خلفاء الفاطميين فأكرمه وأحسن نزهة ، وأمره بأن يخرج إلى البلاد للدعوة إلى إمامته فأجابه إلى ذلك ، وسأله من الإمام بعده ، فقال له : ابني نزار وهو الذي تنسب إليه التزارية منهم . فخرج ابن الصياح من مصر وسار إلى الشام ، والجزيرة ، وديار بكر ، وبلاد الروم يدعو إلى إمامة المستنصر . ثم آبنه نزار من بعده ، وسار إلى خراسان وجاوزها إلى ما وراء النهر ، ودخل كاشغر يدعو إلى ذلك ، ثم عاد إلى الطالقان وأستولى على قلعة الموت في سنة ثلاث وثمانين

وأربعمائة ، ثم استولى على قلعة أصبهان وأستضاف إليها عدّة قلاع بتلك النواحي في سنة تسع وتسعين وأربعمائة ، وقويت شوكة هذه الطائفة بتلك البلاد ، وعظم أمرها ، وخافها الملوك وسائر الناس ، وبقي ابن الصياح على ذلك حتى مات في سنة ثمان عشرة وخمسمائة . وتقلت تلك القلاع بعده حتى صار أمرها إلى شخص من عقبه يسمى جلال الدين بن حسن الكيما الصياحي فأظهر التوبة في سنة سبع وخمسين وخمسمائة ، وبقي على ذلك إلى سنة ثمان وستمائة ، فأظهر شعائر الإسلام ، وكتب إلى جميع قلاع الإسماعيلية ببلاد العجم والشام ، فأقيمت فيها ، وبقي حتى توفّي سنة ثمان عشرة وستمائة ، وقام بعده ابنه علاء الدين محمد ، وتداول مقدموهم تلك القلاع إلى أن خرج هولاكو على بلاد العجم في سنة ست وخمسين وستمائة باستصراخ أهل تلك البلاد من عيّنهم وفسادهم ، فخرّب قلاعهم عن آخرها .

وأما بلاد الشام فكان أول قوتهم بها أنه دخل منهم إلى الشام رجل يسمى بهرام بعد قتل خاله إبراهيم الأسد ابادي ببغداد في أيام تاج الملوك بوري صاحب الشام ، وصار إلى دمشق ودعا إلى مذهبه بها ، وعاضده سعيد المردغاني وزير بوري حتى علت كلمته في دمشق وسلم له قلعة بانياس ، فعظم أمر بهرام وملك عدّة حصون بالجبال أظنها القلاع المعروفة بهم إلى الآن ، وهي سبع قلاع بين حماه وحمص متصلة بالبحر الرومي على القرب من طرابلس : وهي مضياف ، والرصافة ، والحوّابي . والقُدُموس ، والكهف ، والعليقة ، والمينقة ، ومن هنا سميت بقلاع الدعوة . وكان آخر الأمر من بهرام أنه قُتل في حرب جرت بينه وبين أهل وادي التيم ، وقام مقامه بقلعة بانياس رجل منهم اسمه إسماعيل ، وأقام الوزير المردغاني عوض بهرام بدمشق رجلا منهم اسمه أبو الوفاء فعظم أمره بدمشق حتى صار الحكم له بها ، وهم بتسليمها

(١) لعلها بُلُنْيَاس . قال ياقوت كورة ومدينة صغيرة وحصن بسواحل حمص .

للفرنج على أن يسأموه صورَ عوضاً منها، فشعر به بوري صاحب دمشق فقتله وقتل وزيره المردغاني ومن كان بدمشق من هذه الطائفة، ولم يزل أمرهم يتنقل بالشام لواحد بعد واحد من مقدميهم إلى أن كان المقدم عليهم في أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أبو الحسن راشد الدين سنان البصرى وكان بينهم وبين السلطان صلاح الدين مباينةً ووثبوا عليه مراتٍ ليقتلوه فلم يظفروا بذلك إلى أن حاصر قلاعهم في سنة اثنتين وسبعين وخمسة مائة وضيق عليهم، فسألوه الصَّفح عنهم فأجابهم إلى ذلك وبقي راشد الدين سنان مقدماً عليهم حتى مات في سنة ثمان وثمانين وخمسة مائة .

قال في مسالك الأبصار: "وهم يعتقدون أن كل من ملك مصر كان مظهراً لهم، ولذلك يتولونه ويرون إتلاف نفوسهم في طاعته لما ينتقل إليه من النعم الأكبر بزعمهم". قال: "ولصاحب مصر بمشايعتهم منيةً يخافه بها أعداؤه لأنه يرسل منهم من يقتله ولا يبالي أن يقتل بعده، ومن بعثه إلى عدوله فجبن عن قتله قتله أهله إذا عاد إليهم، وإن هرب تبعوه وقتلوه".

قلت: وكانوا في الزمن المتقدم يُسمون كبيرهم المتحدث عليهم تارة مقدم الفداوية، وتارة شيخ الفداوية. أما الآن فقد سمو أنفسهم بالمجاهدين وكبيرهم بأتابك المجاهدين؛ وقد كانت السلاطين في الزمن المتقدم تمنع هؤلاء من مخالطة الناس فلا يخرجون من بلادهم إلى غيرها إلا من رُسم له بالخروج لما يتعلق بالسلطان ولا يُمكن أحد من التجار من الدُّخول إلى بلادهم لشراء قماش وغيره. وكان يكتب بذلك مراسيم من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية ويوجه بها لئيب الشام المحروس. وسيأتي إيراء شيء من نسخ هذه المراسيم عند ذكر مرسوم أتابكهم في الولايات إن شاء الله تعالى!

الأمر التاسع

(نظره في أمر العيون والجواسيس)

وهو جزء عظيم من أسس الملك وعماد المملكة . وعلى صاحب ديوان الإنشاء مداره وإليه رجوع تديره واختيار رجاله وتصريفهم . فيجب عليه الاحتياط في أمر الجواسيس أكثر مما يحتاط في أمر البريد والرسل : لأن الرسول قد يتوجه إلى الصديق وقد يتوجه إلى العدو والجاسوس لا يتوجه إلا إلى العدو ، وإذا موثق بجاسوسه فإنه إلى ما يأتي به صائر ، وعليه معتمد ، وبه فاعل .

وقد شرطوا في الجاسوس شروطا :

منها أن يكون ممن يؤثق بنصيحته وصدقه ، فإن الظنين لا يُتَّعَّ بخبره وإن كان صادقا لأنه ربما أخبر بالصدق فأثمهم فيه فتفتت فيه المصلحة . بل ربما آثر الضرر لمن هو عين له إذ المتهم في الحقيقة عينٌ عليك لا عون لك . وكيف يكون المتهم أمينا ! لاسيما فيما يصرف فيه جليل الأموال من القضايا العظيمة إن سلمت نفيسات النفوس .

ومنها أن يكون ذا حدس صائب وفراسة تامة : ليدرك بوقور عقله وصائب حدسه من أحوال العدو والمشاهدة ما كتموه عن النطق به ، ويستدل فيما هو فيه ببعض الأمور على بعض فإذا تفرس في قضية ولاح له أمر آخر يعضدها قوى بحثه فيها بانضمام بعض القرائن إلى بعض .

ومنها أن يكون كثير الدهاء والحيل والخديعة : ليتوصل بدهائه إلى كل موصل ، ويدخل بحيلته في كل مدخل ، ويدرك مقصده من أى طريق أمكنه . فإنه متى كان قاصرا في هذا الباب أو شك أن يقع ظفر العدو به أو يعود صقر اليدين من طلبته .

ومنها أن يكون له دُرْبَةٌ بالأسفار ومعرفةً بالبلاد التي يتوجه إليها : ليكون أغنى له عن السؤال عنها وعن أهلها ، فربما كان في السؤال تنبُّه له وتيقُّظ لأمره فيكون ذلك سببا لهلاكه ؛ بل ربما وقع في العقوبة وسئل عن حال ملكه فدلَّ عليه وكان عينا عليه لا له .

ومنها أن يكون عارفا بلسان أهل البلاد التي يتوجه إليها لِيَلْتَقَطَ مَا يَقَعُ مِنَ الْكَلَامِ فَمَا يَذْهَبُ بِسَبَبِهِ مِمَّنْ يَخَالِطُهُ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْمَمْلَكَةِ وَسُكَّانِ الْبِلَادِ الْعَالَمِينَ بِأَخْبَارِهَا ، وَلَا يَكُونُ مَعَ ذَلِكَ مِمَّنْ يُتَمِّمُ بِمَمْلَأَةِ أَهْلِ ذَلِكَ اللِّسَانِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْغَالِبَ عَلَى أَهْلِ كُلِّ لِسَانٍ آتِحَادُ الْجَنْسِ ، وَالْجَنْسِيَّةُ عِلَّةُ الضَّمِّ .

ومنها أن يكون صَبُورًا عَلَى مَا لَعَلَهُ يَصِيرُ إِلَيْهِ مِنْ عُقُوبَةٍ إِنْ ظَفَرَ بِهِ الْعَدُوُّ بِحَيْثُ لَا يَخْبِرُ بِأَحْوَالِ مَلِكِهِ وَلَا يُطْلِعُ عَلَى وَهْنِ فِي مَمْلَكَتِهِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَنْجُلِصُهُ مِنْ يَدِ عَدُوِّهِ ، وَلَا يَدْفَعُ سَطْوَتَهُ عَنْهُ . بَلْ وَلَا يَعْتَرِفُ أَنَّهُ جَاسُوسٌ أَصْلًا ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَحْتَمُّ هَلَاكَهُ وَيُقْضَى إِلَى حَتْفِهِ : إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَا يَسِعُ اسْتِعَابُهَا . فَإِذَا وَجَدَ مِنَ الْعْيُونِ وَالْجَوَاسِيسِ مَنْ هُوَ مُسْتَكْمَلٌ لِهَذِهِ الشَّرَائِطِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُظَهِّرَ لَهُمُ الْوُدَّ وَالْمَصَافَاةَ وَلَا يُطْلِعَ أَحَدًا مِنْهُمْ فِي زَمَنِ تَصَرُّفِهِ لَهُ أَنَّهُ يَتَمَمُّ وَلَا أَنَّهُ غَيْرُ مَأْمُونٍ لَدَيْهِ ؛ فَرَبَّمَا أَذَاهُ ذَلِكَ فِي أَضْيَاقِ الْأَوْقَاتِ أَنْ يَكُونَ عَيْنًا عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّ الضَّرُورَةَ قَدْ تَلَجَّئَتْ لِمِثْلِ ذَلِكَ ، خُصُوصًا إِنْ جَدَّ بِهِ إِلَى ذَلِكَ جَاذِبٌ يَسْتَمِيلُهُ عَنْهُ مَعَ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الضَّرُورَةِ ، وَالضَّرُورَةُ قَدْ تَحْمِلُ الْإِنْسَانَ عَلَى مَفَاسِدِ الْأُمُورِ ، وَيُجْزِلُ لَهُمُ الْإِحْسَانَ وَالْبِرَّ ، وَلَا يُغْفَلُ تَعَاهُدُهُمُ بِالصَّلَاتِ قَبْلَ أَحْتِيَاجِهِ إِلَيْهِمْ . وَيَزِيدُ فِي ذَلِكَ عِنْدَ تَوَجُّهِهِمْ إِلَى الْمَهْمَاتِ ، وَتِيْعَهْدِ أَهْلِيهِمْ فِي حَضُورِهِمْ وَغَيْبَتِهِمْ لِيَمْلِكَ بِذَلِكَ قُلُوبَهُمْ وَيَسْتَصْفِي بِهِ خُوطَرَهُمْ . وَإِنْ قُضِيَ عَلَى مَنْ بَعَثَهُ مِنْهُمْ بِقَضَاءِ أَحْسَنَ إِلَى مَنْ خَلَّفَهُ مِنْ أَهْلِهِ ، وَجَعَلَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ مِنَ الْإِحْسَانِ مَا كَانَ يَجْعَلُهُ لَهُ

إذا ورد بنفسه عليه ليكون ذلك داعيا لغيره على النصيحة . وإن قُدِّرَ أن عاد منهم أحد غير ظافر بقصد أو حاصل على طلبية وهو ثقة، فلا يستوحش منه بل يؤليه الجميل، ويعامله بالإحسان؛ فانه إن لم ينجح المرة نجح الأخرى . وعليه أن يحترز عن أن تعرف جواسيسه بعضهم بعضا لا سيما عند التوجه للهمات . وإن استطاع أن لا يجعل بينه وبينهم واسطة فعل، وإن لم يمكنه ذلك جعل لكل واحد منهم رجلا من بعض خاصته يتولى إيصاله إليه فإنه إذا علم بعضهم ببعض ربما أظهره، بخلاف ما إذا أختص الواحد بالسر . وأيضا فانه لا يؤمن اتفاقهم عليه وممالأتهم لعدوه . وكذلك يحترز عن تعزف أحد من عسكره عيونَه وجواسيسه؛ فان ذلك ربما يؤدى إلى أنتشار السرّ والعود بالمفسدة . وعليه أن يصنع إلى ما يليق به إليه كل من جواسيسه وعيونه وإن اختلفت أخبارهم ويأخذ بالأحوط فيما يؤدبه إليه أجهاده من ذلك ولا يجعل إختلافهم ذنبا لأحد منهم، فقد تختلف أخبارهم وكل منهم صادق فيما يقوله؛ إذ كل واحد قد يرى ما لا يرى الآخر، ويسمع ما لا يسمعه . وإذا عثر على أحد من جواسيسه بزلة فليسترها عنه وعليه، ولا يعاقبه على ذلك ولا يوبخه عليه فان وبخه ففي خلوة بلطف مذكرا له أمر الآخرة وما في ممالأة العدو والخيانة من الوبال في الآخرة . ولا بأس بأن يجرى له ذكر ما عليه من مصافاته ومودته وأنه مع العدو على غرر لا يدري ما هو صائر إليه؛ فان ذلك أذعى لأستصلاحه . ولا شك أن أستصلاحه إما في الوقت أو فيما بعد خير من ثبات فساده، فربما أذاه ذلك الى ممالأة العدو ومباطئته، لا سيما إذا كان العدو معروفا بالحلم والصفح، وكثرة البذل والعطاء . وإذا حضر اليه جاسوس بخبر عن عدوه أستعمل فيه التثبت ودوام البشر ولا يظهر تهافتا عليه تظهر معه الخفة، ولا إعراضا عنه يفوت معه قدر المناصحة، ولا يظهر له كراهة ما يأتيه به من الأخبار المكروهة فان ذلك مما يستدعى فيه كتمان السرّ عنه فيما يكره فيؤدى الى الإضرار به .

وقد حكى عن بعض الملوك أنه كان يعطى من يأتيه بالأخبار المكروهة من الجواسيس أكثر مما يعطى من يأتيه بالأخبار السارة .

واعلم أنه لا يمكن أحدا ممن يمنع بلاده أو عسكره من جواسيس عدوه . فيجب الاحتراز منهم بكتبان السرّ وبستر العورة ما أمكنه ؛ على أنه ربما دعت الضرورة في بعض الأحيان إلى أن يعترف الملكُ عدوّه بعض أموره على حقيقته لأمر يحاول به مكيدته . والطريق في ذلك أن يتلطف الى أن يصير جاسوسَ عدوه جاسوسا له بأن يتودّد اليه بالاستمالة والبرّ وكثرة البذل حتى يستخرج نصيحته ، فيئنذ يلقى إليه ما أراد تبليغه إلى صاحبه الاوّل مما فيه المكيّدة فيوصله إليه فيكون أقرب لقبوله من بلوغه له من غيره ممن يتهمه .

الأمر العاشر

(نظرة في أمور القُصّاد الذين يسافرون بالمطّقات من الكتب

عند تعذر وصول البرد إلى ناحية من النواحي)

وهو من أعظم مهمات السلطنة وأكدها . وقد ذكر ابن الأثير في تاريخه : أن أوّل من اتخذ السّعاة من الملوك معز الدولة بن بويه أوّل ملوك الديلم بعد الثلاثين والثلاثمائة :

وكان سبب ذلك أنه كان ببغداد ، وأخوه ركن الدولة ابن بويه بأصبهان ومأمعها فأراد معز الدولة سرعة إعلام أخيه ركن الدولة بتجدّات الأخبار فأحدث السّعاة وانتشى في أيامه ساعيان اسم أحدهما فضل والآخر مرعوش ، وكان أحدهما ساعى السنة والآخر ساعى الشّبيعة ، وتعصّب لكل منهما فرقة ، وبلغ من شأنهما أن كل

(١) كذا في الأصل . ولعل صوابه "لا يمكن أحدا أن يمنع الخ" فتنبه .

واحد منهما كان يسير في كل يوم نيّفاً وأربعين فرسخاً ، وأسّتمتْ حَكْمُ السَّعَاةِ ببغداد إلى زماننا حتّى إنّ منهم ساعين لركاب السلطان يمشان أمامه في المواكب وغيرها على قرب .

قلت : ”وقد رأيتهما في خدمة السلطان أحمد بن أويس صاحب بغداد حين قدم مصر في دولة الظاهر برقوق فازا من تمر“ . أما الديار المصرية فإنه لا يتعانى ذلك عندهم إلا خفاف الشباب من مكارية الدواب ونحوهم ممن يعتاد شدة العدو إلا أنه إذا طرأ مهم سلطانيّ يقتضى إيصال ما طّف مكاتبه عن الأبواب السلطانية إلى بعض النواحي وتعدّر إيصاله على البريد لحيولة عدوّ في الطريق أو انقطاع خيل البريد من المراكز السلطانية لعارض ، أنتدب كاتب السرّ بأمر السلطان من يعرف بسرعة المشى وشدة العدو للسفر ليوصل ذلك الملطّف إلى المكتوب إليه والإتيان بجوابه . وربما كُتِب الكُتابان فأكثر إلى الشخص الواحد في المعنى الواحد ويجهز كل منهما صحبة قاصد مفرد خوف أن يُعترض واحد فيمضي الآخر إلى مقصده كما تقدّم في بطائق الحمام الرسائليّ . وقد أخبرني بعض من سافر في المهمات السلطانية من هؤلاء أنهم في الغالب عند خوف العدو يمشون ليلاً ويكفون نهاراً وإذا مشوا في الليل يأخذون جانبا عن الطريق الجادة ، يكون بين كل اثنين منهم مقدار رمية سهم حتّى لا يسمع لهم حسّ فاذا طلع عليهم النهار كمنوا متفرّقين مع مواعدهم على مكان يتلاقون فيه في وقت المسير .

الأمر الحادى عشر

(نظره في أمر المناور والمُحرقات)

أما المناور فسيأتى أنه في الزمن المتقدم عند وقوع الحروب بين التتار وأهل هذه المملكة ، كان بين الفُرات بآحر الممالك الشامية وإلى قريب من بلييس من أعمال

الديار المصرية أمكنةً مرتبةً برءوس جبال عوالي، بها أقوام مقيمون فيها، لهم رزق على السلطان من إقطاعات وغيرها إذا حدث حادث عدو من بلاد التتار، وأتصل ذلك بمن بالقلاع المجاورة للفرات من الأعمال الحليية: فإن كان ذلك في الليل أُوقِدَت النار بالمكان المقارب للفرات من رءوس تلك الجبال فينظره من بعده، فيوقد النار فينظره من بعده، فيوقد النار وهكذا حتى ينتهي الوقود إلى المكان الذي بالقرب من بليس في يوم أو بعض يوم، فيرسل بطاقته على أجنحة الحمام بالإعلام بذلك فيعلم أنه قد تحرك عدو في الجملة فيؤخذ في التأهب له حتى تصل البرد بالخبر مفصلاً.

وأما الحُرقات فسيأتي أنه كان أيضا قوم من هذه المملكة مرتبون بالقرب من بلاد التتار يحيلون على إحراق زروعهم بأن تُمسك الثعالب ونحوها وتربط الخرق المغموسة في الزيت بأذنان تلك الثعالب وتوقد بالنار وترسل في زروعهم إذا يست يأخذها الدُعر من تلك النار المربوطة بأذنانها فتذهب في الزروع آخذة يمينا وشمالا فماتت بشيء منه إلا أحرقتة وتواصلت النار من بعضها إلى بعض فتحرق المزرعة عن آخرها.

قلت: وهذان الأمران قد بطل حكمهما من حين وقوع الصلح بين ملوك مصر وملوك التتار على ما سيأتي ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى.

الأمر الثاني عشر

(نظره في الأمور العاقمة مما يعود نفعه على السلطان والمملكة)

قد تقدم في أول هذا الفصل في الكلام على بيان رتبة صاحب ديوان الإنشاء من كلام صاحب مواد البيان أنه ليس في منزلة خدام السلطان والمتصرفين في مهماته

أخص منه ، من حيث إنه أول داخل على الملك وآخر خارج عنه وأنه لاغنى به عن مفاوضته في آرائه والإفضاء إليه بمهمات ، وتقريبه من نفسه في آناء ليله وساعات نهاره ، وأوقات ظهوره للعامة وخلواته ، وإطلاعه على حوادث دولته ومهمات مملكته ، وأنه لا يثق بأحد من خاصته ثقتَه به ، ولا يركن إلى قريب ولا نسيب رُكُونَه إليه ؛ ومن كان بهذه الرتبة من السلطان والقرب منه ، وجب عليه أن لا يألوه نُصْحاً فيما يعلم أنه أصلح لمملكته وأعمار لبلاده وأرغم لأعدائه وحُسادِه وأثبت لدولته وأقوى لأسباب مملكته .

فقد حكى عن علي بن زيد الكاتب : أنه صحب بعض الملوك فقال للملك : "أصحابك على ثلاث خلال - قال وما هي ؟ - قال لا تهتك لي سترًا ، ولا تشتم لي عرضًا ، ولا تقبل في قول قائل حتى تستبرئ . فقال له الملك - هذه لك عندي فمالي عندك ؟ قال : لا أفشى لك سرًا ، ولا أؤخر عنك نصيحةً ، ولا أؤثر عليك أحدا - قال نعم صاحب المستصحب أنت ! .

فإذا انتهى إلى صاحب الديوان خبر يتعلق بجلب منفعة إلى المملكة أو دفع مضرة عنها ، أطلع السلطان عليه في أسرع وقت وأعجله قبل فوات النظر فيه ونحوه فيه صائب رأيه ، ثم رد النظر فيه إلى رأى السلطان ليخرج عن عهده . وإن أرتاب في خبر المخبر أحضره معه إلى السلطان ليشافهه فيه حتى يكون بريئًا عن تبعته ، ولا يهمل تبليغ خبره بمجرد الريبة لأحتمال صحته في نفس الأمر فيلحق بواسطة إهماله ضرر لا يمكن تداركه . وكذلك الحال في سائر ما يرجع إلى صلاح المملكة وحسن تديرها .

الفصل الرابع

(في ذكر وظائف ديوان الإنشاء بالديار المصرية ، وما يلزم ربّ كل وظيفة منهم
 فيما كان الأمر عليه في الزمن القديم وأستقرّ عليه الحال في زماننا)
 أما في الزمن القديم فقد ذكر أبو الفضل الصوريّ في مقدّمة تذكّره أن أرباب
 الوظائف فيه على ضربين :

الضرب الأول - الكُتّاب

(١) وقد عدّاهم إلى سبع كتاب

الأول - كاتب ينشئ ما يُكْتَب من المكاتبات ، والولايات ، نتصدّي للإنشاء ملكته
 وغريزة طبعه . قال : ويجب أن يكون هذا الكاتب لاحقاً بصفات متولّي الديوان
 بحيث يكون كاملاً في الصفات ، مستوفياً لشروط الكتابة ، عارفاً بالفنون التي يحتاج
 إليها الكاتب ، مشتملاً على التقدّم في الفصاحة والبلاغة ، قوى الحجّة في المعارضة ،
 واسع الباع في الكلام بحيث يقتدر بملكته على مدح المذموم وذم المحمود وصرف
 عَنان القول إلى حيث شاء ، والإطناب في موضع الإطناب ، والإيجاز في موضع
 الإيجاز ؛ فإنه أجلُّ كُتّاب الديوان ، وأرفعهم درجةً لأنه يتولّى الإنشاء من نفسه ،
 وتلقى إليه الكلمة الواحدة والمعنى المفرد فينشئ على ذلك كلاماً طويلاً ، ويأتى منه
 بالعبارة الواسعة ؛ وهو لسانُ الملك المتكلمُ عنه ، فهما كان كلامه أبدع ، وفي النفوس
 أوقع ، عظمت رتبة الملك ، وأرتفعت منزلته على غيره من الملوك . وهو الذي ينشئ
 العهود والتقاليد في الولايات والكُتّاب في الحوادث الجار ، والمهمّات العظيمة التي

(١) الصواب تأنيث أسم العدد كما هو واضح .

تتلى فيها الكتب على صياصي المنابر ورءوس الأشهاد . فقد حكى أن يزيد بن الوليد كتب إلى إبراهيم بن الوليد، وقد همَّ بالعصيان: أما بعد فإني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى فأعتمد على أيهما شئت والسلام؛ فكان سبباً لإقلاعه عما همَّ به .

الثاني - كاتب يكتب مكاتبات الملوك عن ملكه؛ وقد شرط فيه مع ما شرط في المتصدى للانشاء المتقدم ذكره أن كان هو الذى ينشئ المكاتبات بنفسه عن الملك أن يكون على دين الملك الذى يكتب عنه ومذهبه؛ لما يحتاج إليه في مكتبة الملك المخالف من الاحتجاج على صحة عقيدته، ونصرة مذهبه، وإقامة الدلائل على صحة ذلك، ولن يحتاج للملة أو المذهب من اعتقد خلافه بل المخالف إنما تبدوله مواضع الطعن لا مواضع الحجج . وكذلك أن يكون من علو الهمة، وقوة العزم، وشرف النفس بالمحل الأعلى، والمكان الأرفع؛ فإنه يكتب عن ملكه، وكل كاتب فإنه يجزه طبعه وجيلته وخيمته إلى ما هو عليه من الصفات . فكلما كان الكاتب أقوى جانباً وأشدَّ عزمًا وأعلى همة، كان على التفضيم والتعظيم، والتحويل والترغيب والترهيب أقدر، وكلما نقص من ذلك نقص من كتابته بقدره؛ وأن يكون عالماً بقدر طبقة المكتوب إليه في معرفة اللسان العربى فيخاطب كل قوم على قدر رتبهم في ذلك وما يعرف من فهمهم .

الثالث - كاتب يكتب مكاتبات أهل الدولة وكبرائها، وولاتها، ووجوهها من الثواب والقضاة والكتاب والمشارفين والعمال، وإنشاء تقليدات ذوى الخدم الصغار والأمانات، وكتب الأيمان والقسمات . قال : وهى وإن كانت دون الرتبين المتقدمين فهى جليلة الخطر عالية القدر؛ ويجب أن يكون لاحقاً برتب الخدمة منها، وأن يكون مأموناً على الأسرار، كآف اليد، نزه النفس عن العرض

الذنيوي لأنه يطّلع على أكثر ما يجري في الدولة، ويعلم بالوالى قبل تولّيه والمصروف قبل صرفه، ويكون مع ذلك سريع اليد في الكتابة، حسن الخط اذ كان هذا الفن أكثر ما يُستعمل ولا يكاد يقلّ في وقت من الأوقات

الرابع - كاتب يكتب المناشير والكتب اللطاف والنسخ . قال : وهذه المنزلة لاحقة بالمنزلة التي قبلها وكأنها جزء منها . ويجب أن يكون هذا الكاتب مأموناً كئوماً للسر؛ فيه من الأدب ما يأمّن معه من الخط واللحن في لفظه وخطه، ويكون حسن الخط أو بالغاً فيه القدر الكافي . ولكن لما كان هذا الشغل واسعاً وهو أكثر عمل الديوان والذي لا ينفك منه، لم يكدر يستقلّ به رجل واحد فيحتاج إلى معاضدته بآخر يكون دونه في المنزلة، ويجعل برسم تسطير المناشير والفصول المتقدمة الى المقيمين بالحضرة، وكتابة تذاكر المستخدمين، ونقلها مما يملكه صاحب الديوان ويصدر عنه في نسخ تكون مخلدة فيه لا تُعاد المبيّضه بحرف لتكون موجودة متى احتيج اليها .
الخامس - كاتب يبيّض ما ينشئه المنشئ مما يحتاج إلى حسن الخط، كالعهود والبيعات ونحوها . قال الصوري : لما كانت البلاغة التامة التي يصلح صاحبها للإنشاء وحسن الخط قلما يجتمعان في أحد، وجب أن يُختار للديوان مبيّض يرسم الإنشاءات والسجلات والتقليدات، ومكاتب الملوك، وأن يكون حسن الخط إلى الغاية الموجودة بحيث لا يكاد يوجد في وقته أحسن خطاً منه لتصدر الكتب عن الملك بالألفاظ الرائقة والخط الرائع . فإن ذلك أكل للملكة، وأكثر تفخيماً عند من يكتبه وتعظيماً لها في صدره . ويجب أن يكون مع ذلك في الأمانة، وكتمان السر، ونزاهة النفس على ما تقدّم .

السادس - كاتب يتصفح ما يكتب في الديوان . قد تقدم أنه لما كان كل واحد من تقدم ذكره غير معصوم من السهو والزلل والخطأ واللحن ومثرات القلم . وكل واحد

يتغطى عنه عيب نفسه ويظهر له عيب غيره، وكان زمن متولّى الديوان أضيّق من أن يُوفى بكل ما يكتب بديوانه حقّ النظار، وكان القصد أن يكون كل ما يكتب عن الملك كامل الفضيلة خطأ ولفظاً ومعنى وإعراباً، حتى لا يجد طاعن فيه مطعناً، وجب أن يستخدم متولّى الديوان معينا يتصفح جميع الإنشاءات والتقليدات والمكاتبات وسائر ما يُسَطَّر في ديوانه .

قال أبو الفضل الصورى : وينبغي أن يكون هذا المتصفح على المنزلة في اللغة والنحو وحفظ كتاب الله تعالى، ذكياً، حسن الفطنة، عاقلاً، مأموناً وأن يكون مع ذلك بعيداً من الغرض والعداوة والشحناء حتى لا يخس أحداً حقه، ولا يُجأب أحداً فيما أنشأه أو كتبه — بل يكون الكل عنده في الحق على حدّ واحد لا يترجح واحد منهم على الآخر . وعليه أن يلزم الكُتاب بعرض جميع ما يكتبونه وينشئونه عليه قبل عرضه على متولّى الديوان — فاذا تصفحه وحرره كتب خطه فيه بما يعرّف رضاه عنه ليلتم بدرّك ما فيه ويرأ منشئه .

السابع — كاتب يكتب التذاكر والدفاتر المضمّنة لمتعلّقات الديوان .

قال الصورى : ويجب أن يُختار لذلك كاتبٌ مأمونٌ، طويل الروح، صبور على التعب؛ قال : والذي يلزمه من متعلّقات الديوان أمور :

أحدها — أن يضع في الديوان تذاكر تشتمل على مهمّات الأمور التي تُنهى في ضمن الكتب، ويظن أنه ربما سُئل عنها أو أحتج إليها، فيكون أستخراجها من هذه التذاكر أيسر من التنقيب عليها والتنقيب عنها من الأضابير . قال : ويجب أن تسلّم إليه جميع الكتب الواردة بعد أن يُكتب بالإجابة عنها ليتأملها وينقل منها في تذاكره ما يحتاج إليه، وإن كان قد أجيب عنه بشيء نقله، ويجعل لكل صفة

أوراقا من هذه النذاكر على حدة ، تكون على رؤوس الأوراق علاماتٍ باسم تلك الصفقة أو الجهة ، ويكتب على هذه الصفقة فصلٌ من كتاب فلان الوالى ، أو المشارف ، أو العامل — ورد بتاريخ كذا — مضمونه كذا — أجيب عنه بكذا — أو لم يجب عنه إلى أن تفرغ السنة يستجد للسنة الأخرى التى تلوها تذكرة أخرى . وكذلك يجعل له تذكرة يسطر فيها مهماتٍ ما تخرج به الأوامر فى الكتب الصادرة لئلا تغفل ولا يجاب عنها ؛ وتكون على الهيئة المتقدمة من ذكر النواحي وأرباب الخدم . وإذا ورد جواب عن شىء مهم نزل عنده فيقول : ورد جوابه عن هذا الفصل بتاريخ كذا يتضمّن كذا ، فإنه إذا اعتمد هذا وجد السلطان جميع ما يسأل عنه حاضرا فى وقته غير متعذر عليه .

الثانى — أن يضع فى الديوان دفترًا بالقبال الولاية وغيرهم من ذوى الخدم ، وأسمائهم ، وترتيب مخاطباتهم ؛ وتحت اسم كل واحد منهم كيف يخاطب : بكاف الخطاب أو هاء الكفاية ، ومقدار الدعاء الذى يدعى له به فى السجلات والمكاتبات والمناشير ، والتوقيعات : لاختلاف ذلك فى عرف الوقت . وكذلك يضع فيه ألقاب الملوك الأبعد والمكاتبين من الآفاق وكنائهم وأسماءهم ، وترتيب الدعاء لهم ، ومقداره . ويكون هذا الدفتر حاضرا لدى كتّاب الإنشاء ينقلون منه فى المكاتبات ما يحتاجون إليه : لأنه ربما تعدد حفظ ذلك عليهم — ومتى تغير شىء منه كتبه تحته . ويكون لكل خدمة ورقة مفردة فيها اسم متوليها ولقبه ودعائه — ومتى صرف كتب عليه صرف بتاريخ كذا ، وأستخدم عوضا منه فلان بتاريخ كذا وأجرى فى الدعاء على مناجاه ، أو زيد كذا أو نقص . ولا يتغافل عن ذلك : فإنه متى أهمل شىء من ذلك زلّ بزله الكتّاب وصاحب الديوان بل والسلطان نفسه .

الثالث — أن يضع بالديوان دفترًا للحوادث العظيمة وما يتلوهما مما يجري في جميع المملكة؛ ويذكر كلا منها في تاريخه؛ فإن المنفعة به كثيرة حتى إنه لو جمع من هذين الدفتريين تاريخ لأجتمع .

الرابع — أن يعمل فهرستا للكُتُب الصادرة والواردة مفصلاً مُسَانِهَةً ومُشَاهِرَةً ومُيَاوِمَةً، ويكتب تحت اسم كل من ورد من جهته "كتاب ورد بتاريخ كذا"، ويشير إلى مضمونه إشارة تدل عليه أو ينسخه جميعه إن دعت الحاجة إلى ذلك، ويسلمه بعد ذلك إلى الخازن ليتولى الاحتفاظ به على ما سيأتي ذكره .

الخامس — أن يعمل فهرستا للأنشاءات، والتقاليد، والأمانات، والمناشير وغير ذلك مشاهرة في كل سنة بجميع شهورها؛ وإذا أنقضت سنة أستجدَّ آخراً، وعمل فيه على مثل ما تقدم .

السادس — أن يعمل فهرستا لترجمة ما يترجم من الكتب الواردة على الديوان بغير اللسان العربي من الرومي والفرنجي وغيرهما مصرحاً بمعنى كل كتاب ومن ترجمه على ما تقدمت الإشارة إليه . قال الصوري: فإذا رُوِّعِيَتْ هذه القوانين أنضبطت أموره ولم يكذب بخل منه شيء، وكان جميع ما يلتمس منه موجوداً بأيسر سعي في أسرع وقت .

الضرب الثاني

(غير الكتاب؛ وهما آشان)

أحدهما الخازن . قال الصوري: "ينبغي أن يختار لهذه الخدمة رجلٌ ذكيٌّ فطن عاقلٌ مأمونٌ بالغٌ في الأمانة والثقة ونزاهة النفس وقلة الطمع إلى الحد الذي لا يزيد عليه: فإن زمام جميع الديوان بيده؛ فمتى كان قليل الأمانة ربمّا أمالته الرشوة إلى

إخراج شيء من المكاتبات من الديوان، وإفشاء سرّ من الأسرار فيضراً بالدولة ضرراً كبيراً . ويجب أن يكون ملازماً للحضور بين يدي كُتّاب الديوان فتى كتب المنشئ أو المنتصدي لمكتبة الملوك، أو المنتصدي لمكتبة أهل الدولة، أو لكاتبه المناشير وغيرها شيئاً، سلمه لمنتصدي للنسخ فينسخه حرفاً بحرف، ويكتب بأعلى نسخه كتاب كذا— ويذكر التاريخ بيومه وشهره وسنته على ما تقدم في موضعه؛ ويسلمه للخازن . وكذلك يفعل بالكتب الواردة بعد أن يأخذ خطّ الكاتب الذي كتب جوابها بما مثاله . «ورد هذا الكتاب من الجهة الفلانية بتاريخ كذا، وكتب جوابه بتاريخ كذا» . وإن كان لاجواب عنه، أخذ عليه خط صاحب الديوان أنه لاجواب عنه تبرأ ذمته منه ولا يتأول عليه في وقت من الأوقات أنه أخفاه ولم يعلم به . ثم يجمع كل نوع إلى مثله، ويجمع متعلقات كل عمل من أعمال المملكة من المكاتبات الواردة وغيرها، ويجعل لكل شهر إضبارة، يجمع فيها كُتُب من يكاتب من أهل تلك الأعمال، ويجعل عليها بطاقةً مثل أن يكتب «إضبارة لما ورد من المكاتبات بالأعمال الفلانية في الشهر الفلاني» ثم يجمع تلك الأضابير ويجعلها إضبارةً واحدةً لذلك الشهر ويكتب عليها بطاقةً بذلك ليسهل أستخراج ما أراد يستخرجه من ذلك . قال : ويجب على هذا الخازن أن يحتفظ بجميع ما في هذا الديوان من الكتب الواردة ونسخ الكتب الصادرة، والتذاكر، وخرائط المهمات، وضرائب الرسوم احتفاظاً شديداً .

الثاني — حاجب الديوان . قال الصوري : " ينبغي لصاحب ديوان الإنشاء أن يُقيم لديوانه حاجباً لا يمكن أحداً من سائر الناس أن يدخل إليه، ما خلا أهله الذين هو معدوق بهم، فإنه يجمع أسرار السلطان الخفية فن الواجب كتبها ومتى أهمل

(١) في الضوء معزوق بهم بالعين المهملة والزاي [وهي أصرح في المقام ففي القاموس عزق به كفرح لصق] .

ذلك لم يؤمن أن يُطلع منها على ما يكون باظهاره سبب سقوط مرتبته وإذا كثرت الغاشون له والداخلون إليه، أمكن أهل الديوان معه إظهار الأسرار أتكالا على أنها تُنسب إلى أولئك، فإذا كان الأمر قاصرا عليهم أحتاجوا إلى كتمان ما يعلمونه خشية أن ينسب إليهم إذا ظهر".

وأما ما استقر عليه الحال في زماننا فكُتِّب الديوان على طبقتين :

الطبقة الأولى — كُتِّب الدست ؛ وهم الذين يجلسون مع كاتب السر يجلس السلطان بدار العدل في المواعيد على ترتيب منازلهم بالقدمة^(١) ويقرءون القصص على السلطان بعد قراءة كاتب السر على ترتيب جلوسهم ويوقعون على القصص كما يوقع عليها كاتب السر . وسُموا كُتِّب الدست إضافة إلى دست السلطان وهو مرتبة جلوسه : لجلوسهم للكتابة بين يديه ؛ وهؤلاء هم أحقُّ كُتِّب ديوان الإنشاء باسم الموقعين : لتوقيعهم على جوانب القصص بخلاف غيرهم .

وقد تقدم أنهم كانوا في أوائل الدولة التركية في الأيام الظاهرية ببيرس وما والاها قبل أن يلقب صاحب ديوان الإنشاء بكاتب السر ثلاثة كُتِّب ، رأسهم القاضي محي الدين بن عبد الظاهر ، ثم زادوا بعد ذلك قليلا إلى أن صاروا في آخر الدولة الأشرفية شعبان بن حسين عشرة أو نحوها ، ثم تزايدوا بعد ذلك شيئا فشيئا خصوصا في سلطنة الظاهر برقوق ، وأبنة الناصر فرج حتى جاوزوا العشرين وهم أخذون في التزايد .

وقد كانت هذه الرتبة لاحقة بشاؤ كتابة السر في الرفعة والرياسة إلى أن دخل فيها الدخيل ، وقدم فيها غير المستحق ، ووليها من لا يؤهل لها هو دونها ، وأنحطت رتبها وصار أهلها في الحضيض الأوهد من الرياسة بعد أوجها الا الأفاضل من علت رتبته وقليل ما هم .

(١) المقدمة بالضم السابق . ولعل مراده السابق في الفضل .

الطبقة الثانية — كُتِّبَ الدَّرَجُ ، وهم الذين يَكْتُبُونَ ما يُوَفَّقُ به كاتبُ السِّرِّ أو كُتِّبَ الدست أو إشارة النائب أو الوزير ، أو رسالة الدوادار ونحو ذلك من المكاتبات والتقاليد والتواقيع والمراسيم والمناشير والأيمان والأمانات ونحو ذلك مما يجرى مجراه . وُسِّمُوا كُتِّبَ الدَّرَجُ لكاتبهم هذه المكتوبات ونحوها في دُرُوجِ الورق ، والمراد بالدَّرَجِ في العُرفِ العامِّ الورق المستطيل المركَّب من عدَّة أوصال ، وهو في عُرفِ الزمان عبارة عن عشرين وصلا متلاصقة لا غير . قال ابن حجب النعمان في ذخيرة الكُتَّابِ : وهو في الأصل اسمٌ للفعل أخذنا من درجت الكتاب أدرجه درجا اذا أسرعَ طيه وأدرجته إدراجا فهو مُدرَج إذا أعدته على مطاويه وأصله الإسراع في حالة ، ومنه مدرجة الطريق التي يُسْرِعُ الناس فيها وناقَةٌ دُرُوجٌ اذا كانت سريعة . ويجوز أن يطلق عليهم كتاب الإنشاء لأنهم يَكْتُبُونَ ما يُنشَأ من المكاتبات وغيرها مما تقدّم ذكره ؛ ولا يجوز أن يطلق عليهم لقب الموقعين لما تقدّم من أن المراد من التوقيع الكتابة على جوانب القصص ونحوها . وكما زاد كُتِّبَ الدست في العدد زاد كتاب الدَّرَجِ حتى خرجوا عن الحد ، وبلغوا نحوا من مائة وثلاثين كتابا ، وسقطت رياسة هذه الوظيفة وأنحط مقدارها حتى إنه لم يرضها إلا من لم يكن أهلا . على أن كُتِّبَ الدست الآن هم المتصدّون لكتابة المهم من كتابة الدَّرَجِ : كمتعلقات البريد المختصة بالسلطان من المكاتبات والعهود والتقاليد وكبار التواقيع والمراسيم والمناشير ، وصار كتاب الدَّرَجِ في الغالب مخصوصين بالمكاتبات في خلاص الحقوق وما في معناها . وكذلك صغار التواقيع والمراسيم والمناشير مما يكتب في القُطْعِ الصغير ، وربما شارك أعلاهم كُتِّبَ الدست في التقاليد وكبار التواقيع وما في معناها إذا كان حسن الخط ، ولا نظر إلى البلاغة جملة بل كل أحد يَلْفَقُ ما يتهيأ له من كلام المتقدمين غير مُبالٍ بتحريفه ولا تصحيفه مبهجا بذلك مطالعا

لغيره في أنه الذي آبتدعه وإبتكره . وكل من لفق منهم شيئاً أو أنشأه كتبه بخطه على
أى طبقة كان في الخط، ما خلا عهد السلطنة ومكاتب القانات من ملوك الشرق
فانه رُبما آتخِب لها أعلى أهل الزمان خطأ، تنويهاً بذكرها، ورفعاً لقدرها .

أما كتابة التذاكر والدفاتر فقد كان الأمر مستمراً في بعضها ككتابة ما في المكاتب
الواردة والصادرة بدفتر في الديوان إلى آخر مباشرة القاضي بدر الدين بن فضل الله
في الدولة الظاهرية برقوق، ثم رُفِض ذلك وتُرك وأقتصر على ما يرد من المكاتب
وما يكتب من الملخصات وكتابة الموقع الذي يكتب الجواب بسد كل فصل تحته
ليس إلا وترك ما وراء ذلك، وأكتفى من الخازن بدوادار كاتب السر، وصار هو
المتولى لحفظ ذلك وإيداعه في الأضابير على نحو ما تقدم؛ وكذلك صار أمر حجابة
الديوان إليه . ثم للديوان أعوان يسمون المدرا جمع مدير، شأنهم أخذ القصص
ونحوها وإدارتها على كاتب السر فمن دونه من كتاب الديوان ليكتب كل منهم
ما يلزمه من متعلقها ولذلك سُموا بهذا الاسم .

المقالة الأولى

بعد المقدمة

(في بيان ما يحتاج إليه كاتبُ الإنشاء من المواد؛ وفيه بابان)

الباب الأول

(فيما يحتاج إليه الكاتبُ من الأمور العِلْمِيَّة، وفيه ثلاثة فصول)

الفصل الأول

فيما يحتاج إليه الكاتب على سبيل الإجمال

وقد اختلفت مقاصدُ المصنِّفين في ذلك : فابنُ قتيبة بعد أن بنى كتابه أدب الكاتب على أمور من اللُّغة والتصريف وطرف من الهجاء قال : " وليس كتابنا هذا لمن لم يتعلَّق من الإنسانية إلا بالجسم ، ولا من الكتابة إلا بالرَّسم ، ولم يتقدم من الأداء ، إلا بالقلم والدواء : ولكنه لمن شدا شيئا من الإعراب فعرف الصَّدر والمصدر ، وأنقلبَ الياء عن الواو ، والألف عن الياء ، وأشبهه ذلك من النظر في الأشكال لمساحة الأرضين حتى يعرف المثلث القائم الزاوية ، والمثلث الحاد ، والمثلث المنفرج ، ومساقط الأحجار ، والمربعات المختلفة ، والقسي ، والمدورات ، والعمودين ؛ وتمتحن معرفته بالعمل في الأرضين لا في الدفاتر، فإن المخبر عنه ليس كالمعائن . وذكر أن العجم كانت تقول : من لم يكن عالما باجراء المياه، وحفر فُرُض

(١) كذا في الأصل وأدب الكاتب . وفي القاموس شدا أخذ طرفا من الأدب وهو معنى مناسب هنا .

والذي في الضوء سدد .

المشارب وردم المهاوى ، ومجارى الأيام فى الزيادة والنقصان ، ودوران الشمس ، ومطالع النجوم ، وحال القمر فى آسئله وأتصاله ، ووزن الموازين ، وذرع المثلث والمربع والمختلف الزوايا ، ونصب القناطر ، والجسور ، والدوالي ، والنواعير على المياه ، وحال أدوات الصناعات ، ودقائق الحساب ، كان ناقصا فى حال كتابته . ثم قال : ولا بد له مع ذلك من النظر فى جمل من الفقه والحديث ، ودراسة أخبار الناس ، وحفظ عيون الأخبار ليدخلها فى تضاعيف سطوره متمثلا بها اذا كتب ، أو يصل بها كلامه اذا حاور . وختم ذلك بأن قال : ومدار الأمر فى ذلك كله على القطب وهو العقل وجودة القريحة ؛ فإن القليل معهما بإذن الله تعالى كاف ، والكثير مع غيرهما مقصر .

وتابعه أبو هلال العسكري فى بعض ذلك فقال فى بعض أبواب كتابه «الصناعتين» :
 ”ينبغى أن تعلم أن الكتابة تحتاج إلى آلات كثيرة ، وأدوات جمّة : من معرفة العربية لتصحيح الألفاظ وإصابة المعنى ؛ وإلى الحساب ، وعلم المساحة ، والمعرفة بالأزمنة والشهور والأهله وغير ذلك مما ليس هذا موضع ذكره وشرحه“ .

ولا ينبغى أن ما ذكره بعض ما ذكره ابن قتيبة ، يتواردان فيه فى المعنى وإن اختلف اللفظ . وخالف أبو جعفر النحاس فى كثير من ذلك فذكر فى أول كتابه ”صناعة الكتاب“ فى المرتبة الثانية منه بعد ما يتعلق بالخط : أن من أدوات الكتابة البلاغة ، ومعرفة الأضداد مما يقع فى الكتب والرسائل ، والعلم بترتيب أعمال الدواوين ، والخبرة بمجارى الأعمال ، والذرية بوجوه أستخراج الأموال ، مما يجب ويمتنع . ثم قال : فهذه الآلات ليس لواحد منها تميز بذاته ، ولا أنفراد باسم يخصه ؛ وإنما هو جزء من الكتابة وأصل من أركانها . أما الفقه والفرائض والعلم بالنحو واللغة وصناعة الحساب والمساحة والنجوم ، والمعرفة بأجزاء المياه ، والعلم بالأنساب فكل

واحد منها منفرد على حدته وإن كان الكاتب يحتاج إلى أشياء منها نحو ما يُكْتَبُ بالألف والياء، وإلى شيء من المقصور والمدود. ولو كلف الكاتب ما ذكره من ذكره لجعل الأصبغ طريقاً للأسهل والأشقق مفتاحاً للأهون وفي طباع الناس التفار عما أُرْمِهَم من جميع هذه الأشياء .

قلت : والتحقيق أن ذلك يختلف باختلاف حال الكتابة بحسب تنوعها، فكل نوع من أنواعها يحتاج إلى معرفة فق أو فنون تختص به .

وقد حكى أن عمرو بن مسعدة وزير المعتصم قال : لما خرج المعتصم من بلاد الروم وصار بناحية الرقة، قال لي ويحك يا عمرو! لم تزل تحدعني حتى وليت عُمر بن الفرج الرحجي الأهواز، وقد قعدت في سرّة الدنيا يأكلها خضماً وقضماً! فقلت يا أمير المؤمنين فإنا أبعث إليه حتى يؤخذ بالأموال ولو على أجنحة الطير— قال : كلاً بل تخرج إليه بنفسك كما أشرت به— فقلت لنفسي : إن هذه منزلة خبيسة، بعد الوزارة أكون مستحقاً لعامل خراج! ولم أجد بداً من الخروج رضاءً لأمر المؤمنين— فقلت : ها أنا خارج إليه بنفسى يا أمير المؤمنين! قال : فضع يدك على رأسك وأحلف أنك لا تقيم ببغداد، ففعلت وأحدثت عهداً باخواني ومنزلى وأني إلى بزورق ففرش لي فيه، ومضيت حتى إذا صرت بين دير هرقل ودير العاقول إذا شاب على الشط يقول : يا ملاح! رجل غريب يريد دير العاقول فاحملني يا جرك الله!— فقلت : يا غلام

(١) في الأصل عمرو الرحى . والصواب ما أثبتناه فقد قال ياقوت في الكلام على رشح مثال رشح : وينسب إلى الخرج فرج وابنه عُمر بن فرج وكانا من أعيان الكتاب في أيام المأمون إلى أيام المتوكل وكان عبد الصمد بن المعتز يهجو عمر بن فرج . فن قوله فيه يخاطب نجاح بن سلة أبلغ نجاح في الكتاب مألوفة * تمضى بها الريح إصدارا وإيرادا لا يخرج المال عفواً من يدي عمر * أو تغمده السيف في فوديه إغماما الرحجيون لا يوفون ما وعدوا * والرحجيات لا يتخلفن ميعادا

قَرَّبَ له - فقال : جُعِلتِ فِدَاكَ ! يُؤذِيكَ وَيُضِيقُ عَلَيْكَ - فقلت : قَرَّبَ له لا أَمَّ
 لك ! فقَرَّبَ له وحملة على مؤخَّر الزورق . وحضر الطعام ، فهممت أن لا أدعوه
 إلى طعامي ، ثم قلت : هَلُمَّ يَا قَتِي ، فوثبَ وجلس ، فأكلَ أَكْلَ جَائِعٍ نَهْمَ إِلَّا أَنَّهُ
 نظيف الأكل ، فلما فرغ من الطعام أَحَبَبْتُ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَفْعَلُ الْعَوَامُ فَيَتَنَحَّى
 وَيَغْسِلَ يَدَيْهِ نَاحِيَةً فَلَمْ يَفْعَلْ ، فغمزه الغلمانُ ليقومَ فلم يفعلْ ، فتناوَمْتُ عمداً لِيَنْهَضَ
 فلم يفعلْ ، فاستويت جالسا وقلت يا قَتِي ! مَا صِنَاعَتُكَ ؟ فقال جعلت فداك !
 أَنَا حَائِكٌ . فقلت في نفسي : أَنَا وَاللَّهِ جَلَبْتُ هَذِهِ الْبَلِيَّةَ ، وَتَغَيَّرَ لَوْنِي ، فَفِطِنَ أُنَى
 اسْتِثْقَانَتِهِ ، فقال : جَعِلتِ فِدَاكَ ! انك قد سألتني عن صناعتي فأجبتك ، فأنت
 ما صناعتك ؟ فقلت : هذه والله أضرُّ من الأولى ألا ينظر إلى غلmani وِنِعْمَتِي فَيَعْلَمَ
 أَن مِثْلَ هَذَا لَا يُسْتَلُّ عَنِ الْحِرْفَةِ ؟ ولم أجد بُدًّا مِنَ الْجَوَابِ ، فلم أذهب إلى المرتبة
 العظمى من الوزارة لكنني قَرَّبْتُ عَلَيْهِ ، فقلت : أَنَا كَاتِبٌ - فقال جَعِلتِ فِدَاكَ
 الْكُتَّابُ نَحْمَسَةُ فَأَيُّهُمْ أَنْتَ ؟ فأورد على ما لم أسمع به قَبْلُ - فقلت : بَيْنَهُمْ لِي - قال
 نعم ، هُمُ كَاتِبُ رِسَائِلٍ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَعْرِفَ الْمَفْصُولَ وَالْمَوْصُولَ ، وَالْمَقْصُورَ وَالْمَمْدُودَ ،
 وَالْأَبْتِدَاءَ وَالْجَوَابَ ؛ حَازِقًا بِالْعُقُودِ وَالْفَتْوحِ - قلت : أَجَلٌ وَمَاذَا ؟ قال : كَاتِبُ
 نَحْرَاجٍ يَحْتَاجُ أَنْ يَعْرِفَ السُّطُوحَ ^(١) وَالْمِسَاحَةَ وَالتَّقْسِيطَ ، خَيْرًا بِالْحِسَابِ وَالْمُقَاسَمَاتِ .
 قلت : وَمَاذَا ؟ قال : كَاتِبُ قَاضٍ يَحْتَاجُ أَنْ يَعْرِفَ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ ، وَالتَّأْوِيلَ
 وَالتَّنْزِيلَ - وَالمُتَشَابِهَ وَالحُدُودَ الْقَائِمَةَ وَالفَرَائِضَ ، وَالاخْتِلَافَ فِي الْأَمْوَالِ وَالفُرُوجِ ،
 حَافِظًا لِلْأَحْكَامِ ، حَازِقًا بِالشَّرُوطِ - قلت : وَمَاذَا ؟ قال : وَكَاتِبُ جُنْدٍ يَحْتَاجُ أَنْ
 يَعْرِفَ الْحِلَى وَالشِّيَاتِ - قلت : وَمَاذَا ؟ قال : وَكَاتِبُ شُرْطَةٍ يَحْتَاجُ أَنْ يَعْرِفَ
 الْقِصَاصَ وَالْجِرَاحَاتِ ، وَمَوْضِعَ الْحُدُودِ ، وَمَوَاقِعَ الْعَفْوِ فِي الْجَنَائِثِ - قلت حَسَنٌ .
 قال : فَأَيُّهُمْ أَنْتَ ؟ فَكُنْتُ مَتَكِنًا فَاسْتَوَيْتُ جَالِسًا مُتَعَجِّبًا مِنْ قَوْلِهِ ، فقلت :

(١) فِي نَسْخَةِ الطُّسُوجِ . وَهُوَ كُنْتُورُ النَّاحِيَةِ ، وَرَبِيعٌ دَائِقٌ مَرْبَاهُ قَامُوسٌ .

أنا كاتبُ رسائل— قال : فإنَّ أحَّ من إخوانك واجبَ الحقِّ عليك معتنياً بأمرِكَ لا يُغفلُ منها عن صغير ولا كبير يكاتبك في كل محبوب ومكروه وأنت له على مثل ذلك تزوجتُ أمه كيف تكتب إليه ؟ أهنئه أم تُعزِّيه ؟— قلت أهنئه . قال فهنَّه فلم ينجِّه لي شيء— فقلت : لا أعزِّيه ولا أهنئه ، فقال : إنك لا تغفلُ له عن شيء ولا تبيدُ بداً من أن تكتب إليه— فقلت : أقلني فأنا كاتب خراج— قال : فإنَّ أمير المؤمنين وجه بك إلى ناحيةٍ من عمله ، وأمرك بالعدل والإنصاف وأنك لا تدع شيئاً من حقِّ السلطان يذهب ضياعاً ، وحدرك الظلم والجور ، فخرجت حتى قدمت الناحية فوق قوق على قراج أرض خطه قابل قسيا كيف تمسحه— قلت : أخذ وسطه وأخذ طولَه فأضربه فيه— قال : تختلف عليك العطوف— قلت : أخذ طولَه وعرضه من ثلاثة مواضع— قال : إن طرفيه محدودان وفي تحديده تقويس وذلك يختلف فأعياى ذلك— فقلت : أقلني فأنا كاتب قاضٍ— قال : فإنَّ رجلاً هلك وخلف زوجة حرة وسريةً حاملتين فوضعتا في ليلة واحدة وضعت الحرة جاريةً ، ووضعت السرية غلاماً ، فوضعت الجارية في مهد السرية ، فلما أصبحت السرية قالت الغلام لي ، وقالت الحرة بل هو لي كيف تحكم بينهما؟— قلت : لأدرى فأقلني ، فأنا كاتب جندي ، قال : فإنَّ رجلين من أصحاب السلطان أتياك أسهماً واحد ، وأحدهما مشقوق الشفة العليا ، والآخر مشقوق الشفة السفلى ، ورزق أحدهما مائة والآخر ألف كيف تُحليهما؟— قلت : فلان الأعم وفلان الأعم ، قال : إذن يجيء هذا ورزقه مائة فيأخذ الألف ، ويجيء هذا ورزقه ألف فيأخذ المائة— قلت أقلني : فأنا كاتب شرطة ،— قال : فإنَّ رجلين توثبا فشج أحدهما صاحبه موضةً ، وشبه الآخر مأمومةً كيف يكون الحكم فيهما؟— قلت : لا أدرى فأقلني ، . قال فقلت : إنك قد سألتني فبين لي— قال نعم .

أما الذى تزوجت أمه فكتب إليه : أما بعد فإن الأمور تجري على غير محابٍ
المخلوقين والله يختار لعباده، نفاً الله لك فى قبضها إليه فإن القبور أكرم الأكفاء
والسلام .

وأما القراح من الأرض ، فإنك تسمع أعوجاجه حتى تعلم كم قبضة تكون فيه
إذا استوى فى يدك عقده تعرفه ضربت طرفه فى وسطه . وأما الحرة والسرية
فيوزن لهنما فأيهما كان لبناً أخف فالبنت لها . وأما المشقوق الشفة العليا فأعلم
والمشقوق الشفة السفلى فأفليح . وأما المأمومة ففيها ثلث الدية وهى ثلاث وثلاثون
من الإبل وثلث . وأما الموضحة ففيها خمس من الإبل . فقلت : ألسنت تزعم أنك
حائك ؟ فقال : أنا حائك كلام لا حائك نساء . قال عمرو بن مسعدة : فأحسن
جائزته وأستصحبته معى حتى عدت إلى المعتصم ، فسألنى عما لقيت فى طريقى ،
فقصصت عليه القصة فأعجب به وقال : لم يصلح ؟ فقلت : للعائر . فقتره فيها
وعلت رتبته ، فكنت ألقاه فى الموكب النبيل فيترجل لى فأناه ، فيقول : هذه
نعمتك وأنت أقدتها .

فقد تبين بهذه الحكاية أن لكل نوع من الكتابة مادة يحتاج إليها بمفردها ، وآلة
تخصصها لا يستغنى عنها .

على أن كاتب الإنشاء فى الحقيقة لا يستغنى عن علم ولا يسعه الوقوف عند فن ،
فقد قال الوزير ضياء الدين بن الأثير فى "المثل السائر" إن صاحب هذه الصناعة يحتاج
إلى التشبث بكل فن من الفنون حتى إنه يحتاج إلى معرفة ما تقوله النادبة بين النساء ،
والماشطة عند جلوة العروس ، وإلى ما يقوله المنادى فى السوق على السلعة فما ظنك
بما فوق هذا وذلك لأنه مؤهل أن يهيم فى كل واد ، فيحتاج إلى أن يتعلق بكل فن .

بل قد قيل إن كل ذى علم يسوغ أن يُنسب إليه ، فيقال فلان النحوى ، وفلان الفقيه ، وفلان المتكلم ، ولا يجوز أن ينسب المتعلق بالكتابة إليها ، فلا يقال فلان الكاتب لما يفتقر إليه من الخوض في كل فن .

وأعلم أن كاتب الإنشاء وإن كان يحتاج إلى التعلق بجميع العلوم والخوض في سائر الفنون فليس احتياجه إلى ذلك على حد واحد بل منها ما يحتاج إليه بطريق الذات وهي مواد الإنشاء التي يستمد منها ويقتبس من مقاصدها : كاللغة التي منها استمداد الألفاظ ، والنحو الذي به استقامة الكلام ، وعلوم البلاغة : من المعاني والبيان والبديع التي هي مناط التحقيق والتحسين والتقييح ونحو ذلك مما يجرى هذا المجرى . وعلى هذا أقصر الوزير ضياء الدين بن الأثير في "المثل السائر" وتبعه على ذلك الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله في كتابه "حسن التوسل" . ومنها ما يحتاج إليه بطريق العرض كالطب والهندسة والهيئة ونحوها من العلوم ، فإنه يحتاج إلى معرفة الألفاظ الدائرة بين أهل كل علم ، وإلى معرفة المشهورين من أهله ومشاهير الكتب المصنفة فيه لينظم ذلك في خلال كلامه فيما يكتب به من متعلقات كل فن من هذه الفنون كالألفاظ الدائرة بين أهل الطب ومشاهير أهله وكتبه فيما يكتب به لرئيس الطب . ونحو ذلك من الهيئة فيما يكتب به لمنجم ، ونحوه من الهندسة فيما يكتب به لمهندس . وربما احتاج إلى معرفة مأهولون ذلك في الرتبة كمعرفة مصطلح رماة البندق فيما يكتب به في قدمات البندق ، ومعرفة مصطلح الفيان فيما يكتب به في دسكرة فتوة ونحو ذلك ، بل ربما احتاج إلى معرفة مصطلح سفل الناس لكتابة أمور هزلية : كمعرفة أحوال الطفيلية فيما يكتب به لطفيلاً اقتراحاً أو امتحاناً للخاطر أو ترويحاً للنفس ، مع معرفة ما يجب عليه من وصف ما يحتاج إلى

وصفه كأوصاف الأبطال والشجعان، والحواري والغلمان، والحيل والإبل، وجيل
الوَحْش وسائر أصنافه، وجوارح الوَحْش والطير، وطير الواجب، والحمائم الهدى،
وسائر أنواع الطير؛ والسلاح بأنواعه؛ وآلات الحصار، والآلات الملوَّكِيَّة، وآلات
السفر، وآلات الصَّيد، وآلات المعاملة، وآلات اللُّهُو والطَّرَب، وآلات اللعب،
وآلات الشربة؛ والمدن، والحصون؛ والمساجد، وبيوت العبادات؛ والرياض،
والأشجار، والأزهار، والثمار؛ والبراري، والقفار، والمفاوز، والجبال، والرمال،
والأودية؛ والبحار، والأنهار، وسائر المياه؛ والسفن، والكواكب، والعناصر،
والأزمنة، والأنواء، والرياح، والمطر، والحر، والبرد، والثلج، وما يتعلق بكل واحد
من هذه الأشياء أو يخطر في سلكه؛ ونحو ذلك مما تدعو الحاجة إلى وصفه في حالة
من حالات الكتابة على ماسياتي بيانه في آخر الفصل الثاني من هذا الباب إن شاء
الله تعالى .

الفصل الثاني

من الباب الأول من المقالة الأولى

(فيما يحتاج الكاتب إلى معرفته من مواد الإنشاء، وفيه طرفان)

الطرف الأول

(فيما يحتاج إليه من الأدوات؛ ويشتمل الغرض منه على خمسة عشر نوعاً)

النوع الأول

(المعرفة باللغة العربية؛ وفيه أربعة مقاصد)

المقصد الأول

(في فضلها وما آخضت به على سائر اللغات)

أما فضلها فقد أخرج ابنُ أبي شَيْبَةَ بسنده إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أنه قال: "تعلّموا اللّغَنَ والفرائضَ فإنّه من دينكم". قال يزيد بن هارون: "اللّغَنُ هو اللّغة". ولا خفاء أنها أمتن اللغات وأصحّها بياناً، وأذلقها لساناً، وأمدّها رواقاً، وأعدبها مذاقاً؛ ومن ثمّ اختارها الله تعالى لأشرف رُسُلِهِ، وخاتم أنبيائه، وخيرته من خَلْقِهِ، وصفوته من بريته؛ وجعلها لغة أهل سماءه وسكان جتته، وأنزل بها كتابه المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

قال في صناعة الكتاب: "وقد أنقادت اللغات كلّها للغة العرب، فأقبلت الأمم

إليها يتعلّمونها".

وأما ما آخِصَّتْ به على غيرها من اللغات، فقد حكى في "صناعة الكتاب" أنها اللغة التامة الحروف، الكاملة الألفاظ، لم ينقص عنها شيء من الحروف فيشبهها نقصانها، ولم يزد فيها شيء فيعيبها زيادته؛ وإن كان لها فروع أخرى من الحروف فهي راجعة إلى الحروف الأصلية؛ وسائر اللغات فيها حروف مولدة، وينقص عنها حروف أصلية: كاللغة الفارسية: تجد فيها زيادة ونقصانا. وكذلك يوجد فيها من الأسماء ما لا يوجد في الفارسية وغيرها: كالحق والباطل، والصواب والخطأ، والحلال والحرام، فلا ينطق به أهل تلك اللغة إلا عربيا. قال الفراء: "وجدنا للغة العرب فضلا على لغة جميع الأمم آختصاصا من الله تعالى وكرامة أكرمهم بها؛ ومن خصائصها أنه يوجد فيها من الإيجاز ما لا يوجد في غيرها من اللغات". قال: "ومن الإيجاز الواقع فيها أن للضرب كلمة واحدة فتوسعوا فيها، فقالوا للضرب في الوجه لطم، وفي القفا صفع، وفي الرأس إذا آدمى شجج؛ فكان قولهم لطم أوجز من ضرب على وجهه". قال في "المثل السائر": "حضرت مع رجل يهودي عارف باللغات بفرى ذكر اسم الجمل فقال: لا شك أن العربية أوجز اللغات، فإن اسم الجمل بالعبرانية كومل فسقط منه الواو وحولت الكاف إلى الجيم". قال أبو عبيد: وللعرب في كلامها علامات لا يشتركون فيها أحد من الأمم كعلامة إدخالهم الألف واللام في أول الاسم، وإلزامهم إياه الإعراب في كل وجه مع نقلهم كل ما احتاجوا إليه من كلام العجم إلى كلامهم؛ فقد قيل ما قالت حكاء العجم والفلاسفة إلى العربية ولم يقدر أحد من الأمم على نقل القرآن إلى لغته لكمال لغة العرب. على أن الكثير من الناس حاولوا ذلك فعسر عليهم نقله، وتعددت عليهم ترجمته؛ بل لم يصلوا إلى ترجمة البسمة إلا بنقل بعيد.

المقصد الثاني

(في وجه احتياج الكاتب إلى اللغة)

لامرئية في أن اللغة هي رأس مال الكاتب، وأُسُّ كلامه، وكُنز إنفاقه؛ من حيث إن الألفاظ قوالبٌ للمعاني التي يقع التصرف فيها بالكتابة؛ وحينئذ يحتاج إلى طول الباع فيها، وسعة الخطو، ومعرفة بسائطها: من الأسماء والأفعال والحروف، والتصريف في وجوه دلالتها الظاهرة والخفية: ليقندر بذلك على استعمالها في محالها، ووضعها في مواضعها اللائقة بها، ويجد السبيل إلى التوسع في العبارة عن الصور الأئمة في نفسه فيتسع عليه نطاق النطق، وينفسح له المجال في العبارة، ويفتح له باب الأوصاف فيما يحتاج إلى وصفه، وتدعو الضرورة إلى نعته؛ فيستظهر على ما ينشيه، ويحيط علماً بما يدره ويأتيه؛ إذ المعاني وإن كانت كامنة في نفس المعبر عنها فإنما يقوى على إبرازها وإبانها من توفر حظها من الألفاظ، وأقناده على التعرف فيها: ليأمن تداخلها وتكريرها المهجنين للمعاني — وناهيك أن ابن قتيبة لم يضمن كتابه "أدب الكاتب" غير اللغة إلا التزر اليسير من الهجاء؛ وأبا جعفر النحاس ضمن كتابه "صناعة الكتاب" جزءاً وافراً من اللغة؛ وأبا الفتح كُشاجم لم يزد في كتابه "كنز الكتاب" على ذكر الألفاظ وصورة تركيبها .

المقصد الثالث

(في بيان ما يحتاج إليه الكاتب من اللغة؛ ويرجع المقصود منه إلى خمسة أصناف)

الصنف الأول — الغريب، وهو ما ليس بمألوف الاستعمال، ولادائر على الألسنة وذلك أن مدار الكتابة على استخراج المعاني من القرآن الكريم، والأحاديث النبوية، والشعر؛ وألفاظها لا تخلو عن الغريب؛ بل ربما غلب الغريب منها في الشعر على

المألوف لاسيما الشعر الجاهلي . وقد قال الأصمعي "توسلت بالملح ونلت بالغريب" . قال صاحب "الريحان والريهان" : والغريب وإن لم يُنفق منه الكاتب فإنه يجب أن يُعلم ويُتطلع إليه ويُستشرف ؛ فربّ لفظه في خلال شعر أو خطبة أو مثل نادر أو حكاية ، فإن بقيت مُقفلة دون أن تُفتح لك ، بقي في الصدر منها حُرارة تُخوج إلى السؤال ؛ وإن صُنّت وجهك عن السؤال ، رضيت بمنزلة الجهال . وقد عاب ابن قتيبة رجلا كتب في وصف برذون : "وقد بعثت به أبيض الظهر والشفيتين" فقيل له : هلا قلت في بياض الشفتين أرثم ألمظ ؛ فقال لهم : فيياض الظهر ، قالوا لا ندرى ، فقال : انما جهلت من الشفتين ما جهلتم من الظهر . وذم قوما من وجوه الكُتاب بأنه اجتمع معهم في مجلس فتذاكروا عيوب الرقيق فلم يكن فيهم من يُفترق بين الوكع والكوع ، ولا بين الحنف والفدع^(١) ، ولا بين اللى واللطع . ثم قال : "وأى مقام أحرزى لصاحبه من رجل من الكُتاب أصطفاه بعض الخلفاء ، وآرتضاه لسيره ، فقرأ عليه يوما كتابا فيه مطرنا مطرا كثر عنه الكلا" ، فقال له الخليفة تمتحاله : وما الكلا ؟ فتردد في الجواب ، وتعثرت لسانه ثم قال : لا أدري ؛ فقال : سل عنه" . قال أبو القاسم الزجاجي في شرح مقدمة أدب الكاتب : وهذا الخليفة هو المعتصم والكاتب أحمد بن عمار ، وكان يتقلد العرض عليه ؛ وكان المعتصم ضعيف البصر بالعربية ؛ فلما قرأ عليه أحمد بن عمار الكتاب وسأله عن الكلا فلم يعرفه ، قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ! خليفة أمي ، وكاتب عامي ؛ ثم قال من يقرب منا من كُتاب الدار فعرف مكان محمد بن عبد الملك الزيات ، وكان يقف على قهزيمة الدار فأمر بإشخاضه ، فلما مثل بين يديه ، قال له ما الكلا ؟ قال : النبات كله رطبه

(١) هو بالفاء والذال المهملة اعوجاج الرُسع من اليد أو الرجل حتى ينقلب الكف أو القدم الى انسيها . قاموس . وفي الأصل القذع بالقاف والذال المعجمة وهو تصحيف ظاهر فتنبه .

(٢) هو من باب دخل كما في المختار .

ويابسُه ، فإذا كان رطباً قيل له خَلًّا ، وإذا كان يابساً قيل له حَشِيش ، وأخذ في ذكر النبات من ابتدائه إلى آكتهاله إلى هيجه ، فقال المعتصم "ليتقلد هذا العرّص علينا ."
ثم حُصَّ به حتى أستوزره .

فقد ظهر أن معرفة الغريب من الأمور الضرورية للكاتب التي هي من أهم شأنه ، وأغنى مقاصده . وجُلَّ كتب اللغة المصنّفة في شأنها راجعة إليه ، كصاح الجوهري ، ومُحْكَمَ ابن سيده ، ومُجَمَّلَ ابن فارس وغيرها من المصنّفات التي لا تكاد تُحصى كثرةً والصّاح أقربها مأخذًا ، والمُحْكَمُ أمثلها طريقةً ، وأكثرها جمعًا ، وأكملها تحقيقًا . وقد صرف قوم من المصنّفين العناية من ذلك إلى الأقتصار على ذكر الأسماء والأوصاف : كأوصاف الرجال والنساء المحمودة والمذمومة ، وما يختص من ذلك بالرجال والنساء ؛ وأوصاف الخيل ، وأعضائها ، وألوانها ، وشيئاتها ، وأسنانها ، وسيرها ، وعدوها وما يخص الذكور والإناث منها ؛ وأوصاف الوحوش : من السباع والظباء والوعول والبقر والحمر الوحشيين ؛ وأسماء الطير : من الجوارح الصائدة والطيور المصيدة ، وبغاث الطير كالرخم ، وصغاره كالنحل والجراد ؛ وأوصاف الهوام كالخشرات : من الحيات والوزغ ونحو ذلك ؛ وأوصاف العنويات : من السماء والسحاب والرياح والأمطار ؛ والأزمنة كأوقات الليل والنهار ، وأوقات الشهر وفصول السنة ونحو ذلك ؛ وأسماء النّبات : من الشجر البرّي كالطلح والأراك ، والبستاني كالنخل والعنب ؛ والنبات البرّي كالشّيح والقيصوم ؛ وأنواع المرعى ؛ وأسماء الأماكن : من البراري والقفار ، والرمال والجبال والأحجار ، والمياه والبحار والأنهار والعيون والسيول ؛ والرياض والمحالّ والأبنية ؛ وأسماء جواهر الأرض : من اليواقيت ونحوها ؛ وسائر مستخرجات المعادن ، كالنحاس والرصاص وما يجري مجراها ؛ ومستخرجات البحر : من اللؤلؤ والعنبر والمرجان وغيرها ؛ وأسماء المأكولات : من الحبوب ، والفواكه ، والأطعمة

المصنوعة والأطبخة؛ وأسماء الأشربة: كالماء، واللبن، والعسل، والتمر، وأسماء السلاح: من السيوف، والرماح، والقسي، والسهام، والدروع وغيرها؛ وأسماء اللباس: من الثياب على اختلافها؛ وأسماء الأمتعة، والآنية وسائر الآلات؛ وأسماء الطيب: من المسك، والند، والغالية، والزعفران، وما أشبهها. وكذلك كل ما يجري هذا المجرى. و"كفاية المتحفظ" لابن الأجدابي، و"المذهبة والمعقبة" لابن أصبغ كافتان بالكثير من ذلك. وفي "أدب الكاتب" لابن قتيبة و"فقه اللغة" للشعالبي الجزء الوافر من ذلك.

وصرف آخرون عنايتهم إلى التأليف في الأفعال وتصاريفها كابن درستويه وغيره. وفي "فصيح ثعلب" جزء وافر من ذلك؛ ولعصريتنا الشيخ مقبل الصرعتمشي التحوي كتاب زاد فيه عليه جمعا ووضوحا.

الصنف الثاني - الفروع المتشعبة في المعاني المختلفة، وهي فروع كثيرة متسعة الأجزاء، متباينة المقاصد؛ لا يكاد يجمعها مصنف، وإن كان الكاتب لا يستغني عن شيء منها، ولا يحسن به تركه.

منها المتباين والمترادف. فأما المتباين فهو ما دلّ لفظ الكلمة منه على خلاف ما دلت عليه الكلمة الأخرى، كالسواد والبياض، والطول والعرض؛ ويحتاج إليه في التعبير عن المعاني المختلفة لاتساع نطاق الكلام. وأما المترادف فهو المتوارد الألفاظ على مسمى واحد كالأسد والسبع للحيوان المفترس؛ والثنية والقلوص للناقعة، ونحو ذلك. ويحتاج إلى معرفة ذلك للخلص عند ضيق الكلام عليه في موضع لطول لفظة أو قصرها أو اختلاف وزنها في شعر، أو رعاية الفاصلة آخر الفقرة في ثر، أو غير ذلك مما يضطر فيه إلى إيراد بعض الألفاظ بدل بعض، كما في قوله:

وَتَيْنِيَةٌ جَاوَزَتْهَا بَثْنِيَّةٌ * حَرَفٌ يُعَارِضُهَا جَنِيبٌ أَدْهَمٌ

فإنه أراد بالثنية الأولى العقبة ، وبالثنية الثانية الناقة ؛ والجَنِيبُ الأدهم استعارةٌ لظلمها . فالثنية من حيث وقوعها على الناقة والعقبة أوفقٌ للتجنيس من الناقة ، إذ لو ذكر الناقة مع الثنية التي هي الطريق لفاته التجنيس . ومحل الكلام عليهما كتب ^(١) الفقه ونحوها .

ومنها الحقيقة والمجاز . والحقيقة هي اللفظ الدالُّ على موضوعه الأصلي كالأسد للحيوان المقترس ، والحمار للحيوان المعروف . والمجاز هو ما أريد به غير الموضوع له في أصل اللغة ، كالأسد للرجل الشجاع بعلاقة الشجاعة في كل منهما ، والحمار للبلد بعلاقة البلادة في كل منهما ؛ ويحتاج إليه لنقل الألفاظ من حقائقها إلى الاستعارة والتثيل والكتابة لما بينهما من العلاقة والمناسبة ، كاليد فإنها في أصل اللغة للجراحة أُطْلِقَتْ على القوة والنعمة مجازاً ، من حيث إن القوة تَظْهَرُ في اليد والنعمة تُوَلَّى بها ومحل ذكرهما أصول الفقه وما في معناها .

ومنها الألفاظ المتضادة وهي التي تقع كل لفظة منها على ضد ما تقع عليه الأخرى كالأمانة والخيانة ، والنصيحة والغش ، والفتق والرتق ، والنقض والإبرام ، ونحو ذلك فإن الكلام كثيراً ما يبني على الأضداد وربما غلط الكاتب بفعل مقابل الشيء غير ضده فيلزمه النقص في صناعته ، وفوات ما يقصده من المقابلة والطباق اللذين هما من أحسن أنواع البديع . وفي "صناعة الكتاب" لأبي جعفر النحاس جملةٌ صالحة من ذلك ، وفي "كثرة الكتاب" لأبي الفتح كُشَّاحِمٌ جملةٌ جيدة منه أيضاً . ومنها تسمية المتضادين باسم واحد كالجون للأسود والأبيض ، والقرء للطهر والحيض ، والصريم لليل والنهار ، ووراء خلف وقدام ، ونحو ذلك . ويحتاج إليه للتمييز بين الحقائق التي يقع اللبس فيها . وفي "أدب الكاتب" جملة من ذلك .

(١) لعله كتب أصول الفقه .

ومنها المقصور والمدود كالندى للجود وندى الأرض ، والحفا لكلال القدام
والخافر ، والمدود كالسما للفلك وكل ما علاك ، والبقاء لضد الفناء ، وبحو ذلك ؛
وما يجوز فيه المد والقصر جميعا كالزناء والشراء وما أشبههما . ويحتاج إليه الكاتب^(١)
من ثلاثة أوجه : أحدها أن الدلالة تختلف باعتبار المد والقصر كلفظ الهوى فإنه
إن قصر كان بمعنى هوى النفس ، وإن مد كان بمعنى ما بين السماء والأرض . الثاني
أنه إذا أضيف المدود أضيف زيادة واو في الكتابة في حالة الرفع وزيادة ياء في حالة
الخفض ، وإذا أضيف المقصور لم يُتَّجَّح إلى زيادة واو ولا ياء ؛ ولو كان مما يجوز^(٢)
فيه المد والقصر ، جاز فيه بعض حركاته . ربما يمد كالبلاء والقلاء ، فإنه إذا كسر أولها
قُصِرَا وكُتِبَا بالياء وإذا فتح مُدَا وكُتِبَا بالألف . وكالباقلاء فإنه إذا خفف مُدٌ وإذا
شدد قُصِرَ ؛ فحتى لم يعرف الكاتب ذلك كان قاصرا في صناعته ، وفي "أدب الكاتب"
من ذلك جملة .

ومنها المذكر والمؤنث فإنه تختلف أحواله باعتبار التذكير والتأنيث في كثير من
الأمر . وذلك أن المؤنث على ضريين : أحدهما ما فيه علامة من علامات التأنيث
الثلاث ؛ وهي الهاء نحو حمزة وطلحة ، والألف المدودة نحو حمراء ، والألف المقصورة
نحو حُبلى . وضرب لا علامة فيه وإنما يؤخذ من السماع : كالسما ، والأرض ،
والقوس ، والحرب ، وما أشبهها . وربما كان منه ما يجوز فيه التذكير والتأنيث
كالطريق ، والسبيل ، والموسى ، واللسان ، والسلطان ، وما أشبهها ؛ فإن من العرب
من يذكّر ذلك ومنهم من يؤنثه . وربما وقع لفظ التأنيث على الذكر والأُنثى جميعا

(١) أهمله في الأصل وهو من إهمال النسخ .

(٢) قوله ولو كان مما يجوز الخ كذا في الأصل وهو كما ترى غير مفهوم وهو محل الوجه الثالث
الذي سقط من قلم النسخ وحاصله أن الداعي إلى معرفتها إما أن يرجع إلى المعنى وهو الأول أو إلى الرسم
والكتابة وهو الثاني أو إلى النطق والرسم وهو الثالث الساقط فتأمل .

كالسُّخْلَةِ وَالْحَيَّةِ وَالْحَمَامَةِ وَالنَّعَامَةِ وَالْبَطَّةِ وَنَحْوَهَا . وَأَيْضًا فَإِنَّ مِنْ وَصْفِ الْمُؤَنَّثِ مَا يُحْدَفُ مِنْهُ الْهَاءُ بِاعْتِبَارِ تَأْوِيلِ آخِرِ كَصَيْغَةِ فَعِيلٍ : فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ كَقَتِيلٍ بِمَعْنَى مَقْتُولٍ وَخَضِيبٍ بِمَعْنَى مَخْضُوبٍ ، حُذِفَتِ الْهَاءُ مِنْ مُؤَنَّثِهِ : فَيُقَالُ أَمْرَأَةٌ قَتِيلٌ وَكُفٌّ خَضِيبٌ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ، وَإِنْ كَانَ بِمَعْنَى فَاعِلٍ كَعَالِمٍ بِمَعْنَى عَالِمٍ وَرَحِيمٍ بِمَعْنَى رَاحِمٍ ، تَثَبَّتِ الْهَاءُ فِي مُؤَنَّثِهِ : فَتَقُولُ فِيهِ عَلِيمَةٌ وَرَحِيمَةٌ . وَعَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ فَعُولٌ فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ بِمَعْنَى فَاعِلٍ كَانَ بِغَيْرِ هَاءٍ نَحْوَ امْرَأَةٍ صَبُورٍ وَشُكُورٍ بِمَعْنَى صَابِرَةٍ شَاكِرَةٍ ، وَإِنْ كَانَ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ كَانَ مُؤَنَّثُهُ بِالْهَاءِ كَالْحَلُوبَةِ بِمَعْنَى الْحَلُوبَةِ ، وَالرَّكُوبَةِ بِمَعْنَى الْمُرْكُوبَةِ ؛ وَصَيْغَةُ مُفْعَلٍ مِمَّا لَا يُوصَفُ بِهِ الذَّكُورُ تَكُونُ بِغَيْرِ هَاءٍ كَامْرَأَةٍ مُرْضِعٍ ، فَإِنْ أَرَادُوا الْفِعْلَ قَالُوا مُرْضِعَةٌ ؛ وَصَيْغَةُ فَاعِلٍ مِمَّا لَا يَكُونُ وَصْفًا لِمَذْكَرٍ تَكُونُ بِغَيْرِ هَاءٍ أَيْضًا نَحْوَ امْرَأَةٍ طَالِقٍ وَحَامِلٍ ، وَرَبَّمَا حُذِفَتِ الْهَاءُ مِمَّا يَكُونُ لِلذَّكَرِ وَالْمُؤَنَّثِ جَمِيعًا فَتَقُولُ امْرَأَةٌ عَاقِرٌ وَرَجُلٌ عَاقِرٌ . وَفِي "أَدَبِ الْكَاتِبِ" وَ"فَصِيحِ ثَعْلَبِ" جَمَلَةٌ مِنْ ذَلِكَ . وَفِي كِتَابِ النُّحُوِّ الْمَبْسُوطَةِ قَوَاعِدُ مُوصَلَةٌ إِلَى مَقَاصِدِهِ .

وَمِنْهَا الْمُتَهَمُوزُ وَغَيْرُ الْمُتَهَمُوزِ فَإِنَّ الْمَعْنَى قَدْ يَخْتَلِفُ فِي اللَّفْظِ الْوَاحِدِ بِاعْتِبَارِ الْهَمْزِ وَعَدَمِهِ : كَمَا تَقُولُ عَبَّاتُ الْمَتَاعِ بِالْهَمْزِ ، وَعَبَّيْتُ الْجَيْشَ بِغَيْرِ هَمْزٍ ، وَبَارَأْتُ الْكَرِيمِ بِالْهَمْزِ مِنَ الْإِبْرَاءِ ، وَبَارَيْتُ فَلَانًا مِنَ الْمَفَاخِرَةِ بِغَيْرِ هَمْزٍ . وَتَقُولُ زَيْنًا مِنَ الزَّانَا بِغَيْرِ هَمْزٍ ، وَزَنَا فِي الْجَبَلِ إِذَا رَقِيَ فِيهِ وَنَحْوَ ذَلِكَ . وَرَبَّمَا جَاءَ الْهَمْزُ وَعَدَمُهُ فِي الْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ كَمَا تَقُولُ شَيْتٌ بِالْهَمْزِ وَشَيْتٌ بِإِسْكَانِ الْيَاءِ مِنْ غَيْرِ هَمْزٍ وَنَحْوَ ذَلِكَ . فَتَمَّتْ لَمْ يَكُنِ الْكَاتِبُ عَارِفًا بِالْهَمْزِ وَمَوَاضِعِهِ ضَلَّ فِي طَرِيقِ الْكِتَابَةِ . وَفِي "أَدَبِ الْكَاتِبِ" بَابُ مَفْرَدٌ لِذَلِكَ .

وَمِنْهَا مَا وَرَدَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ مُرْدَوِجًا كَقَوْلِهِمُ الطَّمُّ وَالرَّمُّ ، يَرِيدُونَ بِالطَّمِّ الْبَحْرَ وَبِالرَّمِّ الثَّرَى ، وَكَقَوْلِهِمُ الْحَجْرَ وَالْمَدْرَ ، فَالْحَجْرُ مَعْرُوفٌ وَالْمَدْرُ التَّرَابُ النَّدَى وَنَحْوَ ذَلِكَ .

فاذا عرف الكاتب ذلك تمكن من وضعه في مواضعه لتحسين الكلام وتميجه في الطباق والمقابلة؛ وفي "أدب الكاتب" نبذة من ذلك .

ومنها ماورد من كلامهم مثنى إما على سبيل التغليب : كقولهم القمران يريدون الشمس والقمر، والعمران يريدون أبا بكر وعمر، وإما على الحقيقة : كقولهم ذهب منه الأطيبان، يريدون الأكل والنكاح واختلف عليه الملوآن أو الحديدان، يريدون الليل والنهار، ونحو ذلك؛ وفي "أدب الكاتب" أيضا طرف منه .

ومنها ما ورد من كلام العرب مرتباً كقولهم أوّل النوم النعاس، وهو الاحتياج إلى النوم؛ ثم الوسن، وهو ثقل النعاس؛ ثم الكرى والغمض، وهو أن يكون بين النائم واليقظان؛ ثم التفتيق، وهو النوم وأنت تسمع كلام القوم؛ ثم الإغفاء، وهو النوم الخفيف؛ ثم التهجاع، وهو النوم القليل؛ ثم الرقاد، وهو النوم الطويل؛ ثم الهجوع، وهو النوم الغرق؛ ثم التسبيخ^(١)، وهو أشدّ النوم، وما أشبه ذلك، وفي "فقه اللغة" للتعالي قدر صالح من ذلك .

ومنها ماورد من كلامهم مورد الدعاء : إما على بابه في الدعاء كقولهم "أستأصل الله شأفته" يريدون أذهب الله أثره كما يذهب أثر الشأفة، وهى قرحة تخرج في القدم فتكوى فتذهب؛ وقولهم "أباد الله خضراءهم" أى سوادهم ومُعظمهم . أو لم يقصد به حقيقة الدعاء، كقولهم "تربت يدك" أى ألصقت بالتراب من الفاقة، وقولهم "أرغم الله أنفه" أى ألصقه بالرغام، وهم لا يقصدون به الدعاء . وفي "أدب الكاتب" جملة من ذلك .

(١) أهمله في الأصل وهو من إهمال الناسخ .

ومنها ما تختلف أسماءه مع المشابهة في المعنى كالظفر للإنسان، والحافر للفرس والبغل والحمار، والظلف للبقرة، والمنسم للبعير، والبُرثن للسمك، وما يجرى هذا المجرى. وفي "فقه اللغة" جزء وافر منه .

ومنها ما تختلف أسماءه وأوصافه باختلاف أحواله كالكأس لا يُقال فيه كأس إلا إذا كان فيه شراب وإلا فهو قَدَح ، ولا مائدة إلا إذا كان عليها طعام وإلا فهي خِوَان ، ولا قلم إلا إذا كان مبرياً وإلا فهو أُنبُوبَة ، ولا حاتم إلا وفيه فص وإلا فهو فَتْحَة ونحو ذلك، وفي "فقه اللغة" جملة منه .

ومنها معرفة الأصول التي تُشتق منها الأسماء كتسمية القمر قرّاً لبياضه، إذ الأقر هو الأبيض، وتسمية ليلة الرابع عشر من الشهر ليلة البدر لمبادرة الشمس القمر بالطلوع، أو لتمامه وأمتلائه حينئذ من حيث إن كل تام يقال له بدر، وتسمية النجم نجماً، أخذاً من قولهم نجم إذا طلع ونحو ذلك، وفي "أدب الكاتب" جملة من ذلك .

(١) ومنها ما نطقت به العجم على وفق لغة العرب، لعدم وجوده في لغتهم وهو المعرب كالكَفّ والساق والدلال والوزان والصراف والجمال والقصاب والبيطار وما أشبه ذلك؛ وفي "فقه اللغة" جزء من ذلك كاف .

ومنها ما أشرك فيه العربية والفارسية، كاللثور، والنجير، والدينار، والدرهم، والصابون، وما أشبه ذلك؛ وفي "فقه اللغة" أيضاً نبذة منه .

ومنها ما اضطرت العرب إلى تعريبه وأستعماله في لغتهم من اللغة العجمية كالكوز، والإبريق، والطست، والخوان، والطبق، وغيرها من الآنية؛ والسجاج، والزيرباج، والطبايح، والجوداب، ونحوها من الأطعمة؛ والجلاب، والسكنجيين، ونحوهما

(١) قوله وهو المعرب كذا في الأصل .

من الأشربة، والخولنجان، والكافور، والصندل، وغيرها من الأفاويه، والطيب ونحو ذلك؛ وفي "فقه اللغة" من ذلك جملةٌ جيدة. إلى غير ذلك من الأمور التي لا يسع استيفؤها مما في أدب الكاتب وفقه اللغة الكثير منه.

ومنها ما تعددت لغاتها؛ وتعلم أن لغة العرب متعددة اللغات متسعة أرجاء الألسن بحيث لا تُساويها في ذلك لغة. فمن ذلك ما فيه لغتان كقولهم رَطْلٌ ورَطْلٌ بكسر الراء وفتحها وسمٌ وسمٌ بفتح السين وضمها؛ وما فيه ثلاث لغات مثل بُرُقِعَ بضم القاف و بُرَّقِعَ بفتحها و بُرُقُوعَ بضم الباء وزيادة الواو، وخاتمٌ بكسر التاء وخاتمٌ بفتحها وخَيْتامٌ؛ وما فيه أربع لغات مثل نَطَعٌ بكسر النون وفتحها وسكون الطاء ونَطَعَ بفتح النون والطاء جميعا و كَسَرَ النون؛ و صَدَّاقٌ بفتح الصاد و صِدَّاقٌ بكسرها و صِدَاقٌ بضمها و صِدْقةٌ بضم الصاد وسكون الدال؛ وما فيه خمس لغات كقولهم رِيحَ الشَّمَالِ بفتح الشين من غير همز، والشَّمَالُ بالهمز، والشَّامِلُ بغير همز، والشَّمْلُ بفتح الميم، والشَّمْلُ بسكونها؛ وما فيه ستُّ لغات كفُسَطَاطٌ بضم الفاء و فِسْطَاطٌ بكسرها، و فُسْتَاطٌ بضم الفاء وإبدال الطاء تاء، و فِسْتَاطٌ بكسر الفاء، و فُسَّاطٌ بضم الفاء وتشديد السين، و فِسَّاطٌ بكسر الفاء؛ وما فيه تسع لغات كالأتملة بفتح الهمزة وضمها وكسرها مع فتح الميم وضمها وكسرها؛ وما فيه عشر لغات كالأصبع بفتح الهمزة وضمها وكسرها مع فتح الباء وضمها وكسرها والعاشر أصبوع. وفي "أدب الكاتب" جملة من هذا النمط.

الصنف الثالث - الفصيح من اللغة. وأعلم أن اللغة العربية قد تنوعت وأختلفت بحسب تنوع العرب واختلاف ألسنتهم؛ والذي أعتمده حدائق اللغة وجهابذة العربية من ذلك ما نطق به فصحاء العرب، وهم الذين حلوا أوساط بلاد العرب، ولم يخالطهم من سواهم من الأمم كثير مخالطة، ولم يصابوا بلاد العجم

فبقيت ألفاظهم سالمة من التغيير والاختلاط بلغة غيرهم : ككقریش ، وهذيل ،
 وكنانة ، وبعض تميم ، وقيس عيلان ، ونحوهم من عرب الحجاز ، وأوساط نجد .
 بخلاف الذين حلوا في أطراف بلاد العرب ، وجاوروا الأعجم فتغيرت ألفاظهم
 بنحالتهم : كحمير ، وهمدان ، وخولان ، والأزد : لجاورتهم بلاد الحبشة ، وطبي
 وغسان : لجاورتهم بلاد الروم بالشام ، وبعض تميم ، وعبد القيس : لجاورتهم أهل
 الجزيرة وفارس .

وَأَعْلَمُ أَنَّ التَّغْيِيرَ يَدْخُلُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ مِنْ عِدَّةِ وَجُوهِ :

منها أن تُبدل كلمةً بغيرها : كما يستعمل أهل اللغة الحميرية "ثب" بمعنى 'أجلس' ،
 وهي في عامة لغة العرب للأمر بالطرفة . قال القاضي الرشيد في شرح أمينة الأملعي
 "وربما غلبت العجمة على أحدهم حتى لا يفهم عنه شيء" .

ومنها أن تُبدل حرفاً من الكلمة بحرف آخر : كما تُبدل حير كاف الخطاب شينا
 معجمة فيقولون في قلتُ لك قلت لَش ؛ وربما أبدلوا التاء أيضاً كافاً فيقولون
 في قلتُ قلتُك ، وكما تُبدل ربيعةُ الباء الموحدة ميماً فيقولون في بكر مكر ونحو ذلك ،
 وكما يُبدل بعض العرب الصاد المهملة بالسين المهملة فيقولون في صابر سابر ، وكما
 يُبدل بعضهم الطاء المهملة بتاء مثناة فوق فيقولون في طال تال وتُسَمَّع من عرب
 أهل الشرق كثيراً ، وكما يبدل قوم التاء المثناة فوق بضاد معجمة فيقولون في أترأضرم .
 ومنها أن يعاقب بين حرفين في الكلمة كما يقول بعضهم في بلخ فلبخ ، وفي أصبهان
 أصفهان .

ومنها أن يأتي بحرف بين حرفين فيأتون بكاف بحيم فيقولون في كل جمل . قال
 ابن دريد : "وهي لغة في اليمن كثيرة في أهل بغداد" ويأتون بحيم ككاف

على العكس من الأول فيقولون في رَجُلٍ رَكَلَ يَقْرَبُونَهَا مِنَ الْكَافِ، وَيَأْتُونَ بِشَيْنٍ
معجمة بحيم فيقولون في أَجْتَمَعُوا أَشْتَمَعُوا، وَيَأْتُونَ بِصَادٍ مَهْمَلَةٍ كَرَايَ فَيَقُولُونَ
فِي صِرَاطِ زِرَاطٍ، وَيَأْتُونَ بِجِيمٍ كَرَايَ فَيَقُولُونَ فِي جَارِ زَابِرٍ، وَيَأْتُونَ بِقَافٍ بَيْنَ
القَافِ وَالْكَافِ الْمَعْقُودَةِ، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ عَنْ سَمَاعِهِ مِنَ الْعَرَبِ؛ وَلَا يَكَادُ يَوْجَدُ
مِنْهُمْ مَنْ يَنْطِقُ بِهَا عَلَى أَصْلِهَا الْمُوصُوفِ فِي كِتَابِ النُّحُوْبِ . وَقَدْ ذَكَرَ الشَّيْخُ
أَبِي الدُّنْيَا أَبُو حَيَّانٍ ذَلِكَ جَمِيعَهُ فِي شَرْحِهِ عَلَى تَسْهِيلِ أَبِي مَالِكٍ .

الصنف الرابع — ما تَأَخَّرَ فِيهِ الْعَامَّةُ وَتَغَيَّرَ عَنْ مَوْضِعِهِ بَأَنَّ يَكُونُ مَفْتُوحَ
الأوَّلِ وَالْعَامَّةُ تَكْسِرُهُ : كَقَوْلِهِمْ فِي جَفْنِ الْعَيْنِ بَفَتْحِ الْجِيمِ جَفْنٌ بِكَسْرِهَا ؛ أَوْ مَفْتُوحِ
الأوَّلِ وَالْعَامَّةُ تَضُمَّهُ : كَقَوْلِهِمْ فِي الْقَبُولِ الَّذِي هُوَ خِلَافُ الرَّدِّ قَبُولٌ بِضَمِّهَا ؛ أَوْ مَكْسُورِ
الأوَّلِ وَالْعَامَّةُ تَفْتَحُهُ : كَقَوْلِهِمْ فِي دِرْهِمٍ بِكَسْرِ الدَّالِ دَرِّهْمٌ بِفَتْحِهَا ؛ أَوْ مَكْسُورِ الأوَّلِ
وَالْعَامَّةُ تَضُمَّهُ : كَقَوْلِهِمْ فِي التَّمْسَاحِ بِكَسْرِ التَّاءِ تُمْسَاحٌ بِضَمِّهَا ؛ أَوْ مَضْمُومِ الأوَّلِ
وَالْعَامَّةُ تَفْتَحُهُ : كَقَوْلِهِمْ فِي العُضْفُورِ بِضَمِّ الْعَيْنِ عَضْفُورٌ بِفَتْحِهَا ؛ أَوْ مَضْمُومِ الأوَّلِ
وَالْعَامَّةُ تَكْسِرُهُ : كَقَوْلِهِمْ فِي الظُّفْرِ بِضَمِّ الظَّاءِ ظُفْرٌ بِكَسْرِهَا ؛ أَوْ مَفْتُوحِ الوَسْطِ : كَقَوْلِهِمْ
فِي الْقَالِبِ بِفَتْحِ اللَّامِ قَالِبٌ بِكَسْرِهَا ؛ أَوْ مَكْسُورِ الوَسْطِ وَالْعَامَّةُ تَفْتَحُهُ : كَقَوْلِهِمْ
فِي الرَّجْلِ المَوْسُوسِ ، وَالبُرِّ المَسُوسِ ، وَالجَبَنِ المَدُودِ بِكَسْرِ الواوِ فِي الثَّلَاثَةِ : مُوسُوسٌ
وَمُسُوسٌ وَمَدُودٌ بِفَتْحِهَا ؛ أَوْ مَضْمُومِ الوَسْطِ وَالْعَامَّةُ تَفْتَحُهُ كَقَوْلِهِمْ فِي الجُدِّ جَمْعُ
جَدِيدٍ جُدَّدٌ بِفَتْحِهَا ؛ أَوْ مَحْرُوكِ الوَسْطِ وَالْعَامَّةُ تَسْكُنُهُ : كَقَوْلِهِمْ فِي التُّحْفَةِ بِفَتْحِ الحَاءِ
تُحْفَةٌ بِإِسْكَانِهَا ؛ أَوْ سَاكِنِ الوَسْطِ وَالْعَامَّةُ تَحْرُكُهُ : كَقَوْلِهِمْ فِي الحَلْقَةِ بِإِسْكَانِ اللَّامِ حَلَقَةٌ
بِفَتْحِهَا ؛ أَوْ مُشَدَّدَا الْعَامَّةُ تُخَفِّفُهُ : كَقَوْلِهِمْ فِي الْعَارِيَةِ بِتَشْدِيدِ الياءِ عَارِيَةٌ بِتَخْفِيفِهَا ؛
أَوْ مُخَفَّفَا الْعَامَّةُ تُشَدِّدُهُ : كَقَوْلِهِمْ فِي الكَرَاهِيَةِ بِتَخْفِيفِ الياءِ كَرَاهِيَةٌ بِتَشْدِيدِهَا ؛
أَوْ مَهْمُوزَا الْعَامَّةُ تَحْذِفُ الهمزَ مِنْ أَوَّلِهِ : كَقَوْلِهِمْ فِي الإِهْلِيلِجِ بِإِثْبَاتِ هَمْزَةٍ فِي أَوَّلِهِ

هَلِيَجْ بِحَذْفِهَا؛ أَوْ مَهْمُوزِ الْوَسْطِ وَالْعَامَّةُ تَسْهَلُ: كَقَوْلِهِمْ فِي الْمِرْءَاةِ بِإِثْبَاتِ الْهَمْزَةِ مِرَاةً بِحَذْفِهَا، أَوْ غَيْرِ مَهْمُوزِ الْأَوَّلِ وَالْعَامَّةُ تَثْبِتُ الْهَمْزَةَ فِي أَوَّلِهِ: كَقَوْلِهِمْ فِي الْكُرَّةِ، أَوْ كُرَّةً^(١)؛ أَوْ كَانَ بِالظَّاءِ الْمَعْجَمَةُ بِفَعْلَتِهِ بِالضَّادِ الْمَعْجَمَةُ كَالْوِظِيفَةِ وَنَحْوِهَا، أَوْ بِالضَّادِ بِفَعْلَتِهِ بِالظَّاءِ: كَقَوْلِهِمْ فِي الْبَيْضَةِ بَيْظَةً، أَوْ بِالذَّالِ الْمَعْجَمَةُ بِفَعْلَتِهِ بِالذَّالِ الْمَهْمَلَةِ كَالذَّرَاعِ، أَوْ كَانَ بِالجِيمِ بِفَعْلَتِهِ بِالْقَافِ: كَقَوْلِهِمْ فِي مَجَادِيْفِ السَّفِينَةِ مَقَادِيْفٍ؛ أَوْ بِالذَّالِ الْمَهْمَلَةِ بِفَعْلَتِهِ بِالنَّاءِ الْمُثَنَّى فَوْقَ: كَقَوْلِهِمْ فِي دَخَارِيصِ الْقَمِيصِ تَخَارِيصَ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا شَاعَ وَذَاعَ وَفِي "أَدَبِ الْكَاتِبِ" لِأَبْنِ قَتَيْبَةَ نُبْدَةٌ مِنْ لَحْنِ أَهْلِ الْمَشْرِقِ، وَكَتَابُ "تَثْقِيفِ اللِّسَانِ" لِأَبْنِ مَكِّي التُّونِسِيِّ مَوْضُوعٌ فِي لَحْنِ أَهْلِ الْغَرْبِ، وَفِصِيحٌ تَمَلَّبُ مَشْتَمَلٌ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ هَذَا الْمَقْصِدِ.

الصَّنْفُ الْخَامِسُ - الْأَلْفَاظُ الْكُتَابِيَّةُ، وَهِيَ الْأَلْفَاظُ الَّتِي تَنْتَقِبُ الْكُتَّابُ وَتَنْتَقُوها مِنْ اللُّغَةِ اسْتِحْسَانًا لَهَا وَتَمِيْزًا لَهَا فِي الطَّلَاوَةِ وَالرِّشَاقَةِ عَلَى غَيْرِهَا. قَالَ الْجَاهِظُ "مَا رَأَيْتُ أُمَّثَلَ طَرِيقَةً مِنْ هَوْلَاءِ الْكُتَّابِ، فَإِنَّهُمْ أَلْتَسُّوا مِنَ الْأَلْفَاظِ مَا لَمْ يَكُنْ مَتَوَعَّرًا حُوشِيًّا، وَلَا سَاقِطًا سُوقِيًّا". وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو الْاَثَرِ فِي "الْمَثَلِ السَّائِرِ": أَنْ الْكُتَّابَ غَرِبُوا اللُّغَةَ وَانْتَقَوْا مِنْهَا الْأَلْفَاظَ رَائِقَةً اسْتَعْمَلُوهَا.

ثُمَّ هَذِهِ الْأَلْفَاظُ أَسْمَاءٌ وَأَفْعَالٌ: فَلِأَسْمَاءِ كَقَوْلِكَ فِي الْمَدْحِ فَلَانٌ غُرَّةُ الْقَبِيلَةِ، وَسَنَامُهَا، وَذُوَابِتُهَا، وَذِرْوَتُهَا؛ وَهُوَ نَبْعَةُ أَرْوَمَتِهِ وَأَبْلَقُ كَتَبَتِهِ وَمِدْرَهُ عَشِيرَتِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَالْأَفْعَالُ كَقَوْلِكَ فِي إِصْلَاحِ الْفَاسِدِ: أَصْلَحَ الْفَاسِدَ، وَلَمْ الشَّعْثَ، وَرَأَبَ الشَّعْبَ، وَضَمَّ النَّشْرَ، وَرَمَّ الرَّثَّ، وَجَمَعَ الشَّتَاتَ، وَجَبَرَ الْكَسْرَ، وَأَسَا الْكَلِمَ، وَرَفَعَ الْخَرْقَ، وَرَتَّقَ الْفَتْقَ، وَشَعَبَ الصَّدْعَ. وَفِي "كِتَابِ الْأَلْفَاظِ" لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ عَيْسَى الْكَاتِبِ كِفَايَةٌ مِنْ ذَلِكَ. وَهُوَ مُخْتَصَرٌ أَرَبِيٌّ عَلَيْهِ. وَفِي "كَتْرِ الْكُتَّابِ" لِكُشَّاحِمٍ مَا فِيهِ مَقْنَعٌ.

(١) هي لغة كما في القاموس.

المقصد الرابع

(في كيفية تصرف الكاتب في الألفاظ اللغوية . وتصريفها في وجوه الكتابة)

لاخفاء أنه إذا أكثر من حفظ الألفاظ اللغوية ، وعرف الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد والمتقاربة المعاني ، تمكن من التعبير عن المعاني التي يضطر إلى الكتابة فيها بالعبارات المختلفة ، والألفاظ المتباينة ؛ وسهل عليه التعبير عن مقصوده ، وهان عليه إنشاء الكلام وترتيبه . وفي الأمثلة التي أوردها كشاحم في "كثر الكتاب" حيث يعبر عن المعنى الواحد بعبارات متعددة ما يرشد إلى الطريق في ذلك ، ويهدي إلى سلوك الحادة الموصلة إلى القصد منه .

وهذه نسخة مكتوبة منه في التهنئة بمولود يستضاء بها في ذلك ، وهي :

قد جعلك الله من نبع طابت مغارسها ، أرومة رنخت عروقها ؛ شجرة زكت
عصونها ؛ فرع شرفت منابته ؛ معدن زكت علائقه ؛ جوهر شاعت مكارمه ؛ عنصر
بسقت فروعها ؛ محمد ذاعت محامده ؛ أصل نجبت ماثره ؛ سنخ خلصت مناقبه ؛
نصاب صرحت مفاخره ؛ بحر تمت مساعيه ؛ أصل فضلت معالمه ؛ عنصر نصرت
محاسنه ؛ متمى كثرت مناقبه . فالزيادة فيها زيادة في جوهر الكرم ، مظاهر في محو
ثرى الإفضال ، ذخيرة نفيسة لذوى الآمال ، نعمة كاملة السعادة ، غبطة شاملة
البشاشة ، سرور يواجه الأولياء ، حبور تجتويه الأعداء ، غبطة تصل إلى الأحرار ،
آبتهاج لذوى الأخطار . فتولى الله نعمه عندك بالحراسة الوافية ، بالولاية الكافية ،
الكفاية المتظاهرة ، الدفاع الكالى ، الحفظ الداعى ، الصنع الجميل ، الدفاع الحسن ،
العافية المتكافئة . وبلغنى الخبر هبة الله المستحدة ، الولد المبارك ، الفرع الطيب ،
السليل الرضى ، الولد الصالح ، الابن السار ، الثمرة المثمرة ، السلالة الزكية ، والنجل

الميمون، الذي عمّر أُنْيَةَ السِّيَادَةِ . زاد في مواثيق العهد والرياسة ، أرسى قَوَاعِدَ
السِّيَادَةِ ، ثَبَّتَ أَسَاسَ الرَّفْعَةِ ، أَوْثَقَ عُرَى الْمَجْدِ ، مَكَّنَ أَرْكَانَ الْفَضْلِ ، وَطَدَّ أَسَاسَ
الْمَكَارِمِ ، أَكْثَدَ عِلَاقِ الشَّرَفِ ، أَبَدَ أَوَانِي الْكِرَمِ ، أْبْرَمَ حِبَالَ الْجُودِ ، أَمَرَ أَسْبَابَ
الطُّولِ ، شَيَّدَ بُيْنَانَ الْكِبَالِ ، أَحْصَفَ أَيْدِي السَّمَاحَةِ ، أَحْكَمَ قُوَى الرَّجَاحَةِ ، أَوْثَقَ
عَقْدَ الْعُلَا ، رَفَعَ دَعَائِمَ الظُّهَارَةِ ، أَنَارَ أَعْلَامَ الْغَارَةِ ، أَظْهَرَ عِلَامَاتِ الْخَيْرِ . فَنَبَاشَرْتُ
بِهِ ، أَتَهَجَّجْتُ ، أَجْتَدَلْتُ ، أَعْتَبْتُ ، فَرِحْتُ ، سُرِرْتُ ، أَسْتَبَشَرْتُ . جَعَلَهُ اللَّهُ بَرًّا
تَقِيًّا ، سَيِّدًا ، حَمِيدًا ، مَيْمُونًا ، مُبَارَكًا ، طَيِّبًا ، عَزِيزًا ، سَعِيدًا ، ظَهِيرًا ، عَوْنًا ، نَاصِرًا ،
رَاجِحًا ، زَيْكًا ، وَزْرًا ، مَلْجَأً . يَتَّقِلُ سَلْفَهُ ، وَيَقْتَنِي أَرْهَمَ ، يَسْلُكُ مِنْهَا جِهْمَ ، يَسُنُّ
سُنَّتَهُمْ ، يَتَّبِعُ قَصْدَهُمْ ، يَسِيرُ سَيْرَتَهُمْ ، يَسْعَى مَسَاعِيَهُمْ ، يَتَّخُو مِثَالَهُمْ ، يَخْذُو حَذْوَهُمْ ،
يَتَخَلَّقُ بِأَخْلَاقِهِمْ ، يَتَّبَصَّرُ بِصِيرَتِهِمْ ، يَنْوُطُ أَعْيُنَهُمْ ، يَتَرَسَّمُ رُسُومَهُمْ . وَأَيْمَنَ بِهِ عَدْدَكَ ،
كَثَّرَ بِهِ ذُرِّيَّتَكَ ، أَرَاكَ فِيهِ غَايَةَ أَمَلِكَ ، شَفَعَهُ اللَّهُ بِأَخْوَةِ بَرَّةٍ ، وَفَقَّهُهُ اللَّهُ لِأَدَاءِ حَقِّكَ ،
جَعَلَهُ خَيْرَ خَلْفٍ كَمَا هُوَ خَيْرَ سَلْفٍ . زَيْنَ بِهِ الْعَشِيرَةَ ، وَهَبَ لَهُ السَّمَاءَ ، بَلَغَ بِهِ
أَشْكَالَ الْعُمُرِ ، مَكَّنَ لَهُ فِي رَفِيعِ الْمَرَاتِبِ ، حَقَّقَ فِيهِ فِرَاسَتَكَ ، وَهَبَ لَهُ تَمَامَ الْفَضِيلَةِ ،
وَأَوْزَعَكَ الشُّكْرَ عَلَيْهِ ، أَجَارَكَ فِيهِ مِنَ الشُّكْلِ ، سَرَّكَ بِفَائِدَتِهِ ، أَسْعَدَكَ بِرُؤْيَيْتِهِ ، أَطَابَ
عَيْشَكَ بِهِ ، مَتَّعَكَ بِعَطِيَّتِهِ ، أَلْهَمَكَ شُكْرَ مَا خَوْلَكَ ، وَأَصَلَ لَكَ الْمَزِيدَ بِرَحْمَتِهِ .

فإنه إذا أراد الكاتب أن يستخرج من ألفاظ هذا الكتاب عدة كتب بتهنئة
بولد، فعل . كما إذا قال : قد جعلك الله من نبعة طابت مغارسها ، فالزيادة فيها زيادة
في جوهر الكرم ، فتولى الله نعمه عندك بالحراسة ، وبلغني الخبر بهبة الله الجديدة
المستجدة ، الولد المبارك الذي عمّر أُنْيَةَ السِّيَادَةِ ، فَنَبَاشَرْتُ بِهِ ، جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بَرًّا

تقيا، يتقبل سلفه، وأيمن به عددك، وأوزعك الشكر عليه، وواصل لك المزيد برحمته، كان ذلك كتابا كافيا في هذا النوع. فتأمل ذلك وقس عليه .

النوع الثاني

(المعرفة باللغة العجمية، وهي كل ما عدا العربية : من التركية، والفارسية، والرومية، والفريجية، والبربرية، والسودان، وغيرهم، وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في بيان وجه احتياج الكاتب إلى معرفة اللغات العجمية)

لا يخفى أن الكاتب يحتاج في كماله إلى معرفة لغة الكتب التي ترد عليه للملكه أو أميره ليفهمها ويحيب عنها من غير اطلاع ترجمان عليها، فإنه أصون لستملكه، وأبلغ في بلوغ مقاصده .

وقد روى محمد بن عمر المدائني في "كتاب القلم والدواة" بسنده إلى زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إنه يرد على أشياء من كلام السريانية لا أحسنها فتعلم كلام السريانية فتعلمتها في ستة عشر يوما)) وفي رواية قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((أحسن السريانية؟ فإنه يأتيني كتب بها، قلت لا . قال فتعلمها فتعلمتها في سبعة عشر يوما، فكنت أجيب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقرأ كتب يهود إذا وردت عليه)) وفي رواية، قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((يا زيد تعلم كتاب يهود فأني والله لا آمن يهود على كتابي قال فتعلمت كتابهم فما مر لي ست عشرة ليلة حتى حدفته فكنت أقرأ له كتبهم إذا كتبوا إليه وأجيب إذا كتب)) وفي رواية العبرانية بدل السريانية .

قال محمد بن عمر المدائني بل قد قيل إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يفهم اللغات كلها وإن كان عربياً لأن الله تعالى بعثه إلى الناس كافةً ولم يكن الله بالذي يبعث نبياً إلى قوم لا يفهم عنهم، ولذلك كَلَّمَ سَلْمَانَ بِالْفَارْسِيَّةِ . وساق بسنده إلى عكرمة أنه قال: سئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ هَلْ تَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْفَارْسِيَّةِ قَالَ نَعَمْ، دَخَلَ عَلَيْهِ سَلْمَانُ فَقَالَ لَهُ دَرَسْتَهُ وَسَادَتَهُ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَمِيَلٍ: أَظْنَهُ مَرَّحِبًا وَأَهْلًا .
 وحينئذ فيكون النبي صلى الله عليه وسلم إنما أمر زيدا بتعلم كتابة السريانية أو العبرانية لتحریم الكتابة عليه لا أنه أمره بتعلم لغتهم .

المقصد الثاني

(في بيان ما يتصرف فيه الكاتب من اللغة العجمية)

اعلم أن الذي ينبغي له تعلمه من اللغات العجمية هو ما تتعلق به حاجته في المخاطبة والمكاتبة .
 أما المخاطبة فبأن يكون لسان ملكه بعض الألسن العجمية أو كان الغالب عليه لسان عجمي مع معرفته بالعربية : كما غلبت اللغة التركية على ملوك الديار المصرية ، وكما غلبت اللغة الفارسية على ملوك بلاد العراق وفارس ، وكما غلب لسان البربر على ملوك بلاد المغرب مع تبعية عسكر كل ملك في اللسان الغالب عليه له في ذلك فيحتاج الكاتب إلى معرفة لسان السلطان الذي يتكلم به هو وعسكره ليكون أقرب إلى حصول قصده : من فهم الخطاب وتفهمه ، وسرعة إدراك ما يليق إليه من ذلك ، وتأدية ما يقصد تأديته منه ؛ مع ما يحصل له من الحظوة والتقريب بالموافقة في اللسان ؛ فإن الشخص يميل إلى من يخاطبه بلسانه لا سيما إذا كان من غير جنسه

كما يميل نفوس ملوك الديار المصرية وأمرائها وجُنُدها لمن يتكلم بالتركية: من العلماء والكتّاب ومن في معانهم على ما هو معلوم مشاهد .

وأما المكتوبة فبأن يكون يعرف لسان الكتّاب الواردة على ملكه ليرجمها له ويحيب عنها بلغتها التي وردت بها؛ فإن في ذلك وقعاً في النفوس، وأستجلاباً للقلوب، وصوناً للسر عن أطلاع ترجمان عليه؛ وأمر النبي صلى الله عليه وسلم لزيد بن ثابت بتعلم السريانية أو العبرانية على ما تقدم ظاهر في طلب ذلك من الكتّاب وحثه عليه .

ثم اللغات العجمية على ضربين: أحدهما ماله قلم يكتب به في تلك اللغة كاللغة الفارسية، واللغة الرومية، واللغة الفرنجية ونحوها؛ فإن لكل منها قلماً يخصه يكتب به في تلك اللغة . والثاني ما ليس له قلم يكتب به، وهي لغات القوم الذين تغلب عليهم البدّاءة كالترك والسودان . ولأجل ذلك ترد الكتّاب من القانات ملوك الترك بلاد الشمال المعروف في القديم بيت بركة، والآن بمملكة أذربك باللغة المغلية بالخط العربي . وترد الكتّاب الصادرة عن ملوك السودان باللفظ العربي والخط العربي . أما اللغات التي لها أقلام تخصها فإن كتبهم ترد بخطهم ولغتهم : كالكتّاب الواردة من ملوك الروم والفرنج ونحوهما ممن لغته قلم يخصه على اختلاف الألسنة واللغات .

النوع الثالث

(المعرفة بالنحو؛ وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في بيان وجه احتياج الكتّاب إليه)

لا نزاع أن النحو هو قانون اللغة العربية، وميزان تقويمها؛ وقد تقدم في النوع الأول أن اللغة العربية هي رأس مال الكتّاب، وأُسُّ مقالها، وكثر إنفاقه . وحينئذ

فيحتاج إلى المعرفة بالنحو وطُرق الإعراب، والأخذ في تعاطي ذلك حتى يجعله دأبه، ويُصيره ديدنه : ليرتسم الإعرابُ في فكره، ويدور على لسانه، وينطلق به مقال قلمه وكمه، ويزول به الوهم عن سببته، ويكون على بصيرة من عبارته . فإنه إذا أتى من البلاغة بأعلى رتبة ولحن في كلامه، ذهب محاسن ما أتى به، وأنهدمت طبقة كلامه وألغى جميع ما حسنه، ووقف به عند ما جهله . قال في "المثل السائر": وهو أول ما ينبغى إثبات معرفته؛ على أنه ليس مختصاً بهذا العلم خاصة بل بكل علم؛ لا : بل ينبغى معرفته لكل أحد ينطق باللسان العربي ليأمن معزة اللحن . قال صاحب "الريحان والريعان" ولم يزل الخلفاء الراشدون بعد النبي صلى الله عليه وسلم يحثون على تعلم العربية، وحفظها والرعاية لمعانيها، إذ هي من الدين بالمكان المعلوم، والمحلّ المخصوص . قال عثمان المهري : « أتانا كتاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ونحن بأذربيجان يأمرنا بأشياء، ويدكر فيها : "تعلموا العربية فإنها تثبت العقل، وتزيد في المروءة" . وكان لخالد بن يزيد بن معاوية أخٌ بجاءه يوماً فقال : إن الوليد ابن عبد الملك يعبث بي ويحتقرني، فدخل خالد على عبد الملك والوليد عنده فقال يأمر المؤمنين ! : إن الوليد قد احتقر ابن عمه عبد الله وأستصغره، وعبد الملك مطرق فرجع رأسه وقال : (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها) الآية - فقال خالد : (وإذا أردنا أن نهلك قرية) الآية - فقال عبد الملك : أفى عبد الله تكلمنى؟ وقد دخل على ف أقام لسانه لحنًا - فقال خالد : أفى الوليد تعول؟ فقال عبد الملك : إن كان الوليد يلحن فإن أخاه سليمان - فقال خالد : وإن كان عبد الله يلحن فإن أخاه خالد في كلام كثير طويل ليس هذا موضع ذكره .

وقال الرشيد يوماً لبنيه : "ما ضر أحدكم لو تعلم من العربية ما يصلح به لسانه؟ أيسر أحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده وأمتيه؟" . ومن كلام مالك بن أنس

”الإعراب حَلَى اللِّسَانِ فلا تَمَنَّعُوا ألسنتكم حَلِيهَا“ . والله دَرَّ أبى سعيد البصرى !
حيث يقول :

النَّحْوُ يَسُطُّ مِنْ لِسَانِ الْأَلْكَنِ * وَالْمَرْءُ تُكْرِمُهُ إِذَا لَمْ يَلْحَرْبِ
وَإِذَا طَلَبَتْ مِنَ الْعُلُومِ أَجْلَهَا * فَأَجَلُهَا عِنْدِي مُقِيمُ الْأَلْسِنِ

قال صاحب ”الريحان والريعان“ واللحن قبيح في كبراء الناس وسرآتهم ، كما أن الإعرابَ جمال لهم ، وهو يرفع الساقط من السفلة ويرتقي به إلى مرتبة تُلحِّقه بمن كان فوقَ نمطه وصنفته . قال وإذا لم يتجه الإعراب فسد المعنى ؛ فإن اللحن يغير المعنى واللفظ ويقلبه عن المراد به إلى ضده حتى يفهم السامعُ خلاف المقصود منه . وقد روى أن أعرابيا سمع قارئاً يقرأ ﴿إِنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ بجزء رسوله فتوهم عطفه على المشركين فقال : أو برى الله من رسوله ؟ ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأمر أن لا يقرأ القرآن إلا من يُحسن العربية . على أن الحسن قد قرأها بالجزء على التقسم وقد ذهب على الأعرابي فهم ذلك لخفائه . وقرأ آخر ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ برفع الأول ونصب الثانى ، فوقع في الكفر بنقل فتحة إلى ضمة وضمة إلى فتحة فقبل له : يا هذا إن الله تعالى لا يخشى أحدا ! فتنبه لذلك وتفظن له . وسمع أعرابى رجلا يقول : أشهد أن محمدا رسول الله بفتح رسول الله فتوهم أنه نصبه على التعت فقال يفعل ماذا ؟ . وقال رجل لآخر ما شأنك ؟ بالنصب فظن أنه يسأل عن شين به فقال عظم في وجهى . وقال رجل لأعرابى : كيف أهلك ؟ بكسر اللام وهو يريد السؤال عن أهله فتوهم أنه يسأل عن كيفية هلاك نفسه فقال صلبا . ودخل رجل على زياد بن أبيه فقال : إن أبونا مات وإن أخينا وثب على مال أبانا فأكله — فقال زياد للذى أضعته من كلامك أضر عليك مما أضعته من مالك . وقيل لرجل من أين أقبلت ؟ فقال من عند أهلونا ، ففسده آخر

حين سمعه وظن ذلك فصاحةً فقال أنا والله أعلم من أين أخذها ؟ من قوله ﴿ شَعَلْنَا
أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا ﴾ فأضحك كلُّ منهما من نفسه . قال صاحب "الريحان والرياحان"
وكان من يُؤثر عقله من الخلفاء يعاقب على اللحن وينفر من خطأ القول ، ولا يبيح أن
يُخاطب به في الرسائل البُلدانية ، ولا أن يُوقف به على رءوسهم في الخطب المَقَامِيَّة
قال : وهو الوجه . فأندبهم مَطْلَب الكمال ، ومَطْأ الصواب في إحكام الأفعال ، فكيف
في إحكام الأقوال . قال ابن قادم النحوى : "وجه إلى إسحاق بن إبراهيم المصعبى : وهو
أمير فأحضرني فلم أدري ما السبب ، فلما قُرِبت من مجلسه تلقاني كاتبه على الرسائل
ميمون بن إبراهيم وهو على ذاية الهلع والجزع ، فقال لى بصوت خفى إنه إسحاق ! ومررت
غير متلبث حتى رجع إلى إسحاق ، فأرغى ما سمعت ، فلما مثلت بين يديه ، قال كيف
يقال وهذا المال مالٌ أو وهذا المالٌ مالا ، فعلمت ما أراد ميمون الكاتب فقلت له
الوجهُ وهذا المالٌ مالٌ ويموز وهذا المالٌ مالا ، فأقبل إسحاق على ميمون كاتبه بغلظة
وفظاظه ثم قال : «ألزم الوجه في كُتُبك ودع ما يموز ! » ورمى بكتاب كان في يديه ،
فسألت عن الخبر فإذا بميمون قد كتب عن إسحاق إلى المأمون وهو ببلاد الروم
وذكر مالا حملة إليه فقال « وهذا المالٌ مالا » ، فخط المأمون على الموضع من الكتاب
ووقع بخطه في حاشيته تكتائينى باللحن ؟ ويقال إنه لم يتجاوز موضع اللحن في قراءة
الكتاب فقامت عند إسحاق ، فكان ميمون الكاتب بعد ذلك يقول : لا أدري
كيف أشكر ابن قادم ببق على رُوحى ونعمتى . ووقف بعض الخلفاء على كتاب
لبعض عماله فيه لحن في لفظه فكتب إلى عامله : قنع كتابك هذا سوطاً معاينة على
لحنه . قال أحمد بن يحيى : كان هذا مقدار أهل العلم ، وبحسبه كانت الرغبة في طلبه
والحذر من الزلل . قال صاحب "الريحان والرياحان" : فكيف لو أبصر بعض كتاب
زماننا هذا ؟ . قلت قد قال ذلك في زمانه هو وفي الناس بعض الرمق والعلم ظاهر
وأهله مكرمون ، وإلا فلو عمر إلى زماننا نحن لقال ﴿ تَلَكُ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ .

ثم المرجع في معرفة النحو إلى التلقُّ من أفواه العلماء الماهرين فيه ، والنظر في الكتب المعتمدة في ذلك من كتب المتقدمين والمتأخرين .

وأعلم أن كتب النحو : من المبسوطات والمختصرات والمتوسطات أكثر من أن يأخذها الحصر . ومن الكتب المعتمدة في زماننا عند أبناء المشرق "المفصل" للزمخشري و"الكافية" لابن الحاجب . وعند المصريين كتبُ ابن مالك : كالتسهيل والكافية الشافية والألفية وغير ذلك من كتب ابن مالك وغيرها .

قال أبو جعفر النحاس : وقد صار أكثر الناس يطعن على متعلمي العربية جهلا وتعديا حتى إنهم يحتجّون بما يزعمون أن القاسم بن مُحَيِّمَةَ قال : « النحو أوله سُغْلٌ وآخره بَغْيٌ » قال : وهذا كلام لا معنى له لأن أول الفقه سُغْلٌ وأول الحساب سُغْلٌ وكذا أوائل العلوم . أفترى الناس تاركين العلوم من أجل أن أولها سُغْلٌ ؟ . قال وأما قوله « وآخره بغي » إن كان يريد به أن صاحب النحو إذا حذفه صار فيه زهوٌ واستحقارٌ من يلحن فهذا موجود في غيره من العلوم : من الفقه وغيره في بعض الناس وإن كان مكروها . وإن كان يريد بالبغي التجاوز فيما لا يحلُّ فهذا كلامٌ محالٌ فإن النحو إنما هو العلم باللغة التي نزل بها القرآنُ وهي لغة النبي صلى الله عليه وسلم وكلامُ أهل الجنة وكلامُ أهل السماء . ثم قال بعد كلامٍ طويل : وقد كان الكُتَّابُ فيما مضى أرعبَ الناس في علم النحو وأكثرهم تعظيما للعلماء حتى دخل فيهم من لا يستحقُّ هذا الاسم فصعب عليه باب العدد فعابوا من أعرب الحساب ، وبعُدت عليهم معرفة الهمزة التي ينضمُّ وينفتح ما قبلها ، أو تختلف حركتها وحركة ما قبلها فيكتبون يقرؤه بزيادة ألف لا معنى لها : في كلام آخر يتعلق بالهجاء ليس هذا موضع ذكره . — أما التعمق في الإعراب والمبالغة فيه فإن حكمة في الاستكراه حكمُ التقعر في الغريب ؛ وقد كانوا يذمون من يتعاناه ، ويسخرون من يتعاطاه . قال الأصمعي

خاصم عيسى بن عمير النحوي رجلا إلى بلال بن أبي بردة فجعل عيسى يُسبِع الإعراب ويتعمق في الألفاظ، وجعل الرجل ينظر إليه - فقال له القاضي: "لأن يذهب بعض حق هذا أحب إليه من تركه الإعراب، فلا تشاغل به وأقصد بحججك". وخاصم نحويًا آخر عند بعض القضاة في دين عليه فقال: "أصلح الله القاضي! لي على هذا درهمان" - فقال خصمه: "والله أصلحك الله! إن هي إلا ثلاثة دراهم ولكنه لظهور الإعراب ترك من حقه درهما". فهذا وشبهه قد صار مذموما والمتشبهت به ملوما؛ ولذلك كان بعض الكتاب لشدة اقتداره على الإعراب يعرب كلامه ولا يُحَيِّل إلى السامع أنه يعرب، فإن عرض مع التعمق في الإعراب لحن، كان ذلك أبلغ في الشناعة، وأجدر بتوجه اللوم على صاحبه والسخرية من المتكلم به. وقد قال الجاحظ: «إن أقبح اللحن لحن أصحاب التعيير والتشديق والتعطيط والجمهورية والتفخيم». قال «وأقبح من ذلك لحن الأعراب النازلين على طريق السابلة وبُقرَب مجامع الأسواق». وعلى الجملة فالنحو لا يُستغنى عنه ولا يوجد بد منه، إذ هو حلي الكلام، وهو له كما قيل كالمُملح في الطعام. قال في "المثل السائر": والجهل بالنحو لا يُقدَح في فصاحة ولا بلاغة ولكنه يُقدَح في الجهل به نفسه لأنه رُسوم قوم تواضعوا عليه وهم الناطقون باللغة فوجب آتباعهم؛ ولذلك لم ينظم الشاعر شعره وعرضه منه رفعُ الفاعل ونصبُ المفعول أو مجرى مجراهما وإنما غرضه إيراد المعنى الحسن في اللفظ الحسن المتصفين بصفة الفصاحة والبلاغة. قال: ولذلك لم يكن اللحن قادحا في نفس الكلام: لأنه إذا قيل جاء زيد راكب بالرفع لو لم يكن حسنا إلا بأن يقال جاء زيد راكبا بالنصب لكان النحو شرطا في حسن الكلام وليس كذلك فتبين أنه ليس الغرض من نظم الشعر إقامة إعراب كلماته وإنما الغرض أمر وراء ذلك - وهكذا يجري الحكم في الخطب والرسائل من المنشور مع

ما حكي أن اللحن وقع لجماعة من الشعراء المتقدمين في شعرهم ، كقول أبي نؤاس في ممد الأمين :

يا خير من كان ومن يكون * إلا النبي الطاهر المأمون

فرغ المستثنى من الموجب . وكقول المنبئ :

أرأيت همة ناقتي في ناقة * نقلت يدا سرحا وخفا مجمرًا
تركت دُخان الرمث في أوطانها * طلبًا لقوم يُوقدون العنبرًا
وتكرمت ركباتها عن مبرك * تقعان فيه وليس مسكا أذفرًا

بجمع في حالة التثنية ، لأن الناقة ليس لها إلا رُكبتان وقد قال رُكباتها .

وَأعلم أن اللحن قد فشا في الناس ، والألسنة قد تغيرت حتى صار التكلم بالإعراب عيبًا ، والنطق بالكلام الفصيح عيبًا . قلت : والذي يقتضيه حال الزمان ، والجرى على منهاج الناس أن يحافظ على الإعراب في القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية ، وفي الشعر والكلام المسجوع ، وما يدون من الكلام ، ويكتب من المراسلات ونحوها ؛ ويفتخر اللحن في الكلام الشائع بين الناس الدائر على ألسنتهم مما يتداولونه بينهم ويتحاورون به في مخاطباتهم ؛ وعلى ذلك جرت سنة الناس في الكلام مذسدت الألسنة ، وتغيرت اللغة حتى حكي أن الفراء مع جلالة قدره وعلو رتبته في النحو دخل يوما على الرشيد فتكلم بكلام لحن فيه ؛ فقال جعفر بن يحيى يا أمير المؤمنين إنه قد لحن — فقال الرشيد للفراء أتلحن يا يحيى؟ فقال يا أمير المؤمنين ! : إن طباع أهل البدو الإعراب وطباع أهل الحضرة اللحن فاذا حفظت أو كتبت لم أَلحن وإذا رجعت الى الطبع لَحنت — فاستحسن الرشيد كلامه . وقد قال الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" « ومتى سمعت حفظك الله نادرة من كلام الأعراب فإياك أن

تَحْكِيهَا إِلَّا مَعَ إِعْرَابِهَا وَمَخَارِجِ أَلْفَاظِهَا ؛ فَإِنَّكَ إِنْ غَيَّرْتَهَا بَانَ لِحْنَتَ فِي إِعْرَابِهَا
 أَوْ أَخْرَجْتَهَا مَخْرَجَ كَلَامِ الْمُؤَلَّدِينَ وَالْبَلَدِيِّينَ ، نَخَرَجْتَ مِنْ تِلْكَ الْحِكَايَةِ وَعَلَيْكَ فَضْلٌ
 كَبِيرٌ ؛ وَإِنْ سَمِعْتَ نَادِرَةً مِنْ نَوَادِرِ الْعَوَامِّ وَمُلْحَةً مِنْ مُلَحِّهِمْ فَإِيَّاكَ أَنْ تَسْتَعْمَلَ لَهَا
 الْإِعْرَابَ أَوْ تُغَيِّرَ لَهَا لَفْظًا حَسَنًا ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُفْسِدُ الْإِمْتَاعَ بِهَا وَيُخْرِجُهَا مِنْ
 صُورَتِهَا الَّتِي وُضِعَتْ لَهَا وَيُذْهِبُ اسْتِطَابَتَهُمْ إِيَّاهَا . قَالَ : « وَاللَّحْنُ مِنَ الْجَوَارِي
 الظَّرَافِ ، وَمِنَ الْكَوَاعِبِ النَّوَاهِدِ ، وَمِنَ الشَّوَابِّ الْمَلَاخِ ، وَمِنَ ذَوَاتِ الْخُدُورِ أَيْسَرُ
 وَرَبْمَا اسْتَمْلَحَ الرَّجُلُ ذَلِكَ مِنْهُنَّ مَا لَمْ تَكُنِ الْجَارِيَةُ صَاحِبَةً تَكْلُفٌ ، وَلَكِنْ إِذَا كَانَ
 اللَّحْنُ عَلَى سَجِيَّةِ سُكَّانِ الْبَلَدِ كَمَا يَسْتَمْلِحُونَ اللَّثْغَاءَ إِذَا كَانَتْ حَدِيثَةَ السِّنِّ فَإِذَا أُسْنِتْ
 وَأَكْتَهَلَتْ سُمِّيَ ذَلِكَ الْاسْتِمْلَاحَ . قَالَ : « وَمَنْ اسْتَمْلَحَ اللَّحْنَ فِي النِّسَاءِ مَالِكُ بْنُ أَسْمَاءَ
 فَقَالَ فِي بَعْضِ نِسَائِهِ :

أُمُغَطِّي مَنِّي عَلَى بَصْرِي لِلْحُبِّ أَمْ أَنْتِ أَكَلِ النَّاسِ حُسْنًا؟
 وَحَدِيثُ اللَّهِ هُوَ مِمَّا * تَشْتَبِيهِ الْأَسْمَاعُ يُوزَنُ وَزَنَا
 مَنطِقُ صَائِبٍ وَتَلْحَنُ أَحْيَا * نَا وَخَيْرُ الْحَدِيثِ مَا كَانَ لِحْنًا

وَالنَّاسُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ بِحَسَبِ الْبِلَادِ وَأَهْلِهَا ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْعَرَبَ وَإِنْ تَغَيَّرَتْ أَلْسِنَتُهُمْ
 بِمَخَالِطَةِ مَنْ عَدَاهُمْ فَإِنَّهُمْ لَا يَخْتَلُونَ كَلَامَهُمْ مِنْ مُوَافَقَةِ الْإِعْرَابِ فِي بَعْضِ الْكَلَامِ
 وَالْجَرِيِّ عَلَى قَوَاعِدِ الْعَرَبِيَّةِ خُصُوصًا عَرَبِ الْحِجَازِ وَأَهْلِ الْبَادِيَةِ مِنْهُمْ . وَقَدْ قَالَ
 الْجَا حِظُّ فِي أَثْنَاءِ كَلَامِهِ « وَأَهْلُ الْمَدِينَةِ أَلْسِنَةٌ ذَلِيقَةٌ ، وَأَلْفَاظُ حَسَنَةٌ ، وَعِبَارَةٌ جَيِّدَةٌ ؛
 وَاللَّحْنُ فِي عَوَامِّهِمْ فَايَسٌ وَعَلَى مَنْ لَمْ يَنْظُرْ مِنْهُمْ فِي النَّحْوِ غَالِبٌ » .

المقصد الثاني

(في كيفية تصرّف الكاتب في علم العربية)

وأعلم أن أنتفاع الكاتب بالنحو من وجهين : أحدهما الإعراب وما يلحق به . ومن أهم ما يُعتنى به من ذلك النَّسَبُ لكثرة استعماله في الألقاب ونحوها ، وكذلك العددُ فإنه مما يقع فيه اللَّبْسُ على المبتدئ ؛ ومحل ذلك كله كتبُ النحو . الثاني فيما يقع الكاتب فيه بطريق العَرَضِ ، فيحتاج من ذلك إلى معرفة النُّحاة ومشاهير أهل العربية كأبي الأسود الدؤلي ، وسيبويه ، والقرءاء ، وأبي علي ، وأبي عثمان المازني وغيرهم من المتقدمين ؛ وأبن عُصفور وأبن مالك وأبن مُعطى وغيرهم من المتأخرين ؛ وكذلك أسماء كتبهم المشهورة في هذا الفن : من المبسوطات والمختصرات من كتب المتقدمين والمتأخرين ومصطلحاتهم التي اصطَلَحُوا عليها : من ذكر الأسم ، والفعل ، والمعرفة ، والنكرة ، والمبتدأ ، والخبر ، والحال ، والتمييز ، وألقاب الإعراب : من الرفع والنصب والجر والحزم وغير ذلك مما تجرى به عباراتهم ، ويدور على ألسنتهم في استعمالهم : من قولهم ضرب زيد عمرا ونحو ذلك يُدْرَج ما عَنَ له من ذلك في خلال كلامه حيث أحتاج إليه في التواقيع والمكاتبات وغيرها .

قال في «التعريف» في وصية نحوي : وهو زيد الزَّمان ، الذي يضربُ به المثل ، وعمرو الأوان ؛ وقد كُتِرَ من سيبويه المثلُّ ومازنيُّ الوقت لكنه لم يَسْتَبِح الإبل ، وكسائي الدهر الذي لو تقدَّم لما اختار غيره الرشيدُ للأمون ، وذو السُّودد لأبو الأسود على أنه ذو السابقة والأجر المننون . وهو ذو البرِّ الماثور ، والقدر المرفوع ولواؤه المنصوبُ وذيلُ نَخَّاره المجرور . والمعروف بما لا يُنْكَرُ لمثله من الحزْم ، والذهابُ عمله الصالح بكلِّ العوامل التي لم يبق منها لحسوده إلا الحزْم . وهو ذو الأبيَّة التي

لا يفصح عن مثلها الإعراب ، ولا يُعرف أفصح منها فيما أُخذ عن الأعراب .
والذي أصبح أهدأه فوق عمائم الغائم ثلاث ، ولم يزل طول الدهر يُشكر
منه أمسه ويومه وغده وإنما الكلمات ثلاث . فليتصد للإفاده ، وليعلمهم مثل
ما ذكر فيه من علم النحو نحو هذا وزياده . وليكن للطلبة نجا به يهتدى ، ويرفع
بتعليمه قدر كل حبر يكون خبراً له وهو المبتدا . ويقدم منهم كل من صلح للتبريز ،
وأستحق أن ينصب إماماً بالتميز . ويورد من موارد أعذب النطاف ، وليجز إليه كل
مضاف إليه ومضاف . وليوقفهم على حقائق الأسماء ، ويعرفهم دقائق البحوث
حتى اشتقاق الأسم هل هو من السم أو من السماء . وليبين لهم الأسماء العجمية
المنقولة والعربية الخالصة ، ويدلهم على أحسن الأفعال لا ما يتشبهه بصفات كان
وأخواتها من الأفعال الناقصة ، وليحفظهم المثل وكلمات الشعراء ، ولينصب نفسه لحد
أذهان بعضهم ببعض نصب الإغراء . ويعامل جماعة المستفيدين منه بالعطف ،
ومع هذا كله فليترفق بهم فما بلغ أحدٌ علماً بقوة ولا غايةً بعسف .

وكما قال الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله من جملة توقيع مدرس : «ولأنه
في البيان ذو الانتقاد والانتقاء . والعربي الذي كان لرقاب الفضلاء ابن مالك فإن
قريبه أبو البقاء .

وكما كتب القاضي محي الدين بن عبد الظاهر في رسالة أقترحت عليه في هذا
الباب وهي : «حرس الله نعمة مولاي ! ، ولا زال كلم السعد من اسمه ، وفعله ،
وحرف قلبه يأتلف ، ومنادى جوده لا يرخم وأحد عيشه لا ينصرف . ولا عديم
مستوصل الرزق من براعته التي لا تقف الوصل^(١) ولا عدت نحة الجود

من نَوَّالِه كَلِّ موزون ومعدود ، ومن فضله وظله كل مقصور وممدود . ولا خاطبت الأيام مُلتَمِسه إلا بلام التوكيد ، ولا عدوه الا بلام الجحد . هذه المفاوضة اليه أعزّه الله ! تفهمه أنا بلغنا أن فلانا أضمر سيدنا له فعلا غدا به متصبا للتكايد ومعتلا وليس موصولا كالذى بصلة وعائد . وما ذلك إلا لأن معرفتها داخلها التنكير ، وقدر لها من الاحتمالات أسوأ التقدير . ونعوت صُحْبته تكررت بخاز قطعها بسبب ذلك التكرير . وسيدنا يعلم بالعلمية المدكُون من الإنافة ، وما لإضافته إلى جلالته من الأتماء الذى يجب أن يكون لأجله عيشه به خفضا على الإضافة . وكان الظن أن الأشغال التى جُمعت له لا تكون جمع تكسير بل جمع سلامة ، وآية لا تكلف تعليما على وصول لأنه في الديوان كالحرف لا يخبر به ولا عنه والحرف ليست له علامة . وحاش لله ! أن يُصبح معرب إحصانه مبنيا ، وأن نزيل كرمه يكون للنكرات أبى محكيكا أو أن يأتى سيدنا بالماضى من الأفعال فى معنى الأستقبال ، أو أن يجعل بدل غلظه الإبدال للأشتمال . أو يدغم من مودته مظهرًا ، أو أنه لا يجعل لمبتدا محبته مُحْبَرًا ، أو أن لا يكون له من أبنية تدير سيدنا مصدرا . ولا يرح سيدنا نسيج وحده فى أموره ! ولا زال حالمه يتناسى الهفوات لا يشتغل مفعوله عن فعله بضميره .

النوع الرابع

(المعرفة بالتصريف)

ويجب على الكاتب المعرفة به ليعرف أصل الكلمة ، وزيادتها ، وحذفها ، وإبدالها فيتصرف فيها بالجمع والتصغير والنسبة إليها وغير ذلك : لأنه إذا أراد جمع الكلمة أو تصغيرها أو النسبة إليها ولم يعرف الأصل فى حروف الكلمة وزيادتها وحذفها وإبدالها ، ضلَّ حينئذ عن السبيل ، ونشأ من ذلك مجال للعائب والطاعن .

(١) كذا فى الاصل بالبدال المهملة . ودُكِّن المتاع تضديد بعضه على بعض وهو غير مناسب لفعله مصحف عن المزكون بالزاي بمعنى المعلوم فتأمل .

قال ضياء الدين بن الأثير في "المثل السائر": وتظهر لك فائدة ذلك ظهورا واضحا فيما إذا قيل للنحوى الجاهل بعلم التصريف كيف تصغر لفظة اضطراب فإنه يقول ضطرب^(١)، ولا يلام في ذلك لأنه الذى تقتضيه صناعة النحو . لأن النحاة يقولون إذا كانت الكلمة على خمسة أحرف وفيها حرف زائد أو لم يكن حذفه منها، نحو قولهم في منطلق مطبق وفي جحمرش جحمرش^(٢) . ولفظة منطلق على خمسة أحرف وفيها حرفان زائدان هما الميم والنون ، إلا أن الميم زيدت فيها المعنى فلذلك لم تُحذف وحُذفت النون . وأما لفظة جحمرش فخاسية لا زيادة فيها وحذف منها حرف أيضا . فإذا بنى النحوى على هذا الأصل ، فإما أن يحذف من لفظة اضطراب الألف أو الضاد أو الطاء أو الراء أو الباء ، وهذه الحروف غير الألف ليست من حروف الزيادة فلا تحذف بل الأولى أن يحذف الحرف الزائد ويترك الحرف الأصلي فيصغر لفظة اضطراب حينئذ على ضطرب ، ولم يعلم النحوى أن الطاء فى اضطراب مبدلة من تاء وأنه إذا أريد تصغيرها تعاد إلى الأصل الذى كانت عليه . فيقال ضطرب فإن هذا مما لا يعلمه إلا التصريف والنحاة أطلقوا ما أطلقوه من ذلك أتكالا منهم على تحقيقه من علم التصريف ، إذ كل من النحو والتصريف علم منفرد برأسه ، فتكليف النحوى الجاهل بعلم التصريف إلى معرفة ذلك كتكليفه ما ليس من علمه .

قال : فثبت بما ذكر أن علم التصريف مما يحتاج إليه لئلا يغلط في مثل ذلك . قال : ومن العجب أن يقال إنه لا يحتاج إلى معرفة التصريف وهذا نافع بن أبى نعيم وهو من أكبر القراء السبعة قدرا وأخفهم شأنًا قد قال فى معائش معائش بالهمز ، وهذه اللفظة مما لا يجوز همزه بإجماع من علماء العربية : لأن الياء فيها ليست

(١) أى باثبات الباء بعد الراء وهى ياء التصغير وليست منقلبة عن ألف الأفعال كما قد يتوهم بل ألف الأفعال محذوفة .

(٢) كذا فى الأصل وصوابه جحمرش كما تقتضيه القواعد الصرفية . أنظر باب التصغير من الكتاب .

مبدلة من همزة وإنما الياء التي تبدل من الهمزة في هذا الموضع تكون بعد ألف الجمع المانع من الصرف ويكون بعدها حرف واحد ولا يكون عينا نحو سَفَانٌ ، ولم يعلم نافع الأصل في ذلك فأخذ عليه وعيب عليه من أجله وذلك أنه اعتقد أن مَعِيْشَةً عَلَى وزن فَعِيْلَةٍ تجمع على فَعَائِلٍ ولم ينظر إلى أن الأصل في مَعِيْشَةٍ مَعِيْشَةٌ عَلَى وزن مَفْعِلَةٍ لأن أصل هذه الكلمة من عاش لكن أصلها عيش على وزن فَعَلَ ، ويلزم مضارع فَعَلَ المعتل العين يفعل لتصح الياء نحو يَعِيشُ ثم تنتقل حركة العين إلى الفاء فتصير يَعِيشُ ثم يبنى من يَعِيشُ مفعول فيقال مَعْيُوشٌ به كما يقال مَسِيرٌ به ثم يخفف ذلك بحذف الواو فيقال مَعِيشٌ به كما يقال مَسِيرٌ به ثم تؤنث هذه اللفظة فتصير مَعِيشَةٌ . ومن جملة من عابه أبو عثمان المازني فقال في كتابه في التصريف : إن نافعاً لم يدر ما العريئة .

وحكى أبو جعفر النحاس أن عبيد الله بن سليمان نظر في بعض كُتُبِ الكُتَّابِ فإذا فيه حرف مُصْلَحٌ هو : وقد هَوَّتْ عن جباية الخراج ، فاغتاط وقال لا يحكه غيرى فخَّكُه فأصلحه وقد هَمَيْتْ بالياء بدل الواو . قال وحكى عن أحمد بن إسرائيل مع تقدّمه في الكتابة أنه قال : وكانت رسومهم مُسَانَاةً ثم صارت مشاهرة ثم صارت مُيَاوِمَةً ثم صارت مُسَاعَاةً ، فأخطأ ، وكان يجب أن يقول مُسَاوَعَةٌ . قال في "المثل السائر" : وكثيراً ما يقع أهل العلم في مثل هذه المواضع فكيف الجهال الذين لا معرفة لهم بها ولا أطلاع لهم عليها ، وإذا علم حقيقة الأمر في ذلك لم يقع الغلط فيما يُوجِبُ قَدْحًا ولا طَعْنًا . قال : وقد وقع الغلط لأبي نُوَاسٍ فيما هو أظهر من ذلك ، وهو قوله في صفة الخمر :

كَأَنَّ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا * حَصْبَاءُ دَرَّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

- (١) أى التي تكون الهمزة بدلا منها .
 (٢) لعله التي كما يقتضيه السياق .
 (٣) المشهور فقاقتها . انظر شرح الأشموني في باب أفعل التفضيل .

فإن فُعِلَ لا يجوز حذف الألف واللام منها وإنما يجوز حذفهما من فُعِلْ
التي لا أفعَلَ لها نحو حُبِلْ إلا أن تكون فُعِلْ أفعَلَ مضافةً، وها هنا قد عرّيت عن
الإضافة وعن الألف واللام وكان الصواب أن يقال كأن الصغرى والكبرى أو كأن
صغرها وكبرها . فانظر كيف وقع أبو نؤاس في مثل هذا الموضع مع قُربه
وسهولته . وغلط أبو تمام أيضا في قوله :

بِالْقَائِمِ الثَّامِنِ الْمُسْتَخْلَفِ أَطَّادَتْ * قَوَاعِدُ الْمُلْكِ مُتَمَدًّا هَا الطُّولُ

فقال أَطَّادَتْ والصواب أَتَطَّدَتْ لأن التاء تُبدل من الواو في موضعين أحدهما
مقيس عليه كهذا الموضع : لأنك إذا بنيت أفعَلَ من الوعد قلت أتعَدَ وكذلك
أَتَطَّدَتْ في البيت فإنه من وَطَدَ يَطْدُ كما يقال وَعَدَ يَعِدُ، فإذا بُني منه أفعَلَ قيل
أَتَطَّدَتْ ولا يقال أَطَّادَ . وأما غير المقيس فقولهم في وَجَاهِ نُجَاهٍ وَقَالُوا تُكَلَّانِ وَأَصْلُهُ
الواو لأنه من وَكَلَّ فأبدلت الواو تاء للاستحسان . ثم قال : إن المخطئ في التصريف
أندر وقوعا من المخطئ في النحو لأنه قلما تقع له كلمة يحتاج في استعمالها إلى الإبدال
والنقل في حروفها . والمعصوم من عصمه الله، والكلام في تصرف الكاتب
في التصريف على ما تقدم في النحو .

النوع الخامس

(المعرفة بعلوم المعاني ، والبيان، والبدیع؛ وفيه مقصدان)

المَقْصِدُ الْأَوَّلُ

(في وجه احتياج الكاتب إلى ذلك)

اعلم أنه لما كانت صناعة الكتابة مبنية على سلوك سُبُل الفصاحة وأقتفاء سَبَن

البلاغة، وكانت هذه العلوم هي قاعدة عمود الفصاحة ومسقط حجر البلاغة، اضطرب الكاتب إلى معرفتها، والإحاطة بمقاصدها: ليتوصل بذلك إلى فهم الخطاب، وإنشاء الجواب، جاريا في ذلك على قوانين اللغة في التركيب، مع قوة الملكة على إنشاء الأقوال المركبة المأخوذة عن الفصحاء والبلغاء: من الخطب والرسائل والأشعار من جهة بلاغتها وخلوها عن اللكن، وتأدية المطلوب بها، وتكامل الأقاويل الشعرية ثرا كانت أو نظما، في بلوغها غايتها وتأدية ما هو مطلوب بها، وأنها كيف نعتين بحسب الأغراض لتفيد ما يحصل بها من التخييل الموجب لانتقال النفس من بسط وقبض، والشئ يذكّر بضده، فيذكر المحاسن بالذات والعيوب بالعرض.

قال أبو هلال العسكري: "فإن صاحب العربية إذا أخلّ بطلب هذه العلوم، وقرط في التماسها، فأنته فضيلتها، وعالقت به رذيلة فوثها، وعفى على جميع محاسنه، وعمى سائر فضائله، لأنه إذا لم يفرق بين كلام جيد، وآخر رديء؛ ولفظ حسن، وآخر قبيح؛ وشعر نادر، وآخر بارد، بأن جهله، وظهر نقصه؛ وإذا أراد أن ينشئ رسالة أو يضع قصيدة وقد فانتته هذه العلوم، مزج الصفو بالكدر، وخلط الغرر بالغرر؛ فجعل نفسه مهزأة للجاهل، وعبرة للعاقل. وكذلك إذا أراد تصنيف كلام منثور أو تأليف شعر منظوم وتخطى هذه، ساء اختياره، وقبح آثاره؛ فأخذ الرديء المردود، وترك الجيد المقبول؛ فدل على قصور فهمه، وتأخر معرفته؛ مع ما في هذه العلوم الثلاثة من الوسيلة إلى فهم كتاب الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم اللذين منهما يستمد الكاتب شريف المعاني، ويستعير فصيح الألفاظ؛ بل منهما تُستفاد سائر العلوم، وتقتبس نفائس الفضائل". قال: "وقبيح لعمرى بالفقيه المؤتم به، والقارئ المقتدى بهديه، والمتكلم المشار إليه في حسن

مناظرته ، وتمام الله في مجادلته ، وشدة شكيمة في حجاجه ، وبالعربيّ الصليب ،
والقُرشيّ الصريح ، أن لا يعرف فهمَ إجماز كتاب الله إلا من الجهة التي يعرفها منها
الزنجيّ والنبطيّ ، وأن يستدلّ عليه بما يستدلّ به الجاهل الغيّ ” .

على أن الشيخ بهاء الدين السبكي رحمه الله قد ذكر في شرح تلخيص المفتاح أن
أهل مصر لا يحتاجون إلى هذه العلوم وأنهم يدرّونها بالطبع ، فقال في أثناء خطبته :
”أما أهل بلادنا فهم مستغنون عن ذلك بما طبعهم الله تعالى عليه من الذوق السليم ،
والفهم المستقيم ، والأذهان التي هي أرقّ من النسيم ، وألطف من ماء الحياة في الحيا
الوسيم ، أكسبهم النيل تلك الحلاوة ، وأشار إليهم بأصابعه فظهرت عليهم هذه
الطلاوة ؛ فهم يدركون بطباعهم ما أفنت فيه العلماء فضلا عن الأعمار ، الأعمار ،
ويرون في مرآة قلوبهم الصقيلة ما أحتجب من الأسرار ، خلف الأستار .

والسيف لم يلف فيه صيقل * من طبعه لم يتففع بصقال

فيا لها غنيمَةٌ لم يُوجف عليها من خيل ولا ركاب ، ولم يُزحف إليها بعد وعيديّة^(١)
ولا بلحاق لاحق وأنسكاب سكاب ؛ فلذلك صرفوا همهم إلى العلوم التي هي
نتيجة أو مادة لعلم البيان ، كاللغة والنحو والفقه والحديث وتفسير القرآن ” . ثم قال :
”وأما أهل بلاد الشرق الذين لهم اليد الطولى في العلوم ، ولا سيم العلوم العقلية
والمُنطق ، فاستوفوا همهم الشاخحة في تحصيله ، وآستولوا بجدهم على جملته وتفصيله .
ووردوا مناهل هذا العلم فصَدروا عنها بملء سَجَلهم ، وكيف لا وقد أجلبوا عليه
بجيلهم ورجلهم . فلذلك عمروا منه كل دارس ، وعبروا من حصونه المشيدة ما رقد
عنه الحارس . وبلغوا عنان السماء في طلبه ، ولو كان الدين في الثريا لناله رجال من

(١) أي نوق نجائب منسوبة إلى بني العبد حتى من العرب . ولاحق وسكاب فرسان للعرب مشهوران .
انظر اللسان .

فارس“ . إلى أن خرج عنهم المفتاح ، فكأن الباب أُغلق دُونهم ، وظهر من مشكاة بلاد الغرب المصباح ، فكأنا حيل بينه وبينهم . وأدارت المنون على قُطبهم الدوائر ، فعمَّطت بوفاته من علومه أفواهَ المخابر وِبُطون الدفاتر . وأنقطعت زهراهم الطيبة عن المقتطف ، وتسَلَّط على العُضد لسانٌ من يعرف ”كَيْفَ تُؤَكَّلُ الكَتِيفُ“ . فلم نظفر بعد هؤلاء الأئمة رحيمهم الله من أهل تلك البلاد بمن مَحَضَ هذا العلم فآلِقُ للطالب زُبْدته ، ومَحَضَ النُّصح فنشر على أعطاف العارى بُردته ، ولا حملت قبول القبول إلينا عنهم بِطاقه ، ولا حصلت للتطلعين لهذا العلم على تلك الأبواب طاقه ، ولا رأينا بعد أن أنطمست تلك الشموُسُ المشرقة ، وأندرست طبقةُ تحترى الفرقه ، ولم يبق إلا رسوم هي من فضائلهم مسترقه . مَنْ أطلع عُصنُ قلمه من روض الأذهان زهرةً على ورقه ، ولا من علق شنه بطبقتهم فيقال وافق شُنْ طبَّقه ، بل ركَّدت بينهم في هذا الزمان رِيحه ، وخبَّت مصابحه ، وناداهم الأدب سِوَاكم أعني : و”رُبَّ كَلِمَةٍ تَقُولُ دَعْنِي“ .

وما بَعْضُ الإقامة في دِيَارٍ * يَهَانُ بها الفتي إلا بلاء

فعند ذلك أزمع هذا العلم الترحل ، وأذن بالتحول .

وإذا الكَرِيمُ رأى الخُمُولَ نَزِيلَهُ * في مَنزِلٍ فالرأى أن يتحوَّلَا

وفَرَغَ إلى مصر فآلِقُ بها عصا التَّسيار ، وأنشد من نادى من تلك الديار .

أقمتُ بأرضِ مِصرَ فلا ورأى * تُحِبُّ بي الرِّكَّابُ ولا آمأمي“

ولقد أحسن رحمه الله في بيانِ السبب ، والتعويل في أنجبال أهل مصر على هذا العلم على علاقة الصَّهر والنسب . حيث قال في أوائل خطبته في أثناء الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم : صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ما خَفَقَتِ للبلاغة راية

عجدي في بنى غالب بنِ فِهْرٍ ، وتعلقت بأزمة الفصاحة أهل مصر : لما لهم من نسب وصهر” .

قال الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله في كتابه ” حسن التوسل إلى صناعة الترسل“ : وهذه العلوم وإن لم يُضطرَّ إليها ذو الذهن الناقب ، والطبع السليم ، والقرينة المطاوعة والفكرة المنقحة ، والبديهة المحيية ، والروية المتصرفة ، لكن العالم بها متمكن من أزمة المعاني ، وصناعة الكلام ؛ يقول عن علم ، ويتصرف عن معرفة ، وينتقد بحجة ، ويختير بدليل ، ويستحسن ببرهان ، ويصوغ الكلام بترتيب” .

وحقيق ما قاله . فإن الأديب والكاظم العارفين عن هذه العلوم قاصران عن أدنى رتب الكمال يجيدان ، ولا يدريان كيف يُجيبان . فلو سئل كل منهما عن علة معنى استحسنه أو لفظ استحلاه أو تركيب استجاده ، لم يقدر على الإتيان بدليل على ذلك .

وقد حكى الإمام عبد القادر الجُرْجاني قال : ” ركب الكندي المتفلسف إلى أبي العباس وقال له : إني أجد في كلام العرب حشواً — فقال له أبو العباس في أي موضع — قال : وجدت العرب تقول عبد الله قائم ثم يقولون إن عبد الله قائم ثم يقولون إن عبد الله لقائم فالألفاظ متكررة والمعنى واحد — فقال له أبو العباس : لا ، بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ ، فقولهم عبد الله قائم إخبار عن قيامه ، وقولهم إن عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل ، وقولهم إن عبد الله قائم جواب على إنكار منكر قيامه ، فما أحرار المتفلسف جواباً . فإذا ذهب مثل هذا على الكندي فما الظن بغيره ؟ وإن كان من محاسن الكلام ما لا يحكم في أمتراجه بالقلوب غير الذوق الصحيح كما قال الشاعر :

شَيْءٌ بِهِ قُتِنَ الْوَرَى غَيْرُ الَّذِي * يُدْعَى الْجَمَالَ وَلَسْتُ أُدْرِى مَا هُوَ
 لكن الغالب في الكلام أن يعلم سبب تحسينه ، وتعليل مواد تمكينه . ويُجَاب
 عن العلة في انحطاطه وارتفاعه ، ويذكر المعنى في ارتفاعه من حضيض القول
 إلى يَفَاعِهِ .

قلت : وهذا العلم وإن شخّن أئمة الكُتَّاب ^(١) — كما قال أبو هلال العسكري في كتابه
 ”الصناعتين“ والوزير ضياء الدين بن الأثير في ”المثل السائر“ والشيخ شهاب الدين
 محمود الحلبي في ”حسن التوسل“ فإنه ليس مختصا بفن الكتابة بل هو آلة لكل
 كلامٍ أقتضى البلاغة ، كما أن المنطق آلة لكل العلوم العقلية ، التي يُحتاج منها إلى
 تصحيح الفكر .

وقد أكثر الناس من المصنّفات فيه كالرّمّاني والجرجاني وغيرهما ؛ وأكثر اعتماد
 أهل الزمان فيه على تلخيص المفتاح للقاضي جلال الدين القزويني فأغنى ما وضع
 فيه عن إيرادِه هنا .

المقصد الثاني

(في كيفية أنتفاع الكاتب بهذه العلوم)

غير خاف أنه إذا مهر فيها وعرف طرقها ، أتى في كلامه بالسحر الحلال ؛ وصاغ
 من ألفاظه ومعانيه ما يقضى له بالفصاحة التامة ، والبلاغة الكاملة ، من وجوه تحقيق
 الكلام ، وتحسينه وتديبجه وتنميته . وإذا فانتت هذه العلوم ، أو كان ناقصا فيها ،
 نقصت صناعته بقدر ما ينقص من ذلك . ثم كما يحتاج إلى هذه العلوم بطريق
 الذات ، كذلك يحتاج إليها بطريق العَرَض من جهة المعرفة بالبلغاء الذين يُضربُ

(١) لعله وإن شخّن به أئمة الكُتَّاب كتبهم وحرر .

بهم المثل في البلاغة كقُتس بن ساعدة ، وسخبان وائل ، وعمرو بن الأَهم ، ونحوهم من بلغاء العرب ؛ وآبن المقفّع ونحوه من المُحدّثين . وكما قيل في عيِّ باقيل - وهو رجل آتتهى به العيُّ إلى أنه آشتريَ ظيبا بأحد عشر درهما ، فسأله سائل في الطريق ، وهو ممسك الظبي : بكم آشتريةُ ؟ فلم يُحسن التعبير عن أحد عشر ، ففرق أصابعه العشرة وأخرج لسانه مشيرا إلى أحد عشر فتلفت الظبيُ وفرهاربا - . وكعِرفة أئمة الصنّاعة : كالجرجاني والرّماني . وكذلك المعرفة بالأسماء التي أصطلح عليها أهلها : من الفصل ، والوصل ، والتشبيه كما تقدّم ، والمقابلة ، والمطابقة ، وغير ذلك من أنواعها .

أما احتياجه إلى المعرفة بأسماء البلغاء ولغة أهل الصنّاعة ، فلأنه ربما احتاج إلى تفضيل بعض من يكتب له ممن يُنسب مثله إلى البلاغة فيفضله بمساواته لبلغ من البلغاء ، أو إمام من أئمة الصنّعة : كما كتب الوزير ضياء الدين بن الأثير في ذم كاتب : هَذَا وهو يدعى أنه في الفصاحة أئمة وحده ، ومن قُس إياب وسخبان وائل عنده ؛ وكما قال بعضهم يهجو ضيفا له :

أنا وما دانا وسخبان وائل * بيانا وعالما بالذي هو قائل
فما زال عند اللقم حتى كأنه * من العيِّ لما أن تكلم باقيل

ومما أتى على ذكر جماعة من أهل هذا الشأن قولِي في كلام قليل جاء ذكره في آخر رسالة كتبتُ بها في تقرّيط المقرّ الفتحي ، صاحب دواوين الإنشاء الشريف ، بالأبواب السلطانية بالديار المصرية - وهو : "على أني أستقبل من التقصير في إطرائه ، والتعريض في مدحه لما لا أنهض بأعبائه . فلو أن الحافظ نصيري ، وآبن المقفّع ظهيري ، وقُتس بن ساعدة يُسعدني ، وسخبان وائل يُخجدي ، وعمرو

أبن الأهم يُرشدني ؛ لكان أعترافي بالتقصير أبلغ مما آتبه ، وإقرارى بالقصور أولى مما أخفيه ، من توالى طوله وأياديه .

وأما احتياجه إلى معرفة ألفاظ أهل الصناعة ، فلا أنه ربما ورى بها في تفاصيل كلامه ونحو ذلك — كما كتب الشيخ زين الدين أبو بكر بن العجمي على البديعية التي نظمها عيسى العالية الشاعر ، مضاهيا بها بديعية الصفي الحلي فقال :

”وبعد فقد وقفتُ على هذه المعجزة التي أحيا بها عيسى ميتَ البديع ، وجود ماشاء فيها من التصريح والترصيع ، ورقم لأعطافها حلل التوشيح والتوشيع ، ونظم لأجساد أبياتها فرائد المعاني المستخرجة من بحر فكره على يد يراع المريع ، وقلدها من درر لفظه بما هو أزهى من زهر الزهر على نهر الحجرة وهالات البذور ، وشفت المسامع منها بما هو أبهى من النور في العيون وأوقع من الشفاء في الصدور ؛ وأولج الليل في النهار بما طرس به الطروس ، وأطلع في ذلك الليل من ناصع معانيه نجومًا تزهى على الشمس ، وأودع المهارق شُدورا تُزيّف ذهب الأصائل ؛ وسُفِر عن وجوه حسان تفوق أبنتسام تُغور الأزاهر بين الخمائل ؛ وسلك في البديع طريقة مثلى ، أظهر فيها من شهد ألفاظه وجواهر معانيه ما حلا وحل ؛ ولم يدع للحلي في بهجتها محلا ؛ وأحسن التذييل والترشيع والتهكم عليه ، من غير التفات لما أهمله ولم يتعرض إليه ؛ وعادت المعاني تأوى من حُسن تصرفه إلى ركنٍ شديد ، وتحوى بسبأ أقلامه كل مارامه من تأييد التأييد ؛ وتلقى مقاليدها منه إلى ملي بحسن التحليل والتحول في نظمه ونثره ، وتحكم لمن حكم له بكمال وصفه ووصف كماله بأنه نسيحٌ وحده وفريد عصره ؛ وأجرى في حلبة البديع جياد أقلامه مخازن قصب الرهان ، وأصفي لها موارد النفس فارتوت وأستخرجت من ظلماته جواهر البيان ؛ ونظقت بما هو

المالوف من غرائب حِكْمِهِ الحسان؛ وتأملتها فوجدتها قد أجاد فيها براعة المَطَّلَع، وبالغ في تحسين المَتَرَعِ والمَقْطَعِ؛ ودخل جنان الجناس فاجتنى من قُطوفها الدانية مَراق، وأطردت له أنهارها فاستطرد منها في أعلى الطَّبَاق؛ وقابل وجوه حُورها أحسن المقابلة، آمنًا فيها من الأشتراك والممانلة؛ وأوضح الفروق بين التَّوْرِيَةِ والإِبْهَامِ، والتوجيه والاستخدام؛ وأبان في التتميم نقصَ أبي تَمَّام، وأوجب في إبهامه عقدَ الخناصر على نظمه، وفوض بزاهته التسليمَ له وطلبَ سَائِمِهِ؛ ولم يقع بما فيه الأكتفاء من التذليل والتذنيب، بل أتى في الاستدراك على من تقدمه بالعجب العجيب؛ معتمدًا في تكميل مقاصده الأقتصار والإيجاز، ولو ادعى الإعجاز على الحقيقة لا المجاز لجاز؛ وتحققت أن ليس له في هذا الفن مُقاوٍ ولا مقاوم، ولا مساوٍ ولا مساوم؛ فكم جلب من بحر براعته دُرَّةٌ أشرقت في ليالي الفترة المسوِّدة، وكم حلب من ثدى يراعته دِرَّةٌ لها ألف زُبْدَةٍ؛ وكم بلغ الناظر من وصف بيانه مجمع البحرين، وسمع ورأى من فصله الجزل وفضله الجزيل ما هو عين المراد ومراد العين؛ وكم جلا من عرائس أفكاره وأبتكاره صَبَاحَ الوجوه الصُّباح، وخَفَّقَ في الخافقين لمقاصده وبصائرهِ جَنَاحَ النجاح. قد أصبحت كلماته نُحُصُورَ الفرائد مناطق، ولبُدُورِ الفوائد مَشَارِقَ؛ واطلائع أسرار المَبَانِي، آلات، ولمَطَالع أقمار المعاني، حالات؛ وقد وقفت حين وقفت على بديعته هذه بين دأين كل منهما الأخطر، وبين أمرين أمرين كل منهما الأعسر؛ إن لم أكتب عليها شيئًا فقد أخللت بالفرض الواجب، وإن كتبت فقد فضحت نفسي وعرضتها للعائب؛ ولكنني رُحْتُ على ظُلعي متعاملاً، وغدوتُ على حسب طاقتي في هذا الباب قائلاً:

(١) الدرّة بالفتح المرة وبالكسرة هيئة الدر وكثرة. مصباح [وقد أعجم الدال في الأصل وهو من إهمال

عَاشَ الْبَدِيعُ وَكَانَ مَيِّتًا وَأَنْتَى * بَادَى الْحَاسِنِ زَاهِيًا مَحْرُوسًا
أَحْيَاهُ عَيْسَى نَجْلُ حَجَّاجٍ وَكَمْ * مِنْ مَيِّتٍ أَحْيَاهُ قَدَمَا عَيْسَى

النوع السادس

(حفظ كتاب الله العزيز؛ وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في بيان أحتياج الكاتب إلى ذلك في كتابته)

قال في "حسن التوسل" ولا بد للكاتب من حفظ كتاب الله تعالى، وإدامة قراءته، وملازمة درسه، وتدبر معانيه، حتى لا يزال مصورًا في فكره، دائرًا على لسانه، ممثلًا في قلبه ليكون ذا كراه في كلامه وكل ما يرد عليه من الوقائع التي يحتاج إلى الاستشهاد به فيها، ويفتقر إلى قيام قواطع الأدلة عليها ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ وكفى بذلك معينًا له على قصده، ومُغْنِيًا له عن غيره. قال تعالى ﴿مَا فَرَّقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقال جل وعز ﴿تَبَيَّنًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ . قال في "المثل السائر" كان بعضهم يقول: لو ضاع لي عقال لوجدته في القرآن الكريم. قال في "حسن التوسل" وقد أخرج من الكتاب العزيز شواهد لكل ما يدور بين الناس في محاوراتهم، ومخاطباتهم، مع قصور كل لفظ ومعنى عنه، وعجز الإنس والجن عن الإتيان بسورة من مثله — كما حكى أن سائلًا سأل بعض العلماء أين تجد في كتاب الله معنى قولهم "الجار قبل الدار"؟ قال في قوله تعالى ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَاتٍ فَرِعُونَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ أَبْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ فطلبت الجار قبل الدار، ونظائر ذلك كثيرة.

وقد اختلف في جواز الاستشهاد بالقرءان الكريم في المكاتبات ونحوها: فذهب أكثر العلماء إلى جواز ذلك ما لم يُحَلَّ عن لفظه ولم يتغير معناه. فقد ثبت في الصحيح: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كتب في كتابه إلى هرقل (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ) إلى قوله مسلمون؛ وروى ذلك عن غير واحد من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، فكتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه في عهده لعمر بن الخطاب (وَلِكُلِّ أَمْرِي مَا آكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ . وَسِعِلْمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) على ما سيأتي في ذكر عهود الخلفاء عن الخلفاء إن شاء الله تعالى .

وكتب علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في آخر كتاب إلى معاوية "وقد علمت مواقع سيوفنا في جدك وخالك وأخيك (وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ) . وقال للغيرة ابن شعبة لما أشار عليه بتولية معاوية (وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا) .

وكتب إلى عامل من عماله بعد البسمة (قَدْ جَاءَتْكُمْ بِنْتَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّةَ اللَّهِ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ) . وقال الحسن بن علي لمعاوية حين نازعه في الخلافة (وَأِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) . ويروى عن ابن عباس مثله . وكتب الحسن إلى معاوية : أما بعد فإن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين وكافة للناس أجمعين (لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقِّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ) .

وكتب محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي إلى المنصور في صدر كتاب (طَسَمَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ؛ تَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبِيِّ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) إلى قوله (وَأُزْرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْتَدِرُونَ) . ولم يزل العلماء وفضلاء الكُتَّاب يستشهدون بالقرءان الكريم في مكاتباتهم في القديم والحديث، من غير تكبر؛ وذلك كله دليل الجواز . ونقل عن الحسن البصري ما يدل على كراهة ذلك

حيث بلغه أن الحجاج أنكر على رجل آستشهد بآية فقال : أنسى نفسه حين كتب إلى عبد الملك بن مروان : بلغنى أن أمير المؤمنين عَطَسَ فشمته مَنْ حضر فردّ عليهم **(يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزُ فَوْزًا عَظِيمًا)** . قال في "حسن التوسل" : وإذا صححت هذه الرواية عن الحسن فيمكن أن يكون إنكاره على الحجاج لكونه أنكر على غيره ما فعله هو . وذهب بعضهم إلى أن كل ما أراد الله به نفسه لا يجوز الاستشهاد به إلا فيما يضاف إلى الله سبحانه مثل قوله **(وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)** وقوله **(بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ)** ونحو ذلك مما يقتضيه الأدب مع الله تعالى .

فأما تغيير شيء من اللفظ أو إحالة معنى عما أريد به فلا يجوز بحال .

قال في "المثل السائر" وإذا ضُمَّت الآيات في أماكنها اللاتفة بها ، وموضعها المناسبة لها ، فلا شبهة فيما يصير للكلام من الفخامة والجزالة والرونق . قال في "حسن التوسل" : ومن شرف الاستشهاد بالقرآن الكريم إقامة الحجّة ، وقطعُ النزاع ، وإذعانُ الخصم . قال في "حسن التوسل" : وأين قول العرب - القتلُ أنفى للقتل - لمن أراد الاستشهاد في هذا المعنى من قوله تعالى **(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ)** . وقد روى أن الحجاج قال لبعض العلماء : أنت تزعم أن الحسين من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتني على ذلك بشاهد من كتاب الله تعالى وإلا قتلتك فقرأ عليه **(وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ)** فعيسى ابن بنته فأسكت الحجاج . وأيضا فإن الآية الواحدة تقوم في بلوغ الغرض ، وتوفية المقاصد ما لا تقوم به الكتب المطولة والأدلة القاطعة .

فمن أخصر ما وقع في ذلك وأبلغ أنه كان على الروم بهرقلة في أيام الرشيد امرأة منهم ، وكانت تُلطف الرشيد ولها ابن صغير ، فلما نشأ فوضت الأمر إليه فعاش

وأفسد وخاشن الرشيد؛ فخافت على ملك الروم فقتلت ولدها، فغضب الروم لذلك، فخرج عليها رجل منهم يقال له يقفور فقتلها وأستولى على الملك وكتب إلى الرشيد: أما بعد، فإن هذه المرأة وضعتك موضع الشاه، ووضعت نفسها موضع الرخ، وينبغي أن تعلم أني أنا الشاه وأنت الرخ فإد إلى ما كانت المرأة تؤدي إليك! فلما قرأ الكتاب. قال للكاتب: أجيئوا عنه فأتوا بما لم يرتضه، وكان الرشيد خطيبا شاعرا. فكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله هارون أمير المؤمنين إلى يقفور كلب الروم .
أما بعد، فقد فهمت كتابك، والجواب ما تراه لا ماتسمعه، والسلام على من أتبع الهدى .

ثم خرج في جمع له لم يسمع بمثله فتوغل في بلاده وفك وسي . فأوقد يقفور في طريقة نارا شديدة فخاضها محمد بن يزيد الشيباني، وتبعه الناس حتى صاروا من ورائها؛ فلما رأى يقفور أنه لا قبيل له به، صالحه على الجزية يؤديها عن رأسه وعن سائر أهل مملكته .

وكتب ملك الروم إلى المعتصم يتوعده ويتهده فأمر الكتاب أن يكتبوا جوابه فلم يعجبه مما كتبوا شيء فقال لبعضهم اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت خطابك، والجواب ما ترى لا ماتسمع (وسيعلم الكافر لمن عقي الدار). هذا مع ما ينسب إليه المعتصم من ضعف البصر بالعربية كما تقدم في الكلام على اللغة . ولا يستكثر مثل ذلك على الطبع السليم، والرجوع إلى سلامة العنصر وطيب المختد .

ومثل ذلك في الجواب وأخصر منه أن الأدفونش ملك الفرنج بالأندلس .
كتب إلى يعقوب بن عبد المؤمن أمير المسلمين بالأندلس، بخط وزيره يقال له

أَبْنُ الْفَخَّارِ : بِأَسْمِكَ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالصَّلَاةِ عَلَى السَّيِّدِ الْمَسِيحِ
 أَبْنِ مَرْيَمَ الْفَصِيحِ ، أَمَا بَعْدُ : فَلَا يَخْفَى عَلَى ذِي ذَهْنٍ ثَابِتٍ ، وَعَقْلٍ لَازِبٍ ، أُنَى أَمِيرِ
 الْمَلَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ ، كَمَا أَنَّكَ أَمِيرُ الْمَلَّةِ الْحَنِيفِيَّةِ ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هُمْ عَلَيْهِ رُؤَسَاءُ جُزَيْرَةِ
 الْأَنْدَلُسِ مِنَ التَّخَاذُلِ وَالتَّوَاكُلِ وَالْإِخْلَادِ إِلَى الرَّاحَةِ وَأَنَا أَسُوْمُهُمُ الْخَسْفُ وَأُخْلِي
 مِنْهُمْ الدِّيَارَ ، وَأَجُوسُ الْبِلَادِ ، وَأَسْبَى الذَّرَارِيَّ ، وَأَقْتُلُ الْكُهُولَ وَالشُّبَّانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ
 دِفَاعًا ، وَلَا يُطِيقُونَ آمْتِنَاعًا ، فَلَا عِذْرَ لَكَ فِي التَّخَلُّفِ عَنِ نَصْرِهِمْ ، وَقَدْ أَمَكَّتَكَ يَدُ
 الْقُدْرَةِ ، وَأَنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَرَضَ عَلَيْكُمْ قِتَالَ عَشْرَةِ مَنَا بَوَاحِدٍ مِنْكُمْ ،
 وَالْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ، فَلْتُقَاتِلْ عَشْرَةَ مِنْكُمْ الْوَاحِدَ مَنَا ؛
 ثُمَّ بَلَّغْنِي أَنَّكَ أَخَذْتَ فِي الْأَحْتِفَالِ ، وَأَشْرَفْتَ عَلَى رِبْوَةِ الْإِقْبَالِ ، وَتَمَاطَلْ نَفْسَكَ عَامًا
 بَعْدَ عَامٍ : وَأَرَاكَ تَقَدَّمَ رَجُلًا وَتَوَخَّرَ أُخْرَى ؛ وَلَسْتُ أَدْرِي إِنْ كَانَ الْجُنُبُ أَبْطَاكَ
 أَوِ التَّكْذِيبُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْكَ رَبُّكَ ؛ ثُمَّ حُكِيَ لِي أَنَّكَ لَا تَجِدُ إِلَى الْجَوَازِ سَبِيلًا لَعَلَّ
 لَا يَجُوزُ لَكَ التَّفَخُّمُ بِهِ مَعَهَا ؛ فَأَنَا أَقُولُ مَا فِيهِ الرَّاحَةُ لَكَ ، وَأَعْتَدِرُكَ وَعَنْكَ ، عَلَى
 أَنْ تَقْبَلْ لِي بِالْعُهُودِ وَالْمَوَائِقِ وَالْأَسْتِكْثَارِ مِنَ الرَّهْنِ ، وَتُرْسِلَ لِي بِجَمَلَةٍ مِنْ عَيْدِكَ
 بِالْمَرَآكِبِ وَالشَّوَانِي ، وَأَجُوزَ بَجَلْتِي إِلَيْكَ ، وَأَبَارِزِكَ فِي أَعْرَ الْأَمَاكِنِ عَلَيْكَ ؛ فَإِنْ كَانَتْ
 لَكَ فَغَنِيمَةٌ وَجَّهَتْ إِلَيْكَ ، وَهَدِيَّةٌ عَظِيمَةٌ مَثَلَتْ بَيْنَ يَدَيْكَ . وَإِنْ كَانَتْ لِي كَانَتْ
 يَدِي الْعُلْيَا عَلَيْكَ وَأَسْتَوْجِبُ سِيَادَةَ الْمَلْتِينَ ، وَالْحَكْمَ عَلَى الدِّينَيْنِ ، وَاللَّهَ تَعَالَى يَسَهِّلُ
 مَا فِيهِ الْإِرَادَةَ ، وَيُوفِّقُ لِلسَّعَادَةِ ؛ لِأَرْبِ غَيْرِهِ ، وَلَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُهُ .

فكتب رحمه الله جوابا على أعلى كتابه ﴿ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا
 وَلَنَخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ .

(١) كذا في الأصل بالفاء والحاء المعجمة ويظهر أنه تصحيف عن التضم بالفاء والحاء المهمل
 والتضم في الشيء الاقدام عليه من غير روية ولا تدبر وتأمل .

ونظير ذلك أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب كتب إلى الديوان العزيزبيغداد كتابا يعدد فيه موافقه في إقامة دعوة بنى العباس بمصر . فكتب جوابه من ديوان الخلافة ﴿ يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

المقصد الثاني

(في كيفية استعمال آيات القرآن الكريم)

وأعلم أن تضمين الكلام بعض آى القرآن الكريم ينقسم عند أهل البلاغة إلى قسمين :

أحدهما - الاستشهاد بالقرآن الكريم ، وهو أقلهما وقوعا في الكلام ودوراناً في الاستعمال : وهو أن يضمّن الكلام شيئاً من القرآن الكريم وينبه عليه مثل قول الحريري في مقاماته : فقلت وأنت أصدق القائلين ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ . وقول أبي إسحاق في عهد لملك عن خليفة بعد الأمر بالقوى والحث عليها : فإذا أطلع الله منه على نقاء جيبه ، وطهارة ذيله ، وصحة مرءوته ، وأستقامة سيرته ، أعانه على حفظ ما أستحفظه ، وأنهضه بثقل ما حمله ، وجعل له مخلصاً من الشبهة ، ومخرجاً من الحيرة . فقد قال الله تعالى ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ وقد قال الله تعالى عز وجل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ وقال عز اسمه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ إلى آى كثيرة حُضِنَا بِهَا عَلَى كَرَمِ الْخَلْقِ ، وَأَسْلَمَ الطَّرْقُ ؛ فَالسَّعِيدُ مَنْ نَصَبَهَا رَأَى نَظْرَهُ ، وَالشَّقِيُّ مَنْ نَبَذَهَا وَرَاءَ ظَهْرِهِ ، وَأَشَقُّ مِنْهُ مَنْ يَحُثُّ عَلَيْهَا وَهُوَ صَادِقٌ عَنْهَا ، فَأَجَابَ إِلَيْهَا وَهُوَ بَعِيدٌ مِنْهَا . وله ولأمثاله يقول الله عز وجل ﴿ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ

وَتَسُونَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١﴾ وأكثر مشى الصابى في كتابه على هذا الأسلوب من الاستشهاد، والتنبيه على آى القرآن فى خلال كلامه ، دون الإشارة إليه ؛ والاقْتصار على اقتباس معناه .

ومن ذلك قول علاء الدين بن غانم من خطبة قدمة كتَب بها لمظفر الدين موسى بن أقوش وقد صرَع لغلغة، وأدعى بها للملك المؤيد صاحب حماه : نحمده على توفيقه الذى ساد به من ساد وسمأ، وأصاب بتفويقه بمعونة ربه طير السماء، فحسن أن يتلى ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ .

ومن ذلك قولى فى المقامة التى أنشأتها فى كتابة الإنشاء، فى الكلام على فضل الكتابة : فقد نطق القرآن الكريم بفضلها، وجاءت السنة الغراء بتقديم أهلها، فقال جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه ﴿أَقْرَأُ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فأخبر تعالى أنه علَّم بالقلم، حيث وصف نفسه بالكرم، إشارة إلى أن تعليمها من جزيل نعمه، وإيذاناً بأن منحها من أوفر جوده وفائض ديمه؛ وقال جلَّت قدرته ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ فأقسم بالقلم، وما سطرته الأقلام، وأتى بذلك فى أكد قسم، فكان من أعظم الأقسام . وقال جلَّت عظمته ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كَرَامًا كَاتِبِينَ﴾ . فجعل الكتابة من وصف الكرام، كما قد جاء فعلها عن جماعة الأنبياء عليهم السلام، وإنما منحها النبىُّ صلى الله عليه وسلم معجزةً قد بين الله تعالى سببها، حيث ذكر أخبارهم بقوله ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾ .

وقولى من هذه المقامة فى التعبير عن المقر البدري بن فضل الله :

(١) أى ان الخطبة عملت لتقال تحية لقدم المظفر بعد صرع العدو المسمى لغلغة .

قلت حَسْبُكَ قد دلتني عليه عُرْفُهُ ، وأرشدني إليه وَصْفُهُ ؛ وبان لي مَحْتَدُهُ الفَاخِرُ
وَحَسْبُهُ الصَّمِيمُ ، وعرفت أصله الزَّاكِيَّ وفرعه الكَرِيمُ ﴿ ذَلِكْ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ
يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

وقولي في آخِتامِ هذه المقامة معبراً عن المقرِّ البدرىّ المشار إليه : فلما تحققت
أنى قد أُثْبِتُ في ديوانه ، وكنت من جُملة غلمانِه ، رجعتُ القهقريّ عن طلب
الكسبِ ، وتساوى عندى المحلُّ والحِصْبُ ؛ فأستغنيتُ بنظريّ إليه عن الطعام
والشرابِ ، وتحققتُ أن نظرة منه تُرَقِّبُنِي إلى السحابِ ، وتلوتُ بلسانِ الصّدقِ على
الملاّ وهم يسمعون ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرِحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا
يَجْمَعُونَ ﴾ .

وقولي في بيعة خليفته أنشأتها بعد ذكر تخليف أهل البيعة : وأشهدوا عليهم بذلك
من حضر مجلس العقد من الأئمة الأعلام ، والشهود والحكّام ، وجعلوا الله على
ما يقولون ويكلمون ، فأستحق عليهم الوفاء بقوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْضُوا الْآيْمَانَ بَعْدَ
تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ . وهم يرغبون إلى الله تعالى أن يُضَاعَفَ
لهم بحسن نيتهم الأجور ، ويلجئون إليه أن يجعل أئمتهم ممن أشار تعالى إليه بقوله
﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا
عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ .

وقولي في بيعة أخرى : والله يجعل أنتقالهم من أدنى إلى أعلى ، ومن يسرى إلى
يمنى ، ويحقق لهم بمن أستخلفه عليهم وعده الصادق بقوله تعالى ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ
آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ .

الثانى - الأقباس وهو أن يضمّن الكلام شيئاً من القران، ولا ينبه عليه :
كقوله فى خطبة "التعريف" : نحمده على فواضل زادت محاسن العلوم . وعرفت
تفاوت درجات الأولياء اذ قالوا ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ . وقوله بعد ذلك :
وسماء الشيبية بضحي المشيب قد تجلّت ، والنفس قد ﴿ أَلْقَتْ مَا فِيهَا وَخَلَّتْ ﴾ .

وقول ابن نباتة السعدى فى بعض خطبه : فىأياها الغفلة المطرِقون . أما أتم
بهذا الحديث مُصدِّقون . مالكم لا تسمعون . ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ
مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ . وقوله يوم يبعث الله العالمين خلقاً جديداً ، ويجعل الظالمين
لنار جهنم وقوداً . يوم تكونوا^(١) شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً .
﴿ يَوْمَ يُجَدُّ كُلُّ نَفْسٍ مَّا مَلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا
وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ .

وقول غيره : أنظنون أنكم دون غيركم محلّدون ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ
تَعْلَمُونَ ﴾ .

وقول الحريرى : فلم يكن ﴿ إِلَّا كَمَنْحَ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ . حتى أنشد فأغرب .
وقوله : ﴿ أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ ﴾ . وأميز صحيح القول من عليه .

وقول ضياء الدين بن الأثير فى فصل من كتاب فى مدح الجود وذم البخل :
وقد علم أن المال الذى يُحْتَرَن ، كالماء الذى يُحْتَقَن ، فكما أن هذا يَأْجُنُ بتعطيل
الأيدى عن امتياح مشاربه . فكذلك يَأْجُنُ هذا بتعطيل الأيدى عن امتناع^(٢)
مواهبه . وأى فرق بين وجوده وعدمه لولا أن تُملِكَ به القلوب . وتُفَلِّ به الخطوب .
ويُرْكَبُ به ظهر العزم الذى ليس برُكُوب ؛ ومن بسط يده فيه ثم قبضها مجلّه ، فإنه

(١) فى الضوء . ثم تكونون شهداء الخ .

(٢) لعله امتناع بالخاء المهملة .

يقف دون الرجال مغمورا . ويقعد عن نيل المعالي محسورا . وإذا أدركته منيته مضى وكأنه لم يكن شيئا مذكورا * وقوله في وصف كاتب : له بنت فكري ما تخضت بمعنى إلا أمتجت من غير ما تمهله . و(أتت به قومها تجمله) . ولم تعرض على ملا من البلغاء إلا ألقوا أفلامهم أيهم يستعيره لا أيهم يكفله .

وقول الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي من عهد لسلطان : وجمع بك شمل الأمة بعد أن كاد يزيد قلوب فريق منهم ، وعضدك لإقامة إمامته بأولياء دولتك الذين رضى الله عنهم ، وخصك بأنصار دينه الذين نهضوا بما أمروا به من طاعتك وهم فارهون (وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون) . وقوله من عهد السلطان الملك المنصور لاجين : وجعل عدوه وإن أعرض بجوش الرعب محسورا . وكفاه بالنصر على الأعداء التوغل في سفك الدماء فلم (يسرف في القتل إنه كان منصورا) . وقوله في خطبة صداق في وصف نكاح : وأحيا به الأمم وقد قضى دينهم . وجمع بين متفرقين (لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألقت بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم) . وقوله من توقيع بإمامة صلاة : وليعلم أنه في المحراب مناج لربه . واقف بين يدي من (يحول بين المرء وقلبه) .

وقولى في خطبة هذا الكتاب في الإشارة إلى فتح الديار المصرية : فتوجهت إليها عزائم الصحابة زمن الفاروق نجاسوا خلال الديار ، وعمرها وسهلها . وأقطعنها أيدي المسلمين من الكفار ، وكانوا أحق بها وأهلها . وقولى في المقامة المتقدمة الذكر : قال إذن قد تعلقت من الصنعة بأسبابها . وأنت البيوت من أبوابها . وقولى فيها : قلت قد بانت لى علومها . فما رسوماها؟ — قال إن أعباءها لباهظة حملا . وإنها لكبيرة إلا . ولكن سأحدث لك ذكرا . وأنبئك بما لم تحط به خبرا .

وقولى فى المفاخرة بين السيف والقلم فى الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم :
 صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين قامت بنصرتهم دولة الإسلام فسمت بهم على
 سائر الدول . وكرعت فى دماء الكفر سيوفهم فعاتت مخلوق النصر لا بجمرة أنجل .
 صلاة ينقضى دون أنقضائها تعاقب الأيام . وتكل السنة الأقالم عن وصفها
 ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام .

وربما اقتصر على التلويح والإشارة خاصة : كقول القاضى الفاضل فيما كتب به
 عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى الديوان العزيز ببغداد فى الاستصراخ
 وتهويل أمر الفرنج : رَبِّ إِنِّى لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى ، وهاهى فى سبيلك مبدوله ،
 وأنى وقد هاجر إليك هجرة يرجوها مقبولة .

وقول ضياء الدين بن الأثير فى وصف غبار الحرب : وعقد العجاج سقفا فانهقد .
 وأرانا كيف رفع السماء بغير عمد . غير أنها سماء بنيت بسنابك الجياد . وزينت
 بنجوم الصعاد . ففيها ما يوعد من المنايا لا ما يوعد من الأرزاق . ومنها تُقَدَّف
 شياطين الحرب لا شياطين الأستراق .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله : ”والطريق فى استنباط المعانى من
 القرآن الكريم وأستعمال الآيات فى خلال الكلام أن تعمد إلى سورة من القرآن ،
 وتأخذ فى تلاوتها وكلمة مرة بك معنى أثبتته فى ورقة مفردة حتى تنتهى إلى آخرها ،
 ثم تأخذ فى أستعمال تلك المعانى التى ظهرت وإدخالها فى خلال الكلام وكلمة عاودت
 التلاوة وكررتها ظهر لك من المعانى مالم يظهر لك فى المرة التى قبلها“ .

ولتعلم أن الآية الواحدة قد تقع فى الأستعمال على عدة وجوه يورده النثر
 فى معنى ثم ينقله لمعنى آخر غيره كما فعل ضياء الدين بن الأثير فى قوله تعالى حكاية

عن يوسف عليه السلام ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ . فقال في دعاء كتاب : وصل كتاب من الحضرة السامية أحسن الله أثرها ، وأعلى خطرها ، وقضى من العلياء وطرها ، وأظهر على أيديها آيات المكارم وسورها ، وأسجد لها كواكب السيادة وشمسها وقمرها . ثم أبرزه في معنى آخر فقال أكرم النعم ما كان فيه ذكرى للعابدين . وتقدمه إلى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين . فهذه النعمة هي التي تأتي بتيسير العسير . وتجلو ظلمة الخطب بإيضاح المنير . فأنظر إلى أثر رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير . ثم نقله إلى معنى آخر فقال من تقليد يكتب من ديوان الخلافة لبعض الوزراء : وقد علم أن أمير المؤمنين أدنى مجلسه من سمائه ، وآسسه على وحدة الأفراد بحفل نعائه . ورفعته حتى ودت الشمس لو كانت من أتربه والقمر لو كان من ندمائه . وذلك مقام لا تستطيع الحدود أن ترقى إلى رتبته . ولا الآمال أن تطوف حول كعبته ، ولا الشفاه أن تتشرف بتقبيل تربته . فليردد إعجابا بما نالته من مواطن أقدامه ، ولينظر إلى سجود الكواكب له في يقظته لا في منامه .

قال في " حسن التوسل " والناس في استخراج المعاني من القرآن الكريم ، وأستعمالها في الكلام على قدر طبقاتهم وتفاوت درجاتهم . ففطرط في الحسن ومفطرط وفوق كل ذي علم عليم .

قلت : وكما يحتاج الكاتب إلى حفظ كتاب الله تعالى والعلم بتفسيره ليقبس من معانيه كذلك يحتاج إلى معرفة العلوم المختصة به كالعلم بالقراءات السبع والشواذ ، ومعرفة رجالها ، ومن أشهر منهم وعرف بجودة القراءة ، ومعرفة أعيان المفسرين ورءوسهم ؛ ليمائل بأفاضلهم ويقايس بأعيانهم ؛ في خلال ما يعرض له من الكلام

مطابقاً لذلك كما قال في "التعريف" في وصية مقرئ في القسم الثالث من الكتاب :
 وليدُم على ما هو عليه من تلاوة القرآن، فإنه مصباح قلبه . وصَلاح قُربه ، وصَباح
 القبول المؤذن له برضا ربه ؛ وليجعل سُوره له أسواراً ، وآياته تظهر بين عينيه
 أنواراً . وليلت القرآن بحروفه وإذا قرأ استعاذ ، وليجمع طُرقه ، وهي التي عليها الجمهور
 ويترك الشواذ . ولا يرتد دون غاية لإفصار ، ولا يقف فبعد أن أتمَّ لم يبق بحمد الله
 إحصار ، وليتوسع في مذاهبه ولا يخرج عن قراءة القراء السبعة أئمة الأمصار ، وليبذل
 للطلبة الرغاب ، وليشبع فإن ذوى النِّهمة سغاب . وليُر الناس ما وهبه الله من
 الأقدار فإنه آحتضن السَّبع ودخل الغاب ، ولتيمَّ مبانِي ما أتمَّ ابن عامر وأبو عمرو
 له التعمير ، ولقَّه الكسائي في كسائه ولم يقل جدِّي ابن كثير ، وحُمَّ به لجزء أن يعودَ
 ذاهب الزمان ، وعرف أنه لا عاصم من أمر الله يلجأ معه إليه وهو الطوفان ، وتدقق
 يتفجَّر علماً وقد وقفت السيول الدوافع ، وضراً أكثر قراء الزمان لعدم تفهيمهم
 وهو نافع ، وليقبل على ذوى الإقبال على الطلب ، وليأخذهم بالتربية فما منهم إلا
 من هو إليه قد أنتسب . وهو يعلم ما من الله عليه بحفظ كتابه العزيز من النِّعماء ،
 ووصل سببه منه بجبل الله المتد من الأرض إلى السماء . فليقدر حق هذه النعمة
 بحسن إقباله على التعليم ، والإنصاف إذا سئل فعلم الله لا يتناهى فوق كلِّ ذى علمٍ عليهم .

النوع السابع

(الاستكثار من حفظ الأحاديث النبوية على قائلها أفضل الصلاة والسلام ، وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في بيان وجه احتياج الكاتب إلى ذلك)

قال "في حسن التوسل" لابد للكاتب من حفظ الكثير من الأحاديث النبوية ،
 والآثار المروية عن الصحابة رضوان الله عليهم ؛ وخصوصاً في السير، والمغازي ،

والأحكام؛ وتأمل فصاحتها، والنظر في معرفة معانيها وغريبها؛ وفقه ما لا بد من معرفته من أحكامها لينفق منها على سعة، ويستشهد بكل شيء في موضعه، ويحجج بمكان الحجّة، ويستدلّ بموضع الدليل، ويتصرف عن علم بموضوع اللفظ ومعناه، ويبنى كلامه على أصل لا يُزَلُّ، ويسوق مقاصده إلى سبيل لا يضل عنه، فإن الدليل على المقصد إذا استند إلى النص قويت فيه الحجّة، وسلم له الخصم، وأدعن له المعاند؛ والفصاحة والبلاغة إذا طُلبت غايتها فإنها بعد كتاب الله في كلام من أوتي جوامع الكلم وقال: "أنا أفصح من نطق بالصاد".

وقد كان الصدر الأول من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم يحتجون بالحديث، ويستدلون به في مواطن الخلاف والنزاع، فينقاد الجموح ويستسهل الصعب، وقد رجع الأنصار يوم السقيفة إلى حديث "الأئمة من قريش" حيث رواه لهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه، وأدعنوا له، وبايعوه بعد ما اجتمعوا إلى سعد بن عبادة وقالوا: "منا أمير ومنكم أمير". على ما سيأتى بيانه في موضعه إن شاء الله. ورجع عمر رضى الله عنه لحديث النهى عن دخول بلد الطاعون فعاد إلى المدينة بعد أن قارب الشام حين بلغه أن به الطاعون. وقال على رضى الله عنه في حق الأنصار: "لو زلوا لزلت معهم" لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أزول معكم حيث ما زلتم".

ثم الذى أشار إليه ابن قتيبة في "أدب الكاتب" أن الأحاديث التي ينبغي للكاتب حفظها الأحاديث المتعلقة بالفقه وأحكامه: كقوله صلى الله عليه وسلم: "البينة على المدعى. واليمين على المدعى عليه. والخراج بالظمان. وجرح العجاء جبار".

(١) ولا يَغْلَقُ الرهنُ . والمنحةُ مردودة . والعارية مؤداة . والزَّعيمُ غريم . ولا وصيةٌ لوارث . ولا قَطْعٌ في ثمرٍ ولا كَثْر . ولا قودٌ إلا بمجيدة . والمرأة تُعاقَل الرجل إلى ثلثِ ديتها . ولا تعقلُ العاقلةُ عمدا ولا عبدا ولا صلحا ولا أعترافا . ولا طلاقٌ في إغلاق ، والبيعانِ بالخيار ما لم يتفرقا . والجارُ أحقُّ بصقبة . والطلاقُ بالرجال والعدة بالنساء . وكنهيه في البيوع عن المخاربة والمحاقلة ، والمزانية ، والمعاومة ، والثنيا ، وعن ربح ما لم يُضْمَن ، وعن بيع ما لم يُقبض ، وعن بيعتين في بيعة ، وعن شرطين في بيع ، وعن بيعٍ وسلف ، وعن بيع الغرور وبيع الموصفة ، وعن الكالئ بالكالئ ، وعن تلقى الركان . وما أشبه ذلك ليغتنى بحفظها وتدبر معانيها عن إطلاقات الفقهاء .“

قلت : والتحقيق أن حاجة الكاتب لا تختص بأحاديث الأحكام ودلائل الفقه ، بل تتعلق بما هو أعم من ذلك خصوصا الحكم والأمثال والسير وما أشبه ذلك مما يكثر الاستشهاد به في الكتابة والافتباس من معانيه . قال في ”المثل السائر“ : وينبغي أن يكون أول ما يحفظه من الأخبار ما تضمنته كتاب ”الشهاب في المواعظ والآداب“ للقضاعي ، فإنه كتاب مختصر وجميع ما فيه يستعمل لأنه يتضمن حكما وآدابا ، فإذا حفظته وتدرت بأستعماله ، حصل عندك قوة على التصرف والمعرفة بما يدخل في الاستعمال وما لا يدخل ، وعند ذلك نتصح كتاب صحيح البخاري ، ومسلم ، والموطأ ، والترمذي ، وسنن أبي داود ، وسنن النسائي ، وغيرها من كتب الحديث ، وتأخذ ما تحتاج إليه ، و”أهل مكة أخبر بشعائها“ . قال والذي تأخذه إن أمكنك

(١) الحديث في المصباح لا يغلَقُ الرهن بما فيه . أى لا يستحقه المرتهن بالدين الذي هو

درسه وحفظه فهو المراد لأن ما لا تحفظه فليست منه على ثقة؛ وإن كان لك محفوظات كثيرة: كالقرءان الكريم، ودواوين كثيرة من الشعر، وما ورد من الأمثال السائرة، وغير ذلك مما تقدمت الإشارة إليه وما يأتي ذكره، فعليك بمداومة المطالعة للأخبار، والإكثار من استعمالها في كلامك، حتى ترتقم على خاطرِكَ فتكون إذا احتجت منها إلى شيء وجدته، وسهل عليك أن تأتي به آرتجالاً؛ فأمل ذلك وأعمل به. ثم قال وكنت جردت من الأخبار النبوية كتاباً يشتمل على ثلاثة آلاف خبر تدخل كلها في الاستعمال، وما زلت أواظب مطالعته مدة تزيد على عشرين سنين، فكنت أنهي مطالعته في كل أسبوع مرة حتى دار على ناظري وخطري ما يزيد على خمسمائة مرة وصار محفوظاً لا يشذ منه عنى شيء.

المقصد الثاني

(في بيان كيفية استعمال الأحاديث والآثار في الكتابة)

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير: وأعلم أن أكثر الأحاديث تدخل في الاستعمال، ولا يخرج عنه إلا القليل النادر، ولقد دار بيني وبين بعض علماء الأدب في هذا الأسلوب كلامٌ فأستوعره وأستنكره، وقال: هذا لا يتهيأ إلا في الشيء اليسير من الأخبار النبوية — فقلت لا؛ بل يتهيأ في الأكثر منها — فقال قد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم: **«أنه أختصم إليه في جنين فقضى على من أسقطه بغزة عبد أو أمة»**، فأين تستعمل هذا؟ فأفكرت فيما ذكره، ثم أنشأت هذا الفصل من الكلام، وأودعته فيه وهو: **«قد كثُر الجهل حتى لا يقال فلان عالم وفلان جاهل وضرب المثل بياقل وكَم في هذه الصورة المثلثة من باقل، ولو عرف كل إنسان قدره لما مشى بدنٌ إلا تحت رأسه، ولا أنتصب رأسٌ إلا على بدنه، ولكان صاحبُ العمامة**

أحق بعلمته وصاحب الرسن أحق برسنه . وكنت سمعتُ بكاتب من الكُتاب كَلِمَهُ إلى عَثَانِهِ ، وَقَلَمَهُ بُعَاثَهُ لَا يَسْتَنْسِرُ وَأَيُّ بَطْشٍ لُبُعَاثَهُ . وإذا وجب الوضوء على غيره بالخارج من السبيلين ، وجب عليه من سُبُلِ ثَلَاثِهِ . هذا وهو يدعى أنه في الفصاحة أُمَّةٌ وَحِدَةٌ ، وَمَنْ قَسَّ إِيَادِيَهُ أَوْ سَجَبَانُ وَأَيْلٍ عِنْدَهُ ؛ وَإِذَا كُشِفَ خَاطِرُهُ وَجَدَ بَلِيدًا لَا يَخْرُجُ عَنِ الْعَمَةِ وَالْكَمَةِ ، وَإِنْ رَامَ أَنْ يَسْتَنْجِبَهُ فِي حِينٍ مِنَ الْأَحْيَانِ قَضَى عَلَيْهِ بَغْتَةً عَبْدٌ أَوْ أُمَّةٌ ؛ وَكَثِيرًا مَا يَتَقَدَّمُ وَنَقِصْتُهُ هَذِهِ عَلَى الْأَفْضَلِ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَقَدْ صَارَ النَّاسُ إِلَى زَمَانٍ يَعْلُوفِيهِ حَضِيضُ الْأَرْضِ عَلَى هَامِ السَّمَاءِ .“ فلما أوردته عليه ، ظهرت أمارة الحسد على صفحات وجهه مع إعجابه به وأستغرابه فيه إياه .

ثم قال : وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحديث وهو ”لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ صُورَةٌ وَلَا تَمَثَّلُ“ فهذا أين يُسْتَعْمَلُ مِنَ الْمَكْتُوبَاتِ؟ فترويت في قوله تَرْوِيًا سِيرًا ثم قلت : هذا يستعمل في كتاب إلى ديوان الخلافة ، وأمليت عليه الكتاب ، فجاء هذا الحديث في فصل منه ، وهو : ”إِذَا أَفَاضَ الْخَادِمُ فِي وَصْفِ وَلَائِهِ ، نَكَصَتْ هِمُّ الْأَوْلِيَاءِ عَنْ مَقَامِهِ ؛ وَعَلِمُوا أَنَّهُ أَخَذَ الْأَمْرَ بِزِمَامِهِ ؛ فَقَدْ أَصْبَحَ وَلَيْسَ بَقَلْبِهِ سِوَى الْوَلَاءِ وَالْإِيمَانِ ، فَهَذَا يَظْهَرُ أَثْرُهُ فِي طَاعَةِ السَّرِّ وَهَذَا فِي طَاعَةِ الْإِعْلَانِ ؛ وَمَا عَدَاهُمَا فَإِنْ دَخَلَهُ إِلَى قَلْبِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمَحْظُورَةِ ، وَالْمَلَائِكَةُ لَا تَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ تَمَثَّلُ وَلَا صُورَةٌ ، فَيَعْمَلُ الدِّيْوَانُ الْعَزِيزُ مِنْهُ عَلَى سَيْفٍ مِنْ سَيْوْفِ اللَّهِ يَقْرِي ، بِمَا ضَارِبٌ ؛ وَيَسْرِي ، بِمَا حَامِلٌ ؛ وَلَا يُسَلُّ إِلَّا بِبَيْدِ حَقِّ ، وَلَا يُعْمَدُ إِلَّا فِي ظَهْرِ بَاطِلٍ . وَلْيَعْلَمْ أَنَّ كَرِيشَهُ وَعَيْبَتَهُ فِي تَضَمُّنِ الْأَسْرَارِ ، وَأَنَّهُ أَحَدُ سَاعِدِيهِ إِذَا عُدَّتْ مَوَاقِفُ الْأَنْصَارِ“ . فلما رأى هذا الفصل بُهِتَ لَهُ وَعَجِبَ مِنْهُ . قال : ولم أقنع بإيراد الحديث الذي ذكر حتى أضفتُ إليه حديثًا آخر ، وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم : ”الأنصار كَرِيشِي وَعَيْبَتِي“ .

ثم تضمين الكلام شيئاً من الأحاديث على ما تقدم في القرآن الكريم؛ فينقسم إلى الاستشهاد والاقباس على ما تقدم .

فأما الاستشهاد فهو أن يضمن الكلام شيئاً من الحديث، وينبه عليه : كقول أبي إسحاق الصابي في وصية عهد من خليفة لسلطان : وأن يقوم بما يعقده الرجل من عرض المسلمين ، فإن ذمته ذمة جميع المؤمنين ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” المسالمون يسعون بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ” .

وكما كتب بغض الكتاب في صدر كتاب لديوان الخلافة : والحمد لله على أن صار إلى أمير المؤمنين ميراث الطاهرين من آبائه ، وخصه بما حازله من جريل الفضل وحبائه ، وحقق للدولة العباسية وعد النبي صلى الله عليه وسلم إذ يقول لعمة العباس رضوان الله عليه ” ألا أبشرك يا عم ! بي ختمت النبوة وبولدك كُتِمَ الخِلافة ” . وكقوله من عهد آخر : وأمره أن يضع الرصد على من يختار في الجمالة من أباقي العبيد، والأحتياط عليهم وعلى ما يكون معهم : إلى أن قال وأن يعرفوا اللقط ويتبعوا أثرها ، ويُسبعوا خبرها ، فإذا حضر صاحبها وعلم أنه مستوجبها ، سلمت إليه ، ولم يعترض فيها عليه . والله جل وعز يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ” ضالة المؤمن حرق النار ” إلى غير ذلك من الاستشهادات .

وأما الاقباسات فهو أن يضمن الكلام شيئاً من الحديث ولا ينبه عليه . فن ذلك ، ما ذكره الحريري في مقاماته من قوله : وكتبتان الفقر زهاده ، وانتظار الفرج بالصبر عباده . وقوله : شأته الوجوه ، وقبح اللكم ومن يرجوه . وقد أكثر الوزير ضياء الدين بن الأثير من هذا الباب .

فمن ذلك قوله في دعاء كتاب: "أعاذ الله أيامه من الغير، وبين بخطره مجده نقص كل خطر . وجعل ذكره زاداً لكل ركب ، وأنساً لكل سمر . ومنحه من فضله ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر". أخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم في وصف نعيم الجنة "فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر" فنقله إلى الدعاء .

ومن ذلك ما ذكره في النصر على العدو في مواطن القتال ، وهو : "أخذنا بسنة رسول الله في النصر الذي نرجوه ، ونبذنا في وجه العدو كفاً من التراب وقلنا شأهت الوجوه؛ فثبت الله ماتزلزل من أقدامنا، وأقدم حيزوم فأغنى عن إقدامنا" . أخذ المعنى الأول من حديث غزوة حنين وأن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ قبضة من التراب وألقى بها في وجوه الكفار وقال : "شأهت الوجوه" . وأخذ المعنى الثاني من حديث غزوة بدر : وذلك أن رجلاً من المسلمين لاقى رجلاً من المشركين وأراد أن يضربه فخر على الأرض ميتاً قبل أن يصل إليه ، وسمع الرجل المسلم صوتاً من فوقه وهو يقول أقدم حيزوم فجاه النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال : "ذلك من مدد السماء الثالثة" .

ومن ذلك ما ذكره في ضيق مجال الحرب ، وهو : "وضاق الضرب بين الفريقين حتى اتصلت مواقع البيض الذكور ، وتصاحت الغرر بالغرر والصدور بالصدور . وأستظلل حينئذ بالسيوف لأشبتك مجالها وتبوت مقاعد الجنة التي هي تحت ظلالها" . أخذ ذلك من قول النبي صلى الله عليه وسلم "الجنة تحت ظلال السيف" .

ومن ذلك ما ذكره في وصف بعض البلاد الوحمة ، وهو : "ومن صفاتها أنها مدرة مستوية الطينه ، مجموع لها بين حرمكة ولأواء المدينة . إلا أنها لم يؤمن

حرَّها من الخطفه، ولا تُقِلَّت حُمَّها إلى الجحفة . أخذ المعنى الأول من قوله صلى الله عليه وسلم ”مَنْ صَبَرَ عَلَى حَرِّ مَكَّةَ وَلَا وَاءِ الْمَدِينَةِ ضَمِنْتُ لَهُ عَلَى اللَّهِ الْجَنَّةَ“ . والمعنى الثانى من قوله صلى الله عليه وسلم فى دُعائه للمدينة : ”اللَّهُمَّ حَبِّبْهَا إِلَيْنَا كَمَا حَبَّبْتَ إِلَيْنَا مَكَّةَ وَأَنْتَ قُلُّ حَمَّاهَا إِلَى الْجُحْفَةِ“ . ورشح ذلك بمعنى قوله تعالى ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفِّطُ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ حيث قال إلا أنها لم يؤمن حرَّها من الخطفة .

ومن ذلك ما ذكره فى وصف كريم ، وهو : ” فأغنى بجموده إغناء المطر ، وسَمَّا إلى المعالي سُمُو الشمس وسار فى منازلها مسير القمر . ونَبَّج من أبقار فضائله ما إذا ادعاه غيره قيل للعاهر الحجر“ . أخذ ذلك من قول النبي صلى الله عليه وسلم ”الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ“ . إلى غير ذلك من مقتبساته المستكثرة ، وأستنباطاته التى هى غير قاصرة ولا مستنكرة .

ومن ذلك ما ذكرته أنا فى المفاخرة بين السيف والقلم ، وهو : ”وبدأ القلم فتكلم ، ومضى فى الكلام بصدق عزم فما توقَّف ولا تلعمَّ ؛ فقال بأسم الله تعالى أستفتح ، وبجمده أتمنُّ وأستنجح ؛ إذ من شأنى الكتابة ، ومن فى الخطابه ، وكلُّ أمرٍ ذى بالٍ لا يُبدَأُ فيه بأسم الله تعالى فهو أجذم ، وكل كلام لا يُفتتحُ بجمد الله فأساسه غير مُحكم“ . أخذت ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم ”كلُّ أمرٍ ذى بالٍ لا يُبدَأُ فيه بأسم الله أو بجمد الله فهو أجذم“ على اختلاف الرواية فى ذلك .

وأعلم أنه كما يحتاج الكاتب إلى حفظ الأحاديث والآثار بطريق الذات للأستشهاد بها ، والأقتباس من معانيها على ما تقدم بيانه : كذلك يحتاج إلى المعرفة بأنواع الحديث وأقسامها : كالصحيح ، والحسن ، والمرسل ، والمرفوع ، والمُسند ، والمتصل ، والمنقطع ، ونحو ذلك . وكذلك المعرفة بأسماء الرجال ، والمشاهير من المحدثين :

كالبخارى، ومسلم، وأبي داود، والنسائي وغيرهم : ليورد ما يحتاج إليه من ذلك في غُضُون كلامه عند احتياجه إليه في كتابة ما يتعلق بذلك من توقيع محدث ونحوه كما قال في " التعريف " في وصية لمحدث في قسم الوصايا من الكتاب " وقد أصبح بالسنة النبوية مضطلعا ، وعلى ما جمعه طُرق أهل الحديث مُطلعا ، وصح الصحيح أن حديثه الحسن ، وأن المرسل منه في الطلب مقطوع عنه كل ذى لسن . وأن مسنده هو المأخوذ عن العوالى ، وسماعه هو المرقص منه طول الليالى . وأن مثله لا يوجد في نسبة المعرق ، ولا يُعرف مثله للمحافظين : ابن عبد البر بالمغرب وخطيب بغداد بالمشرق . وهو يعرف مقدار طلب الطالب فإنه طال ما شد له النطاق ، وسعى له سعيه وتجشم المشاق . ورحل له يشتد به حرصه والمطايا مزومة ، وينبهه له طلبه والجفون مقلقة والعيون مهمومة . ووقف على الأبواب لا يُضجره طول الوقوف حتى يؤذن له في ولوجها ، وقعد القرفصاء في المجالس لا تنصيق به فرجها .

فليعامل الطلبة إذا أتوه للفائدة معاملة من جرب ، وليسسط للأقرباء منهم ويؤنس الغرباء فما هو إلا ممن طلب آونة من قريب وآونة تغرب . وليسفر لهم صباح قصده عن النجاح ، وليقتق لهم من عقوده الصحاح ، وليوضح لهم الحديث ، وليرخ خواطرهم بتقريبه ما كان يسار إليه السير الخثيث ، وليؤتهم مما وسع الله عليه فيه المجال ، ويعانهم ما يجب تعليمه من التون والرجال ، ويصبرهم بمواقع الجرح والتعديل ، والتوجيه والتعليل ، والصحيح والمعتل الذى تنتثر أعضاؤه سقما كالعليل .

وغير ذلك مما لرجال هذا الشأن به عناية ، وما ينقب فيه عن دراية أو يقنع فيه بجزد روايه . ومثله ما يزداد حلما ، ولا يعزف بمن رخص في حديث موضوع أو كتم علما . وسيأتى ذكر هذه الوصية في موضعها إن شاء الله تعالى .

وكما قال الشيخ جمال الدين بن نباتة من جملة توقيع لبعض مدرسي الشام :
 ”ولأنه الحافظ الذي أحيا ذكر ابن نُقْطَةَ بعد ما دارت عليه الدوائر، وأغنى وحده
 دمشق عن أتى في النسب بعساكر“ .

النوع الثامن

(الإكثار من حفظ خُطَبِ البلقاء، والتفنن في أساليب الخطباء؛ وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في وجه احتياج الكاتب إلى ذلك)

قال أبو جعفر النحاس : ”وهي من أكد ما يحتاج إليه الكاتب ، وذلك أن
 الخطب من مستودعات سرِّ البلاغة ، ومجامع الحكم ؛ بها تفاخرت العرب
 في مشاهدهم ، وبها نطقت الخلفاء والأمراء على منابرهم ؛ بها يميز الكلام ، وبها
 يُخاطَب الخَاصُّ والعامُّ ، وعلى منوال الخطابة نُسِجَت الكُتَابُ ، وعلى طريق الخُطَبَاءِ
 مَشَتِ الكُتَابُ . وقد قال أبو هلال العسكري رحمه الله في ”الصناعتين“ : والرسائل
 والخطب متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية ، وقد يتشاكلان أيضا
 من جهة الألفاظ والفواصل ، فالفاظ الخطب تشبه ألفاظ الكُتَابِ في السهولة
 والعدوبة ؛ وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل“ . قال : ”والفرق بينهما
 أن الخطبة يُشَافَهُ بها بخلاف الرسالة ، والرسالة تجعل خطبة والخطبة تجعل رسالة
 في أيسر كلفة“ .

واعلم أنه كان للعرب بالخطب والنثر غايةُ الأعتناء حتى قال صاحب ”الريحان
 والريعان“ : إن ماتت كلمت به العرب من أهل المدّر والوبر من جيّد المنشور ومزدوج

الكلام أكثر مما تكلمت به من الموزون إلا أنه لم يُحفظ من المنشور عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره . لأن الخطيب إنما كان يُحطّب في المقام الذي يقوم فيه في مشافهة الملوك ، أو الحالات ، أو الإصلاح بين العشائر ، أو خطبة النكاح ؛ فإذا آنقضى المقام حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه . بخلاف الشعر فإنه لا يضيع منه بيت واحد . قال : ” ولولا أن خطبة قُسن بن ساعدة كان سندها مما يتنافسُه الأنام ، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي رواها عنه فأطارذ كرها ، ما تميزت عما سواها “ .

قلت : وليس ما أشار إليه لرفض النثر عندهم وقلة اعتنائهم به ؛ بل لسهولة حفظ الشعر وشيوعه في حاضرهم وباديهم ، وخاصّهم وعامهم ؛ بخلاف الخطابة فإنه لم يتعاطها منهم إلا القليل النادر من الفصحاء المصّاع : فلذلك عزّ حفظها وقلّ عنهم نقلها . وقد كانت تقوم بها في الجاهلية سادات العرب ، ورؤسائهم ممن فاز بقُدح الفضل ، وسبق إلى ذرى المجد ، ويُحْصون ذلك بالمواقف الكرام ، والمشاهد العظام ، والمجالس الكريمة ، والمجامع الحفيلة ، فيقوم الخطيب في قومه فيحمد الله ويُثني عليه . ثم يذكر ما سنع له من مطابق قصده وموافق طلبه : من وعظ يذكّر أو نخر أو إصلاح أو نكاح ، أو غير ذلك مما يقتضيه المقام .

فمن خطبهم في الجاهلية خطبة كعب بن لؤى جد النبي صلى الله عليه وسلم فيما ذكره أبو هلال العسكري في كتاب الأوائل . وهي : اسمعوا وعوا ، وتعلموا وتعلموا ، وتفهموا وتفهموا ، ليل ساج . ونهاراً صباح ، والأرض مهّاد ، والجبال أوتاد ، والأولون كالآخرين ، كل ذلك إلى بلاء ، فصلّوا أرحامكم ، وأصلحوا أموالكم ، فهل رأيتم من

(١) لعله ضاح من قولهم ضجّ القوم يضحون إذا صاحوا وعلبوا . وفي الضوء ليل داج ونهار ساج تأمل

هلك رجع، أوميتا نُشِر، الدار أمامكم والظن خلاف ماتقولون، زينوا حرمكم وعظموه،
وتمسكوا به ولا تُفارقوه، فسيأتي له نبأ عظيم، وسيخرج منه نبي كريم . ثم قال :

نَهَارٌ وَلَيْلٌ وَأَخْتِلَافٌ حَوَادِثٍ * سَوَاءٌ عَلَيْنَا حُلُوهَا وَمَرِيْرُهَا
يَتُوبَانِ بِالْأَحْدَاثِ حَتَّى تَأْتِيَا * وَبِالنَّعْمِ الضَّافِي عَلَيْنَا سَتُورُهَا
صُرُوفٌ وَأَنْبَاءٌ تَقَلِّبُ أَهْلَهَا * لَهَا عَقْدٌ مَا يَسْتَحِيلُ مَرِيْرُهَا
عَلَى غَفْلَةٍ يَأْتِي النَّبِيَّ مُحَمَّدٌ * فَيُخْبِرُ أَخْبَارًا صَدُوقًا خَيْرِهَا

ثم قال :

يَا لَيْتَنِي شَاهِدُ فُجُوءَ دَعْوَتِهِ ! * حِينَ الْعَشِيرَةِ تَبْغِي الْحَقَّ خِذْلَانَا

ومن ذلك خطبة قُوس بن ساعدة الإيادي ، بسوق عكاظ فيما نقله أصحاب
السَّيَر عن إخبار النبي صلى الله عليه وسلم عنه وهي : أيها الناس ! اسمعوا وعوا، من
عاش مات، ومن مات فات، وكلُّ ما هو آتٍ آت، ليل داج، ونهار ساج، وسماء
ذات أبراج، ونجوم، تزهر، وبحار تزخر، وجبال مُرساه، وأرض مُدحاه، وأنهار مُجراه .
إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لَعَبْرًا ! ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون .
أرضوا فأقاموا، أم تركوا فناموا . يُقسَم قُوس بالله قسماً لا إثم فيه إن الله ديناً هو أرضى
له وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه ؛ إنكم لتأتون من الأمر منكراً ! . ويروى أن
قُوساً أنشأ بعد ذلك يقول :

فِي الدَّاهِيَيْنِ الأُولِيْنَ * ن مِنَ القُرُونِ لَنَا بَصَائِرُ
لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا * لِمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرُ
وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا * تَمْضِي : الأَكَابِرُ والأَصَاغِرُ
لَا يَرْجِعُ المَاضِي إِلَى ولا مِنَ البَاقِيْنَ غَايِرُ
أَيَقْنَتُ أُنِّي لَأَمَحَا * لَهَّ حَيْثُ صَارَ القَوْمُ صَائِرُ

قال صاحب الأوائل : ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” يعرض هذا الكلام يوم القيامة على قُسس بن ساعدة فإن كان قاله الله فهو من أهل الجنة “ .

ومن ذلك خطبة أبي طالب حين خطب النبي صلى الله عليه وسلم خديجة وهي : الحمد لله الذي جمعنا من زرع إبراهيم ، وذرية إسماعيل ، وجعل لنا بيتنا محجوجا ، وحرما آمنا . ثم إن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أخي من لا يوازن بأحد إلا رجمه ، ولا يعدل بأحد إلا فضله ، وإن كان في المال قل فإن المال ظل زائل ؛ وله في خديجة رغبة ولها فيه مثلها ؛ وما كان من صداق فني مالي ؛ وله نبأ عظيم وخبر شائع .

ومن خطب النبي صلى الله عليه وسلم ” أيها الناس كأن الموت فيما على غيرنا قد كتب ، وكأن الحق فيما على غيرنا قد وجب ، وكأن الذي تُسبغ من الأموات سفرٌ عما قليل إلينا راجعون ، نبؤهم أجداً لهم ، وأنا كل من تراهم كأننا نخلدون بعدهم ، ونسينا كل واعظة وأمناء كل جائحة ، طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، طوبى لمن أنفق مالا أكتسبه من غير معصية ، وجالس أهل الفقه والحكمة ، وحالط أهل الذل والمسكنة ، طوبى لمن زكت وحسنت خليفته ، وطابت سيرته ، وعزل عن الناس شره ، طوبى لمن أنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله ، ووسعته السنة ولم تستهوه البدعة ! “

ومن خطب أبي بكر الصديق رضي الله عنه فيما ذكره أبو جعفر النحاس في ” صناعة الكتاب “ وهي : ألا إن أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوك ، الملك إذا ملك زهده الله جل وعز فيما عنده ، ورغبه فيما في يدي غيره ، وانتقصه شطر أهله ، وأشرب قلبه الإشفاق ، وإذا وجبت نفسه ، ونضب عمره وصحبا ظله ،

حاسبه الله جل ثناؤه وأشدّ حسابه، وأقلّ عَفْوَه؛ وسَتَرُونِ بَعْدِي مُلْكًا عَضُوضًا،
وأُمَّةً سِحَاحًا، ودَمًا مُبَاحًا؛ وإن كانت للباطل نَزْوَةٌ، ولأهل الحق جَوْلَةٌ، يَعْفُو لها
الأثر وتموت السنن، فألزموا المساجد واستشيروا القرآن^(١)، وليكن الإبرام بعد التشاور،
والصَّفْقَةُ بعد التناظر .

ومن خطب عمر رضى الله عنه: أيها الناس! إنّه أتى على حين وأنا أحسب
أنّ من قرأ القرآن إنما يريد الله وما عنده؛ ألا وإنه قد خيل إلى أن أقواما يقرءون
القرآن يريدون ما عند الناس! ألا فأريدوا الله بقراءتكم، وأريدوه بأعمالكم، فإنما
كنا نعرفكم إذ الوحي ينزل وإذ النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا، فقد رفع الوحي
وذهب النبي عليه السلام، فإنما أعرفكم بما أقول لكم: ألا فمن أظهر لنا خيرا ظننا
به خيرا وأثينا به عليه!، ومن أظهر لنا شرا ظننا به شرا وأبغضناه عليه!، أقدعوا
هذه النفوس عن شهواتها، فإنها لملّقة، وإنكم إلّا تقدعوها تنزع بكم إلى شرّ غاية .
إن هذا الحق ثقيل مرّ، وإن الباطل خفيف ويء، وترك الخطيئة خير من
مُعالجة التّوبة؛ وربّ نظرة زرعت شهوة، وشهوة ساعة أورثت حُرنا طويلا! .

ومن خطب عثمان رضى الله عنه: وقد أنكروا عليه تة تديم بنى أمة على غيرهم:
أما بعد فإن لكلّ شيء آفة، وآفة هذا الدين وعاهة هذه الملة قوم عيابون،
طعانون، يُظهرون لكم ما يُحبون ويُسرون ما تَكْرَهُونَ . أما والله يامعشر المهاجرين
والأنصار! لقد عبتم على أشياء ونقمت مني أمورا قد أقررت لابن الخطاب بمثلها
ولكنه وقمكم وقما، ودمغكم حتى لا يجترئ أحد منكم يملأ بصره منه ولا يُشير بظرفه^(٢)

(١) كذا في الأصول بالسين المعجمة ولعله تصحيف عن الناء المثلثة في السان وتور القرآن بحث عن معانيه
وعن عليه . وأورد في ذلك حديث عبد الله أنه أثيروا القرآن فان فيه خير الأولين والآخرين . وحديثنا آخر . من
أراد العلم فليتور القرآن . (٢) في غير هذا الكتاب وقمكم والوقم والدمغ والفهر والإدلال .

إلا مُسَارَقَةً إليه ؛ أما والله لَأَنَا أَكْثَرُ من آبن الخَطَّابِ عَدَدَا ، وَأَقْرَبُ نَاصِرَا وَأَجْدَرُ
 إِن قَالَ هَلُمَّ أَنْ يُجَابَ . هل تَفْقِدُونَ من حَقُوقِكُمْ وَأَعْطَيْتِكُمْ شَيْئًا فَإِنِّي إِلَّا أَفْعَلُ^(١)
 فِي الْفَضْلِ مَا أُرِيدُ فَلِمَ كُنْتَ إِمَامًا إِذَنْ ؟ أما والله ما عَابَ عَلِيٌّ مَنْ عَابَ مِنْكُمْ أَمْرًا
 أَجْهَلُهُ وَلَا أَتَيْتُ الَّذِي أَتَيْتُ إِلَّا وَأَنَا أَعْرِفُهُ .

ومن خطب على كرم الله وجهه : حين بُويع بالخِلافة : إن الله أنزل كتابا
 هاديا بينَ فيه الخير والشر ، نَحْدُوا بِالْخَيْرِ وَدَعُوا الشَّرَّ ؛ الْفَرَائِضَ أَدِّوْهَا إِلَى اللَّهِ
 تَوَدِّعِكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ . إن الله حَرَّمَ حُرْمًا غَيْرَ مَجْهُولَةٍ ، وَفَضَّلَ حُرْمَةَ الْمُسْلِمِ عَلَى الْحَرَمِ
 كُلِّهَا ، وَسَدَّدَ بِالْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ حَقُوقَ الْمُسْلِمِينَ . فالْمُسْلِمُ مِنْ سَلَمِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ
 لِسَانِهِ وَيَدِهِ إِلَّا بِالْحَقِّ ؛ لَا يَجِلُّ أَذَى الْمُسْلِمِ إِلَّا بِمَا يَجِبُ ، فَأَدِّوْا أَمْرَ الْعَامَّةِ ، وَخَاصَّةً
 أَحَدِكُمُ الْمَوْتُ . فَإِنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ وَإِنَّمَا خَلْفُكُمْ السَّاعَةُ تُدَكِّرُكُمْ . تَحَفَّفُوا تَلَحُّقُوا ، فَإِنَّمَا
 يَنْتَظِرُ بِالنَّاسِ أَنْحَرَاهُمْ . اتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَةَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ ، فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ حَتَّى عَنْ
 الْبِقَاعِ وَالْبَهَائِمِ ؛ أَطِيعُوا اللَّهَ وَلَا تَعْصُوهُ . وَإِذَا رَأَيْتُمُ الْخَيْرَ نَحْدُوا بِهِ ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ
 الشَّرَّ فَدَعُوهُ ، وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعِفُونَ فِي الْأَرْضِ .

ومن خطب الحسن بن علي رضي الله عنه : اعلموا أن الحلم زين ، والوقار
 مودة ، وأصلة نعمة ، والإكثار صلف ، والعجلة سفه ، والسفه ضعف ، والفتق
 ورطة ، ومجالسة أهل الدناءة شين ، ومخالطة أهل الفسوق ريبة .

ومن خطب معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بصفيين : أيها الناس !
 إن الحرب صعبة ، وإن السلم من مبرة ! ألا وقد زبنتنا الحرب وزبناها

(١) في غير هذا الكتاب وأقن إن قلت هلم أن تجاب دعوتك من عمر . والروايات متقاربة .

وَأَلْفَتْنَا وَالْفُنَاهَا، فَتَحْنُ بَنُوهَا وَهِيَ أُمَّنَا . أَيُّهَا النَّاسُ ! اسْتَقِيمُوا عَلَى سَبِيلِ الْهُدَى ،
وَدَعُوا الْأَهْوَاءَ الْمُضِلَّةَ ، وَالْبِدَعَ الْمُرْدِيَةَ ، وَلَسْتُ أَرَاكُمْ تَزْدَادُونَ بَعْدَ الْوَصَاةِ
إِلَّا اسْتَجْرَاءً ، وَلَنْ أَزْدَادَ بَعْدَ الْإِعْذَارِ وَالْحِجَةِ عَلَيْكُمْ إِلَّا عِقُوبَةٌ ! ، وَقَدْ أَلْتَقِينَا نَحْنُ
وَأْتَمَّ عِنْدَ السَّيْفِ فَمَنْ شَاءَ فَلْيَتَحَرَّكَ أَوْ يَتَقَهَّرْ وَمَا مَنِّي وَمَثَلُكُمْ إِلَّا كَمَا قَالَ ابْنُ قَيْسٍ
ابْنُ رِفَاعَةَ الْأَنْصَارِيُّ .

مَنْ يَصِلَ نَارِي بِلا ذَنْبٍ وَلَا تِرَةٍ * يَصُلِّي بِنَارِ كَرِيمٍ غَيْرِ غَدَّارٍ
أَنَا النَّذِيرُ لَكُمْ مَنِّي جَاهِرَةٌ * كَيْ لَا أَلَامَ عَلَى نَهْيِي وَإِنْ ذَارِي

ومن خطب عتبة بن أبي سفيان ، وهو يومئذ أمير مصر وقد بلغه عن أهلها
أمر أن صعد المنبر وقال : ^(١) يا حَامِلِي الْأُمِّ أَنْوِفِ رَكِبْتُ بَيْنَ أَعْيُنٍ ! إِنَّمَا قَلَّمْتُ
أَظْفَارِي عِنْدَكُمْ لَيْلِينَ مَسَى إِيَّاكُمْ ، وَسَأَلْتُمْ صَلَاحَكُمْ لَكُمْ إِذْ كَانَ فَسَادُكُمْ رَاجِعًا عَلَيْكُمْ ؛
فَأَمَّا إِذْ أَبَيْتُمْ إِلَّا الطَّعْنَ عَلَى الْأُمَرَاءِ وَالْعَتَبَ عَلَى السَّلَفِ وَالْخُلَفَاءِ ، فَوَاللَّهِ لَأَقُطَّعَنَّ
بُطُونَ السَّيَاطِ عَلَى ظَهْرِكُمْ ! فَاِنْ حَسَمْتُ مُسْتَشْرِي دَائِكُمْ وَإِلَّا فَالسَّيْفُ مِنْ
وَرَائِكُمْ . فَكَمْ مِنْ عِظَةٍ لَنَا قَدْ صَمَّتْ عَنْهَا آذَانُكُمْ ، وَزَجْرَةٍ مَنَا قَدْ مَجَّتْهَا قُلُوبُكُمْ ؛
وَلَسْتُ أَبْجُلُ عَلَيْكُمْ بِالْعِقُوبَةِ إِذَا جَدْتُمْ عَلَيْنَا بِالْمَعْصِيَةِ ، وَلَا مَوْسِيًا لَكُمْ مِنَ الْمُرَاجَعَةِ
إِلَى الْحَسَنِ إِنْ صَرْتُمْ إِلَى التِّي هِيَ أَبْرٌ وَأَتْقَى .

ومن خطب زياد بن أبيه حين قدم إلى البصرة : أما بعدُ فإن الجهالة
الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والغى الموفى بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل
عليه حلماءكم من الأمور التي ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ؛ كأنكم
لم تقرأوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب

(١) لعل عامل أن محذوف والأصل فإ كان منه إلا أن الخ .

الأليم لأهل معصيته ، في الزمن السرمدي الذي لا يزول . إنه ليس منكم إلا من
 طرقت عينه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ؛ ولا
 تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدّث الذي لم تُسبقوا إليه : من تركم الضعيف
 يُقهره ، والضعيفة المسلوبة في النهار لا تُتصر ، والعدد غير قليل ، والجمع غير مفترق .
 ألم يكن منكم نهايةً يمنعون الغواة عن دَجّ الليل وغارة النهار ! قرّبتم القرابة ! وبعدم
 الدين ؛ تعتذرون بغير العذر ، وتغضون على النكر . كل أمرئ منكم يرذ عن سفيهه
 صنّع من لا يخاف عقابا ولا يرجو معادا . فلم يزل بهم ما ترون من قيامكم دونهم
 حتى آتتهوا حرم الإسلام ثم أطرفوا وراءكم كُنُوسا في مكائس الرب ، حرام على
 الطعام والشراب حتى أضع هذه المواخير بالأرض هدا وإحراقا ! . إني رأيت آخر هذا
 الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : أين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف ،
 وإني لأقسم بالله لا أخذن الولي بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمطيع بالعاصي ، حتى يلقي
 الرجل أخاه فيقول " آئج سعد فقد هلك سعيد " أو تستقيم لي قناتكم . إنا كذبة
 الأمير بقاء مشهورة ، فإذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتي ، وقد كان بيني
 وبين قوم إحن بجمعت ذلك دبر أذني وتحت قدمي . إني لو علمت أن أحدكم قد
 قتله السُّل من بغضى لم أكشف له قناعا ، ولم أهتك له سترا ، حتى يُبدى لي صفحته ،
 فإذا فعل ذلك لم أناظره ، فاستأنفوا أموركم وراعوا على أنفسكم ، فربّ مبيّس
 بقدمونا سيسر ، ومسرور بقدمونا سيبتيس ! . أيها الناس إنا قد أصبحنا لكم
 ساسة ، وعنكم ذادة نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذود عنكم بفيء الله الذي
 خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا
 عدلنا وقيتنا بمناصحتكم لنا ،

(١) في العقد الفريد والصفحة المسلوبة في النهار المبر . (٢) وقع في الأصل المناخير وهو تصحيف
 عن المواخير انظر اللسان والعقد الفريد . (٣) في العقد الفريد وأعينوا .

فقام إليه عبد الله بن الأهمم وقال : " أشهد أيها الأمير لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب " قال : " كذبت " ذلك نبي الله داود !

ومن خطب عبد الملك بن مروان ، لما قتل عمرا الأشدق بن سعيد بن العاص : إرموا بأبصاركم نحو أهل المعصية ، وأجعلوا سلفكم لمن غير منكم عظة ، ولا تكونوا أغفالا من حسن الاعتبار ، فتنزل بكم جائحة السطوات ، وتجوس خلالكم بوادئ النقيات ، وتطأ رقابكم بثقلها العقوبة فتجعلكم همدا رفانا ، وتشتمل عليكم بطون الأرض أمواتا . فإياي من قول قائل ، ورشقة جاهل ! وإنما بيني وبينكم أن أسمع النعوة فأصم تصميم الحسام المطرور ، وأصول صيال الحرق الموتور ، وإنما هي المصاحفة والمكافئة بظبات السيوف وأسنة الرماح ، والمعاودة لكم بسوء الصباح ، فتاب تائب ، وهذل خائب ، والتوب مقبول ، والإحسان مبدول ، لمن عرف رُشده وأبصر حظه . فأنظروا لأنفسكم ، وأقبلوا على حظوظكم ، ولتكن أهل الطاعة يدا على أهل الجهل من سفهائكم ، وأستديموا النعمة التي آبتدأتكم برغيد عيشها ونفيس زينتها ، فإنكم من ذلك بين فضيلتين : عاجل الخفض والدعة ، وأجل الجزاء والثوبة عصمكم الله من الشيطان وقتته ونزغه ، وأمدكم بحسن معزته وحفظه . انهضوا رحمكم الله إلى قبض أعطياتكم غير مقطوعة عنكم ، ولا مكدرية عليكم .
نخرج القوم من عنده يدارا كلهم يخاف أن تكون السطوة به .

ومن خطب الحجاج بن يوسف الثقفي عند قدومه الكوفة أميرا على العراق : يا أهل العراق أنا الحجاج بن يوسف ! .

(١) كذا في الأصل الإهمال وهو تصحيف عن المعجمة . والنقوة والنغية أول الخير قيل أن تستينه .
(٢) المطرور برأين المحدود المشحوذ في الأصل بالدال المهملة وهو تصحيف .
(٣) في الأصل بالها . واهمال الدال وإعجام حائب ولعله بالميم وإعجام الذال بمعنى ضمير قلق واهمال الحاء من حائب فخر .

أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَّلَاعُ النَّسَايَا * مَتَى أَضَعُ الْعَامَةَ تَعْرِفُونِي

والله يا أهل العراق: إني لأرى رعو سا قد أينعت وحن قطافها، وإني لصاحبها!
والله لكأني أنظر إلى الدماء بين العائم واللى . يا أهل العراق ما يُعْمَزُ جانبي كَتَمَازِ
التنين، ولا يُقَعِّعُ لي بالشنان. ولقد فُرِرتُ عن ذكاء، وقُشِيتُ عن تجربة، وأجريتُ
من الغاية؛ وإن أمير المؤمنين عبد الملك تَرَكَاتَه بين يديه فعجم عيدانها عودا
عودا فوجدني أمرها عودا . وأشدّها مَكْسِرا، فوجهني اليكم ورامكم بي يا أهل
الكوفة، أهل الشقاق والنفاق، ومساوى الأخلاق: لأنكم طالبا أوضعتم في الفتنة،
وأضطجعتهم في منام الضلال، وسننتم سنن العمى، وأيم الله لأخونكم لحو العود،
ولأقرعنكم قرع المروة، ولأعصبنكم عصب السامة، ولأضربنكم ضرب غريبة
الإبل . إني والله لأحلف إلا صدقت، ولا أعد إلا وفيت . إياي وهذه الزرافات،
وقال وما يقول، وكان وما يكون . وما أتم وذاك يا أهل العراق . إنما أتم أهل
قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيا رزقها رغدا من كل مكان فكتمت بأنعم الله، فاتاها
وعيد القرى من رها . فاستوثقوا وأعدلوا ولا تملوا، وأسمعوا وأطيعوا، وشايعوا
وبايعوا .

وآعلموا أن ليس مني الإكثار والإهذار ولا مع ذلك التفار ولا الفرار؛ إنما هو
انتضاء هذا السيف، ثم لا يُغمد الشتاء ولا الصيف، حتى يندل الله لأمر المؤمنين
عنكم، ويُقيم له أودكم وصعركم . ثم إني وجدت الصدق من البر، ووجدت البر
في الجنة، ووجدت الكذب من الفجور، ووجدت الفجور في النار . وإن
أمير المؤمنين أمرني أن أعطيكم أعطيائكم، وأشخصكم لمجاهدة عدوكم وعدو أمير
المؤمنين؛ وقد أمرت لكم بذلك وأجلكم ثلاثا، وأعطيت الله عهدا يؤاخذني به
ويستوفيه مني: لئن تخلف منكم بعد قبض عطائه أحد لأضربن عنقه وأنهبن ماله .

ثم ألفت إلى أهل الشام فقال أتم البطانَةُ والعشيرة ! والله لريحكم أطيّب من ريح المسك الأذفر، وإنما أتم كما قال الله تعالى ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الآية .
وَأَلْفَتَ إِلَى أَهْلِ الْعِرَاقِ فَقَالَ وَاللَّهِ لَرِيحُكُمْ أَتَنُّ مِنْ رِيحِ الْأُبْحَرِ، وَإِنَّمَا أْتَمُّ كَمَا قَالَ اللَّهُ ﴿وَمِثْلَ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ الآية .

ومن خطبه لما قدم البصرة يتهدّد أهل العراق ويتوعدهم :
أيها الناس : من أعياه داؤه فعندى دواؤه ! ، ومن آستطال أجله ، فعلى أن أُعجله ؛
ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله ، ومن آستطال ماضي عمره قصرت عليه
باقيه . إن للشيطان طيفا ، وللسلطان سيفا ! ، فمن سقمت سيرته ، صحت عقوبته ؛
ومن وضعه ذنبه ، رفعه ضلّبه ؛ ومن لم تسعه العافية ، لم تضق عنه الهلكة ؛ ومن سبقته
بادرة فمه ، سبق بدنه بسفك دمه ؛ إني أنذرتكم لا أنظر ، وأحذرتكم لا أعذر ؛ وأتوعد
كم لا أعفو . إنما أفسدكم ترنيق ولاتكم ؛ ومن آسترخى لبه ، ساء أدبه . إن الحزم
والعزم سكا في وسطى ، وأبدلاني به سيفي : فقامه في يدي ، وبنجاده في عنقي ، وذبابه
قلادة لمن عصاني ! ؛ والله لا أمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد
فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه .

ولعمر بن عبد العزيز ، وسليمان بن عبد الملك من خلفاء بني أمية ؛ وأبي جعفر
المنصور ، وهارون الرشيد ، وآبئنه المأمون من خلفاء بني العباس وغيرهم ، من خلفاء
الدولتين وأمراءهم خطب فائقة ، وبلاغات معجبة رائقة ، يضيق هذا الكتاب
عن إيرادها ، وقد أوردنا من ذلك ما فيه كفاية للبيب ، ومقنع للأريب .

ومن خطب أبي بكر بن عبد الله أمير المدينة النبوية على ساكنها أفضل
الصلاة والسلام ، والتحية والإكرام ، وقد بلغه عن قوم من أهل المدينة أنهم يتالون
من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويُسعِفُهُمْ آخرون على ذلك :

أيها الناس ! إني قائل قولاً فمن وعاه وأذاه فعلى الله جزاؤه ، ومن لم يعه فلا يعد من ذمامها ؛ إن قصرتم عن تفصيله ، فإن تعجزوا عن تحصيله . فأرعوه أبصاركم وأوعوه أسماعكم وأشعروه قلوبكم ؛ فالموعظة حياة ؛ والمؤمنون إخوة ؛ وعلى الله قصد السبيل ولو شاء لهداكم أجمعين . فأتوا الهدى تهتدوا ، واجتنبوا النى ترشدوا . وأنيبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون . والله جل جلاله . وتقديست أسمائه أمركم بالجماعة ورضيها لكم . ونهاكم عن الفرقة وخطها منكم . فاتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا وأذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها . جعلنا الله وإياكم من يتبع رضوانه ويحجب سخطه فإننا نحن به وله . وإن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالدين ، واختاره على العالمين ، واختاره أصحابا على الحق وزرأه دون الخلق . إختصهم به وأنتخبهم له ، فصدقوه ونصروه وعزروه ووقروه ؛ فلم يقدموا إلا بأمره ، ولم يججموا إلا عن رأيه ، وكانوا أعوانه بعهد ، وخلفاءه من بعده . فوصفهم فأحسن وصفهم وذكركم فاشئ عليهم فقال وقوله الحق ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار ﴾ إلى قوله ﴿ مغفرة وأجرًا عظيماً ﴾ فمن غاظه كفر وخاب وبخر وخسر . وقال الله جل وعز ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ﴾ إلى قوله ﴿ ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ فمن خالف شريطة الله عليه لهم وأمره إياه فيهم فلا حق له في النى ، ولا سهم له في الإسلام في آى كثيرة من القرآن ، ففرق مارقة من الدين . وفارقوا المسلمين وجعلوهم عييين . وحرزوا أحزاباً ، أشابات وأوشاباً . نخالفوا كتاب الله فيهم نخابوا وخسروا

(١) كذا فى الأصل ولكن باهال الباء من يعد ولعل مراده فلا يخرج عن حرمتها أى المقالة .

الدنيا والآخرة . ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِين . أَقْمَنَ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَذِبَ زَيْنِ لَهُ
سُوءُ عَمَلِهِ وَاَتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ . مَالِي أَرَىٰ عِيُونًا تُحْزِرًا ، وَرِقَابًا صُعْرًا ، وَبَطُونًا يَجْرِي ،
شَجِيحًا لَا يُسِيغُهُ الْمَاءُ ، وَدَاءٌ لَا يُشْرَبُ فِيهِ الدَّوَاءُ . أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ
كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ . كَلَّا وَاللَّهِ بَلْ هُوَ الْهِنَاءُ وَالطَّلَاءُ حَتَّىٰ يَظْهَرَ الْعُذْرُ ، وَيُوحِ
السِّرَّ ، وَيَضْحَع الْعَيْبَ ، وَيَشُوسَ الْجَيْبَ . فَإِنَّكُمْ لَمْ تُخْلَقُوا عِبْنَا وَلَمْ تَتْرَكُوا سُدَىٰ ،
وَيَحْكُمَ إِنِّي لَسْتُ أَتَاوِيًّا أُعْلَمُ ، وَلَا بَدْوِيًّا أَفْهَمُ . قَدْ حَلَبْتُمْ أَشْطُرًا ، وَقَلَبْتُمْ أَبْطُنًا
وَأَظْهَرًا . فَعَرَفْتُمْ أَنْحَاءَكُمْ وَأَهْوَاءَكُمْ ، وَعَلِمْتُمْ أَنْ قَوْمًا أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ بِالسُّتْمِ ،
وَأَسْرَوْا الْكُفْرَ فِي قُلُوبِهِمْ ، فَضَرَبُوا بَعْضُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
بِبَعْضٍ ، وَوَلَدُوا الرِّوَايَاتِ فِيهِمْ ، وَضَرَبُوا الْأَمْثَالَ ، وَوَجَدُوا عَلَىٰ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ
الْجَهْلِ مِنْ أَبْنَائِهِمْ أَعْوَانًا يَأْتُونَ لَهُمْ ، وَيَصْعَقُونَ إِلَيْهِمْ ، مَهْلًا مَهْلًا ! قَبْلَ وَقُوعِ
القَوَارِعِ وَطُولِ الرِّوَايَةِ . هَذَا لِهَذَا وَمَعَ هَذَا ، فَلَسْتُ أَعْتَشُ أَنْبَا وَلَا تَائِبًا ، عَقَّا اللَّهُ
عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ . فَاسِرُّوا خَيْرًا وَأَظْهَرُوهُ ،
وَأَجْهَرُوا بِهِ وَأَخْلَصُوهُ . وَطَالَمَا مَشَيْتُمُ الْقَهْقَرَىٰ نَاكِسِينَ . وَلْيَعْلَمْ مَنْ أَدْبَرَ وَأَصْرَّ
أَنَّهَا مَوْعِظَةٌ بَيْنَ يَدَيْ نِقْمَةٍ ، وَلَسْتُ أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ هَوَىٰ يَتَّبِعُ ، وَلَا إِلَىٰ رَأْيٍ يَبْتَدِعُ .
إِنَّمَا أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ الطَّرِيقَةِ الْمَثَلِيَّةِ ، الَّتِي فِيهَا خَيْرُ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ، فَمَنْ أَجَابَ فَلِي رُشْدُهُ ،
وَمَنْ عَمِيَ فَعَنَ قَصْدُهُ . فَهَلُمَّ إِلَى الشَّرَائِعِ ، الْجَدَائِعِ ، وَلَا تَوَلُّوا عَنْ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ،
وَلَا تَسْتَبَدِّلُوا الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ (نَسْ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا) . إِنِّي أَيْدِيكُمْ وَبُنْيَاتِ
الطَّرِيقِ ، فَعِنْدَهَا التَّرْنِيقُ وَالتَّرْهِيقُ . وَعَلَيْكُمْ بِالْجَادَةِ فَهِيَ أَسَدُّ وَأُورِدُ ، وَدَعُوا الْأَمَانِيَّةَ

(١) لعله يُجْرَا جمع أجمروالبحر عظم البطن .

(٢) الأتاوي الغريب الذي ليس في وطنه .

(٣) أى أظلم راجعا ولا تائبا عما حصل . ووقع في الأصل أعيش وهو تصحيف لا معنى له هنا .

فقد أودت من كان قبلكم . وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . والله الآخرة والأولى .
ولا تفتروا على الله الكذب فيسحقكم بعدايب وقد حاب من أفتري . ربنا لا تزيغ قلوبنا
بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

ومن خطب خالد بن عبد الله أمير البصرة : أيها الناس ! نافسوا في المكارم
وسارعوا إلى المغامم . واشتروا الحمد بالجود ، ولا تكسبوا بالمطل ذمًا ، ولا تعتدوا
بالمعروف ما لم تعجلوه ، ومهما يكن لأحد منكم عند أحد منعمة فلم يبلغ شكرها ، فالله
أحسن لها جزاء ، وأجزل عليها عطاء . وأعلموا أن حوائج الناس إليكم ، نعمة من
الله عليكم ؛ فلا تملوا النعم فتحوّلوا نقيًا . وأعلموا أن أفضل المال ما أكسب أجرا ،
وأورث ذكرا . ولورأيت المعروف رجلا ، رأيتوه حسنا جميلا يسر الناظرين .
ولو رأيت البخل رجلا ، رأيتوه مشوها قبيحا تنفر عنه القلوب ، وتغضي عنه الأبصار .
أيها الناس ! إن أجود الناس من أعطى من لا يرجوه ، وأعظم الناس عفوا من
عفا عن قدرة ، وأوصل الناس من وصل من قطعه ؛ ومن لم يطب حرثه لم يرك
نبتة ؛ والأصول عن معارسها تنمو ، وبأصولها تسمو . أقول قولي هذا وأستغفر الله
لي ولكم .

ومن خطب قطري بن الفجاءة خطبته المشهورة في ذم الدنيا والتحذير
عنها ، وهي :

أما بعد : فإني أحذركم الدنيا ، فإنها حلوة خصرة ، حفت بالشهوات ، وراقت
بالقليل . وتحببت بالعاجلة ، وحليت بالآمال ، وتزينت بالغرور . لا تدوم نضرتها ،
ولا تؤمن بجمعها . غرارة ، ضرارة . وخاتلة ، زائلة . وناقصة ، بائدة . أكالة ،
عوالة . لا تعدوا إذا تاهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها والرضا عنها أن تكون كما قال
الله تعالى ﴿ كجاء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه

الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا) مع أن أمرًا لم يكن منها في حبرة، إلا أعقبته بعدها عبرة؛ ولم يلق من سرائها بطنا، إلا منحتَه من ضرائها ظهرا. ولم تصله غيثة رخاء، إلا هطلت عليه مزنَةٌ بلاء. وحرية إذا أصبحت له متصرة أن تُسمى له خاذلة متكررة. وأي جانب منها أعدوذب وأحلولى، أمر عليه منها جانب وأوبا. فإن آتت أمراً من غصونها ورقاً أرهقته من نوائها تعباً. ولم يُميس منها أمراً في جناح أمن إلا أصبح منها على قوادم خوف؛ غرارة غرور ما فيها؛ فانية، فإن من عليها؛ لا خير في شيء من زادها إلا التقوى. من أقل منها استكثر مما يؤمنه. ومن استكثر منها، استكثر مما يوبقه ويُطيل حزنه، ويُبكي عينه. كم واثق بها قد بفعته، وذى حُكم ثنته إليها قد صرعتَه، وذى أختيال فيها قد خدعتَه. وكم ذى أبهة فيها قد صيرتَه حقيراً، وذى نخوة قد ردتَه ذليلاً. ومن ذى تاج قد كبتَه للدين والغم. سلطانها دُول. وعيشها رنق، وعذبها أجاج، وحلواها صبر، وغذاؤها سمام، وأسبابها رمام. قِطافُها سَلَع. حيثُها بعرض موت، وصحيحُها بعرض سُقم. منيعُها بعرض آهتضام. ومُلكُها مسلوب، وعزيزُها مغلوب. وسليمُها منكوب، وجارُها محروب. مع أن وراء ذلك سكرات الموت، وهول المُطلع، والوقوف بين يدي الحُكْم العَدْل (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى). أَلَسْتُمْ فِي مَسَاكِنٍ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَارًا، وَأَوْضَحَ مِنْكُمْ آثَارًا، وَأَعَدَّ عَدِيدًا، وَأَكْتَفَى جُنُودًا. وَأَشَدَّ عُنُودًا. تَعْبُدُوا لِلدُّنْيَا أَى تَعْبُدُوا، وَأَثْرُهَا أَى إِثَارًا، وَظَعَنُوا عَنْهَا بِالْكِرْهِ وَالصَّخَارِ. فَهَلْ بَلَّغَكُمْ أَنَّ الدُّنْيَا سَمَّ حَمَّتْ لَهَا نَفْسًا بَفْدِيَةٍ، أَوْ أَغْنَتْ عَنْهَا فِيمَا قَدْ أَهْلَكْتُمْ بِخَطْبِ بِلْ أَرْهَقْتُمْ بِالْقَوَادِحِ، وَضَعَضْتُمْ بِالنَّوَائِبِ،

(١) في غير هذا الكتاب ولم تطله من الطل. ويظهر أن غيثة مصحفة عن غيبة. والغيبة الدفعة من المطر.

(٢) في نسخة وأولى.

وعقرتهم بالفجائع . وقد رأيتم تتكروها لمن رادها وآثرها وأخذ إليها ، حين ظعنوا عنها لفراق إلى الأبد إلى آخر الأمد . هل زودتهم إلا السغب ؟ ، وأحلتهم إلا الضنك ، أو نورت لهم إلا الظلمة ، أو أعقبتهم إلا الندامة ؟ أفهذه تؤثرون ، أم على هذه تحرصون أم إليها تطمئنون ؟ . يقول الله جل ذكره ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهَا أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ ﴾ بنست الدار لمن أقام فيها ! فاعلموا إذ أنتم تعلمون أنكم تاركوها الأبد ، فإنما هي كما وصفها الله تعالى باللعب واللهو ، وقد قال تعالى ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ .

إلى غير ذلك من خطب خلفاء الدولتين وأمرائهم مما يطول القول بإيراده ، ويخرج الكتاب بذكره عن حده .

المقصد الثاني

(في كيفية تصرف الكاتب في الخطب)

قد تقدم في أول المقصد الأول من هذا النوع قول أبي هلال العسكري : إن الرسائل والخطب متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية والمشاكل في الفواصل وإن الخطب يشافه بها بخلاف الرسالة ، والرسالة تجعل خطبة والخطبة تجعل رسالة في أيسر كلفة . وحينئذ إذا أراد الكاتب نقل الخطبة إلى الرسالة أمكنه ذلك ، فإذا أكثر صاحب هذه الصناعة من حفظ الخطب البليغة ، وعلم مقاصد الخطابة وموارد الفصاحة ومواقع البلاغة ، وعرف مصابيح الخطباء ومشاهيرهم ، أتسع له المجال في الكلام وسهأت عليه مستوعرات النثر ، ودللت له صعب المعاني ، وفاض على لسانه في وقت الحاجة ما كمن من ذلك بين ضلوعه فأودعه في ثره ، وضمنه في رسائله ،

فاستغنى عن شغل الفكر في استنباط المعاني البديعة، ومشقة التعب في تتبع الألفاظ الفصيحة، التي لا تنهض فكرته بمثلها ولو جهد، ولا يسمع خاطره بنظيرها ولو دأب. إن الخطب جزء من أجزاء الكتابة، ونوع من أنواعها، يحتاج الكتاب إليها في صدور بعض المكاتبات، وفي البيعات والعهود والتقاليد والتفاويض وكرار التواقيع والمراسيم، والمناشير، على ماسياتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى؛ وما لعله ينشئه من خطبة صداق أو رسالة أو نحو ذلك. وكذلك يعرف مصابيح الخطباء، ومشاهير الفصحاء، والبلغاء، كقُتس بن ساعدة الإيادي الذي تقدمت خطبته أنفا في صدر الخطب. وسحبان الوائلي: وهو رجل من بني وائل، لسن بليغ يضرب به المثل في البيان، وغيرهما ممن يضرب به المثل في الفصاحة والبلاغة؛ ومن ينسب إلى العي والغباوة بكامل: وهو رجل من العرب اشترى ظيبا بأحد عشر درهما فقيل له بكم اشتريته ففتح كفيه وفتق أصابعه العشرة وأخرج لسانه؛ يشير بذلك إلى أحد عشر ولم يحسن التعبير عنها، فانفلت الظبي فضرب به المثل في العي. فإذا عرف البليغ وغير البليغ، وعالي الرتبة وسافلها، عرض حينئذ بذكر من أراد منهم مقاييسا للفاضل بمثله، وللغي بنظيره: كما قال القاضي الفاضل في بعض رسائله، في جواب كتاب ورد عليه من بعض إخوانه:

فأما شوقه لعبده فالمولى قد أبقاه الله قد أوتي فصاحة لسان. وسحب ذيل العي على سحبان.

وكما قال الشيخ ضياء الدين أحمد القرطبي من رسالة كتب بها للشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد، يصف رسالة وردت منه عليه: إن كلها يمس في صدورها وأعجازها، وتثالث عليها أعراض المعاني بين إسبابها وإيجازها؛ فهي فرائد آتلفت في أبقار الوائلي والإيادي.

النوع التاسع

(١) مما يحتاج إليه الكاتب من حفظ جانب جيد من مكاتبات الصدر الأول، ومحاوراتهم، ومراجعاتهم، وما آدعاه كل منهم لنفسه أو لقومه، والنظر في رسائل المتقدمين : من بلغاء الكتاب ؛ وفيه ثلاثة مقاصد

المقصد الأول

(في وجه احتياج الكاتب إلى معرفة ذلك)

أما حفظ مكاتبات الصدر الأول ورسائلهم فلأنها مع (٢) مبتدع البلاغة وكثر الفصاحة غير ملائمة لطريقة الكتاب في أكثر الأمور ؛ فيستعان بحفظها على مواقع البلاغة ولا يطمع الخاطر بالأتكال على إيراد فصل منها برمته لمخالفته لأسلوب الكتاب في أكثر الأمور .

وأما النظر في رسائل البلغاء من فضلاء الكتاب، فلما في ذلك من تنقيح القريحة، وإرشاد الخاطر، وتسهيل الطرق، والنسج على منوال المجيد، والافتداء بطريقة المحسن، وأستدراك مافات، والاحتراز مما أظهره النقد، ورد ما بهرجه السبك . وأقتصر على النظر فيها دون حفظها لثلاث يتكل الخاطر على ما يأتي به بأصله مما ليس له فيتشبع بما لم يعط فيكون كلابس ثوبي زور . اللهم إلا أن يريد بحفظها المحاضرة دون الإنشاء فإن اللائق به الحفظ دون غيره .

(١) كذا بالأصل بزيادة من وفي الضوء إسقاطها وهو الصواب .

(٢) بياض بالأصل .

المقصد الثاني

(في ذكر شيء من مكاتبات الصدر الأول يكون مدخلا إلى معرفة

ما يحتاج إلى حفظه من ذلك)

أما مكاتباتهم المشتملة على المحاورة والمراجعة ، فمنها ما كتب به معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه إلى أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه في زمن المشاجرة بينهما ، وهي ^(١) :

أما بعد ، فإن الله أصطفى محمداً ، وجعله الأمين على وحيه ، والرسول إلى خلقه ؛ وأختار له من المسلمين أعواناً أيده بهم ، وكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الإسلام ؛ فكان أفضلهم في الإسلام ، وأنصحهم لله ولرسوله الخليفة ، وخليفة الخليفة ، والخليفة الثالث ؛ فكلهم حسدت ، وعلى كلهم بغيت . عرفنا ذلك في نظرك الشزر ، وتنفسك الصعداء ، وإبطائك على الخلفاء ، وأنت في كل ذلك تُقاد كما يُقاد البعير الخشوش حتى تُبايع وأنت كاره ، ولم تكن لأحد منهم أشد حسداً منك لأبن عمك عثمان ، وكان أحقهم أن لاتفعل ذلك به ، في قرابته وصهره ؛ فقطعت رحمة ، وقبحت محاسنه ، وألبت عليه الناس حتى ضربت إليه أباط الإبل ، وشهر عليه السلاح في حرم الرسول ، فقتل معك في المحلة وأنت تسمع في داره الهائعة ؛ لاتؤدى عن نفسك في أمره بقول ولا فعلٍ يرّ ؛ أقسم قسماً صادقا ! لو قتت في أمره مقاما واحداً تنهين الناس عنه ، ما عدل بك ممن قبلنا من الناس أحد ، ولمحاً ذلك عنك ما كانوا يعرفونك به : من المجانبة لعثمان والبغى عليه . وأخرى أنت بها عند أولياء

(١) كتاب معاوية بيض له في الأصل فتقناؤه من العقد الفريد لأبن عبد ربه جزء ٢ صحيفة ٢٨٥

(٢) أى المجهول فيه الخشاش . وهو عود يجعل في عظم أنف البعير . مضياح .

(٣) الهائعة الصوت المنزع .

ابن عفان ضنين ، إيواؤك قتلة عثمان ، فهم بطانتك ، وعضدك وأنصارك . فقد بلغني أنك تنفي من دمه فإن كنت صادقا فادفع إلينا قتله تقتلهم به . ثم نحن أسرع الناس إليك ، وإلا فليس لك ولا لأصحابك عندنا إلا السيف ! والذي نفس معاوية بيده لأطبن قتلة عثمان في الجبال ، والرمال ، والبر ، والبحر ؛ حتى تقتلهم أو تلحق أرواحنا بالله ! .

فكتب إليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه في جواب ذلك :

أما بعد فقد أتاني كتابك ! تذكرفيه أصطفاء الله تعالى مجدا صلى الله عليه وسلم لدينه وتأييده إياه بمن أيده به من أصحابه ، فلقد خبا لنا الدهر منك عجباً ! أطفقت نخبرنا بألاء الله عندنا ، فكنت ككافل التمر إلى هجر أو داعي مدره إلى النضال ؛ وزعمت أن أفضل الناس في الإسلام فلان وفلان فذكرت أمرا إن تم أعتلك كله ، وإن نقص لم يلحقك قلبه ؛ وما أنت والفاضل والمفضول والسائل والمسئول ! . وما للطلقاء وأبناء الطلقاء والتمييز بين المهاجرين الأولين ، وترتيب درجاتهم ، وتعريف طبقاتهم ؛ هيئات لقد حن قدح ليس منها ، وطبق يحكم فيها من عليه الحكم لها ، ألا تربع على ظلك ، وتعرف قصور ذرعك ، وتتأخر حيث أتحرك القدر ، فما عليك غلبة المغلوب . ولا لك ظفر الظافر . وإنك لذهب في التيه ، رواغ عن القصد . ألا ترى غير مخبرك ولكن بنعمة الله أحدث ، أن قوما استشهدوا في سبيل الله ولكل فضل حتى إذا استشهد شهيدنا قيل سيد الشهداء ، وخصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبعين تكبيرة عند صلاته عليه ، أولا ترى أن قوما قطعت أيديهم في سبيل الله ولكل فضل حتى إذا فعل بواحد منا ما فعل بواحد منهم قيل الطيار في الجنة وذو الجناحين ، ولولا ما نهى عن تزكية المرء نفسه لذكر ذا كرفضائل جمّة ،

تعرفها قلوبُ المؤمنين ، ولا تمجّها آذان السامعين . فذع عنك من مالت به الرمية
 فإننا صنائع ربنا ، والناس بعدُ صنائع لنا ، لم يمنعنا قديمُ عزنا ، ومديد طَوْلنا على قومك
 أن خلطناهم بأنفسنا : فنكحنا وأنكحنا ، فَعَل الأَكفَاء ولستم هناك ، وأنى يكون
 ذلك كذلك ! ومنا النبي ومنكم المكذب ، ومنا أسدُ الله ومنكم أسدُ الأحلاف ، ومنا
 سيدا شبابِ أهل الجنة ، ومنكم صبية النار ، ومنا خير نساء العالمين ، ومنكم حمالة
 الحطب ، فإسلامنا قد سمع وجاهلينا لا تدفع ، كتابُ الله يجمع لنا ما شدَّ عنا وهو قوله
 سبحانه وتعالى ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ وقوله تعالى
 ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾
 فتحن مرةً أولى بالقرابة وتارة أولى بالطاعة . ولما أحتج المهاجرون على الأنصار
 يوم السقيفة برسول الله صلى الله عليه وسلم فلقجوا عليهم ، فإن يكن الفلج به فالحق
 لنا دونكم ، وإن يكن بغيره فالأنصار على دعواهم . وزعمت أنى لكل الخلفاء
 حسدت ، وعلى كلهم بغيتُ ، فإن يك ذلك كذلك فليست الجناية عليك ، فتكون
 المعذرة إليك * وتلك شكاةٌ ظاهرٌ عنك عارها *

وقلت إنى كنتُ أفاد كما يُقاد الجمل الخشوش حتى أبايع . ولعمرك الله ! لقد
 أردت أن تدم فحمدت ، وأن تفضح فأفتضحت ؛ وما على المسلم من غضاضة
 في أن يكون مظلوما ما لم يكن شاكاً في دينه ، ولا مُرتاباً في يقينه . وهذه حجتي إلى
 غيرك قصدها ، ولكنى أطلقتُ لك منها بقدر ما سنع لك من ذكراها .

ثم ذكرت ما كان من أمرى وأمر عثمان ، فأينا كان أعدى له وأهدى إلى مقابله :
 أمن بذل له نصرته فأستعمده وأستكفّه أم من استنصره فتراخى عنه وبثَّ المنون
 إليه ، حتى أتى قدره عليه . كلا والله ! لقد علم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم
 هممٌ إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا . وما كنتُ أعتذر من أنى كنتُ أنقم عليه

أحدانا فإن يكن الذنب إليه إرشادى وهدايتى له "فُرِّبَ مَلُومٌ لاذنبَ له . وقد يَسْتَفِيدُ
الظَّنَّةَ الْمُتَّصِحَّ" وما أردتُ إلا الإصلاحَ ما أَسْتَطَعْتُ وما تَوْفِيقِي إلا بالله عليه
تَوَكَّلْتُ وإليه أُنِيبُ .

وذكرت أنه ليس لى ولأصحابى إلا السيف فلقد أضحكت بعد أستعبار ! متى
ألفيت بنى عبد المطلب عن الأعداء ناكلين؟ أو بالسيوف مخوفين .
(و) لَبَّثَ قَلِيلًا يَلْحَقِ أَهْيَجًا حَمَلٌ * سَيَطْلُبُكَ مَنْ تَطْلُبُ ، وَيَقْرُبُ مَنْكَ مَا تَسْتَبْعِدُ ،
وأنا مَرُّ قِلٍ نَحْوَكِ فِي بَحْفَلٍ مِنَ الْمَهَاجِرِينَ ، وَالْأَنْصَارِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ ، شَدِيدٍ
زَحَامِهِمْ ، سَاطِعِ قَتَامِهِمْ ، مُسْرَبِلِينَ سِرَابِيلَ الْمَوْتِ . أَحَبُّ اللَّقَاءِ إِلَيْهِمْ لِقَاءُ رَبِّهِمْ .
قد صحبتهم ذُرِّيَّةَ بَدْرِيَّةٍ وَسُيُوفِ هَاشِمِيَّةٍ قَدْ عَامَتِ مَوَاقِعَ نِصَالِهَا فِي أَخِيكَ وَخَالِكَ ،
وَجَدَّكَ ، وَأَهْلَكَ (وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِنَعِيدٍ) .

وكما كتب "أبو جعفر المنصور" ثانى خلفاء بنى العباس ، وهو يومئذ خليفة ،
إلى محمد بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ، حين بُويعَ له بِالْخِلَافَةِ
وخرج على المنصور يريد أتراعها منه . من عبدالله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن
عبد الله . أما بعد : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ
فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ
الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ
قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . ولك ذمَّة الله وعهده وميثاقه
وحقُّ نبيه محمد صلى الله عليه وسلم إن بُتَّ من قبل أن يُقدَّرَ عليك أن أوْثَمَكَ على
نفسك وولدك وإخوتك ومنْ بايعك وجميع شيعتك ، وأن أعطيك ألف ألف
درهم ، وأنزلك من البلاد حيث شئت ، وأقضى لك ماشئت من الحاجات ، وأن
أطلق منْ فى سجنى من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك ، ثم لا أتبع أحدا منك بمكروه

وإن شئت أن تتوَقَّ لِنَفْسِكَ فوجِّهه إلى من يأخذ لك من الميثاق والعهد والأيمان ما أحببت . والسلام .

فأجابه محمد بن عبد الله بما نصه :

من محمد بن عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الله بن محمد . أما بعد : ﴿ طَسَمَ ، تَلَكَّ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ نَتَلَوُا عَلَيْكَ مِنْ نَبِيٍّ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذِخُّ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ . وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي أعطيتني ، فقد تعلم أن الحقَّ حقنا ، وأنكم إنما أُعطيتموه بنا ، ونهضتم فيه بسعينا وحطُّتموه بفضلنا ، وأن أبانا عليا عليه السلام ، كان الوصيَّ والإمام ، فكيف ورثتموه دوننا ، ونحن أحياء ! وقد علمت أنه ليس أحد من بني هاشم يُمِّتُ بمثل فضلنا ولا يفخر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا ، وإنا بنو أم أبي رسول الله : فاطمة بنت عمرو في الجاهلية دونكم ، وبنو آبنته فاطمة في الإسلام من بينكم ، فأنا أوسط بني هاشم نسباً ، وخيرهم أما وأبا ، لم تلدني العجم ، ولم تُعرق في أمهات الأولاد . وإن الله عز وجل لم يزل يختار لنا قَوْلَ دُنِي من النبيين أفضلهم : محمد صلى الله عليه وسلم . ومن أصحابه أقدمهم إسلاما ، وأوسعهم علما ، وأكثرهم جهادا : علي بن أبي طالب ، ومن نسائه أفضلهن : خديجة بنت خويلد أول من آمن بالله وصلى إلى القبلة ، ومن بناته أفضلهن ، وسيدة نساء أهل الجنة ، ومن المولودين في الإسلام الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة . ثم قد علمت أن هاشما ولد عليا مرتين ، وأت عبد المطلب ولد الحسن والحسين مرتين ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولَدَنِي مَرَّتَيْنِ مِنْ قِبَلِ جَدِّي الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ ، فَمَا زَالَ الْإِلَهُ يُخْتَارُنِي حَتَّى آخْتَارُنِي فِي النَّارِ فَوَلَدَنِي أَرْفَعُ النَّاسَ دَرَجَةً فِي الْجَنَّةِ ، وَأَهْوَنُ أَهْلَ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؛ فَأَنَا أَبُو خَيْرِ الْأَخْيَارِ ، وَأَبْنُ خَيْرِ الْأَشْرَارِ ، وَأَبْنُ خَيْرِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَأَبْنُ خَيْرِ أَهْلِ النَّارِ . وَلِكِ عَهْدُ اللَّهِ إِنْ دَخَلْتَ فِي بَيْعَتِي أَنْ أَوْمَنْكَ عَلَيَّ نَفْسَكَ وَوَلَدِكَ وَكُلَّ مَا أَصَبْتَهُ إِلَّا حَدًّا مِنْ حُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى ، أَوْ حَقًّا لِمُسْلِمٍ أَوْ مَعَاهِدٍ . فَقَدْ عَلِمْتَ مَا يَلْزِمُكَ فِي ذَلِكَ فَأَنَا أَوْفَى بِالْعَهْدِ مِنْكَ ، وَأَنْتَ أَحْرَى بِقَبُولِ الْأَمَانِ مِنِّي . فَأَمَا أَمَانُكَ الَّذِي عَرَضْتَ عَلَيَّ فَأَيُّ الْأَمَانَاتِ هُوَ ؟ أَأَمَانُ أَبِي هَبِيرَةَ ، أَمْ أَمَانُ عَمِّكَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ ، أَمْ أَمَانُ مُسْلِمٍ وَالسَّلَامُ .

فأجابه المنصور : من عبدالله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله ، أما بعد فقد أتاني كتابك ، وبلغني كلامك ، فإذا جُلُّ نَفْرِكَ بِالنِّسَاءِ ، لَتُضِلَّ بِهِ الْجُفَاءُ وَالغَوَاةُ ، وَلَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ النَّسَاءَ كَالْعُمُومَةِ ، وَلَا الْآبَاءَ كَالْعَصْبَةِ وَالْأَوْلِيَاءِ . وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْعَمَّ أَبَا ، وَبَدَأَ بِهِ عَلِيُّ الْوَالِدِ الْأَدْنَى . فَقَالَ جُلُّ ثَنَاؤِهِ عَنْ نَبِيِّهِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ .

ولقد علمت أن الله تبارك وتعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم ، وعمومته أربعة فأجاب اثنين أحدهما أبي ، وكفر اثنين أحدهما أبوك .

وأما ما ذكرت من النساء وقرباتهم ، فلو أعطيت علي قدر الأنساب ، وحقَّ الأحساب ، لكان الخير كله لآمنة بنت وهب ، ولكن الله يختار لدينه من يشاء من خلقه .

وأما ما ذكرت من فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب ، وفاطمة بنت الحسين وأن هاشما ولد عليا مرتين ، وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين ، نفي الأولين

والآخرين رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يَلِدْه هاشم إلا مرة واحدة ، ولم يَلِدْه عبد المطلب إلا مرة واحدة .

وأما ما ذكرت من أنك ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الله عز وجل قد أبى ذلك فقال ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ ولكنكم قرابة آبنته ، وإنها قرابة ذريته ، غير أنها امرأة لا تحوز الميراث ، ولا يجوز أن تُؤمَّ فكيف تُورث الإمامة من قبلها ! ولقد ظلمها أبوك من كل وجه فأخرجها تُخَاصِمَ ، ومَرَّضها سراً ، ودفنها ليلاً ، فأبى الناس إلا تقديم الشيخين . ولقد حضر أبوك وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر بالصلاة غيره . ثم أخذ الناس رجلاً فلم يأخذوا أباك فيهم . ثم كان في أصحاب الشورى فكلُّ دفعه عنها ، وبايع عبد الرحمن عثمان وقبلها عثمان وحارب أباك طلحة والزبير ، ودعا سعدا إلى بيعته فأغلق بابه دونه . ثم بايع معاوية بعده ، وأفضى أمر جدك إلى أبيك الحسن فسلمه إلى معاوية بحرق ودراهم وخرج إلى المدينة ، فدفع الأمر إلى غير أهله ، وأخذ ما لا من غير حله . فإن كان لكم فيها شيء فقد بتموه .

وأما قولك إن الله آختر لك في الكُفْرِ فجعل أبوك أهون أهل النار عذابا فليس في الشر خيار ، ولا من عذاب الله هين ، ولا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يفتخر بالنار . سترد فتعلم ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ .

وأما قولك إنه لم تلدك العجم ، ولم تُعرق فيك أمهات الأولاد ، وإنك أوسط بنى هاشم نسبا ، وخيرهم أمًّا وأبا ، فقد رأيتك نُحِرْتَ على بنى هاشم طراً ، وقدمت نفسك على من هو خير منك أولاً وآخرًا ، وأصلاً وفصلاً . نُحِرْتَ على إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى والد ولده ، فانظر ويحك أين تكون من الله تعالى غداً وما أولد فيكم مولود بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من على

ابن الحسين وهو لأُم ولد، ولقد كان خيرا من جدك حسن بن حسن. ثم ابنه محمد بن
 علي خير من أبيك وجدته أم ولد. ثم ابنه جعفر وهو خير منك ولدته أم ولد.
 ولقد علمت أن جدك عليا حَكَمَ حَكِيمِينَ وَأَعْطَاهُمَا عَهْدَهُ وَمِيثَاقَهُ عَلَى الرضا بما حَكَمَا
 به فأجتمعا على خلعه، ثم خرج عمك الحسين على ابن مرجانة وكان الناس معه
 عليه حتى قتلوه، ثم أتوا بكم على الأفتاب من غير أوطية كالتسبي المجلوب إلى الشام.
 ثم خرج منكم غير واحد فقتلكم بنو أمية وحرَقوكم بالنار وصلَبوكم على جذوع النخل
 حتى خرجنا عليهم فأدركنا بشاركم إذ لم تُدرِكوه، ورفعنا أقداركم، وأورثناكم أرضهم
 وديارهم بعد أن كانوا يلعنون أباك في أدبار الصلاة المكتوبة كما تلعن الكفرة فنحنهم
 وكفروناهم، وبيننا فضله وأشدنا بذكره، فأتخذت ذلك علينا حجة، وظننت أنا بما
 ذكرنا من فضل علي قدمناه على حمزة والعباس وجعفر، كل أولئك مضوا سالمين
 سلما منهم وأبنتي أبوك بالكرماء. ولقد علمت أن ماثرنا في الجاهلية سقاية الحاج
 الأعظم، وولاية زمزم، وكانت للعباس دون إخوته فزاع فيها أبوك إلى عمر
 ففضي لنا عمر بها. وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس من عمومته أحد حيا
 إلا العباس فكان وارثه دون بنى عبد المطلب، فطلب الخلافة غير واحد من بنى
 هاشم فلم ينلها إلا ولده. فأجتمع للعباس أنه أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم
 الأنبياء، وبنوه القادة الخلفاء، فقد ذهب بفضل القديم والحديث، ولولا العباس
 أخرج إلى بدر كرها مات عمك طالب وعقيل جوعا أو يتجشمان جفان عتبة وشيبة،
 فأذهب عنهما العار والشنار. ولقد جاء الإسلام والعباس يمون أبا طالب للأزمة
 التي أصابهم. ثم فدى عقيل يوم بدر فقد مناكم في الكفر، وفديناكم من الأسر،
 وورثنا دونكم خاتم الأنبياء، وحزنا شرف الآباء، وأدركنا بشاركم إذ عجزتم عنه
 ووضعناكم حيث لم توضعوا أنفسكم والسلام.

ومن مكاتبات ملوك الفرس البلغاء ما كتب به أرسطوطاليس إلى الإسكندر :
 إنه إنما تملك الرعية بالإحسان إليها، وتظفر بالحبّة منها؛ فإنّ طلبك ذلك بإحسانك،
 هو أدومُ بقاءٍ منه باعتسافك بعنفك. وأعلم أنه إنما تُملك الأبدان، فأجمع إليها القلوب
 بالحبّة. وأعلم أن الرعية إذا قدرت على أن تقول قدرت أن تفعل؛ فأجتهد أن لا تقول
 تسلّم من أن تفعل .

ومما كتب به أبرويز إلى ابنه شيرويه يوصيه بالرعية كتابا فيه : ليكن من تختاره
 لولايتك رجلا كان في وضيعة فرغتته، وذا شرف كان مهملا فأصطنعته . ولا تجعله
 امرأ أصبته بعقوبة فأتضع لها ، ولا أحدا من يقع بقلبك أن إزالة سلطانتك أحب
 إليه من ثبوته؛ وإياك أن تستعمله ضريعا، غمرا، كثيرا إعجابُه بنفسه، قليلا تجربته
 في غيره، ولا كبيرا مُدبرا، قد أخذ الدهر من عقله، كما أخذت السن من جسمه .

ومما كتب به أبرويز إلى ابنه شيرويه أيضا : إن كلمة منك تُسفك دما، وأخرى
 تحقن دما، وإن سخّطك سيفٌ مسلول على من سخّطت عليه، وإن رضاك بركة مفيدة
 على من رضيت عنه، وإن نفاذ أمرك مع ظهور كلامك، فأحترس في غضبك من
 قولك أن يُخطئ، ومن لونك أن يتغير، ومن جسدك أن ينحف؛ فإن الملوك تعاقب
 جرما، وتعفو حابما .

ومما كتب به أردشير إلى رعيته : من أردشير المؤيد، ملك الملوك، وارث العطاء،
 إلى الفقهاء الذين هم حملة الدين ، والأساورة الذين هم حفظة البيضة ، والكُتاب
 الذين هم زين الملكة، وذوى الحروب الذين هم عمدة البلد . السلام عليكم، فإننا نحمد
 إليك الله سالمين، وقد وضعنا عن رعيتنا بفضل رأفتنا بها إتاوتها للموظفة عليها، ونحن
 مع ذلك كاتبون بوصية : لا تستشعروا الحقد فيدّهمكم العدو، ولا تحتكروا فيشملمكم

الفحط، وتزوجوا القرائب فإنه أمس للرحم، وأثبت في النسب، ولا تعدوا هذه الدنيا شيئا، ولا ترفضوها، فإن الآخرة لا تدرك إلا بها .

وأما رسائلهم ومحاطباتهم . فن ذلك رسالة الصديق رضى الله عنه إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه حين تلکاً عن مبايعته، على لسان أبي عبيدة بن الجراح رضى الله عنه، مع ما أنضم إلى ذلك من كلام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وما كان من جواب علي عنها .

قال أبو حيان علي بن محمد التوحيدى البغدادى : سَمَرْنَا لَيْلَةً عِنْدَ الْقَاضِي أَبِي حَامِدٍ أَحْمَدَ بْنِ بَشْرِ الْمُرُورُودِيِّ بِبَغْدَادٍ ، فَتَصَرَّفَ فِي الْحَدِيثِ كُلِّ مَتَصَرَّفٍ ؛ وَكَانَ غَزِيرِ الرَّوَايَةِ ، لَطِيفَ الدَّرَايَةِ ، بَخْرِيَّ حَدِيثِ السَّقِيفَةِ ، فَرَكِبَ كُلَّ مَرَكَبًا ، وَقَالَ قَوْلًا ، وَعَرَّضَ بَشِيءًا ، وَنَزَعَ إِلَى فَنٍ . فَقَالَ : هَلْ فِيكُمْ مَنْ يَحْفَظُ رِسَالَةَ الْأَبِيِّ بَكْرِ الصَّدِيقِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ ، وَجَوَابَ عَلِيِّ عَنْهَا ، وَمَبَايَعَتِهِ إِيَّاهُ عَقِيبَ تِلْكَ الْمَنَازَرَةِ . فَقَالَ الْجَمَاعَةُ : لَا وَاللَّهِ ، فَقَالَ : هِيَ وَاللَّهِ مِنْ بَنَاتِ الْحَقَائِقِ ، وَمَحَبَّاتِ الصَّنَادِقِ ؛ وَمِنذُ حَفِظْتَهَا مَارَوَيْتَهَا إِلَّا لِأَبِي مُحَمَّدٍ الْمُهَلَّبِيِّ فِي وَزَارَتِهِ ، فَمَكْتَبَتِهَا عِنِّي بِيَدِهِ ، وَقَالَ : لَا أَعْرِفُ رِسَالَةَ أَعْقَلَ مِنْهَا وَلَا أَيْبَنَ ؛ وَإِنَّمَا لَتَدُلُّ عَلِيَّ عِلْمَ وَحَلْمَ ، وَفِصَاحَةَ وَنَبَاهَةَ ، وَبُعْدَ غُورٍ ، وَشِدَّةَ غَوْصٍ — فَقَالَ لَهُ الْعَبَّادَانِي : أَيُّهَا الْقَاضِي فَلَوْ أَعْتَمَتِ الْمِنَّةُ عَلَيْنَا بِرَوَايَتِهَا ، أَسْمِعْنَاهَا ، فَنَحْنُ أَوْعَى لَكَ مِنَ الْمُهَلَّبِيِّ ، وَأَوْجِبُ ذِمَامَا عَلِيكَ ، فَأَنْدَفِعُ وَقَالَ :

” حَدَّثَنَا الْخَزَاعِيُّ بِمَكَّةَ ، عَنْ أَبِي مَيْسَرَةَ ، قَالَ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي فُلَيْحٍ عَنْ عَيْسَى بْنِ دَوَّابٍ بْنِ الْمَتَّاحِ ، قَالَ : سَمِعْتُ مَوْلَايَ أَبَا عُبَيْدَةَ يَقُولُ : لَمَّا اسْتَقَامَتِ الْخِلَافَةُ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، بَعْدَ فِتْنَةِ كَادِ الشَّيْطَانِ بِهَا ، فَدَفَعَ اللَّهُ شَرَّهَا وَيَسَّرَ خَيْرَهَا ، بَلَغَ أَبَا بَكْرٍ عَنْ عَلِيٍّ تَلْكَؤُ وَشِمَاسَ ، وَتَهَمُّمَ وَنِفَاسَ ،

فكره أن يتمادى الحال فتبدو العورة، وتشتعل الجمره، وتفترق ذات البين؛ فدعاني بحضرتة في خلوة، وكان عنده عمر بن الخطاب رضى الله عنه وحده فقال: يا أبا عبيدة ما أئمن ناصيتك، وأئمن الخيرين عينك؛ وطالما أعز الله بك الإسلام وأصلح شأنه على يديك، ولقد كنت من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكان المحوط، والمحل المغبوط؛ ولقد قال فيك في يوم مشهود "لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة" ولم تزل للدين ملتجا، وللمؤمنين مرتجا؛ ولأهلك ركا، ولإخوانك رداً. قد أردت لك لأمرٍ خطر مخوف، وإصلاحه من أعظم المعروف، ولئن لم يندمل جرحه بيسارك ورفقك، ولم يُجِب حيته برقيتك، وقع اليأس، وأعضل اليأس؛ واحتيج بعد ذلك إلى ما هو أمر منه وأعلق، وأعسر منه وأغلق؛ والله أسأل تمامه بك، ونظامه على يديك. فتأت له أبا عبيدة وتلطف فيه، وأنصح الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولهذا العصابة غير آل جهدا، ولا قال حمدا، والله كالك وناصرك، وهاديك ومبصرك، إن شاء الله. امض إلى علي وأخفض له جناحك، وأغضض عنده صوتك، وأعلم أنه سلاله أبي طالب، ومكانه ممن فقدناه بالأمس صلى الله عليه وسلم مكانه، وقل له البحر مغرقة، والبر مفرقة، والحق أكلف، والليل أغدق، والسماء جلاء، والأرض صلعاء، والصعود متعذر، والهبوط متعسر، والحق عطوف رؤوف، والباطل عنوف عسوف، والعجب قداحة الشر، والضغن رائد البوار؛ والتعريض شجار الفتنة، والقيحة ثقب العداوة، وهذا الشيطان متكى على شِمَالِه، متحيل يمينه، نافخ خُصِييه لأهله، ينتظر الشَّتات والفرقة، ويدب بين الأمة بالشحناء والعداوة، عنادا لله عز وجل أولا، ولآدم ثانياً، ولنبيه صلى الله عليه وسلم ودينه ثالثاً، يوسوس بالفجور، ويُدبني بالغرور، ويمني أهل الشرور. يوحى إلى أوليائه زخرف القول غرورا بالباطل، دأبا له منذ

(١) تأتي فلان للامر تها له وأتاه من وجهه .

كان على عهد أبينا آدم صلى الله عليه وسلم ، وعادة له منذ أهانه الله تعالى في سالف
 الدهر لا منجى منه إلا بعض الناجذ على الحق ، وغض الطرف عن الباطل ، ووطء
 هامة عدو الله بالأشد فالأشد ، والآكد فالآكد ، وإسلام النفس لله عز وجل في آبتغاء
 رضاه . ولا بُد الآن من قول ينفع إذا ضرَّ السُّكوت وخيف غيبه ؛ ولقد أُرشدك
 من أفاء ضالتك ، وصافاك من أحياء مودته بعتابك ، وأراد لك الخير من أثر البقاء
 معك ؛ ما هذا الذي تُسول لك نفسك ، ويدوى به قلبك ، ويلتوى عليه رأيك ،
 ويتخاوض دونه طرفك ، ويسرى فيه ظعنك ، ويرادّ معه نفسك ، وتكثر عنده
 صعداؤك ، ولا يقبض به لسانك . أمجمة بعد إفصاح ؟ أتلبيس بعد إفصاح ؟
 أدين غير دين الله ؟ أخلق غير خلق القرآن ؟ أهدي غير هدى النبي صلى الله عليه
 وسلم ، أمثلى " تمشى له الضراء وتدب له الخمر " (١) ، أم مثلك يتقبض عليه الفضا ،
 ويكسف في عينه القمر ، ماهذه القعقة بالشنان ؟ وما هذه الوعوة باللسان ؟
 إنك والله جد عارف بأستجابتنا لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وبخروجنا
 عن أوطاننا وأموالنا وأولادنا وأحبتنا ، هجرة إلى الله عز وجل ، ونصرة لدينه
 في زمان أنت فيه في كن الصبا ، وحذر الغرارة ، وعنفوان الشبية ، غافل عما يُشيب
 ويُريب ، لاتبى ما يراد ويُسَاد ، ولا تحصّل ما يساق ويُقاد ، سوى ما أنت جارٍ عليه
 إلى غايته التي إليها عدل بك ، وعندها حط رحلك ، غير مجهول القدر ولا محدود
 الفضل ؛ ونحن في أثناء ذلك نعاني أحوالاً تزيل الرّواسى ، وتُقاسى أهوالاً تُشيب
 النواصي ، خائضين غمارها ، راكبين تيارها ، نتجرع صابها ، ونسرح عيائها ، ونحكم
 أساسها ، ونبرم أمراسها ، والعيون تُحدج بالحسد ، والأنوف تعطس بالكبر ، والأصدور
 تستعير بالغيظ ، والأعناق تتطاوّل بالفخر ، والشِّفار تُشحد بالمكر ، والأرض تمسد

(١) مثل يضرب لمن يختل صاحبه .

بالخوف ؛ لا تنتظر عند المساء صباحا ، ولا عند الصباح مساء ، ولا تدفع في نحر
 أمرئ إلا بعد أن نحسو الموت دونه ، ولا تبلغ مرادا إلا بعد الإياس من الحياة
 عنده ؛ فادين في جميع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأب والأم ، والحال
 والعم ، والمال والنسب ، والسيد واللبد ، والهبة والبلة ، بطيب أنفُس ، وقوة
 أعين ، ورحب أعطان ، وثبات عزائم ، وصحة عقول ، وطلاقة أوجه ، وذلافة
 ألسن ؛ هذا مع خفيات أسرار ، ومكنونات أخبار ، كنت عنها غافلا ، ولولا سنك
 لم تكن عن شيء منها ناكلا ، كيف وفؤادك مشهورم ؟ ، وعودك معجوم . والآن
 قد بلغ الله بك وأنهض الخير لك ، وجعل مرادك بين يديك ، وعن علم أقول
 ماتسمع ؛ فأرتقب زمانك ، وقلص أردانك ، ودع التعمس والتجسس لمن لا يطلع
 لك إذا خطا ، ولا يترشح عنك إذا عطا ؛ فالأمر غض ، والنفوس فيها ماض ،
 وإنك أديم هذه الأمة فلا تحلم لجاجا ، وسيفها العضب ، فلا تنب أعوجاجا ، وماؤها
 العذب ، فلا تحل أجاجا . والله لقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا
 الأمر ، فقال لي يا أبا بكر هو لمن يرغب عنه لامن يجاحش عليه ، ولمن يتضاءل عنه
 لامن يتنفع إليه ؛ هو لمن يقال هو لك لامن يقول هو لي .

ولقد شاورني رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصهر ، فذكر فينا من قريش
 فقلت أين أنت من علي ، فقال صلى الله عليه وسلم : إني أكره لفاطمة ميعة شبايه ،
 وحدائثة سنه . فقلت له متى كفته يدك ورعته عينك ، حفّت بهما البركة ،
 وأسبغت عليهما النعمة ؛ مع كلام كثير خاطبته به رغبة فيك ، وما كنت عرفت
 منك في ذلك لاحوجاء ولا لوجاء ، فقلت ماقلت وأنا أرى مكان غيرك ، وأجد راحة
 سواك ؛ وكننت إذ ذاك خيرا لك منك الآن لي ؛ ولئن كان عرض بك رسول الله
 صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر ، فلم يكن معرضا عن غيرك ، وإن كان قال فيك

فما سكت عن سواك؛ وإن تلجلج في نفسك شيء، فهلم فالحكم مرضى، والصواب مسموع، والحق مطاع. ولقد ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الله عز وجل، وهو عن هذه العصابة راض وعليها حذر: يسره ماسرها، ويسوءه ماساها، ويكيده ما كادها، ويرضيه ما أرضاها، ويُسَخِطُه ما أسخطها. أما تعلم أنه لم يدع أحدا من أصحابه، وأقاربه، وسُجْرَانِهٖ،^(١) إلا أبانه بفضيلة، وخصه بمزية، وأفرده بحالة. أتظن أنه صلى الله عليه وسلم ترك الأمة سدى بددا، عباهل، مباهل، طلاحى مفتونة بالباطل، مغبونة عن الحق، لا رائد ولا زائد، ولا ضابط ولا حائط، ولا ساقى ولا واقى، ولا هادى ولا حادى كلا!، والله ما أشتاق إلى ربه تعالى، ولا سأله المصير إلى رضوانه وقربه، إلا بعد أن ضرب المدى، وأوضح الهدى، وأبان الصوى، وأتمن المسالك والمطارح، وسهل المبارك والمهاج، وإلا بعد أن شدخ يافوخ الشرك بإذن الله، وشرم وجه النفاق لوجه الله سبحانه، وجدع أنف الفتنة في ذات الله، وتفل في عين الشيطان بعون الله، وصدع بملء فيه ويده بأمر الله عز وجل.

وبعد، فهذه المهاجرون والأنصار عندك ومعك في بقعة واحدة، ودار جامعة، إن استقلوني لك، وأشاروا عندى بك، فأنا واضع يدي في يدك، وصائر إلى رأيهم فيك. وإن تكن الأخرى فادخل فيما دخل فيه المسلمون، وكن العون على مصالحهم، والفتاح لمغاليقهم، والمرشد لضالتهم، والرادع لغوايتهم. فقد أمر الله تعالى بالتعاون على البر والتقوى، والتناصر على الحق. ودعنا نقضى هذه الحياة الدنيا بصدور بريئة من الغل، ونلقى الله تعالى بقلوب سليمة من الضغن.

وبعد فالناس ثمامة فأرفق بهم، وأحن عليهم ولين لهم، ولا تشق نفسك بنا خاصة

(١) بالسين المهملة جمع سيجر كأمير وهو الصديق.

(٢) بالباء الموحدة في الوزين ومعناها مهملة. أنظر اللسان.

فيهم ، وأترك ناجم الحقد حصيدا ، وطائر الشر واقعا ، وباب الفتنة مغلقا ، فلا قال ولا قيل ولا لوم ولا تبيع والله على ما تقول شهيد ، وبما نحن عليه بصير .

قال أبو عبيدة : فلما تأهبت للنهوض ، قال عمر رضى الله عنه كن لى الباب هنية فلى معك دور من القول ، فوقفت وما أدرى ما كان بعدى ، إلا أنه لحقنى بوجه يندى تهللا ، وقال لى قل لعل الرقاد محلمه ، والهوى مقصمه ، وما منا إلا له مقام معلوم ، وحق مشاع أو مقسوم ، ونبا ظاهر أو مكتوم ، وإن أكيس الكيس من منح الشارد تألفا ، وقارب البعيد تطففا ، ووزن كل شىء بيزانه ، ولم يخاط خبره بعيانه ، ولم يجعل فتره مكان شبره دينا كان أو دنيا ، ضللا كان أو هدى . ولا خير فى علم مستعمل فى جهل ، ولا خير فى معرفة مشوية بنكر . ولسنا بكلمة رُفِعَ البعير بين العجان والذنب ، وكل صالٍ فبناره ، وكل سيل فى قراره . وما كان سكوت هذه العصابة إلى هذه الغاية لى وشى ، ولا كلامها اليوم لفرق أو رفق . وقد جدع الله بمحمد صلى الله عليه وسلم أنف كل ذى كبر ، وقصم ظهر كل جبار ، وقطع لسان كل كدوب ، فإذا بعد الحق إلا الضلال . ما هذه الخنزوانة التى فى قرأش رأسك ؟ ما هذا الشجا المعترض فى مدارج أنفاسك ؟ ما هذه القداة التى تغشت ناظرىك ؟ وما هذه الوحة التى أكلت شراسيفك ؟ وما هذا الذى ليست بسببه جلد النمر ، وأشتلت عليه بالشحناء والذكر ، ولسنا فى كسروية كسرى ، ولا فى قيصرية قيصر ! تأمل لإخوان فارس وأبناء الأصفر ! قد جعلهم الله جزرا لسيوفنا ، ودرية لريماحنا ، ومرمى لطمعانا ، وتبعنا لسطاننا ، بل نحن فى نور نبوة ، وضياء رسالة ، وثرة حكمة ، وأثرة رحمة ، وعنوان نعمة ، وظل عصمه ، بل أمة مهدية بالحق والصدق ، مأمونة على الرقى والفتق ، لها من الله قلب أبى ، وساعد قوى ، ويد ناصره ، وعين باصره . أتظن ظنا ياعلى أن أبا بكر وثب على هذا الأمر مفتاتا على الأمة خادعا لها ،

أو متسلطا عليها؟ أترأه حل عقودها وأحال عقولها؟ أترأه جعل نهارها ليلا، ووزنها كيلا، ويقظتها رقادا، وصلاحها فسادا؛ لا والله سلا عنها فولهت له، وتطامن لها فاصقت به، ومال عنها فالت إليه، وأشماز دونها فاشتمت عليه، حبوة جباه الله بها، وعاقبة بلغه الله إليها، ونعمة سرّبله جمالها، ويد أوجب الله عليه شكرها، وأمة نظر الله به إليها. والله أعلم بخلقته، وأرأف بعباده، يختار ما كان لهم الخيرة. وإنك بحيث لا يُجهل موضعك من بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ولا يُحدد حُكك فيما آتاك الله، ولكن لك من يزاحك بمنكب أضخم من منكبك، وقرب أسس من قرباتك، وسن أعلى من سنك، وشيية أروع من شيتك، وسيادة لها أصل في الجاهلية، وفرع في الإسلام، ومواقف ليس لك فيها جمل ولا ناقة، ولا تُذكر منها في مقدمة ولا ساقه، ولا تضرب فيها بذراع ولا إصبع، ولا تخرج منها بيازل ولا هُبع. ولم يزل أبو بكر حبة قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلاقة نفسه، وعيبة سره، ومفزع رأيه ومشورته، وراحة كفه، ومرمق طرفه. وذلك كله بمحضر الصادر والوارد من المهاجرين والأنصار، شهرته مغنية عن الدليل عليه. ولعمري إنك أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة، ولكنه أقرب منك قرابة، والقرابة لحم ودم، والقرابة نفس وروح. وهذا فرق عرفه المؤمنون ولذلك صاروا إليه أجمعون، ومهما شككت في ذلك، فلا تشك أن يد الله مع الجماعة، ورضوانه لأهل الطاعة، فأدخل فيما هو خير لك اليوم، وأنفع لك غدا، وألفظ من فيك ما يعلق بلهاتك، وأنفت سخيمة صدرك عن ثقاتك، فإن يك في الأمد طول، وفي الأجل فسحة، فستأكله مريثا أو غير مريء، وستشربه هنيئا أو غير هنيء، حين لا راد لقولك إلا من كان آيسا منك، ولا تابع لك إلا من كان طامعا فيك يمش إهابك، ويعرك أديمك، ويؤزى على هديك. هنالك تقرع السن من ندم،

وتجرع الماء ممزوجا بدم ، حينئذ تأسى على ما مضى من عمرك ، ودارج قوتك ، فتود أن لو سُقيت بالكأس التي أبيتها ، ورُدِدت إلى حالتك التي استغويتها ، والله تعالى فينا وفيك أمر هو بالغه ، وغيب هو شاهده ، وعاقبة هو المرجو لسرأها وضرائها ، وهو الولي الحميد ، الغفور الودود .

قال أبو عبيدة ، فتمشيت مترملا أنوء كأنما أخطو على رأسي ، فرقا من الفرقة ، وشفقا على الأمة ، حتى وصلت إلى علي رضي الله عنه في خلاء ، فأبتثته بطني كله ، وبرئت إليه منه ، ورفقت به . فلما سمعها ووعاها ، وسرت في مفاصله جميها ، قال : ” حلت معلوظه ، وولت محروطه “ ، وأنشأ يقول :

إحدى لياليك فهيسي هيسي * لا تنعمي الليلة بالتعريس

نعم يا أبا عبيدة أكل هذا في نفس القوم ، ويحسون به ، ويضطجعون عليه ؟ قال أبو عبيدة : فقلت لاجواب لك عندي إنما أنا قايض حق الدين ، وراتق فتق المسلمين ، وساد ثلثة الأمة . يعلم الله ذلك من جلجلان قلبي ، وقرارة نفسي .

فقال علي رضي الله عنه : والله ما كان قعودي في كنف هذا البيت قصدا للخلاف ، ولا إنكارا للعروف ، ولا زراية على مسلم ؛ بل لما قد وقدي به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فراقه ، وأودعني من الحزن لفقده . وذلك أني لم أشهد بعده مشهدا إلا جدد علي حزنا ، ودكرني شجنا . وإن الشوق إلى الخلق به كافي عن الطمع في غيره . وقد عكفت على عهد الله أنظر فيه ، وأجمع ما تفرق ، رجاء ثواب معد لمن أخلص لله عمله ، وسلم لعلمه ومشيئته ، وأمره ونهيه . على أني ما علمت أن النظاهر على واقع ، ولا عن الحق الذي سبق إلى دافع ؛ وإذ قد أقم الوادي بي ، وحشد النادي من أجلي ، فلا مرحبا بما أساء أحدا من المسلمين وسرني . وفي النفس كلام لولا

سابق عقد ، وسالف عهد ، لشفيت غيظي بجنصري وبنصري ، وخضت لجنته
بأنحصى ومفريق ، ولكنني ملجئ إلى أن ألقى الله ربي ، وعنده أحسب ما نزل بي .
وإني غاديت إلى جماعتكم ، مبيع صاحبكم ، صابر على ما ساءني وسركم (ليقضى الله
أمرًا كان مفعولاً) .

قال أبو عبيدة : فعدت إلى أبي بكر رضي الله عنه فقصصت عليه القول على
غره ، ولم أحتل شيئًا من حلوه ومره ، وبكرت غدوة إلى المسجد ، فلما كان صباح
يومئذ وإذا على مخترق الجماعة إلى أبي بكر رضي الله عنهما ، فبايعه ، وقال خيرا ،
ووصف جميلا ، وجلس زميتا ، ^(١) وأستأذن للقيام فضى وتبعه عمر مكرما له ، مستأثرا
لما عنده .

فقال على رضي الله عنه : ما قعدت عن صاحبكم كارها ، ولا أتيته فرقا ، ولا أقول
ما أقول تعلقة . وإني لأعرف منتهى طرفي ومحط قدمي ومترع قوسي ، وموقع
سهمي ؛ ولكن قد أزميت على فاسي ثقة بربي في الدنيا والآخرة .

فقال له عمر رضي الله عنه : كفكف غربك ، وأستوقف سربك ، ودع العصى
بلحائها ، والدلاء على رشائها . فإننا من خلفها وورائها ، إن قدحنا أورينا ، وإن متحنا
أروينا ، وإن قرحنا أدمينا ، ولقد سمعت أماتيك التي لغزت بها عن صدر أكل
بالجوى ، ولو شئت لقلت على مقاتلك ما إن سمعته ندمت على ما قلت . وزعمت أنك
قعدت في كن بيتك لما وقدك به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فمده ، فهو
وقنك ولم يقد غيرك ؟ بل مصابه أعظم وأعم من ذلك ، وإن من حق مصابه أن
لا تصدع شمل الجماعة بفرقة لا عصام لها ، ولا يؤمن كيد الشيطان في بقائها . هذه

(١) أى حليا وقورا .

العرب حولنا، والله لو تداعت علينا في صُبح نهار لم نلتق في مسائه . وزعمت أن الشوق إلى الخالق به كافٍ عن الطمع في غيره ! فمن علامة الشوق إليه نصرته دينه ، وموازرة أوليائه ، ومعاونتهم . وزعمت أنك عكفت على عهد الله تجمع ما تفرق منه ؛ فمن العكوف على عهد الله النصيحة لعباد الله ، والرافة على خلق الله ، وبذل ما يصلحون به ، ويرشدون عليه . وزعمت أنك لم تعلم أن التظاهر واقع عليك وأى حق لظ^(١) دونك . قد سمعت وعلمت ما قال الأنصار بالأمس سرا وجهرا ، وتقلبت عليه بطننا وظهرا ، فهل ذكرت أو أشارت بك أو وجدت رضاهم عنك ؟ هل قال أحد منهم بلسانه إنك تصلح لهذا الأمر ؟ أو أوما بعينه ؟ أو هم في نفسه ؟ أتظن أن الناس ضلوا من أجلك ، وعادوا كفقارا زهدا فيك ، وباعوا الله تحاملا عليك ؟ . لا والله ! لقد جاءني عقيل بن زياد الخزرجي في نفر من أصحابه ومعهم شرحبيل بن يعقوب الخزرجي وقالوا : إن علينا ينتظر الإمامة ، ويزعم أنه أولى بها من غيره ، وينكر على من يعقد الخلافة ، فأنكرت عليهم ، ورددت القول في نحرهم حيث قالوا : إنه ينتظر الوحي ويتوكل في مناجاة الملك . فقلت ذاك أمر طواه الله بعد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، أكان الأمر معقودا بأشوطه ، أو مشدودا بأطراف ليطه ؟ كلا ! والله لا عجاء بحمد الله إلا أفصحت ، ولا شكاء إلا وقد تفتحت . ومن أعجب شأنك قولك : ولولا سالف عهد وسابق عقد ، لشفيت غيظي ؛ وهل ترك الدين لأهله أن يشفوا غيظهم بيد أو بلسان ؟ تلك جاهلية وقد استأصل الله شاقها وأقلع جرثومتها ، وهور ليلها ، وغور سيلها ، وأبدل منها الروح والريحان ، والهدى والبرهان . وزعمت أنك ملجم ؛ ولعمري إن من أتق الله ، وآثر رضاه ، وطلب ما عنده ، أمسك لسانه وأطبق فاه ، وجعل سعيه لما وراه .

(١) لظ . أى محمد . ووقع في بعض النسخ لك وفي بعضها ليط وكلاهما تصحيف .

فقال عليّ رضي الله عنه : مهلاً يا أبا حفص والله ما بدلت ما بدلت وأنا أريد نكته ، ولا أقررت ما أقررت وأنا أبتغي حولا عنه . وإن أخسر الناس صفقة عند الله من آثر النفاق ، وأحتضن الشقاق وفي الله سلوة عن كل حادث ، وعليه التوكّل في جميع الحوادث . ارجع يا أبا حفص إلى مجاسك نافع القلب ، مبرود الغليل ، فسيح اللبان ، فصيح اللسان ؛ فليس وراء ما سمعت وقلت إلا ما يشد الأزر ، ويحط الوزر ، ويضع الإصر ، ويجمع الألفة بمشيئة الله وحسن توفيقه .

قال أبو عبيدة رضي الله عنه : فأنصرف عليّ وعمر رضي الله عنهما . وهذا أصعب ما مرّ عليّ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن ذلك كلام عائشة رضي الله عنها في الانتصار لأبيها .

يروى أنه بلغ عائشة رضي الله عنها أن أقواما يتناولون أبا بكر رضي الله عنه ، فأرسلت إلى أزفلة من الناس فلما حضروا ، أسدلت أستارها ، وعلت وسادها . ثم قالت أبي : وما أبيه ! أبي والله لا تعطوه الأيدي ، ذاك طود منيف ؛ وفرع مديد ، هيات كذبت الظنون ، أنجح إذ أكديتم ، وسبق إذ نيتتم * سبق الجواد إذا استولى على الأمد * فتى قريش ناشئا ، وكهفها كهلا ، يفك عانيها ويريش مملقها ، ويرأب شعبها ، ويلم شعها حتى حليت قلبها ، ثم استشرى في دين الله فما برحت شكيمته في ذات الله عز وجل حتى آخذ يفنائه مسجدا يحيي فيه ما أمات المبطلون ؛ وكان رحمه الله غزير الدمعة ، وقيد الجوائح ، شجي النسيج ، فانقضت إليه نسوان مكة وولدائها يسخرون منه ويستهنون به (الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون) فأكبرت ذلك رجالاً من قريش فحنت قسيها وفوقت سهامها وأنتلوه غرضا ، فما فلوا له صفاة ، ولا قصفوا له قناة ، ومرّ على سياسائه ، حتى إذا ضرب الدين بجرانه ،

ورسّت أوتاده ، ودخل الناس فيه أفواجا ، ومن كل فرقة أرسلوا وأستانتا ، آختر
الله لنبيه ما عنده ؛ فلما قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم ضرب الشيطان رؤوفه ،
ومدّ طنبه ، ونصب حباله ، وأجاب بحيله ورجله ، وأضطرب حبل الإسلام ،
ومرج عهدُه وماج أهله ، وبغى الغوائل ، وظنّت رجال أن قد أكتبت أطاعهم
نهبها ولات حين الذي يرجون ، وأنى والصدّيق بين أظهرهم . فقام حاسرا
مشمرا ، بجمع حاشيته ورفع قطريه ، فردّ رسن الإسلام على غرّبه ، ولمّ شعثه
ببطبه ، وأتتاش الدين فنعسه ، فلما أراح الحقّ على أهله ، وقرّر الرؤوس على كواهلها ،
وحقن الدماء في أهبها ، أنته منيته ، فسدّ ثلثته بنظيره في الرحمة ، وشقيقه في السيرة
والمعدّلة . ذلك ابن الخطاب لله دَرّ أم حملت به ودرّت عليه ! لقد أوحدت به ،
ففتح الكفرة وديّنها ، وشردّ الشرك شدّر مدّر ، وبجع الأرض وبجعها فقاءت
أكلها ، ولفظت خباها ، ترأّمه ويصّدف عنها ، وتصدّى له ويأبأها . ثم وزع فيها
فياها وودّعها كما صحبها . فأروني ماذا ترتئون وأي يوميّ أبي تتقمون : أيوم إقامته
إذ عدل فيكم أم يوم ظعنه إذ نظر لكم ؟ أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .
ثم أقبلت على الناس بوجهها فقالت أنشدكم الله هل أنكرتم مما قلت شيئا ؟ قالوا
آللهم لا .

ومن ذلك كلام أم الخير : بنت الحريش البارقية يوم صفين في الانتصار
لعليّ رضى الله عنه .

يروى أن معاوية كتب إلى واليه بالكوفة أن يحمل إليه أم الخير بنت الحريش
البارقية برحلها ، وأعلمه أنه مجازيه بقولها فيه بالخير خيرا وبالشرّ شرّا . فلما ورد

(١) في بعض الكتب فردّ نشر الدين على غره ولمّ شعثه بطبه .

عليه كتابه، ركب إليها فأقرأها الكتاب، فقالت أما أنا فغير زائفة عن طاعة ولا معتلة بكذب! ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين لأمر تختلج في صدرى. فلما شيعها وأراد مفارقتها قال لها يا أم الخير: إن أمير المؤمنين كتب إلى أنه يجازيني بقولك في بالخير خيرا وبالشر شرا؛ فما عندك؟ قالت يا هذا لا يطعمنك برك بي أن أسرك باطل، ولا تؤيسك معرفتي بك أن أقول فيك غير الحق. فسارت خير مسير حتى قدمت على معاوية فأزلهما مع حريمه، ثم أدخلها عليه في اليوم الرابع، وعنده جلساؤه فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. قال لها وعليك السلام يا أم الخير، وبالرغم منك دعوتيني بهذا الاسم. قالت مه يا أمير المؤمنين! فإن بديهة السلطان مدحضة لما يجب علمه ((ولكل أجل كتاب)). قال صدقت. فكيف حالك يا خالة؟ وكيف كنت في مسيرك؟ قالت لم أزل في عافية وسلامة حتى صرت إليك فأنا في مجلس أنيق، عند ملك رقيق - قال معاوية بحسن نيتي ظفرت بكم - قالت يا أمير المؤمنين أعيدك بالله من دحض المقال وما تُردى عاقبته قال ليس هذا أردنا. أخبريني كيف كان كلامك يوم قتل عمار بن ياسر؟ قالت لم أكن والله زورته قبل ولا رويته بعد. وإنما كانت كلمات نقهن لسانى حين الصدمة فإن شئت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت - قال لا أشاء ذلك. ثم التفت إلى أصحابه فقال أيكم يحفظ كلام أم الخير فقال رجل من القوم أنا أحفظه يا أمير المؤمنين كحفظى سورة الحمد - قال هاته - قال: نعم كأتى بها يا أمير المؤمنين في ذلك اليوم عليها برد زيبدي كثيف الحاشية، وهى على حمل أرمك وقد أحيط حولها، ويدها سوط منتشر الظفر، وهى كالفحل يهدر في شقشيقته تقول:

(١) لعله الضفر بالضاد المعجمة أى القتل.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ ! إن الله قد أوضح الحق ، وأبان الدليل ، ونور السبيل ، ورفع العلم ، فلم يدعكم في عمياء مبهمة ! ولا سوداء مدلهمة فإلى أين تريدون رحمكم الله . أفرارا عن أمير المؤمنين ، أم فرارا من الزحف ، أم رغبة عن الإسلام ، أم أردادا عن الحق . أما سمعتم الله عز وجل يقول : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ .

ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول .

قد عيل الصبر، وضعف اليقين، وانتشرت الرغبة، وبيدك يارب أزمة القلوب جامع الكلمة على التقوى، وألف القلوب على الهدى، هاموا رحمكم الله إلى الإمام العادل، والوصى الوفي، والصدیق الاكبر! إنها إحن بدرية، وأحقاد جاهلية، وضغائن أحمديه، وثب بها معاوية حين الغفلة ليُدرك بها ثارات بنى عبد شمس .

ثم قالت ﴿ قَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يُنتَهُونَ ﴾ . صبرا معشر المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصيرة من ربكم، وثبات من دينكم، وكأني بكم غدا قد لقيتم أهل الشام حُمر مستنفرة، فرّت من قسورة . لا تدرى أين يسلك بها من بجاج الأرض، باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى، وباعوا البصيرة بالعمى وعمّا قليل ليصبحن نادمين، حين تحلّ بهم الندامة فيطلبون الإقالة! إنه والله من ضلّ عن الحق وقع في الباطل، ومن لم يسكن الجنة نزل في النار . أيها الناس إن الأيكاس استقصروا عمر الدنيا فرفضوها واستبطئوا مدة الآخرة فسعوا لها . والله أيها الناس لولا أن تبطل الحقوق، وتعطل الحدود، ويظهر الظالمون، وتقوى كلمة الشيطان، لما آخترنا ورود المناها على خفض العيش وطيبه؛ فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته وأبي أبنيه؟ خلق

من طينته ، وتفترع عن نبعته ، وخصه بسره ، وجعله باب مدينته ، وأعلم بحبه المسلمين ، وأبان بغضه المنافقين . فلم يزل كذلك يؤيده الله بمعونته ويمضى على سنن استقامته ؛ لا يعرج لراحة اللذات ؛ وهو مُفلق الهام ، ومكسر الأصنام إذ صلب الناس مشركون ، وأطاع والناس مرتابون . فلم يزل كذلك حتى قتل مبارزى بدر ، وأفنى أهل أحد ، وفرق جمع هوازن ؛ فيالها وقائع ! زرعت في قلوب قوم نفاقا ، ورودة وشقاقا ، وقد آجتهت في القول ، وبالغت في النصيحة وبالله التوفيق والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فقال معاوية : والله يأثم الخير ما أردت بهذا إلا قتلي ! والله لو قتلتك ما حرجت في ذلك .

قالت : والله ما يسوعنى يابن هند أن يُجِريَ الله ذلك على يدي من يُسعدنى الله بشقائه — قال هيات يا كثيرة الفضول ، ماتقولين في عثمان بن عفان ؟ — قالت وما عسيت أن أقول فيه : استخلفه الناس وهم كارهون ، وقتلوه وهم راضون — فقال إيه يا أم الخير هذا والله أصلك الذى تبين عليه — قالت لكن الله يشهد وكفى بالله شهيدا ما أردت بعثمان نقصا ، ولقد كان سبأقا إلى الخيرات ، وإنه لرفيع الدرجة — قال فما تقولين في طلحة بن عبيد الله ؟ — قالت وما عسى أن أقول في طلحة أغتيل من مأمته ، وأتى من حيث لم يحدر ، وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة — قال فما تقولين في الزبير ؟ قالت يا هذا لا تدعنى كرجيع الضبع يعرك في المركن — قال حقا لتقولن ذلك وقد عزمت عليك — قالت وما عسيت أن أقول في الزبير ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه ، وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ، ولقد كان سبأقا إلى كل مكرمة في الإسلام . وإنى أسألك بحق الله يا معاوية فإن قرينشا تحدث أنك من أحلمها أن تسعني بفضل حلمك ،

وأن تُعفيني من هذه المسائل، وأمض لما شئت من غيرها — قال نعم وكرامةً قد أعفيتك؛ وردها مكرمة إلى بلدها .

ونحو ذلك كلام الزرقاء بنت عدى بن قيس الهمدانية يوم صفين أيضا .
 يروى أنها ذُكرت عند معاوية يوما، فقال لجلسائه أيكم يحفظ كلامها؟ — قال بعضهم نحن نحفظه يا أمير المؤمنين — قال فأشيروا على في أمرها فأشار بعضهم بقتلها — فقال بأس الرأي أيحسُن بمثل أن يقتل امرأة؟ . ثم كتب إلى عامله بالكوفة أن يُوفدها إليه مع ثقةٍ من ذوى محرمها وعدة من فرسان قومها ، وأن يمهّد لها وطء لينا، ويسرّها بستر خفيف، ويوسع لها في النفقة . فلما دخلت على معاوية، قال مرحبا بك وأهلا! قَدِمْتِ خير مقدم قدمه وافد، كيف حالك؟ — قالت بخير يا أمير المؤمنين أدام الله لك النعمة! — قال كيف كنتِ في مسيرك؟ قالت ربيبة بيتٍ أو طفلا مُمهّدا — قال بذلك أمرناهم . أتدريين فيم بعثت إليك — قالت وأنى لي بعلم مالم أعلم؟ وما يعلم الغيب إلا الله عز وجل — قال ألسنت الراكبة الجمّل الأحمر، والواقفة بين الصقيين بصقيين تحضين الناس على القتال، وتوقدين الحرب؟ فما حملك على ذلك؟ — قالت يا أمير المؤمنين مات الرأس، وبتر الذنب، ولن يعود مذهب، والدهر ذو غير، ومن تفكر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر — قال لها معاوية أتخفظين كلامك يومئذ؟ — قالت : لا والله ولقد أنسيته — قال لكني أحفظه لله أبوك حين تقولين :

أيها الناس ارجعوا وارجعوا ! إنكم أصبحتم في فتنة غشتكم جلايب الظلم ، وجارت بكم عن قصد الحجّة . فيا لها فتنة عمياء ، صماء ، بكاء لا تسمع لناعقها ، ولا تسلس لقائدها . إن المصباح لأبيض في الشمس ، والكواكب لا تير مع القمر ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد . ألا من استرشد أرشدناه ، ومن سألنا أخبرناه .

أيها الناس إن الحق كان يطلب ضائته فأصابها ! فصبراً يامعاشر المهاجرين
والأنصار على الغصص ؛ فكان قد أندمل شعب الشتات ، والتأمت كلمة التقوى ،
ودمغ الحق باطله ! فلا يجهل أحد فيقول كيف العدل وأتى : ليقضى الله أمراً
كان مفعولاً . ألا وإن خضاب النساء الحنأ ، وخضاب الرجال الدماء ! ولهذا
اليوم مابعده ، والصبر خير في عواقب الأمور . إيها الحرب قديماً غير ناكسين ،
ولا متشاكسين .

ثم قال لها يازرفاء لقد شركت عليا في كل دم سفكه — قالت أحسن الله بشارتك ،
وأدام سلامتك ؛ فثلك من بشر نجير وسر جلسه — قال ويسرك ذلك ؟ — قالت : نعم
سرت بالخبر فأتى لي بتصديق الفعل ؟ فضحك معاوية وقال : لوفأؤكم له بعد
موته أعجب عندي من حُكم له في حياته ! اذكرى حاجتك . قالت يا أمير المؤمنين
آليت على نفسى أن لأسأل أميرا أعنت عليه أبدا ، ومثلك من أعطى من غير مسألة ،
وجاد من غير طلبة — قال صدقت ، وأمر لها وللذين جاءوا معها بجوائز وكسا .

وقريب من ذلك كلام عكرشة بنت الأطرش يوم صفين أيضا .
يروى أنها دخلت على معاوية متوكئة على عكاز لها فسلمت عليه بالخلافة ،
ثم جلست — فقال لها معاوية : الآن صرت عندك أمير المؤمنين ؟ قالت : نعم
إذ لا على حتى ! — قال ألسيت المتقلدة حائل السيف بصفين ؟ وأنت واقفة بين
الصفين تقولين : أيها الناس ! عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم . إن
الجنة لا يجزن من قطنها ، ولا يهرم من سكنها ، ولا يموت من دخلها ؛ فآبتاعوها
بدار لا يدوم نعيمها ، ولا تنصرم همومها . وكونوا قوما مستبصرين في دينهم
مستظهرين على حقهم ؛ إن معاوية دلف إليكم بعجم العرب ، لا يفقهون الإيمان ،
ولا يدرون ما الحكمة . دعاهم إلى الباطل فأجابوه ، وأستدعاهم إلى الدنيا فلبؤه .

فَاللَّهُ اللَّهُ عِبَادَ اللَّهِ فِي دِينِ اللَّهِ ! وَإِيَّاكُمْ وَالتَّوَّائِكُلَ فَإِنَّ ذَلِكَ يَنْقُضُ عُمْرِي الْإِسْلَامَ ،
وَيُطْفِئُ نَوْرَ الْحَقِّ . هَذِهِ بَدْرُ الصَّغْرَى ، وَالْعُقْبَةُ الْآخِرَى ، يَامَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ
أَمْضُوا عَلَيَّ بِصِيرَتِكُمْ ، وَاصْبِرُوا عَلَيَّ عَزِيمَتِكُمْ . فَكَأَنِّي بِكُمْ غَدًا وَقَدْ لَقِيتُمْ أَهْلَ الشَّامِ
كَالْحُمْرِ النَّاهِقَةِ تَقْصَعُ قُصْعُ الْبَعِيرِ :

ثم قال : فكأنني أراك على عصاك هذه قد أنكفأ عليك العسكران يقولون هذه
عكرشة بنت الأطرش فإن كدت لتفليين أهل الشام لولا قدر الله وكان أمر الله قدرًا
مقدورًا؛ فما حملك على ذلك؟ - قالت يا أمير المؤمنين يقول الله جل ذكره ﴿يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوُؤٌ﴾ الآية، وإن اللبيب إذا كره
أمرًا لا يجب إعادته - قال صدقتِ فاذا كرى حاجتك - قالت كانت صدقاتنا تؤخذ
من أغنيائنا فترد على فقرائنا وقد فقدنا ذلك، فما يُجبر لنا كسير، ولا يُعش لنا فقير .
فإن كان عن رأيك فمثلك من أنتبه من الغفلة وراجع التوبة، وإن كان عن غير
رأيك فما مثلك من استعان بالحنونة ولا استعمل الظلمة - قال معاوية : يا هذه،
لأنه ينوبنا من أمور رعيئنا ثغور نتفتق، ونبجور نتدقق . - قالت سبحان الله ! والله
ما فرض الله لنا حقًا بفعل فيه ضررًا لغيرنا وهو علام الغيوب - قال معاوية هيهات
يا أهل العراق نهبكم على فلن تطاقوا . ثم أمر برّد صدقاتهم فيهم وإنصافهم .

والشاهد في هذه الحكايات كلام هؤلاء النسوة مع ما فيها : من المراجعات ،
والمخاطبات، والمقاولات، والمحاورات، الصالحة للاستشهاد للفصل المتقدم قبل
ذلك . وهذا باب متسع لا يسع استيفأؤه، ولا يمكن استيعابه وفيما ذكرنا مَقْنَعُ .

ومن ذلك ما روى أن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ! أرسل إلى معاوية
بالشام كتابًا صحبة صعصعة بن صوحان، فساربه حتى أتى دمشق؛ فأتى باب معاوية
فقال لأذنه : أستاذن لرسول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وبالباب جماعة

من بنى أمية ، فأخذته النعال والأيدى لقوله : " أمير المؤمنين " . وكثرت عليه
 الجلبة ، فاتصل ذلك بمعوية فأذن له ، فدخل عليه ، فقال السلام عليك يا بن
 أبي سفيان هذا كتاب أمير المؤمنين — فقال معاوية أما إنه لو كانت الرسل تُقتل
 في جاهلية أو إسلام ، لقتلتك . ثم اعترضه معاوية في الكلام ، وأراد أن يستخبره ليعرف
 طبعا أو تكلفا — فقال له ممن الرجل — قال من نزار — قال وما كان نزار قال كان
 اذا غزا انكش ، واذا لقي افترش ، واذا أنصرف أحترش . قال فن أي أولاده أنت ؟ —
 قال من ربيعة — قال وما كان ربيعة ؟ — قال : كان يطيل النجاد ، ويعول العباد ،
 ويضرب ببقاع الأرض العباد — قال : فن أي أولاده أنت ؟ — قال من جديلة —
 قال وما كان جديلة ؟ — قال كان في الحرب سيفا قاطعا ، وفي المكرمات غيثا نافعا ،
 وفي اللقاء لهبا ساطعا — قال فن أي أولاده أنت ؟ — قال : من عبد القيس — قال
 وما كان عبد القيس ؟ — قال كان حسنا أبيض وهابا ، يقدم لضيغه ما وجد ،
 ولا يسأل عما فقد ، كثير المرق ، طيب العرق ، يقوم للناس مقام الغيث من السماء —
 قال ويحك يا بن صوحان ! فما تركت لهذا الحى من قرين مجدا ولا نفرا ، — قال بلى
 والله يا بن أبي سفيان ! تركت لهم ما لا يصلح إلا لهم ، تركت لهم الأحمر والأبيض
 والأصفر ، والسرير والمنبر ، والملك إلى المحشر ، ففرح معاوية وظن أن كلامه
 يشتمل على قرين كلها ، قال صدقت يا بن صوحان إن ذلك لكذلك فعرف صعصعة
 ما أراد ، فقال ليس لك ولا لقومك في ذلك إصدار ولا إيراد . بعدتم عن أنف
 المرعى ، وعلوتم عن عدب الماء — قال ولم ذلك ويحك يا بن صوحان ! فقال الويل
 لأهل النار ، ذلك لبني هاشم — قال قم فأخرجوه — فقال : صعصعة الوعد بيني

(١) أي جد . الأصمى انكش في أمره وانشمر وجد بمعنى واحد . وقوله افترش أي صرع . يقال لقي فلان

فلانا فاقتشه إذا صرعه وهو مناسب هنا . وقوله احترش أي كسب أو صاد .

وبينك لا الوعيد من أراد المناجزة ^(١) يتبَلِّ المحاجزة - فقال معاوية لشيء مما سؤده قومه ووددت أنى من صُلبه ؛ ثم ألتفت إلى بنى أمية فقال : هكذا فلتكن الرجال .

ومن ذلك ما روى أن سعيد بن عثمان بن عفان رضى الله عنه دخل على معاوية وابنه يزيد إلى جانبه فقال له : ائتمك أبى ، وأصطنعتك حتى بلغك باصطناعه إياك المدى الذى لا يحارى ، والغاية التى لا تُسامى ؛ فما جازيت أبى بالائه حتى قدمت هذا على ، وجعلت له الأمر دُونى . ”وأوما إلى يزيد“ والله لأبى خير من أبيه وأمى خير من أمته ولأنا خير منه ! - فقال له معاوية . أما ما ذكرت يابن أنحى من تواتر الآئكم على ، وتظأهر نعمائكم لدى ، فقد كان ذلك ووجب على المكافأة والمجازاة ، وكان من سُكرى إياه أن طلبتُ بدمه حتى كابدت أهوال البلاء ، وعَشِيتُ عساكر المنايا إلى أن شَفِيت حَزازات الصدور وتجلَّت تلك الأمور . ولست لنفسى باللائم فى التشمير ، ولا الزارى عليها فى التقصير .

وذكرت أن أباك خير من أبى هذا ”وأشار بيده إلى يزيد“ فصدمت لعمر الله لعثمان خير من معاوية ! أكرم كريما ، وأفضل قديما ، وأقرب إلى مجد صلى الله عليه وسلم رحما . وذكرت أن أئمك خير من أمه فاعمرى إن امرأة من قريش خير من امرأة من بنى كلب . وذكرت أنك خير من يزيد فوالله يابن أنحى ما يسرنى أن العُوطة عليها رجال مثل يزيد . فقال له يزيد ”مه يا أمير المؤمنين ! ابن أخيك آستعمل الدالة عليك ، وآستعتبك لنفسه ، وآستراد منك فزده وأجمل له فى ردك ، وآحمل على نفسك ، وولّه خراسان بشفاعتى وأعنه بما يظهر به موروثه“ فؤلاه معاوية خراسان ، وأجازه بمائة ألف درهم ؛ فكان ذلك أعجب ما ظهر من حلم يزيد .

(١) الذى فى المثل من أراد المحاجزة فقبل المناجزة . ولعل ما هنا تصحيف ان لم يكن من تصرف المنشى .

ومن ذلك ما يروى أن زيد بن منبه قدم على معاوية فشكا إليه ديناً لزمه فأعطاه ستين ألف درهم، وكان عتبة بن أبي سفيان قد تزوج ابنة يعلى أختي زيد بن منبه، وهو يومئذ عامل بمصر — فقال له معاوية : الحق بصهرك ”يعنى عتبة“ فقدم عليه مصر فقال : ”إني سرت إليك شهرين أخوض فيهما المتألف : ألبس أردية الليل مرة وأخوض في لبح السراب أخرى، مؤقراً من حُسن الظن بك، وهاربا من دهر قَطم، ودين أزم، بعد غنى جدعنا به أنوف الحاسدين، فلم أجد إلا إليك مهرباً وعلية معولاً — فقال عتبة : مرحباً بك وأهلاً! إن الدهر أعاركم غنى وخطبكم بنا ثم آسرتد وأخذ ما أمكنه أخذه، وقد أبقى لكم منا مالا ضيقة معه وأنا رافع إليك يدى بيد الله“ فأعطاه ستين ألفاً كما أعطاه معاوية .

ومن ذلك ما يحكى أن عبد العزى بن زُرارة وفد على معاوية وهو سيد أهل الوبر، فلما أذن له وقف بين يديه وقال يا أمير المؤمنين لم أزل أهرُّ ذوائب الرجاء إليك ، ولم أجد معولاً إلا عليك ، أمتطى الليل بعد النهار، وأسيمُ الجاهل بالآثار، يقودنى إليك أمل، ويسوقنى إليك بلوى، والمجتهد يُعذر، وإذ بلغتك فقط . فقال معاوية فاحطط عن راحلتك رحّلها .

وخرج عبد العزى هذا مع يزيد بن معاوية إلى الصائفة وأبوه زُرارة عند معاوية فهلك هناك : فكتب يزيد إلى أبيه معاوية بذلك — فقال معاوية لزُرارة : أتانى اليوم نعى سيد شباب العرب — قال زُرارة يا أمير المؤمنين هو أبى أو أبنتك؟ — قال بل أبنتك فقال ”للموت ما تلد الوالدة“ . أخذ بعضهم هذا المعنى فقال

وَلِلْمَوْتِ تَغْدُو الْوَالِدَاتُ سِخَالَهَا * كَمَا لِحَرَابِ الدَّهْرِ تَبْنَى الْمَسَاكِينَ

ومن ذلك ما يروى، أن مروان بن الحكم، وهو ووال على المدينة في خلافة معاوية حبس غلاماً من بني ليث في جناية جناها بالمدينة، فأنته جدّة الغلام ”وهى أم

(١) سِنَانِ بِنْتُ جَشْمِيَةَ بْنِ خَرْشَةَ الْمَذْحِجِيَّةِ، فَكَلَّمَتْهُ فِي الْغَلَامِ، فَأَغْلَظَ لَهَا مِرْوَانَ، فَخَرَجَتْ إِلَى مَعَاوِيَةَ فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ فَأَنْتَسَبَتْ لَهُ فَعَرَفَهَا، فَقَالَ: مَرَحِبًا بَابِنَةِ جَشْمِيَةَ مَا أَقْدَمَكَ أَرْضَنَا؟ وَقَدْ عَهْدَتُكَ تَسْتَمِينَا، وَتُحْضِينِ عَلَيْنَا عِدْوَنَا، قَالَتْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! إِنَّ لِبْنِي عَبْدِ مَنَاةٍ أَخْلَاقًا طَاهِرَةً، وَأَعْلَامًا ظَاهِرَةً، لَا يَجْهَلُونَ بَعْدَ عِلْمٍ، وَلَا يَسْفَهُونَ بَعْدَ حِلْمٍ، وَلَا يَسْتَمُونَ بَعْدَ عَفْوٍ، وَإِنْ أَوْلَى النَّاسِ بِاتِّبَاعِ مَا سَنَّ آبَاؤُهُ لِأَنْتَ، قَالَ: "صَدَقْتَ نَحْنُ كَذَلِكَ فَكَيْفَ قَوْلُكَ:"

عَرَبَ الرَّقَادُ فَمُقَلَّتِي لَا تَرْقُدُ * وَاللَّيْلُ يُصْدِرُ بِالْهُمُومِ وَيُورِدُ
يَا آلَ مَذْحِجٍ لَا مُقَامَ فَشَمِّرُوا * إِنَّ الْعَدُوَّ لَالَ مَذْحِجٍ يَقْصِدُ
هَذَا عَلَيَّ كَالْهَلَالِ تَحْفُهُ * وَسَطَ السَّمَاءِ مِنَ الْكَوَاكِبِ أَسْعَدُ
خَيْرُ الْخَلَائِقِ وَأَبْنُ عَمِّ مُحَمَّدٍ * إِنَّ يَهْدِيَكُمْ بِالنُّورِ مِنْهُ تَهْتَدُوا
مَا زَالَ مُدَّ شَهْدِ الْحُرُوبِ مَظْفَرًا * وَالنَّصْرُ فَوْقَ لِيَاؤِهِ مَا يُفْقَدُ،

قَالَتْ قَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ لَنَا خَلْفًا بَعْدَهُ، فَقَالَ رَجُلٌ
مِنْ جَلَسَائِهِ كَيْفَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ وَهِيَ الْقَائِلَةُ:

إِنَّمَا هَلَكْتَ يَا أبا الْحُسَيْنِ فَلَمْ تَزَلْ * بِالْحَقِّ تُعْرِفُ هَادِيًا مَهْدِيًا
فَأَذْهَبَ عَلَيْكَ صَلَاةُ رَبِّكَ مَا دَعَتْ * فَوْقَ الْعُصُونِ حَمَامَةٌ قُرْبِيًا
قَدْ كُنْتَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ خَلْفًا لَنَا * أَوْصِي إِلَيْكَ بِنَا وَكُنْتَ وَفِيًا
وَالْيَوْمَ لَا خَلْفَ يُؤْمَلُ بَعْدَهُ * هِيَاتَ نَأْمَلُ بَعْدَهُ إِنْ سِيَا

قَالَتْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: لِسَانُ نَطْقٍ، وَقَوْلُ صَدَقٍ، وَلَئِنْ تَحَقَّقَ فِيكَ مَا ظَنَّنَاهُ،
فَحَفْظُكَ الْأَوْفَرُ، وَاللَّهِ مَا أَوْرَثَكَ الشَّنَّانَ، فِي قُلُوبِ الْمَسَامِينِ إِلَّا هَوْلَاءُ، فَأَدْحِضْ

(١) لم نعثر على أسم هذه الصيغة فليحرق.

مقاتلهم، وأبعد منزلتهم، فإنك إن فعلت ذلك تزدد من الله قُرْبًا، ومن المسلمين حُبًّا. قال وإنك لتقولين ذلك؟ قالت: سبحان الله! والله ما مثلك من مدح باطل، ولا اعتدِر إليه بكذب، وإنك لتعلم ذلك من رأينا، وضمير قلبنا. كان عليّ - والله أحبُّ إلينا منك، وأنت أحبُّ إلينا من غيرك. قال ممن؟ قالت من مروان وسعيد بن العاص - قال وبم استحققت ذلك عندك؟ - قالت بسعة حاكم، وكريم عَفوك - قال وإنيهما يطمعان في ذلك - قالت هما والله من الرأى علي ما كنت عليه لعثمان بن عفان - قال لقد قاربت فما حاجتك؟ - قالت: يا أمير المؤمنين! إن مروان تبتك^(١) في المدينة تبتك من لا يريد منها البرّاح، لا يحكم بعدل، ولا يقضى بسنة، يتبع عورات المؤمنين؛ حبس ابن أبي فأتيتسه فقال كيئت وكيئت، فأسمعتُه أحسن من الحجر، وألقمته أمر من الصبر. ثم رجعت إلى نفسي باللائمة، وقلت لم لأصرف ذلك إلى من هو أولى بالعمو منه؛ فأنتك يا أمير المؤمنين، لتكون في أمرى ناظرًا، وعليه معديا - قال صدقت لأسألك عن ذنبه، والقيام بحجته، اكتبوا لها بإطلاقه - قالت يا أمير المؤمنين وأنى بالرجعة وقد نَفد زادي، وكَلَّت راحتي، فأمر لها براحة موطأة وخمسة آلاف درهم.

ومن ذلك ما روى أن معاوية حج فسأل عن امرأة من بنى كنانة كانت تنزل الجحون يقال لها الدارميّة، وكانت سوداء كثيرة اللحم، فأخبر بسلامتها بنى بها، فقال ما حالك يا أبنة حاتم؟ - قالت لست لحام أدعى، إن عبتني أنا امرأة من بنى كنانة - قال: صدقت أتدرين لم أرسلت إليك؟ قالت لا يعلم الغيب إلا الله - قال: بعثت إليك لأسألك علام أحببت عليا وأبغضتيني، وواليتيه وعاديتيني؟ - قالت أو تعفيني

يا أمير المؤمنين - قال لا أُعْفِيكَ - قالت أما إذا أُبِتت ، فإني أحببت عليا علي عَدْلِهِ
 فِي الرعية ، وَقَسَمَهُ بالسوية ؛ وَأَبْغَضْتِكَ علي قَتَالِكَ مَنْ هُوَ أَوْلَى بِالْأَمْرِ مِنْكَ ، وَطَلَبِكَ
 مَا لَيْسَ لَكَ بِحَقِّ ؛ وَوَالَيْتُ عليا علي مَا عَقِدَ لَهُ مِنَ الْوِلايَةِ ، وَعَلَى حَبِّهِ الْمَسَاكِينَ ،
 وَإِعْظَامِهِ لِأَهْلِ الدِّينِ ؛ وَعَادِيَتِكَ علي سَفْكَكَ الدَّمَاءِ ، وَجَوْرِكَ فِي الْقَضَاءِ ، وَحَكَمِكَ
 بِالْهَوَى - قال ولذلك آتَنَفَخَ بَطْنُكَ ، وَعَظُمَ ثَدْيَاكَ ، وَرَبَّتْ عَجِيزَتُكَ - قالت يا هذا بهند
 كانت تضرب الأمثال ، لابي - قال يا هذه أَرَبِي فإنا لم نقل إلا خيرا إنه إذا آتَنَفَخَ
 بطن المرأة تَمَّ حَلْقُ ولدها ، وَإِذَا عَظُمَ ثَدْيَاهَا تَرَوَى رَضِيعَهَا ، وَإِذَا عَظُمَتْ عَجِيزَتُهَا رَزُنَ
 مجلسها فرجعت وسكنت - قال لها فهل رأيت عليا؟ قالت لقد كنت رأيتهُ -
 قال كيف كنت رأيتهُ ، قالت رأيتهُ لم يفتنه المَلِكُ الذي فتنتك ، ولم تشغله النعمة
 التي شغلتك - قال لها : فهل سمعتِ كلامه؟ قالت : نعم ، والله كان يجلو القلوب من
 العمى ، كما يجلو الزيت الطست من الصدا - قال : صدقت فهل لك من حاجة ؟
 قالت : وتفعل إذا سألتك؟ - قال نعم - قالت : تعطيني مائة ناقة حمراء فيها خيلها وراعيها -
 قال تصنعين بها ماذا؟ - قالت أُغْذِي بِالْبَانِهَا الصَّغَارَ ، وَأَسْتَحْيِي بِهَا الْكِبَارَ ، وَأُصْلِحَ
 بِهَا بَيْنَ الْعَشَائِرِ - قال فإن أعطيتك ذلك فهل أحلُّ عندك محلَّ علي؟ - قالت ماءٌ
 ولا كصَدَاءِ ، ومرعَى ولا كالسعدان ، وفقى ولا كالك ، ياسبحان الله أودونه ، فأنشأ
 معاوية يقول :

إِذَا لَمْ أَعُدْ بِالْحِلْمِ مَنِّي إِلَيْكُمْ * فَمَنْ ذَا الَّذِي بَعْدِي يُؤْمَلُ لِلْحِلْمِ ؟
 خُذِيهَا هَيْئًا وَأَذْكَرِي فِعْلَ مَا جِدَّ * جَزَاكَ عَلَى حَرْبِ الْعَدَاوَةِ بِالسَّلْمِ .

ثم قال : أما والله ! لو كان عليا ما أعطاك منها شيئا - قالت والله ولا وبرة واحدة

من مال المسلمين .

ومن ذلك ما يروى أن أم البراء بنت صفوان آستأذنت على معاوية فأذن لها فدخلت عليه، وعليها ثلاثة دروع برود تسحبها ذراعا، قد لاثت على رأسها كورا كالمنسف فسأمت وجلست؛ فقال لها معاوية كيف أنت يا ابنة صفوان؟ - قالت بخير يا أمير المؤمنين - قال كيف حالك؟ - قالت كسيت بعد نشاط - قال شتان بينك اليوم وحين تقولين :

يَا زَيْدُ دُونَكَ صَارِمًا ذَا رَوْنِقٍ * عَضِبَ الْمَهْزَةَ لَيْسَ بِالْحَوَارِ
أَسْرِحْ جَوَادَكَ مُسْرِعًا وَمَشْمَرًا * لِلْغُرَبِ غَيْرَ مَعُودٍ لِفِرَارِ
أَجِبِ الْإِمَامَ وَذُبُّ تَحْتَ لَوَائِهِ * وَالقَّ الْعَدُوَّ بِصَارِمٍ بَتَّارِ
يَا لَيْتَنِي أَصْبَحْتُ لَسْتُ قَعِيدَةً * فَادَّبَ عَنْهُ عَسَاكِرَ الْفُجَّارِ

قالت قد كان ذلك، ومثلك من عفا عما سلف (وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ). قال هيئات، أما والله لو عاد لعديت، ولكنه اخترم منك - قالت أجل! والله إني لعلى بيته من ربي وهدي من أمرى - قال كيف كان قولك حين قتل؟ - قالت أنسيته؛ قال بعض جلسائه هو والله حين تقول :

يَا لِلرِّجَالِ لِعُظْمِ هَوْلِ مُصِيبَةٍ * فَدَحَتْ فَلَيْسَ مُصَابَهَا بِالْحَائِلِ
الشَّمْسُ كَأَسِيفَةٍ لَفَقْدِ إِمَامِنَا * خَيْرِ الْخَلَائِقِ وَالْإِمَامِ الْعَادِلِ
حَاشِيَ النَّبِيِّ لَقَدْ هَدَدَتْ قُورَاءَنَا * فَالْحَقُّ أَصْبَحَ حَاضِعًا لِلْبَاطِلِ^(١)

فقال معاوية : قاتلك الله فما تركت مقالا لقائل ، أذكري حاجتك - قالت أما الآن فلا ، وقامت فعثرت ، فقالت تعس شاني على! فقال زعمت أن لا؛ قالت هو كما علمت ؛ فلما كان من الغد بعث إليها بجائزة ، وقال إذا ضيعت الحلم فمن يحفظه ؟

(١) جمع القوة قوى مقصور وإنما مد للضرورة .

ومن ذلك أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عدى بن أرطاة : أن أجمع بين إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة فولّ القضاء أنفذهما ، بجمع بينهما ، وكانا غير راغبين في القضاء . فقال إياس : أيها الرجل سلّ عنى وعن القاسم فقيهى المصر الحسن وأبن سيرين ، وكان القاسم يأتى الحسن وأبن سيرين ، وإياس لا يأتيهما ، فعلم القاسم أنه إن سألهما عنه أشارا به ، فقال له : لا تسأل عنى ولا عنه ، فوالله الذى لا إله إلا هو إن إياس بن معاوية أفتقه منى وأعلم بالقضاء ، فإن كنت كاذبا فما أشير عليك أن تولينى وأنا كاذب ، وإن كنت صادقا فينبغى لك أن تقبل قولى — قال له إياس إنك جئت برجل فوقفت به على شفير جهنم فنجى نفسه منها يمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو مما كان — قال له عدى : أما إذ فهمتها فأنت لها فاستقضاه .

ومن ذلك : ما حكاه صاحب العقد عن زياد عن مالك بن أنس ، قال "خطب أبو جعفر المنصور ، فحمد الله ، وأثنى عليه ؛ ثم قال : أيها الناس اتقوا الله ، فقام إليه رجل من عرض الناس ، فقال أذكرك الذى ذكرتنا به . فأجابه أبو جعفر بلا فكرولا رويّة : سمعنا سمعنا لمن ذكر بالله ، وأعوذ بالله أن أذكرك به وأنساه فتأخذنى العزة بالإثم ؟ لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين ؛ وأما أنت فوالله ما الله أردت بهذا ، ولكن ليقال قام فقال ، فعوقب فصبر ، وأهون بها لو كانت ؛ وأنا أنذركم أيها الناس أختها ، فإن الموعدة علينا نزلت ، وفيها أنبئت . ثم رجع إلى مكانه من الخطبة .

ومن ذلك : ما يحكى عن الربيع قال : كنا وقفا على رأس المنصور ، وقد طُرحت للهدى بن المنصور وسادة إذ أقبل صالح بن المنصور ، وكان قد رشحه أن يوليه بعض أمره ، فقام بين السماطين والناس على قدر أنسابهم ومواضعهم ، فتكلم فأجاد ، فمد

المنصورُ يده إليه ، ثم قال يا بُنَيَّ ! وأعتنقه ، ونظر في وجوه أصحابه هل فيهم أحد يذكّر مقامه ويصف فضله ، فكلهم كره ذلك وهاب المهديّ ، فقام شبة بن عقّال التيميّ ، فقال : "لله درّ خطيب قام عندك يا أمير المؤمنين ! ما أفصح لسانه ! وأحسن بيانه ! وأمضى جناته ! وأبل ريقه ! وأسهل طريقه ! . وكيف لا يكون كذلك وأمير المؤمنين أبوه ، والمهديّ أخوه ، وهو كما قال زهير بن أبي سُلميّ :

يَطْلُبُ شَأْوَ أَمْرَيْنِ قَدَمًا حَسَنًا * بَدَأَ الْمَلُوكَ وَبَدَأَ هَذِهِ السُّوقَا
هُوَ الْجَوَادُ فَإِنْ يَلْحَقُ بَشَأَوْهُمَا * عَلَى تَكَالُفِهِ فَمَثَلُهُ لِحَقَا
أَوْ يَسْبِقَاهُ عَلَى مَا كَانَ مِنْ مَهَلٍ * فَمَثَلٌ مَا قَدَمَا مِنْ صَالِحٍ سَبَقَا

قال الربيع : فأقبل عليّ بعض من حضر ، وقال والله ما رأيت مثل هذا تخلّصاً ^(١) أرضى أمير المؤمنين ، ومدح الغلام ، وسلم من المهديّ . فالتفت إلى المنصور ، وقال : ياربيع لا ينصرف التيمي إلا بثلاثين ألف درهم .

ومن ذلك ما حكى أنّ رجلاً دخل على المهديّ وليّ عهد المنصور ، فقال يا أمير المؤمنين إن أمير المؤمنين المنصور شتمني وقذف أمي ، فإما أمرتني أن أحلله ، وإما عوّضتني فاستغفرت له — قال ولم شتمك ؟ — قال شتمت عدوّه بحضرتة ، فغضب — فقال ومن عدوّه الذي غضب لشمته — قال إبراهيم بن عبد الله بن حسن — قال إن إبراهيم أمسّ به رحماً ، وأوجبّ عليه حقاً ، فإن كان شتمك كما زعمت فعن رحمة ذبّ ، وعن عرضه دفع ، وما أساء من أنتصر لأبن عمه — قال فإنه كان عدوّه — قال فلم ينتصر للعداوة ، وإنما أنتصر للرحم ، فأسكت الرجل ، فلما ذهب ليوتّي قال : لعلك أردت أمراً فلم تجد له ذريعةً عندك أبلغ من هذه الدعوى؟ — قال نعم ، فتبسم وأمر له بخمسة آلاف درهم .

ومن ذلك ما حكى: أن المنصور قال لبعض قواده: صدق الذى قال "أَجْعُ كَلْبَكَ يَتَّبِعَكَ" فقال له أبو العباس الطوسى: أما تخشى يا أمير المؤمنين أن يلوح له غيرك رغيفا فيتبعه ويدعك .

ومن ذلك ما يحكى: أنه وفد أهل الحجاز من قريش على هشام بن عبد الملك بن مروان، وفيهم محمد بن أبي الجهم بن حذيفة العدوى، وكان أعظمهم قدرا، وأكبرهم سنا؛ فقال - أصلح الله أمير المؤمنين، إن خطباء قريش قد قالت فيك، وأقلت وأكثرت وأطنبت، وما بلغ قائلهم قدرك، ولا أحصى مطئبيهم فضلك؛ وإن أذنت فى القول قلت - قال قُلْ وأوجز - قال تولاك الله يا أمير المؤمنين بالحسنى، وزينك بالتقوى، وجمع لك خير الآخرة والأولى! إن لى حوائج أفأذكرها، قال هاتها - قال كبرت سنى ودق عظمى، ونال الدهر منى؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يجبر كسرى، وينفى فقرى - قال: وما الذى ينفى فقرى ويجبر كسرك؟ - قال ألف دينار، وألف دينار، وألف دينار. فأطرق هشام طويلا، ثم قال: هيات يا بن أبي الجهم، بيت المال لا يحتمل ما سألت - فقال: أما إن الأمر لواحد، ولكن الله أترك لمجلسك فإن تعطنا خفتنا أدت، وإن تمنعنا نسال الذى بيده ما حوت؛ إن الله جعل العطاء محبة، والمنع مبغضة، ولأن أجبك أحب^(١) إلى من أن أبغضك - قال: فألف دينار لماذا؟ - قال أفضى بها دينا قد حُم قضاؤه، وحنانى حمله، وأضربى أهله - قال: فلا بأس تُنفس كربة، وتودى أمانة؛ وألف دينار لماذا؟ - قال أزوج بها من بلغ من ولدى - قال: نعم المسلك سلكت، أغضضت بصرا، وأعققت ذكرا، ورؤجت نسلا؛ وألف دينار لماذا؟ - قال

(١) فى الأصل . ولئن وهو خطأ فى الرسم .

أشترى بها أرضا يعيش بها ولدى ، وأستعين بفضلها على نوائب دهرى ، وتكون
 ذُنْحرا لمن بعدى ؛ قال : فإننا قد أمرنا لك بما سألت — قال فالمحمودُ اللهُ على ذلك ،
 ونخرج — فقال هشام : ما رأيت رجلا أوجز في مقال ، ولا أبلغ في بيان منه ، وإنا لنعرف
 الحق إذا نزل ، ونكره الإسراف والبخل ، وما نُعطى تبذيرا ، ولا نمنع تقتيرا ، وما
 نحن إلا خُرَّان الله في بلاده ، وأمناؤه على عباده ، فإن أُذِنَ أعطينا ، وإذا منع أبينا ،
 ولو كان كل قائل يصدق ، وكلُّ سائل يستحق ، وما جبهنا قائلًا ، ولا ردَّدنا سائلًا ؛
 فنسأل الذى بيده ما استَحَقُّظنا أن يُجْرِيه على أيدينا فإنه يَسُطُّ الرِّزْقَ لمن يَسَاءُ
 ويقدر ، إنه كان بعباده خيرا بصيرا . فقالوا يا أمير المؤمنين لقد تكلمت فأبلغت ،
 وما بلغ في كلامه ما قصصت ، فقال إنه مبتدى ، وليس المبتدى كالمُتدى .

والحكايات والأخبار في ذلك كثيرة ، والإطناب يُخرج عن المقصود ، ويؤدى
 إلى الملل ، وفيما ذكرنا من ذلك مقنع والله أعلم .

المقصود الثالث

(فى كيفية تصرف الكاتب فى مثل هذه المكاتبات والرسائل)

غير خاف على من تعاطى صناعة النثر والنظم أنه لا يستقلُّ أحد باستخراج جميع
 المعانى بنفسه ، ولا يستغنى عن النظر فى كلام من تقدمه : لأقتباس ما فيه من المعانى
 الرائقة ، والألفاظ الفائقة ، مع معرفة ترتيب أهل كل زمن وأصطلاحهم ، فينسج
 على منوالهم ، أو يقترح طريقة تخالفهم ؛ وتوارد الكتاب والشعراء على المعانى غير
 مجهول ، فإن التوارد يقع فى الشعر الذى هو مبنى على أصل واحد من وزن وقافية ،
 فإنه إذا وقف على المعنى وترتيب الكلام ، عرف كيف ينسج الكلام ؛ مثل أن

يكتب في تهئة بمولود: قد جعلك الله من نَبْعَة طابَتْ مَغَارِسُهَا ، ورَسَخَتْ عُرْوَقُهَا ، فالزِيَادَةُ فِيهَا زِيَادَةٌ فِي جَوْهَرِ الْكَرَمِ ، وَذَخِيرَةٌ نَفِيسَةٌ لِدَوَى الْإِقْبَالِ ، فتَوَلَّى اللهُ نِعْمَهُ عِنْدَكَ بِالْحِرَاسَةِ الْوَاقِيَةِ ، وَالْوَالِيَةِ الْكَافِيَةِ . وقد بَلَغَنِي الْخَبْرُ بِحُدُوثِ الْوَلَدِ الْمُبَارِكِ ، وَالْفَرَعِ الطَّيِّبِ ، الَّذِي عَمَّرَ أَفْنِيَةَ السِّيَادَةِ ، وَأَضْحَكَ مَطْلَعَ السَّعَادَةِ ، فَبَاشَرْتُ بِذَلِكَ وَأَتَهَّجْتُ بِهِ ، فَعَمِلَهُ اللهُ بَرًّا تَقِيًّا ، سَعِيدًا حَمِيدًا ، يَتَقَبَّلُ سَلْفَهُ ، وَيَقْتَنِي أَثْرَهُمْ ؛ وَأَيَّمَنَ بِهِ عِدْدَكَ ، وَكَثَّرَ بِهِ ذُرِّيَّتَكَ ، وَأَوْزَعَكَ الشُّكْرَ عَلَيْهِ ، وَأَجَارَكَ فِيهِ مِنَ التُّكْلِ بِرَحْمَتِهِ .

فِيأخِذُ آخِرَ الْمَعْنَى ، وَيُورِدُهُ بِالْفِصَالِ أُخْرَى ، يَقُولُ : قَدْ جَعَلَكَ اللهُ مِنْ شَجَرَةٍ زَكَّتْ غُصُونُهَا ، وَفَرَعُ شُرْفَتِهَا مَنَابِتُهُ ، فَانْمُؤِ فِيهَا نِعْمَةٌ كَامِلَةٌ السَّعَادَةِ ، وَغِبْطَةٌ شَامِلَةٌ السَّرُورِ ، فَتَوَلَّى اللهُ فَضْلَهُ عَلَيْكَ بِالْحِفَاطِ الرَّاعِي ، وَالِدِّافِ الْكَالِي ؛ وَقَدْ أَتَصَلَ بِى خَيْرِ السَّلِيلِ الرَّضَى ، وَالْوَلَدِ الصَّالِحِ الَّذِي جَدَّدَ فَوَائِدَ السِّيَادَةِ ، وَثَبَّتَ أَسَاسَ الرَّفْعَةِ ، فَاعْتَبْتُ بِهِ وَأَسْتَبَشَرْتُ ، جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَى وَلَدًا مَيْمُونًا ، وَنَجْلًا سَعِيدًا ، يَسْلُكُ مَنَاجِحَ سَلْفِهِ ، وَيُحْدِثُ فِي الْحَاسِنِ حَذُوهُمْ ، وَزَادَ بِهِ فِي ثَرْوَتِكَ ، وَأَرَاكَ فِيهِ غَايَةَ أَمَلِكَ ، وَسِرِّكَ بِوُجُودِهِ ، وَأَسْعَدَكَ بِرُؤْيَيْتِهِ .

فَالْمَعْنَى وَالْفِصَالُ وَاحِدٌ ، وَالْأَلْفَاظُ مُخْتَلِفَةٌ . وَكَذَلِكَ مَا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى وَمَا فِي مَعْنَاهُ .

قُلْتُ : وَلَا يَنْهَضُ بِمِثْلِ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ رَسَخَتْ فِي صِنْعَةِ الْكِتَابَةِ قَدَمُهُ ، وَأَمْتَرَجَ بِأَجْزَاءِ الْفِصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ لِحْمِهِ وَدَمُهُ ؛ وَهَذَا الْمَنْهَجُ هُوَ أَحَدُ أَنْوَاعِ الْإِعْجَازِ فِي الْقِرْآنِ الْكَرِيمِ ، فَإِنَّ الْقِصَّةَ الْوَاحِدَةَ تَتَكَرَّرُ فِيهِ مَرَارًا فِي سُورٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، تَرْدُ فِي كُلِّ سُورَةٍ بِلَفْظٍ وَتَرْكِيْبٍ غَيْرِ الَّذِي وَرَدَتْ بِهِ فِي الْأُخْرَى ، مَعَ اسْتِيفَاءِ حُدِّ الْبَلَاغَةِ وَنَهَايَةِ أَمْدِ الْفِصَاحَةِ ؛ وَلِذَلِكَ قَلَّ مَنْ سَلَكَ هَذَا الْمَنْهَجَ ، أَوْ رَتَبِي هَذِهِ الذُّرُورَةَ ، وَقَدْ أَتَى عَلِيَّ بْنَ

حمزة بن طلحة في كتابه "الأقتداء بالأفاضل" من ذلك بالعجب العجيب، فإنه قد استحسن كلام الخطيب ابن نباتة الفارقي، والأمير قابوس الخراساني، والوزير أبي القاسم المقرئ، والصاحب ابن عباد، وأبي إسحاق الصابي، الذين هم رؤساء الكتابة، وأئمة الخطابة، من الرسائل والعهود البديعة، والخطب الموجزة الرائقة، فجرد معانيها من ألفاظها، وأخترع لها ألفاظا غير ألفاظها، مع زيادة تميم، ومراعاة ترصيف، على أتم نظام، وأحسن ألتتام .

وهاتان نسختا كتابين، الأولى منهما كتب بها أبو إسحاق الصابي عن عز الدولة ابن بويه جوابا عن كتاب وصل إليه عن أخيه عضد الدولة يخبره بمولود ولد له .
والثانية عارض بها علي بن حمزة المذكور أبا إسحاق الصابي في ذلك بألفاظ أخرى مع اتحاد المعنى .

فأما التي كتب بها أبو إسحاق الصابي عن عز الدولة إلى عضد الدولة فهي :

"وصل كتاب سيدي الأمير عضد الدولة أطل الله بقاءه بالخبر السار للأولياء ، الكابيت للأعداء، في الولد الحبيب الأثير، والسيد المقيّل الخطير، الذي زاد الله به في عددنا، وجدّد نعمه عندنا، وحقق فيه آمالنا والآمال لنا؛ فأخذ ذلك مني مأخذ الأغباط ونزل عندي أعلى منازل الأتجاج، وسألت الله تعالى أن يختصه بالبقاء الطويل، والعمر المديد، وأن يجعل مواهبه لسيدى الأمير ناميةً بنوه، ناشيةً بنشوه : ليكون كل يوم من أيامه مُمدّا له من فضله عاده، وواعدّا له من غده زياده، ومُحدّثا لديه منحةً تُتضاعف إلى ما سبق من أمثاله، ومُحدّدا له عازمة تتلو ما سلف من أشكالها؛ وأن يريه إياه غزوةً في وجه دولته، ووارثا بعد سالفه البقاء لمزنته، قائما لللك قيامه، وسادا منه مكانه؛ ويهبّ له بعد الأكارب النجباء السابقين، أترابا من الإخوة لاحقين،

• تابع منهم من مباراة المتبوع، وشافع من مجاراة المشفوع، في فائدة تقدم بمقدمه، وعائدة ترد بمورده؛ ويحرس هذه السعادة من خلل يعترض اتصالها، أو فترة تخترم زمانها، أو نائبة تشوبها، أو تنغصها، أو رزية تشلها، أو تنقصها. إلا أنها الأمد الأبعد^(١) والعمر الأطول؛ ثم تفضى به غصارة هذه الدار الدنيا، إلى قرارة الدار الأخرى، مبقواً أو في مراتبها، مبلغاً أقصى مبالغها، حالاً أرفع درجاتها، مختصاً بأنعمها، مبتهجا بها، مستثمراً ما قدمه لصالح سعيه، ومستوفياً ما أفاءه عليه متجره الراجح، وآثاره البادية لإنفاقه في أيام نظرى التي استشعرت نورا من سنائه، وآنست جمالا من بهائه، وثابت مصالحها ببركته، وتوافت خيراتها بيمينه؛ واعتقدت أن السعادات طالعة على بمطاعه، وأسبابها ناجمة إلى بمنجمه؛ فلو استطعت أن أكون مكان كتابي هذا مشافها بالتهنئة لسيدى الأمير عضد الدولة أطل الله بقاءه ومقبلاً لبساطه، لكنت أولى عبده بالمسارعة إلى بابه، وأحققهم بالمبادرة إلى فيئائه: لأننى معوق عن تلك الخدمة بخدمة أنافيا من قبله، ومقيم بهذه الحضرة، إقامة المتصرفين تحت أمره، وقد وقيت نعمة الله تعالى، الواهب منه أيده الله تعالى ما يقتر عين الولي، ويقذني عين العدو ويطرفها، حققها من الشكر الممتري للقيام والمزيد، بدوام العز والتأييد؛ وأسأل الله تعالى أن يجعل ذلك مقبولاً عنه، ونافعاً له، وعائداً عليه وعلينا بطول العمر وبياهي النشوق والنماء، وأن يعزف سيدى الأمير عضد الدولة أيده الله بركة مولده، ويؤمن مورده، ويبقيه حتى يراه والأمرء السابقين أيدهم الله تعالى آباء أمنائهم، وأشياخ ذريتهم، مبلغاً في كل منهم أفضل ما رشحت له أمانيه، وأعلى ما أنبسطت آماله فيه، بقدرته. وأنا أتوقع الكتاب بما يقتر عليه اسم الأمير السيد وكنيته، أعلاها الله تعالى لأستأنف إقامة الرسم في مكاتبته، وتأدية الفرض في خدمته؛ وسيدى عضد الدولة،

(١) لعله إلى إنهاء كما يفيد السياق . (٢) كذا في الأصول وليحرر.

أطال الله بقاءه، أعلى عينا فيما يراه بمطالعتي بذلك وبكل ما يؤليه الله من مستأنف
نعمه، ويجتده له في حادث مواهبه له، لآخذ بحظي منهما، فأضرب بسهمي فيهما،
وتصريفى بين أمره ونهيه، وتشريفى بعوارض خدمته، إن شاء الله تعالى .

وأما التى عارضها بها على بن حمزة بن طلحة فهى :

وصلنى كُتَّابُ سِيدى الأَمِيرِ عَضُدِ الدَّوْلَةِ ، أطال الله بقاءه ، بالبشرى المبتسمة
عن ناجذ السعد الآنف ، والتَّعْمَى المُنْتَسِمَةَ عن صبا المجد المتضاعف ؛ التى أشرقَتْ
مطالع الإقبال عن مُحْيَاها ، وتضوَعَتْ نَفَحَاتُ دَرَكِ الآمالِ عن رِيَّاهَا ، وصدقت
من الأولياء ظُنُونهم المرتقبه ، وآتَّخَبَتْ من الأعداء عُيُونهم المرتعبه ؛ بالولد النجيب
الخطير ، الأمير الحبيب الظهير ، المجد المعمر ، المقيّل المؤمّر ، الذى كثر الله به عدَدنا
معشر أهليه ، وُعدَدنا بما نرتقبه منه ونُراعيه ، وهو تَكْرِمَةٌ مُحَقَّقٌ ظَنُونا بما له نَتيجيه ،
وما نُؤمِّله من السعادة المقبلة فيه ؛ فاستفزتنى غِبْطَةُ آسْتَحوذتْ على جوامع لُبِّي ،
وتملكتنى بهجَةٌ ثَوَتْ فى مَرَّابِعِ قَلْبِي ؛ وَطَفِقَتْ مَبْتَهَلًا ، وتضَرَّعت متوسلا ، إلى ذى
العَرشِ المَجدِ ، الفَعَّالِ لِمَا يُريدُ ، أن يجمع له بين العُمُرِ المديدِ ، والحَدِّ السعيدِ ، كِفَاءً
ماقرن له بين المجد العتيد ، والمُلْكِ الوطيد ؛ وأن يجعل تَحِيَّاتِ أَيْادِيهِ لِدَى سِيدى
الأَمِيرِ متضاعفة الأعداد ، مترادفة الأمداد ، مبشرة بُحْبَاءِ الأَوْلادِ ، يربى آنفها على
السالف بسعده ، ويُلْهِى عن تالدها الطارف بعلو مجده ؛ وأن يريه إِيَّاهِ على مَفْرَقِ
دولته ، وَغُرَّةِ شَرْقِ فى جبهة ذرئته ، وناهضا بأعباء مملكته ، وقائما بنصرة دَعْوَتِهِ ،
حتى يرى أولاد أولاده جُدودًا ، مظفرا سعيدًا ؛ وأن يُتْبِعَهُ أترابا من الإخوة النجباء ؛
الأمجاد السعداء ؛ متجارين فى حَلَباتِ عُلوقِهم ، متبارين فى مَرِيَّاتِ إِيلاءِ النعم ؛
ليتراد آزدحام وُفُودِ السعادة فى عَتَباتِ بابِهِ ، ويتراقد أقتحام جنود الإقبال رحيب
جَنابِهِ ، ويحرس لديه ماخوله من مواهبه وأَيْادِيهِ ، ويحفظ عليه ما به فَضْلُهُ من مناقبه

ومعاليه ؛ و يقيه من كيد عائد إذا عند ، ويحميه من شر حاسد إذا حسد ؛ وأن يؤتية عائدتي العاجلة والعقبى ، ويحظيه بسعادتي الآخرة والأولى ؛ وأن يجعل سعيه في مصالح عباده مشكوراً ، ونظره في منابح بلاده مبروراً ؛ وأن يغادر متاجر بره وتقواه رابحاً ، كما جعل خواطر سره ونجواه صالحه ؛ فرياض الأيام بعده نواضر ، ونواظر الأنام إلى فضله نواظر ؛ ومصالحهم يمينه وبركته موافيه ، وبراعتهم بهمته وسعادته موافيه ؛ وإني لأعتقد أن مقبلي في آفياء السعادة ، ونبلي كل مأمول وإرادته ، وتوفيق فيما أوفق فيه ، بما أعتمده وآتية ، جَدول من تيار فضله وسعادته ، منوط العرى بسمو همته ؛ وأود أن أكون عوضاً عن كتابي هذا إليه ، وخطابي الوارد آنفاً عليه ؛ لأسعد بالألاء غرته ، وأحظى بالأشرف من خدمته ؛ أدام الله أيام دولته : لأني أجدر عبيده بالمهاجرة إلى بابه ، وأولى خدمه بالمبادرة إلى جنابه ؛ ولولا تحلى أعباء خدمته التي طوقنيها ، وكوني نائبه لدى هذه الحضرة فيها ، تاوياً بأوامره ونواهيها في مغانيها ، لما شق غباري من أم ذراه ، ولا أتبع آثارى مسرع رام لقياه . ولقد قمت بالواجب على للنعمة أيده الله المنزلة إلى ، والموهبة بمقدمه كلاًه الله المكملة لدى ، التي أضحت بها نواجد المخلص ضاحكة مستبشرة ، وأمست بسببها وجوه الكاشحين عابسة مستبشرة : من وافر شكر يمتري المزيد ، وعتق الإماء والعبيد ، والصدقة الدايزة على التأييد ؛ وأنا أرغب إلى الله تعالى رغبة متوسل إليه ، أمل بما لديه ، أن يجعل بركة كل خير درت به أخلافه ، وكرت لأجله أحلافه ، عائدة عليه ، وميامنه نائبة إليه ، مؤذنة بتعميره ملكاً حلاًحلاً ، لا يلقى مؤملوه ليم فضله ساحلاً ؛ وأن يمد لسيدى عضد الدولة في البقاء ، ويمتعه به وبسابقه من إخوته الأمراء ؛ ويريه فيهم وفيه ، قُصوى ماتسمو إليه هممه وأمانيه . وإني لمتوكف لما يصلني من كتاب نبي عن اسمه الكريم وكنيته ، لأعتمد ما أستوجهه في خدمته ومكاتبته ؛

وسيدى عضد الدولة أدام الله علاه، ولّى ما يستصوبه ويراه : من الأمر بمكاتبتى بذلك وبمتجددات النعم ، وأوانف المواهب الغالية التميم ، لآخذ وافر سهمى من السرور، وجزيل قسّمى من الحَدَل والحبور، وتصريفى بين أمره الممثل المطاع، ونبيه المقابل بالاتباع، إن شاء الله تعالى .

النوع العاشر

الأستكثار من حفظ الأشعار الرائقة، خصوصا أشعار العرب وما توفرت دواعى العلماء بها على آختياره : كالحماسة، والمفضّليات، والأصمعيات، وديوان هذيل، وما أشبه ذلك ؛ وفهم معانيها وآستكشاف غوامضها، والتوفر على مطالعة شروحها ؛ ويلتحق بذلك شعر المولدين من العرب، وهم الذين كانوا فى أوّل الإسلام : كجريد والفرزدق، والأخطل وغيرهم ؛ وكذلك حفظ جانب جيد من شعر المفلحين من المحدّين : كأبى تمام، ومسلم بن الوليد، والبحترى، وأبن الرومى، والمتنبى ونحوهم ؛ وفيه مقصدان :

المقصد الأول

(فى بيان أحتياج الكاتب إلى ذلك)

أما شعر العرب والمولدين فلما فى ذلك من غزارة المواد، وصحة الأستشهاد، وكثرة النقل، وصقل مرآة العقل، وأنتزاع الأمثال، والأحتذاء فى أختراع المعانى على أصح مثال ؛ والأطلاع على أصول اللغة وشواهداها ، والأضطلاع من نوادر العربية وشواردها . وقد كان الصدر الأوّل يعتنون بذلك غاية الأعتناء . قال محمد بن سلام عن بعض مشايخه ” كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا يكاد يعرّض له أمر إلا أنشد

فيه بيت شعر. وذكر صاحب "الريحان والريحان" عن سعيد بن المسيب أنه قال :
كان أبو بكر وعمر وعليّ يمجيدون الشعر وعليّ أشعر الثلاثة . قال : وكان عمر بن
الخطاب يقول أفضل صناعات الرجل الأبيات من الشعر يقدمها بين يدي حاجته
يستعطف بها الكريم ، ويستنزل بها اللئيم . وقد ذكر عن الشافعيّ رضي الله عنه
أو غيره من بعض الأئمة الأربعة : أنه كان يحفظ ديوان هذيل ، وأما قول الشافعيّ
رضي الله عنه .

وَلَوْلَا الشَّعْرُ بِالْعُلَمَاءِ يُرَى * لَكُنْتُ الْيَوْمَ أَشْعَرَ مِنْ لَيْدٍ

فإنه يريد منّ صرف همته إلى الشعر، بحيث صار شأنه ودينته، وهو المعنى بقوله
صلى الله عليه وسلم "لَإِنَّ يَمَلَأَ أَحَدُكُمْ جَوْفَهُ قَيْحًا خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمَلَأَهُ شَعْرًا" أى أراد
صرف همته إليه حتى يملأ جوفه منه . وقد قال صلى الله عليه وسلم "إِنَّ مِنَ الشَّعْرِ
لِحِكْمَةٌ" . وكان عمر رضي الله عنه يسمع البيت يُعجبه فيكرره مراتٍ كما ذكره
الحافظ وغيره . وقد ذكر أبو البركات بن الأنباريّ في كتاب "طبقات الأدباء"
في ترجمة أبي جعفر أحمد بن إسحاق البهلول بن حسان الأنباريّ : أنه كان فقيها ،
علما ، واسع الأدب وتقلد القضاء لعدة من الخلفاء . ثم حكى عن ولده أبي طالب
أنه قال كنت مع والدي في جنازة بعض أهل بغداد من وجود الناس وإلى جانبه
أبو جعفر الطبريّ ، فأخذ أبي يعظ صاحب المصيبة ويسلّيّه ، ويُشدد أشعارا ،
ويروى له أخبارا ، فداخله الطبريّ في ذلك ، ثم أتسع الأمر بينهما في المذاكرة ،
وخرجا الى فنون كثيرة من الأدب والعلم استحسناها الحاضرون وأُعجبوا بها ، وتعالى
النهار وأفترقنا ، فقال لي أبي يا بُنَيَّ مَنْ هذا الشيخ الذي داخلنا في المذاكرة؟ فقلت :
يا سيدي كأنك لم تعرفه ، فقال لا ، فقلت : هذا أبو جعفر الطبريّ ، فقال إنا لله !
ما أحسنّت عِشْرَتِي معه ؛ فقلت كيف ياسيدي ؟ قال : ألا نَبّهْتِي في الحال ،

فكنت أذاكره بغير تلك المذاكرة؟ هذا رجل مشهور بالحفظ والاتساع في صنوف العلوم ، ماذا كرته بحسبها ، ومضت على ذلك مدة فحضرنا في حق آخر وجلسنا ، وإذا بالطبري قد دخل إلى الحق . فقلت له : أيها القاضي هذا أبو جعفر الطبري قد جاء مقبلا ، فأوما إليه بالجلوس عنده ، فعدل إليه وجلس إلى جانبه ، وأخذ يحاربه ، فكما جاء إلى قصيدة ذكر الطبري منها أبياتا ، قال أبي : هاتها يا أبا جعفر إلى آخرها فيتلثم الطبري فينشدها أبي إلى آخرها ، وكلما ذكر شيئا من السير ، قال أبي هذا كان في قصة فلان ، ويوم بنى فلان ، مر يا أبا جعفر فيه فرمما مر فيه ، وربما تلثم ، فيمر أبي في جميعه . ثم قمنا ، فقال لي أبي : الآن شفيت صدري .

وأما أشعار المحدثين ، فللطيف مأخذهم ، ودوران الصناعة في كلامهم ، ودقة توليد المعاني في أشعارهم ، وقرب أسلوبهم من أسلوب الخطابة ، والكتابة ، وخصوصا المتنبي ، الذي كأنه ينطق عن ألسنة الناس في محاوراتهم ، وكثير الاستشهاد بشعره حتى قل من يجمله ؛ فإذا أكثر المترشح للكتابة من حفظ الأشعار وتدبر معانيها ، ساقه الكلام إلى إبراز ذخيرة ما في حفظه منها ، فاستعملها في محلها ، ووضعها في أماكنها ، على حسب ما يقتضيه الحال في إيرادها وأقتباس معانيها .

المقصود الثاني

(في كيفية استعمال الشعر في صناعة الكتابة)

علم أن للكتاب في استعمال الشعر في كتابته ثلاث حالات :

الحالة الأولى

(الاستشهاد)

وهو أن يُورد البيت من الشعر، أو البيتين، أو أكثر في خلال الكلام المشور مطابقا لمعنى ما تقدم من النثر، ولا يشترط فيه أن ينبه عليه بقال ونحوه كما يشترط في الاستشهاد بآيات القرآن والأحاديث النبوية، فإن الشعر يتميز بوزنه وصيغته عن غيره من أنواع الكلام، فلا يحتاج إلى التنبيه عليه. وأكثر ما يكون ذلك في المكاتبات الإخوانيات: مثل ما كتب به القاضي الفاضل إلى بعض إخوانه يستوحش منه، ويتشوق إليه:

فِيَارَبِّ إِنْ الْبَيِّنَ أَحْصَحْتَ صُرُوفَهُ * عَلَى، وَمَالِي مِنْ مُعَيَّنٍ فَكُنْ مَعِي
عَلَى قُرْبِ عُدَّالِي وَبُعْدِ أَحِبَّتِي * وَأَمْوَاهِ أَجْفَانِي وَنِيرَانِ أَضْلَعِي!

هذه تحية القلب المعدب، وسريرة الصبر المدبذب، وظلامه عزم السلوق المكذب، أصدرتها إلى المجلس وقد وقَد في الحشا نارها، الزفير أوارها، والدموع شرارها، والشوق آثارها، وفي الفؤاد نارها:

لَوْ زَارَنِي مِنْكُمْ خَيَالٌ هَاجِرٌ * لَهَدَّتْهُ فِي ظُلْمَانِهِ أَنْوَارُهَا

أسفا على أيام الأجماع التي كانت مواسم السرور والأسرار، ومباسم الثغور والأوطار، وتذكرا لأوقات عذب مذاقها، وأمتد بالأنس رواقها، وزوجت بكرها، ودوعب ذكرها:

وَاللَّهِ مَا نَسِيَتِ نَفْسِي حَلَاوَتَهَا! * فَكَيْفَ أَذْكُرُ أَيُّ الْيَوْمِ أَذْكُرُهَا؟

ومذ فارقت الحناب، لا زال جنا جنايه نظيرا، وسنا سناناه مستطيرا، ومملكه في الخافقين خافق الأعلام، وعزّه على الحديدين جديد الأيام، لم أقف منه على

كُتِبَ تَحْتَفُ سَطُورُهُ مَا غَسَلَ الدَّمْعُ مِنْ سَوَادِ نَاطِرِي ، وَيُقَدِّمُ بِيَاضِ مَنْظُومِهِ
وَمَنْتُورِهِ مَا وَزَعَهُ الْبَيْنَ مِنْ سُودِيَاءِ خَاطِرِي

وَلَمْ يَتَّقِ فِي الْأَحْشَاءِ إِلَّا صُبَابَةً * مِنَ الصَّبْرِ تَجْرِي فِي الدَّمُوعِ الْبَوَادِرِ

وَأَسْأَلُهُ الْمَنَابَ ، بِشَرِيفِ الْجَنَابِ ؛ وَأَدَاءَ فَرَضِ ، تَقْيِيلِ الْأَرْضِ ؛ حَيْثُ تَلْتَقِي
وَفُودَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَتَعْمُرُ الْبُيُوتَ الْعَامِرَةَ ، الْمُنَى الْغَامِرَةَ ، وَفَضْلَ الظِّلِّ غَيْرِ
مَنْسُوخِ بَهْجِيرِهِ ، وَيُبَشِّرُ الْمَجْدُ بِشَخْصٍ لَا تَسْمَحُ الدُّنْيَا بِنَظِيرِهِ :

تَظَاهَرَ فِي الدُّنْيَا بِأَشْرَفِ ظَاهِرِي * فَلَمْ نَرَ أَنْفًا مِنْهُ غَيْرَ صَمِيرِهِ !

كَفَانِي نَفْرًا أَنْ أَسْمَى بِعَبْدِهِ * وَحَسْبِي هَدِيًّا أَنْ أُسِيرَ بِنُورِهِ !

فَأَيْ أَمِيرٍ لَيْسَ يَشْرَفُ قَدْرُهُ * إِذَا مَا دَعَاهُ صَادِقًا بِأَمِيرِهِ ؟

وَإِنِّي فِي السُّؤَالِ بِكُتْبِهِ أَنْ يُوَصِّلَهَا لِيُوصِلَ بِهَا لَدَى تَهَانِي تَمْلَأُ يَدِي وَيُودِعُ بِهَا
عِنْدِي مَسْرَةً تَقْدَحُ فِي الشُّكْرِ زَيْدِي .

عَهْدُكَذَا عَهْدٌ هُوَ الْوَرْدُ نَضْرَةً * وَمَا هُوَ مِثْلُ الْوَرْدِ فِي قِصْرِ الْعَهْدِ

وَأَنَا أَتَرَقَّبُ كِتَابَهُ أَرْتَقَابُ الْهَلَالَ : لَتُفْطِرَ عَيْنَ عَنِ الْكَرَى صَائِمَهُ ، وَتَرَدَّ نَفْسُ

عَنْ مَوَازِدِ الْمَاءِ حَائِمَهُ اه .

بَلْ رُبَّمَا كَانَ كُلُّ الْمَكَاتِبَةِ أَوْ جَلُّهَا شِعْرًا ، وَقَدْ يَكُونُ صَدْرُ الْمَكَاتِبَةِ شِعْرًا وَذَيْلُهَا
نَثْرًا ، وَبِالْعَكْسِ . وَقَدْ يَكُونُ طَرَفَاهَا نَثْرًا وَأَوْسَطُهَا شِعْرًا ، وَعَكْسُ ذَلِكَ بِحَسَبِ
مَا يَقْتَضِيهِ التَّرْتِيبُ ، وَيَسُوقُ إِلَيْهِ التَّرْكِيبُ ؛ وَرُبَّمَا آكُفْنِي بِالْبَيْتِ الْوَاحِدِ مِنَ الشُّعْرِ
فِي الدَّلَالَةِ عَلَيَّ الْمَقْصِدِ وَبَلُوغِ الْغَرَضِ فِي الْمَكَاتِبَةِ : كَمَا كَتَبَ بَعْضُ مَلُوكِ الْغَرْبِ
إِلَى مَنْ كَرَّرَ كُتْبَهُ وَرَسَلَهُ إِلَيْهِ بِقَوْلِ الْمُتَنَبِّي :

وَلَا تُكْتَبُ إِلَّا الْمَشْرِفَةُ عِنْدَهُ * وَلَا تُرْسَلُ إِلَّا الْإِنْجِيْسُ الْعَرْمَرُ

إلى غير ذلك من المكاتبات المتضمنة للأشعار . أما مكاتبات الملوك الآن فقلّ
أن تستعمل فيها الأشعار، أو يستشهد فيها بالمنظوم والمنثور، وقد تجيء التليقيات
بأبيات الشعر في غير المكاتبات من الرسائل الموضوعية لرياضة الذهن، وتقيح الفكر
كالرسائل الموضوعية في صيد ملك أو فتح بلد أو نحو ذلك، وقد أودعت المقامة التي
أنشأتها في كتابة الإنشاء جملةً من الأبيات الشعرية، وأردتها مورد الاستشهاد على
ما يقتضيه المقام، ويسوق إليه سياق الكلام، على ما سلف ذكره عند الكلام على
فضل الكتابة فيما تقدم . وعند مطالعة كلامهم، والوقوف على رسائلهم، ترى من
أصناف الاستشهادات ما يروقك نظره، ويُطربك سمعه .

الحالة الثانية

(التضمين)

وهو أن يضم البيت الكامل من الشعر أو نصف البيت لبعض القرينة . أما
تضمين البيت الكامل من الشعر أو نصف البيت لبعض القرينة فمثل ما كتب به
القاضي الفاضل :

وصل من الحضرة

كُتِبَ بِهِ مَاءُ الْحَيَاةِ وَنَقَعَهُ السَّحَابُ فَكَأَنِّي إِذْ ظَفِرْتُ بِهِ الْخَضِرُ

فوقفت عنده منه على

عقود، هي الدر الذي أنت بحره * وذلك ما لا يدعى مثله البحر

ورعت منه في

رياض يد تجني وعين وخاطر * تسابق فيها النور والزهر والتمر

وكرعت منه في حياض

سُرَّ بِمَجَانِيهَا إِذَا مَا جَنَى الظَّلَا * وَرُوي بِمَجَارِيهَا إِذَا بَجَلِ القَطْرِ

وما زلت منه أنشده

كأني سار في سريرة ليلَةٍ * فلما بدأ كبرت إذ طلع الفجرُ
ووافي على ما كنت أعهد

نخلتُ بأن العين من سحِب كَفِّهِ * فإِنْ ذَا وَمِنْ ذَا فِيهِ يَنْثُرُ الدَّرَّ
وأسترجع فائت الدماء من مَوْرِدِهِ

وما كان عِنْدِي بَعْدَ ذَنْبِ فِرَاقِهِ * بأني أرى يوماً به بعد الدهرُ
ونفَس عن النَّفْس بأبيض أئِمَّادِهِ وَعَيْن العَيْن بأسودِ أئِمَّادِهِ

به لهما سبِح طویل فهِدِهِ * على خاطرٍ بردٍ ، وفي خَطَرٍ بَدْرٍ
وجدد إليه أشواقاً جَدِيدُهَا

يَمُرُّ بِهِ ثَوْبُ الجَدِيدِينَ دَائِمًا * فيبلى ولا يبلى وإن بلى الدهرُ
وذَكَرَ أَيَّامًا لَا يَزَالُ يَسْتَعِيدُهَا :

وهيأت أن يأتي من الأمر فائت * فدَع عَنكَ هَذَا الأَمْرَ قَدْ قُضِيَ الأَمْرُ
وأما تضمين نصف البيت فمثل قول القاضى الفاضل :

وصل كتاب مولاى بعدما ... * أجاب المُنَادِي للصَّلَاةِ فَأَعْتَمًا
فلما استقرت لدى ... * تجلَّى الَّذِي مِنْ جَانِبِ البَدْرِ أَظْلَمًا
فقراءته ... * بعينٍ إِذَا اسْتَمَطَرَتْهَا أَمَطَرَتْ دَمًا
وساءلته ... * فسَاءَلْتُ مَصْرُوفًا عَنِ النُّطْقِ أَعْجَمًا

(١) فى نسخة سمح . وفى أخرى صح . وكلاهما تصحيف كما هو ظاهر اذ يشير الى الآية الكريمة (إن لك فى النهار

سبعا طويلا) .

ولم يردّ جواباً، ... * ... * ... وما ذا عَلَيْهِ لَوْ أَجَابَ الْمُتَيَّمَا؟
 ورددته قراءَةً، ... * ... * ... فَعُوجِلْتُ دُونَ الْجِلْمِ أَنْ أَتَحَلَّيَا
 وحفظته، ... * ... * ... كَمَا يَحْفَظُ الْحُرُّ الْحَدِيثَ الْمُكْتَمَا
 وكثرته، ... * ... * ... فَمَنْ حَيْثُ مَا وَاجَهْتُهُ قَدْ تَبَسَّمَا
 وقبّلته، ... * ... * ... فَقبَّلْتُ دُرّاً فِي الْعُقُودِ مَنْظَّمَا
 وقُتُّ له، ... * ... * ... فَكُنْتُ بِمَفْرُوضِ الْحَبَّةِ قَيَّمَا
 وأخلصتُ لكتابته، ... * ... * ... وَلَيْسَ عَلَى حُكْمِ الْحَوَادِثِ مُحْكَمَا
 ولم أصدقه! ... * ... * ... وَلَكِنَّهُ قَدْ خَالَطَ اللَّحْمَ وَالذَّمَا
 وأزخت وصوله، ... * ... * ... فَكَانَ لَإَيْدِي الْوَسَائِمِ مَوْسِمَا^(١)
 وشفيتُ به غليل ... * ... * ... فَوَادٍ أُمْنِيَّهِ وَقَدْ بَلَغَ الظَّمَا
 وداويت عليل ... * ... * ... حَشَا ضَرَّمَا فِيهِ مِنَ النَّارِ ضَرَّمَا
 فأما تلك الأيام التي ... * ... * ... حَمَاهَا عَلَى اللُّوْمِ الْمُقَامُ عَلَى الْحَمَا
 والليالي العذاب التي ... * ... * ... مَلَأَتْ بِجُورِ اللَّيْلِ بَيْضًا وَأُنْجَمَا
 وأرسلتُ الزفرة ... * ... * ... فَلَوْ صَاحَتِ رَضْوَى رُضٍّ وَهُدَمَا
 وأسبلتُ العبرة ... * ... * ... كَمَا أَنْشَأَ الْأَفُقُ السَّحَابَ الْمُدَيَّمَا
 وخطبتُ السَّلْوةَ ... * ... * ... فَاسْأَلْ مَعْدُومًا وَأْمَلْ مُعْدِمَا
 فأما الشكر فإنما ... * ... * ... أَنْفُضْ بِهِ مِسْكًَا عَلَيْهِ مُحْتَمَا
 وأقوم منه بفرض ... * ... * ... أَرَانِي بِهِ دُونََ الْبَرِيَّةِ أَفْوَمَا
 وأوفى واجب فرض ... * ... * ... وَكَيْفَ تُوفِّي الْأَرْضُ فَرَضًا مِنَ السَّمَا

(١) كذا في الأصل ولعله جمع يد وأضيف للتكلم .

وربما ركبت القرينة الكاملة على البيت أو نصف البيت كما كتب به القاضى
الفاضل أيضا :

ورد كتاب الحضرة بعد أن عدت }
* وقد عشتُ دَهْرًا لا أعدُّ الليالي }
الليالي ليلة بعد ليلة لطلوع صديعه

وبعد أن أنتظرتُ القيظَ والشتاءَ }
* فما للنسوى ترمي بليلى المَراييا؟ }
لفصل ربيعِهِ

وأستروحتُ إلى نسيم سحرِهِ ... }
* إذا الصَّيفُ ألقى في الديارِ المَراييا

ومددتُ يدي لأقتطفَ ثمرِهِ ... }
* فله ما أحلى وأحلى المَجانيا !

ووقفتُ على شكواه من زمانِهِ ... }
* فبتُ لشكواه من الدهرِ شاكيًا

وعجبتُ لعمى اللُحْظِ عن مكانِهِ ... }
* وقد جمعَ الرحمنُ فيه المَعانيًا

وتوقَّعتُ له دولةً يعلو بها الفضلُ ... }
* إذا هزَّ من تلكَ اليراعِ عواليًا

ورتبةً يرتقى صهوتها بحُكمِ العدلِ ... }
* فربَّ مَراقٍ يُعتدِّدُ بها ويا

وإلى الله أرغبُ في إطلاعِ سعوده ... }
* زواهِرَ في أفقِ العلاءِ زواهِيا

وفي إنهاضِ عثراتِ جُوده ... }
* فقد عثرتُ بعدَ النهوضِ العواليًا

وربما رُكِبَ نصف البيت على نصف القرينة ؛ كما ذكرتُ في المفارقة بين
السيف والقلم في الكلام على لسان السيف في مخاطبته للقلم . وهو : وأنت وإن
ذُكرت في التنزيل ، وتمسكت من الامتنان بك في قوله ((عَلَّمَ بِالْقَلَمِ)) بشبهة التفضيل ،
فقد حرم الله تعالى تعلم خطك على رسوله ، وحرَمَكَ من مسِّ أنامله الشريفة ما يؤسى
على فوتِهِ ويُسرُّ بمحصلِهِ ؛ لكنى قد نلت من هذه الرتبة أسنى المقاصد ، وشهدت
معه من الوقائع ما لم تُشاهد ، وحلاني من كفه شرفًا لا يزول حلُّهُ أبدًا ، وحثتُ بنصره

في كل مُعْتَرِك . ، * فَسَلْ حُنَيْنًا وَسَلْ بَدْرًا وَسَلْ أَحَدًا * ؛ فَرَكِبْتَ نَصْفَ بَيْتِ
البردة على نصف قرينية . وما ذكرته في الرسالة التي كتبها للمقرّ الفتحيّ صاحب
ديوان الإنشاء الشريف بالأبواب السلطانية بالديار المصرية . وهو قد ليس شرفاً
لا تطمع الأيام في خلعه ، ولا يتطّلع الزمان إلى نزعها ، وآتتهى إليه المجد فوقف ،
وعرف الكرم مكانه فانحاز إليه وعطف ، وحلّت الرئاسةُ بفنائها فاستغنت به عن
السّوى ، وأناخت السيادةُ بأفئائه * فألقت عصاها وأستقرّ بها النوى *

وقد يضمن الكاتب بعض القرينة نصف بيت ، ثم يستطرد فيذكر أبياتاً كاملة
الأجزاء على نمط أنصاف الأبيات التي يوردها ، كما فعل الشيخ ضياء الدين أحمد بن
عمر بن يوسف القرطبيّ في رسالته للشيخ تقيّ الدين بن دقيق العيد تعمدهما الله
برحمته في قوله :

وينهى ورود عذرائه التي ... * لَهَا الشَّمْسُ خِذْنُهَا وَالتُّجُومُ وَلَا تُدْ
وحسنائه التي ... * لَهَا الدَّرُّ لَفْظٌ وَالدَّرَارِيُّ قَلَانِدُ
ومشرفته التي ... * لَهَا مِنْ بَرَاهِينِ الْبَيَانِ شَوَاهِدُ
وكريمته التي ... * لَهَا الْفَضْلُ وَرَدُ وَالْمَعَالِي مَوَارِدُ
وآيتها الكبرى التي دلّ فضلها * عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ يَشْهَدْ الْفَضْلَ جَا حِدُ
وأنتك سيفُ سلهُ الله للهدى * وَليْسَ لِسَيْفِ سَلَهُ اللهُ غَامِدُ

وقد يخالف بين قوافي أنصاف الأبيات التي يمزجها ببعض القرائن كما يخالف بين
فواصل القرائن : كما في قول البديع الهمداني

أنا لقرب دار مولاي ... * كَمَا طَرَبَ النَّشْوَانَ مَالَتْ بِهِ الْخَمْرُ
ومن الأرياح إلى لقائه ... * كَمَا أَنْتَفَضَ الْعُصْفُورُ بِلَلَهُ الْقَطْرُ

ومن الأمتراج بولائه ... * كما التقت الصهباء والبارد العذب
ومن الأبتهاج بمزاره ... * كما اهترت تحت البارح الغصن الرطب

إلى غير ذلك من فنون الأمتراج التي يزواج فيها بين المثور والمنظوم، وينتهي فيها الكاتب إلى ما يبلغ به القدر المحتموم .

أما تضمين بعض أبيات العرب في بعض قصائد المحدثين كما فعل القاضي الأرجاني في قوله من قصيدة مدح بها بعض الوزراء :

وأهد إلى الوزير المدح يَجْمَلُ * لَكَ المِرْبَاعُ مِنْهَا وَالصَّفَايَا
وَرَأْفِقِ رُفْقَةً رَحَلُوا إِلَيْهِ * فَأَبُوا بِالنَّهَابِ وَالسَّبَايَا
وَقُلْ لِلرَّاحِلِينَ إِلَى ذُرَاهِ * أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا
وَلَا تَسْلُكُ سِوَى طُرُقِي فَإِنِّي * أَنَا أَبْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الثَّنَايَا

فإن ذلك من وظيفة الشاعر لا الكاتب، وإن كان الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله قد أشار في كتابه "حسن التوسل" إلى التمثيل بذلك لما نحن بصدده .

الحالة الثالثة

(الحل)

وهو أن يعمد الكاتب إلى الأبيات من الشعر ذوات المعاني فيحلها من عقل الشعر، ويسبكها في كلامه المثور، فإن الشعر هو المادة الثالثة للكتابة بعد القرآن الكريم والأخبار النبوية، على فائدها أفضل الصلاة والسلام، وخصوصاً أشعار العرب فإنها ديوان أدبهم، ومستودع حكمتهم، وأنقُسُ علومهم في الجاهلية؛ به يفتخرون، وإليه يحتكمون . فإذا أكرر من حفظ الشعر وفهم معانيه، غزرت لديه المواد، وترادفت عليه المعاني، وتواردت على فكره، فيسهل عليه حينئذ حلها، ووضعها

في مكانها اللائق بها بحسب مقتضيات الكتابة . قال صاحب "الريحان والرياعن" :
وهو شأنُ حُذَّاقِ الكُتَّابِ في زماننا ، وفيه من الجمال فنون .

منها أنه يدل على حَفَاةِ أدبِ المُجيدِ ، وأتساعِ الحفظِ ، والتيسيرِ والتأني لسبك
اللفظ .

ومنها أنه ليس يُشهرُ منها إلا النادر لل غاية في الحُسنِ ، فهي إذا حُلَّتْ يحاورها
المنشئ بما يناسب حسنها في البراعة ، وهذا كثير في هذه الصنعة . قال في "المثل
النساء" وإنما جعل المنظوم مادةً للثبور بخلاف العكس لأن الأشعار أكثر ،
والمعاني فيها أغزر ، قال : وسبب ذلك أن العرب الذين هم أهل الفصاحة كان
جُلُّ كلامهم شعرا ، ولا يوجد الكلام المنشور في كلامهم إلا يسيرا ، ولو كثرة فإنه لم
يُنقل عنهم بل المنقول عنهم الشعر فأودعوا أشعارهم كل المعاني كما قال الله تعالى
(أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَمِيمُونَ) . ثم جاء الطراز الأول من المُخَضَّرِمْ فلم يكن لهم إلا
الشعر . ثم استمر الحال على ذلك فكان الشعر هو الأكثر ، والكلامُ المنشور بالنسبة
إليه قطرةٌ من بحر ، فلذلك صارت المعاني كلها مُودعة في الأشعار . قال في "حسن
التوسل" والحلُّ باب متسع على المجيد بحاله ، وتتصرف في كلام العارف به رويته
وآرتجاله .

قال صاحب "الريحان والرياعن" وأول من فك رقاب الشعر ، وسرح مقيدته إلى
النثر ، عبد الحميد الأكبر ، كاتب بني أمية إلى أنقضاء خلافتهم . قال : وربما رامه
غير المطبوع المتصرف فعقده وأفسده كما قال القائل : وبعضهم يحل فيعقد . قال :
وكيفية الحل أن يتوشى هذا البيت المنظوم وحلَّ فرائده من سلكه . ثم ترتيب
تلك الفرائد وما شابهها ترتيباً ممكن لم يحظره الوزن ولا أضطرته القافية ، ويرزها

في أحسن سلك، وأجمل قالبٍ وأصح سبك، ويكلمها بما يناسبها من أنواع البديع إذا أمكن ذلك من غير كلفة، ويختير لها القرائن. وإذا تم معه المعنى المحلول في قرينة واحدة فيفرض له من حاصل فكره، أو من ذخيرة حفظه، ما يناسبه. وله أن ينقل المعنى إذا لم يفسده إلى ما شاء؛ فإن كان نسيبا وتأثى له أن يجعله مديحا فليفعل؛ وكذلك غيره من الأنواع. وإذا أراد الحل بالمعنى فلتكن ألفاظه مناسبة لألفاظ البيت المحلول غير قاصرة عنها، فتمت قصرت ولو بلفظة واحدة، فسد ذلك الحل وعُدَّ معيبا. وإذا حلَّ اللفظ فلا يتصرف بتقديم وتأخير ولا تبديل، إلا مع مراعاة تدبير الفصاحة، واجتناب ما ينقص المعنى أو يُحطُّ رتبته.

قال: وهذا الباب لا تحصر المقاصد فيه، ولا حجر على المتصرف فيه.

ثم حل الأبيات الشعرية وأستعملها في النثر على ثلاثة أضرب:

الضرب الأول

(أن يأخذ الناثر البيت من الشعر فينثره بلفظه، وهو أدنى مراتب الحل)

قال في "المثل السائر" وهو عيب فاحش إذ لم يزد في نثره على أنه أزال رونق الوزن وطلاوة النظم لا غير. قال ومثله كمن أخذ عقدا قد أتمن نظمته، وأحسن تأليفه، فأوهاه وبدده؛ وكان يقوم عذره في ذلك لو نقله عن كونه عقدا إلى ضرورة أخرى مثله أو أحسن منه. وأيضا فإنه إذا نثر الشعر بلفظه كان صاحبه مشهورا السرقة فيقال هذا شعر فلان بعينه لكون ألفاظه باقية لم يتغير منها شيء.

وبالجملة حل الشعر بلفظه لا يخرج عن حالين:

الجال الأول — أن يكون الشعر مما يمكن حله بتقديم بعض ألفاظه وتأخير بعضها، وله في حله طريقتان:

الطريق الأول — أن يُحمله بالتقديم والتأخير من غير زيادة في لفظه : كما ذكر صاحب "الصناعتين" عن بعض الكتاب أنه حلّ قول البحترى :

أَطْلَ جَفْوَةَ الدُّنْيَا وَتَهْوِينَ شَأْنَهَا * فَمَا الْغَافِلُ الْمَغْرُورُ فِيهَا بِعَاقِلٍ
يَرْجَى مَعْشَرَ ضَلَّ سَعِيمِهِمْ * وَدُونَ الَّذِي يَرْجُونَ غَوْلَ الْغَوَائِلِ
إِذَا مَا حَرِيْزُ الْقَوْمِ بَاتَ وَمَا لَهُ * مِنْ اللَّهِ وَاقٍ فَهُوَ بَادِي الْمَقَاتِلِ

فقال في نثرها : أَطْلَ تهوينَ شأنِ الدنيا وَجَفْوَتَهَا، فَمَا الْمَغْرُورُ الْغَافِلُ فِيهَا بِعَاقِلٍ .
وَيَرْجُو مَعْشَرَ ضَلَّ سَعِيمِهِمْ الْخَلُودَ ، وَغَوْلَ الْغَوَائِلِ دُونَ مَا يَرْجُونَ . وَإِذَا بَاتَ حَرِيْزُ
الْقَوْمِ وَمَالَهُ مِنْ اللَّهِ وَاقٍ فَهُوَ بَادِي الْمَقَاتِلِ . فلم يزد في ألفاظها شيئاً .

الطريق الثاني — أن يُحمله بزيادة على لفظه كما حكى الجاحظ عن قلب المعترى
أنه سمع منشداً يُنشد للعتبيّ .

أَفَلَتَ بَطَالَتُهُ وَرَاجَعَهُ * حِلْمٌ وَأَعْقَبَهُ الْهَوَى نَدْمًا
أَلْقَى عَلَيْهِ الدَّهْرُ كَلْكَلَهُ * وَأَعَارَهُ الْإِقْتَارُ وَالْعَدَمًا
فَإِذَا أَلَمَ بِهِ أَخُو نِقَمَةٍ * غَضَّ الْجُفُونَ وَبَجَّحَ الْكَلِمَا

فنثرها فقال يستعطف بعض الملوك على رجل من أهله : جعلني الله فداك
ليس هو اليوم كما كان ، إنه وحياتك أَفَلَتَ بَطَالَتُهُ ، إِي وَالله وَرَاجَعَهُ حِلْمَهُ ، وَأَعْقَبَهُ
وَحَقَكَ الْهَوَى نَدْمًا . أَخَى الدَّهْرُ عَلَيْهِ وَاللهُ بِكَلْكَلِهِ ، فَهُوَ الْيَوْمَ إِذَا رَأَى أَخَا ثِقَةٍ
غَضَّ بَصْرَهُ وَبَجَّحَ كَلَامَهُ . فزاد في نثره ألفاظاً على ألفاظ الشعر .

ونحو ذلك ما حكاه ضياء الدين بن الأثير عن بعض العراقيين أنه نثر قول بعض
شعراء الحماسة :

وَأَلَدَّ ذِي حَنْقٍ عَلَى كَأَمَّا * تَغْلِي عَدَاوَةَ صَدْرِهِ فِي مِرْجَلِ
أَرْجِيئِهِ عَنِّي فَأَبْصَرَ قَصْدَهُ * وَكَوَيْتُهُ فَوْقَ النَّوَظِرِ مِنْ عَلِ

فقال في نثره : فكم لقي ألد ذا حنق كأنه ينظر إلى الكواكب من عل وتغلي
عداوة صدره في مِرْجَل فكواه فوق ناظريه ، وأكبه لقمه ويديه .

الحال الثاني — أن يكون الشعر مما لا يمكن حله بتقديم بعض ألفاظه وتأخير
بعضها ، فيحتاج في نثره إلى الزيادة فيه ، والنقص منه ، وتغيير بعض ألفاظه حتى
يستقيم كقول الشاعر :

لِسَانُ الْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُوَادُهُ * فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ اللَّحْمِ وَالْدَّمِ

فإن المصراع الثاني من البيت لا يمكن حله بالتقديم والتأخير لأنك تقول
في المصراع الأول : فُوَادُ الْفَتَى نِصْفٌ وَلِسَانُهُ نِصْفٌ وَلَا يُمْكِنُ ذَلِكَ فِي الْمِصْرَاعِ
الثاني حتى تزيد فيه أو تنقص منه فتقول مثلا فُوَادُ الْفَتَى نِصْفٌ وَلِسَانُهُ نِصْفٌ عَلَى
ما تقدم . ثم تقول وصورته من اللحم والدم فضلة لا غناء بها دونهما ، ولا معول عليها
إلا معهما .

قال في "الصناعتين" : وزيادة الألفاظ التي تحصل فيه ليست بضائرة لأن
بسط الألفاظ في أنواع المنشور شائع ؛ ألا ترى أنها تحتاج إلى الأزواج ؛ ومن
الأزواج ما يكون بتكرير كلمتين لها معنى واحد وليس ذلك بقبیح ؛ إلا إذا اتفق
لفظاهما ؛ إلا أن أكثر ما يحسن فيه إيراد المعنى على غاية ما يمكن من الإيجاز ، ومعنى
قوله فلم يبق إلا صورة اللحم والدم داخل في قوله * لسان الفتى نصف ونصف فُوَادُهُ *
والمصراع الثاني تذييل للمصراع الأول . قال : فإذا أردت أن تحله حلا مقتصرًا بغير
لفظه ، قلت الإنسان شطران : لسان وجنان ، وقريب من ذلك قول أبي نُوَاس .

أَلَا يَا بَنَ الَّذِينَ فَنُوا وَبَادُوا * أَمَا وَاللَّهِ مَا ذَهَبُوا لَتَبِقُ
 فَإِنَّ الْمِصْرَاعَ الْأَوَّلَ يُمْكِنُ حَلُّهُ بِأَنَّ تَقُولُ أَلَا يَا بَنَ الَّذِينَ بَادُوا وَفَنُوا فَيَكُونُ
 مُسْتَقِيمًا . أَمَا الْمِصْرَاعُ الثَّانِي فَإِنَّهُ إِنْ قُدِّمَ فِيهِ أَوْ أُخْرِبَ أَنْ قِيلَ مَا ذَهَبُوا لَتَبِقُ أَمَا وَاللَّهِ
 فَإِنَّهُ لَا يَسْتَقِيمُ فَتَحْتَاجُ فِي نَثْرِهِ إِلَى تَغْيِيرِ وَزِيَادَةِ فَتَقُولُ : أَلَا يَا بَنَ الَّذِينَ مَاتُوا وَمَضُوا
 وَظَعَنُوا وَنَأَوْأَ أَمَا وَاللَّهِ مَا ظَعَنُوا لَتَقِيمُ ، وَلَا رَامُوا لَتَرِيمُ ، وَلَا مَوْتُوا لَتَحْيَا ، وَلَا فَنُوا
 لَتَبِقُ . قَالَ فِي "الصَّنَاعَتَيْنِ" وَفِي هَذِهِ الْأَلْفَاظِ طَوْلٌ وَلَيْسَ بِضَائِرٍ عَلَى مَا تَقْدِمُ .
 قَالَ : وَإِنْ أَرَدْتَ اخْتِصَارَهُ قُلْتَ أَمَا وَاللَّهِ إِنْ مَاتَ لَمْ يَصْبِكْ فِي أَبِيكَ إِلَّا
 لِيُصْبِكَ فِيكَ .

الضرب الثاني

(وهو أعلى من الضرب الأول أن يثير المنظوم ببعض ألفاظه ويعرّم عن

البعض ألفاظاً آخر . ويحسن ذلك في حالين)

الحال الأول — أن يكون في الشعر ألفاظ لا يقوم غيرها من الألفاظ مقامها بأن

تكون مثلاً سائراً أو جارية مجرى المثل : كقول بعض شعراء الحماسة :

لَوْ كُنْتُ مِنْ مَازِنٍ لَمْ تَسْتَبِحْ إِيَّايَ * بَنُو اللَّقِيظَةِ مِنْ دُهَلِ بْنِ شَيْبَانَ

فإن لفظ بنى اللقيظة لا يقوم غيره من الألفاظ مقامه لكونه علماً على قوم

مخصوصين فيحتاج الناثر أن يبقيه بلفظه ، كما فعل "ضياء الدين بن الأثير" في قوله

في نثر البيت المذكور : لست ممن تسبيح إبله بنو اللقيظة ، ولا الذي إذا هم بأمر

كانت الآمال إليه وسيطه ، ولكنني أحمي الهمل ، وأفوت الأمل ، وأقول مسبق

السيف العدل . وكذلك كل ما جرى هذا المجرى ونحوه .

الحال الثانى — أن يكون فى البيت لفظ رائق : قد أخذ من الفصاحة بزمامها ، وأحاط من البلاغة بجوانبها ؛ فيبقيه على حاله ، وبقرنه بلفظ يماثله ويوازنه ، قال فى "المثل السائر" : وهناك تظهر الصنعة فى المماثلة والمشاكلة ، ومؤاخاة الألفاظ الباقية بالألفاظ المرتجلة ؛ فإنه إذا أخذ لفظا لشاعر مجيد ، قد تقحه وصححه ، فقرنه بما لا يلائمه كان كمن جمع بين لؤلؤة وحصاة ؛ ولا خفاء بما فى ذلك من الانتصاب للقدح ، والأستهداف للطعن . قال : وهو عندى أصعب مثلا من نثر الشعر بغير لفظه ؛ لأنه يسلك مضيقا ، لما فيه من التعرض للمماثلة ما هو فى غاية الحسن والجودة . بخلاف نثر الشعر بغير لفظه فإن نثره يتصرف فيه على حسب ما يراه ، ولا يكون مقيدا فيه بمثال يضطر إلى مؤاخاته ؛ ومثل لذلك بقول أبى تمام فى وصف قصيد له :

حَدَاءَ تَمْلَأُ كُلَّ أُذُنٍ حِكْمَةً * وَبِلَاغَةٍ وَتُدْرِكُ كُلَّ وَرِيدٍ

ثم قال : فقوله تملأ كل أذن حكمة من الكلام الحسن ، وهو أحسن ما فى البيت وأشهر ، فلو قال قائل لمن هذا؟ قيل وهل يخفى القمر ، وإذا عُرِفَ الكلام صارت المعرفة له غلامه ، ولم يخش عليه سرقة إذ لو سُرِقَ لدلت عليه الوسامة ، ومن خصائص صفاته أنه يملأ كل أذن حكمة ، ويعمل فصاحة كل لسان تحممه . فبقى لفظ تملأ كل أذن حكمة وأتى معها بما يناسبها من الألفاظ الحسنة الرائقة . ونحو ذلك ما ذكره الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي : أنه يؤاخى القرينة المحلولة بمثلها من عنده كما فعل هو فى تقليد من التقليد فقال : * فكم مل ضوء الصبح مما يغيره * ثم قال : وظلام النقع مما يثيره . وقال أيضا : وفل حديد الهند مما يلاطمه * ثم قال : والأجل مما يساقفه إلى قبض النفوس وإراحته . والقرينتان الأوليان نصفان بيتين للتنبي فأضاف إلى كل قرينة ما يناسبها . قال : وهذا من أكثر ما يستعمل فى الكتابة .

الضرب الثالث .

(وهو أعلى من الضربين الأولين أن يأخذ المعنى فيكسوه ألفاظا من عنده

ويصوغه بألفاظ غير ألفاظه)

قال في "المثل السائر" : "وَمَّ يَتَبَيَّنُ حَذَقُ الصَّائِعِ فِي صِيَاغَتِهِ ؛ فَإِنْ أَسْتَطَاعَ الزِّيَادَةَ عَلَى الْمَعْنَى فَتِلْكَ الدَّرَجَةُ الْعَالِيَةُ ، وَإِلَّا أَحْسَنَ النَّصْرَفِ وَأَتَقَنَ التَّأْلِيفِ ؛ لِيَكُونَ أَوْلَىٰ بِذَلِكَ الْمَعْنَىٰ مِنْ صَاحِبِهِ الْأَوَّلِ .

وتعلم أن الأبيات الشعرية في حلها بالمعنى لها حالان .

الحال الأول — أن يكون البيت الشعر مما يتسع المجال لثوره في ثوره فيورده بضروب من العبارات . قال ابن الأثير "وذلك عندى شبيه بالمسائل السائلة في الحساب التي يجاب عنها بعدة من الأجوبة" . فمن ذلك قول أبي الطيب المتنبي :

لَا تَعْدِلِ الْمُشْتَقَّ فِي أَشْوَاقِهِ * حَتَّىٰ تَكُونَ حَشَاكَ فِي أَحْسَانِهِ

فهذا البيت يُتَصَرَّفُ فِي ثَرِهِ فِي وَجْهِهِ مِنَ الْمَعَانِي . وَقَدْ نَرَىٰ ابْنَ الْأَثِيرِ هَذَا الْبَيْتَ فَقَالَ : "لَا تَعْدِلِ الْمَحَبَّ فِيمَا يَهْوَاهُ ، حَتَّىٰ تَطْوِيَ الْقَلْبَ عَلَىٰ مَا طَوَاهُ" . وَثَرَهُ عَلَىٰ وَجْهِ آخِرِ فَقَالَ : "إِذَا آخَتْ لَفَتِ الْعَيْنَانِ فِي النَّظَرِ ، فَالْعَدْلُ ضَرْبٌ مِنَ الْمَهْدَرِ" . وَكَذَلِكَ قَوْلُ الْمَتْنِيِّ أَيْضًا :

إِنَّ الْقَتِيلَ مُضَرَّجًا بِدَمَوِعِهِ * مِثْلُ الْقَتِيلِ مُضَرَّجًا بِدِمَائِهِ

ثَرَهُ ابْنُ الْأَثِيرِ فَقَالَ : "الْقَتِيلُ بِسَيْفِ الْعُيُونِ ، كَالْقَتِيلِ بِسَيْفِ الْمُنُونِ ؛ غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ لَا يُجْرَدُ مِنْ غَمِّهِ ، وَلَا يُقَادُ صَاحِبَهُ بَعْمَدِهِ" . فَزَادَ عَلَى الْمَعْنَى الَّذِي تَضَمَّنَهُ الْبَيْتَ عَدَمَ الْقَوْدِ بِالْعَمْدِ . وَثَرَهُ عَلَى وَجْهِ آخِرِ فَقَالَ : "دَمُ الْمَحَبِّ وَدَمُ الْقَتِيلِ ، مِتَّفَقَانِ فِي التَّشْبِيهِ وَالتَّمثِيلِ ؛ وَلَا تَجِدُ بَيْنَهُمَا بَوْنًا ، سِوَىٰ أَنَّهُمَا يَخْتَلِفَانِ لَوْنًا" . قَالَ وَهَذَا أَحْسَنُ مِنَ الْأَوَّلِ .

وعلى هذا النهج يجري قول ابن الرومي في وصف الحديث :

وَحَدِيثُهَا السَّحْرُ الْحَلَالُ لَوْ أَنَّهُ * لَمْ يَجْنِ قَتَلَ الْمُسْلِمِ الْمُتَحَرِّزِ

ثره الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي في وصف السيوف فقال : وكفى السيوف
نفرا أنها للجنة ظلال ، وإلى النصر مال ؛ وإذا كان من بيان الحديث سحر ، فإن بيان
حديثها عن كلمته هو السحر الحلال . ثم نقله إلى وصف الأسننة فقال : حسب
السننة الأسننة شرفاً أن كشف خبايا القلوب يدم إلا منها ، وأن بث أسرار الضمائر
تكره روايته إلا عنها ؛ فمكرر حديثها في ذلك لا يفضى إلى ملال ، وإذا لم يكن
حسن حديثها الذي يسحر الأبواب مما يحل ، فليس في الحديث سحر حلال .
ثم نقله إلى وصف البلاغة فقال : البلاغة تسجر الأبواب حتى تخيل العرض جوهراً
وتحيل الهواء المدرك بالسمع لأنسجامة وعدوبته في الذوق نهراً ؛ لكنه سحر لم يجن
قتل المسلم المتحزز ، فيتأول في حله ، وإذا كان في الحديث ما هو عقلة للمستوفز ،
فهذا أنشودة نشاط البليغ وحل عقال عقله . ونقله إلى وصف الكتابة . فقال :
خطه شرك العقول ، وفننة تشغل المطمئن بملاحة المرئي المكتوب ، عن فصاحة
المسموع المقول ؛ ولو لم يكن البيان سحراً ، لما تجسدت منه في طرسه هذه الدرر ،
ولو لم يكن بعض السحر حلالاً ، لما أنجلي ظلام النقس عما يهتدى به من هذه
الأوضاع والقرر .

الحال الثاني — أن يكون البيت الشعر مما يضيق المجال فيه فيعسر على الناثر
تبديل ألفاظه ، وذلك قليل بالنسبة إلى ما يتسع في حله المجال . قال في "المثل السائر"
وسببه أن المعنى يمحصر في مقصد من المقاصد حتى لا يكاد يأتي إلا فداً . فمن ذلك
قول أبي تمام الطائي من قصيدة .

تَرْدِي ثِيَابَ الْمَوْتِ حُمْرًا فَمَا أَتَى * بِهَا اللَّيْلُ إِلَّا وَهِيَ مِنْ سُنْدِسٍ خُضِرِ
فإن أبا تمام قصد المؤاخاة في ذكر لوني الثياب بين الأحمر والأخضر، وجاء
ذلك واقعا على المعنى الذي أراده : من لون ثياب القتلى وثياب الجنة ؛ فإن ثياب
القتلى حُمْر وثياب الجنة خضر .

قال ابن الأثير : فإذا فكَّ نظم هذا البيت وأريد صوغه بغير لفظه لم يمكن ؛
فيجب على الناثر أن يحسن الصنعة في فكِّ نظامه ؛ لأنه يتصدى لشعره بالفاظه ؛ فإن
كان عنده قوَّةُ تصرف ، وبَسْطَة عبارة ، فإنه يأتي به حسنا رائقا . وقد نثر هذا
البيت فقال : لم تكسه المنايا نَسْجَ شِفَارِهَا ، حتى كستته الجنة نَسْجَ شِعَارِهَا : فبدل
أحمر ثوبه بأخضره ، وكأس حَمَامِه بكأس كَوَثِرِه . قال : وهذا من الحُسن على
غاية يكون كمدُّ حُسودها ، من جملة شُهودها . ومن ذلك قول أبي الطيب :
وَكَانَ يَهَامِثُ الْجُنُونَ فَأَصْبَحَتْ * وَمِنْ جُثَّتِ الْقَتْلَى عَلَيْهَا تَمَائِمٌ

فإن أبا الطيب بنى بيته على واقعة مخصوصة . وذلك أن حصنا من حصون
سيف الدولة قصده الروم ، وأنترعوه ، وحربوه ؛ فهدَّ سيفُ الدولة إليه وأسترجه ،
وجدد بناءه ، وهزم الروم ، ونصب جملةً من جُثَّتِ القتلى على السور ؛ فنظم أبو الطيب
في هذا قصيدا أوله .

* على قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ *

ولما انتهى إلى ذكر الحصن ، جاء بهذا البيت في جملة أبيات ، فشرح صورة
الحال ، في ارتجاع الحصن بالقتال وتعليق القتلى عليه ؛ وأبرز ذلك في معنى التمثيل
بالجنون والتمايم . وهذا لا يمكن تبديل لفظه ؛ فيجب على الناثر حسن الصنعة
في حله ونثره . وقد نثره ابن الأثير أيضا فقال : سرى إلى حصن كذا مستعيذاً منه
سبيَّة نزعها العدو اختلاسا ، وأخذها محادعة لا أقتراسا ؛ فما نزلها حتى آستقادها ؛

ولا نازلها حتى آستعدها؛ فكأتما كان بها جنون فبعث لها من عزائمها عزائم، وعلق عليها من رءوس القتلى تمام؛ ثم قال: وفي هذا من الحسن ما لا خفاء فيه. فمن شاء أن ينثر شعرا فليثر هكذا وإلا فليترك. ثم نقله إلى معنى آخر، وأبرزه في صورة أخرى فأضاف إليه البيت الذي قبله من القصيدة فصار على هذه الصورة.

بَنَاهَا فَأَعْلَى وَالْقَنَا تَقْرَعُ الْقَنَا * وَمَوْجُ الْمَنَايَا حَوْهَا مِتْلَاطِمُ
وَكَانَ بِهَا مِثْلُ الْجُنُونِ فَأَصْبَحَتْ * وَمِنْ جُنْثِ الْقَتْلِ عَلَيْهَا تَمَامُ

ثم نثرهما فقال: بناها والأسنة في بناها متخاصمه، وأمواج المنايا فوق أيدي البائين متلاطمه؛ وما أجلت الحرب عنها حتى زلزلت أقطارها برخص الجياد، وأصيبت بمثل الجنون فعلقت عليها تمام من الرءوس والأجساد. ولا شك أن الحرب ^(١) تعرد عن عز جانبها، وتقول ألا هكذا فليكسب المجد كاسبه. قال وهذا أحسن من الأول وأتم معنى. ثم تصرف فيه بزيادة على هذا المعنى فقال: بناها، ودون ذلك البناء شوك الأسل، وطوفان المنايا الذي لا يقال ساوى منه إلى جبل؛ ولم يكن بناؤها إلا بعد أن هدمت رءوس عن أعناق، وكأنما أصيبت بجنون فعلقت القتلى عليها مكان التمام أو شينت بعتل فعلقت مكان الأطواق. قال وهذا الفصل فيه زيادة على الفصل الذي قبله.

قلت: وكما ينبغي الإكثار من حفظ الأشعار على ما تقدم ليوردها في خلال كلامه أستشهادا وتضمينا أو يحلها ويقتبس معانيها في نثره على ما تقدم بيانه كذلك ينبغي له معرفة المشاهير من الشعراء الطائري السمة: من شعراء الجاهلية كأمرئ القيس ابن حجر، والنابغة الذبياني، وطرفة بن العبد، وأوس بن حجر، وزهير ابن أبي سلمي، والأفوه الأودي، والمتلمس، والأعشى، وعلقمة بن عبدة، وعمرو

(١) أي تفر وتجن يقال عرد الرجل عن قرنه إذا فرونكل. انظر اللسان.

أبن كلثوم، والمرقش، والنمر بن تولب، ومهلهل، وطنبيل الغنوي، وعروة بن الورد،
وقيس بن الخطيم، والشماخ بن ضرار، وعنترة، والسموءل بن عادي، ومن
جرى مجراهم .

ومن المخضرمين، وهم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام جميعا : حسان بن ثابت
رضى الله عنه، وليد بن أبي ربيعة، وكعب بن زهير، وزيد الخليل الطائي، والنابعة
الجعدي، وأميمة بن أبي الصلت، والحطيئة، وعمرو بن معدى كرب، والزيبرقان
أبن بدر التميمي، والعباس بن مرداس السامي، والحنساء بنت عمرو بن الشريد،
ومن في معناهم .

ومن المولدين، وهم الذين ولدوا من العرب في الإسلام : كافرزدق، وجرير
والأخطل، والقطامي، والكثير بن زيد الأسدي، والمساور بن هند، وعدى بن
الرقاع، وكثير عزة، وعمربن أبي ربيعة، والراعي، وأبن مقبل، وأبن مفرغ، ولبلى
الأخيلية، ومن انحرف في سلوكهم .

ومن المحدثين، وهم الذين أتوا بعد المولدين كإبراهيم بن هرمة، وأبن أدينة،
وأبن نؤاس، وأبن العتاهية، وطنبيل الكثاني، وسلم الخاسر، وأبن ميادة، وصالح
أبن عبد القدوس، وأبن عيينة، والعباس بن الأحنف، والعتابي، وأشجع السلمي،
والعكوك، وأبن أبي زُرعة الدمشقي، وأبن الشيص، والحمدوني، والعنبي، ودعبل
الخزاعي، وإسحاق بن إبراهيم الموصلي، وإسحاق بن إسحاق الموصلي، وأبن علي
البصير، وأبن تمام الطائي، وأبن عبادة البحتري، وأبن الطيب المتنبي، وأبن
بسام، والسري الموصلي، وأبن الفتح كساجم، وأبن الفتح العبسي، وأبن الفرج
البغا، وأبن الساعاتي، وأبن قلايس، والواو الدمشقي، والعفيف التمساني، وأبنه،
وأبن سنا الملك، وأبن شمس الخلافة، وأبن النبيه، والصفني الحلبي ونحوهم .

ومعرفة الفرسان منهم : كأمريء القيس ، وخُفَّاف بن نُدْبَة ، والزُّبْران بن بدر وعَتْرَة ، وعمرو بن معدى كرب ، ودُرَيْد بن الصَّمَّة .

ومن كان منهم راجلا يسعى على رجليه كسُليمان بن السُّلَكَة ، وأبن بَرَّاقَة ، وتابط شراً ، والشَّنْفَرى وغيرهم .

ومن تقدّم منهم في نوع من الشعر، كعرفة طفيل الغنوى بوصف الخليل ، وأمّية بن أبى الصلت في أمر الآخرة وذكر الحرب ، وعمرو بن أبى ربيعة في وصف النساء ، وعُتَيْبَة بن مِرْداس بمراكب الإبل ، وكُثَيْر في الأمثال ، والفرزدق في الأخبار ، وجرير في المعاني .

ومعرفة من هو أكثرهم حفظاً : كالأغلب الشاعر : قيل إنه كان يحفظ أربع عشرة ألف أرجوزة ، ومعرفة أىّ القبائل كانت الشعراء فيها أكثر كهذيل ؛ فقد قيل إنه كان فيها أربعون شاعراً مُقلِّقاً كلهم يَعدُّون على رجليه ، ليس فيهم فارس ؛ وأىّ قبيلة كان الشعراء فيها أقلّ : كشيّان ، وكلب ؛ فقد قيل إنه ليس في الدنيا قبيلة أقلّ شعراء منهما وإنه ليس لكلب في الجاهلية شاعر قديم على أنها مثل شيّان أربع مرات .

وقد ذكر ابن رشيقي في "عمدته" عن عبيد الله بن سلام الجُمَحِيّ وغيره : أن الشعر كان في الجاهلية في ربيعة فكان منهم مهلهل بن ربيعة ، وهو خال أمريء القيس بن حُجر ، ويقال إنه أول من قصّد القصائد والمُرَقَّشان الأكبر والأصغر ، وطرفة بن العبد ، وعمرو بن قميّة ، والحارث بن حلزة ، والمتلمس ، والأعشى ، والمسئب بن علس وغيرهم ؛ ثم تحوّل الشعر إلى قيس فكان منهم النابغة الذبياني والجمعدى ، وزهير بن أبى سُهَيْب ، وأبنته كعب ، ولييد ، والحطيئة ، والشماخ . ثم استقرّ الشعر في تميم فكان منهم أوس بن حُجر ، ولم يتقدمه أحد حتى كان النابغة وزهير فأحمله .

قلت : والمراد أن الشعر غلب في هذه القبائل وظهر فيها ، وكان فيها الشعراء المحيدون ؛ وإلا فالشعر موجود في قبائل العرب قبل ذلك ، كحِمير وكَهْلان من اليمن ؛ بل في عادٍ وثمودٍ على ما تشهد به كتب السير والأخبار . فإذا عرف الكاتب ذلك ، أستعان به في المساواة بمن شاء منهم في التقریظات والتفضيل عليه كما كتبت في تقریظ شاعر : فاهرو القيس يفرق في مقياس معانيه ، والنابغة الدبباني يقصر عن أن يبلغ مدى شأوه أو يدانيه ، وزهير يقتطف زهرات البلاغة من أفانينه ، وأوس بن حجر ينسج على منواله ويأتم بقوانينه ، وطقيل الغنوي يتطقل على موائد شعره ، وطرفة بن العبد يقصر عنه في شيوخ ذكره ، والأعشى يعشو إلى ضوء ناره ، وعمرو بن كلثوم يسعى إلى بابه ويقف بفناء داره ، وكثير في أمثاله لا يعد من أمثاله ، وجرير في مفاخره يتمسك من الفخار بأذياله ، والفرزدق في أوصافه يقلبه ما بين يمينه وشماله ؛ فلوراه عبد الملك بن مروان لاختاره على الأخطل ، أو اجتمع مع أبي نواس لدى الأمين لقال هذا هو المقدم الأفضل ؛ أو أدركه أبو تمام ، لأعترف له بالتمام ؛ أو بصره أبو عبادة لقال أنا له عبد و غلام ؛ أو عاصره المتنبي لأعترف بفضلته ، أو ابن الساعاتي لقال لا يأتي الزمان دون قيام الساعة بمثله . ونحو ذلك مما يجري هذا المجرى .

وكذلك ينبغي أن يعرف مصطلح أهل العروض الذي هو ميزان الشعر مثل الوتد ، والسبب ، والفاصلة ، والعروض ، والضرب ، وأسماء البحور : من الطويل ، والمديد ، والبسيط ، وأخواتها ؛ وألقاب الزحاف : كالتخين ، والتخيل ، والقبض وغيرها : ليدخلها تضاعيف كلامه عند احتياجه إلى ذلك كما قال صاحبنا الشيخ زين الدين شعبان الآناري في أول ألفيته في العروض .

الحمد لله المليك الغافر * ذى الطول والفضل المديد الوافر
 سبحانه ماذا يقول البارع * فى كامل ليس له مضارع
 ورزقه فى عدله بسيط * وعلمه بخلقه محيط
 وما يخطر فى هذا السلك من الكلام المنشور أيضا .

النوع الحادى عشر (الإكثار من حفظ الأمثال ؛ وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(فى وجه احتياج الكاتب إلى ذلك)

اعلم أن الكاتب يحتاج إلى النظر فى كتب الأمثال الواردة عن العرب نثرا ونظما والنظر فى الكتب المصنفة فى ذلك : كأمثال الميدانى ؛ والمفضل بن سلمة الضبى ، وحمزة الأصبهاني ، وغيرهم . وكذلك أمثال المولدين الواردة فى أشعارهم : كالأمثال الواردة فى شعر جرير ، والفرزدق ونحوهما ، إلى غير ذلك من الأمثال الواردة نثرا ونظما ، والنظر فى أمثال المحدثين الواردة فى أشعارهم : كأبي العتاهية ، وأبي تمام ، والمنتبى ؛ فحكم ما ورد من الأمثال فى شعر المولدين والمحدثين حكم أمثال العرب الشعرية ؛ أما فى شعر المولدين فلجريهم على أسلوب العرب ، وركوب جادتهم ؛ وأما المحدثين فللطافة مأخذهم ، وأستطراف ما يأتون به مما يجرى مجرى النثر والنظم : من الأمثال الموضوعة على ألسنة الحيوان عن العرب وغيرهم ؛ فيستشهد به فى موضعه ، ويورده فى مكانه عارفا بأصل ذلك وما بُنى عليه ، وذلك أن المثل له مقدمات وأسباب قد عرفت ، وصارت مشهورة بين الناس معلومة عندهم ؛ وهذه

(١) لعل لفظ كتب زائد من قلم الناصح .

الألفاظ الواردة في المثل دالة عليها، معبرة عن المراد بها، بأخصر لفظ وأوجزه، ولولا تلك المقدمات المعلومة، والأسباب المعروفة، لما فهم من هذه الألفاظ القلائل تلك الوقائع المطولات؛ وأما الأمثال الواردة نثراً، فإنها كلمات مختصرة، تورد للدلالة على أمور كناية مبسطة، كما تقدمت الإشارة إليه، وليس في كلامهم أوجز منها. ولما كانت الأمثال كالرموز والإشارة التي يلوح بها على المعاني تلويحاً، صارت من أوجز الكلام وأكثره اختصاراً. وحيث كانت بهذه المكانية لا ينبغي الإخلال بمعرفتها، قال صاحب العقد "والأمثال هي وشي الكلام، وجوهر اللفظ، وحل المعاني، والتي تخيرتها العرب، وقدمتها العجم، ونطق بها في كل زمان على كل لسان، فهي أبقى من الشعر، وأشرف من الخطابة، لم يسر شيء كسيرها، ولا عمّ عمومها، حتى قالوا: أسير من مثل، قال الشاعر:

ما أنت إلا مثل سائر * يعرفه الجاهل والخبير

وقد ضرب الله تعالى الأمثال في كتابه فقال ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾، وقال تعالى ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا﴾ الآية، وقال ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْمَانًا يُوجِّهُهُ لآيَاتِ بَحْرِ هَلْ يَنْسَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ الآية، وقال ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ الآية وقال ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ إلى غير ذلك من آي القرآن.

وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمثال فقال "ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبي الصراط أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى رأس الصراط داع يقول ادخلوا الصراط ولا تعرجوا: فالصراط الإسلام، والستور

حدود الله ، والأبواب محارم الله ، والداعي القراءن ، إلى غير ذلك من الأمثال التي ضربها صلى الله عليه وسلم . ومحل الكلام على أمثال القراءن وأمثال الرسول صلى الله عليه وسلم ، ما تقدم من الكلام على القراءن الكريم والأخبار .

ثم هي على ضربين : قريب الفهم بظهور معناه ، وكثرة دورانه بين الناس ؛ وبعيد الفهم لخبائه ، وقلة دورانه بين الناس . فالقريب من الفهم الكثير الدوران على الألسنة مثل قولهم ، ”عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرْيَ“ ، وهو مثل يُضْرَبُ للترغيب في السير في الليل ، والحث عليه ؛ وأول من أرسله مثلاً خالد بن الوليد رضى الله عنه ، قاله في صبح ليلة قطع فيها مفازة كانت في طريقه من العراق إلى الشام ؛ وقولهم ”أَسَاءَ سَمِعًا فَأَسَاءَ جَابَةً“ . وأول من قال ذلك سهيل بن عمرو وكان تزوج صفيّة بنت أبي جهل فولدت له أبنه أنسا ، فرآه الأخنس بن شريق الثقفي معه فقال من هذا ؟ فقال سهيل أبني — فقال الأخنس حيّاك الله يابني ! أين أمك ؟ فقال : لا والله ما أمي ثم ، أنطلقت إلى بيت أم حنظلة تطحن دقيقا — فقال أبوه أساء سمعا فأساء جابة — فلما رجعا قال أبوه فضحني أبنك اليوم قال كذا وكذا — فقالت إنما أبني صبي وأنت لا تجبه — فقال ”أشبه أمرؤ بعض بزّه“ فأرسلها مثلاً . والبعيد من الفهم ، مثل قولهم ”إِنْ يَبِغْ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبِغْ عَلَيْكَ الْقَمَرُ“ . وهو مثل يضرب لمن ينكر الأمر الظاهر عنادا . والأصل في ذلك كما ذكره المفضل بن سلمة الضبي أن بنى ثعلبة بن سعد بن ضبة في الجاهلية تراهنوا على الشمس ، فقالت طائفة : تَطْلُعُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يُرَى ، وقالت طائفة : يَغِيبُ الْقَمَرُ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ ، فتراضوا برجل جعلوه بينهم حكما ، فقال واحد منهم : إن قومي يبغون على ، فقال الحكم إن يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر ، بقرت مثلاً . ومن المعلوم أن قول القائل إن يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر ، إذا أخذ على حقيقته

من غير نظر إلى القرائن المنوطة به، والأسباب التي قيل من أجلها، لا يعطى من المعنى ما قد أعطاه المثل؛ بل ما كان يفهم من هذا القول معنى يفيد لأن البنى هو الظلم، والقمر ليس من شأنه أن يظلم أحدا، فكان يصير معنى المثل — إن كان يظلمك قومك لا يظلمك القمر — وهو كلام مختل المعنى ليس بمستقيم .

وقد أكثر الناس في تصنيف كتب الأمثال، فمن ذلك الأمثال لأبي عبيد، وهو مرتب على ترتيب الوقائع التي تقع فيها الأمثال . ومن ذلك أمثال الميدانيّ، وهي مرتبة على حروف المعجم وفي آخرها جملة من أيام حروب العرب، إلى غير ذلك من كتب الأمثال المصنفة في هذا الباب : كأمثال الضبيّ، والقميّ، وغيرها .

وأما الأمثال الواردة نظماً، فهي كلمات استُحسنت في الشعر . وطابقت وقائع عامةً جاريةً بين الناس، فتداولها الناس، وأجروها مجرى الأمثال النثرية . وقد روى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم، كان يتمثل بقول طرفة .

* وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَزُودِ *

وهو نصف بيت مجموعه :

سُبْدِي لَكَ الْيَوْمَ مَا كُنْتَ جَاهِلًا * وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَزُودِ

ويروى أنه صلى الله عليه وسلم كان يُخرجه عن الوزن، ويُجيله عن طريق الشعر فكان يقول : ” وَيَأْتِيكَ مَنْ لَمْ تَزُودِ بِالْأَخْبَارِ ” فرارا من قول الشعر المنزه عنه مقامه العليّ، وشرفه الرفيع، لكن ثبت في الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال : ” أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةٌ لِيَدِ :

* أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ * ”

والمحرم عليه صلى الله عليه وسلم ، إنما هو نظم الشعر دون إنشاده وسماعه . وقد بسطت القول على ذلك في كتابي المسمى ”بالغيوث الهوامع ، في شرح جامع المختصرات ومختصر الجوامع“ في الفقه فراجعه هناك ، ويروى أن عمر رضى الله عنه تمثل بقول النابغة :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبِقٍ أَحَا لَا تَلْمُهُ * عَلَى شَعَثِ أَى الرَّجَالِ الْمُهَدَّبِ

ثم قال : لمن هذا؟ فقيل له للنابغة ، فقال : ذاك أشعر شعرائكم ؛ والمثل السائر فيه في قوله : أَى الرَّجَالِ الْمُهَدَّبِ ؛ وأمثال ذلك مما تمثل به الصحابة رضوان الله عليهم كثير ، ولذلك وقع في أمثال المحدثين الواردة في أشعارهم ما يستظرف ويستحلى كقول القاضي الأترجاني :

تَأْمَلُ مِنْهُ تَحْتَ الصُّدُغِ خَالًا * لِتَعْلَمَ كَمْ خَبَايَا فِي الزَّوَايَا

يشير بذلك إلى المثل الجارى على ألسنة الناس في قولهم ”في الزوايا خبايا“ وهو من الأمثلة المستفيضة على ألسنة العامة الشائعة بينهم ، وقول ابن عبد ربه .

قَالُوا شَبَابَكَ قَدْ وَثَى فُقِلْتُ لَهُمْ : * هَلْ مِنْ جَدِيدٍ عَلَى كَرِّ الْجَدِيدِينَ؟

صَلِّ مَنْ هَوَيْتَ وَإِنْ أَبَدَى مُعَاتَبَةً * فَأَطِيبِ الْعَيْشَ وَصَلِّ بَيْنَ الْفَيْنِ !

وَأَقْطَعْ حَبَائِلَ خَدْنٍ لَا تَلَامُهُ * فُرُبَمَا ضَاقَتِ الدُّنْيَا بِإِثْنَيْنِ .

وقول الآخر :

وَعَادَ مَنْ أَهْوَاهُ بَعْدَ الْقَلْبِ * شَقِيقَ رُوحٍ بَيْنَ جِسْمَيْنِ

وَأَصْبَحَ الدَّاخِلُ مَا بَيْنَنَا * كَسَا قِطْبَيْنِ فِرَاشَيْنِ

قَدْ أَلْبَسَ الْبَغْضَاءَ مِنْ ذَا وَذَا * لَا يَصْلُحُ الْغَمْدُ لِسَيْفَيْنِ

مَا بَالُ مَنْ لَيْسَتْ لَهُ حَاجَةٌ * يَكُونُ أَنْفَا بَيْنَ عَيْنَيْنِ؟

قال الأصمعي : ولم أجد في شعر شاعر بيتا أوله مثل وآخره مثل ، إلا ثلاثة أبيات بيتُ الخطيئة :

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ * لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

وبيتا امرئ القيس :

وَأَفْلَتَهُنَّ عِلْبَاءُ جَرِيضًا * وَلَوْ أَدْرَكْتُهُ صَفِرَ الْوِطَابُ

وَقَاهُمْ جَدُّهُمْ بَنِي أَبِيهِمْ * وَبِالْأَشْقِينِ مَا كَانَ الْعِقَابُ

قال صاحب القمد : "ومثل هذا كثير في القديم والحديث ، ولا أدري كيف أغفل القديم منه الأصمعي ، ومنه

* سَتَيْدِي لَكَ الْيَأْمُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا *

البيت المتقدم؟ وهو من أشرف الأبيات وأعظمها بابا .

وأما الأمثال الموضوعة على ألسنة الحيوانات ، فكما روى أن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، حين رأى خلاف أصحابه وتخاذلهم ، تمثل بقولهم "إِنَّمَا أَكَلْتُ يَوْمَ أَكَلَ الثَّورُ الْأَبْيَضُ" ، يعني إنما خذلت يوم خذلت عثمان ؛ وحكاية هذا المثل أنهم قالوا : أصطحب أسد ، وثور أحمر ، وثور أبيض ، وثور أسود في أجمه ؛ فقال الأسد للأحمر والأسود : هذا الأبيض يفضحنا بلونه ، ويطمع فينا من يقصدنا ! فلو تركتاني آكله ، أمنا فضيحة لونه ؛ فأذنا له في ذلك فأكله ؛ ثم قال للأحمر : هذا الأسود يخالف لوني ولونك ولو بقيت أنا وأنت ، ظنك من يراك أسدا مثل فدعني آكله ، فسكت عنه فأكله ؛ ثم قال للثور الأحمر : لم يبق إلا أنا وأنت ، وأريد أن آكلك ! فقال إن كنت فاعلا ولا بد ، فدعني أصعد تلك الهضبة ، وأصيح ثلاثة أصوات ، فقال : أفعل ما تريد ، فصعد وصاح ثلاثة أصوات : "إلا إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض" ، فحرت مثلا .

ويحكى أن عبد الملك بن مروان حج وقدم المدينة ، فقال على المنبر : يا أهل المدينة إنكم قُتلَ عثمانُ بين أظهركم فنحن لانبجكم ! وأرسلنا مسأمة بن عتبة فقتلكم في وقعة الحرة ، فأنتم لاتبجونا ، فثلثنا ومثلكم كما قال النابغة :

كَمَا لَقِيتُ ذَاتَ الصَّفَامِ مِنْ حَلِيفِهَا * وَكَانَتْ تُرِيهِ الْمَالَ غِيَا وَظَاهِرَهُ
فَلَمَّا رَأَى أَنْ قَدْ تَمَّ مَالُهُ * وَأَثَلُ مَوْجُودًا وَسَدَّ مَقَاوِرَهُ
أَكْبَّ عَلَى فِاسٍ يَحُدُّ غُرَابَهَا * مُدَّ كَرَّةً مِنَ الْمَعَاوِلِ بَاتِرَهُ
فَلَمَّا وَقَّاهَا اللَّهُ ضَرْبَةَ فِاسِهِ * وَلِلَّهِ عَيْنٌ لَا تُغْمَضُ نَاطِرَهُ
فَقَالَ تَعَالَى تَجْعَلِ اللَّهُ بَيْنَنَا * عَلَى مَالِنَا أَوْ تُحْزِي لِي آخِرَهُ
فَقَالَتْ يَمِينَ اللَّهِ أَفْعَلُ لِي * رَأَيْتُكَ سُخْرِيًّا يَمِينُكَ فَاجِرَهُ
أَبِي لِي قَبْرٌ لَا يَزَالُ مُقَابِلِي * وَضَرْبُهُ فِاسٍ فَوْقَ رَأْسِي فَاقِرَهُ

وهذه الحكاية مشهورة في الموضوعات على ألسن الحيوان؛ وهي أن أخوين هبطا بغنمهما واديا يريغان فيه ، فخرجت حية من تحت الصفا وفي فيها دينار فألقته إليهما وأقامت كذلك أياما؛ فقال أحدهما لابده من قتل هذه الحية وأخذ هذا الكنز! ففناه أخوه فلم يقبل ، فخرجت فضربها بفأس في يده ، فشجها وشدت عليه فقتلته ، ودفنه أخوه مقابليها ؛ فلما خرجت قال لها هل لك أن نتعاهد على المودة وعدم الأذية ، وتعطيني ذلك الدينار كل يوم؟ فقالت : لا! - قال ولم؟ - قالت لأنك كلما نظرت إلى قبر أخيك لاتصفولي ، وكلما ذكرت الشجة التي في رأسي لأصفوك .

المقصود الثاني

(في كيفية استعمال الأمثال في الكتابة)

إذا أكثر صاحب هذه الصناعة من حفظ الأمثال السائغ استعمالها ، أنقادت إليه معانيها ، وسيقت إليه ألفاظها ، في وقت الاحتياج إلى نظائرها من الوقائع

والأحوال ، فأودعها في مكانها ، وأستشهد بها في موضعها . والطريق في أستعمالها في النثر ، كما في حل الأشعار وأستعمالها ، إلا أن الأمثال لا يجوز تبادل ألفاظها ، ولا تغيير أوضاعها : لأنها بذلك قد عُرِفَتْ وأشتهرت .

فما أستعمله أهل الصناعة من الأمثال المثورة وأوردوه في كلامهم قول المتر الشهابي "أبن فضل الله في "التعريف" في وصية أمير مكة المعظمة "ولأنه أحقُّ بنى الزهراء بما أبقته له آباؤه ، وألقته إليه من حديث قصى جدّه الأقصى أبناءه ؛ وهو أجدر من طهر هذا المسجد من أشياء تنزهه أن يلحق به فحش عايبها ، وسنعا هو يعرف كيف يتبعها "وأهل مكة أخبر بشعابها" ، فاستعمل المثل السائر في قوله : وأهل مكة أخبر بشعابها ؛ وقد وقع هذا المثل في كلامه أحسن موقع ، وجاء على أجمال نظام : لأنه قد أتى به في مكانه اللائق به ، ومحله الخصوص بوصفه ؛ وقد نقله الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله فأستعمله في غير هذا المعنى ، بقاء منحنطاً عن هذه الدرجة ، وقاصراً عن رتبها ، فقال في وصية خطيب ، : ووصايا هذه الرتبة متشعبة ، وهو كأهل مكة أخبر بشعابها ، وأحوالها مترتبة ، وهو على كل حال أدرب وأدرى بها ؛ إلا أنه قد ظُرف بذكر الجناس الاشتقائي في قوله متشعبة مع قوله بشعابها .

ومن ذلك قول الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله في خطبة تقليد بفتوة عن ملك : "ونشهد أن محمدا عبده ورسوله" ، الذي نُورُ شريعته جلي ، وجاء شفاعته ملي ، وبسيفه وبه جاء النصر والشرف من آتائنا إليه ، فلا سيف إلا ذو الفقار ولا قتي إلا علي . وهذا علي ما هو شائع على الألسنة ، وأن ذلك قيل في يوم ضرب علي رضي عنه كافراً أسمه مَرَحَب ، فسُقَّ البيضة على رأسه نصفين ، وتمادى السيف فيه وفي جواده فسقهُما كذلك وخلص السيف بينهما فغاص في الأرض شبرين ؛ إلا أن المعروف عند المحذنين وأصحاب السير أن ذا الفقار أسم سيف للنبي صلى الله عليه

وسلم، أصطفاه من خير لنفسه حين أصطفى صفية بنت حبي بن أخطب رضى الله عنها، ولعله صلى الله عليه وسلم، أعطاه علياً رضى الله عنه بعد ذلك .

ومن ذلك ما ذكرته في المفاخرة بين السيف والقلم في الكلام على لسان القلم : وهو "أنا جُذَيْلُهَا الْمُحَكِّكُ ، وَعُدَيْقُهَا الْمُرَجَّبُ ؛ وَكَرِيمُهَا الْمَبْجَلُ ، وَعِلْمُهَا الْمَهْدَبُ" . فالقرينة الأولى فيها مثلان ، وأول من قالها الحُباب بن المنذر الأنصارى يوم السقيفة ، حين أجمع الأنصار إلى سعد بن عبادة ، يوم مات النبي صلى الله عليه وسلم في سقيفة بنى ساعدة ؛ وأرادوا تأميره فذهب إليهم أبو بكر وعمر ، وأبو عبيدة ابن الجراح ؛ وقال الحُباب بن المنذر : مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ ، إِلَى أَنْ كَانَ مِنْ كَلَامِهِ هَذَا الْمَثَلَانِ (١) . وَالْجُذَيْلُ تَصْغِيرُ جَذَلٍ ، وَاحِدُ الْأَجْدَالِ ؛ وَهِيَ أَصُولُ الشَّجَرِ الْعِظَامِ ؛ وَكَانَتِ الْعَرَبُ إِذَا جَرَبَتِ الْإِبِلَ نَصَبَتْ لَهَا جِذَلًا فِي بَاطِنِ الْوَادِي تَحْتَكُ فِيهِ ، فَلِذَلِكَ قَالَ جُذَيْلُهَا الْمُحَكِّكُ ، أَرَادَ أَنَّهُ يُسْتَشْفَى بِرَأْيِهِ ، كَمَا تَسْتَشْفَى الْإِبِلُ بِالْحِكِّ فِي ذَلِكَ الْجِذَلِ ؛ وَالْعَدْتُ بَفَتْحِ الْعَيْنِ النَّخْلَةَ بِجَمَلِهَا ؛ وَكَانَ مِنْ عَادَتِهِمْ أَنَّ النَّخْلَةَ الْكَرِيمَةَ يَبْنِي حَوْطًا بِنَاءً يَنْعُمُهَا مِنَ السَّقُوطِ ، فَذَلِكَ هُوَ التَّرْجِيبُ ؛ أَرَادَ أَنَّهُ كَرِيمٌ فِي قَوْمِهِ عَزِيزٌ عَلَيْهِمْ . وَمَا ذَكَرْتَهُ فِي الْمَفَاخِرَةِ بَيْنَ السِّيفِ وَالْقَلَمِ أَيْضًا عَلَى لِسَانِ السِّيفِ وَهُوَ : "فَالشَّمْسُ مِنْ شُعَاعِي فِي نَجَلٍ ، وَاللَّيْلُ مِنْ ضَوْئِي فِي وَجَلٍ ؛ وَمَا أَسْرَعْتُ فِي طَلَبِ نَارِ الْإِقِيلِ فَاتَ مَا دُئِبُ ، وَسَبَقَ السِّيفُ الْعَدْلُ" . فَفِي الْقَرِينَةِ الْأَخِيرَةِ مَثَلَانِ أَحَدُهُمَا "فَاتَ مَا دُئِبُ" وَهُوَ مِثْلُ يَضْرِبُ لِمَنْ طَلَبَ الشَّيْءَ بَعْدَ قَوَاتِهِ ، وَأَصْلُهُ أَنَّ بَعْضَ الْمُلُوكِ رَأَى مَعَ الْأَعْرَابِيِّ بَازِيًا ، فَأَعْجَبَهُ فَأَرْسَلَ فِي طَلْبِهِ قَاصِدًا ، فَاتَى الْأَعْرَابِيَّ وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَا يَضِيفُهُ بِهِ ، فَدَبَّحَ الْبَازِيَّ وَطَبَخَهُ وَقَدَّمَهُ إِلَيْهِ ، غَيْرَ عَالِمٍ بِقَصْدِهِ ؛ فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ أَكْلِهِ ذَكَرَ لِأَعْرَابِيٍّ

(١) فِي الْأَصْلِ هَذَيْنِ الْمَثَلَيْنِ وَلَعَلَّهُ سَبَقَ قَلَمٌ مِنَ النَّاسِخِ .

أمر البازي وما كان من طلب الملك له ، فقال "فات ماذبح" إنك أتيتني ولم يكن عندي ما أضيفك به ، فذبحت البازي وطبخته ؛ وهو الذي قدمته إليك .
والمثل الثاني "سَبَقَ السَّيْفُ الْعَدْلَ" وهو مثل لمن يلوم على فعل شيء بعد وقوعه وفوات أمره .

ومما حُلَّ من الأمثال الواردة نظماً، وأستعمل في النثر، قول القاضي شهاب الدين ابن فضل الله في "التعريف" في وصية أمير مكة المعظمة أيضاً في الوصية على وفود الحجيج : "وكل هؤلاء إنما يأتون في ذمّام الله بيته الذي من دخله كان آمناً، وإلى محل ابن بنت نبيّه الذي يلزمه من طريق برّ الضيف ما أخذ لهم، وإن لم يكن ضامناً ؛ فليأخذ بمن أطاع من عصي ، وليردع كل مفسد ولا سيما العبيد، فإن العبد لا يردعه إلا العصا ، فقله فان العبد لا يردعه إلا العصا يشير به إلى قول ابن دريد في مقصورته .

وَاللُّومُ لِلْحُرِّ مُقِيمٌ رَادِعٌ * وَالْعَبْدُ لَا يَرُدُّهُ إِلَّا الْعَصَا

وقد أشتهر النصف الثاني من هذا البيت حتى جرى مجرى المثل ولعله كان مثلاً سائراً قبل أن ينظمه ابن دريد .

ومنه قول الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله من توقيع بنظر مدرسة بعد أن قدم أن أهلها رفعوا قصصهم في طلب ذلك الناظر : "وكيف لا وهو نعم الناظر والإِنسان، وفي مصالح القول والعمل ذو اليمين واللِّسان، وذو العزائم الذي تقيدت في حبه الرُّتَب ومن وجد الإحسان" يريد البيت المشهور :

* وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قَيْدًا تَقِيدًا *

وقد أتى فيه بالألفاء، فزاد في كلامه حسناً وطلاوة .

وأعلى منه وأوقع في النفوس قوله بعد ذلك في التوقيع المذكور "فاقتضى علو الرأي أن يجاب في طلبه إليهم سؤال القوم، وأن يتصل أمس الإقبال باليوم؛ وأن

يعرب ، بن يسجُب ، بن نابت ، بن إسماعيل ، بن إبراهيم الخليل عليهما السلام
 ابن تارح ، وهو آزر ، بن أرغو ، بن فالغ ، بن عابر ، بن أرفخشذ ، بن سام ، بن نوح عليه
 السلام ، ابن يرد ، بن مهليل ، بن قين ، بن تاتش ، بن شيث ، بن آدم عليه السلام .
 قال النووي : ”والإتفاق على هذا النسب الشريف إلى عدنان ، وليس فيما بعده
 إلى آدم طريق صحيح“ وفيما بعد عدنان ، إلى إسماعيل عليه السلام خلاف كثير ،
 قال القضاة في ”عيون المعارف في أحكام الخلائف“ وقد روى أن النبي صلى الله
 عليه وسلم قال ”لأنجأوزوا معد بن عدنان ، كذب النسأبون ، ثم قرأ وقرونا بين ذلك
 كثيراً ولو شاء أن يعلمه لعلمه“ قال : والصحيح أنه من قول ابن مسعود رضي
 الله عنه .

المقصد الثاني

(في أنساب العرب ؛ وفيه مهيعان)

المهيع الأول

(في أمور تجب معرفتها قبل الخوض في النسب)

وأول ما تجب معرفته من ذلك من يقع عليه لفظ العرب ، قال الجوهري ”العرب
 جيل من الناس وهم أهل الأمصار ، والأعراب سُكَّان البادية ، والنسبة إلى العرب
 عربى ، وإلى الأعراب أعرابى“ والتحقيق إطلاق لفظ العرب على الجميع ، وأن
 الأعراب نوع من العرب ، ثم اتفقوا على تنويع العرب إلى نوعين عاربة ومُسْتَعْرَبَة .
 فالعاربة هم العرب الأول الذين فهمهم الله اللغة العربية ابتداءً فتكلموا بها . قال

(١) في القاموس قينان بن أنوش بن شيث .

الجوهري "وقد يقال فيهم العرب العرباء". والمستعربة هم الداخلون في العربية بعد العجمية. قال الجوهري "وربما قيل لهم المتعربة". وقد اختلف في العاربة والمستعربة فذهب ابن إسحاق والطبري إلى أن العاربة هي عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وعييل والعمالة وعبد ضخم وجرهم الأولى، ومن في معناهم. والمستعربة بنو قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح وبنو إسماعيل عليه السلام لأن لغة عابرو إسماعيل كانت سريانية أو عبرانية، فتعلم بنو قحطان العربية من العاربة ممن كان في زمانهم كعاد ونحوهم، وتعلم إسماعيل العربية من جرهم من بني قحطان النازلين على إسماعيل وأمه بمكة. وذهب آخرون منهم المؤيد صاحب حماه إلى أن بنى قحطان هم العاربة، وأن المستعربة هم بنو إسماعيل فقط، والذي رجحه صاحب العبر الأول.

ثم قد قسم المؤرخون العرب أيضا إلى بائدة وغيرها، فالبائدة هم الذين بادؤوا ودرست آثارهم كعاد، وثمود، وطسم، وجديس، وغير البائدة هم الباقون في القرون المتأخرة بعد ذلك من القحطانية: كطي، ولحم، وجدام ونحوهم، ومن العدنانية كقزارة وسليم وقريش، ومن في معناهم. ثم قد عدّ الماوردى وغيره طبقات أنساب العرب ست طبقات:

الطبقة الأولى — الشعب بفتح الشين وهو النسب الأبعد الذي تُنسب إليه القبائل كعدنان، ويجمع على شعوب، وسمى شعبا لأن القبائل تنتسب منه.

الطبقة الثانية — القبيلة، وهي ما أنقسم فيه الشعب كربيعة ومضر، وتجمع على قبائل، وسميت قبيلة لتقابل الأنساب فيها، وربما سميت القبائل جماع.

الطبقة الثالثة عد العمارة بكسر العين، وهي ما أنقسم فيه أنساب القبيلة كقريش وكنانة وتجمع على عمائر وعمارات.

الطبقة الرابعة - البطن وهي ما أنقسم فيه أنساب العمارة كبنى عبد مناف ،
وبنى مخزوم وتجمع على بطون وأبطن .

الطبقة الخامسة - الفخذ ، وهي ما أنقسم فيه أنساب البطن : كبنى هاشم ،
وبنى أمية ، وتجمع على أخاخذ .

الطبقة السادسة - الفصيلة - بالصاد المهملة - وهي ما أنقسم فيه أنساب
الفخذ كبنى العباس وبنى أبي طالب ، وتجمع على فصائل ؛ فالفخذ يجمع الفصائل ،
والبطن يجمع الأخاخذ ، والعمارة تجمع البطون ، والقبيلة تجمع العمار ، والشعب يجمع
القبائل . قال النووي وزاد بعضهم العشيرة قبل الفصيلة ، قال الجوهري "وعشيرة
الرجل رهطه الأذنون" وحكى أبو عبيدة عن ابن الكلبي عن أبيه تقديم الشعب
على القبيلة ، ثم الفصيلة ، ثم العمارة ، ثم الفخذ ، فأقام الفصيلة مقام العمارة في ذكرها
بعد القبيلة ، والعمارة مقام الفصيلة في ذكرها قبل الفخذ . وبالجملة فأكثر ما يدور على
الألسنة من الطبقات الست المذكورة القبيلة ، ثم البطن ، وقيل أن تذكر العمارة
والفخذ والفصيلة ، وربما عبروا عن كل من الطبقات الست بالحى ، إما بالعموم مثل
أن يقال حى من العرب ، وإما على الخصوص مثل أن يقال حى من بنى فلان .

ومما يجب على الناظر فى الأنساب أن يعرف عشرة أمور :

الأول - قال الماوردى إذا تباعدت الأنساب ، صارت القبائل شعوبا ، والعمار
قبائل ؛ يعنى وتصير البطون عمار ، والأخاخذ بطونا ، والفصائل أخاذا ، والحادث من
النسب بعد ذلك فصائل .

الثانى - قد ذكر الجوهري أن القبيلة هم بنو أب واحد ، وقال ابن حزم جميع
قبائل العرب راجعة إلى أب واحد سوى ثلاث قبائل : وهى تنوخ ، والعنق ، وغسان

فإن كل قبيلة منهم مجتمعة من عدة بطون ، وذلك أن تتوخا أسم لعشر قبائل
 اجتمعوا واقاموا بالبحرين ، فسُموا بتنوخ أخذوا من التنوخ وهو المقام ، والعنق جمع
 اجتمعوا على النبي صلى الله عليه وسلم فظفريهم فأعتقهم فسُموا بذلك . وغسان
 عدة بطون من الأزدي نزلوا على ماء يسمى غسان فسُموا به .

الثالث — تخصيص الرجل من رجال العرب بانتساب القبيلة إليه دون غيره من
 قومه بأن يُشهر اسمه بهم لرياسة ، أو شجاعة ، أو كثرة ولد ، أو غيره فنسب بنوه
 وسائر أعقابه إليه ، وربما أنضم إلى النسبة إليه غير أعقابه من عشيرته كإخوته
 ونحوهم ، فيقال فلان الطائي ، فإذا أتى من عقبه من أشهر منهم أيضا بسبب من
 الأسباب المتقدمة نُسبت إليه بنوه ، وجعلت قبيلة ثانية ؛ فإذا أشتمل النسب على
 طبقتين فأكثر كهاشم ، وقريش ، ومُضَر ، وعدنان ، جاز لمن في الدرجة الأخيرة من
 النسب أن يُنسب إلى الجميع : فيجوز لبني هاشم أن يُنسبوا إلى هاشم ، وإلى
 قريش ، وإلى مضر ، وإلى عدنان : فيقال في أحدهم الهاشمي ، والقُرشي ، والمُضري ،
 والعدناني ؛ بل قال الجوهري : إن النسبة إلى الأعلى تغني عن النسبة إلى الأسفل
 فإذا قلت في النسبة إلى كلب بن وَرَةَ الكَلبيّ أستغنيت أن تنسبه إلى شيء من
 أصوله . وذكر غيره أنه يجوز الجمع في النسب بين الطبقة العليا والطبقة السفلى .
 ثم بعضهم يرى تقديم العليا على السفلى : مثل أن يقال القرشي العدويّ وبعضهم
 يرى تقديم السفلى على العليا ، فيقال العدويّ القرشيّ .

الرابع — قد ينضم الرجل إلى غير قبيلته بالحلف والمؤالاة فينسب إليهم : فيقال
 فلان حليف بني فلان أو مولاهم .

الخامس — إذا كان الرجل من قبيلة ثم دخل في قبيلة أخرى ، جاز أن ينسب

إلى قبيلته الأولى، وأن ينسب إلى القبيلة الثانية التي دخل فيها، وأن ينسب إليهما جميعاً مثل أن يقال التيميّ ثم الوائليّ، أو الوائليّ ثم التيميّ وما أشبه ذلك .

السادس - القبائل في الغالب تسمى باسم أبي القبيلة : كربيعة ومُضَرَ، والأوس والخزرج، وما أشبه ذلك . وقد تسمى القبيلة باسم الأم : كخندف، وبجيلة ونحوهما؛ وقد تسمى باسم خاصة خَصَّتْ أصل تلك القبيلة ونحو ذلك . وربما وقع النسب على القبيلة لحدوث سبب كغَسَّانَ ، حيث نزلوا على ماء باليمن كسعد والحارث وغيرهما .

السابع - أسماء القبائل في اصطلاح العرب على خمسة أضرب :

أولها - أن يطلق على القبيلة لفظ الأب كعاد، وشمود، ومدّين، ومن شاكلهم؛ وبذلك ورد القرءان الكريم (وإلى عادٍ . وإلى ثمودَ . وإلى مدّينَ) يريد بنى عاد، وبنى ثمود، وبنى مدّين، ونحو ذلك . وأكثر ما يكون ذلك في الشعوب والقبائل العظام بخلاف البطون والأخفاذ .

وثانيها - أن يطلق على القبيلة لفظ البنوة : فيقال بنو فلان ؛ وأكثر ما يكون ذلك في البطون والأخفاذ .

وثالثها - أن يرد ذكر القبيلة بلفظ الجمع مع الألف واللام كالطالبيين والجعافرة ونحوهما؛ وأكثر ما يكون ذلك في المتأخرين دون غيرهم .

ورابعها - أن يعبر عنها بأل فلان : كآل ربيعة، وآل فضل، وآل مُرّ، وآل على، وما أشبه ذلك؛ وأكثر ما يكون ذلك في الأزمنة المتأخرة، لاسيما في عرب الشام في زماننا . والمراد بالآل الأهل .

وخامسها — أن يعبر عنها بأولاد فلان؛ ولا يوجد ذلك إلا في المتأخرين من
أنحاذ العرب على قلة : كقولهم أولاد زعازع، وأولاد قريش ونحو ذلك .

الثامن — أسماء غالب العرب منقولة عمّا يدور في خزّانة خيالهم مما يُخالطونه
ويُجاورونه ؛ إما من الحيوان المفترس كأسد ، ونمر ؛ وإما من النبات كنبت ،
وحنظلّة ؛ وإما من الحشرات كحية ، وحش ؛ وإما من أجزاء الأرض كنهْر، وصخر
ونحو ذلك .

التاسع — الغالب على العرب تسمية أبنائهم بمكروه الأسماء : ككلب ، وحنظلّة ،
ومرّة ، وضرار ، وحرب ، وما أشبه ذلك ؛ وتسمية عبيدهم بمحبوب الأسماء : كفلاح
وتجّاح ، ونحوهما . والمعنى في ذلك ما حكى أنه قيل لأبي الدقيش الكلابي^(١) : لم تُسمّون
أبناءكم بِشّر الأسماء نحو كلب وذئب ، وعبيدكم بأحسن الأسماء نحو مرزوق وربّاح ؟
فقال : إنما نسمي أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا (يريد أن الأبناء معدّة للأعداء
فاختاروا لهم شر الأسماء ، والعبيد معدّة لأنفسهم فاختاروا لأنفسهم خير الأسماء) .

العاشر — إذا كان في القبيلة آسمان متوافقان : كالحارث والحارث ، وأحدهما
من ولد الآخر أو بعده في الوجود عبّروا عن الوالد أو السابق منهما بالأكبر ، وعن
الولد أو المتأخر منهما بالأصغر ؛ وربما وقع ذلك في الأخوين إذا كان أحدهما أكبر
من الآخر .

المهيع الثاني

(في معرفة تفاصيل أنساب العرب)

وأعلم أن العرب على قسمين :

(١) أهمله في الأصل وصوابه الإجماع .

القسم الأول

(العرب البائدة)

وهم الذين بادؤا ، ودرست آثارهم ، وأتقطعت تفاصيل أخبارهم إلا القليل ؛
والمشهور منهم قبائل :

القبيلة الأولى — عاد ؛ وهم بنو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه
السلام ، وكانت منازلهم بالأحقاف بين اليمن وعمان : من البحرين إلى حضرموت
والشحر ؛ وهم الذين بعث الله تعالى إليهم هودا عليه السلام فلم يؤمنوا فأهلكهم
بالريح كما ورد به القرآن الكريم .

القبيلة الثانية — ثمود، وهم بنو ثمود بن جاثر، (ويقال كاثر بالكاف بدل الجيم)
أبن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وكانت منازلهم بالجحر ووادى القرى، بين
الحجاز والشام ؛ وكانوا ينيحون بيوتهم من الجبال مراعاةً لطول أعمارهم . بعث الله
تعالى إليهم صالحا عليه السلام فلم يؤمنوا، فأهلكهم الله بصيحة من السماء كما ورد به
القرآن الكريم .

القبيلة الثالثة — العماقة، وهم بنو عمليق، (ويقال عملاق) بن لاوذ بن إرم بن
سام بن نوح ؛ وهم أمة عظيمة يضرب بهم المثل في الطول والجثمان . قال الطبري
وتفرقت منهم أمم في البلاد، فكان منهم أهل عمان، والبحرين، والحجاز، وملوك
العراق، والجزيرة، وجبارة الشام، وفراعنة مصر .

القبيلة الرابعة — طسم ، وهم بنو طسم . قال ابن الكلبي وهم بنو طسم
أبن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام . وذكر الجوهري أنهم من عاد ،

قال : وكانت منازلهم الأحقاف باليمن . وذَكَر في "العبر" أن ديارهم كانت باليمامة ؛ وكان هلاكهم بالحرب بينهم وبين إخوانهم جَدِيس الآتي ذَكَرهم .

القبيلة الخامسة — جَدِيس وهم بنو جَدِيس بن إرم بن سام بن نوح .
وقال الطبري جَدِيس بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام ، وكانت مساكنهم بجوار طَسَمِ المقدم ذَكَرهم ؛ وكان هلاكهم بالحرب بينهم وبين المذكورين أيضا .

القبيلة السادسة — عَبْدُ ضَخْمٍ ، وهم بنو عَبْدِ ضَخْمِ بن إرم بن سام بن نوح .
قال في "العبر" : كانوا يسكنون الطائف فهلكوا فيمن هلك . قال : ويقال إنهم أول من كتب بالخط العربي .

القبيلة السابعة — جُرْهُمُ الأولى . قال ابن سعيد : وهم قبيلة من العرب كانوا على عهد عاد فبادوا .

القبيلة الثامنة — مَدِين ، وهم بنو مَدِينِ بن إبراهيم عليه السلام ؛ وهم أمة كبيرة قبائل وشُعب ؛ وكانت ديارهم ديار عاد وأرض مَعَانَ من أطراف الشام مما يلي الحجاز قريبا من عشيرة قوم لُوطِ^(١) بعث الله إليهم سُعَيْبًا فلم يؤمنوا .

القسم الثاني

(من العرب الباقية أعقابهم على تعاقب الزمان)

وأكثر من تدعو حاجة الكاتب إلى معرفته من بقي أعقابه منهم متفرقة في أقطار الأرض إلى الآن ، وهم على ثلاثة أضرب :

(١) في سبائك الذهب من أرض قوم لوط فتنه .

الضرب الأول

(العرب العاربة)

قال الجوهري: ويقال فيهم العرب العرباء، وهم بنو قحطان، بن عابر، بن شانخ
ابن أرفخشذ، بن سام، بن نوح عليه السلام، وهم عرب اليمن. والمشهور منهم شعبان.

الشَّعب الأول — جُرهم (بضم الجيم وسكون الراء وضم الهاء) وهم بنو جرهم بن
قحطان، وهم غير جرهم الأولى المقدم ذكرها في جملة العرب البائدة.

وكانت منازلهم أولاً اليمن، ثم آنتقلوا إلى الحجاز فزلوه، فأقاموا به حتى كان من
نزول إسماعيل عليه السلام مع أبيه مكة ما كان، فنزلوا عليه بمكة، وآستوطنوها على
ما سياتي ذكره في الكلام على العرب المستعربة إن شاء الله تعالى.

الشَّعب الثاني — يعرب، وهم بنو يعرب بن قحطان المقدم ذكره. ويقال إن
العرب إنما سُميت عرباً به، وهو أصل عرب اليمن الذين أقاموا به ومنه تناسلوا
فولِد له يَسْجُب، وولِد يَسْجُب سَباً، ومنه تفرعت جميع قبائلهم.

ومرجع المشهور فيه إلى قبيلتين:

القبيلة الأولى — حمير وهم حمير بن سبيل (بكسر الحاء وأسمه العرنيج). وقد ذكر
ابن الكلبي: أنه كان لحمير عشرة أولاد من عقبه وكان غالبٌ وجُلُّ قبائل حمير من
أبْيَه: الهميسع، ومالك ملوك اليمن؛ وكانت بلادهم مشارف اليمن فظفار وما
حولها. ولحمير بقايا موجودة إلى الآن، ومنه غالب قبائل قُضاعة، ومنه غالب
قبائل حمير، وهو قُضاعة، بن مالك، بن عمرو، بن مُرّة، بن زيد، بن مالك، بن حمير؛
وقيل قُضاعة بن مالك بن حمير. وذهب بعض النسابة إلى أن قُضاعة من العدنانية
الآتي ذكرهم. قال السهيلي: والصحيح أن أم قُضاعة (وهي جكرة) مات عنها مالك

أبن حمير وهى حامل ، فتروجها معدن بن عدنان ، فولدت قضاة على فراشه فتبتاه
فنسب إليه . قال المؤيد صاحب حماه : " وكان قضاة مالكا لبلاد الشحر وقبره يجبل
الشحر موجود " . ولقضاة بقايا إلى الآن ينسب إليهم ، وإليهم ينسب القضاة
المصرى صاحب كتاب " الشهاب فى المواعظ والآداب " فى الحديث ، وخطط مصر
وغيرهما .

والمشهور من قضاة سبعة أحياء :

الحى الأول - بلى (بفتح الباء) وهم بنو بلى ، بن عمرو ، بن الحافى ، بن قضاة ،
ولهم بقايا بالديار المصرية بصعيدها الأعلى ، منهم بنوناب وغيرهم ، وبقايا بالمجاز
وغيرهما ، والنسبة إليهم بلوى بزيادة واو مكسورة قبل ياء النسب .

الحى الثانى - جهينة (بضم الجيم وفتح الهاء والنون) ، وهم بنو جهينة ، بن زيد ،
أبن ليث ، بن سؤد ، بن أسلم ، بن الحافى ، بن قضاة ، وهى قبيلة عظيمة ، ولهم بقايا
ببلاد الصعيد من الديار المصرية وبالمجاز وغيرهما . والنسبة إليهم جهنى بجذف
الياء بعد الهاء .

الحى الثالث - كلب ، وهم بنو كلب ، بن وبرة ، بن ثعلبة ، بن حلوان ، بن عمران ،
أبن الحافى ، بن قضاة ، ومنهم حارثة الكلبي أبو زيد بن حارثة مولى رسول الله
صلى الله عليه وسلم .

قال صاحب حماه : وكان بنو كلب فى الجاهلية يتزلون دومة الجندل ، وتبوك ،
وأطراف الشام . قال ابن سعيد : ومنهم الآن خلق عظيم على خليج القسطنطينية
مسلمون . قال فى « مسالك الأبصار » : وبشيزر ، وحلب وبلادها ، وتدمر ، والمناظر
أقوام منهم ، والنسبة إليهم كلبي .

الحى الرابع - عذرة (بضم العين المهملة وسكون الذال المعجمة) وهم بنو عذرة

(١) ابن سعيد، بن هذيم، بن زيد، بن ليث، بن سود، بن أسلم، بن الحافي، بن قضاة، وإلى عُدرة هؤلاء ينسب العشق والتيم؛ ومنهم عُرْوَة بن حِرَام صاحب عَفْرَاء أحد المتيمين وجميل صاحب بُيْنَة . ومن أحسن ما يحكى أنه قيل لرجل منهم : ما بأل العشق يقتلكم يا بني عُدرة ؟ قال لأنّ فينا جمالا وعِفَّة : وقيل لآخر منهم : ما بأل الرجل منكم يموت في هوى امرأة ؟ إنما ذلك ضعف فيكم يا بني عُدرة — فقال : أما والله ! لو رأيت النواظر الدُّعج ، تحتها المَبَاسِمُ الفُجج ، فوقها الحَوَاجِبُ الرُّجج ، لآخذتموها اللَّات والعُرَى ، ولهم بقايا بالدَّقْهَلِيَّة والمُرْتاحِيَّة من الديار المصرية ، وبقايا بالشام أيضا .

الحى الخامس — بهراء (بفتح الباء الموحدة وسكون الهاء وألف بعد الراء المهملة) ، وهم بنو بهراء ، بن عمرو، بن الحافي : بن قُضَاعَة ؛ ومنهم جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم ، منهم المقداد بن الأسود ، أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويقال : إن خالد بن برمك من آل بهراء . قال في العبر : وكانت منازلهم شمالي منازل بلّ من الينبع إلى عقبة أيلة ، ثم جاور بحر القلزم منهم خلق كثير ، وأنشروا ما بين بلاد الحبشة وصعيد مصر ، وكثروا هناك ، وغلبوا على بلاد النوبة ، وهم يحاربون الحبشة إلى الآن .

الحى السادس — بنو نهد ، بن زيد ، بن ليث ، بن سود ، بن أسلم ، بن الحافي ، بن قُضَاعَة ؛ وكانت منازلهم باليمن ، وإليهم كتب النبي صلى الله عليه وسلم كتابه المشهور ؛ وكان منهم طائفة بالشام أيضا فيما ذكره أبو عبيد . ومن مشاهير نهد الصّقعب ؛ قال صاحب حماه : وكان رئيسا في الإسلام .

(١) في القاموس سعد بن هذيم بدون ياء وهو الصواب وهذيم عبد حبشى حُضِن سعدا فقتل يله وإلا فهو سعد بن زيد بن ليث فليس زيد جدا له كما قد يتوهم من العبارة فتنبه .

الحى السابع - جرم، وهم بنو جرم وأسمه علاف، بن زبآن، بن حلوان، بن عمران،
 ابن الحافى، بن قضاة. قال الحمدانى: ومنهم بنو جشم، وبنو قدامة، وبنو عوف.
 قال فى العبر: ومنهم جماعة من الصحابة رضى الله عنهم. قلت وهم القاضى ولى
 الدين بن خلدون فجعلهم هم الذين ببلاد غزّة، وقد تقدّم أن أولئك هم جرم طي
 لا جرم قضاة. وعدّ صاحب حماه فى تاريخه منهم تنوخ (بفتح التاء المثناة فوق
 وضم النون وحاء معجمة فى الآخر) قال الجوهرى: ولا تشدد نونه، والتحقيق
 ما قاله أبو عبيد: أنهم ثلاثة أبطن من الفحطانية زرار، والأحلاف^(١). قال: وسموا بذلك
 لأنهم حلفوا على المقام بمكان بالشام والتنخ المقام. قال ابن سعيد: ومن الناس
 من يطلق تنوخ على الضجاعة، ودوس الذين نتنخوا بالبحرين. قال صاحب
 حماه: وكان بينهم وبين التميميين ملوك الحيرة حروب؛ ولتنوخ بقايا بالمعزة من بلاد
 الشام فيما ذكره الحمدانى.

القبيلة الثانية - من الفحطانية كهلان (بفتح الكاف وسكون الهاء)، وهم بنو
 كهلان بن سبيل. قال أبو عبيد: وشعوبهم كلها متشعبة من زيد بن كهلان،
 وكانوا متداولين الملك باليمن مع بنى حمير، انفرد بنو حمير بالملك، وبقيت بطون كهلان
 على كثرتها تحت ملكهم. قال فى العبر: ثم تقاصر ملك حمير وبقيت الرياسة على
 العرب بالبادية لبني كهلان، وهم أحياء كثيرة.
 والمشهور منهم أحد عشر حياً:

الحى الأول - الأزدي (بفتح الهمزة وسكون الزاي وبالذال المهملة)، قال
 أبو عبيد: ويقال بالسين بدل الزاي. قال الجوهرى: بالزاي أفصح، وهم بنو
 الأزدي، بن الغوث، بن نبت، بن مالك، بن أدد، بن زيد، بن كهلان، وهم من أعظم
 الأحياء وأكثرهم بطونا. وقد قسم الجوهرى الأزدي إلى ثلاثة أقسام:

(١) أى أسد وغطفان فهما آثنان ووزار الثالث.

أحدهما - أزدُ شِنُوءة، وهم بنو نصر بن الأزد، وشِنُوءة لقب لنصر غلب على بنيه .
الثاني - أزد السَّرَاة، بإضافة أزد إلى السَّرَاة (بالسين المهملة)، وهو موضع
بأطراف اليمن نزل به فرقة منهم فعرفوا به .

الثالث - أزدُ عَمَّان بإضافة أزد إلى عمان (بفتح العين المهملة وتشديد الميم)^(١)،
وهي مدينة بالبحرين نزلها قوم منهم فعرفوا بها . وللأزد بقايا ببلاد الشام بزُرْع
وبُصْرَى فيما قاله في "مسالك الأبصار" .

ثم الأزد بطون كثيرة . منها غَسَّان (بفتح الغين المعجمة وتشديد السين المهملة
ونون في الآخر)، قال أبو عبيد : وهم بنو جَفْنَةَ، والحارث وهو مُحْتَرَق، وثَعْلَبَةُ وهو
العنقاء^(٢)، وحارثة، ومالك، وكَعْب، وخارجة، وعَوْف بن عمرو، بن عامر ماء السماء،
ابن حارثة الغطريف، بن امرئ القيس البَطْرِيق ويقال البهلُول، ابن ثَعْلَبَة، بن
مازن، بن الأزد؛ وإنما سُمُوا غسان لما نزلوا عليه اسمه غَسَّان فشرَبوا منه فسُمُوا
به . قال في العبر : وهو على القرب من بلاد اليمن . قال أبو عبيد : وفي ذلك يقول
بعض الأنصار :

إِذَا سَأَلْتَ فَإِنَّا مَعْشَرُ نَجَبٍ * الْأَزْدُ نَسَبْنَا وَالْمَاءُ غَسَّانُ

ولغسان هؤلاء كان ملكُ العرب بالشام بعد سَلِيحِ المَقْدَمِ ذَكَرَهُمْ إِلَى أَنْ كَانَ
أَخْرَجَهُمْ جَبَلَةُ بْنُ الْأَيْهَمِ الَّذِي أَسْلَمَ فِي زَمَنِ عُمَرَ ثُمَّ آرَتَدَ، ولحق ببلاد الكُفْرِ . وقد
ذكر في «مسالك الأبصار» أن لهم بقايا ببلاد الشام بالبَلْبَاءِ وَالرِّمُوكِ وَحِمَصَ . ومنها
الْأَوْسُ وَالخَزْرَجُ ابْنَا حَارِثَةَ، بن ثَعْلَبَةَ، بن عَمْرٍو مَرْيَقِيَا، بن عَامِرٍ مَاءِ السَّمَاءِ، بن حَارِثَةَ
الْغَطْرِيفِ، بن امرئ القيس البَطْرِيقِ، بن ثَعْلَبَةَ، بن مَازِنَ، بن الْأَزْدِ؛ وكانت منازلهم

(١) هذا الضبط مخالف لما ضبطه الجوهري بالقلم والقاموس أيضا وضبطه شارحه بالعبارة . فقال :
كغراب بلد بالبحرين وكذا ياقوت وفيه أيضا أن المفتوح المشدّد بلد بأطراف الشام فخر .

(٢) لقب بذلك لطول عنقه ووقع في الأصل بالمتناة وهو تصحيف .

يُثْرِبَ ، ومنهم كانت أنصارُ النبي صلى الله عليه وسلم ، ولهم بقايا كثيرة متفرقة بالمشرق والمغرب . وقد ذكر الحمداني : أن منهم جماعةً بمنقلوطٍ من صعيد مصر من عقب حسان بن ثابت ، وسعد بن معاذ سيد الأوس رضى الله عنهما .

الحى الثاني — من كهلان طيِّء (بفتح الطاء وتشديد الياء بهمزة فى الآخر) أخذنا من الطاءة على وزن الطاعة : وهى الإيغال فى المرعى ، وهم بنو طيِّء ، بن أدَدَ ابن زيد ، بن يشجب ، بن عريب ، بن زيد ، بن كهلان ، والنسبة إليهم طائى ، وإليهم ينسب حاتم الطائى المشهور بالكرم ، وأبو تمام الطائى الشاعر المشهور ، وهم كثير . قال فى العبر : وكانت منازلهم بايمن نخرجوا منها على إثر خروج الأزدي عند تفرقهم بسيل العريم ، فزلوا بتجد والمجاز على القرب من بنى أسد ، ثم غلبوا بنى أسد على جبلٍ أجأ وسامى من بلاد نجد ، فزلوهما فعرفا بجبل طيِّء إلى الآن ؛ ثم أفتروا فى أول الإسلام زمن الفتوحات فى الأقطار ، ولهم بطون كثيرة . منهم ثعل (بضم الثاء المتلثة وفتح العين المهملة ولام فى الآخر) وهم بنو ثعل ، بن عمرو ، بن العوث ، ابن طيِّء . قال أبو عبيد : ومنهم البيت والعدد . قال صاحب حماه : ومنهم زيد الخليل .

ومنها جديلة (بفتح الجيم وكسر الدال وسكون الياء وفتح اللام وهاء فى الآخر) ، ذكرهم الجوهري ولم يرفع نسبهم ؛ ثم قال : وجديلة أمهم عرفوا بها : وهى جديلة بنت سبيع بن عمرو من حمير .

ومنها نهبان (بفتح النون وسكون الباء الموحدة ونون بعد الألف) ، وهم بنو نهبان ، واسمه سودان ، بن عمرو ، بن العوث ، بن طيِّء .

ومنها بولان (بفتح الباء الموحدة وسكون الواو ونون بعد اللام ألف) وهم بنو بولان ، واسمه غصين ، بن عمرو ، بن العوث ، بن طيِّء . ومنهم الثلاثة نفر الذين يقال

لأنهم وضعوا الخط العربي على ما سيأتى ذكره في الكلام على الخط فيما بعد إن شاء الله .

ومنها هِنَاءٌ، وهم بنو هِنَاءَ، بن عمرو، بن الغوث، بن طيء .
ومنهم إياس بن قبيصة الذى ملك بعد النعمان بن المنذر .

ومنها سُدُوس (بضم السين والdal المهملتين وسين مهملة في الآخر)، وهم بنو سُدُوس بن أصمَع من بنى سعد، بن نَبَاهِ، بن عمرو، بن الغوث، بن طيء .
ومنهم جعفر بن عطية الذى يقول :

مَدَحْتَ نَسِيبِي جَعْفَرًا إِنْ جَعْفَرًا * تُحَلِّبُ كَفَّاهَ النَّدَى وَأَنَا مِثْلَهُ

ومنها سَلَامَانُ (بفتح السين المهملة ونون في الآخر)، وهم بنو سَلَامَانَ، بن ثَعْلَبِ،
أبن الغوث، بن طيء .

ومنها بُحْتَرٌ (بضم الباء الموحدة وسكون الحاء المهملة وضم التاء المثناة فوق وراء
مهملة في الآخر)، وهم بنو بُحْتَرِ، بن عَتُودِ، بن عُنَيْزِ، بن سَلَامَانَ، بن ثَعْلَبِ،
أبن عمرو، بن الغوث، بن طيء؛ منهم أبو عبادة البحرى الشاعر الإسلامى المشهور .

ومنها زُبَيْدٌ (بضم الزاى وفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت وdal مهملة
في الآخر)، وهم بنو زُبَيْدِ، بن مَعْنِ، بن عمرو، بن عُنَيْزِ، بن سَلَامَانَ، بن عمرو، بن
الغوث، بن طيء . قال ابن سعيد : وزُبَيْدٌ هؤلاء هم الذين يريّة سنجان من الجزيرة
القراتية، وهم الذين ذكرهم المقرئ الشهابى بن فضل الله، وسماهم زُبَيْدِ الأَحلافِ .

ومنها سُنَيْسٌ (بضم السين المهملة وسكون النون وضم الباء الموحدة وسين مهملة
في الآخر) وهم بنو سُنَيْسِ بن معاوية، بن حَرْوَلِ، بن ثَعْلَبِ، بن عمرو، بن الغوث، بن

(١) ضبطه السويدي في سبائك الذهب فقال بفتح السين وذكر في القاموس أنه بالكسر وكذلك هو في الصحاح واللسان بضبط القلم فتنبه .

طبيء . وقد ذكر الحمداني أن منهم طائفةً بشغردمياط ، وأنه كان لهم شأن أيام الخلفاء الفاطميين ، وعدت منهم ثلاثة بطون : وهم الخزاعلة ، وعبيد ، وجموح . والإمارة في زماننا هذا فيهم ، في الخزاعلة ، في بني يوسف بمدينة سخا من الأعمال الغربية . قال الحمداني : ومنهم طائفة بالبطنج من بلاد العراق .

ومنها جرم (بفتح الجيم وسكون الراء وميم في الآخر) ، وهم بنو ثعلبة بن عمرو ، بن الغوث ، بن طبيء . وقال الحمداني جرم أسم أمه غلب عليه : وهي جرم بنت الغوث ابن طبيء ؛ وهؤلاء هم جرم الذين ببلاد غزّة من البلاد الشامية . قال الحمداني : وكانوا متفقين مع ثعلبة بالشام على تدافع الفرنج عن المسلمين ، فلما فتح السلطان صلاح الدين البلاد ، دخلت طائفة منهم مصر ، وبقى بقاياهم بمكانهم ببلاد غزّة . وقد ذكر الحمداني منهم ثلاثة بطون : وهم شمجان ، وقران ، وجيان . ثم قال : والمشهور من جرم الآن جديمة ؛ ويقال إن لهم نسبا في قریش ؛ وزعم بعضهم أنها ترجع إلى مخزوم ، وقيل بل من جديمة بن مالك ، بن حنبل ، بن عامر ، بن لؤي ، بن غالب ، بن فيهر . ثم قال وجديمة هؤلاء هم آل عوسجة ، وآل أحمد ، وآل محمود . ثم قال : ومنهم أسلم ، وشبل ، ورضيعة ، ونيور ، والقذرة ، والأحامدة ، والرفثة ، وكور ، وموقع . ومنهم من بنى غوث العاجلة ، والعبادلة ، وبنو تمام ، وبنو جميل ، وبنو مقدم ، وآل نادر . ومنهم من بنى غوث بنو بها ، وبنو خولة ، وبنو هرماس ، وبنو عيسى ، وبنو سهيل ؛ وأرضهم الداروم ؛ وجاورهم قوم من زبيد يعرفون ببني فهيد . ثم اختلطوا بهم .

ومنها ثعلبة ، وضبطه معروف ؛ وهم بنو ثعلبة بن سلامان ، بن ثعل ؛ بن عمرو ؛ بن الغوث ، بن طبيء ، وهم رعيان درما وزريق ، أبني عوف بن ثعلبة ، وقيل أبنا ثعلبة وآسم درما عمرو ، ودرما أسم أمه غلب عليه . قال الحمداني : وكانوا مع جرم بالشام يدا مع

الفرنج على المساميين، فلما فتح السلطان صلاح الدين البلاد آتتقلت طائفة منهم إلى مصر ونزلوا أطراف بلاد الشرقية؛ فمن بطون دَرَمَا سلامة، والأحمر، وعمرو، وقصير، وأويس، وشبل، والحنابل، والمرأونة، والحَيَّانِيَّون؛ ومن بطون زريق بها بنو وهم والطلحييون؛ ومن الطليحيين آل حجاج، وآل عمران، وآل حفصان، والمصاحفة؛ ومن بني زريق أيضا الصبيحيون، ومن الصبيحيين الغيوث، والزُموت، والروايات، والنمورة، والشمخيون، والسَّعَالَى، والرَمَالَى، والمعامرة، والسَّنْدِيَّون، والبَحَّابِجَة، والعُقَيْليون، والمساهرة، والمعافرة؛ ومنهم أيضا العليميون . قال الحمداني: وكان مقدمهم قديما عمرو بن عسيلة أمم بالبوq والعلم . ومن العليميين القمعة، والرياحين، والغوفة . قال الحمداني: وكان فيهم رجال ذوو ذكرونباهة، خدموا الدول، وعضدوا الملوك، وقاموا ونصروا . ومنهم من أمم بالبوq والعلم . ومن بطون ثعلبة هؤلاء أيضا الجواهررة .

ومنها غَزِيَّة (بفتح الغين المعجمة وكسر الزاي وتشديد الياء المثناة تحت وهاء في الآخر)، وهم بنو غَزِيَّة بن أفلت، بن ثعل، بن عمرو، بن سَلَامان، بن ثعل، بن عمرو، بن العُوْث، بن طيء . قال الحمداني: وهم بالشام والعراق والحجاز، وفيما بين العراق والحجاز . قال في العبر: وفيهم الإمارة في العراق إلى الآن ولهم صولة عظيمة . وهم بطون كثيرة: فمن بطونهم البطين، وأخاذهم، آل دعيج، وآل روق، وآل رفيع، وآل سرية، وآل مسعود، وآل تميم، وآل شرود . ومن بطونهم الأجود وأخاذهم آل منيع، وآل سنيد، وآل منال، وآل أبي الحزم، وآل علي، وآل عقيل، وآل مسافر . هذا ما ذكره الحمداني . وزاد في مسالك الأبصار عن نصر بن برجس المشرقي، وأولاد الكافرة، وساعدة، وبني جميل، وآل أبي مالك . قال في "المسالك": "وديار

آل أجود منهم الرخيمية، والرقي، والفردوس، ولينة، والحدق. وديار آل عمرو بالحوف. وديار بقاياهم النصيف، والكن، واليحموم، والأم، والمعينة. ويلهم مساعدة. وديارهم من الحضرة إلى بركة زرود، إلى سقارة، إلى البقعاء، إلى النيب، إلى الساسة، إلى حضر.

ومنها لام. وهم بنو لام بن عمرو، بن طريف، بن عمرو، بن بجيلة، بن مالك، بن جدعاء، بن ذهل، بن رومان، بن جندب، بن خارجة، بن سعد، بن قطرة، بن طيء. قال ابن سعيد: ومساكنهم المدينة النبوية وما حولها. وقال الحمداي: ديارهم جبل أجا وسلمى. ثم قال وظفير من لام، ومنازلهم الظعن قبالة المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

ومنها آل ربيعة، عرب الشام. وهم بنو ربيعة، بن حازم، بن علي، بن مفرج، بن دغفل، بن جراح، بن شبيب، بن مسعود، بن سعيد، بن حرب، بن السكّن، بن ربيع، ابن علقم، بن حوط، بن عمرو، بن خالد، بن معبد، بن عدى، بن أفلت، بن سلسلة، بن غم، بن ثوب، بن معن، بن عتود، بن عنيز، بن سلامان، بن نعل، بن عمرو، بن القوث، ابن طيء. قال في "مسالك الأبصار": وتقول بنو ربيعة الآن إنهم من ولد جعفر ابن يحيى، بن خالد، بن برمك من العباسية بنت المهدي، أخت الرشيد، ويزعمون أنه كان يجتمع مع الرشيد مجلسه الخاص وأنه كلمه في تزويجها ليحل له نظرها لأجتماعهما يجلسه فعقد له عليها بشرط أن لا يطأها، فعانقها على حين غفلة من الرشيد، فحملت منه بولد كان ربيعة هذا من ولده. قال: ويقولون في نسبه إنه ربيعة بن سالم، ابن شبيب، بن حازم، بن علي، بن جعفر، بن يحيى، بن خالد، بن برمك، ويزعمون أن نكبة البرامكة كانت بسبب ذلك. ثم قال: وأصلهم إذا نسبوا إليه أشرف لهم:

(١) في العبر ابن معبد بن عمرو.

لأنهم من سلسلة بن عُنَيْز، بن سلامان، بن طي، وهم كرام العرب وأهل البأس
والنجدة، والبرامكة وإن كانوا قوماً كراماً فإنهم قوم عجم وشتان بين العرب والعجم؛
وقد شرف الله تعالى العرب أن بعث منهم محمداً صلى الله عليه وسلم، وأنزل فيهم كتابه،
وجعل فيهم الخلافة والملك، وأبترَّ لهم ملك فارس والروم، ونزع بأستهم تاج كسرى
وقيصر، وكفى بذلك شرفاً لا يُطَاوَل، ونفراً لا يُتَنَاوَل. وذكر في "التعريف" نحوه
قال في العبر: وكانت رياسة طي في أيام الفاطميين لبني الجراح، ثم صارت لآل
ربيعة. قال الحمداني: وكان ربيعة هذا قد نشأ في أيام الأتابك زنكي وأبنته نورالدين
الشهيد صاحب الشام ونبغ بين العرب وولد له أربعة أولاد: وهم فضل، ومرا،
وئابث، ودغفل، ومنهم تفرَّعت بطون آل ربيعة. ثم المشهور من آل ربيعة الآن
ثلاثة بطون: وهم آل فضل، وآل مرا، وآل علي: قال فضل هم بنو فضل بن ربيعة
وآل مرا بنو مرا بن ربيعة. وأما آل علي فمن آل فضل، وهم بنو علي بن حديثة، بن
عُقبَةَ بن فضل المقدم ذكره؛ وقد صارت آل فضل أيضاً بعد ذلك بيوتاً أرفعها قدراً
بيت عيسى بن مهنا، بن مائع، بن حديثة، بن عقبه، بن فضل. قال في "مسالك
الأبصار" وفيهم الإمرة دون سائر آل فضل. قال: ثم صار آل عيسى بيوتاً، بيت
مهنا بن عيسى، وبيت فضل بن عيسى، وبيت حارث بن عيسى، وبيت محمد
أبن عيسى، وبيت هبة بن عيسى. وسيأتي الكلام على تقسيم الإمرة فيهم في الكلام
على عرب الشام في المسالك والممالك إن شاء الله.

الحى الثالث - من كهلان مَدْحِج (بفتح الميم وسكون الذال المعجمة وكسر الحاء
المهملة وجيم في الآخر)، وهم بنو مَدْحِج وأسمه مالك، بن أدَد، بن زيد، بن يَشْجُب،
أبن عَرِيب، بن زيد، بن كهلان هكذا قاله أبو عبيد، وقال الجوهرى: مَدْحِج

أَبْنُ يُحَارِبٍ، بَنُ مَالِكٍ، بَنُ زَيْدٍ، بَنُ كَهْلَانَ. وَقَدْ ذَكَرَ الْحَمْدَانِيُّ: أَنَّهُمْ إِنَّمَا سَمَّوْا مَدْحِجَ لَشَجَرَةٍ تَحَالَفُوا عِنْدَهَا أَسْمَهَا مَدْحِجَ، فَسَمَّوْا بِأَسْمِهَا. ثُمَّ لَمَدَحِجَ بَطُونَ كَثِيرَةً:

مِنْهَا حَوَّلَانُ، (بِفَتْحِ الْخَاءِ الْمَعْجَمَةِ وَسُكُونِ الْوَاوِ وَنَوْنِ بَعْدِ اللَّامِ أَلْفٌ)، وَهَمُّ بَنُو حَوَّلَانَ بَنُ مَالِكٍ، وَهُوَ مَدْحِجٌ وَإِلَيْهِمْ يَنْسَبُ أَبُو إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيُّ. قَالَ فِي الْعَبْرِ: وَبِلَادِ حَوَّلَانَ فِي بِلَادِ الْيَمَنِ مِنْ شَرْقِيهِ، قَالَ: وَقَدْ أَفْتَرَقُوا فِي الْفَتْوحَاتِ، وَلَيْسَ مِنْهُمْ الْيَوْمَ ذُرِّيَّةٌ إِلَّا بِالْيَمَنِ؛ ثُمَّ قَالَ وَهَمُّ غَالِبُونَ عَلَى أَهْلِهِ.

وَمِنْهَا جَنْبٌ (بِفَتْحِ الْجِيمِ وَسُكُونِ النَّوْنِ وَبَاءِ مُوَحَّدَةٍ فِي الْآخِرِ)، وَهَمُّ بَنُو مُنْبَهٍ، وَالْحَارِثُ، وَالغُلِيُّ، وَسَبْحَانَ، وَشَمْرَانَ، وَهَفَانَ بَنُ يَزِيدٍ، بَنُ حَرْبٍ، بَنُ عَلَّةٍ، أَبْنُ جَلْدٍ، بَنُ مَدْحِجٍ. قَالَ أَبُو عَيْسَى: وَسَمَّوْا بِجَنْبٍ لِأَنَّهُمْ جَانَبُوا عَمَّهُمْ صُدَاءً، وَحَالَفُوا سَعْدَ الْعَشِيرَةِ، وَحَالَفَتْ صُدَاءُ بَنِي الْحَارِثِ بَنُ كَعْبٍ. وَمِنْ جَنْبٍ مَعَاوِيَةَ الْخَلِيفِ الْجَنْبِيُّ صَاحِبَ لُؤَاءِ مَدْحِجٍ فِي حَرْبِ بَنِي وَائِلٍ.

وَمِنْهَا سَعْدُ الْعَشِيرَةِ، وَهَمُّ بَنُو سَعْدِ الْعَشِيرَةِ بَنُ مَدْحِجٍ، وَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَمِتْ حَتَّى رَكِبَ مَعَهُ مِنْ وُلْدِهِ وَوَلَدَ ثَلَاثَةَ رِجَالٍ، فَكَانَ إِذَا سَأَلَ عَنْهُمْ يَقُولُ هَؤُلَاءِ عَشِيرَتِي دَفَعًا لِلْعَيْنِ عَنْهُمْ، فَقَبِيلٌ لَهُ سَعْدُ الْعَشِيرَةِ. ثُمَّ مِنْ بَطُونَ سَعْدِ الْعَشِيرَةِ أَوْذٌ (بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَسُكُونِ الْوَاوِ وَذَالِ مَعْجَمَةٍ فِي الْآخِرِ)، وَهَمُّ بَنُو أَوْذِ بْنِ صَعْبِ بْنِ سَعْدِ الْعَشِيرَةِ، وَإِلَيْهِمْ يَنْسَبُ الْأَفْوَهَ الْأَوْذِيُّ الشَّاعِرُ الْمَشْهُورُ. وَمِنْ بَطُونَ سَعْدِ الْعَشِيرَةِ أَيْضًا جُعْفِيُّ (بِضَمِّ الْجِيمِ وَسُكُونِ الْعَيْنِ الْمَهْمَلَةِ وَكَسْرِ الْفَاءِ وَيَاءِ مَثْنَاةٍ تَحْتَ فِي الْآخِرِ) وَهَمُّ بَنُو جُعْفِيِّ بْنِ سَعْدِ الْعَشِيرَةِ وَالنَّسَبَةُ إِلَيْهِمْ جُعْفِيٌّ عَلَى مِثْلِ لِقْظِهِ، وَإِلَيْهِمْ يَنْسَبُ الْإِمَامُ الْبَخَارِيُّ بِالْمُؤَالَاةِ، فَيُقَالُ الْجُعْفِيُّ مَوْلَاهُمْ. وَمِنْ بَطُونَ سَعْدِ

(١) صوابه ودال مهملة أنظر القاموس وشرحه في مادة أود على أنه لم توجد مادة أود بالمعجمة فيما بأيدينا من المعاجم فتنبه.

العشيرة زُبَيْد (بضم الزاي وفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت ودال مهملة في الآخر)، وهم بنو مُنَبِّه بن صَعْب بن سعد العشيرة، وتُعرف زُبَيْدٌ هؤلاء بِزُبَيْدِ الأكبر، وهم زُبَيْد الحجاز. قال في مسالك الأبصار: وعليهم دَرَكُ الحَاجِ المِصرِيِّ من الصَّفراءِ إلى الجحفة ورايغ. ومن زُبَيْد هؤلاء بطنٌ تعرف بِزُبَيْدِ الأصغر، وهم بنو مُنَبِّه الأصغر بن ربيعة بن سلمة بن مازن بن ربيعة بن مُنَبِّه الأكبر. قال أبو عبيد ومن زُبَيْد هؤلاء عمرو بن معدى كرب.

ومنها النَّخَع ^(١) (بفتح النون وسكون الخاء المعجمة وعين مهلة في الآخر)، وهم بنو النَّخَع وأسمه جَسْر بن عمرو بن عِلَّة بن جَلْد بن مَذْحِج. قال أبو عبيد: وسمى النَّخَع لأنه آتَّخَع عن قومه أي بَعْد، ومنهم الأشتر النَّخَعِيُّ أحد تابعي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الذي ولاه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه مِصرَ، وكتب له بها عهدا على ماسياتي ذكوة في الكلام على العهود عند ذكر الولايات فيما بعد إن شاء الله تعالى. وإليهم ينسب إبراهيم النَّخَعِيُّ الإمام الكبير المشهور.

ومنها عَنَس (بفتح العين المهملة وسكون النون وسين مهملة في الآخر)، وهم بنو عَنَس بن مَذْحِج، منهم عَمَّار بن ياسر الصحابي المشهور؛ وإليهم ينسب الأسود العنسي الكذاب، الذي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بخروجه فادعى النبوة باليمن بعد ذلك.

ومنها بنو الحارث، ويقال بلحارث بن كعب، وهم بنو الحارث بن كعب بن عمرو بن عِلَّة بن جَلْد بن مَذْحِج. قال في "العبر": وديارهم بنواحي نَجْرَانَ من اليمن مجاورون لبني ذُهَل بن مُزَيْقِيَاء، منهم بشير الحارثي الذي قدم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: ما أسمك قال: أكبر، قال: بل أنت بشير.

(١) الذي في القاموس النخع بالتحريك قبيلة وفي المصباح والنخع بفتحعين قبيلة من مَذْحِج فليظن.

الحى الرابع - من بني كهلان همدان (بفتح الهاء وسكون الميم ودال مهملة ثم ألف ونون) ، وهم بنو همدان ، بن مالك ، بن زيد ، بن أوسلة ، بن ربيعة ، بن الخيار ، ابن زيد ، بن كهلان ، . قال في "العبر" : وكانت ديارهم بايمن من شرقية ، ولما جاء الإسلام تفرق من تفرق منهم ، وبقى من بقي باليمن . قال : وكانت همدان شيعه لأمير المؤمنين على كرم الله وجهه عند وقوع الفتن بين الصحابة ؛ وفيهم يقول رضى الله عنه :

فَلَوْ كُنْتُ بَوَّابًا عَلَى بَابِ جَنَّةٍ * لَقُلْتُ لِهَمْدَانَ أَدْخُلِي بِسَلَامٍ

قال في "مسالك الأبصار" : وبالجلب المعروف بالطيبين من الشام فرقة من همدان .
الحى الخامس - من بنى كهلان كندة (بكسر الكاف وسكون النون وفتح الدال المهملة وهاء فى الآخر) ، وهم بنو كندة ، وأسمه ثور ، بن عفير ، بن عدى ، بن الحارث ، بن مرة ، بن أدد ، بن زيد ، بن يسجب ، بن عريب ، بن زيد ، بن كهلان . قال صاحب حماة : وسمى كندة لأنه كند أباه أى كفر نعمته . قال : وبلادهم باليمن قبل حضرموت ، وكان لهم ملك بالحجاز واليمن ؛ ومنهم الأشعث بن قيس الصحابي المشهور ؛ ومنهم أيضا القاضي شريح قاضي على رضى الله عنه . وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن باللوى من بلاد الشام قوما ينسبون إلى كندة ، ولهم بطون منها السكون (بضم السين المهملة والكاف ونون بعد الواو) ، وهم بنو السكون ابن أشرس بن كندة ؛ ومنهم معاوية بن حديج قاتل محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهم ؛ وعد منها صاحب حماة السكاسك أيضا (بفتح السين الأولى وكسر الثانية) ، والذي ذكره أبو عبيد أنه من حمير ، وقال : هم بنو السكاسك بن وائلة بن حمير . قال الجوهري : والنسبة إلى السكاسك سكسكى ردا له إلى أصله كما ينسب إلى مساجد مسجدي .

الحى السادس - من بنى كهلان مراد (بضم الميم وفتح الراء المهملة ودال مهملة بعد الألف)، وهم بنو مراد، بن مالك، بن أدد، بن زيد، بن يشجب، بن عريب، ابن زيد، بن كهلان، قال الجوهري: ويقال إن اسمه يُحابر فتمرد فسمى مرادا . وجعلهم في العبر بطنًا من مدحج، فقال مراد بن مدحج . قال صاحب حماه : وبلادهم إلى جانب زبيد من بلاد اليمن، قال : وإلى مراد هذا ينسب كل مرادى من عرب اليمن .

الحى السابع - من بنى كهلان أثمار (بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الميم وراء مهملة بعد الألف)، وهم بنو أثمار، بن أراش، بن عمرو، بن الغوث، بن نبت، بن مالك، بن زيد، بن كهلان . ولهم بطنان - الأولى بجيلة (بفتح الباء الموحدة وكسر الجيم وسكون الياء المثناة تحت وفتح اللام وهاء في الآخر)، وهم بنو عبقر، والغوث، وصهبية، وحزيمة^(١) بن أثمار، بن أراش . قال أبو عبيد: وبجيلة أمهم، عرفوا بها - وهى بجيلة بنت صعب بن سعد العشيرة، قال في العبر: وكانت بلادهم فى سروات اليمن والمجاز إلى تبالة . ثم أفترقوا أيام الفتح الإسلامى فى الآفاق، فلم يبق منهم فى مواطنهم إلا القليل، قال الجوهري: ويقال لمنهم من العدنانية، لأن نزار بن معد بن عدنان وُلِدَ له مضرٌ وربيعة وإياد وأثمار، وولد لأثمار بجيلة وخثعم فصاروا إلى اليمن، وإلى بجيلة هؤلاء ينسب جرير بن عبد الله البجلي، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان جميلا فائق الجمال، حتى إنه كان يقال له يُوسف الأمة، وفيه يقول بعض الشعراء يمدحه :

لَوْلَا جَرِيرٌ هَلَكْتَ بِجِيلِهِ * نَعِمَ الْفَتَى وَبُنِيَّتِ الْقَبِيلِهِ

الثانية - خثعم (بفتح الخاء المعجمة وسكون التاء المثناة وفتح العين المهملة وميم فى الآخر)، وهم بنو خثعم بن أثمار بن أراش المقدم ذكره ابن هند بنت مالك

(١) بفتح الحاء المهملة وكسر الزاى كما ضبطه كذلك فى سبائك الذهب .

أبن الغافق بن الشاهد بن عد ، وفيهم مثل ما تقدم من كلام الجوهري في الكلام على بيجيلة أنهم من العدنانية : لأن خَنَعَمَ وبيجيلة يرجعون إلى أنمار . وكانت مساكنهم مع إخوتهم بيجيلة بسراوات اليمن فافترقوا في الفتوحات الإسلامية ، فلم يبق منهم في مواطنهم إلا القليل . ومن خَنَعَم هؤلاء أكلب (بفتح الهمزة وسكون الكاف وضم اللام وباء موحددة في الآخر) ، وهم بنو أكلب ، بن عُقَيْر ، بن خَلَف ، بن خَنَعَم . قال أبو عبيد : ويقال إن أكلب من ربيعة بن نزار . قال الحمداني : وهم بطون كثيرة ، ومنازلهم بيشة ، شرقي مكة المشرفة . ومن خنعم أيضا بنو منبّه والفرع ، وبنو نضلة ومعاوية ، وآل مهدي ، وبنو نصر ، وبنو حام ، والورد ، ونادر ، وآل الصعافير ، والشاء ، وبلوس ، قال الحمداني : ومنازلهم على القرب من بيشة شرقي مكة أيضا .

الحى الثامن — من بنى كهلان جُدَام (بضم الجيم وفتح الذال المعجمة وألف ثم ميم) ، وهم بنو جُدَام ، بن عَدِي ، بن الحارث ، بن مُرَّة ، بن أدد ، بن زيد ، ابن يشجب ، بن عَرِيب ، بن زيد ، بن كهلان ، هذا ما ذكره أبو عبيد : وجعلهم صاحب حمّاه في تاريخه من ولد عمرو بن سبأ . قال الجوهري ، وتزعم نسابة مضر أنهم من مضر يعنى من العدنانية ، وأنهم أتقلوا إلى اليمن فنزلوها ، فحسبوا من اليمن ، وأستشهد له بقول الكميّ يذكر أتقلهم إلى اليمن بانسابهم فيهم :

نَعَاءِ جُدَامًا غَيْرَ مَوْتٍ وَلَا قَتْلِ * وَلَكِنْ فِرَاقًا لِلدَّعَائِمِ وَالْأَصْلِ !

وأستشهد له الحمداني أيضا بقول جنادة بن خشرم الجُدَامِي :

وَمَا قَطَطَانِ لِي بِأَبٍ وَأُمِّ * وَلَا تَصْطَادُنِي شُبُهَةُ الصَّلَالِ

وَلَيْسَ إِلَيْهِمْ نُسْبِي وَلَكِنْ * مَعْدِيًّا وَجَدْتُ أَبِي وَخَالِي

(١) أجمعه في الأصل . وقال في سبائك الذهب « حلف بفتح الحاء المهملة بنوه بطن من خنعم » .

قال الحمداني : ويقال إنهم من ولد أعصر بن مدين بن إبراهيم عليه السلام ، وأستشهد لذلك بما رواه محمد بن السائب أنه وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد جُدَام ، فقال ” مَرَحَبًا بِقَوْمِ شُعَيْبٍ وَأَصْهَارِ مُوسَى ” . قال صاحب حماة : وكان فيهم العَدُدُ والشَّرَفُ . قال الحمداني : وهو أول من سكن مصر من العرب حين جاءوا في الفتح مع عمرو بن العاص رضي الله عنه ، وأقَطَعُوا فيها بلادا بعضها بأيدي بنينهم إلى الآن . وكان لجُدَام ولدان : هما حِشْمُ (بكسر الحاء المهملة وسكون الشين المعجمة وميم في الآخر) ، وحرَّامُ (بفتح الحاء والراء المهملتين وألف ثم ميم) ؛ ومن ولد حِشْمِ عَتَيْتُ (بفتح العين المهملة وكسر التاء المثناة فوق وسكون الياء المثناة تحت (٢) وتاء مثناة فوق في الآخر) وهم بنو عَتَيْتِ بن أسلم ، بن مالك ، بن شُوعَةَ ، بن تَدِيلِ ، ابن حِشْمِ بن جُدَام . قال أبو عبيد : وهم اليوم يتسبون في بني شيبان ، ويقولون عَتَيْتُ بن عَوْفِ بن شيبان . قال وإليهم تنسب حُفْرَةُ عَتَيْتِ بالبصرة ، قال الجوهري : أغار عليهم بعض الملوك فسبوا الرجال ، فكانوا يقولون إذا كبر صبياننا لم يتركونا ، حتى يفتكونا ، فلم يزلوا عنده حتى هلكوا فضرَبَ لهم العرب مثلا فقالوا : أودى عَتَيْتُ ، وفي ذلك يقول الشاعر :

تُرْجِيهَا وقد وَقَعَتْ بِقُرٍّ * كما تَرَجُّوْا صَاغِرَهَا عَتَيْتُ (٢)

ثم لجُدَام الآن بطون كثيرة متفرقة في الأقطار؛ منهم بالشرقية من الديار المصرية من بني زيد بن حرَّام بن جُدَام ، وبني محرمة بن زيد بن حرَّام بن جُدَام ؛ فأما بنو زيد فمنهم بنو سُويد ، وبعجة ، وبردعة ، ورفاعة ونائل ، من بني زيد بن حرَّام بن جُدَام ، فمن ولد سُويد هلبا سويد ، وهم بنو هلبا بن سُويد بن زيد بن حرَّام

(١) في سبائك الذهب . يعفر . (٢) كذا رسم في السبائك أيضا وهو بالياء الموحدة في الصحاح والقاموس وأُنشد الأول البيت بالياء الموحدة ومثله في باقوت فتنه .

أَبْنُ جُدَامٍ . قَالَ الْحَمْدَانِيُّ . وَمِنْهُمْ الْعَطَوِيُّونَ ، وَالْجَابِرِيُّونَ ، وَالغَنَاطُورَةُ ، وَحَمْدَانٌ ، وَرُومَانٌ ، وَصَمْرَانٌ ، وَأَسْوَدٌ . وَالْحَمِيدِيُّونَ ، وَمِنْ الْحَمِيدِيِّينَ ، أَوْلَادُ رَاشِدٍ ، وَمِنْهُمْ الْبَرَّاجِسَةُ ، وَأَوْلَادُ يَبْرِينَ وَالْجَرَّاشَنَةُ ، وَالْكَعُوكُ ، وَأَوْلَادُ غَانِمٍ ، وَأَلْ حَمُودِ ، وَالْأَخِيوَهُ ، وَالزَّرْقَانُ ، وَالْأَسَاوَرَةُ ، وَالْحَمَارِيُّونَ . وَمِنْ بَنِي رَاشِدٍ أَيْضًا الْحَرَّاقِيصُ ، وَالْخَنَافِيصُ ، وَأَوْلَادُ غَالِيٍّ ، وَأَوْلَادُ جَوَّالٍ ، وَأَلْ زَيْدٍ ، وَمِنْ النَّجَابِيَةِ أَوْلَادُ نَجِيبٍ وَبَنُو فَضِيلٍ .

وَمِنْ هَلْبَا سُؤَيْدٍ أَيْضًا بَنُو الْوَلِيدِ ، وَهُمْ بَنُو الْوَلِيدِ بْنِ سُؤَيْدِ الْمَقْدَمِ ذَكَرَهُ . وَمِنْهُمْ الْحَيَّادَةُ ، وَهُمْ بَنُو حَيْدَرَةَ ، بَنُ يَعْرَبٍ ، بَنُ حَبِيبٍ ، بَنُ الْوَلِيدِ ، بَنُ سُؤَيْدٍ . قَالَ الْحَمْدَانِيُّ : وَهُمْ طَائِفَةٌ كَثِيرَةٌ ، وَمِنْهُمْ بَنُو عِمَارَةَ ، وَهُوَ عِمَارَةُ بْنُ الْوَلِيدِ . وَمِنْهُمْ عِدَدٌ ، وَالْحَيَّيُونَ : وَهُمْ بَنُو حَبَّةِ بْنِ رَاشِدِ بْنِ الْوَلِيدِ . وَمِنْ وَلَدِ الْوَلِيدِ بْنِ سُؤَيْدِ الْمَذْكُورِ طَرِيفُ بْنُ بَكْتُوتِ الْمَلْقَبِ زَيْنِ الدَّوْلَةِ ، كَانَ مِنْ أَكْرَمِ الْعَرَبِ ، وَكَانَ فِي مَضِيْفَتِهِ أَيَّامَ الْغَلَاءِ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا تَأْكُلُ عِنْدَهُ كُلَّ يَوْمٍ ، وَكَانَ يَهْتَمُّ التَّرِيدَ فِي الْمَرَاقِبِ ، وَمِنْ أَوْلَادِهِ مِنْ أَمْرِ بِالْبُوقِ وَالْعَلَمِ وَعَدَّ مِنْ أَحْلَافِهِمْ أَوْلَادُ الْهُوْبَرِيَّةِ ، وَالرَّدَالِيِّينَ ، وَالْحَلِيفِيِّينَ ، وَالْحَضِينِيِّينَ ، وَالرَّبِيعِيِّينَ ، وَهُمْ أَوْلَادُ شَرِيفِ النَّجَابِيِّينَ ، وَذَكَرَ الْحَمْدَانِيُّ أَنَّ لَهُمْ نَسَبًا فِي قَرِيْشٍ إِلَى عَبْدِ مَنَافٍ ، بَنُ قُصَيٍّ . وَمِنْ هَلْبَا سُؤَيْدٍ هَؤُلَاءُ هَلْبَا مَالِكٍ ، وَهُمْ بَنُو مَالِكِ بْنِ سُؤَيْدٍ ، وَمِنْ هَلْبَا مَالِكِ بَنُو عَيْسِدٍ وَهُمْ بَنُو عَيْسِدِ بْنِ مَالِكٍ ، وَمِنْ بَنِي عَيْسِدِ الْمَذْكُورِ الْحَسَنِيُّونَ ، وَهُمْ بَنُو الْحَسَنِ بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ مَوْهُوبِ بْنِ عَيْسِدٍ ، وَالغَوَّارَةَ ، وَهُمْ بَنُو الْغَوَّرِ بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ مَوْهُوبِ بْنِ عَيْسِدٍ ، وَبَنُو أُسَيْرٍ ، وَهُمْ بَنُو أُسَيْرِ بْنِ عَيْسِدٍ ، وَمِنْ هَلْبَا مَالِكٍ أَيْضًا اللَّيْدِيُّونَ ، وَالْبَكْرِيُّونَ ، وَالْعَقِيلِيُّونَ ، وَهُمْ بَنُو عَقِيلِ بْنِ قُرَّةِ بْنِ مَوْهُوبِ بْنِ عَيْسِدٍ . وَمِنْهُمْ بَنُو رَدِيْنِيٍّ ، وَهُمْ بَنُو رَدِيْنِيِّ بْنِ زِيَادٍ ، بَنُ حُسَيْنٍ ، بَنُ مَسْعُودٍ ، بَنُ مَالِكٍ ، بَنُ سُؤَيْدٍ . وَمِنْ وَلَدِ بَعْجَةَ هَلْبَا بَعْجَةَ ، وَهُمْ بَنُو هَلْبَا ، وَمَنْظُورٌ ، وَرَدَا ، وَنَائِلُ بَنِي بَعْجَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ سُؤَيْدِ بْنِ بَعْجَةَ ، فَمِنْ وَلَدِ

هلبا بعجة مُفَرَّج بن سالم ، أمره المعز أليك بالبوق والعلم ، ثم خلفه على إمرته ولده
حَسَّان . ومنهم أولاد الهُرَيم من بنى غياث بن عِصْمَة بن نِجَاد بن هلبا بن بعجة .
ومنهم جَوْشَن بن منظور بن بَعَجَة ، وهو صاحب السَّرَاة المضروب به المشل
في الكرم والشجاعة .

ومن ولد نائل مُهَنَّأ بن علوان بن علي بن زبير بن حبيب بن نائل ، كان
جوادا كريما طرفته ضيُوف في شتاء ولم يكن عنده حَطَب لطعامهم فأوقد أحمال
بُرَّكانت عنده . ومن بنى حَرَام بن جُدَام أيضا بنو سَعْد . قال الحمداني : وفي جُدَام
نخسُ سعود أختلطت بمصر ، وهم سَعْد بن إياس بن حَرَام بن جُدَام . وسَعْد
أبن مالك بن أفصى بن سَعْد بن إياس بن حَرَام بن جُدَام ، وإليه ينسب أكثر
السَّعْدِيِّين . وسعد بن مالك بن حَرَام بن جُدَام ، وسعد بن سامة بن عَبْس بن
غَطَفَان بن سعد بن مالك بن حرام بن جذام ، وهم عشائر كثيرة منهم بنو فَضْل ،
والسَّلَاحَة ، وبرشاش ، وجَوْشَن ، وَعَدْلَان ، وفَزَارَة . قال وأكثرهم مشايخ بلاد
وخفراء ، ولهم مزارع وما كل ، وفسادهم كثير ، وسكنهم مُنِيَة غمر إلى ريفها .
ومنهم شاور وزير العاضد الفاطمي ، وإليه تنسب أولاد شاور كبار منية غمر
وخفراؤها ؛ علي أن ابن خلكان قد ذكر أنه من سعد الذين أَرْضِع فيهم النبي صلى الله
عليه وسلم . وأما بنو محرمة فمنهم الشَّوَاكِر ، وهم بنو شاكر بن راشد . ومنهم أولاد
العجار أدلاء الحاج من زمن السلطان صلاح الدين وهلم جَرًا .

ومن جذام أيضا بالشرقية العائد ، وهم بطن من جذام عليهم درك الحاج إلى
العقبة . ومنهم أيضا بالشرقية بنو حَرَام . وقال الحمداني : وَقَلَّ في عرب مصر مَنْ
يعرفها . ومنهم بالدقهلية عمرو وزهير ، عَدَّ منهم الحمداني الحَضِينِيين ، وردالة ،

(١) في الأصل الخط تكرار في الأسماء. ونقص من العدد ويؤخذ من السبائك أن الساقط هو سعد

أبن ربيع بن إياس بن حرام بن جذام فتنه .

والأحامدة ، والحمارنة ، وهم بنو حمران . قال الحمداني : وفي زهير هؤلاء من
بنى عيرين ، وبنى شبيب ، وبنى عبد الرحمن ، وبنى مالك ، وبنى عبيد ،
وبنى عبد القوي ، وبنى شاكر ، وبنى حسن ، وبنى سمان . وهم يتواردون في أسماء
بعض البطون مع غيرهم .

ومن جذام أيضا ببلاد الشام بنو صخر بالكرك ، وبنو مهدي بالبقاء ، وبنو عقبه ،
وبنو زهير بالشوبك . ومنهم بنو سعيد بصرخد ، وحوران ، ومنهم جماعة ببلاد
الغور ، وجماعة ببلاد البربر من بلاد السودان .

الحى التاسع — من بنى كهلان نلح (بفتح اللام وسكون الخاء المعجمة وميم
في الآخر) ، وهم بنو نلح بن عدى بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن
عريب ، بن زيد ، بن كهلان ، و نلح أخو جذام المقدم ذكره ، وكل منهما عم لكندة
المقدم ذكره أيضا . وعد صاحب حماة نلحا من بنى عمرو بن سبأ كما عد جذاما إذ
كانا أخوين كما تقدم . وقد كان للفاويزة من اللخمين ملك بالحيرة من بلاد العراق ،
ثم كان لبني عبّاد من بقاياهم بالأندلس ملك بإشبيلية . وذكر القضاعى أنهم حضروا
فتح مصر ، وأختلطوا بها ، هم ومن خالطهم من جذام . قال الحمداني : وبصعيد الديار
المصرية منهم قوم يسكنون بالبر الشرقى ، ذكر منهم الحمداني سبع أبطن . الأولى
سماك ، وهم المعروفون بالسماكين ، وبنو مر ، وبنو مليح ، وبنو تهبان ، وبنو عبس ،
و بنو كريم ، وبنو بكير ، وديارهم من طرف بيا بالهنسا إلى منحدر دير الجميزة
في البر الشرقى . الثانية بنو حدان ، وهم بنو محمد ، وبنو على ، وبنو سالم ، وبنو
مدلج ، وبنو عيش ، وديارهم من دير الجميزة ، إلى ترعة صول . الثالثة بنو راشد ،
وهم بنو معمّر ، وبنو واصل ، وبنو مرآ ، وبنو جبان ، وبنو معاد ، وبنو البيض ،
و بنو حجرة ، وبنو شنوءة . وديارهم من مسجد موسى إلى أسكر ، ونصف بلاد

إطْفِيح . ولبنى البيض الحثي الصغير، ولبنى شنوءة من ترعة شريف إلى معصرة
 بوش . الرابعة بنو جعد، وهم بنو مسعود، وبنو حدير، وهم المعروفون بالحدريين،
 وبنو زبير، وبنو ثمال، وبنو نصار . ومسكنهم ساحل إطفيح . الخامسة بنو
 عدى، وهم بنو موسى، وبنو محرب، ومسكنهم بالقرب منهم . السادسة بنو
 بحر، وهم بنو سهل، وبنو معطار، وبنو فهم، وهم المعروفون بالفهميين، وبنو
 عسير، وبنو مسند، وبنو سباع، ومسكنهم الحثي الكبير . السابعة قيس، وهم
 بنو غنيم، وبنو عمرو، وبنو حجرة، ولبنى غنيم منهم العدوية، ودير الطين إلى
 جسر مصر، ولبنى عمرو الرستق ولهم نصف حلوان، ولبنى حجرة النصف الثاني،
 ونصف طرا .

ومن بطون نخم بنو الدار رهط تميم الداري صاحب النبي صلى الله عليه وسلم،
 وهم بنو الدار بن هاني، بن حبيب، بن نمارة، بن نخم . قال الحمداني وبلد الخليل
 عليه السلام معمور من بني تميم الداري رضى الله عنه، وبيد بني تميم هؤلاء الرقعة
 التي كتبها النبي صلى الله عليه وسلم لتميم وإخوته بإقطاعهم بيت حبرون التي هي بلد
 الخليل عليه السلام وبعض بلادها ويقال إنها مكتوبة في قطعة من آدم من خف
 أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه ونخطة .

الحثي العاشر — من بني كهلان الأشعريون . وهم بنو الأشعر بن أدد، بن
 زيد، بن يشجب، بن عريب، بن زيد، بن كهلان . قال وسُمي الأشعر لأن أمه ولدته
 وهو أشعر . وجعله صاحب حماة من بني أشعر بن سبيل، وهم رهط أبي موسى
 الأشعري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الحثي الحادى عشر — من بني كهلان عاملة . وهم بنو عاملة، وأسمه الحارث، بن
 عفير، بن عدى، بن الحارث، بن وبرة، بن أدد، بن زيد، بن يشجب، بن

عريب، بن زيد، بن كهلان؛ وذو كرا أبو عبيد أن بنى عاملة هم بنو الحارث بن مالك؛
يعنى ابن الحارث بن مرة بن أدد، وأنه كان تحتها عاملة بنت مالك بن وديع بن عفر،
ابن عدى، بن الحارث، بن مرة بن أدد فعرفوا بها . وذو كرا صاحب حماة لهم من
ولد عاملة بن سبيل . وقد ذكر الحمداني أن يجبال عاملة من بلاد الشام بهم الجمل الغفير .

الضرب الثاني

(من العرب الباقيين على ممر الزمان العرب المستعربة)

قال الجوهري : ويقال لهم المتعربة أيضا ، وهم بنو إسماعيل بن إبراهيم عليهما
السلام، سُموا بذلك لأن لسان إسماعيل عليه السلام كان العبرانية أو السريانية، فلما
نزل جرهم من القحطانية عليه وعلى أمه بمكة المشرفة، تزوج منهم، وتعلم هو وبنوه
العربية من جرهم المذكورين فسُموا لذلك المستعربة . وأعلم أن الموجودين من
العرب من ولد إسماعيل عليه السلام كلهم من بنى عدنان بن أدد المقدم ذكره في عمود
النسب على خلاف في نسبه إلى إسماعيل يطول ذكره . قال في العبر: ومضى عدا عدنان
من ولد إسماعيل قد انقرضوا، ولم يبق لهم عقب؛ ولذلك عرفت هذه العرب بالعدنانية .

ثم العدنانية صنفان :

الصنف الأول : من بنى إسماعيل بن عبدالمطلب المتفرعة من عمود النسب ستة أصول :

الأصل الأول : بن معد بن عدنان ؛ والمتفرع منه على حاشية عمود

النسب ثلاث قبائل :

القبيلة الأولى - إياد (بكسر الهمزة ودال مهملة في الآخر) وهم بنو إياد بن نزار

المقدم ذكره : قال المؤيد صاحب حماة وفارق إياد الحجاز وسار بأهله إلى أطراف

العراق فأقام به .

ومن إياد قُس بن ساعدة الإياديّ، وكعبُ بن مَامة الذي يضرب به المثل في الكرم؛ يقال إنه كان معه ماء لا يفضل عنه وله رفيقٌ فسقاه رفيقه ومات عطشا .
القبيلة الثانية — أنمار (بفتح الهمزة وراء مهملة في الآخر) وهم بنو أنمار بن نزار المقدم ذكره؛ وقد اختلف في تعقيبه، فذهب ذاهبون إلى أنه ذهب إلى اليمن ونزل بالسراوات من مشارق اليمن، وتناسل بنوه بها فعدوا في اليمانية؛ وذهب آخرون إلى أنه لا عقب له إلا من بنتٍ له زوجها لأراش من اليمانية، فولدت له أنمار بن أراش المقدم ذكره في اليمانية؛ فبنو أنمار المعدودون في اليمانية هم بنو أنمار بن أراش المقدم ذكره في اليمانية من بنت أنمار بن نزار؛ ولذلك وقع اللبس فيهما، قاله السهيلي .

القبيلة الثالثة — ربيعة، وهم بنو ربيعة بن نزار ويعرف بريعة الفرس : لأن أباه نزاراً أوصى له من ماله بالخليل . قال في "مسالك الأبصار" وبالرحبة قوم منهم . ولربيعه بطنان . وهما أسد، وضبيعة أبنا ربيعة ، ولكل منهما عدة أنفاذ، وديارهم إلى الآن بالجزيرة الفراتية تُعرف بديار ربيعة . أما أسد فأكثرهما أنفاذا .
فمن أسد بنو عترة (بفتح العين المهملة والنون والزاي وهاء في الآخر) وهم بنو عترة ابن أسد المقدم ذكره؛ وكانت منازلهم خير من ضواحي المدينة . وجديلة (بفتح الجيم وكسر الدال المهملة وسكون الياء المثناة تحت وفتح اللام وهاء في الآخر) وهم بنو جديلة بن أسد المقدم ذكره، والنسبة إليهم جدليّ بحذف الياء بعد الدال .

ومن جديلة عبد القيس؛ وهم بنو عبد القيس، بن أفضى، بن دُعْمَى، بن جديلة . قال في العبر : وكانت ديارهم يتهامة حتى خرجوا إلى البحرين وزاحموا من بها من بكر بن وائل وتميم ، وقاسم وهم المواطن ، والنسبة إليهم عبديّ ، ومنهم من ينسب إليهم عبديّ قيسيّ ، وبعضهم يقول عبّقيّ .

ومن عبد القيس هؤلاء الأئبج الذي قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم "إنَّ فيكَ نَحْصَلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ : الحِلْمُ والأَنَاةُ" .

ومن جديلة أيضا بنو النمر (بفتح النون وكسر الميم) وهم بنو النمر بن قاسط بن هنب ابن دُعْمَى بن جديلة . قال في العبر وديارهم رأس العين من أعمال الجزيرة الفراتية .

ومن جديلة أيضا بنو وائل (بالياء المثناة تحت) وهم بنو وائل بن قاسط بن هنب ابن أفضى ، بن دُعْمَى ، بن جديلة المقدم ذكره .

ومن وائل بكر (بفتح الباء الموحدة وسكون الكاف) وتغلب (بالتاء المثناة في أوله والغين الساكنة المعجمة وكسر اللام وباء موحدة) وهم بنو بكر وتغلب أبني وائل المقدم ذكره .

ومن تغلب بن وائل كليب ملك بني وائل الذي قتله جَسَّاس ، وهاجت بسببه الحرب المعروفة بالبسوس أربعين سنة .

ومن تغلب أقوام بزراع ، وبُصْرَى ، وبالقريتين منهم نفر .

ومن بكر أقوام بيجينين وبلادها ، وبالرحبة قوم منهم .

ومن بني تغلب كانت بنو حمدان ملوك حلب قديما .

ومن بكر بن وائل شيبان ، وهم بنو شيبان بن ثعلبة ، بن عكابة ، بن صعب ، بن

علي ، بن بكر .

ومن بني شيبان هؤلاء مرة وأبنة جَسَّاس قاتل كليب المذكور . ومنهم طرفة

ابن العبد الشاعر .

...ومن بني شيبان أيضا سدوس (بفتح السين المهملة في أوله وسين ثانية في آخره)

وهم بنو سدوس بن دُهل بن شيبان .

ومن بكر بن وائل أيضا بنو حنيفة رهط مسيلمة الكذاب الذى تنبأ فى زمن النبى
صلى الله عليه وسلم ، وقيل فى خلافة الصديق رضى الله عنه ، وهم بنو حنيفة بن
لحيم ، بن صعّب ، بن على ، بن بكر ، بن وائل .

ومن بكر أيضا بنو عجل ، بن لحيم ، بن صعّب ، بن على ، بن بكر ، بن وائل . قال
فى العبر : وكانت منازلهم من اليمامة إلى البصرة ؛ قال ثم خلفهم الآن فى تلك البلاد
بنو عامر المتفق ، بن عقيل ، بن عامر ، بن صعصعة . وذكر الحمدانى أن بلادهم
فى زمانه الجزيرة من بلاد حلب وأنه كان لهم دولة بالعراق .

وأما ضبيعة بن ربيعة (بضم الضاد المعجمة وفتح الباء الموحدة تصغير ضبعة)
وهى قبيلة لم تكثر بطونها . ومنهم المتلمس الشاعر الباهلى المشهور .

الأصل الثانى - مضر (بضم الميم وفتح الضاد المعجمة) وهو مضر بن نزار المقدم
ذكره ، ويعرف بمضر الحمراء : لأن أباه أوصى له من ماله بالذهب وما فى معناه ؛
وهى قبيلة عظيمة إلا أن أكثرها أندرج فيما بعدها لكونها على عمود النسب ،
وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن بنابلس من بلاد الشام بقية من مضر ، وبالرحبة
رجال منهم ، وله على حاشية عمود النسب فرع واحد قد جمع عدة قبائل ، وهو قيس
وقد اختلف فى نسبه فقيل قيس بن عيلان (بالعين المهملة) وأسمه الناس (بالنون) ابن
مضر ؛ وقيل هو قيس بن مضر لصلبه ، وعيلان المضاف إليه قيل فرسه وقيل كلبه .
قال صاحب حماة : وجعل الله تعالى لقيس من الكثرة أمرا عظيما ، ولكثرة
بطونه غلب على سائر العدنانية حتى جعل فى المثل فى مقابل عرب اليمن قاطبة
فيقال قيس ويمين .

فمن قبائل قيس هَوَازُنْ ، وهم بنو هَوَازِنَ بن منصور بن عِكْرَمَةَ بن خَصَّفَةَ بن قيس عَيْلَانَ ، وهم الذين أغار عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وسباهم .

ومن هوازن بنو سَعْدِ الذين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رضيعاً فيهم ، وهم بنو سَعْدِ بن بكر بن هوازِنَ . قال في العبر : وقد أفترق بنو سَعْدِ هؤلاء في الإسلام ولم يبق لهم سِجٌّ فَيُطْرَقُ إلا أن منهم فِرْقَةٌ بإفريقية من بلاد المغرب بنواحي باجّة يعسكرون مع جُند السلطان .

وقد ذكر ابن خَلِّكان أن شَاوَرَ السعدي وزير العاصد الفاطمي خليفة مصر منهم وإن كان الحمداني قد ذكر أنه من سَعْدِ جُندَامِ من القَحْطَانِيَةِ بالشرقية من الديار المصرية على ما سبق ذكره هناك .

ومن هوازن أيضا بنو عامر بن صَعْصَعَةَ . وهم بنو عامر بن صَعْصَعَةَ بن مُعَاوِيَةَ ابن بَكْرِ بن هوازِنَ ، وإليهم يُنسَبُ مجنون بن عامر الشاعر الذي كان يُسَمَّى بليلى . ومن بنى عامر بن صعصعة بنو كلاب ، وهم بنو كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . قال في العبر : وكان لهم في الإسلام دولة باليمامة ، وكانت ديارهم حِمَى ضَرِيَّةً وهو حِمَى كَلِيبَ ، وحِمَى الرَبْدَةَ في جهات المدينة النبوية ، وفَدَكُ والعوالى ، ثم آتقلوا بعد ذلك إلى الشام فكان لهم في الجزيرة الفراتية صِيَتٌ وملكوا حَلَبَ ونواحيها ، وكثيرا من مدن الشام ، ثم ضَعُفُوا . قال ، وهم الآن تحت خِفَارَةِ الأمراء من آل ربيعة من عرب الشام .

وذكر في "مسالك الأبصار" أنهم يُنسَبون إلى عبد الوهاب المذكور في سيرة البَطَّالِ وذكر أن اسمه عبد الوهاب بن نُوبُحْتِ .

ثم قال ، وهم بأطراف حلب ، وهم عرب غَزَّ يتكلمون بالتركية ، ويركبون الأكاديش ، ولهم غارات عظيمة ، وأبناء الروم وبناتهم لا يزالون يباعون من سباياهم . وقد ذكر في "مسالك الأبصار" أن بحلب وبلادها طائفة من بني كلاب .

ومن بني عامر بن صعصعة أيضا بنو هلال ، وهم بنو هلال بن عامر بن صعصعة . قال الحمداني وكان لهم بلادٌ صعيد مصر كلها ؛ وذكرهم ابن سعيد في عرب بركة ؛ وقال منازلهم فيما بين مصر وإفريقية . قال في العبر : وكانت رياستهم أيام الحاكم العبيدي لماضي بن مقرب ، ولما بايعوا لأبي ركوته بالمغرب وقتله الحاكم ، سلط عليهم الحبوش والعرب فأفناهم ؛ وانتقل من بقي منهم إلى المغرب الأقصى فهم مع بني جشم هناك . وذكر الحمداني أن بحلب طائفة منهم ، ثم صار لهم بلاد أسوان وما تحتها . ثم قال : وبنو عجم منهم بنو قرة ، إلى عيذاب ؛ وبساقية قلعة منهم بنو عمرو وبنوهم ، وهم بنو رفاعة ، وبنو حجير ، وبنو عزيز . وبأصفون وإسنا منهم بنو عقبه ، وبنو جميلة .

ومن بني هلال حرب فيما ذكره ابن سعيد . قال الحمداني ، وهم ثلاث بطون بنو مسروح ، وبنو سالم ، وبنو عبيد الله . قال : ومساكنهم الحجاز ومن حرب زبيد الحجاز فيما ذكره الحمداني ، وذكر أن منهم بنو عمرو . ثم قال : ومن بني عامر ثمير بن عامر ابن صعصعة . قال في العبر : وكانت منازلهم الجزيرة الفراتية والشام بعدوتَي الفرات . قال وهم إحدى جمرات العرب ، وكان لهم كثرة وعدة في الجاهلية والإسلام ، ودخلوا الجزيرة الفراتية وملكوا حران وغيرها ، ثم غلبهم عليها خلفاء بني العباس أيام المعتز بالله فهاكوا بعد ذلك وبادوا .

ومن بني عامر بن صعصعة أيضا بنو عقيل (بضم العين المهملة وفتح القاف) وهم بنو عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . قال في العبر : وكانت

مساكنهم بالبحرين في كثير من قبائل العرب، وكان أعظم القبائل هناك بنو عَقِيل هؤلاء، وبنو تغلب وبنو سليم، وكان أظهرهم في الكثرة والغلب بنو تغلب؛ ثم اجتمع بنو عَقِيل وبنو تغلب على بنى سليم فأخرجوهم من البحرين؛ ثم اختلف بنو عَقِيل وبنو تغلب بعد مدة فغلب بنو تغلب على بنى عَقِيل فطردوهم عن البحرين، فساروا إلى العراق، وملكوا الكوفة والبلاد الفراتية وتغلبوا على الجزيرة والموصل، وملكوا تلك البلاد؛ وكان منهم المقلد وقرواش وقريش وأبنة مسلم ملوك الموصل، وبقيت بأيديهم حتى غلبهم عليها ملوك بنى سلجوق، فتحولوا عنها إلى البحرين حيث كانوا أولا فوجدوا بنى تغلب قد ضعف أمرهم فغلبوهم على البحرين، وصار الأمر بالبحرين لبنى عَقِيل .

ومن بنى عَقِيل هؤلاء آل عامر، وهم بنو عامر بن عَقِيل المذكور، وهم الذين بيدهم بلاد البحرين . قال ابن سعيد : سألت أهل البحرين في سنة إحدى وخمسين وسبعمائة حين لقيتهم بالمدينة النبوية عن البحرين فقالوا : الملكة بها لبنى عامر بن عَقِيل، وبنو تغلب من جملة رعاياهم؛ على أن الحمداني قد وهم فقال : وهم غير عامر المتفق، وعامر بن صعصعة، وتبعه على ذلك في "مسالك الأبصار" . وقد ذكر في "مسالك الأبصار" أن بحلب وبلادها طائفة من بنى عَقِيل

ومن بنى عَقِيل أيضا بنو عبادة (بضم العين المهملة و بالباء الموحدة والdal المهملة) وهم بنو عبادة بن عَقِيل . قال ابن سعيد: ومنازلهم بالجزيرة الفراتية مما يلي العراق لهم عدد وكثرة . قال : ومنهم الآن بقية بين الخازر والزاب، يقال لهم عرب شرف الدولة في تجل وعُدَد، ولهم إحسان من صاحب الموصل . ثم قال : وهم عدد قليل نحو المائة فارس .

ومن بنى عَقِيلَ أيضا خَفَاجَةَ (بفتح الخاء المعجمة وفتح الفاء وجم مفتوحة بعد الألف وهاء في الآخر) وهم بنو خَفَاجَةَ بن عمرو بن عَقِيلَ، وفيهم الإمرة بالعراق إلى الآن .

ومن بطون هوازن أيضا بنو جُشَمَ (بضم الجيم وفتح الشين المعجمة وميم في الآخر) وهم بنو جُشَمَ بن معاوية بن بكر بن هَوَازِنَ . قال في العبر : وكانت مساكنهم بالسَّرَوَاتِ، وهي تلال تَفْصِلُ بين تِهَامَةَ ونَجْدَ، متصلةً من البحرين إلى الشام كسَرَوَاتِ الجبل . قال : وسَرَوَاتِ جُشَمَ متصلة بسَرَاةِ هُدَيْلِ . ثم قال : وقد أنتقل بعضهم إلى المَغْرِبِ، وهم الآن به، ولم يبق بالسَّرَاةِ منهم إلا من ليس له صولة . قال صاحب حماة : ومن جُشَمَ هؤلاء دُرَيْدُ بن الصَّمَّةِ .

ومن بطون هوازن أيضا ثَقِيفٌ (بفتح التاء المثناة وكسر القاف وسكون الياء وفاء في الآخر) وهم رَهْطُ الحجاج بن يوسُفَ : وهم بنو ثَقِيفِ وأسمه قَيْسُ بن مَنبَه بن بكر بن هَوَازِنَ؛ ويقال إنهم من إياد بن نِزَارِ المقدم ذكره . وعن بعض النسابة أن ثَقِيفًا من بقايا ثَمُودَ، وكان الحجاج ينكره ويقول كذبوا، قال الله تعالى : ﴿ثَمُودَ فَاذْبُقْ﴾ أي أهلكهم ولم يبق منهم أحدا . قال في العبر : وثَقِيفُ بطن واسع ، وكانت منازلهم بالطائف : وهي مدينة من أرض نجد على مرحلتين من مكة في شَرْقِيَّهَا وشَمَالِيَّهَا كانت في القديم للعالمقة ، ثم نزلها ثَمُودُ قبل وادي القُرَى : ويقال إن الذي سكنها بعد العالمقة عَدَوَانُ . ثم غلبهم عليها ثَقِيفٌ فهي الآن دارهم .

ومن قبائل قيس أيضا باهَلَةُ، وهم بنو سَعْدِ مَنَاة بن مالك بن أعْصَرَ، وأسمه مَنبَه ابن سعد بن قَيْسِ عِيلَانَ؛ وجعلهم في العبر بنى مالك بن أعْصَرَ . وباهلة أُمُّ سَعْدِ مَنَاة عُرْفُوا بها : وهي باهلة بنت صَعْبِ بن سعدِ العشييرة من مَدْحِجَ، منهم أبو أمامة الباهلي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن قبائل قيس بنو مازين ، وهم بنو مازين بن منصور بن خصفة بن قيس
عيلان . قال في العبر : وعددهم قليل .

ومن قبائل قيس أيضا بنو غطفان بن قيس عيلان . قال في العبر : وهم بطن متسع
كثير الشعوب والبطون . قال : وكانت منازلهم مما يلي وادى القرى وجبلى طي أجا
وسامى ، ثم تفرقوا في الفتوحات الإسلامية ، وأستولى على مواطنهم هناك قبائل طي .

ومن بطون غطفان بنو عبس (بفتح العين وسكون الباء الموحدة وسين مهملة
في الآخر) وهم بنو عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان . منهم زهير بن قيس
صاحب حرب داحس والغبراء . وهما فرسان كانت إحداهما وهي داحس لعبس^(١)
والأخرى وهي الغبراء لفزارة فأجريتا فوق الحرب بسببهما .

ومن عبس هؤلاء عنزة بن شداد الشاعر الفارس المشهور .

ومن غطفان أشجع (بفتح الهمزة وسكون الشين المعجمة وفتح الجيم وعين مهملة
في الآخر) وهم بنو أشجع بن ريث بن غطفان . قال في العبر : وكانوا هم عرب
المدينة النبوية ، وكان سيدهم معقل بن سنان الصحابي . قال : ولم يبق أحد منهم
ب نجد إلا بقايا حول المدينة . ثم قال : وبالمغرب الأقصى منهم حتى عظيم يطعنون مع
عرب معقل بجهات سجلماسة ولهم عدد وذكر .

ومن غطفان أيضا ذبيان ، قال الجوهرى (بكسر الذال يعنى المعجمة وضمها) وهم
بنو ذبيان بن ريث بن غطفان ومنهم النابغة الذبياني الشاعر المشهور .

ومن ذبيان فزارة (بفتح الفاء والزاي والراء المهملة وهاء في الآخر) وهم بنو فزارة
ابن ذبيان . قال في العبر : وكانت فزارة بنجد وادى القرى ، فلم يبق منهم بنجد أحد .

(١) أنت الفرس المسمى بداحس ومقتضى القاموس تكبره وقد صرفه فيه فليحزر .

ونزل جيرانهم من طيِّم مكانهم . وذكر أن بأرض بركة إلى طرابلس الغرب منهم قبائل : رَواحة ، وهيت ، وفزان . قال : وبإفريقية والمغرب منهم الآن أحياء كثيرة اختلطوا مع أهلها ، يحتاج المعقل من عرب المغرب الأقصى إلى الاستظهار بهم . قال ومنهم مع سليم بإفريقية طائفة أخرى أحلاف لأولاد أبي الليل من شعوب بني سليم ، يستظهرون بهم في مواقف الحرب ، وقيمونهم لأنفسهم مقام الوزراء للملوك . ثم قال وفي بركة ببلاد هيت جماعة منهم نازلون بها ، ومنهم طائفة بصحراء المغرب . قال الحمداني : ومنهم بالديار المصرية جماعة بالصعيد ، وجماعة بضواحي القاهرة في قلوب وما حولها ، وبهم عرفت القرية المسماة بخراب فزارة هناك . ومن فزارة بنو مازين ، وبنو بدر ، فأما بنو مازن فهم بنو مازن بن فزارة ، وأما بنو بدر فهم بنو بدر بن عدى بن فزارة : قال في العبر ، وفيهم كانت رئاسة بني فزارة في الجاهلية ، يرأسون جميع غطفان وتدين لهم قيس وإخوانهم بنو ثعلبة بن عدى ، ومنهم كان حذيفة بن بدر صاحب القرس المعروفة بالقبراء المقدم ذكرها ، ومن بني بدر هؤلاء وبني عمهم بني مازن جماعة بالقبليونية من الديار المصرية .

قلت : وبنو بدر هم قبيلتنا التي إليها نعتري ، وفيها نتاسب ، وأهل بلدتنا قلقشندة نصفهم من بني بدر ونصفهم من بني مازن .

ومن قبائل قيس أيضا بنو سليم (بضم السين وفتح اللام) وهم بنو سليم بن منصور ابن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان . قال الحمداني : وهم أكبر قبائل قيس . وكان لسليم من الولد بهته (بضم الباء الموحدة في أوله وفتح المثناة بعد الهاء) ^(١) ومنه جميع أولاده . قال في العبر : وكانت منازلهم في عالية نجد بالقرب من خيبر .

(١) ذكره في القاموس في باب الناء المثلثة فقال وبهته رجل من سليم فتنبه .

ومن منازلهم حرة سُليم ، وحرّة النارين وادى القرى وتيمّا . قال : وليس لهم الآن نجد عدد ولا بقية . ثم قال : وبإفريقية منهم حتى عظيم ، وقد تقدّم أنه كان منهم جماعة بالبحرين فغلبهم عليها بنو عقيل بن كعب وبنو تغلب . وقال الحمداني : ومساكنهم برقة مما يلي المغرب ومما يلي مصر . قال : وفيهم الأبطال الأبطال ، والخيال الحيات . قال في العبر : وقد استولوا على برقة ، وهي إقليم طويل واسع الأطراف ، وخرّبوا مدنه ولم يتركوا بها ولاية ولا إمرة إلا لمشايخهم . قال في "مسالك الأبصار" : والإمرة الآن فيهم في بني عزاز ، وهي الآن في زماننا لبني عريف .

ومن سُليم هؤلاء لبيد بيرة ، وهم بطون كثيرة العدد .

ومن قبائل قيس عدوان (بفتح العين وسكون الدال المهملتين ونون في الآخر) وهم بنو عدوان وأسمه الحارث بن عمرو بن قيس عيلان . قال أبو عبيد : وسمى عدوان لأنه عدا على أخيه فهم فقتله . قال في العبر : وهم بطن متسع ، وكانت منازلهم بالطائف من أرض نجد نزلوها بعد إبادٍ والعاقلة ، ثم غلبهم عليها ثقيف ، فخرجوا إلى تهامة . وبإفريقية الآن منهم أحياء بادية . وقد عدّ الحمداني عدوان من عرب بركة الحجاز من أحلاف آل فضل من عرب الشام ، فيحتمل أنهم هؤلاء وأنهم غيرهم .

الأصل الثالث - إلياس (بكسر الهمزة وسكون اللام وفتح الياء المشناة تحت وسين بعد الألف) وهو إلياس بن مضر المقدم ذكره ، وكانت تحت خندف (بكسر الخاء وسكون النون وكسر الدال المهملة وفاء في الآخر) وهي خندف بنت حُلوان ابن عمران بن الحافي بن قضاة ، فعرف بنوه بها فقيس لهم خندف : لأن زوجها

إلياس رآها يوما تمشي ، فقال لها : مالك تُخَدِّفين ؟ والخَدْفَةُ أن يقلب ظهر قدمه إلى الأرض عند مشيه . وله فرعان علي حاشية عمود النسب .

الفرع الأول — طابِجَةُ (بفتح الطاء المهملة وكسر الباء الموحدة بعد الألف وفتح الخاء المعجمة وهاء في الآخر) وهم بنو طابِجَة ، وأسمه عمرو بن إلياس بن مُضَر ، وسمى طابِجَة لأنه كان هو وأخوه مدرِكَةُ الآتي ذكره علي عمود النسب ، وكان اسمه عامرا ، في إبل لهما فصادا صيدا ، وقعدا يطْبُخانه فعدت عادية علي إبلهما فاستاقتها ، فقال عامر لعمرو أتدرك الإبل أم تطبخ الصيد ؟ فقال عمرو : بل أطبخ الصيد ، فلحق عامر الإبل فجاء بها فلما جاء أباهما أخبراه الخبر ، فقال لعامر : أنت مُدْرِكَةُ . وقال لعمرو : أنت طابِجَةُ فسميا بذلك .

ويتفرع عن طابِجَة قبائل كثيرة .

فمن قبائل طابِجَة تميم (بفتح التاء المثناة فوق وكسر الميم وسكون الياء المثناة تحت وميم في الآخر) وهم بنو تَمِيم بن مُرَّ بن مُرَّاد بن طابِجَة . قال في العبر : وكانت منازلهم بأرض نجد دائرة من هنالك علي البصرة واليمامة ، وأمتدت إلى العُدَيْب من أرض الكوفة ، ثم تفرقوا بعد ذلك في الحواضر ، ولم يبق منهم بادية ، وورث مساكنهم غزيرة من طي وخفاجة من بني عُقَيْل بن كعب .

ومن بطون تميم بنو العنبر ، وهم بنو العنبر بن عمرو بن تميم ، وإليهم يُنسَب جَدِيْلَة ابن عبد الله العنبري الصحابي .

ومن بطون تميم بنو حَنْظَلَة وضبطه معروف ، وهم بنو حَنْظَلَة بن مالك ابن زيد مناة بن تميم ، ويقال لهم حَنْظَلَة الأكرمون . قال الجوهري : وهم أكبر قبيلة في تميم .

ومن حنظلة بنو يربوع (بفتح الياء المثناة تَحْتُ وسكون الراء المهملة وضم الباء
الموحدة وسكون الواو وعين مهملة في الآخر) ؛ وهم بنو يَرْبُوع بن حنظلة .

ومن بنى يربوع بنو العنبر بن يربوع ؛ ومنهم سَبَّاح التي تنبأت في زمن مسليمة
الكذاب وهم غير بنى العنبر المقدم ذكرهم .

ومن قبائل طابخة بنو ضَبَّة (بفتح الضاد المعجمة وتشديد الباء) . قال في العبر :
وكانت ديارهم بالناحية الشمالية من نجد بجوار بنى تميم ثم أنتقلوا في الإسلام إلى
العراق ، وهم الذين قتلوا المنبهي الشاعر .

ومن قبائل طابخة أيضا مُزَيْنَة (بضم الميم وفتح الزاى وسكون الياء المثناة تحت
وفتح النون وهاء في الآخر) وهم بنو عثمان وأوس ، أبى عمرو ، بن أد بن طابخة ، ومُزَيْنَة
أُمهما عُرْفُوا بها ؛ وهى مزينة بنت كَلْب بنِ وَرَة . ومنهم كَعْبُ بن زهير ناظمُ
الفصيصة المعروفة ببانت سعاد ، وإليهم يُنسب الإمام إسماعيل بن إبراهيم المزني
صاحب الإمام الشافعي رضي الله عنه .

الفرع الثاني — قَمَّعة (بفتح القاف والميم والعين المهملة وهاء في الآخر) وهم بنو
قَمَّعة بن إلياس بن مضر . قال الجوهري إن أباه سماه قَمَّعة لما أنقمع في بيته أى
أنقهر وذلل ولم يشتهر عقبه .

الأصل الرابع — مُدْرَكة (بضم الميم وسكون الدال المهملة وكسر الراء المهملة
وفتح الكاف وهاء في الآخر) وهم بنو مدركة بن إلياس بن مضر ؛ وقد تقدم سبب
تسميته مدركة . وله فرع واحد على حاشية عمود النسب وهو هُدَيْل (بضم الهاء
وفتح الدال المعجمة وسكون الياء المثناة تحت ولام في الآخر) وهم بنو هُدَيْل بن

مدركة . وهى قبيلة متسعة لها بطون كثيرة والنسبة إليها هُدَلَى بحذف الياء بعد الذال ، وإليهم يُنسَب عبد الله بن مسعود الصحابى رضى الله عنه .

الأصل الخامس — نُزَيْمَة (بضم الخاء المعجمة وفتح الزاى وسكون الياء المثناة تحت وفتح الميم وهاء فى الآخر) وهو نُزَيْمَة بن مُدْرِكَة . وله فرعان على حاشية عمود النسب ، وهما الهون وأسد .

فأما الهون (فبضم الهاء وسكون الواو ونون فى الآخر) وهو الهون بن نُزَيْمَة ، وهى قبيلة مشهورة .

ومن بطون الهون عَضَد (بفتح العين المهملة والضاد المعجمة ودال مهملة فى الآخر) ، وهم بنو عَضَد بن الهون .

ومن بطون الهون أيضا الديش (بكسر الدال المهملة وسكون الياء المثناة تحت وشين معجمة فى الآخر) وهم بنو الديش بن مُلَيْح بن الهون ، ويقال لهاتين القبيلتين وهما عَضَد والدَّيْش القارة . قال أبو عبيد : وُسِّمُوا بذلك لأنَّ الشَّدَاخ اللَّبِئَى أراد أن يفرقهم فى بطون كناية فقال بعضهم : دَعُونَا قَارَةً لَا تَتَفَرَّقُ فُسِّمُوا القَارَةَ .

وأما أسد وضبطه معروف ، فهم بطن كبير متسع . قال فى العبر : ومنازلهم مما يلى الكرخ من أرض نجد فى مجاورة طي . قال : ويقال إن بلاد طي كانت لبني أسد ، فلما خرج بنو طي من اليمن تغلبوا على أجا وسلمى ، وتفرق بنو أسد بسبب ذلك فى الأقطار ولم يبق لهم حى . قال ابن سعيد : وبلادهم الآن لطي . قال فى "مسالك الأبصار" : وبغسل وما ينضم إليها من بلاد الشام قوم من بنى أسد .

ومن بطون أسد الكاهلية ، وهم بنو كاهل بن أسد . ومن بطونهم دُودانُ بن أسد أيضا .

الأصل السادس — كنانة (بكسر الكاف ونون بعدها ألف ثم نون مفتوحة بعدها هاء) وهو كنانة بن خزيمه؛ وهي قبيلة عظيمة اشتهرت على عمود النسب . وقد ذكر الحمداني أن منهم جماعة بالإخميمية من صعيد الديار المصرية يُعرفون بكنانة طلحة، وذكر في "مسالك الأبصار" أن طائفة منهم قَدِمُوا الديار المصرية في وزارة الصالح طلائع بن رزيك ونزلوا دِمياطَ وما حولها . وله على حاشية عمود النسب خمسة فروع :

الفرع الأول — مَلْكان (بفتح الميم وسكون اللام ونون في الآخر) ، وهم بنو مَلْكان بن كنانة .

الفرع الثاني — عَبْد مَنَاة بإضافة عبد إلى مَنَاة (بميم مفتوحة بعدها نون) ، وهم بنو عبد مَنَاة بن كنانة ، ولهم عدّة بطون .

منهم غِفَار (بكسر الغين المعجمة وفتح الفاء وراء بعد الألف) ، وهو بنو غِفَار ابن عبد مَنَاة بن كنانة ، وهم رهط أبي ذَرِّ الغِفَارِيّ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإليهم الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم "غِفَارُ غَفَرُ الله لها" .

ومنهم بنو بكر بن عبد مَنَاة بن كنانة ؛ ومن بكر هؤلاء الدُّئَل . وهم بنو الدُّئَل بن بكر ابن عبد مَنَاة ؛ وإليهم ينسب أبو الأسود الدؤلي واضع علم النحو بأمر أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضی الله عنه .

ومنهم بنو لَيْث ؛ وهم بنو لَيْث بن بكر بن عبد مَنَاة منهم الصَّعْب بن جَتَّامة اللَيْثِيّ الصَّحَابِيّ رضی الله عنه . وقد ذكر الحمداني أن منهم طائفةٌ بساقية قُلْتة بالإخميمية من صعيد مصر .

ومنهم بنو الحارث، ويقال فيهم بلحارث؛ وهم بنو الحارث بن عبد مناة .
 ومنهم بنو مُدْلِج (بضم الميم وسكون الدال المهملة وكسر اللام وجميم في الآخر) ،
 وهم بنو مُدْلِج بن مُرّة بن عبد مناة . وفي بنى مُدْلِج هؤلاء علم القيافة، وهو إلحاق
 الأب بالأب ونحو ذلك بالشبه . ومنهم طائفة الآن بصرخد وحوران من بلاد الشام،
 وطائفة بالأعمال الغربية من الديار المصرية .

ومنهم بنو صَمْرَةَ (بفتح الضاد المعجمة وسكون الميم وفتح الراء المهملة وهاء
 في الآخر) وهم بنو صَمْرَةَ، بن بكر، بن عبد مناة، وإليهم ينسب عمرو بن أمية الضمري
 صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد ذكر الحمداني أن منهم طائفة بساقية
 قُلْتَة وما يليها من بلاد إنجيم من صعيد مصر .

الفرع الثالث — عمرو بن كَنَانَة؛ وإليه ينسب العمرِيُّون من بنى كَنَانَة .

الفرع الرابع — عامر بن كَنَانَة؛ ومنه العامريُّون من كَنَانَة .

الفرع الخامس — مالك بن كَنَانَة . ومن عقبه بنو فراس، بن غنم، بن ثعلبة، بن
 الحارث، بن مالك . وفي بنى فراس هؤلاء يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب
 رضى الله عنه لبعض من كان معه : "لَوِدِدْتُ أَنْ يَكُونَ لِي بِأَلْفٍ مِنْكُمْ سَبْعَةٌ مِنْ بَنِي
 فِرَاسِ بْنِ غَنَمٍ" . وقد ذكر الحمداني أن منهم جماعة بساقية قُلْتَة وما يليها من الإنجيمية
 بمصر . وذكر الحمداني أيضا أن من كَنَانَة بنُ حَزِيمَة طائفة بصعيد مصر بالأشْمُونِيَّينَ
 وما حولها تُعْرَفُ بِكَانَةَ طَلْحَة .

الصنف الثاني من العرب العدنانية — قُرَيْش (بضم القاف وفتح الراء المهملة)،
 وهم بنو النَّضْر (بفتح النون وسكون الضاد المعجمة) ابن كَنَانَة وقيل في تسميته بذلك إنه
 كان في سفينة يجمر فارس إذ خرجت عليهم دابة عظيمة يقال لها قُرَيْش فخافها أهل

السفينة على أنفسهم فأخرج لهما من كنانته ورمها فأثبتها، ثم قُرِّبَت السفينة منها فأمسكها وقطع رأسها وحملها معه إلى مكة فسُمِّيَ باسمها . وقيل سُمِّيَ بنوه بذلك لغلبيتهم القبائل وقهرهم إياهم، تشبيها بالدابة المقدم ذكرها من حيث إنها تقهر سائر دواب البحر وقيل أخذنا من التقرُّش، وهو الاجتماع لأن قُصِيًّا جمعهم عليه عند ولايته أمر قُرَيْش . وقيل لتجارتهم أخذنا من التقرُّش، وهو التجارة .

ثم لقريش عشرة أصول على عمود النسب :

الأصل الأول — فِهْر بن مالك، ويتفرع عن فِهْر على حاشية عمود النسب قبيلتان :

القبيلة الأولى — بنو الحارث، وهم بنو الحارث بن فِهْر . ومن بنى الحارث هؤلاء بنو الجراح رهط أبي عبيدة بن الجراح، أحد العشرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المقطوع لهم بالجنة .

القبيلة الثانية — بنو محارب بن فِهْر، المقدم ذكره . ومنهم الضحَّاك بن قيس أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الأصل الثاني — غالب بن فِهْر . ويتفرع عنه على حاشية عمود النسب قبيلة واحدة، وهم بنو الأدرم بن لؤي بن غالب^(١)، والأدرم هو الناقص الذَّقْن .

الأصل الثالث — لؤي بن غالب . ويتفرع منه على حاشية عمود النسب ثلاث قبائل :

القبيلة الأولى — سعد، وهم بنو سعد بن لؤي بن غالب، كان له من الولد عمار، وعمارى، ومخزوم، من أمه بنانة (بضم الباء الموحدة) وبها يُعرفون فيقال لهم بنو بنانة، ومنهم أبو الطفيل أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) فيه نظر فإن تيم الأدرم بن غالب كما في القاموس في مادة ت ي م فلعن لفظ ابن لؤي بما طغى به فلم الناصح .

القبيلة الثانية — نُزَيْمَة (بضم الخاء المعجمة وفتح الزاي) وهم بنو خزيمية بن لؤى ؛ وكان تحتها عائدة (بالعين المهملة والياء المثناة تحت والذال المعجمة) بنت الحِمْس بن خُفَافَة فَعُرِفَ ولده بها فقبيل لهم بنو عائدة .

القبيلة الثالثة — بنو عامر ، وهم بنو عامر بن لؤى ، وكان له من الولد حِمْسَل وبَيْض . ومن ولد حِمْسَل سُهَيْل بن عمرو الذى عقد الصُّلح مع النبي صلى الله عليه وسلم ، يوم الحُدَيْبِيَّة لقريش ؛ ومنهم عمرو بن عبد ودِّ العامرىّ فارس العرب الذى قتله على بن أبى طالب رضى الله عنه .

الأصل الرابع — كعب بن لؤى بن غالب ، ويتفرع منه خارجا عن عمود النسب قبيلتان :

القبيلة الأولى — هُصَيْص (بضم الهاء وفتح الصاد المهملة وسكون الياء المثناة تحت وصاد مهملة فى الآخر) . ومن هُصَيْص بنو سَهْم ، منهم عمرو بن العاص رضى الله عنه ؛ وكانت خُطَّة بنى سَهْم بفسطاط مصر حول الجامع العتيق . وقد ذكر الحمدانى أن من بنى عمرو بن العاص أشتانا بالصعيد ، ولهم حصّة فى وقف عمرو على أهله بمصر .

ومنهم بنو جُمَح (بضم الجيم وفتح الميم وحاء مهملة فى الآخر) وهم بنو جُمَح بن هُصَيْص المقدم ذكره ؛ ومنهم أمية بن خلف عدو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن من بنى جُمَح قوما بأذرعات من بلاد الشام .

القبيلة الثانية — بنو عدى ، وهم بنو عدى بن كعب ؛ ومنهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وسعيد بن زيد أحد العشرة المقطوع لهم بالحنّة ؛ وقد ذكر القاضى شهاب الدين بن فضل الله فى "مسالك الأبصار" أنه وفد من بنى عدى جماعة إلى الديار المصرية فى وزارة الصالح طلائع بن رُزَيْك وزير الفاتر الفاطمى .

ومنهم رجال من بنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومقدمهم خلف بن نصر العُمري وأنهم لقوا من الصالح طلائع بن رزّيك وافر الإكرام ، ونزلوا بالبُرّس^(١) من سواحل الأعمال الغربية . وذكر أن من العُمريين ببلاد الشام فرقة بوادى بنى زيد وفرقة بعجلون .

الأصل الخامس — مرة بن كعب ، ويتفرّع عنه قبيلتان على حاشية عمود النسب :

القبيلة الأولى — تيم ، وهم بنو تيم بن مرة بن كعب . ومنهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وطلحة أحد العشرة المقطوع لهم بالحنة . وقد ذكر الحمداني أن من بنى الصديق رضى الله عنه من بنى عبد الرحمن وبنى محمد ولدى أبي بكر رضى الله عنه جماعة بالأشْمُونِيْنَ والبهنسائية من صعيد مصر . قال الحمداني ، وهم ثلاث فرقهم وأقرباؤهم وأطلق على الكل بنو طلحة . فالفرقة الأولى منهم بنو إسحاق ، ويقال إن إسحاق ليس أبا لهم وإنما هو (إسحاق) مكان تحالفوا عنده فسموا به . والفرقة الثانية فضاء طلحة ، وهم بطون كثيرة ، وأكثرهم أشنات كثيرة في البلاد لاحد لهم . والفرقة الثالثة بنو محمد ، وهم بنو محمد بن أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، ومنازلهم بالبرجين وسفط سُكْرَة ، وطحا المدينة من بلاد الأشْمُونِيْنَ فيما ذكره الحمداني ، وأكثرهم الآن بدّهروط من البهنسائية ، وخرج منهم جماعة من العلماء على مذهبي الإمامين : مالك والشافعي رضى الله عنهما .

القبيلة الثانية — بنو يقظة ، وهم بنو يقظة بن مرة . ومنهم بنو مخزوم (بفتح الميم وسكون الخاء المعجمة وضم الزاي وسكون الواو وميم في الآخر) وهم بنو مخزوم بن

(١) قال ياقوت برلس بفتحتين وضم اللام وتشديدها وفي القاموس برلس بالضات وشدة اللام .

يَقْظَةُ بن مُرَّة بن كعب ، وبه اشتهرت القبيلة دون أبيه يَقْظَةُ لكثرة عقبه دون أبيه . منهم خالد بن الوليد أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو جهل . ابن هشام عدو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخوه العاص بن هشام ، قُتِلَا يوم بدر كافرين ، وأخوهما سلمة بن هشام ، أسلم وكان من خيار المسلمين . ومنهم سعيد بن المسيب التابعي المشهور ، وقد ذكر الحمداني أن من بني مخزوم جماعة بصعيد مصر بالأشمونين وفيهم بأس وشدّة . وذكر أيضا أن منهم خالد حمص وخالد الحجاز . وذكر أن كلا منهم يدعى بنوّة خالد بن الوليد رضى الله عنه . ثم قال : وقد أجمع أهل العلم بالنسب على أنقراض عقبه . قال ولعلهم من سواه من بني مخزوم فهم أكثر قریش بقيّة وأشرفهم جاهلية .

الأصل السادس — كلاب بن مُرَّة ، ويتفرع منه على حاشية عمود النسب قبيلة واحدة ، وهى زُهْرَةُ (يضم الزاى وسكون الهاء وفتح الراء وهاء فى الآخر) وهم بنو زُهْرَةَ بن كلاب بن مُرَّة قاله أبو عبيد وغيره . وقد ذكر الجوهري أن زُهْرَةَ اسم امرأة كلاب نُسب ولده إليها . منهم سعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف . كلاهما من العشرة المقطوع لهم بالحنّة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومنهم آمنَةُ بنتُ وهبِ أم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد ذكر الحمداني أن منهم جماعة ببلاد الأشمونين بصعيد مصر .

الأصل السابع — قُصَيّ بن كلاب بن مرة ، وكان قُصَيّ عظيماً فى قریش ، وهو الذى جمعهم بعد التفرق ، وفى ذلك يقول الشاعر :

أَبُوكُمْ قُصَيٌّ حِينَ يَدْعَى جُمُعًا * بِهِ جَمَعَ اللَّهُ الْقَبَائِلَ مِنْ فِئَرٍ

وآرتجح مفاتيح الكعبة من خُرَاعَة بعد أن كانوا آتزعوها من بنى إسماعيل على ما تقدم ذكره . ويتفرع منه على حاشية عمود النسب قبيلتان :

القبيلة الأولى — بنو عبد الدار ، وهم بنو عبد الدار بن قُصَيٍّ ، ويبدأ بيده كانت مفاتيح الكعبة دون سائر بنى قُصَيٍّ . وذلك أن قُصَيًّا لما أخذ مفاتيح الكعبة من أبي عَبْشَانَ الخُرَاعِي ، أرسلها مع آبنه عبد الدار هذا إلى البيت وقال : يا بنى إسماعيل هذه مفاتيح بيت أبيكم إبراهيم وقد أعادها الله تعالى إليكم . فبقيت بيده من حينئذ ، ومن ولده عثمان بن طَلْحَة الحَجَبِيّ الذى آتزع النبي صلى الله عليه وسلم منه مفاتيح الكعبة عام حَجَّة الوداع حين طأبها منه لتدخل عائشة رضى الله عنها البيت ليلا فامتنع من ذلك وقال : إن الكعبة لم تُفْتَحْ ليلا قط فأنزل الله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ فأعادها إليه وقال ” هِيَ فِيكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ “ . وقد ذكر فى المسالك أن بجماعة أقواما من بنى عبد الدار .

ومن بنى عبد الدار بنو شيبَةَ بن عثمان المقدم ذكره ، ابن طلحة ، بن أبى طلحة ، بن عبد العزى ، بن عثمان ، بن عبد الدار ، وهم حَجَبَة الكعبة ، ومفاتيحها بيدهم إلى الآن . وقد ذكر الحمدانى أن من بنى شيبَةَ هؤلاء قوما بصعيد مصر بسفط وما يليها من بلاد الهندسائية يعرفون بجماعة نَهَار .

القبيلة الثانية — بنو عبد العزى ، وهو عبد العزى بن قُصَيٍّ ، منهم هَبَّار بن الأسود كان يهجو النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أسلم فحُسن إسلامه ومدحه . ومن بنى عبد العزى هؤلاء بنو أسد ، وهم بنو أسد بن عبد العزى المقدم ذكره . ومن بنى أسد هؤلاء الزبير بن العوام ، أحد العشرة المقطوع لهم بالجنة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنهم خديجة أم المؤمنين ، زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وورقة بن نوفل الذي
 أنته خديجة في أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، في ابتداء النبوة حين جاءه الملك
 بحراء . وقد ذكر الحمداني أن من بنى الزبير طائفة بصعيد مصر ببلاد البهنسا وما
 يليها . فمن ولد عبد الله بن الزبير بنو بدر ، وبنو مصلح ، وبنو رمضان .
 ومن بنى مضعب بن الزبير جماعة يعرفون بجماعة محمد بن وراق . ومن ولد عروة
 ابن الزبير بنو غنى .

الأصل الثامن — عبد مناف بن قصي ، ولبنى عبد مناف في قريش النسب
 الصميم ، والحسب الكريم ، وإلى هذا أشار أبو طالب بقوله :
 إِذَا أَفْخَرْتَ يَوْمًا قُرَيْشٌ بِمَفْخَرٍ * فَعَبْدُ مَنْفٍ أَصْلُهَا وَصِمِّهَا
 ويتفرع منه على حاشية عمود النسب ثلاث قبائل :

القبيلة الأولى — بنو عبد شمس بن عبد مناف . ومن عبد شمس بنو أمية ؛ وهم
 بنو أمية الأكبر وأمية الأصغر أبى عبد شمس بن عبد مناف .

فأما أمية الأكبر ، فكان له عشرة أولاد : أربعة منهم يسمون الأعياص ؛ وهم
 العاص ، وأبو العاص ، والعيص ، وأبو العيص ، وستة يسمون العنابس ؛ وهم
 حرب ، وأبو حرب ، وسفيان ، وأبو سفيان ، وعمرو ، وأبو عمرو .

ومن بنى أمية الأكبر أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ومعاوية بن
 أبى سفيان بن حرب ، والحكم بن العاص . ومن ولده كانت المرأونة خلفاء بنى أمية .

وأما أمية الأصغر فيقال لأولاده العبلات ، ومن عقب أمية الأصغر الثريا بنت
 عبد الله بن الحارث بن أمية ، التي كان يشبب بها عمر بن أبى ربيعة ، وكان تزوجها
 سهيل بن عبد الرحمن بن عوف ، وفيهما يقول عمر بن أبى ربيعة :

أَيُّهَا الْمُنْكَحُ الثَّرِيًّا سُهَيْلًا * عَمْرُكَ اللَّهُ كَيْفَ يَتَّقِيَانِ
هِيَ شَامِيَّةٌ إِذَا مَا اسْتَقَلَّتْ * وَسُهَيْلٌ إِذَا اسْتَقَلَّ يَمَانِي

وقد اختلف في النسبة إلى أمية على مذهبين، أحدهما أنه أموي بضم الهمزة جريا على اللفظ في أمية، وإليه يميل كلام الشيخ أثير الدين أبي حيّان في شرح التسهيل، الثاني أنه ينسب إليها أموي بفتحها لأن أمية تصغير أمة فإذا نسبت رددته إلى أصله وعليه اقتصر الجوهري.

(١)
القبيلة الثانية — نؤفل، وهم بنو نؤفل بن عبد مناف، ومنهم نافع بن طريب ابن عمرو بن نؤفل الذي كتب المصاحف لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان نؤفل وعبد شمس متآلفين فجرى بنوهما على ذلك.

القبيلة الثالثة — بنو المطلب، وهم بنو المطلب بن عبد مناف، وكان المطلب متآلفا مع أخيه هاشم بن عبد مناف المقدم ذكره فجرى بنوهما على ذلك، حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم "لم يفترق هاشم والمطلب في جاهلية ولا إسلام". ومن بنى المطلب الإمام الشافعي رضي الله عنه.

الأصل التاسع — هاشم بن عبد مناف، وأسمه عمرو، وسمى هاشما لهشمه الثريد أيام المجاعة، وفي ذلك يقول الشاعر:

عَمْرُو الَّذِي هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ * وَرِجَالُ مَكَّةَ مُسْتِنُونَ عِجَافُ

وآتمت إليه سيادة قريش. وكان له على حاشية عمود النسب أربعة أولاد. وهم نضلة، وأسد، وصيفي، وأبو صيفي، ولم يشتهروا كل الأشتهار.

الأصل العاشر — عبد المطلب بن هاشم، وكان له اثنا عشر ولدا: عبد الله أبو النبي صلى الله عليه وسلم، وأبو طالب، والزبير، وعبد الكعبة، والعباس،

(١) كذا في سبائك الذهب أيضا والذي في العقد الفريد شافع بن طرب.

وضَرَارَ، وَحَمْزَةَ، وَحِجْلَ، وَأَبُو لَهَبَ، وَقُتْمَ، وَالغَيْدَاقَ الملقبَ بالمَقُومِ، والحَارِثَ
أعمامَ النبيّ صلى الله عليه وسلم على خلاف في العدد فيهم . قال أبو عبيد : والعقب
منهم لسته : حمزة والعباس رضى الله عنهما، وأبو لهب، وأبو طالب، والحارث ،
وعبد الله .

فأما عبد الله فمن ولده النبيّ صلى الله عليه وسلم ، خلاصةُ الوجود، وزُبدَةُ العالَمِ .
وأما العباس فمن ولده الخلفاء من زمن أبي العباس السَّفَّاحِ أولِ خلفائهم وهم جرا
إلى المستعين بن المتوكل خليفة العصر . وأما حمزة فقد ذكر ابن حزم وغيره أن عقبه
أنقرض . وأما أبو طالب فله ثلاثة أولاد، وهم أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرم
الله وجهه، وجعفر، وعقيل ، فمن ولد أمير المؤمنين عليّ رضى الله عنه الحسنُ والحسينُ
عليهما السلام ، من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعقبهما قد ملأ
الشرق والغرب ، وقد ذكر الحمدانيّ أن منهم بصعيد مصر جماعة من الجعافرة بنى
جعفر الصادق من ولد الحسين بن عليّ وقال مسكنهم من بحرى منقلوط إلى سملوط
غرباً وشرقاً ، وعدّ من بطونهم الحيادة ، وهم أولاد حيدة ، والسلطنة ، وهم
أولاد أبي بجيش ، وذكر أنه كان منهم الشريف حصن الدين بن تغلب صاحب
دروة سرّام من الأشمونين ، وبه عرفت بدرّوة الشريف ، وكان قد سمّت نفسه
إلى الملك في أواخر الدولة الأيوبية وبقى حتى ملك الظاهر بيبرس ، فأعمل له غوائل
القدر حتى قبض عليه وشنقه بالإسكندرية . قال ومن بنى الحسين قوم بحرّجة
منقلوط ، وبنى الحسين هؤلاء تعرف القرية المسماة بنى الحسين . وفي أسبوط
جماعة من أولاد جعفر الصادق يعرفون بأولاد الشريف قاسم . وذكر في "مسالك
الإبصار" أن بسامية وحلب وبلادهما جماعة من بنى الحسين .

ومن ولد جعفر بن أبي طالب أقوام بلاد الشام بوادي بنى زيد، وبصرخدا
وبلادها جماعة من عامر بن هلال، يدعون أنهم من بنى جعفر بن أبي طالب أيضا .
وفي بعض قُرَى أذربِجَات قوم يدعون أنهم منهم . وأما الحارث وأبولهب فقد ذكر
في العبر أن لهما عقبا موجودا ولم يصرح بمجمله .

الضرب الثالث

(من العرب الموجودين المتردد في عربوهم)

وهم البربر (ببائين موحدتين مفتوحتين بينهما راء مهملة ساكنة وراء مهملة
في الآخر) . قال الجوهرى : ويقال فيهم البرابرة والهاء للعجمة والنسب ولا يتمتع
حذفها . وقد اختلف في نسبهم اختلافا كثيرا فذهبت طائفة من النسابين إلى أنهم
من العرب . ثم اختلف في ذلك ف قيل أوزاع من اليمن ، وقيل من غسان وغيرهم
تفرقوا عند سبيل العرم قاله المسعودى ؛ وقيل خلفهم أبرهة ذو المنار أحد تبابعة اليمن
حين غزا المغرب ؛ وقيل من ولد لقمان بن حمير بن سبأ ، بعث سرية من بنيه إلى
المغرب ليعمره ، فتلوا وتناسلوا فيه ؛ وقيل من نخم وجدام ، كانوا نازلين بفلسطين
من الشام إلى أن أخرجهم منها بعض ملوك فارس فلبجوا إلى مصر فمنعهم ملوكها
من نزولها فذهبوا إلى المغرب فتلوه ؛ وذهب قوم إلى أنهم من ولد لقشان بن
إبراهيم الخليل عليه السلام . وذكر الحمداني أنهم من ولد بربر بن قيذار بن إسماعيل
عليه السلام ، وأنه ارتكب ذنبا فقال له أبوه البربر أذهب يا برفا أنت يبر ، وقيل
هم من ولد بربر بن ثميلا بن مازيع بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام ، وقيل
من ولد بربر بن كسلاجيم بن حام بن نوح ؛ وقيل من ولد ثميلا بن ماراب بن عمرو
ابن عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح ؛ وقيل من ولد قبط بن حام بن نوح ؛

وقيل أخلاط من كنعان والعاليق ؛ وقيل من حيمر ومصر والقبط ؛ وقيل من ولد جالوت ملك بني إسرائيل ، وإنه لما قتله داود تفرقوا في البلاد فلما غزا إفريقيش البلاد نقلهم من سواحل الشام إلى المغرب ، وهو الذي رجحه صاحب العبر . وبالجملة فأكثر الأقوال جانحة إلى أنهم من العرب وإن لم يتحقق من أي عرب هم ، وهم قبائل متشعبة وبطون متفرقة ، وأكثرهم ببلاد المغرب ؛ وبديار مصر منهم طائفة عظيمة ، قال في العبر : وهي على كثرتها راجعة إلى أصلين لا تخرج عنهما : أحدهما البرانس ، وهم بنو برنس بن بربر . والثاني البتر ، وهم بنو مادغش الأبتن بن بربر . وبعضهم يقول إنهم يرجعون إلى سبعة أصول ، وهي اردواحة ، ومصمودة ، وأوربة ، وعجبة ، وكامة ، وصنهاجة ، وأوريغة . وزاد بعضهم لمطة ، وهسكورة ، وكرولة . وقد ذكر صاحب العبر منهم الجم الغفير ؛ والذي تدعو الحاجة إلى ذكره من ذلك طائفتان :

الطائفة الأولى — الذين كان منهم ملوك المغرب للحاجة إلى ذلك لمعرفة أنساب الملوك عند المكاتبه إليهم ، وهم ثلاث قبائل :

القبيلة الأولى — مضمودة (بفتح الميم وسكون الصاد المهملة وضم الميم وفتح الدال المهملة وهاء في الآخر) وهم بنو مضمودة بن برنس بن بربر . قال في العبر : وهم أكبر قبائل البربر ، وأكثرهم عددا ، وأوسعهم شعوبا ، ومنهم الموحدون أصحاب المهدي بن تومرت القائم بقاياهم بإفريقية إلى الآن .

ومن مضمودة هتاتة (بفتح الهاء وإسكان النون وفتح التاء المثناة فوق وبعدها ألف ثم تاء ثانية مفتوحة وهاء في الآخر) ومنهم أبو حفص أحد أصحاب المهدي بن تومرت المقدم ذكره ، وهو الذي ينسب إليه الحفصيون ملوك إفريقية القائمون بتونس إلى الآن على ما سيأتي ذكره في الكلام على المسالك والممالك .

القبيلة الثانية — زِنَاة (بكسر الزاي وفتح النون وبعد الألف تاء مثناة فوق مفتوحة وهاء في الآخر) وهم بطن من البُتر بن البربر . قال في العبر : وأسم زِنَاة جانا بالحم ويقال شانا بالشين ، ابن يحيى ، بن صولات ، بن ورساك ، بن ضرى ، بن رحيك ، بن مادغش ، بن بربر . ونقل ابن حزم عن بعضهم أن ضرى ، بن شقعو ، بن تبدواد ، بن ثملا ، بن مادغش ، بن هوك ، بن برسق ، بن كداد ، بن مازيع ، بن هراك ، ابن هريك ، بن بدا ، بن بديان ، بن كنعان ، بن حام ، بن نوح عليه السلام . وقيل : جانا ابن يحيى ، بن ضريس ، بن جالوت ، بن هريك ، بن جديلات ، بن جالود ، بن رديلات ، ابن عصى ، بن بادين ، بن رحيك ، بن مادغش الأبتري ، بن قيس عيلان ، وحينئذ تكون من العرب العدنانية . وقيل : جالوت ، بن جالود ، بن ديال ، بن قحطان ، بن فارس فتكون من الفرس . قال في العبر : وترجم نَسَابَة زِنَاة الآن أنهم من حمير من التبابعة فيكونون من القحطانية ؛ وبعضهم يقول إنهم من العالقة . وقد تقدم عددهم في العرب .

ومن زِنَاة بنو مَرِين (بفتح الميم وكسر الراء المهملة وسكون الياء المثناة تحت ونون في الآخر) وهم بنو مَرِين ، بن ورتاجن ، بن ماخوخ ، بن وجريج ، بن فاتن ، ابن بدر ، بن يحفت ، بن عبد الله ، بن زرتييص ، بن المعز ، بن إبراهيم ، بن رحيك ، بن واشين ، بن نصبين ، بن سراء ، بن احيا ، بن ورسيك ، بن اديت ، بن جانا ، وهو زِنَاة .

ومن بنى مَرِين هؤلاء بنو عبد الحق ملوك فاس القائمون بها إلى الآن على ما يأتي ذكره في الكلام على المسالك والممالك إن شاء الله .

ومن زِنَاة أيضا بنو عبد الواد ملوك تلمسان من المغرب الأوسط القائمون بها إلى الآن .

القبيلة الثالثة — صَنَاهَاة (بفتح الصاد المهملة وسكون النون وفتح الهاء وألف بعدها جيم مفتوحة وهاء في الآخر) وهم بنو صَنَاهَاة ، بن برنس ، بن بربر .

وقيل صنّاج، بن أوريع، بن برنس، بن بربر. ويقال إنهم من حمير من عرب اليمن
 قاله ابن الكلبي والطبري والبيهقي والمسعودي وعبد العزيز الجرجاني .
 وحكى ابن حزم : أن صنّاج إنما هو ابن امرأة اسمها بصلى وليس له أب معروف
 وأنها تزوجت بأوريع، وهو معها، فولدت له هوّارة، فكان صنّاج أخا هوّارة لأمة .
 ومن صنّاجة لمتونة (بفتح اللام وسكون الميم وضم التاء المثناة فوق وفتح النون
 وهاء في الآخر) ، ومن لمتونة ملوك المرابطين الذين كان منهم أمير المسلمين يوسف
 ابن تاشفين باني مدينة مرّاكش من الغرب الأقصى ، وهم الذين أنقرض ملكهم
 بدولة الموحّدين .

الطائفة الثانية — الذين منهم بالديار المصرية . قال في العبر : وهم قبيلتان :
 القبيلة الأولى — هوّارة (بفتح الهاء وتشديد الواو وفتح الراء المهملة بعد الألف
 وهاء في الآخر) ، وهم بنو هوّارة بن أوريع ، بن برنس ، بن بربر . وذكر الحمداني أنهم
 من ولد برّ ، بن قيذار ، بن إسماعيل عليه السلام . قال في العبر : ونسأبتهم يقولون
 إنهم من عرب اليمن . فتارة يقولون إنهم من عاملة إحدى بطون قضاة ، وتارة
 يقولون إنهم من ولد المسور ، بن السكاسك ، بن وائل ، بن حمير ، وتارة يقولون من ولد
 السكاسك ، بن أشرس ، بن كندة ، فيقولون هوّار ، بن أوريع ، بن حيور ، بن المثني ،
 ابن المسور . وقد عدّ الحمداني من بطونهم بالديار المصرية بنى مجريش ، وبنى
 اسرات ، وبنى قطران ، وبنى كريب ، ولكنهم الآن قد آتست بطونهم ، وكثرت
 شعوبهم ، وصار لهم بطون كثيرة .

منها بنو محمد ، وأولاد مأمّن ، وبندار ، والعرايا ، والشللة ، وأشخوم ، وأولاد
 مؤمنين ، والرابع ، والروكة ، والبروكية ، والبهليل ، والأصابعة ، والدناجلة ، والمواسية

(١) في العبر بدون هاء التأنيث وقد اختلف الأصل الذي بيدها فتارة يثبتها وتارة يحذفها .

والبلاذ ، والصوامع ، والسدادرة ، والزبانية ، والخيافة ، والطرده ، والأهله ،
وازلتين ، واسلين ، وبنو قير ، واتييه ، والتبابعة ، والغنائم ، وفزارة ، والعبادة ،
وساورة ، وغبان ، وحديد ، والسبعة . وذكروا في "مسالك الأبصار" أن لهم بالديار
المصرية البحيرة ، ومن الإسكندرية غربا إلى العقبة الكبيرة ، ولم يزل الأمر على
ما ذكره إلى آخر المائة الثامنة في الدولة الظاهرية الشيعية برقوق فغلبهم على البحيرة
زنازة وحلفاؤهم من بقية عرب البحيرة ، فخرجوا عنها إلى صعيد مصر ، ونزلوا به
بالأعمال الإنحيمية في جرجا وما حولها . ثم قوى أمرهم ، وأشدت بأسهم ، وكثر
جمعهم ، حتى أنتشروا في معظم الوجه القبلي فيما بين أعمال قوص ، وإلى غربي الأعمال
البهنسية ، وأقطعوا بها الإقطاعات ، وصارت الإمرة في بلاد إنحيم لأولاد عمر ،
وفي أعمال البنسا وما حولها لأولاد غريب ، والأمر على ذلك إلى الآن .

(١)
القبيلة الثانية - لآوآة (بفتح اللام والواو والتاء المثناة وهاء في الآخر) قال
الحمداني : ويقال لآوآنا بالألف ، وهم بنو لآوآنا الأصغر ، بن لآوآنا الأكبر ، بن رحيك ،
آبن مادغش الأثر ، بن بربر . قال الحمداني : وهم يقولون إنهم من قيس من
غطفان ، بن سعد ، بن قيس عيلان . وذكروا عن بعض النسائيين أنهم من ولد بر ، بن
قيدار ، بن إسماعيل عليه السلام ، وأنه تزوج امرأة من العاليق فولدت له أولادا
منهم لآوآة .

وحكى ابن حزم عن بعض النسابة : أن لآوآة من القبط . ثم قال : وليس بصحيح .
قال الحمداني : ولهم بمصر بطون كثيرة ، منهم بنو بلار ، وجد وخاص ، وبنو مجدول
و بنو جديدي ، وقطوفة ، وبركين ، ومالو ، ومزورة . قال : وبنو جديدي تجمع أولاد

(١) ذكرها صاحب القاموس بهذا الضبط في باب التاء المثناة من فوق فليتنبه .

قريش، وأولاد زَعَاذِعَ، وهم أشهر مَنْ في الصعيد . وقطوفة تجمع مَغَاةً وواهلة .
وبركين تجمع بنى زيد وبنى روهين . ومزورة تجمع بنى وركان وبنى غرواسن .
ثم قال : فأما بنو بلار ففرقتان فرقة بالبهنسية، وهم بنو محمد، وبنى عليّ، وبنو زرار،
ونصف بنى شهلان .

وأما الفرقة التي بالجزية ، فبنو مجدول ، وسقارة، وبنى أبي كَثِيرٍ، وبنى
الجلال . قال : ويقال لهذه الفرقة جد وخاص ، ويقال للأولى البلارية ؛ ومنهم
مَغَاةٌ ، ولهم سَمْلُوطٌ إلى الساقية، ولبنى بركين قَلُوسًا وما معها إلى بحرى طَنْبَدَى ،
ولبنى جد وخاص الكفور الصولية، وسَقَطٌ أبو جرجا إلى طنبدى ، وإهريت . ومنهم
بنو محمد، وبنى عليّ المقدم ذكرهما، وأمراؤهم بنو زعازع .

وأما مزورة، فبنو وركان ، وبنى غرواسن ، وبنى ججاز، وبنى الحكم ،
وبنو الوليد، وبنى الحجاج، وبنى الحرمة .

وأما بنو زرار . فمن بنى زرية ؛ ومنهم نصف بنى عامر، والحماسنة، والضباعنة ؛
وهم في إمارة بنى زعازع . ومنهم أيضا بنو زيد وأمراؤهم أولاد قريش، ومسكنهم
النَّوِيْرَةُ ؛ وبالجزية منهم صلّامس : عرب البدرشين ، وبنو منصور : عرب منية
رهينة، وبنو بَكْمَ : عرب سقارة، وبنو مجدول، وبنو يرنى، وبنو يوسف، وبنو
تعرف الكفور الثلاثة المسماة باسمهم . وبالمنوفية منهم بنو يحيى، والسوة، وعبيد،
ومصلة، وبنو مختار . ومن لوائنة هؤلاء زُنَّارَةٌ (بضم الزاى وتشديد النون وألف
ثم راء مهملة مفتوحة وهاء فى الآخر)، وهم بنو زُنَّارَةَ من ولد بر، بن قيذار، بن إسماعيل
عليه السلام، وقال : إنه أخو هَوَّارَةَ ، وأكثر زُنَّارَةَ ببلاد المغرب ؛ ومنهم جماعة

(١) فى السباتك بنو الجلاس بالجيم وحرر .

(٢) فى معجم ياقوت طنبذة بالذال المعجمة وهاء التانيث .

بالبحيرة وجماعة بالمنوفية . وقد عدَّ الحمداني من بطونهم بالبحيرة بنى مزديش ، وهم مزداشة ، وبنى صالح ، وبنى سام وزمران ، وأوريفة ، وعزهان ، ولفان . وزاد بعضهم بنى حيون ، وواكدة ، وفرطيطة ، وعرجومة ، وطازولة ، ونفات ، وناطورة ، وبنى السعوية ، ومزداشة ، وبنى أبى سعيد ، وهم عرب بدر بن سلام . ومن لوائه أيضاً مزانته (بضم الميم وفتح الزاى والتاء المثناة فوق وهاء فى الآخر) ، وهم بنو مزانته ، بن لوائه الأصغر ، ومنازلهم من البحيرة غرباً إلى العقبة الكبيرة ببرقة .

المقصد الثالث

(فى معرفة أنساب العجم)

وهم من عدا العرب من الفرس ، والتürk ، والرؤم ، وغيرهم . ويحتاج إلى ذلك فى المكاتبات إلى ملوكهم ، وعقد الهدن معهم ، ونحو ذلك .

والمشهور من الأمم العجمية ست وعشرون أمة :

الأولى — الترك (بضم التاء المثناة فوق وسكون الراء المهملة وكاف فى الآخر) ، وهم الأمة المشهورة الذين منهم ملوك الديار المصرية الآن ، وهم من بنى تُرك ، بن كومر بن يافث ، بن نوح عليه السلام ؛ وقيل من بنى طيراش ، بن يافث ، ونسبهم ابن سعيد إلى ترك ، بن عابر ، بن شمويل ، بن يافث . قال فى العبر : ويدخل فى جنس الترك القفجاق ، وهم الخفشاج ، والطغرغر ؛ وهم التتر . ويقال فيهم التتار بزيادة ألف ، والططر بإبدال التاء طاء ، والخطا ، والخزنجية والخزرب ؛ وهم الغز الذين كان منهم ملوك السلاجقة ، والهياطلة ، وهم الصغندر والغور والعلان ، ويقال : اللان ، والشركس ، والأركش ، والروس فكلهم من جيل الترك ونسبهم داخل فى نسبهم .

الثانية — الجرامقة (بفتح الجيم وكسر الميم وفتح القاف وهاء في الآخر)، وهم أهل الموصل في الزمن القديم . قال ابن سعيد: وهم من ولد جرْموق، بن أشور، بن سام، ابن نوح عليه السلام . وقال غيره : من ولد كاثر، بن إرم، بن سام .

الثالثة — الجليل (بكسر الجيم وسكون المشاة تحت ولام في الآخر) ، وهم أهل كيلان من بلاد الشرق . قال ابن سعيد : وهم من بنى باسل، بن أشور، بن سام، ابن نوح عليه السلام .

الرابعة — الخزر (بفتح الخاء والزاي المعجمتين وراء مهملة في الآخر) ، وهم التركمان . في الإسرائيليات أنهم من ولد توغربحاج، بن كومر، بن يافث، بن نوح؛ وقيل هم من بنى طيراش بن يافث؛ وقيل نوع من الترك .

الخامسة — الديلم (بفتح الدال المهملة وسكون الياء المشناة تحت وفتح اللام وميم في الآخر) ، وهم الذين كان منهم ملوك بني بويه الخارجين على خلفاء بني العبّاس ببغداد . قال في العبر : هم من بنى ماداي، بن يافث، بن نوح؛ وقال ابن سعيد : من بنى باسل، بن أشور، بن سام، بن نوح، وقيل هم من العرب وضعفه أبو عبيد .

السادسة — الروم وضبطهم معروف، وهم الأمة المعروفة الذين منهم ملوك القُسطنطينية الآن؛ قيل هم من بنى كيثم بن يونان، وهو يابان، بن يافث، بن نوح؛ وقيل من ولد رومي، بن يونان، بن علجان، بن يافث، بن نوح، وقيل من ولد رعويد ابن عيصو، بن إسحاق، بن إبراهيم عليه السلام . وقال الجوهري : من ولد رُوم، بن عيصو بن إسحاق .

السابعة — السريان (بضم السين وسكون الراء المهملتين وفتح الياء المشناة تحت

وألف ثم نون)، قال ابن الكلبي : من بنى سُورِيان، بن نبيط، بن ماش، بن آدم،
ابن سام، بن نوح .

الثامنة — السُّنْد (بكسر السين المهملة وسكون النون ودال مهملة في الآخر)،
في الإسرائيليات أنهم من ولد شبا، بن رعما، بن كوش، بن حام، بن نوح، وحكى
الطبرى عن ابن إسحاق : أنهم من بنى كوش بن حام .

التاسعة — السُّودان وضبطهم معروف . قال ابن سعيد : جميع أحيائهم من ولد
حام بن نوح ؛ ونقل الطبرى عن ابن إسحاق : أن الحبشة من ولد كوش بن حام
والنوبة، والزَّنج، والزَّغَاوة من ولد كنعان بن حام . وذكر ابن سعيد : أن الحبشة
من بنى حَبَش والنوبة من ولد نوبة أوبى نوبى، والزَّنج من بنى زنج، ولم يرفع
في نسبهم فيحتمل أنهم من بنى حام، وأنهم من بنى غيبه .

العاشرة — الصَّقَالِبَة (بفتح الصاد المهملة وفتح القاف وألف بعدها لامٌ مكسورة
وباء موحدة مفتوحة وهاء في الآخر)، وهم عند الإسرائيليين من بنى بازان بن يافث
ابن نوح، وقيل هم من بنى اشكاز، بن توغرما، بن كومر، بن يافث .

الحادية عشرة — الصِّين وضبطهم معروف، قيل هم من بنى صيني، بن ماغوغ
ابن يافث، بن نوح؛ وقيل من بنى طوبال بن يافث . وذكر "هرشيوش" مؤرخ
الروم أنهم من بنى ماغوغ بن يافث .

الثانية عشرة — العِبْرَانِيُّون (بكسر العين المهملة وسكون الباء الموحدة وفتح
الراء المهملة وألف بعدها نون مكسورة وياء مثناة تحتٌ مشددة مضمومة وواو
ساكنة ثم نون)، وهم الذين يتكلم اليهود بلسانهم إلى الآن . قال الطبرى : وهم من
ولد عابر، بن شالخ، بن أرخشد، بن سام، بن نوح .

الثالثة عشرة — الفُرس (بضم الفاء وسكون الراء المهملة وسين مهملة في الآخر) وهم الذين كان منهم ملوك الأَكاسرة . قال ابن إسحاق : هم من ولد فارس ، بن لاوذ ، ابن سام ، بن نوح . وقال ابن الكلبي : هم من ولد فارس ، بن طيراش ، بن أشور ، بن سام ، بن نوح ؛ وقيل من ولد طيراش ، بن همدان ، بن يافث ، بن نوح ؛ وقيل من بنى أميم ، بن لاوذ ، بن سام . ووقع للطبري : أنهم من ولد رعويل ، بن عيصو ، بن إسحاق ، ابن إبراهيم عليه السلام . قال في العبر : ولا آلتفات إلى هذا القول لأن مُلك الفُرس أقدم من ذلك .

الرابعة عشرة — الفرنج (بفتح الفاء والراء المهملة وسكون النون وجم في الآخر) قيل من ولد طوبال ، بن يافث ؛ وقيل من ولد غطرما ، بن كومر ، بن يافث .

الخامسة عشرة — القبط (بكسر القاف وسكون الباء الموحدة وطاء مهملة في الآخر) ، وهم الذين كان منهم أهل مصر في القديم . قال إبراهيم بن وصيف شاه : هم من بنى قبطيم ، بن قفط ، بن مصر ، بن بيصر ، بن حام ، بن نوح ؛ وعند الإسماعيليين أنهم من ولد قفط بن حام .

السادسة عشرة — القُوط (بضم القاف وسكون الواو وطاء مهملة في الآخر) ، وهم أهل الأندلس في القديم . قال "هرشيوش" هم من ولد ماغوغ ، بن يافث ، بن نوح ؛ وقيل هم من ولد قُوط ، بن حام ، بن نوح .

السابعة عشرة — الكُرد (بضم الكاف وسكون الراء المهملة ودال مهملة في الآخر) ، وهم الذين كان منهم بنو أيوب ملك مصر بعد الفاطميين . قال في العبر : هم من بنى إيران بن أشور ، بن سام ، بن نوح . قال المقتر الشهابي "ابن فضل الله في كتابه "التعريف" : ويقال في المسلمين الكُرد ، وفي الكفار الكرج ، وحينئذ فيكون الكُرد والكُرج نسبا واحدا .

الثامنة عشرة — الكَنْعَانِيُّونَ (بفتح الكاف وسكون النون وفتح العين المهملة
 وضم الياء المثناة تحتُ المشددة)، وهم الذين كان منهم جبابرة الشام من ولد كنعان
 ابن حام، بن نوح .

التاسعة عشرة — أَلَّانَ (بلام مفتوحة وميم بعدها ألف ونون)، وهم الذين كانوا
 قصدوا سواحل الشام في الدولة الأيوبيَّة ومواطنهم في شمالي البحر الرومي غربا
 بشمال . قال في العبر : وهم من ولد طوبال ، بن يافث ، بن نوح .

العشرون — النَّبَطُ (بفتح النون والباء الموحدة وطاء مهملة في الآخر)، وهم أهل
 بابل من العراق في الزمن القديم، وإليهم تنسب الفِلاحة النَّبَطِيَّة لِأَبْنِ وَحْشِيَّة . قال
 ابن الكلبي : هم من بني نبيط ، بن ماس ، بن إرم ، بن سام ، بن نوح . وقال ابن
 سعيد : هم من بني نبيط ، بن أشور ، بن سام ، بن نوح .

الحادية والعشرون — الهِنْدُ وضبطه معروف . في الإسرائيليات أنهم من ولد
 دادان ، بن رعماء ، بن كوش ، بن حام ، ونقل الطبري عن ابن إسحاق أنهم من بني
 كوش ، بن حام ، بن نوح من غير واسطة .

الثانية والعشرون — الأَرْمَنُ (بفتح الهمزة وسكون الراء المهملة وفتح الميم ونون
 في الآخر) وهم أهل إرْمِينِيَّة الذين بقاياهم ببلاد سيس ؛ قيل هم من ولد قهويل ، بن
 ناحور ، بن تارخ ، وهو آزر ، وتارخ أبو إبراهيم عليه السلام .

الثالثة والعشرون — الأَشْبَانُ (بفتح الهمزة وسكون الشين المعجمة وفتح الباء
 الموحدة وألف ثم نون) قيل هم من ولد ماشع ، بن يافث ، بن نوح . وعند الإسرائيليين
 من ولد ياوان وهو يونان بن يافث ، وعند آخرين أنهم من شعوب بني عيصو بن

إسحاق؛ وقال الطبرى: أشك أنهم من ولد رعويل بن عيصو بن إسحاق، وهو قريب من الذى قبله .

الرابعة والعشرون اليونان — وهم الأمة الذين كان منهم الحكماء شرقى الخليج القسطنطينى، وهم من ولد يونان، وهو ياوان، بن يافث، بن نوح . وقال البيهقى: هم من ولد يونان، بن خلعجان، بن يافث . وشذ الكندى فقال: يونان، بن عابر، بن شالخ، ابن أرفخشذ، بن سام بن نوح؛ بفعل يونان أخا لقحطان أبى عرب اليمن . وقال: إنه خرج من بلاد العرب مغاضبا لأخيه قحطان فنزل شرقى الخليج القسطنطينى؛ ورد عليه أبو العباس الناشئ بقوله:

تُحَلِّطُ يُونَانًا بَقَحْطَانَ ضَلَّةً * لَعَمْرِي لَقَدْ بَاعَدَتَ بَيْنَهُمَا جِدًّا

ثم اليونانية على ثلاثة أصناف اللطينيون، وهم بنو لطين بن يونان، والإغريقيون وهم بنو إغريق بن يونان، واللكيم، وهم بنو اللكيم بن يونان وهى أصل الروم فيما يقال على ما تقدم .

الخامسة والعشرون زويلة — (بضم الزاى وفتح الواو وسكون الياء المثناة تحت وفتح اللام وهاء فى الآخر) وهم أهل برقة فى القديم، ومنهم الطائفة الذين وصلوا صُحْبَةَ جَوْهَرِ الْمُعَزَّى بنى القاهرة المنسوب إليهم باب زويلة بالقاهرة، يقال إنهم من بنى حو بلا بن كوش بن حام بن نوح .

السادسة والعشرون يأجوج ومأجوج — وضبطهما معروف . قيل إنهم من ولد ماغوغ، بن يافث، بن نوح؛ وقيل من ولد كومر، بن يافث .

النوع الثالث عشر

(المعرفة بمفآخرات الأئم ومناقرآتهم ، وما جرى بينهم في ذلك من المحآورات
والمراجعات والمناقضات ؛ وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في بيان وجه آحتياج الكاتب إلى ذلك)

(١)
لأخفاء أنه يتعين على الكاتب معرفة المفآخرات الواقعة بينهم ، من معرفة وجوه
الآقتخار التي يمدح بمثلها : مما يُستعان بمثله على المدح والإطراء الواقع في الولايات
وما يُفضّل به كل واحد من البلغاء على خصمه ، وما يردّ عليه من الأجوبة المبطلّة
له لينسج على منوال ذلك فيما يرد عليه من المخاطبات ، والمكآبات عند دعاية
ضرورته إليه ، وآحتياجه إلى إيراده .

المقصد الثاني

(في ذكر أنموذج من المفآخرات ، والمناقرآت يُنسج على منواله)

فآما المفآخرات ، فمنها ما روى أنه لما وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفد
بني تميم سنة الوفود بعد فتح مكة ، فيهم عطارد بن حاجب ، بن زرارة ، بن عدس
التميمي ، وقيس بن عاصم ، وقيس بن الحارث ، ونعيم بن زيد ، وعتبة بن حصن
أبن حذيفة بن بدر ، والأقرع بن حابس ، في لفهم ولفيفهم ، ودخلوا المسجد
ونادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من وراء حجراته أن أخرج إلينا يا محمد ، فتأذى
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من صياحهم فخرج إليهم — فقالوا : يا محمد جئناك

(١) لعله والتمكن من معرفة الخ كما يفيد السيق .

لِنْفَاحِرِك . فَأَذِنَ لِشَاعِرِنَا وَخَطَبِنَا - قَالَ "قَدْ أَذِنْتُ لَخَطِيبِكُمْ فَلْيَقُلْ" فَقَامَ عَطَارِدُ بْنُ حَاجِبٍ فَقَالَ :

"الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهٗ عَلَيْنَا الْفَضْلُ ، وَهُوَ أَهْلُهُ ، الَّذِي جَعَلَنَا مُلُوكًا ، وَوَهَبَ لَنَا أَمْوَالًا عَظِيمًا نَفْعَلُ مِنْهَا الْمَعْرُوفَ ، وَجَعَلَنَا أَعَزَّ أَهْلِ الْمَشْرِقِ وَأَكْثَرَهُ عِدَدًا ، وَأَشَدَّهُ عُدَّةً ، فَمَنْ مِثْلُنَا فِي النَّاسِ ؟ أَلَسْنَا بِرُءُوسِ النَّاسِ وَأَوْلَىٰ فَتَمْلَهُمْ ؟ فَمَنْ فَآخِرُنَا فَيُعَدُّدُ مِثْلَ مَا عَدَدْنَا ، وَإِنَّا لَوْ نَشَاءُ لَا كَثُرْنَا الْكَلَامَ وَلَكِنَّا تَحِيَّيْنَا عَنِ الْإِنِّكَارِ ، وَأَقُولُ هَذَا لِأَنَّ تَأْتُوا بِمِثْلِ قَوْلِنَا ، وَأَمْرٍ أَفْضَلَ مِنْ أَمْرِنَا" ثُمَّ جَلَسَ

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لِثَابِتِ بْنِ قَيْسِ الْخَزْرَجِيِّ : "قُمْ فَأَجِيبِ الرَّجُلَ فِي خُطْبَتِهِ" فَقَامَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ فَقَالَ :

"الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ خَلَقَهُ ، قَضَىٰ فِيهِنَّ أَمْرَهُ ، وَوَسِعَ كُرْسِيُّهُ عِلْمَهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَطُّ إِلَّا مِنْ فِعْلِهِ ، ثُمَّ كَانَ مِنْ قُدْرَتِهِ أَنْ جَعَلَنَا مُلُوكًا وَأَصْطَفَىٰ مِنْ خَيْرِ خَلْقِهِ رَسُولًا ، أَكْرَمَهُ نَسَبًا ، وَأَصْدَقَهُ حَدِيثًا وَأَفْضَلَهُ حَسَبًا ، فَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ ، وَائْتَمَنَهُ عَلَىٰ خَلْقِهِ ، وَكَانَ خَيْرَةً مِنَ الْعَالَمِينَ ، ثُمَّ دَعَا النَّاسَ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ ، فَأَمَّنَ بِرَسُولِ اللَّهِ الْمُهَاجِرُونَ مِنْ قَوْمِهِ وَذَوِي رَيْبِهِ ، أَكْرَمُ النَّاسِ أَحْسَابًا ، وَأَحْسَنُهُمْ وَجُوهًا ، وَخَيْرُ النَّاسِ فِعَالًا ، ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ الْخَلْقِ إِجَابَةً ، وَأَسْتَجَابَ اللَّهُ حِينَ دَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَحْنُ ، فَتَحَنَّنَ أَنْصَارُ اللَّهِ ، وَوَزَّرَاءُ رَسُولِ اللَّهِ ، تُقَاتِلُ النَّاسَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ، فَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مُتَّعَ بِمَالِهِ وَدَمِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ جَاهَدْنَاهُ فِي اللَّهِ أَبَدًا ، وَكَانَ قِتْلُهُ عَلَيْنَا يَسِيرًا ، أَقُولُ هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَاللَّؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالسَّلَامَ عَلَيْكُمْ" .

فقام الزبرقان بن بدر التيمي فقال :

نَحْنُ الْكِرَامُ فَلَا حَى يُفَاخِرُنَا * مِنَّا الْمُلُوكُ وَفِينَا تُنْصَبُ الْبَيْعُ
وَكَمْ قَسَرْنَا مِنَ الْأَحْيَاءِ كُلِّهِمْ * عِنْدَ النَّهَابِ وَفَضْلُ الْعِزِّ يُتَّبَعُ
وَنَحْنُ نُطْعِمُ عِنْدَ الْقَحْطِ مُطْعَمَنَا * مِنْ الشَّوَاءِ إِذَا لَمْ يُنْسِ الْقَزْعُ

وهي أبيات .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لحسان بن ثابت "قم فأجب الرجل فيما

قال" فقال حسان رضى الله عنه :

إِنَّ الذَّوَابَّ مِنْ فِهْرٍ وَإِخْوَتِهِمْ * قَدْ بَيْنُوا سُنَّةَ لِلنَّاسِ تَاتِعُ
يَرْضَى بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ * تَقْوَى الْإِلَهِ وَكُلُّ الْخَيْرِ يُصْطَنَعُ
قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمْ * أَوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ فِي أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا
صَحِيحَةٌ تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحَدَّثَةٍ * إِنْ الْخَلَائِقُ فَاعْلَمْ شَرَّهَا الْبِدْعُ
إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ سَبَاقُونَ بَعْدَهُمْ * فَكُلُّ سَبْقٍ لَأَدْنَى سَبْقِهِمْ تَبِعُ
لَا يَرْفَعُ النَّاسُ مَا أَوْهَتْ أَكْفُهُمْ * عِنْدَ الدَّفَاعِ وَلَا يُوهُونَ مَا رَفَعُوا
أَكْرَمُ بِقَوْمٍ رَسُولُ اللَّهِ شَيْعَتُهُمْ * إِذَا تَفَاوَتَتِ الْأَهْوَاءُ وَالشَّيْعُ

وهي أبيات .

ويروى أن الزبرقان بن بدر قال :

أَتَيْنَاكَ كَيْمَا يَعْلَمُ النَّاسُ فَضْلَنَا * إِذَا اخْتَلَفُوا عِنْدَ أَحْتِضَارِ الْمَوَاسِمِ
فَإِنَّا فُرُوعُ النَّاسِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ * وَأَنْ لَيْسَ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ كِدَارِيمِ
وَإِنَّا بُدُورُ الْعَالَمِينَ إِذَا اتَّخَعُوا * وَنَضْرِبُ رَأْسِ الْأَصِيدِ الْمُتَفَاقِمِ
وَإِنَّا لَنَا الْمِرْبَاعُ فِي كُلِّ غَارَةٍ * نَغِيرُ بَنَجِيدٍ أَوْ بَارِضِ الْأَعَاجِمِ

(١) في سيرة ابن هشام . نذرد الملبين .

فقام حسان بن ثابت فأجابه فقال :

هَلِ الْمَجْدُ إِلَّا السُّودُّدُ الْعَوْدُ وَالنَّدَى * وَجَاهُ الْمُلُوكِ وَأَحْتِمَالُ الْعَظَائِمِ
نَصْرُنَا وَأَوَيْنَا النَّبِيَّ مُحَمَّدًا * عَلَى أَنْفِ رَاضٍ مِنْ مَعَدٍّ وَرَاغِمِ
نَصْرِنَاهُ لَمَّا حَلَّ وَسَطَ دِيَارِنَا * بِأَسْيَافِنَا مِنْ كُلِّ بَاغٍ وَظَالِمِ
جَعَلْنَا بَيْنَنَا دُونَهُ وَبَنَاتِنَا * وَطَبْنَا لَهُ نَفْسًا بِفِيءِ الْمَغَانِمِ
وَنَحْنُ ضَرَبْنَا النَّاسَ حَتَّى تَتَابَعُوا * عَلَى دِينِهِ بِالْمُرَهَفَاتِ الصَّوَارِمِ
وَنَحْنُ وَلَدْنَا مِنْ قُرَيْشٍ عَظِيمَاهَا * وَلَدْنَا نَبِيَّ الْخَيْرِ مِنْ آلِ هَاشِمِ
بَنِي دَارِمٍ لَا تَفْخَرُوا إِنْ فَخَرَكُمُ * يَعُودُ وَبَالًا عِنْدَ ذِكْرِ الْمَكَارِمِ
هَيْلَتُمْ عَلَيْنَا تَفْخَرُونَ وَأَنْتُمْ * لَنَا خَوْلٌ مِنْ بَيْنِ ظُئْرٍ وَخَادِمِ؟
فَإِنْ كُنْتُمْ جِئْتُمْ لِحَقِّنِ دِمَائِكُمْ * وَأَمْوَالِكُمْ أَنْ تَقْسَمُوا فِي الْمَقَاسِمِ
فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ نِدَاءً وَأَسْأَلُوا * وَلَا تَلْبَسُوا زِيَا كَرِيٍّ الْأَعَاجِمِ

فلما فرغ حسان من قوله ، قال الأقرع بن حابس : وأبي ! إن هذا الرجل مُراد ،
لخَطِيئِهِ أَخْطَبُ مِنْ خَطِيئِنَا ، وَلشَاعِرِهِ أَشْعَرُ مِنْ شَاعِرِنَا ، وَأَصْوَاتُهُ أَعْلَى مِنْ
أَصْوَاتِنَا ؛ فَاسْلَمُوا وَأَحْسِنُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، جَوَائِزَهُمْ .

ففي هذا الوفد نزل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ
وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قلت : وهذه مكابرة ظاهرة ، وتجاهل فاحش من بني تميم ، حيث طلبوا المفاخرة
مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلُّ العرب على اختلاف شعوبهم ، وتتابع قبائلهم
معتزفون لبني هاشم بالسبق في الشرف ، والتقدم في الفضل ، مع ما فضل الله تعالى به

رسوله صلى الله عليه وسلم، وخصه به من رفيع الشرف الذي لم يبلغه نبى مرسل، ولا ملك مقرب .

وقد تعرض أبو نؤاس في بعض أشعاره لمدح بنى تميم، وبالغ في نفرهم فأغش، فقال:

نُخْرِمَةُ خَيْرِ بَنِي خَازِمٍ * وَخَازِمٌ خَيْرُ بَنِي دَارِمٍ

وِدَارِمٌ خَيْرُ تَمِيمٍ وَمَا * مِثْلُ تَمِيمٍ فِي بَنِي آدَمِ

ونقضه عليه الشيخ فتح الدين بن سيد الناس اليعمرى، فقال رحمه الله فأجاد

القول، وفاز بالقدح المعلق فقال:

مُحَمَّدٌ خَيْرُ بَنِي هَاشِمٍ * فَمَنْ تَمِيمٌ وَبَنُو دَارِمٍ؟

وَهَاشِمٌ خَيْرُ قُرَيْشٍ وَمَا * مِثْلُ قُرَيْشٍ فِي بَنِي آدَمِ!

وهو مأخوذ من قول الأول:

قُرَيْشٌ خَيْرُ بَنِي آدَمِ * وَخَيْرُ قُرَيْشٍ بَنُو هَاشِمٍ

وَخَيْرُ بَنِي هَاشِمٍ أَحْمَدٌ * رَسُولُ الْإِلَهِ إِلَى الْعَالَمِ

وإليه ينظر قول ابن عرسية:

لِلَّهِ مِمَّا قَدْ بَرَأَ صَفْوَةٌ * وَصَفْوَةُ الْخَلْقِ بَنُو هَاشِمٍ

وَصَفْوَةُ الصَّفْوَةِ مِنْ بَيْنِهِمْ * مُحَمَّدُ النُّورِ أَبُو الْقَاسِمِ

ولقد أنصف إسحاق بن إبراهيم الموصلي حيث قال:

إِذَا مَضَرَ الْجُرَاءُ كَانَتْ أُرُومَتِي * وَقَامَ بِنَصْرِي خَازِمٌ وَأَبْنُ خَازِمِ

عَطَسْتُ بِأَنْفِ شَاخٍ وَتَنَاوَلَتْ * يَدَايَ الثُّرَيَّا قَاعِدًا غَيْرَ قَائِمِ

فإنه جعل مضر التي هي أرومة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أصل نخره وقعدده

سودده. فأصاب الفخر في قوله، وفاز بالشرف في شعره .

قال المولى صلاح الدين الصفدى رحمه الله في شرح لامية العجم " وإنما ذكر خازما لأنه مولى خزيمة بن خازم التميمى ، وإنما نزل أبوه الموصل فنسب إليها .
ومن لطيف ما يحكى أن معاوية بن أبي سفيان كان جالسا وعنده جماعة من الأشراف ، فقال معاوية " من أكرم الناس أبا وأُمَّ ، وجدًا وجدَّة ، وعمًّا وعمَّة ، وخالا وخالة ؟ " - فقام النعمان بن العجلان الزرقى بعد ما أخذ بيد الحسن فقال " هذا أبوه على بن أبي طالب ، وأمه فاطمة ، وجدّه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجدته خديجة ، وعمّه جعفر ، وعمته أم هانئ ابنة أبي طالب ، وخاله القاسم ، وخالته زينب ، فهذا هو الشرف الذى لا يدانى والفضل الذى لا يبارى " .

وقريب من ذلك ما يحكى أنه جرى بين عبد الله بن الزبير وبين معاوية كلام طويل فى آخره - " فقال ابن الزبير ، ما منلى يهارش ، ولكن عندك من قریش والأَنْصار ، ومن ساكنى الجون والآطام من إن سألته حملك على محجة أبن من ظهر الجفیر - قال : ومن ذلك - قال هذا ؟ يعنى أبا الجهم بن حذيفة - فقال معاوية تكلم يا أبا الجهم - فقال أعفى - فقال عزمت عليك لتقولن - قال : نعم : أمك هند ، وأمه أسماء بنت أبى بكر ، وأسماء خير من هند ، وأبوك أبو سفيان وأبوه الزبير ومعاذ الله أن يكون أبو سفيان مثل الزبير ، وأما الدنيا فلك ، وأما الآخرة فله إن شاء الله تعالى .

ومن ذلك ما حكاه ابن الكلبي . قال : قال كسرى للنعمان بن المنذر بوما هل فى العرب قبيلة تشرف على قبيلة ؟ قال نعم - قال فبأى شىء ؟ قال : من كانت له ثلاثة آباء متوالية رؤساء ، ثم اتصل ذلك بكال الرابع فاليث من قبيلته فيه ويُنسب إليه - قال فأطلب ذلك فطلبه فلم يصبه إلا فى آل حذيفة بن بدر ، وآل حاجب ابن زرارة ، وآل ذى الجدين ، وآل الأشعث بن قيس بن كندة - قال فجمع هؤلاء

الرهط ومن تبعهم من عشائرهم وأقعد لهم الحُكَّامَ والعُدول ، وقال ليتكلم كل رجل منكم بماثر قومه وليصدق ، فكان حذيفة بن بدر الفزاري أول متكلم ، وكان ألسن القوم ، فقال : قد علمت العرب أن فينا الشرف الأقدم والأعز الأعظم ، ومآثر للصنيع الأكرم — فقال من حوله ولم ذاك يا أخا فزارة ؟ فقال ألسنا الدعائم التي لا ترام ، والعز الذي لا يُضام ؟ قيل صدقت . ثم قام شاعرهم فقال :

فَزَارَةُ بِنْتُ الْعِزِّ وَالْعِزُّ فِيهِمْ ! * فَزَارَةُ قَيْسٍ حَسْبُ قَيْسٍ نِضَالُهَا
لَهَا الْعِزَّةُ الْقَعْسَاءُ وَالْحَسْبُ الَّذِي * بَنَاهُ لَقَيْسٍ فِي الْقَدِيمِ رِجَالُهَا
فَهَيْمَاتٍ قَدْ أَعْيَا الْقُرُونُ الَّتِي مَضَتْ * مَاثِرُ قَيْسٍ مَجْدُهَا وَفِعَالُهَا
وَهَلْ أَحَدٌ إِنْ هَزَّ يَوْمًا بِكَفِّهِ * إِلَى الشَّمْسِ فِي مَجْرَى النُّجُومِ يِنَالُهَا
إِنْ يَصْلِحُوا يَصْلِحْ لَذَلِكَ جَمِيعُهَا * وَإِنْ يَفْسُدُوا يَفْسُدْ مِنَ النَّاسِ حَالُهَا

ثم قام الأشعث الكندي ، وإنما أذن له أن يقوم قبل ربيعة وتميم لقرابته من النعمان بن المنذر ، فقال ، قد علمت العرب أنا تُقاتل عديدها الأكثر ، وزحفها الأكبر ، وإنا لغياث الكربات ومعدن المكرمات — قالوا ولم يا أخا كندة ؟ قال لأننا ورثنا ملك كندة فاستظللنا بأفيائه ، وتقلدنا منكبه الأعظم ، وتوسطنا مجبوحه الأكرم ، ثم قام شاعرهم ، فقال :

إِذَا قِسْتَ أَبِيَاتِ الرَّجَالِ بِنَيْتِنَا * وَجَدْتَ لَنَا فَضْلًا عَلَى مَنْ يُفَاخِرُ
فَمَنْ قَالَ كَلًّا أَوْ أَنَا نَابِحُطِيَّةٍ * يِنَا فِرْنَا فِيهَا فَنَحْنُ مُنْحَاطِرُ
تَعَالَوْا فِقُوا كَيْ يَعْلَمَ النَّاسُ أَيْبَا * لَهُ الْفَضْلُ فِيمَا أَوْرَثَهُ الْأَكْبَارُ

ثم قام بسطام الشيباني فقال " قد علمت العرب أنا بُناة بيتها الذي لا يزول ، ومغرس عزها الذي لا يحول ، قالوا ولم يا أخا شيبان — قال لأننا أدركهم للثار ، وأضربهم لللك الجبار ، وأقومهم للحكم ، وألدِّهم للنخم . ثم قام شاعرهم فقال :

لَعَمْرِي بِسْطَامٍ أَحَقُّ بِقَضَائِهَا * وَأَوَّلُ بَيْتِ الْعِزِّ عِزُّ الْقَبَائِلِ
 فَسَائِلُ (أَبَيْتَ اللَّعْنِ) عَنْ عِزِّ قَوْمِهَا * إِذَا جَدَّ يَوْمَ الْفَخْرِ كُلُّ مَنْ قَلِ
 أَلْسِنَا أَعَزَّ النَّاسَ قَوْمًا وَنُصْرَةً * وَأَضْرَبَهُمُ لِلْكَبْشِ بَيْنَ الْقَبَائِلِ
 وَقَائِعُ عِزِّ كُلِّهَا رَبِيعَةٌ * تَذُلُّ لَهَا عِزًّا رِقَابُ الْحَافِلِ
 إِذَا ذُكِرَتْ لَمْ يُنْكِرِ النَّاسُ فَضْلَهَا * وَعَادَ بِهَا مِنْ شَرِّهَا كُلُّ وَائِلِ
 وَإِنَّا مُلُوكُ النَّاسِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ * إِذَا نَزَلَتْ بِالنَّاسِ إِحْدَى الزَّلَازِلِ

ثم قام حاجب بن زرارة التيمي . فقال : قد علمت معداً أنا فروع دعامتيا ، وقادة
 زحفها — قالوا : ولم ذاك يا أخا بني تميم ؟ قال لأنا أكثر الناس عديدا ، وأنجبهم طراً
 وليدا ، وأنا أعطاهم بلجزيل ، وأحملهم للثقل ؛ ثم قام شاعرهم فقال :

لَقَدْ عَلِمْتَ أَنْبَاءَ خِنْدِفِ أَنْنَا * لَنَا الْعِزُّ قَدِّمًا فِي الْخُطُوبِ الْأَوَائِلِ
 وَأَنَا كِرَامُ أَهْلِ مَجْدٍ وَثَرْوَةٍ * وَعِزٌّ قَدِيمٌ لَيْسَ بِالْمُتَضَائِلِ
 فَكَمْ فِيهِمْ مِنْ سَيِّدٍ وَأَبْنِ سَيِّدٍ * أَعْرَجٌ نَجِيبٌ ذِي فَعَالٍ وَنَائِلِ
 فَسَائِلِ (أَبَيْتَ اللَّعْنِ) عَنَّا فَإِنَّا * دَعَائِمُ هَذَا النَّاسِ عِنْدَ الْجَلَائِلِ

ثم قام قيس بن عاصم السعدي فقال : لقد علم هؤلاء أنا أرفعهم في المنكومات
 دعائم ، وأثبتهم في النابثات مقادم ؛ قالوا : ولم ذاك يا أخا بني سعد ؟ قال لأنا
 أدركهم للثار ، وأمنعهم للجار ؛ وأنا لا نتكفل إذا حملنا ، ولا نُرَامُ إذا حملنا . ثم قام
 شاعرهم فقال :

لَقَدْ عَلِمْتَ قَيْسٌ وَخِنْدِفُ أَنْنَا * وَجُلُّ تَمِيمٍ وَالْجَمِيعِ الَّذِي تَرَى
 بَأَنَّا عِمَادٌ فِي الْأُمُورِ وَأَنْنَا * لَنَا الشَّرْفُ الصَّخْمُ الْمَرْكَبُ فِي النَّدَى
 وَأَنَا لِيُوثُ النَّاسِ فِي كُلِّ مَازِقٍ * إِذَا جُرَّ بِالْبَيْضِ الْجَمَاحِمُ وَالطُّلَى^(١)

(١) الطلى بالضم جمع طلبة وهي الأعناق .

فَمَنْ ذَا لِيَوْمِ الْفَخْرِ يَعْمَلُ عَاصِمًا * وَقَيْسًا إِذَا مَرَّتْ أُلُوفٌ إِلَى الْعَلَا
فَهِيَهَاتَ قَدْ أَعْيَا الْجَمِيعَ فِعَالَهُمْ * وقاموا بيوم الفخر مسعاة من سعى

فقال كسرى حينئذ : ليس منهم إلا سيد يصلح لموضعه ، وأسنى جباةهم ،
وأعظم صلاتهم ، وكرم ما بهم .

قال أبو عبيدة : كانت العرب تعدُّ البيوتات المشهورة بعظم القدر والشرف :
تعدُّ بيت هاشم بن عبد مناف ، وتعدُّ أربعة ، أولها بيت آل حديفة بن بدر ، وبيت
آل زُرارة الدارميين : بيت بنى تميم ، وبيت آل ذى الجديين : عبد الله بن عمرو بن
الحارث بن هشام : بيت بنى شيبان ، وبيت بنى الديان من بنى الحارث بن كعب
بيت اليمن . قال : فأما كندة فلا يعدُّون في البيوتات إنما كانوا ملوكا .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمَفَاخِرَةَ قَدْ تَكُونُ بِحَقِيقَةِ الْحَسَبِ . وقد تكون فيها الفصاحة واللسن

مقام الحسب : كقول أبي تمام الطائي يفتخر :

أَنَا ابْنُ الَّذِينَ اسْتَرَضِعَ الْمَجْدُ فِيهِمْ * وَسُمِّيَ فِيهِمْ وَهُوَ كَهْلٌ وَيَاغِعُ
مَضَوْا وَكَانَ الْمَكْرَمَاتِ لَدِيهِمْ * لَكثْرَةِ مَا وَصَّوْا بِهِنَّ شَرَائِعُ
فَأَى يَدٍ فِي الْمَجْدِ مَدَّتْ فَلَمْ يَكُنْ * لَهَا رَاحَةٌ مِنْ مَجْدِهِمْ وَأَصَابِعُ
هُمْ اسْتَوْدَعُوا الْمَعْرُوفَ مَحْفُوظَةً النَّأ * فِضَاعَ وَمَا ضَاعَتْ لَدِينَا الْوَدَائِعُ

وقوله أيضا :

جَرَى حَاتِمٌ فِي حَلْبَةٍ مِنْهُ لَوْ جَرَى * بِهَا الْقَطْرُ شَاوًا قِيلَ أَيُّهَا الْقَطْرُ؟
فَتَى ذَحْرَ الدُّنْيَا أَنَا سٌ وَلَمْ يَزَلْ * لَهَا بَازِلًا فَانظُرْ لِمَنْ بَقِيَ الذُّخْرُ
فَمَنْ شَاءَ فَلْيَفْخَرْ بِمَا شَاءَ مِنْ نَدَى * فَلَيْسَ لِحَى غَيْرِنَا ذَلِكَ الْفَخْرُ
جَمَعْنَا الْعَلَا بِالْجُودِ بَعْدَ اقْتِرَاقِهَا * إِلَيْنَا كَمَا الْإِيَّامُ يَجْمَعُهَا الشَّمْرُ

قال في شرح اللامية : وعند أكثر الناس أن أبا تمام كان أبوه نصرانيا يقال له تدرس العطار، من جاسم : قرية من قري حوران من الشام، فغير أسم أبيه وأنس في بني طيء؛ وذكر صاحب الأغاني أن رجلا قال لجرير: من أشعر الناس؟ قال : قم حتى أعرفك الجواب، فأخذ بيده وجاء به إلى أبيه عطية، وقد أخذ عتراً له فاعتقلها وجعل يَمْصُ صَرَعَهَا، فصاح به أَخْرُجْ يا أبت، فخرج شيخ دميم، رث الهيئة . وقد سال ابن العزعلي لحيته، فقال ترى هذا؟ قال نعم . قال أو تعرفه قال لا . قال هذا أبي، أو تدري لم كان يشرب من ضرع العنز؟ قال لا، قال مخافة أن يسمع صوت الحباب فيطاب منه؛ ثم قال أشعر الناس من فاجر بهذا الأب ثمانين شاعرا وقارعهم فغلبهم .

قال الصلاح الصفدي : ما هذه إلا وقاحة عظيمة من جرير في مفاخرته أولئك الشعراء وهذا أبوه، لكنه تغفر له هذه الوقاحة بأعترافه لذلك الرجل، وإظهاره بخل أبيه . وربما كان الافتخار بالتورية والتعريض بالأمور المقتضية للشرف، بحيث يظن السامع حقيقة الافتخار والشرف بمجرد السماع، فإذا عرف المقصد تبين له خلاف ذلك، كقول أبي الحسن الجزار :

أَلَا قُلْ لِلَّذِي يَسَأُ * لُ عَنْ قَوْمِي وَعَنْ أَهْلِي
لَقَدْ تَسَأَلُ عَنْ قَوْمٍ * كِرَامِ الْفَرْعِ وَالْأَصْلِي
يُرِيْقُونَ دَمَ الْأَنْعَا * مِ فِي حَزْنٍ وَفِي سَهْلِي
وَمَا زَالُوا لَمَّا يَبْدُو * نَ مِنْ بَائِسٍ وَمِنْ بَدْلِي
يَرْجِيهِمْ بَنُو كَلْبٍ * وَيَحْشَاهُمْ بَنُو عَجَلِي

وقوله أيضا :

إِنِّي لَمِنَ مَعْشِرِ سَفْكَ الدَّمَاءِ لَهُمْ * دَابٌّ، وَسَلَّ عَنْهُمْ مِنْ رَبِّ تَحْقِيقِ

تُضَىٰ بِاللِّدْمِ إِشْرَاقًا قَوَاضِيَهُمْ * فَكُلُّ أَيَّامِهِمْ أَيَّامٌ تُشْرِيقِي

وعلى هذا المنهج ما حكاه بعضهم ، قال : وجدت على قبر مكتوبا أنا ابن من كانت الريح طوع أمره ، يجبسها إذا شاء ، ويطلقها إذا شاء ، قال فعظم في عيني ؛ ثم ألقت إلى قبر آخر قبلته فإذا عليه مكتوب : لا يعتر أحد بقوله ، فما كان أبوه إلا بعض الحدادين ، يجبس الريح في كيره إذا شاء ، ويرسلها إذا شاء ، قال : فعجبت منهما يتسابقان ميتين ، فإذا طرق السمع شيء من ذلك ظن السامع أنه في غاية الفخر والشرف حتى يعلم حقيقته ؛ وأشبه ذلك ونظائره كثيرة ، وليس هذا موضع استيعاب القول في المفارقة الحقيقية ولا غيرها .

وأما أيام المنافرة وهي المحاكمة في الحسب ، فن ذلك ما يحكى أن الأعشى أتى عاقمة ، بن علاثة ، بن عوف ، بن الأحوص ، بن جعفر ، بن كلاب ، وهو يريد سلامة ذوفائش الحميري من التبابعة ، فسأل الأعشى عاقمة أن يتليه أى يجيره ، فقال له عاقمة : أتليك على بنى الأحوص — قال لا يقنعني — قال : فعلى بنى كلاب قال لا يقنعني — قال : فليس عندي أكثر من هذا ؛ فأتى عامر بن الطفيل بن مالك ابن جعفر بن كلاب ، قال قد أتليك على الجن والإنس ، ثم أتى سلامة فأنصرف من عنده بمجائه .

وكان عامر وعاقمة المذكوران لما أسن أبو براء وهو عامر بن مالك ، بن جعفر ، ابن ملاعب الأسيئة تنازعا في الرياسة .

فقال عاقمة كانت لجدى الأحوص وإنما صارت لعمك بسببه وقد قعد عمك عنها وأنا أسترجعها فانا أولى بها منك ، فشرى الشر بينهما وسارا إلى المنافرة ،

(١) وقع في الأصل وأقالفس وهو تصحيف من الناسخ .

وقدم الأعشى^(١) على تفيئة ذلك فصار هو وليد مع عامر، وصار مع علقمة الحطيئة،
والسندي، وتافرا .

فقال عامر لعلقمة : والله إني لأكرم منك حسبا ، وأثبت منك نسبا ، وأطول
منك قسبا .

فقال علقمة : والله لأنا خير منك ليلا ونهارا .

فقال عامر : والله لأنا أحب إلى نساءك أن أصبح فيهن منك .

فقال علقمة : أنا فرك إني لبر، وإنك لفاجر، وإني لولود، وإنك لعاقرب، وإني
لعف، وإنك لعاهر؛ وإني لوايف، وإنك لغادر .

فقال عامر : أنت رجل ولود وأنا رجل عقيم وقد وقيت لبني عمرو بن تميم .

وقد زعموا أني غدرت بهم وهم كاذبون؛ ولكني أنا فرك : أنا أنحر منك للقاح،
وخير منك في الصباح، وأطعم منك في السنة الشباح^(٢) .

فقال علقمة : أنت رجل تقاتل والناس تزعم أني جبان ، ولأن تلقى العدو وأنا
أمامك أعز لك من أن تلقاهم وأنا خلفك ؛ وأنت رجل جواد والناس يزعمون أني
بخيل ولست كذلك ، وأنت تعطى العشيرة إذا ألمت ؛ ولكني أنا فرك : أنا خير
منك أثرا، وأحد منك بصرا، وأشرف منك ذكرا .

فقال عامر : أنت رجل فان ، وليس لبني الأحوص فضل على بني مالك
في العدد ، وبصرى ناقص وبصرى صحيح ؛ ولكني أنا فرك أني أسمى منك سمة ،
وأطول منك قسه ، وأحسن منك لمه ، وأجعد منك جمه ، وأسرع منك رحمه ،
وأبعد منك هممه .

(١) أي على أثره أنظر القاموس في مادة ف ي أ . (٢) الشباح بالكسر القمحط .

فقال علقمة : أنت رجل جسيم وأنا رجل قَضيف ، وأنت جميل وأنا قبيح ؛
ولكني أنا فرك بآبائي وأعمامي .

فقال عامر : آباؤك أعمامى ، ولم أكن لأنافرك فيهم ؛ ولكني أنا فرك : أنا خير
منك عَقِبا ، وأطعمُ منك جَدِّبا .

فقال علقمة : قد علمتُ أن لك عَقِبا وقد أطعمت طيبا ؛ ولكني أنا فرك أنى
خير منك وأولى بالخير منك .

فقال عامر : إني والله لأركبُ منك فى الحُمَاه ، وأقتلُ منك للدكاه ، وخير منك
للوالاه .

فقال بعض بنى خالد بن جعفر ، وكانوا يدا مع بنى الأحوص على بنى مالك بن
جعفر : إنك ابن تطيق عامرا ، ولكن قل له أنا فرك لخيرنا ، وأقربنا للخيرات .
فقال علقمة : له ذلك .

فقال عامر : غير وتيس وتيس وعتر فأرسلها مثلا نعم على مائة من الإبل إلى مائة^(١)
يعطاها الحكم أينا ينفر عليه صاحبه أخرجها ففعلوا ، ووضعوا بها رهنا من أبنائهم على
يدى رجل يقال له خزيمة بن عمرو بن الوحيد فسمى الضمين ، وصارت علما عليه
إلى الآن ، ونخرج علقمة ومن معه من بنى خالد و عامر فيمن معه من بنى مالك وقد
أتى عامر بن الطفيل عمه عامر بن مالك بن جعفر وهو أبو برآء ، فقال : يا عماه
أعنى — فقال : يا ابن أختى سبنى ، فقال : لا أسبُك وأنت عمى — قال : فسبَّ الأحوص —
فقال : عامر ولا أسبُ والله الأحوص وهو عمى ، فقال : ولكن دونك بعلى فإنى قد^(٢)
رَبعت فيها أربعين مِرْباعا فاستعِن بها على منافرتك ، وجعلنا منافرتهما إلى أبى سفیان

(١) هكذا فى الأغاني .

(٢) لعله إبلى .

أبن حرب بن أمية فلم يقل بينهما شيئا، وكره ذلك لخالهما وحال عشيرتهما، وقال لها
أنتما كركبتي البعير الأدرم، وأبى أن يقضى بينهما، فأطلقا إلى أبي جهل بن هشام،
فأبى أن يقضى بينهما؛ فوثب مروان بن سُرَاقَة، بن قتادة، بن عمرو، بن الأحوص
وكان مع علقمة فقال :

يَا قُرَيْشَ بَيْنُوا الْكَلَامَا * إِنَّا رَضِينَا مِنْكُمْ الْأَحْكَامَا
فَبَيْنُوا إِذْ كُنْتُمْ الْحُكَمَا * كَانِ أَبُوْنَا لَهُمْ إِمَامَا
وَعَبْدُ عَمْرٍو مَعَ النَّسَامَا * فِي يَوْمِ نَخَرِ مُعَلَمِ إِعْلَامَا
يُحْسِنُ فِيهِ السَّرَّ وَالْإِقْدَامَا * وَدِعْلَجُ أَقْدَمُهُ إِقْدَامَا
لَوْلَا الَّذِي أَجْشَمْتُمْ إِجْشَامَا * لَأَتَّخَذْتُمْ مَدَجَّ أَنْعَامَا

فأبوا أن يقولوا بينهما شيئا، فأتيا غيلان بن سلمة بن معتب الثقفي فردهما إلى
حرملة بن الأشعر المزني، فردهما إلى هريم بن قُطَبة بن سنان الفراري، وإنهما ساقا
الإبل معهما حتى أشتت وأربع لا يأتیان أحدا إلا هاب أن يقضى بينهما،
فوعدهما هريم إلى العام القابل، فأتيا للوعد، وقال لييد وكان مع عامر يومئذ يرتجز :

يَا هَرِيمُ، وَأَنْتَ أَهْلُ عَدْلِ * هَلْ يَذْهَبَنَّ فَضْلُهُمْ لِفَضْلِي^(١)
إِنْ يَفْخَرِ الْأَحْوَصُ يَوْمَ قَبْلِ * لِيَذْهَبَنَّ أَهْلُهُ بِأَهْلِي
لَا تَجْمَعَنَّ شَكْلَهُمْ وَشَكْلِي * وَتَسْلَ آبَائَهُمْ وَتَسْلِي
* قَدْ عَلِمُوا أَنَا كَرَامُ الْأَصْلِ *

وقال أيضا :

إِنِّي أَمْرٌ مِنْ مَالِكِ بْنِ جَعْفَرٍ * عَلِمَ قَدْ نَافَرْتَ غَيْرَ مُنْقَرِ
* نَافَرْتَ سَقْبَا مِنْ سَقَابِ الْعَرَعْرِ *

(١) لعله بفضل البلاء .

فقال خُفافة بنُ عوف بن الأحوص بن جعفر :

تَهْنِهْ إِلَيْكَ الشَّعْرَ يَا أَيْبُدُ * وَأَصْدُدُ فَقَدْ يَنْفَعُكَ الصَّدُودُ
سَادَ أَبُوْنَا قَبْلَ أَنْ تَسُودُوا * سُودِدْكُمْ صَغِيرُهُ زَهِيدُ

ثم قال :

إِنِّي إِذَا مَا نُسِيَ الْحَيَاءُ * وَضَاعَ يَوْمَ الْمَشْهَدِ اللُّوَاءُ
أُنْمِي وَقَدْ حَقَّ لِي النَّهَاءُ * إِلَى كُھُولِ ذِكْرهَا سَنَاءُ
إِذَا لَا تَرَالِ حُلُوةَ كَوْمَاءُ * مَبْقُورَةٌ لَسَقِبَهَا رُغَاءُ
لَمْ يَنْهَنَا عَنْ نَحْرِهَا الصَّفَاءُ * لَنَا عَلَيْكُمْ سُورَةٌ وِلَاءُ
* الْمَجْدُ، وَالسُّودُدُ، وَالْعَطَاءُ *

ثم قال :

أَنْتُمْ عَزَلْتُمْ عَامِرَ بْنَ مَالِكٍ * فِي سَنَوَاتِ مُضَرِّ الْهَوَالِكِ
* يَا شَرَّ أَحْيَاءٍ وَشَرِّهَا لِكِ *

وكان السندريّ مع علقمة فارتفع صوته، فقبل من ذا؟ فقال :

أَنَا لِمَنْ أَنْكَرَ صَوْتِي السَّنْدَرِيّ * أَنَا الْفَتَى الْجَعْدُ الطُّوَالُ الْجَعْفَرِيّ
* مِنْ وِلْدِ الْأَحْوَصِ أَخْوَالِي غَنِيّ *

فقال عامر للبيد : أجبه ! فرغب عن إجابته، وكان السندريّ يقول لجدته
عيساء، وكانت أمةً لفاخسة ابنة جعفر بن كلاب، امرأة شريح بن الأحوص،
فوقع عليها شريح فولدت له زبّان، ويزيد، وشهابا، فقال لبيد :

لَمَّا دَعَانِي عَامِرٌ لِأَسْبَهُمْ * أَيْبْتُ وَإِنْ كَانَ ابْنُ عَيْسَاءَ ظَالِمًا
أَلَا أَيْنَا مَا كَانَ شَرًّا لِمَالِكِ * فَلَا زَالَ يَلْقَى فِي الْحَيَاةِ الْمَلَاوِمَا

لِيَكْلَا يَكُونَ السَّنْدَرِيُّ نَدِيدَنَا ^(١) * وَأَشْتَمُ أَعْمَامًا عُمُومًا عَمَاعِمَا
وَأَنْشُرَ مِنْ تَحْتِ الْقُبُورِ أَبْوَةً * كَرَامًا هُمْ شَدُّوا عَلَى النَّتَائِمَا
لَعِبْتُ عَلَى أَكْثَافِهِمْ وَجُجُورِهِمْ * وَلِيدًا وَسَمُونِي وَلِيدًا وَعَاصِمَا
بَلَى أَيْنَا مَا كَانَ شَرًّا لِمَالِكٍ * فَلَا زَالَ فِي الدُّنْيَا مَلُومًا وَلَا مِيمَا

ووثب الحطيئة فقال :

مَا يُحْسِنُ الْحُكَّامُ بِالْفَضْلِ بَعْدَمَا * بَدَأَ سَابِقُ ذُو عُرَّةٍ وَجُجُولٍ ؟

حتى أتى على قصيدة كاملة ، ثم قال :

يَا عَامٍ قَدْ كُنْتَ ذَا بَاعٍ وَمَكْرَمَةٍ * لَوْ أَنَّ مَسْعَاةَ مَنْ جَارَيْتَهُ أُمَّ

وأقام القوم على ذلك أياماً ، فأرسل هريم إلى عامر فأناه سراً لا يعلم به أحد ، فقال : يا عامر كنت أحسب أن لك رأياً ، وأن فيك خيراً ، وما حبستك هذه الأيام إلا لتنصرف عن صاحبك ، أنتما فر رجلا لا تفخر أنت ولا قومك إلا بأبائه ، فما الذى أنت به خير منه؟ فقال عامر : أنشدك الله والرحم أن لا تفضل على علقمة ، فوالله لئن فعلت لا أفليح بعدها أبدا ! هذه ناصيتي لك فأجززها وأحتمك فى مالى ، فإن كنت لا بد فاعلا فسوّ بينى وبينه — فقال أنصرف فسوف أرى رأيي : فخرج عامر وهو لا يشك أنه سيفضله عليه ، ثم أرسل إلى علقمة سرا ، وقال له مثل ما قال لعامر ، فردّ عليه علقمة بما ردّ به عامر وأنصرف وهو لا يشك أنه ينفر عامرا عليه ، ثم إن هريما أرسل إلى أخيه وبنى أخيه : إني قائل غدا بين هذين الرجلين مقالة ، فإذا فرغت فيلترد بعضكم عشر جزائر فلينحرها عن علقمة ، ويلترد بعضكم مثلها فلينحرها عن عامر ، وفرقوا بين الناس أن لا يكون لهم جماعة . وأصبح

(١) فى اللسان ندينى وأجعل — أى ندى . وعماعما أى متفرقة .

هرم بجلس مجلسه وأقبل الناس ، وأقبل علقمة وعامر حتى جلسا ، فقال لبيد :

يا هَرِمُ ابْنَ الأَكْرَمِينَ مَنْصِبًا * إِنَّكَ قَدْ وَلَيْتَ أَمْرًا مُعْجَبًا
فَأَحْكَمْ وَصَوَّبَ رَأْيَ مَنْ نَصُوبًا * إِنَّ الَّذِي كُنْتَ عَلَيْهِ تُرْتَبًا
لَحَايِرُنَا خَالًا وَأَمًّا وَأَبَا * وَعَامِرٌ خَيْرُهُمَا مُرَكَّبًا
* وَعَامِرٌ أذْنِي لِقَيْسٍ نَسْبًا *

فقال هرم : إنكما يا بني جعفر قد تحاكمتما عندي وأنتما كركبتي البعير الفحل تقعان الأرض معا ، فليس منكما واحد إلا وفيه ماليس في صاحبه ، وكلاكما سيد كريم ، فعمد بنو هرم وبنو أخيه إلى تلك الجزر فنحروها حيث أمرهم هرم ، وفرقوا بين الناس ، ولم يفضل هرم واحدا منهما على صاحبه ، وكره أن يجلب بذلك شرا على الفئتين ، وهما أبنا عم ، فلما رأى ذلك الأعشى ، خرج وهو يقول :

شَاقَكَ مِنْ قَتَلَةِ أَطْلَاهَا * بِالشَّطِّ فَالْوَثْرِ إِلَى حَاجِرِ
وَقَدَّرَاهَا وَسَطَ أَتْرَابِهَا * فِي الْحَيِّ ذِي الْبَهْجَةِ وَالنَّامِرِ
إِذْ هِيَ مِنْهُلُ الْغُضَنِ هَيْالَةً * تَرُوقُ عَيْنِي ذِي الْحِجَا الزَائِرِ
كَكَدْمِيَّةٍ صَوَّرَ مَحْرَابُهَا * بِمُذَهَبٍ فِي مَرْمَرٍ مَائِرِ
تَشْفِي غَلِيلَ النَّفْسِ لِأَهْلِهَا * حَوْرَاءُ تَسْبِي نَظَرَ النَّاطِرِ
عَهْدِي بِهَا فِي الْحَيِّ قَدْ سُرِبْتَ * هَيْفَاءُ مِثْلُ الْمُهْرَةِ الضَّمَامِرِ
مَمْشُوقَةَ الْقَدِّ غَلَامِيَّةً * مَوْصُوفَةً بِالْخَلْقِ الطَّاهِرِ
قَدْ نَهَدَ الثَّدْيُ عَلَى نَحْرِهَا * فِي مُشْرِقِ ذِي صُبْحِ نَائِرِ
لَوْ أَسْنَدْتَ مَيْتًا إِلَى نَحْرِهَا * عَاشَ وَلَمْ يُقْبَلْ إِلَى قَابِرِ
حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ مِمَّا رَأَوْا * يَا عَجَبًا لِمَيْتِ النَّاشِرِ
عَلَقَمَ مَا أَنْتَ إِلَى عَامِرٍ * النَّاقِضِ الأَوْتَارِ وَالْوَاتِرِ

والفارس الخيل يجيل إذا * نار غبار الكعبة الشائر
 سدت بني الأحوص لم تعدهم * وعامر ساد بني عامر
 إن الذي فيه تماريتما * بين للسامع والناطر
 حكتموه ففضى بينكم * أبلج مثل القمر الزاهر
 لا يأخذ الرشوة في حكمه * ولا يبالي غبن الخاسر
 فأعجب الدهر متى سويا؟ * لم ضاحك من ذا ومن ساحر؟
 فأقن حياء أنت ضيعته * مالك بعد الشيب من عاذر
 ولست بالأكثر منهم حصي * وإنما العزة للكائر
 أقول لما جاءني فخره * سبجان من علقمة القاهر!
 علقم لا تسفه ولا تجعلن * عرضك للوارد والصادر
 قد قلت قولاً ففضى بينكم * وأعترف المنفور للنافر

وعاش هريم حتى أدرك خلافة عمر رضى الله عنه ، فقال : يا هريم أى الرجلين كنت مفضلاً لو فعلت ؟ فقال : أو قلت ذلك اليوم يا أمير المؤمنين ، عادت جدعة ، وبلغت شعقات هجر — فقال عمر رضى الله عنه : ” نعم مستودع السر أنت يا هريم ! مثلك فليستودع العشيرة أسرارهم ، وإلى مثلك فليستبضع القوم أحكامهم “ .

قال أبو عبيدة : ومات علقمة بجوران وهو والى عمر بن الخطاب . وأما عامر ابن الطفيل فأصابته دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأصابته العدة ومات في بيت سلوية ، فقال : أغدة كغدة البعير وموت في بيت سلوية ؟

وفى هذه القصة مقنع فى المنافرة عن غيرها ، وفى كتاب ” الريحان والريعان “

لبعض الأندلسيين جملة من هذه المفاخرات والمنافرات :

النوع الثالث عشر

(المعرفة بأيام الحروب الواقعة ؛ وفيه ثلاثة مقاصد)

المقصد الأول

(في وجه احتياج الكاتب إلى ذلك)

قد ذكر في "حسن التوسل" : أن الكاتب يحتاج إلى معرفة أيام العرب ، وتسمية الأيام التي كانت بينهم ، ومعرفة يوم كل قبيلة على الأخرى ، وما جرى بينهم من الأشعار ، والمناقضات ؛ وذكروا فارس مشهور ، أو ملك مذكور ، أو واقعة معينة لشخص خاص ؛ وما أدعاه كل منهم لنفسه أو ليومه : لما في ذلك من العلم بما يستشهد به من واقعة قديمة ، أو يرد عليه في مكاتبة من ذكر يوم مشهور ، أو فارس معين ، ونحو ذلك مما مضى عليه أمر الجاهلية ، أو حدث في الإسلام ؛ فإن الكاتب إذا لم يكن عارفا بالوقائع ، علما بما جرى منها ، لم يدرك كيف يجب عما يرد عليه من مثلها ، ولا ما يقول إذا سئل عنها .

المقصد الثاني

(في ذكر أيام من ذلك تُرشد إلى معرفة المقصد منه)

ومن أشهرها ذكرا ، وأعظمها حربا . يوم خُراز (خُراز أسم جبل بين البصرة ومكة كانت الواقعة عنده فعرفت به) ؛ وكانت الحرب فيه بين بني ربيعة الفرس ، وهو ربيعة نزار ، وبين قبائل اليمن ؛ وكانت الغلبة فيه لبني ربيعة ، فقتلوا من قبائل اليمن خلقا كثيرا ، وكان قائد ربيعة كليب بن ربيعة ملك بني وائل (وأسمه وائل وكليب لقب عليه) وهو من ربيعة الفرس ؛ وكان قد ملك علي بن معد وقبائل

جموع العرب وهزمهم وعظم شأنه ، وبقى زمانا من الدهر ؛ ثم داخله زهو شديد ، وبغى على قومه فصار يحمي عليهم مواقع السحاب ، ولا يرعى حياه ، ويقول : وحش أرض كذا في جوارى ، فلا يُصاد ؛ ولا ترد إبل مع إبله ؛ ولا تُوقد نار مع ناره ؛ وبقى كذلك حتى قتله جَسَّاس بن مُرَّة الوائلي أيضا ؛ ولما قُتل كَلِيب توالى الحروب بسبب قتله بين بنى تغلب ، وبين بكر أبى وائل ؛ وكان قائد بنى تغلب مهلهل أخو كليب ، وقائد بنى بكر مُرَّة أبو جَسَّاس المقدم ذكره ؛ فكان بينهم يوم عُنيزة ، وتكافأ فيه الفريقان ، ثم كان بينهم يوم واردة ، وانتصر فيه بنو تغلب على بكر ؛ ثم كان بينهم يوم الحنو ، وانتصرت فيه بكر على تغلب ، ثم كان بينهم يوم العصيات ، وانتصرت فيه تغلب على بكر ، وأصيب بنو بكر حتى ظنوا أنهم قد بادوا ؛ ثم كان بينهم يوم قِصَّة ، وهو يوم التحالُق كثير فيه القتل بين الفريقين ، في أيام أحرلم يشتد فيها القتال .

ومن أيام غيرهم المشهورة يوم عَيْن أَبَاغ ، وعَيْن أَبَاغ موضع يقال له ذات الخيار ؛ وكان الحرب فيه بين غَسَّان ونلحْم ، وكان قائد غَسَّان الحارث الذى طلب أدْرَع أمرئ القيس ، وقيل غيره ، وكان قائد نلحْم المنذر بن ماء السماء بغير خلاف ؛ وفي هذا اليوم قُتل المنذر ، وأنهزمت نلحْم ، وتبعتهم غَسَّان إلى الحيرة وأكثروا فيهم القتل . ويوم مَرَج حليمة ، وكان بين غَسَّان ونلحْم أيضا ؛ وكان من أعظم الأيام وأشدّها حربا ، بلغت الجيوش فيه عددا كثيرا ، وعظم الثُّبَار حتى قيل إن الشمس احتجبت وظهرت الكواكب التى فى غير جهة الغبار . ويوم الكديد ، وكان بين كنانة وسليم ، وانتصرت فيه سليم على كنانة ، وقتل فيه ربيعة بن مَكْدَم فارس كنانة ؛ وبه يضرب المثل فى الشجاعة ؛ وكان يُعقر على قبره فى الجاهلية ، ولم يُعقر على قبر غيره . ويوم الكلاب الأول ؛ والكلاب موضع بين البصرة والكوفة ؛ وكان بين

الأخوين : شَراحيل وسَلَمَة أبني الحارث بن عمرو الكندي ؛ وشَراحيلُ هو الأكبر وكان معه بكر وائل وغيرهم ، وسَلَمَة الأصغر ؛ وكان معه تغلب وائل وغيرهم ، وأشدت القتال بينهم ، وانتصر سَلَمَة وتغلبُ على شَراحيل وبكر ، وأنهزم شَراحيلُ وتبعته خيل أخيه فقتلوه . ويوم الكلاب الثاني ، وكان بين بكر وائل . ويوم أُوأرة ، (وأُوأرة أسمُ جبل) وكانت الحرب فيه بين المنذر بن أمريئ القيس ملك الحيرة ، وبين مُنذر وائل بسبب الحيرة ، وظفر فيه المنذر ، وأقسم أنه لا يزال يذبحهم حتى يسيل دُمهم من رأس أُوأرة إلى حَضِيضه ، وبقي يذبحهم والدم يُجد فسكب عليه ماء حتى سال الدم من رأس الجبل إلى حَضِيضه ، وبرت يمينه . ويوم رَحْرَحان ، (ورَحْرَحانُ أسمُ واد بالمجاز) وكانت الحرب فيه بين الأحوص بن جعفر بن كلاب ، وبني دارم ، وبني ماوية ، وبني مَعْبِد بن زُرارة ، وبني تميم ؛ وأنهزمت فيه بنو تميم ومن معهم ، وأسر مَعْبِد بن زُرارة ؛ وقصد أخوه لقيط بن زُرارة أن يَسْتَفِكَه فلم يقدر ، وعدبوا مَعْبِدًا حتى مات . ويوم شِعْب جَبَلَة ، وشِعْبُ جَبَلَة هَضْبَة حمراء بين الشَّريف والشَّرَف . وكان من شأنه أنه لما آنقضت وقعة رحران المتقدمة ، ومضى لها سنة ، وذلك في العام الذي وُلِد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، استنجد لقيط بن زُرارة التميمي بنِي دُبَيان لثأر أخيه فأنجذته ، وتجمعت بنو تميم غير بني سعد ، وخرجت معه بنو أسد ، وسار بهم لقيط إلى بني عامر وبني عَبَس في طلب ثأر أخيه مَعْبِد ، فأدخلت بنو عامر وبنو عَبَس أموالهم في شِعْب جَبَلَة ، فحضرهم لقيط فخرجوا عليه من الشَّعب وكسروا جماع لقيط وقتلوا لقيطًا ؛ وأسرُوا أخاه حاجب بن زُرارة ، وانتصرت بنو عامر وبنو عَبَس نصرًا عظيمًا ؛ وقُتِل أيضًا من بنِي دُبَيان وبني تميم ومن بنِي أسد جماعة مستكثرة ؛ وكان هذا اليوم من أعظم أيامهم . ويوم ذِي قَارٍ ، وهو أقرب الوقائع المشهورة في الجاهلية عهدًا ، وكان في سنة أربعين من مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقيل عام بدر .

وكان من حديثه أن كسرى أبرويز غضب على النعمان بن المنذر ملك الحيرة ،
 فخبسه فهلك في الحبس ؛ وكان النعمان قد أودع حلقتَه (وهى السلاح والدروع)
 عند هانىء بن مسعود البكرى ، فأرسل أبرويز يطلبها من هانىء ، فقال هذه أمانة ،
 والحر لا يسلم أمانته ؛ وكان أبرويز لما أمسك النعمان جعل مكانه فى ملك الحيرة
 إياس بن قبيصة الطائى ، فأستشار أبرويز إياسا ، فقال إياس : المصلحة التغافل
 عن هانىء بن مسعود حتى يطمئن وتبعه فندركه — فقال أبرويز : إنه من أخوالك
 لا تألوه نصحا — فقال إياس : رأى الملك أفضل ؛ فبعث أبرويز الهزبان^(١) فى ألفين
 من الأعاجم ؛ وبعث ألفا من بهراء ، فلما بلغ بكر بن وائل خبرهم أتوا مكانا من بطن
 ذى قار ، فزلوه ووصلت إليهم الأعاجم ، وأقتلوا ساعة فأنهزمت الأعاجم هزيمة
 قبيحة ؛ فيروى أن النبي صلى الله عليه وسلم ، خبر بذلك أصحابه ، فقال ” اليوم أول
 يوم آتتصف فيه العرب من العجم وبى نصروا “ .

ولأبى عبيدة مصنف مفرد فى أيام العرب ، وقد أورد منها ابن عبد ربه فى كتاب
 ” العقد “ جملة مستكثرة ، وفى آخر كتاب الأمثال لليدانى نبذة محزنة من ذلك ،
 وليس بنا حاجة إلى أستيعابها هنا .

وأما الحروب الواقعة فى صدر الإسلام . فمنها وقعة الجمل ، وكانت بين على كرم
 الله وجهه ، ومعه أهل الكوفة ، وبين عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ؛ وكانت
 رابطة يومئذ على جمل اسمه عسكر وبه عرفت الوقعة ، وقُتل بين الفريقين خلق
 كثير ، وكانت النُصرة فيه لعلى ومن معه .

ومنها وقعة صفين ، وكانت بين على كرم الله وجهه ومعه أهل العراق ، وبين
 معاوية بن أبى سفيان ، ومعه أهل الشام ، وكان آبتداؤها فى سنة ست وثلاثين ،
 وكان مدّة مقامهم بصفتين مائة وعشرة أيام أوقعوا فيها وقعات كثيرة ؛ قيل تسعين

(١) فى العقد الفريد ، ومعجم البلدان الهامرز ، وفسره بالمرزبان .

وقعة ؛ وكانت عدة القتلى بينهم فيما يقال من أهل الشام خمسة وأربعين ألفا ، ومن أهل العراق ستة وعشرين ألفا ، منهم ستة وعشرون من أهل بدر ؛ وكان عمار بن ياسر مع علي رضي الله عنه ، وقاتل حتى قُتِل ، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ” يَقْتُلُ عَمَّارَا الْفِئْتَةُ الْبَاغِيَةُ ” ومضت عليهما مدة ، وعلى رضي الله عنه على العراق ، ومعاوية على الشام ومصر إلى أن قتل علي رضي الله عنه .

ولا حاجة بنا إلى الخوض في أكثر من ذلك ، فإن ذلك محمول على آجتهداهم ، والإسكاع عما شجر بينهم واجب .

ومنها وقعة مرج راهط ؛ وكان من حديثها أنه لما هلك يزيد بن معاوية ، كان سعيد بن بجدل على قنسرين ، فوثب عليه زفر بن الحارث فأخرجه منها وبيع عبد الله ابن الزبير ، فلما قعد زفر على المنبر ، قال : الحمد لله الذي أقعدني مقعد الغادر الفاجر وحصر ، فضحك الناس من قوله ؛ وكان حسان بن بجدل على فلسطين ، والأردن ، فأستعمل على فلسطين روح بن زنباع الجذامي ، ونزل هو الأردن ، فوثب ناتل بن قيس الجذامي على روح بن زنباع فأخرجه من فلسطين وبيع ابن الزبير ؛ وكان النعمان ابن بشير على حمص فباع لابن الزبير ، وكان الضحاك بن قيس على دمشق ، فجعل يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، فقدم عليه مروان بن الحكم فقال الضحاك هل لك أن تقدم على ابن الزبير ببيعة أهل الشام ، قال نعم ووافق على ذلك بنو أمية ، واليمانيون ؛ فلما فشا ذلك أرسل الضحاك إلى بنو أمية تصدر إليهم ؛ وقال لمروان وعمرو بن سعيد : آكتبوا إلى حسان بن بجدل فيسير من الأردن حتى ينزل الجابية ، ونسير نحن من هنا حتى نلقاه فننظر هناك رجلا ترضونه ؛ فلما أستقلت رايات الضحاك من دمشق ، قالت القيسية لا نصحبك دعوتنا إلى بيعة ابن الزبير ، وهو رجل هذه

الأمة، فلما بايعناك خرجت تابعا لهذه الأعراب بنى كلب، فأجابهم إلى إظهار بيعة ابن الزبير، وسار حتى نزل مرج راهط، وأقبل حسان حتى لقي مروان، فسار مع مروان حتى لَقُوا الضحاك، وهم نحو من سبعة آلاف، والضحاك في نحو ثلاثين ألفا وأقتلوا، فقتل الضحاك وقُتِل معه أشراف من قريش .

المقصود الثالث

(في كيفية استعمال الكاتب ذكر هذه الوقائع في كلامه)

لا يخفى أن الكاتب المترشح للكتابة إذا كان من المعرفة بأيام الحرب، والعلم بتفاصيل أخبارها، ومن يعد من فُرسان حروبها، ومصايق خطبائها، ومُفلق شعرائها، وما جرى بينهم في ذلك من الخطب والأشعار والمناقضات، كان مستعدا لما يستشهد به من واقعة قديمة، أو يرد عليه في مكاتبة : أو شعر : من ذكر أيام مشهورة، أو ذكر فارس معين؛ كما قال أبو تمام الطائي يمدح بني شيان :

إذا أَفْتَخَرْتَ يوماً تَمِيمٌ بِقَوْسِهَا * وَزَادَتْ عَلَيَّ مَا وَطَّدَتْ مِنْ مَنَابِ

فَأَتَمَّ بِيذِي قَارِ أَمَالَتْ سِيوفِكُمْ * عُرُوشَ الَّذِينَ أَسْتَرَهُنَا قَوْسَ حَاجِبِ

يشير إلى أن حاجب بن زُرارة التيمي وفد على كسرى في سنة جَدَب فقال الحاجب من أنت؟ قال رجل من العرب، فلما دخل على كسرى قال له من أنت؟ قال سيد العرب — قال ألم تقل بالباب إنك رجل من العرب — قال كنت بالباب رجلا منهم فلما حضرت بين يدي الملك سُدَّتْهُمْ ؛ فملا فهِ دُرّاً ؛ وشكا إليه مَحَلَّ الحجاز، وطلب منه حِمْلُ أَلْفِ بَعِيرٍ بَرّاً عَلَيَّ أَنْ يَعِيدَ قِيَمَتَهَا، — فقال وما ترهني على ذلك — قال قَوْسِي، فاستعظم همته وقال قبلتُ، وأعطاه حِمْلُ أَلْفِ بَعِيرٍ بَرّاً، ومات حاجب فأحضر بنوه المال بعد موته وطلبوا منه قوس أبيهم فافتخرت تميم بذلك .

(١) لعله إذا كان على جانب من المعرفة بأيام الخ كما هو ظاهر .

فأشار أبو تمام في بيته إلى هذه المنقبة : يقول يابن شيبان في يوم ذى قار أبديتم
جيوش كسرى الذى آسترهن قوس حاجب .

وكما قال أبو نصر "الفتح بن خاقان" في خطبة كتابه "فلائد العقيان" : لو جاوره
كُليب ما طرق حمّاه ، أو أستجار به أحد من الدهر حمّاه ؛ أو كان بوادى الأخرم ،
لطاق به ربيعة وأحرم ؛ أو أستنجده الكندي ما كساه الملاء ، أو كان حاضراً
يسطام لما خرّ على الألاء .

وكما قلت في المفارقة بين السيف والقلم عند التعرض لذكر المقرّ الزينى أبو يزيد
الدوادار الذى من أجله وضعت ^١ "فلولقيه فارس عبس لوئى عابسا ، أو طرق حمى
كليب لبات من حمّاه آيسا ؛ أو قارعه ربيعة بن مكدّم اعلا بالسيف مقرّقه ؛
أو نازله بسطام لبدد جمعه وفرّقه" .

إلى غير ذلك مما يجرى هذا المجرى ويتظم في هذا السلك .

قال في "حسن التوسل" : وإذا لم يكن صاحب هذا الفن عارفا بكل يوم من
هذه الأيام ، عالم بما جرى فيها ؛ لم يدرك كيف يُجيب عما يرد عليه من مثلها ، ولا
ما يقول إذا سئل عنها . قال : وحسبه ذلك تقصا في صناعته ، وقصورا عما يتعين
عليه من معرفته وحسن الجواب عنه عند السؤال عنه .^(١)

وأما الوقائع التى وردت في حوادث خاصة بأقوام فقد قال الوزير "ضياء الدين بن
الأثير" رحمه الله في "المثل السائر" : إنها كالأمثال في الاستشهاد بها وذكرها أمثلة .
منها قوله من كتاب : ولا يُعدّ البرّ برا حتى يلحق الغيب بالحضور ، ويصل من لم
يصله بجزء ولا شكور ؛ فزنة الغائب بالشاهد من كرم الإحسان ، ولهذا نابت شمال
رسول الله عن يمين عثمان . يشير إلى أنّ النبي صلى الله عليه وسلم ، في بيعة الحديبية^(٢)

(١) لعل من زائدة من قلم الناسخ . (٢) في بعض النسخ العقبة .

كان قد أرسل عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى مكة في حاجة ، ولم يحضر البيعة ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بيده الشمال على اليمين وقال ”هذه عن عثمان وشمالى خير من يمينه“ .

ومنها قوله من تقليد لبعض الملوك من ديوان الخلافة : ”وإذا استعنت بأحد على عملك فاضرب عليه بالأرصاد ، ولا ترص بما عرفته من مبدإ حاله ، فإن الأحوال تنتقل بتقل الأجساد ؛ وإياك أن تُخدع بصلاح الظاهر كما خُدع عمر بن الخطاب بالربيع بن زياد .

يشير بذلك إلى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه آستدعى أبا موسى الأشعري ومن يليه من العمال وكان منهم الربيع بن زياد الحارثي ، فذهب الربيع بن زياد إلى بعض موالى عمر وسأله عما يروج عنده ويتفق عليه ، فأشار إلى خشونة العيش فضى ، وليس جبة صوف ، وعمامة رثاء ، وخفا مطابقا ، وحضر بين يديه في جملة العمال ، فصوب عمر نظره وصعدده فلم يقع إلا عليه ، فأدناه وسأله عن حاله ، ثم أوصى أبا موسى الأشعري به .

ومنها قوله في معارضة كتاب القاضي الفاضل إلى ديوان الخلافة يعدد فيه مساعى الملك الناصر ”صلاح الدين يوسف بن أيوب“ وما قاساه في الفتوح من الأهوال وهو : ومن حملتها ما فعل الخادم في الدولة المصرية . وقد قام بها منبر وسرير ، وقالت منا أمير ومنكم أمير ، فرد الدعوة العباسية إلى معادها ، وأذكر المنابر ما نسيته بها من زهو أعوادها . يشير بذلك إلى ما تقدم من اجتماع الأنصار في اليوم الذى مات فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، في سقيفة بنى ساعدة إلى سعد بن عبادة ، وكيف ذهب إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ، وقال الحباب بن المنذر : منا أمير ومنكم أمير ؛ فقال أبو بكر رضى الله عنه : لا ، وليكأ الأمراء وأنتم الوزراء . إلى غير ذلك مما يجرى هذا المجرى وينتظم في هذا السلك .

النوع الرابع عشر (في أوأبد العرب)

وهي أمور كانت العرب عليها في الجاهلية، بعضها يجري مجرى الديانات، وبعضها يجري مجرى الأصطلاحات والعادات، وبعضها يجري مجرى الخرافات، وجاء الإسلام بإبطالها . وهي عدة أمور :

منها الكهانة ، وكان موضوعها عندهم الإخبار عن أمور غيبية بواسطة أستراق الشياطين السمع من السماء، وإلقاء ما يستمعونه من الغيبيات إليهم . وقد كان في العرب قبل البعثة عدة كهنة تعتمد العرب كلامهم، ويرجعون إلى حكمهم فيما يُخبرون به . ومن عجيب أخبارهم في ذلك أن هند أبنة عتبة بن ربيعة كانت تحت الفاكه ابن المغيرة المخزومي، وكان له بيت للضيافة يغشاه الناس من غير إذن ، فحلا البيت يوما فأضطجع الفاكه هو وهند فيه ، ثم نهض الفاكه لبعض حاجته، وأقبل رجل ممن كان يغشى البيت فوجله فلما رآها وثى هاربا وأبصره الفاكه فأقبل إلى هند فركضها برجله وهي نائمة فانتبهت — فقال من ذا الذي نرج من عندك — فقالت لم أر أحدا وأنت الذي أنبهتني — فقال لها أذهبي إلى بيت أبيك فأقيم عنده ! وتكلم الناس فيها — فقال له أبوها إنك قدرميت أبتى بأمر عظيم، فإكفي إلى بعض كهان اليمن، نخرجا في جماعة من قومهما إلى كاهن من كهان اليمن ومعهما هند ونسوة أخر، فلما شارفوا بلاد الكاهن، قالت هند لأبيها إنكم تأتون بشرا يصيب ويخطئ ولا آمنه أن يسمني ميسما يكون على سبة — فقال أبوها سأختبره لك فصفر لفرسه حتى أدلى، فأدخل في إحليله حبة حنطة وشد عليها بسير، فلما دخلوا على الكاهن، قال له عتبة : إنا قد جئناك في أمر وقد خبات لك خبا أختبرك به فانظر ماهو فقال ثمره في كمره — فقال أريد أئين من هذا — فقال حبة بر، في إحليل

مُهر - فقال له أنظر في أمر هؤلاء النسوة، فجعل يدنو من إحداهن فيضرب بيده على كتفها ويقول أنهضني حتى دنا من هند فقال لها: أنهضني غير رشحاء ولا زانية ولتلدت ملكا اسمه معاوية؛ فنض إليها الفاكه فأخذ بيدها، فجذبت يدها من يده، وقالت إليك عني! فوالله لأحرص على أن يكون من غيرك، فترجها أبو سفيان ابن حرب فولدت له معاوية، فكان من أمره ما كان إلى أن آتته به الحال إلى الخلافة. وقد أخبر جماعة من الكهنة بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم قرب ظهوره منهم سطيح الكاهن وغيره.

ولما بعث النبي صلى الله عليه وسلم، حُرست السماء ومنعت الشياطين من استراق السمع كما أخبر تعالى بقوله ﴿وَأَنَا كَأَنَّ تَقَعُدُّ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمِعْ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾.

ومنها الزجر والطيرة: وهما في معنى واحد؛ وأصله أنهم كانوا إذا أرادوا فعل أمر أو تركه زجروا الطير حتى يطير؛ فإن طار يمينا كان له حكم، وإن طار شمالا كان له حكم، وإن طار أماما كان له حكم، وإن طار من فوق رأسه كان له حكم؛ ومن ثم سميت الطيرة أخذًا من أسم الطير؛ وأكثر ما عولوا عليه من ذلك الغراب، ثم تعدوه إلى غير الطير من الحيوان، ثم جاوزوا ذلك إلى ما يحدث في الجمادات من كسر أو صدع أو نحو ذلك؛ وربما آتته بعض الزجر إلى حد الكهانة.

ومما يحكى من زجر الطير أن رجلا من لهب: وهم بطن من العرب يعرفون بالعبافة، خرج في حاجة له، ومعه سقاء من لبن فسار صدر يومه فعطش فأناخ ليشرب فإذا غراب فنعب فأثار راحته، ثم سار حتى كان وقت الظهره أناخ ليشرب، فنعب الغراب وتمرغ في التراب، ففرضب الرجل السقاء بسيفه فإذا فيه

(١) الرشحاء بالمهملات من النساء القيحة ووقع في الأصل بانجم الشين وهو تصحيف فأحذره.

ثُعبان عظيم فقتله ، ثم سار فإذا غراب واقع على سِدْرَة فصاح به فوقع على سَلْمَة ، فصاح به فوقع على صخرة فأنتهى إليها ، فأثار من تحتها كتزا ؛ فلما رجع إلى أبيه قال له ما صنعت ؟ قال سرت صدرَ يومى فأنخت لأشرب فنعب الغراب — فقال : أثيرأحلتك وإلا فلست بآبئى — قال فعلت — قال ثم ماذا ؟ قال سرت حتى وقت الظهر فأنخت لأشرب فنعب الغراب ، وتمرغ في التراب — فقال أضرب السقاء وإلا فلست بآبئى . قال فعلت ؛ فوقع على صخرة قال أثيرأتمتحتها وإلا فلست بآبئى . قال فعلت ؛ فوجدت كتزا .

وقد وردت السنة بإبطال حكم الزجر والطيّرة بقوله صلى الله عليه وسلم ” أقرؤا الطير في وكأتها “ وقوله صلى الله عليه وسلم ” لا عدوى ولا طيرة “ وأستحسن صلى الله عليه وسلم ، الفأل فقال ” ويعجبني الفأل وهي الكلمة الطيبة أسمعها “ . وقد فرق العلماء بين الفأل والطيّرة بأن الطيرة تُقصد والفأل يأتي من غير قصد .

ومنها الميسر : وهو ضرب من القمار كانوا يقتسمون به لحم الجُزر التي يذبحونها بحسب قِداح يضرّبونها ، لكل قِدح منها نصيب معلوم : وهي أحد عشر قِدحا : سبعة منها لها حظ إن فازت وعليها غرم إن خابت بقدر ما لها من الحظ عند الفوز ، وأربعة منها تُثقل بها القِداح لا حظ لها إن فازت ، ولا غرم عليها إن خابت . فأما السبعة التي لها الحظ إن فازت وعليها الغرم إن خابت . فأولها القُد : وهو قِدح في صدره حرّ واحد ، وله نصيب واحد في الأخذ والغرم . والثانى التّوم ، وفي صدره حرّان ، وله نصيبان في الأخذ والغرم . والثالث الضريب (ويسمى الرقيب) وفيه ثلاثة حُرُوز ، وله ثلاثة أنصباء . والرابع الحلس وفيه أربعة حُرُوز وله أربعة أنصباء . والخامس النافس وفيه خمسة حُرُوز ، وله خمسة أنصباء . والسادس المُسبيل ، ويسمى المُصَفح أيضا ، وفيه ستة حُرُوز وله ستة أنصباء . والسابع المُعلّى ،

وفيه سبعة حروز، وله سبعة أنصباء؛ وهو أوفرها حظًا، ولذلك يُضربُ به المثل في الحظ فيقال قَدْحُه المَعْلَى .

وأما الأربعة التي تُثَقَّلُ بها القَداحُ فهي السَّفِيحُ، والمَنْيخُ، والمُضَعَّفُ، والوَغْدُ، وكان طريقهم في ذلك أن القوم يجتمعون فيشترُونَ جَزُورًا فينحرونها ويفصّلونها على عشرة أجزاء، ويسترحمون فيها على سبعة أنصباء لا أكثر، وتسمى الأنصباء فيها الأيسار، فإن كانوا أقلّ من سبعة وأراد أحدهم قَدْحين أو أكثر، أخذ وكان له فوزها، وعليه غرمها؛ فإذا جَزُوروا الجزور على ذلك، أتوا برجل يسمونه الحُرْضَةَ^(١) من شأنه أنه لم يأكل لحماً قطّ بئس، ويؤتى بالقَداح فتشَدُّ مجموعة في قطعة جلد تسمى الرِّبَابَةَ، ثم يلفُّ الحُرْضَةَ على يده اليمنى ثوباً ثلاثاً يجرد مس قَدْح، له مع صاحبه هوى فيحابه في إخراجها، ثم يؤتى بثوب أبيض يسمى المِجْوَلُ، فيسَطُّ بين يدي الحُرْضَةَ، ويقوم على رأسه رجل يسمى الرِّقِيبُ، ويدفع رِيبَةَ القَداح إلى الحُرْضَةَ، وهو محوّل الوجه عنها، فيأخذ الرِّيبَةَ التي تُجْمَعُ فيها القَداحُ، ويدخل يده تحت الثوب فينكر القَداح فاذا نهد فيها قَدْح يناوله دُفْعَةً إلى الرِّقِيبِ، فإن كان مما لاحظ له، ردّ إلى الرِّيبَةَ فإن خرج بعده المُسَيِّلُ مثلاً أخذ الثلاثة الباقية وغرم الذين خابوا ثلاثة أنصباء من جزور آخر، وعلى ذلك أبداً يفعل بمن فاز ومن خاب، وربما نحروا عدّة جُرُرٍ، ولا يغرم الذين فازوا من ثمنها شيئاً، وإنما الغرم على الذين خابوا، وكان عندهم أنه لايجل للثائين أن يأكلوا من ذلك اللحم شيئاً؛ فإن فاز قَدْح الرجل فأرادوا أن يعيدوا قدحه ثانية على خطأ فعلوا ذلك به؛ وقد نظم الصاحب إسماعيل بن عبّاد أسماء القَداح التي لها النصيب فوزاً وغرماً في أبيات فقال :

(١) الحُرْضَةُ بالضم والراء المهملة والضاد المعجمة أمين المقامرِين . ووقع في الأصل الحُرْضَةُ بالواو والصاد المهملة وهو تصحيف من النسخ فأحذره .

إِنَّ الْقِدَاحَ أَمْرٌهَا حَجِيبٌ * الْفَدُّ وَالْتَّوَمُ وَالرَّقِيبُ
وَالْحِلْسُ ثُمَّ النَّافِسُ الْمَصِيبُ * وَالْمُصْفَحُ الْمَشْتَهَرُ النَّجِيبُ
ثُمَّ الْمَعْلَى حَظُّهُ الرَّغِيبُ * هَاكَ قَدَّ جَاءَ بِهَا التَّرْتِيبُ

ومنها الأزلام : وهي ضرب من الطيرة، كانوا إذا أرادوا فعل أمر ولا يدرون ما الأمر فيه، أخذوا قِدَاحًا مكتوبًا على بعضها أفعَل، لا تفعَل، وعلى بعضها نعم، وعلى بعضها لا، وعلى بعضها خُد، وعلى بعضها سِر، وعلى بعضها سريع، فإذا أراد أحدهم سفرًا مثلاً أتى سادَن الأوثان؛ فيضرب له بتلك القِدَاح ويقول : اللهم أيها كان خيرا له فأخرجه فما خرج له عمل به، وإذا شكوا في نسب رجل أجالوا القِدَاح وفي بعضها مكتوبٌ صريح، وفي بعضها مكتوبٌ ملحق، فإن خرج الصريح أثبتوا نسبه، وإن خرج الملحق نفوه. وإن كان بين اثنين اختلاف في حق سمي كل منهما له سهما وأجالوا القِدَاح فمن خرج سهمه فالحق له وقد نهى الله تعالى عن ذلك بقوله ﴿ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ﴾ .

ومنها البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحامى .

فأما البحيرة، فكانت الناقة إذا أنتجت خمسة أبطن عمدوا إلى الخامس منها مالم يكن ذكرا فشققوا أذنها وتركوها، فلا يُحزها وبر، ولا يُحمل عليها شيء ولا يُذكر عليها إن ذكيت أسم الله تعالى، وتكون ألبانها للرجال دون النساء .

وأما السائبة فكان الرجل يُسيب الشيء من ماله : بهيمة أو عبدا، فيكون حراما أبدا وتكون منافع ذلك للرجال دون النساء .

وأما الوصيلة فكانت الشاة إذا ولدت سبعة أبطن عمدوا إلى السابع فإن كان ذكرا ذبح، وإن كان أنثى تركت في الغنم، وإن كان ذكرا وأنثى قيل وصات أخاها فحرما جميعا، وكانت منافعهما ولبن الأنثى منهما للرجال دون النساء .

وأما الحامى، فكان الفحل إذا صار من أولاده عشرة أبطن، قالوا حمى ظهره، فترك، ولا يُحمَلُ عليه شيء، ولا يُركب، ولا يُمنَعُ ماءً، ولا مرعى؛ وقد أخبر الله تعالى ببطلان ذلك بقوله: ﴿مَجَعَلَّ اللَّهُ مِنَ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ .

ومنها إغلاق الظهر: كان الرجل منهم إذا بلغت إبله مائة عمود إلى البعير الذى كملت به مائة فأغلق ظهره بأن يترع شيئاً من فقراته ويعقر سنامه كي لا يُركب يُعلم أن إبل صاحبه قد أمأت .

ومنها التَّفَقُّةُ، والتَّعْمِيَّةُ . كان الرجل إذا بلغت إبله ألفاً فقأ عين الفحل: وهى التَّفَقُّةُ، فإن زادت على ذلك فقأ العين الأخرى وهى التعمية، ويرغمون أن ذلك يدفع العين عن الإبل قال الشاعر:

وَهَبْتَهَا وَأَنْتَ دُوَّامْتَانِ * تَفْقَأُ فِيهَا أَعْيُنَ الْبُعْرَانِ

ومنها نكاح المقت: وهو نكاح زوجة الأب— وكان من شأنهم فيه أن الرجل إذا مات قام أكبرُ ولده، فالقَى ثوبه على امرأة أبيه فورث نكاحها، فإن لم يكن له فيها حاجة يُزوجها بعض إخوته بمهر جديد، فكانوا يتوارثون النكاح كما يرثون المال، فأنزل الله تعالى ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ ، وحرَمَ زوجة الأب بقوله ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ومن ثم سُمي نكاح المقت .

ومنها رمى البعرة: كانت المرأة فى الجاهلية إذا مات زوجها، دخلت حفشاً (يعنى خُصاً) ولبست شراًيبها ولم تمس طيباً حتى تمضى عليها سنة، ثم يُؤتى بدابة: حمارٍ أو شاةٍ أو طير، فتفتض به أى تُمسح به فقلماً تفتض بشيء إلا مات، ثم تخرج بعد ذلك فتعطى بعرة قترى بها، ثم تراجع ما شاءت من طيب أو غيره فنسخ

الإسلام ذلك بقوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ .

ومنها وأد البنات (وهو قتلهن) . كانوا يقتلوهن خشية العار؛ ومن فعل ذلك قيس ابن عاصم المنقرئ، وكان من وجوه قومه ومن ذوى المال، وكان سبب ذلك أن النعمان بن المنذر أغزاهم جيشا فسبوا ذراريهم فأناب القوم وسألوهم فيهم فقال النعمان : كل امرأة اختارت أباهم ردت إليه، وكل من اختارت صاحبها تركت معه، فكلهن اخترن آباءهن إلا ابنة لقيس بن عاصم فإنها اختارت صاحبها عمرو بن الجُموح، فندر قيس أنه لا يولد له ابنة إلا قتلها فكان يقتلن بعد ذلك . وورد القرءان بإعظام ذلك بقوله ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ .

ومنها قتل الأولاد خشية الإملاق والفاقة، فكان الرجل منهم يقتل ولده مخافة أن يطعم معه إلى أن نهى الله تعالى عن ذلك بقوله ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا ﴾ .

ومنها حبس البلياء، كانوا إذا مات الرجل يشدون ناقته إلى قبره ويقبلون برأسها إلى ورائها ويغطون رأسها بولية وهي البرذعة فإذا أفلتت لم ترد عن ماء ولا مرعى، ويزعمون أنهم إذا فعلوا ذلك حشرت معه في المعاد ليركبها قال أبو زيد :

كالبلياء رؤوسها في الولايا * مانحات السموم حر الخدود

ومنها الهامة — كانوا يزعمون أن الإنسان إذا قتل ولم يطالب بثأره، خرج من رأسه طائر يسمى الهامة، وصاح : أسقوني أسقوني حتى يطالب بثأره ؛ قال ذو الأصبغ :

(١) في الأصل بزية وكذلك جمعها في البيت زلايا وهو تصحيف فأحذره .

(٢) في الأصل أبو زيد وهو تصحيف .

يا عمرو إلاً تدع شئى ومنقصتى * أضر بك حتى تقول الهامة أسقونى
ومنها تأخير البكاء على المقتول للأخذ بثأره — كان النساء لا يتكبن المقتول منهم
حتى يؤخذ بثأره، فإذا أخذ به بكينه حينئذ، قال الشاعر :

مَنْ كَانَ مَسْرُورًا بِمَقْتَلِ مَالِكٍ * فَلَیَاتِ نِسْوَتًا بُوْجِهٍ نَهَارِ
يَجِدُ النِّسَاءَ حَوَاسِرًا يَنْدُبْنَهُ * يَلْطَمْنَ حُرَّ الْوَجْهِ بِالْأَنْحَارِ

ومنها تصفيق الضال — كان الرجل منهم إذا ضلَّ في الفلاة، قلب ثيابه وحسب
ناقته وصاح في أذنها كأنه يؤمى إلى إنسان وصفق بيديه قائلاً : الْوَحَا الْوَحَا النَّجَاءُ
النَّجَاءُ هَيْكَل : الساعة الساعة إلى إلى عجل ، ثم يجتزك ناقته فيزعمون أنها تهتدى ،
إلى الطريق حينئذ . قال الشاعر :

وَأَذَنُ بِالْتَّصْفِيقِ مِنْ سَاءِ ظَنِّهِ * فَلَمْ يَدْرِ مِنْ أَىِّ الْيَدَيْنِ جَوَابُهَا
يريد إذا ساء ظنه بنفسه حين يضل .

ومنها الغول — كانوا يزعمون أن الغول تترأى لأحدهم في الفلاة فيتبعها فتستهويه ،
وربما ادعى أحدهم أنه قابلها وقاتلها قال تابط شراً :

أَلَا مِنْ حُجْرٍ فِتْيَانِ فَهَمٌ ^(١) * بِمَا لَاقَيْتُ عِنْدَ رَحَا يَطَانَ
بَأْنِي قَدْ لَقَيْتُ الْغُولَ تَهْوَى * بِسَهْبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانَ
فَقُلْتُ لَهَا كَلَانًا نِضْوُ أَرْضِ * أَخُو سَفَرٍ نَحَلُّ لِي مَكَانِي
فَشَدَّتْ شِدَّةً نَحْوَى فَأَهْوَتْ * لَهَا كَفَى بِمَصْقُولِ يَمَانِي
فَأَضْرِبُهَا بِلَا دَهْشٍ نَحَرْتُ * صَرِيحًا لِلْيَدَيْنِ وَاللِّبْرَانِ

ومنها ضرب الثور ليشرب البقر — كانوا يزعمون أن الجحش تركب الثيران فتصد
البقر عن الشرب، فيضربون الثور ليشرب البقر، قال الشاعر :

(١) في نسخة فهر . وفي ياقوت قويم . وقوله في البيت الثانى بسبب في الأصل بسيف وهو تصحيف .

كَذَلِكَ الثَّوْرُ يَضْرِبُ بِالْهَرَاوِي (١) * إِذَا مَا عَافَتِ الْبَقْرُ الظَّمَاءَ

ومنها تعليق سنّ الثعلب وسنّ الهرة وحيض السمرة — كانوا يزعمون أن الصبي إذا خيف عليه نظرة أو خطفة فعلق عليه شيء من ذلك، سلم من آفته، وأن الجنية إذا أرادت له لم تقدر عليه؛ قالت امرأة تصف ولدا:

كَانَتْ عَلَيْهِ سِنَّةٌ مِنْ هِرَّةٍ * وَتَعَلَبَ وَالْحَيْضُ حَيْضُ السَّمْرِه

ومنها تعليق كعب الأرنب — كانوا يعلقونه على أنفسهم، ويزعمون أنه وقاية من العين والسحر، قائلين إن الجن تنفر من الأرنب لكونها تحيض، قال الشاعر:

وَلَا يَنْفَعُ التَّعْشِيرُ إِنْ حُمَّ وَقِعٌ وَلَا وَدَعٌ يُغْنِي وَلَا كَعْبُ أَرْنَبٍ

ومنها تعليق الحلي على السليم (وهو الملسوع) — كانوا إذا ألسع فيهم إنسان علقوا عليه الحلي من الأساور وغيرها، ويتركونه سبعة أيام ويمنع من النوم فيفريق، قال النابغة:

يُسَبِّدُ مِنْ وَقْتِ الْعِشَاءِ سَائِمَهَا * لِحَلِي النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَايِعُ

ومنها وطء المقاتل القتلى — كانوا يزعمون أن المرأة المقاتلة (وهي التي لا يعيش لها ولد) إذا وطئت قتيلًا شريفًا بقي أولادها، قال بشر بن أبي حازم:

يَظَلُّ مَقَالِيَتُ النِّسَاءِ يَطَّانُهُ * يَقْلَنُ أَلَا يَلْقَى عَلَى الْمَرْءِ مِتْرُ

ومنها مسح الطارف عين المطروف — كانوا يزعمون أن الرجل إذا طَرف عين صاحبه فهاجت فمسح الطارف عين المطروف سبع مرات يقول في كل مرة: بإحدى جاءت من المدينة: باثنتين جاءتا من المدينة، بثلاث جئن من المدينة إلى سبع سكن هيجانها.

(١) في الأصل بالهوادى وهو تصحيف فأحذره.

ومنها كىّ السليم من الإبل ليرأ الحرب منها — كانوا يزعمون أن الإبل إذا أصابها عُرّ (وهو الحرب) فكوّوا صحيفا إلى جانبه ليشم رائحته برئى، وربما زعموا أنه يؤمن معه العدوى، قال النابغة :

وكَلَّفَتْنِي ذَنْبَ أَمْرِي وَتَرَكْتَهُ * كَذِي الْعَرِي كَوِي غَيْرُهُ وَهُوَ رَاتِعُ

ومنها ذهاب الخدر من الرجل — كانوا يقولون إن الرجل إذا خدرت رجله فذكر أحب الناس إليه ذهب عنه الخدر، قالت امرأة من كلاب :

إِذَا خَدِرْتُ رِجْلِي ذَكَّرْتُ ابْنَ مُصْعَبٍ * فَإِنِ قُلْتُ عَبْدَ اللَّهِ أَجَلِي فُتُورَهَا

ومنها الحلى عن الصبيان بجباية الحى وإطعامه الكلاب — كانوا يرون أن الفتى إذا ظهر فيه الحلى بشفته (وهى بُور تنبت بالشفة) فيأخذ منخلا على رأسه ويمز بين بيوت الحى وينادى الحلى الحلى فيلقى فى منخله من هنا تمرّة، ومن هنا كسرة، ومن هنا قطعة لحم فإذا امتلأ نثره بين الكلاب فيذهب عنه الحلى .

ومنها شق الرداء والبُرُق، لدوام المحبة — زعموا أن المرأة إذا أحببت رجلا أو أحبا ولم تُسَقَّ عليه رداءه ويسقَّ عليها برقعها فسد حبهما، قال الشاعر :

إِذَا سُقِّ بَرْدُ شَقِّ بِالْبُرْدِ بَرُقٌ * دَوَالِيكَ حَتَّى كُنَّا غَيْرُ لَائِسِ

فَكَمْ قَدْ شَقَّقْنَا مِنْ رِءَاءِ مُحَبَّرٍ * وَمِنْ بَرُقِ عَنِ طِفْلَةٍ غَيْرِ عَائِسِ

ومنها رمى سن الصبى المتغر فى الشمس — يقولون : إن الغلام إذا أنغر فرمى سنّه فى عين الشمس بسبأته وإبهامه وقال أبلدبنى بها أحسن منها ، أمن على أسنانه العوج والفالج والنغل ، قال طرفة :

بَدَّلْتَهُ الشَّمْسُ مِنْ مَنِيَّتِهِ * بَرْدًا أبيضَ مَصْقُولِ الأَشْرِ

(١) لعله دفع الحلى عن الخ . وهو فى الأصول مقصور وأورده القاموس واللسان فى باب المهموز وقال الأخير إن بعضهم لا يهمز .

ومنها التعشير — زعموا أن الرجل إذا أراد دخول قرية نخاف وباءها فوقف على بابها قبل أن يدخلها فعشركا ينق الحمار ثم دخلها ، لم يصيبه وباءها ، قال عروة ابن الورد :

لَعَمْرِي لَئِنْ عَشَرْتُ مِنْ خَشِيَةِ الرَّدَى * نُهَيْتُ حَمِيرِي إِيَّيْ بِجَزْوَعٍ
ومنها عقد الرتم — وهو بنت معروف — كان الرجل إذا أراد سفرا عمد إلى رتم فعهقه فإن رجع ورءاه معقودا ، أعتقد أن امرأته لم تتحنه ، وإن رءاه محلولا أعتقد أنها خانته ، قال الشاعر :

خَانَتْهُ لَمَّا رَأَتْ شَيْبًا بِمَفْرِقِهِ * وَغَرَّه حِلْفُهَا وَالْعَقْدُ لِلرَّتَمِ
ومنها اعتبار دائرة المهقوع — وهي دائرة تكون في عنق الفرس يقال لها الهقعة على ما يأتي ذكره في الكلام على الخيل في الطرف الآتي — كانوا يزعمون أن الفرس المهقوع إذا عرق تحت صاحبه آغتمت حليلته ، وطلبت الرجال ، قال الشاعر :

إِذَا عَرِقَ الْمَهْقُوعُ بِالْمَرْءِ أَنْعَظَتْ * حَلِيلَتُهُ وَأَزْدَادَ حَرًّا عَجَانُهَا
ومنها خضاب نحر الفرس السابق — كان من عادتهم إذا أرسلوا خيلا على صيد فسبق أحدها خضبوا صدره بدم الصيد علامة له ، قال الشاعر :

كَأَنَّ دِمَاءَ الْعَاوِيَاتِ بَنَحْرِهِ * عُصَارَةٌ حِنَاءٍ بِشَيْبِ مُرَجَلٍ
ومنها جزناصية الأسير — كانوا إذا أسروا رجلا ثم منوا عليه فأطلقوه ، جزوا ناصيته ووضعوها في كئانة ، قالت الخنساء .

بَرَّزْنَا نَوَاصِي فُرْسَانِهِمْ * وَكَانُوا يُظُنُّونَ أَنْ لَا تُجْزَأَ

(١) في اللسان في زور الفرس أو عرض زوره . وسيأتي تفسيره بذلك في الدوائر .

(٢) في نسخة العاديات .

النوع الخامس عشر

(في معرفة عادات العرب ؛ وهي صنفان)

الصنف الأول

(نيران العرب)

قد ذكر أبو هلال العسكري في كتابه "الأوائل" للعرب ثلاث عشرة نارا .
الأولى نار المزدلفة — وهي نار تُوقَد بالمزدلفة من مشاعر الحج ليراهم من دفع من
عرفة . وأول من أوقدها قُصِيَ بن كلاب ، فهي تُوقَد إلى الآن .

الثانية نار الاستطار — كانوا في الجاهلية الأولى إذا آحتبس المطر جمعوا البقر
وعقدوا في أذناها وعراقبها السَّلَع والعُشْر ، ويضعّون بها في الجبل الوعر ، ويُشعلون
فيها النار ، ويزعمون أن ذلك من أسباب المطر ، قال الشاعر :

أَجَاعِلُ أَنْتَ بَيَقُورًا مُسَلَّعَةً * وَسِيَلَةٌ مِنْكَ بَيْنَ اللَّهِ وَالْمَطْرِ

الثالثة نار الحلف — كانوا إذا أرادوا عقد حلف أوقدوا النار وعقدوا الحلف
عندها ، ويذكرون خيرها ، ويدعون بالحرمين من خيرها على من نقض العهد ، وحلّ
العقد . قال العسكري " وإنما كانوا يُحصون النار بذلك لأن منفعتها تختص
بالإنسان ، لا يشاركه فيها شيء من الحيوان غيره " .

الرابعة نار الطرد — وهي نار كانوا يُوقدون خلف من يمضي ولا يحبون رجوعه .

الخامسة نار الحرب — كانوا إذا أرادوا حربا أو توقعوا جيشا ، أوقدوا نارا على

جبلهم ليبلغ الخبر أصحابهم .

السادسة نار الحرّتين : كانت في بلاد عبس فإذا كان الليل تضيء نار تسطع

وفي النهار دخان مرتفع ، وربما بَدَر منها عُنُق فأحرق مَنْ مرَّ بها ، فحفر خالدُ بنُ سنان النبيُّ ، فدفنها ، فكانت معجزة له .

السابعة نار السَّعَالِي — تُرْفَعُ للتَّقَرُّ فيتبعها قهوى به الغُولُ على زعمهم كما تقدّم في الكلام على أوابد العرب .

الثامنة نار الصيد — وهي نار تُوقَد للظباء تغشاها إذا نظرت إليها .

التاسعة نار الأسد — وهي نار توقد إذا خافوا الأسد لينفِر عنهم فإن من شأنه النَّفَار عن النار، يقال إنه إذا رأى النار حدث له فكريصته عن قصده .

العاشر نار القِرَى — وهي نار تُوقَد ليلا ليراها الأضياف فيهدتوا إليها .

الحادية عشرة نار السليم (وهو الملسوع) : كانوا يُوقدون النار للملسوع إذا لدغ يُسَاهِرُونه بها، وكذلك المجرّوح إذا نَزَف دَمُه، والمضروب بالسيّاط ومن عضَّ الكلب كي لا يناموا فيشتدّ الأمر بهم فيؤدّبهم إلى الهلكة .

الثانية عشرة نار الفداء — كان الملوك منهم إذا أسروا نساء قبيلة خرجت إليهم السادة منهم للفداء أو الاستيهاب فيكفون أن يعرضوا النساء نهارا فيفتضحن أو في الظلمة فيخفي قدر ما يحبسونه لأنفسهم من الصّفيّ ، فيوقدون النار لعرضهن .

الثالثة عشرة نار الوسم — وهي النار يُسم بها الرجل منهم إبله فيقال له ماسمة إبلك؟ فيقول كذا :

الصنف الثاني

(أسواق العرب المعروفة فيما قبل الإسلام)

قد كان للعرب أسواق يُقيمونها في شهور السنة ، وينقلون من بعضها إلى بعض ويحضّرها سائر قبائل العرب : ممن قُرِب منهم وبعُد . فكانوا يتزلون دومة الجندل

أول يوم من ربيع الأول، فيقيمون أسواقها بالبيع والشراء، والأخذ والعطاء؛ وكان يعشوه فيها أكيدر دومة - وهو ملكها - وربما غلب على السوق كلب، فيعشوه بعض رؤساء كلب فيقوم سوقهم هناك إلى آخر الشهر. ثم ينتقلون إلى سوق هجر من البحرين في شهر ربيع الآخر، فنكون أسواقهم بها، وكان يعشوه في هذا السوق المنذر بن ساوى أحد بني عبد الله بن دارم - وهو ملك البحرين. ثم يتحولون نحو عمان من البحرين أيضا فتقوم سوقهم بها. ثم يتحولون فيتلون إرم وقرى الشجر من اليمن فتقوم أسواقهم بها أياما. ثم يتحولون فيتلون عدن من اليمن أيضا فيشترون منه اللطائم وأنواع الطيب. ثم يتحولون فيتلون حضرموت من بلاد اليمن، ومنهم من يجوزها فيرد صنعاء فتقوم أسواقهم بها ويحبون منها الخرز والأدم والبُرود، وكانت تجلب إليها من معافر. ثم يتحولون إلى عكاظ في الأشهر الحرم، فتقوم أسواقهم ويتناشدون الأشعار، ويتحاجون؛ ومن له أسير سعى في فدائه، ومن له حكومة أرتفع إلى من له الحكومة؛ وكان الذي يقوم بأمر الحكومة فيها من بني تميم؛ وكان آخر من قام بها منهم الأقرع بن حابس التميمي. ثم يقفون بعرفة ويقضون مناسك الحج. ثم يرجعون إلى أوطانهم قد حصلوا على الغنيمة، وآبوا بالسلامة.

النوع السادس عشر

(الظفر في كتب التاريخ والمعرفة بالأحوال)

اعلم أن الكاتب يحتاج إلى معرفة وقائع التاريخ، وتفصيلها؛ ولا يكاد يستغنى عن العلم بشيء منها لأموار. منها العلم بأزمنة الوقائع والمجريات؛ وأحوال الملوك والأعيان والحوادث، والمجريات الحاصلة بينهم؛ فيحتج بكل واقعة منها في موضعها، ويستشهد بها فيما يلائمها، ويحتج لمثل ذلك؛ فإنه متى أخل بمعرفة ذلك

أحتج بالقصة في غير موضعها ، أو نسبها إلى غير من هي له ، أو لبس عليه خصمه بالاستشهاد بواقعة لا حقيقة لها ، أو نسبها إلى غير من هي له ليظهر مُحجته عليه ، وما يجري مجرى ذلك ؛ وفيه مقصدان .

المقصد الأول

(في ذكر نبذة تاريخية لا يسع الكاتب جهلها مما يحتج به الكاتب تارة
ويذاكر به ملكه أو رئيسه أخرى)

اعلم أن التاريخ بحر لا ساحل له ، وقد أكثر الناس فيه من التصنيف على اختلاف فنونه : ما بين مختصر ، ومبسوط : من مقتصر على فن ، ومستوعب لفنون ، وفي خلال تلك المصنّفات نوادر غريبة ، ولطائف عجيبة ؛ لا يحصل الوقوف عليها إلا بعد استيعابها بالمطالعة ، كما لا يقع الظفر بالجوهر في المعدن إلا بعد عمل كثير يحصل في خلالها بقتة ؛ فإذا التقت الجواهر من المعدن ، سهل تناوُّها لمريدها ؛ وهي على ضربين .

الضرب الأول

(الأوائل)

وهي معرفة مبادئ الأمور المهمة ، وقد أفردها أبو هلال العسكري بالتصنيف ، وأورد الثعالبي منها في كتابه "لطائف المعارف" نبذة صالحة ، وتضمنت كتب التاريخ منها جملة مما لم يتعرضوا إليه ؛ وقد اقتضت منها على ما تشوف نفوس أكثر الناس إلى معرفته والأطلاع عليه : مما توفرت الدواعي عليه ، فاستمر وجوده ، وأنسحب عليه حكم الاستعمال إلى الآن ، أو أشتهر في مبدئ أمره ، ثم زال بعد ذلك ؛ جاريا في ترتيبه على وجه يقرب تناوله ، مقدما الأهم فالأهم بالنسبة إلى حال الكاتب :

أمور تتعلق بالأنبياء عليهم السلام

(سوى ما يأتي ذكره مما شا كل غيره)

أول من استرقَّ الرقيقَ إدريس عليه السلام . أول من شاب إبراهيم الخليل عليه السلام ؛ وهو أول من قصَّ شاربته ، وأول من فرق شعره ، وأول من تمضمض ، وأول من استاك ، وأول من قلم الأظفار ، وأول من استنجى ، وأول من آختن ، وأول من رمى الجمار .

الخلافة وما يتعلق بها

أول من سُمي خليفةً أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين ولى الخلافة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يخاطب بخليفة رسول الله ؛ وسيأتي ذكره في الكلام على الألقاب في المقالة الثالثة إن شاء الله تعالى ؛ وهو أول من استخلف من الخلفاء : استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مرض موته ؛ وسيأتي ذكره في الكلام على ولاية الخلفاء في المقالة الخامسة ؛ وهو أول خليفة فرض له العطاء في بيت المال عن الخلافة ، ولما أدركته الوفاة أوصى باعادة جميع ما حمل إليه من ذلك إلى بيت المال من ماله .

أول من سُمي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ وسيأتي ذكره في الكلام على هذا اللقب في جملة الألقاب في المقالة الثالثة ؛ وهو أول من رتب بيت المال فيما ذكره العسكري ، لكنه قد ذكر في موضع آخر أن عمر كان على بيت المال من قبل أبي بكر رضي الله عنه ، فيكون أبو بكر قد سبقه إلى ذلك ؛ وسيأتي ذكره في الكلام على وكالة بيت المال في المقالة الخامسة ؛ وهو أول من كور الكور ومسح أرض السواد ، ورتب الخراج على الأرضين ، والحزبية على

(١)
 الجَمَاجِمُ؛ وهو أول من حمل الطَّعام من مصر إلى الحِجَاز؛ وذلك في عام الرمادة عند غلُو
 السعر بالحِجَاز. وسيأتي ذكره في الكلام على خليج القاهرة في أوائل المسالك والممالك .
 أول من أقطع القطائع من الخلفاء أمير المؤمنين عثمانُ بن عفان رضى الله عنه؛
 وسيأتي ذكره في الكلام على الإقطاعات في المقالة السادسة، وهو أول من حمى
 الحمى لِنَعْم الصدقة من الخلفاء، وهو أول من آتخذ صاحب شُرطة من الخلفاء .
 أول من آتخذ بيتاً ترمى فيه قِصص أهل الظُّلَمات أمير المؤمنين على بن أبي طالب
 رضى الله عنه، وبقى حتى كُتِب له شتمه في رُقعة، وطُرِحَت في البيت فتركه؛ ثم آتخذه
 المهديّ بعده، ثم ترك بعد ذلك .

أول من سلّم عليه بالخلافة فقيل السلام عليك يا أمير المؤمنين معاوية؛ وكانوا قبل
 ذلك يقولون السلام عليكم؛ وهو أول من عهد إلى ابنه بالخلافة، عهد بها إلى ابنه
 يزيد، ثم تبعه الكثير من الخلفاء على ذلك؛ وهو أول من استخلف في حال صحته
 وإلا فأبو بكر لم يستخلف عمر إلا في مرض موته، وعمر لم يجعل الأمر شورى إلا
 وهو مطعون؛ وسيأتي ذكر ذلك جميعه في الكلام على ولاية الخلفاء في المقالة الخامسة،
 وهو أول من آتخذ المقصورة في المسجد لصلاة الجمعة؛ وقيل آتخذها مروان قبله،
 وقيل عثمان؛ وهو أول من نهى عن الكلام بمحضرة من الخلفاء، وكان الناس قبل
 ذلك يردون على الخليفة ويعترضونه فيما يقول؛ وهو أول من آتخذ ديوان الخاتم لخم
 الكتب؛ وسيأتي ذكره في الكلام على اللواحق من المقالة الثالثة، وهو أول من آتخذ
 البريد في الإسلام؛ وسيأتي ذكره في الكلام على البريد في خاتمة الكتاب .

(١) في الأصل الزيادة وهو تصحيف .

(٢) يظهر أن قبله سقطا وما بعده يدل على أن المتكلم فيه الآن عبد الملك بن مروان فإنه أول من

نهى عن الكلام بمحضرة الخلفاء فليحزر .

أول من سار في الناس بالخبيرية من الخلفاء وأمر أن لا يُخاطب باسمه كما يخاطب الخلفاء قبله الوليد بن عبد الملك فاتفق أن خالف رجل فخاطبه باسمه فأمر به فوطئ .

أول من رتب مراتب الخلافة وأقام حاجبا للاستئذان عليه أبو جعفر المنصور، وأتخذ في قصره بيتا يجلس فيه الناس حتى يُؤذن لهم ؛ وهو أول من أتخذ الأتراك اتخذ حمادا التركي ، ثم أتخذ المهدي بعده مباركا التركي ، ثم أكثر الخلفاء من الأتراك بعد ذلك .

أول من جلس للصبائب من الخلفاء على البساط دون الأئمّاط هارون الرشيد حين نعي إليه قريبه : إبراهيم بن علي ؛ فاتخذ الخلفاء ذلك دأبا في المآتم .

أول من نعت علي المنبر بنعت الخلافة الأمين بن الرشيد فقيل : اللهم وأصلح عبدك وخليفتك عبد الله محمدا الأمين .

أول من أضيف لقبه من الخلفاء إلى اسم الله المعتصم فقيل المعتصم بالله ، ثم تبعه الخلفاء على ذلك ؛ وسيأتي ذكره في الكلام على الخلفاء في المقالة الثانية .

أول من حوّل السنة الشمسية إلى السنة القمرية وأقرّ النيروز المتوكل ؛ وسيأتي ذكره في تحويل السنين في المقالة السابعة ، وهو أول من أمر بتغيير زى أهل الذمة ؛ وسيأتي ذكره في الكلام على عمد الصلح لأهل الذمة في المقالة السابعة .

أمور تتعلق بالملوك والأمراء

أول من لبس التاج الضحك أحد ملوك الفرس وهو النمرود فيما يقال ؛ وفي زمنه كان إبراهيم الخليل عليه السلام .

أول من مسح الأرضيين ، ووضع الدواوين ، ووضع الخراج على الأرضيين ، ووظف الموظفين على البلاد قيذار أحد ملوك الفرس ، وأتخذ لذلك ديوانا وسماه ديوان العدل .

أول من جلس على السرير من ملوك العرب جَذيمة الأبرش، وهو أول من وقعت له السُّمعة من ملوك العرب، وأول من لبس الطُّوق منهم .

أول من مشّت الرجال معه وهو راكب الأشعث بن قيس، كانت بنو عمرو بن معاوية ملكوه عليهم وتوجّوه .

أول من مشى بين يديه بالأعمدة الحديد زيادُ ابن أبيه، وهو أول من جالس الناس بين يديه على الكراسي، وهو أول من أخذ العسس والحرس .

أول من سلّم عليه بالإمرة المغيرة بن شعبة فقبل السلام عليك أيها الأمير، وكانوا قبل ذلك يقولون السلام عليكم، ثم تبعه الأمراء على ذلك .

أول من حمل إليه الثلج الحجاج بن يوسف، وسيأتي ذكره في الكلام على حمل الثلج لصاحب الديار المصرية في خاتمة الكتاب .

أول من نقش اسمه من الملوك على الدنانير والدرهم مع الخلفاء عن الدولة بن بويه وإخوته ملوك الديلم القائميين على الخلفاء العباسيين ببغداد، في سنة أربع وثلاثة وثلاثين، ثم تبعهم الملوك على ذلك .

أول من حمل السنجق على رأسه من الملوك غازي بن زكي صاحب الموصل، وهو أول من اختار الأجناد أن يركبوا بالسيوف في أوساطهم والدبابيس تحت ركبهم .
أول من حمل الشمع معه على البغال في الليل من ملوك الديار المصرية محمد بن طنج الإخشيد، وكانت الشمعة تجعل على مؤخر البغل وفراش راكب أمامها، وهو يلتفت في كل قليل يصالحها، فأبدها الملوك بعده هذه الفوانيس التي تحمل على البغال مع الفانوسية أمام ملوك الديار المصرية في الليل .

أول من لقب من وزراء الفاطميين بالديار المصرية بالملك فلان رضوان بن ولخشي وزير الحافظ : لقب بالملك الأفضل، وكان من قبله من الوزراء لا ينعت بالملك .

أول من لف العمامة على الكلوتة من ملوك الديار المصرية الأشرف خليل بن قلاوون، وكانت ملوك بني أيوب يلبسون كلوتة صفراء بغير عمامة ولذلك تراهم يطلقون على أرباب الأقاليم المتعممين في مقابلة أن الجند كانوا بغير عمامم .

أول من أعتاد حلق رأسه من ملوك الديار المصرية الملك الناصر محمد بن قلاوون حين حج ، وتبعه الأمراء والجند على ذلك وأستمر الأمر على ذلك إلى الآن ، وكان لهم قبل ذلك غدائر شعر مرسله كعرب الحجاز ونحوهم .

الوزراء

أول من سمى وزيرا في الإسلام أحمد بن سليمان الخلال، وزير السقّاح أول خلفاء بني العباس، ثم تبعه وزراء الخلفاء والملوك على ذلك، وكانوا قبل ذلك يقولون كاتباً .

أول من لُقّب بالصاحب من الوزراء، كافي الكفاة إسماعيل بن عبّاد، وكان السبب في ذلك أنه كان يصحب الأستاذ ابن العميد فكانوا يقولون صاحب ابن العميد ، ثم غلب عليه اللقب حتى قيل له الصاحب مجّزدا وتبعه الخلفاء على ذلك ، وسيأتي ذكره في الكلام على هذا اللقب في المقالة الثالثة .

أول من لقب بالملك الفلاني من وزراء الفاطميين بالديار المصرية رضوان بن ولخشي وزير الحافظ، لُقّب الملك الأفضل ، ثم صار رسماً لوزرائهم بعد ذلك ، وتبعهم ملوك الديار المصرية على ذلك إلى الآن .

القضاة

أول قاض كان في الإسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أستقضاها أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، في خلافته فكث سنة لا يأتيه أحد في قضية .

أول قاض بالمدينة النبوية عبد الله بن نوفل ، استقضاه عليها أمير المؤمنين عمر
ابن الخطاب رضى الله عنه في خلافته .

أول قاض بالكوفة جبير بن القشعم .

أول قاض بالبصرة أبو مريم الحنفى ، أحد بنى حنيفة ، استقضاه أميرها عمرو
ابن غزوان في سنة أربع عشرة من الهجرة .

أول قاض بمصر قيس بن أبي العاص السهمى ، استقضاه عليها عمر بن الخطاب
رضى الله عنه ، في خلافته في سنة ثلاث وعشرين من الهجرة .

أول قاض جمع له القضاء والشرطة بمصر عائش بن سعيد وليهما من قبل أميرها
مسلمة بن مخلد .

أول قاض بمصر نظر في الأحباس يعنى الأوقاف بمصر أبو محجن توبة في خلافة
هشام بن عبد الملك ، وكانت الأوقاف قبل ذلك بيد أربابها أو أوصيائهم — فقال :
هذه مألها إلى الفقراء والمساكين فأنا أضع يدي عليها ، فما مضت له سنة حتى صار
لها ديوان عظيم .

أول قاض بمصر نخرج لرؤية الهلال عبد الله بن لهيعة . قال أبو عمر الكندى ،
وهو أول قاض ولي مصر عن خليفة ، ولها عن أبي جعفر المنصور في أول سنة
خمسة وخمسين ومائة .

أول قاض ولي مصر ممن يقول بقول أبي حنيفة أبو الفضل إسماعيل بن اليسع
الكندى ، وكان أهل مصر قبله لم يعرفوا مذهب أبي حنيفة ولم يألوه ، وكان يرى
بطلان الأوقاف ، فكتب الليث فيه إلى أبي جعفر المنصور فكتب إليه بعزله .

أول قاض بمصر أدخل النصارى في خصوصياتهم إلى المسجد أبو عبد الرحمن محمد
ابن مسروق ، وكانت ولايته لها من قبل الرشيد في سنة سبع وسبعين ومائة ، وهو
أول من آخذ لمجلسه الشهود من قضاة مصر .

أول قاض ولي مصر من يقول بقول مالك أبو نعيم إسحاق بن الفرات مولى معاوية
ابن حديج ، وللشافعي عليه ثناء جميل في معرفة الخلاف ، وهو أول قاض آخذ للشهود
ديوانا وكتب أسماءهم فيه ، وكانت ولايته من قبل الرشيد في سنة بضع وثمانين ومائة .
أول قاض ولي على المصاحف أمينا بجامع القسطنطين الحارث بن مسكين ، وكانت
ولايته في خلافة المتوكل .

أول ما استقرت قضاة الديار المصرية أربعة ، من كل مذهب قاض في سلطنة
الظاهر بيبرس البندقدارى . وذلك أن القضاء بها كان بيد القاضى تاج الدين ابن
بنت الأعز وكان شافعيًا ، فكانت تأتيه المكاتيب المخالفة لمذهبه فيتوقف فيها فشق
ذلك على السلطان والأمراء فاتفق رأيهم على أن يجعلوا من كل مذهب قاضيا ليقتضى
كل منهم بمذهبه .

أول ما خص قاضى القضاة الشافعي بالديار المصرية بالتولية في أعمالها دون رفقته
الثلاثة في سلطنة المنصور قلاوون في شوال سنة ثمان وسبعين وستائة ، ذكره ابن
المكرم في تذكرته .

الأمور العلية

أول من أخطأ في القياس إبليس ، حيث قال ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ
مِنْ طِينٍ ﴾ أو لم يعلم أن ما ألقى إلى جوهر الطين زاد ونما ، وما ألقى إلى جوهر النار
اضمحل وتلاشى .

- أول من نطق بالحكمة أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام .
- أول من دلّ على تركيب الأفلاك ، وقدر مسير الكواكب ، وكشف عن أحوال تأثيراتها ، ونبه على عجائب الصنع فيها إدريس عليه السلام .
- أول من نظر في الطب افريدون ملك الفرس بعد الضحاك ، وفي أيامه ظهرت الفلاسفة وتكلموا في علومهم .
- أول من وضع النحو أبو الأسود الدؤلي بأمر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وهو أول من نقط المصاحف النقط الأول على الإعراب .
- أول من صنّف في علم الكلام واصل بن عطاء المعتزلي .
- أول من تُرجم له كتب الطب والنجوم وغيرها من كتب العلوم الفلسفية خالد بن يزيد ، ثم تلاه المأمون فأكثر من ذلك .
- أول من صنّف في غريب القرآن أبو عبيدة معمر بن المثنى .
- أول من صنّف في أصول الفقه الإمام الشافعي رضي الله عنه ، صنّف فيه كتابه الرسالة .
- أول من صنّف في الفقه مالك بن أنس صنّف كتابه الموطأ .
- أول من عمل العروض الخليل بن أحمد ، وهو أول من صنّف اللغة مرتبة على حروف المعجم صنّف كتابه " العين " .
- أول من صنّف في علم البديع عبد الله بن المعتز .
- أول من سنّ الإساءة والأجترأ في البحث فرعون ، بينما هو وموسى عليه السلام في مقام المناظرة حيث قال ﴿ وما رب العالمين ﴾ فأجابه موسى بقوله ﴿ ربّ السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾ إلى آخر المناظرة بينهما إذ قال ﴿ لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾ .

الخطابة

أول من جمع قريشا وخطبهم ونبه على أن النبي "صلى الله عليه وسلم" منهم قَصِيءُ
أبن كلاب، وسيأتي ذكره في الكلام على مكة في المسالك والممالك في المقالة الثانية.

أول من خطب على العصا وعلى الراحلة قُس بن ساعدة الإيادي، وقد تقدم
ذكر خطبته التي خطبها على الراحلة في الكلام على الخطب.

أول من عمّل المنبر تميم الداري عمله للنبي صلى الله عليه وسلم، وكان قد رأى منابر
الكنايس بالشام.

أول من أرنج عليه في الخطبة عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال: أيها الناس إن
اللذين كانا من قبلي كانا يُعدّان لهذا المقام مقالا، وأتم إلى إمام عادل أحوج منكم
إلى إمام قائل، وستأتيكم الخطبة على وجهها في الجمعة الأخرى ثم نزل.

أول من خطب جالسا معاوية حين كثر شحمه.

أول من أقام الجمعة بالمدينة قبل مقدم النبي صلى الله عليه وسلم، أسعد بن زُرارة
الأنصاري بنى بياضة.

أول من رفع يده في الخطبة يوم الجمعة عبيد الله بن عبد الله بن عمر.

أول من أخرج المنبر في العيد مروان بن الحكم ولم يكن قبل ذلك يُخْرَج.

الخط

أول من خط بالقلم في الجملة قيل آدم عليه السلام وقيل إدريس.

أول من كتب بالعربية قيل هود عليه السلام أنزل عليه، وقيل إسماعيل،
وقيل ثلاثة نفر من بولان من طيء أصطلحوا على ذلك، وسيأتي ذكره في الكلام
على الخط في الباب الثاني من هذه المقالة.

كُتَابَةُ الْإِنْسَاءِ

أول من كتب في أول الكتب بسم الله الرحمن الرحيم سليمان عليه السلام ، حين كتب لِبَلْقَيْسَ كما أخبر الله تعالى عنه بقوله ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ثم كتبها النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت .

أول من كتب في أول الكتب باسمك اللهم أُمِيَّةُ بن أبي الصَّلْتِ ، فكتبها قُرَيْشٌ في كتبهم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم ، يكتبها في ابتداء الأمر ، وسيأتي ذكر جميع ذلك في الكلام على المكاتبات في المقالة الرابعة .

أول من كتب من فلان إلى فلان قُسُّ بن ساعدة فيما قاله العسكري وأقزّه النبي صلى الله عليه وسلم ، في مكاتباته ، وسيأتي ذكره في الكلام على الفواتح في المقالة الثالثة .

أول من زاد في أوائل الكتب بعد التمجيد ” وأسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله “ هارون الرشيد ؛ وسيأتي ذكره في الكلام على المكاتبات في المقالة الرابعة .
أول من أَرخ بالهجرة أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، وسيأتي ذكره في الكلام على الخواتم في المقالة الثالثة .

أول من كتب في آخر كتابه وكتب فلان بن فلان أبي بن كعب قاله العسكري .
أول من ختم الكتب سليمان عليه السلام فقد قيل في قوله تعالى حكاية عن بَلْقَيْسَ ﴿ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَى كِتَابٍ كَرِيمٍ ﴾ إن المراد به المختوم . وأول من ختمها في الإسلام النبي صلى الله عليه وسلم ، حين قيل له : إن ملوك الأعاجم لا يقرءون كتابا غير مختوم فاتخذ خاتما نقش فصحه محمد رسول الله فكان يختم به الكتب ، وسيأتي ذكر ذلك في الكلام على الخواتم .

أول من آتخذ الطين لخم الكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قاله الثعالبي في "لطائف المعارف" .

أول من آتخذ ديوان الخاتم معاوية بن أبي سفيان ، حين كتب لرجل بمائة ألف درهم ففك الكتاب فأصلحها مائتين ، قاله الثعالبي في "لطائف المعارف" .

كتابة الأموال وما في معناها

أول من آتخذ الديوان في الإسلام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وضع ديوان الجيوش . وسيأتى ذكره في الكلام على الإقطاعات في المقالة السادسة .

أول من جعل الحساب في دفاتر خالد بن برمك فيما قاله الثعالبي ، وكان قبل ذلك في أدراج من كاغذ ورق .

أول من نقل ديوان العراق من الفارسية إلى العربية المجاج بن يوسف في خلافة عبد الملك بن مروان ؛ نقله له صالح بن عبد الرحمن ؛ كاتب كاتبه زاذان فروخ فكان كتاب العراقيين علماء وتلاميذ^(١) .

أول من نقل ديوان الشام من الرومية إلى العربية عبد الملك بن مروان ، نقله له سليمان بن سعيد مولى الحسين كاتب رسائل عبد الملك ، فولاه عبد الملك جميع دواوين الشام .

أول من نقل ديوان مصر من القبطية إلى العربية عبد العزيز بن مروان في إمارته على مصر ، ذكره صاحب "المنهاج في صنعة الخراج" .

أول من وسع في أرزاق الكتاب الفضل بن سهل وزير المأمون .

(١) في الأصل فروخ بالمهملة فكان كبار العراقيين وهو تصحيف فأحذره .

الخَرَاجُ وَالْجَزِيَّةُ

أول من وضع الخَرَاجَ وأزال المقاسمة كسرى أنوشروان؛ وذلك أنه مر على زرع
وأمرأة تمنع ولدها منه؛ فسألها عن ذلك، فقالت : إن للملك فيه حقا، ولا نستحله
حتى يأخذ الملك حقه، فقرر على الزرع قدرا معلوما وخلى بين الغلّة وأصحابها .

أول من وضع الخراج على الأَرْضَيْنِ وَالْجَزِيَّةِ عَلَى الْجَاهِلِيَّةِ فِي الْإِسْلَامِ أمير المؤمنين
عمر بن الخطاب حين مسح السّواد؛ ثم رسم بالمقاسمة أبو جعفر المنصور حين خرب
السّواد .

أول من ألزم الخراج كلفة الحمل ومؤنته زياد ابن أبيه فبقى حتى أسقطه زياد
ابن أبيه ^(١) .

أول من عرّف العرفاء على الناس بلجاية المال وغيره زياد، وكان يقول : العرفاء
كالأيدي والمناكب فوقها .

المعالمات

أول من ضرب الدنانير والدرهم في الإسلام عبد الملك بن مروان ، ضربها بالشام
من فضة خالصة، وكان الناس قبل ذلك يتعاملون بديراهم الفرس والرّوم؛ ولما ضربها
عبد الملك كتب إلى الحجاج بالعراق بإقامة رسم ذلك ، فضرب الدراهم ونقش عليها
قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ ، فسُمِّيَتِ الدَّرَاهِمُ الْأَحَدِيَّةُ ، وكرهها الناس لنقش
القرآن عليها، مع أنه قد يجعلها المحدث ، فسُمِّيَتِ الْمَكْرُوهَةُ .

قلت : وقد رأيت درهما من هذه الدراهم الأحادية، أرانيه بعض أعيان حلب،
وذكري أن فلاحا أصاب ركاذا لطيفا بها فأحضره إلى نائب حلب خوف عهده ،

(١) كذا في الأصل .

فاقتسمه هو وأهل مجلسه ، وعوّضه من كل درهم أضعافه ، فحصل لوالد ذلك الرئيس هذا الدرهم فوصل إليه بعده .

أول من شدّد في العيار في الدراهم يوسف بن عمر ، أمر أن لا يضرب درهم ينقص حبة فما فوقها ، ثم استخفّ درهما فوجده ينقص حبة ، فأمر أن يضرب كل رجل من الضرائين ألف سوط ، وكانوا مائة ضراب ، فضرب في نقص حبة واحدة مائة ألف سوط .

أول من شدّد في خلوص الذهب أحمد بن طولون صاحب مصر والشام ، وذلك أنه حين وجد الكثر المشهور بعين شمس ، وأتى له منه بميت وعلى صدره لوح ذهب مكتوب بالقبطية فعرّب فإذا فيه : أنا أكبر الملوك وذهبي أخلص الذهب ؛ فقال : قاتل الله من يكون هذا اللعين أكبر منه أو ذهبه أخلص من ذهبه ، ثم شدّد في التعليق حتى كان قاضي القضاة يحضّره بنفسه ، وسيأتي الكلام على ذلك في معاملة الديار المصرية في المقالة الثانية .

أول من ضرب الدراهم الزبوف في الإسلام عبيد الله بن زياد .

أول من اتخذ ألسنة الموازين من الحديد عبد الله بن عامر أمير المدينة من قبل عثمان .

أول من عمل الأوزان الحجاج بن يوسف ، عملها له سمير اليهودي ، وذلك أن الحجاج حين ضرب الدراهم الأحديّة على ما تقدّم ضربها سمير اليهودي من فضة خالصة أيضا وجعل فيها ذهبا فأراد الحجاج قتله ، فقال : ألا أدلك على ما هو خير للمسلمين من قتلي ؛ قال : هاته ، فوضع الأوزان ، وزن ألف ، ووزن خمسمائة ، ووزن ثلثمائة إلى وزن ربع قيراط فجعلها حديدا ونقشها وأتى بها إلى الحجاج فعفا عنه ، وكان الناس قبل ذلك إنما يأخذون الدرهم الوازن فيزنون به غيره .

أول من آتخذ الذراع التي يُذرع بها الأرضون أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين مسح السواد . وقيل أول من آتخذها زياد ، نظر إلى ثلاثة نفر من أطولهم ذراعا وأوسطه وأقصره بجمعها وأخذ ثلثها فجعلها ذراعا .

العمارة

أول بيت وضع في الأرض الكعبة ، بنتها الملائكة ، قال تعالى ﴿ إِنِّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ .

أول من جعل للكعبة بابا أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام .

أول من سقف بمكة سقفا قصي بن كلاب ، وكان الناس قبل ذلك إنما يتولون في العريش .

أول من بوب بمكة بابا حاطب بن أبي بلتعة .

أول من آتخذ بمكة رَوْشًا بُدَيْل بن ورقاء الخزاعي . وهو أول من بنى بها بيتا مربعا ، وكانوا قبل ذلك يتحامون التربع في البناء كيلا يُسبَّه بناء الكعبة .

أول قرية بُنيت بعد الطوفان قرية ثمانين ، من الجزيرة الفراتية ، بناها نوح عليه السلام ، وأنزل بها من كان معه في السفينة وهم ثمانون رجلا .

أول مدينة بُنيت بمصر بعد الطوفان مدينة منف وأصلها بالسريانية مافه ومعناها ثلاثون ، سميت باسم جماعة مصر بن بيصر الذين كانوا معه ، وسيأتي ذكرها في جملة قواعد مصر القديمة في المقالة الثانية .

أول من عمل الحمام سليمان عليه السلام ، صنعها له الجحش وعملوا له النورة لإزالة شعر كان علي بلقيس حين تزوجها فيما يقال .

أول من اتخذ الأجر هاما ن لفرعون حيث قال له ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا ﴾ .

أول من بنى بالحِصَّ والأجر في الإسلام زياد ابن أبيه بالبصرة .

الزراع

أول من غرس النخلة أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام .

الصناعات

أول من خاط الثياب إدريس عليه السلام، وكان الناس قبل ذلك يلبسون الجلود .

أول من عمل القراطيس يوسف عليه السلام . وقيل غيره ؛ وسيأتي ذكره في الكلام على ما يكتب فيه في المقالة الثالثة .

أول من عمل الصابون سليمان عليه السلام ؛ قاله الثعالبي .

أول من عمل الكيمياء قارون، ويقال إنه المراد بقوله تعالى حكاية عنه ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ .

أول من عمل الزجاج ملكي أحد ملوك مصر بعد الطوفان، وسيأتي ذكره في الكلام على ملوكها في المقالة الثانية .

أول من اتخذ الرجال عِلاف^(١) بن زبَّان الحميري، وكانت العرب قبل ذلك يركبون الخناصر .

أول من كسا الكعبة في الجاهلية تبع : أسعد أبو كرب .

(١) وقع في المخصص ربان بإهمال الزاى وفي القاموس والصحاح بإعجمها وهو الأقرب .

أول من اتخذ المحامل له الحجاج بن يوسف .
 أول من اتخذ السياط الأصبیح بن مالك ، أحد ملوك اليمن فقيل السياط
 الأصبحية .

اللباس

أول من لبس الثياب الحمر قارون ، ويقال إنه المراد بقوله تعالى ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ . وهو أول من أطال ثيابه وسحبها على الأرض محجبا وتبها .

أول من قور طيلسانا من العرب في الإسلام عبد الله بن عامر أمير المدينة من
 قبل عثمان . والطيلسان المقور على نحو الطرحة التي يلبسها الوزراء وقضاة القضاة
 الآن ، وكانت وزراء الفاطميين يلبسونها . وهو أول من لبس الخبز ، فقال أهل
 المدينة لبس الأمير جلد دُب .

أول ما لبس بنو العباس السواد حين قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية
 إبراهيم بن محمد الإمام أول قائم منهم بطلب الخلافة حزنا عليه ، فأستمر فيهم ، وفيه
 كلام يأتي في المقالة الثانية عند الكلام على لبس الخلفاء .

أول من لبس الخفاف الساذجة بالبصرة زياد بن أبيه .

أول من آخذى النعال من العرب جذيمة الأبرش .

أول من خلع نعليه عند دخول الكعبة في الجاهلية الوليد بن المغيرة .

أول من لبس النعال الصرارة المرواني كان قصيرا فاتخذ النعال الغلاظ الصرارة
 لتزيد في طوله وليسمعه جواريه وحرمه عند دخول بيته فتصاح شأنها من كانت على
 غير هيئة صالحة . قال العسكري : من ثم اتخذ الناس نعال الخشب يعني القباقيب .

أول من أمر بتغيير زيّ أهل الذمة المتوكّل، أمرهم أن يلبسوا العسليّ، ويتخذوا رُكب الخشب ونحو ذلك فيمتازوا عن المسلمين؛ وسيأتي ذكره في عقد صلح أهل الذمة في المقالة السابعة .

الحرب وآلاته

أول من ركب الخيل إسماعيل عليه السلام، وكانت قبله وُحوشاً لا تُركب فراضها وركبها، وتعلّم بنوه رياضتها منه، فصارت فيهم إلى الآن . ولذلك العرب أعرفُ الناس بالخيل . وهو أول من ميّزين العتاق منها والهُجُن في سهام أصحابها، فسبقت العتاق الهُجُن .

أول من اتخذ الدروع وليسها داود عليه السلام إذ يقول تعالى ﴿ وَاللَّهُ لَهُ الْحَدِيدَ أَنْ آتَمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرَ فِي السَّرْدِ ﴾ وكانوا قبل ذلك يلبسون تنانير من حديد .^(١)
أول من اتخذ السّلاح وجاهد سليمان عليه السلام فيما قاله العسكرىّ وفيه نظر .
أول من اتخذ الحديد من العرب ذُويزَن الحميرىّ، وكانت أسنتهم قبل ذلك صياصى البقر .

أول من اتخذ الحصن من الجبل للكائن الإسكندر .

أول من اتخذ المنجنيق الضّحاك حين أراد إلقاء إبراهيم عليه السلام في النار، وضعه فيه ورمى به في النار فكانت عليه برداً وسلاماً . وأول من اتخذ من العرب جذيمة الأبرش .
أول من اتخذ الجواسيس والعيون على العدو الإسكندر .

أول لواء عقده النبيّ صلى الله عليه وسلم ، لواء أبيص لعمه حمزة وقال "خُذْهُ يَا سَدَّ اللَّهَ" وذلك في رمضان من السنة التي هاجر فيها، وحمله له يزيد بن أبي يزيد .

(١) لعل مراده صفائح من حديد كما هو نص الأوائل والتفاسير واللفظة في نسخة الخط غير مجودة .

أول ما عُقدت الرايات في الإسلام يوم حُنين، عقد صلى الله عليه وسلم، راية
سوداء من بُرد عائشة، وكانوا قبل ذلك لا يعرفون إلا الألوية قاله العسكري .

أول من قتله النبي صلى الله عليه وسلم، بيده أبي بن خلف لعنه الله، طعنه صلى
الله عليه وسلم طعنة خفيفة فوجد لها ألماً شديداً فقبل له لن تبالى فقال : لو أن
مابى بأهل الأرض لقتلهم، ومات منها .

أول حرب كان بين أهل القبلة يوم صفين، بين عائشة وعلي رضي الله عنهما .

الأسماء والألقاب

أول من سُمي المصحف مُصحفاً أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين جمع القرآن .

أول من سُمي باسم النبي صلى الله عليه وسلم، محمد بن حاطب حين وُلد بأرض
الحبشة في الهجرة الأولى .

أول من سُمي بالحسن والحسين السَّبطان ولداً أمير المؤمنين علي بن أبي طالب
من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال أبو أحمد العسكري في كتابه
”التصحيف والتحريف“ قال المفضل حجب الله هذين الأسمين عن أن يسمي
بهما حتى سُمي بهما النبي صلى الله عليه وسلم، آبنيه عليهما السلام أما حسن وحسين
الموجودان في أنساب طي فالأول بسكون السين والثاني بفتح الحاء وكسر السين .

أول من سُمي عبد الملك في الإسلام عبد الملك بن مروان .

أول من سُمي بعد النبي صلى الله عليه وسلم أحمد أبو الخليل واضع العروض ولذلك
يقال فيه الخليل بن أحمد .

أول من سُمي الغالية غالية معاوية بن أبي سفيان سُمها من عبد الله بن جعفر
فوصفها له فقال إنها غالية .

أول ما سميت العطيّات جوائز في زمن عثمان رضی الله عنه ، وذلك أن ابن عامر كان على العراق من قبل عثمان فبعث جيشا مع قطن بن عبد عوف الهلالي إلى كَرمان ، فخرى الوادى بسيل خيف منه الغرق ، فقال قطن من عبّره فله ألف درهم ، فعبره رجلٌ ثم آخر ثم آخر حتى جاز جميعهم فأعطاهم قطن ألفا ألفا فكان جملة ذلك أربعة آلاف ألف ، فاستكثرها ابن عامر فكتب بها إلى عثمان فأجازها ، وقال : كل ما كان في سبيل الله فهو جائز .

أول ما لُقّب بفلان الدولة في أيام المكتفى بالله .

أول ما لقب بفلان الدين في أيام القادر بالله ؛ وسيأتى ذكره في الكلام على الألقاب في المقالة الثالثة .

الضيّفات

أول من قرئ الضيف إبراهيم الخليل عليه السلام حتى كُنّي أبا الضيّفان لكثرة قرّاه لهم .

أول من سنّ للضيف صدر المجلس بهرام جور : أحد ملوك الفرس .

أول من هشم الثريد للقرى في زمن المحل هاشم بن عبد مناف ، وبذلك سمى هاشما وكان اسمه قبل عمرا .

أول من فطر جيرانه في شهر رمضان عبيد الله بن العباس بن عبد المطاب . وهو أول من حمل الطعام على رءوس الناس لكثرتهم وأول من أنهبه .

وجوه السير

أول من اتخذ البيارستان بالشام للرضى الوليد بن عبد الملك .

أول من اتخذ البيارستان بمصر أحمد بن طولون بناه بالفسطاط ، وهو موجود إلى الآن .

أول من فوض إلى الناس إخراج زكاتهم بأنفسهم عثمان بن عفان رضى الله عنه .

الأعياد والمواسم

أول من اتخذ النيروز من الفرس جما الملك ، وهو الذى بنى مدينة طوس ، يقال إنه كان فى زمن هود عليه السلام ، كان الدين قبله قد تغير وظهر الجور ، فلما ملك جدد الدين وأظهر العدل فسمى اليوم الذى ملك فيه نوروز أى يوم جديد عزبته العرب فقلبوا الواو ياء فقالوا نيروز .

أول هدية كانت فى النيروز لجما الملك المتقدم ذكره ، وذلك أنه لم يظهر القصب إلا فى أيامه فذاقه بعض الناس فاستحلاه فصنع منه السكر فوافق فراغه فى أول يوم ملك فيه جما وهو يوم النيروز فأهدى إليه منه فى ذلك اليوم ، فصار سنة عندهم ، فهم يتهادون فيه بالسكر ، ثم توسعوا فيه فتهادوا بغير السكر .

أول ما ظهر المهرجان فى زمن أفريدون القائم بعد الضحاك من ملوك الفرس ، وذلك أنه لما ظفر بالضحاك فقيده وأقطع ما كان فى زمنه من الظلم والفساد ستمى اليوم الذى ظفر به فيه المهرجان . قال العسكرى : والمهر الوفاء كأن معناه سلطان الوفاء ، وكان سبيل الملوك فيه سبيل النيروز .

أول من آتتج المكاتبه بتهنئه النيروز والمهرجان أحمد بن يوسف أهدى إلى المأمون ستمط ذهب فيه قطعة عود هندی فى طوله وعرضه ، وكتب معه "هذا يوم جرت فيه العاده ، بإلطف العبيد الساده" .

الأقوال

أول من قال أما بعد داود عليه السلام، ويقال إنها فصل الخطاب المشار إليه بقوله تعالى ﴿وَأْتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ الْخِطَابِ﴾ . وقيل أول من قالها قُتَيْبُ بْنُ سَاعِدَةَ .

أول من قال مَرَحَبًا سَيْفُ بْنُ ذِي يَزَنَ ، قال ذلك لعبدالمطلب جدّ النبي صلى الله عليه وسلم ، حين وفّد عليه ليهنّته برجوع الملّك إليه ، فقال له ” مَرَحَبًا وَأَهْلًا ، وَنَاقَةً وَرَحْلًا ، وَمُنَاخًا سَهْلًا ؛ وَمَلِكًا رَجُلًا ، يُعْطَى عَطَاءً جَزَلًا ” .

أول من قال جعلت فِدَاكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَهُمَا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ ذَكَرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقِتْنَةَ ، فَقَالَ ” جَعَلْتُ فِدَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا أَصْنَعُ ؟ ” . وقيل أول من قالها له عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ حِينَ دَعَا عُمَرُ بْنُ وَدَةَ الْعَامِرِيَّ إِلَى الْمُبَارَاةِ ، فَقَالَ عَلِيٌّ ” جَعَلْتُ فِدَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَأْذِنُ لِي ؟ ” ثُمَّ اسْتَعْمَلَهَا الْكُتَّابُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي مَكَاتِبَاتِهِمْ .

أول من قال أطلال الله بقاءك عمر بن الخطاب رضى الله عنه : تكلم على رضى الله عنه بحضرته فى العدل بكلام أعجبه ، فقال له : صدقت أطلال الله بقاءك ؛ ثم نقلها الكتاب إلى استعمالها فى مكاتباتهم .

أول من قال أيّدك الله عمر بن الخطاب قاله لعلى عليه السلام أيضا .

الشعر والغناء

أول من قصّد القصائد مهلهل خال امرئ القيس ؛ والقصيد ما زاد على سبعة أبيات .

(١) فى نسخة الخط والمطبوع السابق ونحلا وهو تصحيف وقد ذكرت الكلمة فى اللسان فى مادة رب ح ل .

أول من أطال الرِّجَزَ العجاج . قيل إن الرجز كان في الجاهلية إنما يقول منه الرجل البيتين أو الثلاثة في الحرب ونحوه حتى جاء العجاج ففتح أبوابه وشبهه بالشعر، ووصف فيه الديار وأهلها ، والرسوم والفلوات ، ونعت الإبل والظلول ؛ وكان في أول الإسلام يشبه بامرئ القيس .

أول من أستخرج اللطيف من المعاني في الشعر وجرى على طريقه البديع مسلم ابن الوليد .

أول من أخرج الغناء العربيّ جرادة جارية ابن جُدعان فيما قاله العسكري . وفيه نظر فإن الغناء معهود من عهد عاد حتى كان من جملة مغنياتهم الجرادتان اللتان يضرب بهما المثل فيقال "غَتَّه الجرادتان" .

أول من علم الجوارى المُنَمَّات الغناء إبراهيم الموصلي ، وكان الناس بمكة لا يعلمون الجارية الحسناء الغناء .

النساء

أول امرأة خُفِضَتْ هاجرُ أم إسماعيل ؛ وذلك أنها حين تغيرت عليها سارة لتسرى إبراهيم عليه السلام بها حلفت لتقطعن شيئا من جسدها فأشار عليها إبراهيم أن تخفضها ، وثقبت أذنيها ، وتجعل فيهما قرطين ففعلت فزادت حسنا .

أول امرأة آكتحلت بالإمد زرقاء اليمامة ، وكانت تنظر مسيرة ثلاثة أيام .

أول امرأة تلبأت بجاج التيمية التي تزوجها مسيمة الكذاب .

(١) في نسخة الخط لبشرى وهو تصحيف ظاهر .

أول امرأة لبست المصبغات في الإسلام شُميلة زوج عباس ، وهي أول من
عبّات الطيب ^(١) .

الموت والدفن

أول امرأة حُملت في نعش زينب بنت جحش زوج النبي صلى الله عليه وسلم .
أول من دُفِنَ بالبقيع عثمان بن مظعون ، وهو أول من مات من المهاجرين بالمدينة .
أول من دُفِنَ بقرافة مصر رجلٌ اسمه عامر فقال عمرو بن العاص : عمّرت والله .

أمور تنسب للجاهلية

أول من حرّم الخمر في الجاهلية الوليد بن المغيرة ؛ وقيل قيس بن عاصم ؛ ثم جاء
الإسلام بتقريره .

أول من حرّم القمار في الجاهلية الأقرع بن حابس التيمي ؛ ثم جاء الإسلام بتقريره .

أول من رجم في الزنا في الجاهلية ربيع بن حذان ؛ ثم جاء الإسلام بتقريره في المحصن .

أول من حكم أن الولد للفراش في الجاهلية أكرم بن صيفي حكيم العرب ، ثم جاء

الإسلام بتقريره .

أول من قطع في السرقة في الجاهلية الوليد بن المغيرة ، ثم جاء الإسلام بتقريره .

أول من سنّ الدية مائة من الإبل عبدُ المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم ؛

وذلك أنه نذر إن ولد له عشرة ذكور ليدبحن العاشر فولد له عشرة ، وكان عاشرهم

عبدُ الله أبو النبي صلى الله عليه وسلم ، فرام ذبحه ، فعارضه قريش في أمره ، وأشير عليه

بأن يُقرع بينه وبين الإبل حتى تخرج القرعة على الإبل ؛ فأقرع بينه وبين عشرة

(١) في اللسان يقال عبّ الطيب ... يعبؤه عباً صنعته وخلطه .

نفرجت القرعة عليه، ثم زاد عشرة بعد عشرة وهي تقع عليه حتى بلغ مائة من الإبل فوَقعت القرعةُ عليها فتحرها، فكان النبي صلى الله عليه وسلم، يقول "أنا ابن الدَّبِيحَيْنِ" يعني إسماعيلَ وعبدَ الله، ثم جاء الإسلام بتقريبها .
 أول من أوقد النار بالمزدلفة حتى يراها من بالموقف قصيُّ بن كلاب،
 فهي تُوقد إلى الآن .

أول من أهدى البُدن إلى البيت إلياس بن مُضَر .
 أول من أظهر التوحيد بمكة قبل البعثة قُس بن ساعدة .
 أول من خَصَب بالوسمة من قريش عبدُ المطلب .
 أول من نَسأَ النساء، وسيب السوائب، وجعل الوصيلة والحاجي عمرو بن لُحِيٍّ
 وهو أبو خزاعة .

الضرب الثاني

(من النبذ التاريخية التي لا يسع الكاتب جهلها نوادر الأمور ولطائف
 الوقائع والمآجريات)

العراق وشرف الآباء

قال الثعالبي، أشرف الأنبياء في النبوة يعني تواصل الآباء فيها يوسف بن يعقوب
 ابن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام؛ وشاهد ما قاله أن النبي صلى الله عليه وسلم،
 يقول "الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن
 إبراهيم" ولا يخفى أن إخوته عليهم السلام في هذه الرتبة في العرَاقَة .
 أعرق الأكَسرة في المُلْك شيرويه بن أبرويز بن أردشير بن بابك ملك ابن ملك
 ابن ملك ابن ملك .

(١) مراده أعرق الأنبياء كما تقتضيه العبارة بعد .

أعرق الناس في صحبة النبي صلى الله عليه وسلم ، محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق بن أبي خُفافة رضى الله عنهم ، أربعتهم رأوا النبي صلى الله عليه وسلم ، وصحبوه .

أعرق الخلفاء في الخلافة المتتصر ، بن المتوكل ، بن المعتصم ، بن الرشيد ، بن المهدي ؛ بن المنصور في آبائه خمسة آباء خلفاء وهو سادسهم فيها . وفي معناه أخواه المعتمد والمعتز ؛ أما عبد الله بن المعتز وإن زاد أبا في الخلافة فإنه لم تمض عليه مدة تعتبر ، ولذلك لا يعدّه أكثر المؤرّخين في جملة الخلفاء .

أعرق الناس في الملك والخلافة جميعا باعتبار الأصول والحواشي من الذكور والإناث يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان . أما من جهة الخلافة فهو خليفة ، وأبوه خليفة ، وجدّه خليفة ، وجدّ أبيه خليفة ، وعمومته خلفاء . وأما من جهة الملك فأمه شاهر بنت فيروز ، بن يزيد جد ، بن شهر يار ، وأمها من بنات شيرويه ابن أبرويز ، وأم شيرويه مريم بنت قيصر ، وأم فيروز بنت خاقان ملك الترك .

أعرق الوزراء في الوزارة أبو علي الحسين ، بن القاسم ، بن عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وأخوه أبو جعفر محمد بن القاسم ، فإن القاسم وُزّر للمقتدر ومحمد وُزّر للقائم وأباهما القاسم وُزّر للمعتضد ثم للكتفى بعده ، وعبيد الله وُزّر للمعتضد ، وسليمان وُزّر للمهتدي وبعده للمعتد فكل من الحسين ومحمد وزير ابن وزير ابن وزير يعني في آبائه ثلاثة وزراء ، وهو الرابع فيها .

أعرق الناس في القتل عمارة بن حمزة بن مُصعب بن الزبير بن العوام بن خويلد ، قتل عمارة ، وأبوه حمزة جميعا يوم قديد في حرب الإباضية ، وقتل مُصعب بدير الجلائق في الحرب بينه وبين عبد الملك ، وقتل الزبير بوادي السباع في توبة الجمل ،

وقتل العوام في حرب الفجار ، وقُتِلَ خُوَيْلِدٌ في حرب نُزَاعَةَ . قال الثعالبي ولا يعرف في العرب والعجم ستة مغبونون في نَسَقٍ واحد إلا آل الزبير .

أعرق الناس في الفقه إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة ، كان كل من إسماعيل وحماد فقيها وأبو حنيفة الإمام الأعظم .

أعرق الناس في القضاء بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه : كان بلال قاضيا على البصرة ، وأبو بردة قاضيا على الكوفة ، وأبو موسى قاضيا لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه .

أعرق الناس في حِجَابَةِ الخلفاء العباس بن الفضل بن الربيع ، فإن العباس حجب الأمين ، والفضل حجب الرشيد قبل أن يتقلد عنه الوزارة ، والربيع حجب المنصور والمهدي ؛ وفي ذلك يقول أبو نؤاس من أبيات :

سَادَ الرَّبِيعُ وَسَادَ فَضْلٌ بَعْدَهُ * وَنَمَتَ بَعْبَاسُ الْكَرِيمِ فُرُوعُ
عَبَّاسٌ عَبَّاسٌ إِذَا أَحْتَدَمَ الْوَعْيُ * وَالْفَضْلُ فَضْلٌ وَالرَّبِيعُ رَبِيعُ

أعرق الناس في الشعر سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام ، ستة كلهم شعراء على نَسَقٍ ؛ ثم كانت العراقة في الشعر بعده مع زيادة آباء لمتوج ، بن محمود ، بن مروان ، بن يحيى ، بن مروان ، بن الجبوب ، بن مروان ، ابن سليمان ، بن يحيى ، بن أبي حفصة : مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه ؛ عشرة على نَسَقٍ :

الغايات من طبقات الناس

أشرف الناس في الأمة نسبا الحسن والحسين عليهما السلام ، رسول الله صلى الله عليه وسلم جدّهما ، والقاسم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم خالهما ، وعلى بن

أبي طالب أبوهما ، وفاطمة بنتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمهما ، وخديجة بنت حُوَيْلِدٍ جدتهما .

أشرف النساء في النسب والصَّهر فاطمةُ ؛ رسول الله صلى الله عليه وسلم أبوها ، وخديجةُ أمها ، وعليّ بن أبي طالب زوجها ، والحسن والحسين سيّدَا شباب أهل الجنة ولداها .

أشرفُ الناس في المصاهرة عبدُ الله بن عمرو بن عثمان ، تزوج إليه أربعة من الخلفاء ؛ تزوج الوليد بن عبد الملك بنته عبدة ، وسليان بن عبد الملك بنته عائشة ، ويزيد بن عبد الملك بنته أم سعيد ، وهشام بن عبد الملك بنته رقية : قال الثعالبي ولا يُعرف رجل له أربعة أختان خلفاء إلا هو .

غرائب أمور تتعلق بالخلفاء

امرأةٌ ولَّدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعليّ ، وطلحة والزبير ؛ وهي حفصة ابنةُ محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ؛ أبوها محمد المدبج ؛ وأمها خديجة بنتُ عثمان بن عمرو بن الزبير ، وأم عمرو أسماء بنت أبي بكر ، وأم المدبج فاطمة بنت الحسين بن عليّ ؛ وأم الحسين فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وأم فاطمة بنت الحسين أم إسحاق بنت عبيد الله ؛ وأم عبد الله بن عمرو زينب بنتُ عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فهي من ولد كل من المذكورين .

أربع نسوة في الإسلام ولدت كل واحدة منهن خليفتين ؛ فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولدت الحسن والحسين ، وقد بُرِّعَ لهما بالخلافة ؛ وولادة بنتُ العباس العبسية زوجةُ عبد الملك بن مروان ولدت له الوليد وسليان ؛ وهما

خليفتان؛ وساهر بنت فيروز بن يزيد زوجة الوليد بن عبد الملك ولدت له يزيد وإبراهيم فوليا الخلافة، والخيزران ولدت للمهدي موسى الهادي وهارون الرشيد .
 امرأة لها اثنا عشر محرما كل منهم خليفة ، وهي عاتكة بنت يزيد بن معاوية ،
 يزيد أبوها ، ومعاوية بن أبي سفيان جدّها ، ومعاوية بن يزيد أخوها ، وعبد الملك
 ابن مروان زوجها ، ومروان بن الحكم حموها ، ويزيد بن عبد الملك أبناها ، والوليد^(١)
 وسليمان وهشام أبناء عبد الملك أولاد زوجها .

ومثلها من بنى العباس زبيدة بنت جعفر بن المنصور ، جدّها المنصور ، وأخو
 جدّها السفاح ، وزوجها الرشيد ، وعمّها المهدي ، وأبناها الأمين ، وأبناء زوجها المأمون
 والمعتمد والواثق والمتوكل .

خليفة سلم عليه بالخلافة عمّه وعم أبيه وعم جدّه ، وهو هارون الرشيد سلم عليه
 سليمان بن المنصور ، والعباس بن محمد عم أبيه المهدي ، وعبد الصمد بن علي عم
 جدّه أبي جعفر المنصور .

خليفة سلم عليه من أهل بيته سبعة كل منهم ابن خليفة ، وهو المتوكل ، سلم عليه
 أحمد بن الواثق ، وأحمد بن المعتصم ، وسليمان بن المأمون ، وعبد الله بن الأمين ،
 وأبو محمد بن الرشيد ، والعباس بن الهادي ، ومنصور بن المهدي .^(٢)

خليفة قبل هو وأبنه يد خليفة فأجاز أبنه بجائزة ثم قبل المقبلة يده هو وأبنه يد
 المقبل أولا وهو خليفة فأجاز أبنه بمثل تلك الجائزة ؛ وهو المعتصم ، وقف لإبراهيم
 ابن المهدي أيام خلافته ثم نزل المعتصم فقبل يده ثم أذن منه أبنه هارون فقبل
 يده ، وقال يا أمير المؤمنين عبدك هارون أبني فأمر له بعشرة آلاف درهم ، فلما

(١) المحدود تسعة فقط وكذا في المثل بها فتنه .

(٢) كذا في الأصل .

أَسْتُخْلِفَ الْمُعْتَصِمَ وَقَفَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمَهْدِيِّ ثُمَّ تَرَجَّلَ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ بَيْنَهُ وَقَبْلَ يَدِهِ وَأَدْنَى مِنْهُ أَبْنَةُ اللَّهِ فَقَبَّلَ يَدَهُ ، وَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدَكَ هَبَةَ اللَّهِ أَبْنَى فَأَمَرَ لَهُ بِعَشْرَةِ آلَافِ دَرَاهِمٍ . قَالَ الصَّوَلِيُّ وَلَا يَعْرِفُ مِثْلَ ذَلِكَ لِخَلِيفَتَيْنِ وَابْنَيْهِمَا .

خليفة جرت أموره كلها على ثمانية ، وهو المعتصم ، فهو الثامن من خلفاء بني العباس ، ومولده سنة ثمان وسبعين ومائة ، وعمره ثمان وأربعون سنة ، وكان ثامن أولاد الرشيد ، وملك ثمان سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام ، وخلف ثمانية بنين ، وثمان بنات ، وثمانية آلاف دينار ، وثمانية وعشرين ألف درهم ، وثمانية عشر ألف دابة ، وله ثمان فتوحات ، وتوفي لثمان بقين من شهر ربيع الأول ومن ثم سمي المثنى .

خليفة له عشرة أولاد وعشرة إخوة ، وعشرة أولاد إخوة ، وهو مروان بن الحكم فأولاده العشرة عبد الملك ، ومعاوية ، وعبد العزيز ، وقس ، وعمر ، ومحمد ، وعبيد الله ، وعبد الله ، وأيوب ، وداود . وإخوته عبد الواحد ، وعبد الملك ، وعبد العزيز ، وسعيد بنو الحارث بن الحكم ، وحرب ، وعثمان ، وعمر بنو عبد الرحمن ابن الحكم ، ويوسف ، وسليمان ، ويحيى بنو يحيى بن الحكم .

ليلة ولد فيها خليفة ، ومات فيها خليفة ، وولى فيها خليفة ؛ وهى ليلة السبت لأربع بقيت من ربيع الأول سنة سبعين ومائة ؛ ولد فيها المأمون ، ومات فيها الهادى ، واستخلف فيها الرشيد ؛ ولا يعهد مثل ذلك فى زمن من الأزمان .

خليفتان أحدهما ابن الآخر بين قبريهما بُعد كبير ؛ وهما الرشيد والمأمون ، قبر الرشيد بطوس وقبر المأمون بطرسوس .

(١) الممدود أولاد إخوة وسقطت الإخوة من قلم الناصح .

خليفة ركب البريد ؛ وهو موسى الهادي ، مات أبوه المهديّ وهو نائبه عليّ جرجان ، فكتب إليه الرشيد بالخبر والبيعة ووجه إليه الخاتم والبُرْدَة والقضيب فركب البريد وأتى إلى بغداد بعد ثلاثة عشر يوماً من موت المهديّ ، ولا يعرف خليفة ركب البريد غيره .

خليفان أسم كل منهما جعفر قتل كل منهما في يوم الأربعاء وهما المتوكل والمقتدر .

خليفة وليّ الخلافة ستين سنة متوالية ؛ وهو المستنصر بالله الفاطميّ خليفة مصر عليّ أن الثعالبيّ في "لطائف المعارف" قال استقرت ولاية معاوية بن أبي سفيان أربعين سنة عشرون منها إمارة وعشرون منها خلافة .

خليفة كانت خلافته يوماً أو بعض يوم ، هو عبد الله بن المعتز ، بويح بعد خلع المقتدر ، فلما كان من الغد حاربه غلمان المقتدر وعاونهم العامة فهرب وأختفى ثم ظفر به .

أربعة إخوة ولي كل منهم الخلافة ، وهم الوليد ، وسليمان ، ويزيد ، وهشام أولاد عبد الملك بن مروان .

لم يل الخلافة من أبوه حىّ سوى أبي بكر الصديق والطائع لله وكلاهما أسمه أبو بكر .

لم يل الخلافة من أبواه هاشميّان سوى الحسن بن عليّ من فاطمة ومحمد الأمين ابن الرشيد من زبيدة .

لم يل الخلافة من أسمه العباس سوى أمير المؤمنين المستعين بالله أبي الفضل العباس بن المتوكل عليّ الله محمد خليفة العصر ، على كثرة هذا الأسم في أولاد الخلفاء العباسيين وكونه أسم جدّهم الأكبر . قلت : وقد أخبرني أمير المؤمنين المستعين

المشار إليه أن تسميته العباس كانت برؤيا رآها الشيخ بدر الدين البهنسى بمكة المشرفة، رأى العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه فى النوم، وهو يقول له قل لولدى محمد، (يعنى المتوكل على الله) إذا ولد له ولد يسميه العباس .
وسياتى ذكر ذلك فى الكلام على العهد الذى أنشأه قبل ولايته الخلافة بنحو ثمان سنين أمتحانا للخاطر فى جملة العهود فى المقالة الخامسة .

(أعجوبة) قال الصولى : الناس يرون أن كل سادس يقوم بأمر الدين منذ أول الإسلام لا بد أن يخلع، النبى صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، والحسن نخلع . ثم معاوية، ويزيد، ومعاوية، ومروان، وعبد الملك، وعبد الله ابن الزبير نخلع . ثم الوليد بن عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، ويزيد، وهشام، والوليد بن يزيد نخلع . ثم كان منهم يزيد بن الوليد، وإبراهيم بن الوليد، ومروان بن محمد وهو آخرهم ولم يكن من بعده من بنى أمية من يتم العدد بهم ستة فالنبي . ثم كانت الدولة العباسية فكان السقّاح، والمنصور، والمهدى، والهادى، والرشد، والأمين نخلع . ثم المأمون، والمعتمد، والواثق، والمتوكل، والمتصر، والمستعين نخلع . ثم المعتز، والمهتدي، والمعتمد، والمعتمد، والمكتفى، والمقتدر نخلع فى فتنة المعتز . ثم ردّ إلى الخلافة ثم قتل، ولم يعتدّ بخلافة ابن المعتز نخلعه فى يومه . قال صاحب "رأس مال النديم" والثعالبيّ فى "لطائف المعارف" : ثم القاهر، ثم الراضى، ثم المتقى، ثم المستكفى، ثم المطيع، ثم الطائع نخلع . قال الصلاح الصفدى : ثم القادر، والقائم، والمقتدى، والمستظهر، والمسترشد، والراشد، نخلع . ثم المقتنى، والمستنجد، والمستضىء، والناصر، والظاهر، والمستعصم نخلع وقتل أيام هولاء كو عند استيلائه على بغداد . قلت : هذا غلط فاحش من الصلاح الصفدى لا يليق بمثله فإنه أسقط قبل المستعصم المستنصر وهو السادس .

وقد ذكر الشيخ شمس الدين ابن نباتة في تاريخ الخلفاء أنهم لما بايعوا المستنصر المذكور خلعوه ثم أعادوه فرارا من التطير بخلع السادس ، وحيةئذ فيكون من بعد المستنصر المستعصم المذكور ثم المستنصر أحمد ، الذي أتى به الظاهر ببيرس وتوجه إلى الديار المصرية ، ثم الحاكم أحمد ، ثم ابنه المستكفي سليمان ، ثم ابنه المستعصم أحمد ، ثم الواثق ، إبراهيم نخلع . ثم المعتضد أبو بكر بن المستكفي ، ثم ابنه المتوكل ، ثم المعتصم زكريا ، ثم الواثق عمر ، ثم المستعين أبو الفضل العباس خليفة العصر أدام الله أيامه وهو الخامس والله تعالى أعلم بمن يكون السادس وما يكون من أمره .

قال الصلاح الصفدي : وكذلك العبيديون المعروفون بالفاطميين كان منهم بالمغرب عبد الله المهدي ، والقائم بأمر الله ، والمنصور ، والمُعزُّ بنى القاهرة بالمغرب ثم بمصر والعزیز ، والحاكم قتلته أخته . ثم الظاهر ، والمستنصر ، والمستعلي ، والآمر ، والحافظ ، والظافر نخلع وقتل ؛ ثم الفائز ، والعاقد وهو آخرهم . قال وكذلك بنو أيوب في ملك مصر أولهم صلاح الدين ، ثم ولده العزيز ، وأخوه الأفضل بن صلاح الدين ، والعاقل الكبير أخو صلاح الدين ، والكامل ولده ، والعاقل الصغير نخلع . ثم كان منهم الصالح نجم الدين أيوب ، ثم المعظم توران شاه ، ثم أم خليل شجرة الدر ، ثم الأشرف موسى وهو الرابع ولم يكن منهم من يكمل الستة . قال : وكذلك دولة الأتراك ملوك مصر أولهم المعز أيك ، وابن المنصور ، والمظفر قطز ، والظاهر ببيرس ، وابن السعيد برتكة ، وأخوه العادل سلامش نخلع ، وملك السلطان الملك المنصور قلاوون .

قلت : ثم ابنه الأشرف خليل ، ثم المعظم بيدرا ولم يعتد به نخلعه من يومه كما لم يعتد بابن المعتز في الخلفاء ، ثم الناصر محمد بن قلاوون ، ثم العادل كتبغا ، ثم المنصور لاجين ، ثم المظفر ببيرس الجاشنكير نخلع ، ثم المنصور أبو بكر بن الناصر محمد ، ثم الأشرف بكك ابن الناصر محمد ، ثم الناصر أحمد بن الناصر محمد ، ثم الصالح إسماعيل بن الناصر محمد ،

ثم الكامل شعبان بن الناصر محمد ، ثم المظفر حاجي بن الناصر محمد نخلع ؛ ثم الناصر حسن بن الناصر محمد ، ثم الصالح صالح بن الناصر محمد ، ثم المنصور محمد بن المظفر حاجي ، ثم الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر محمد ، ثم آبنه المنصور علي ، ثم الصالح حاجي بن الأشرف شعبان نخلع ؛ ثم الظاهر برقوق ، ثم الناصر فرج سلطان العصر وهو الثاني والله أعلم بمن يكون السادس .

غرائب تتعلق بالملوك

ملك مُلْك وهو في بطن أمه ؛ وهو سابور ذو الأكتاف أحد ملوك الفرس ، مات أبوه وهو حمل ولم يكن له ولد سواه ، فعقدوا التاج على رأس أمه على أن يكون من في بطنها هو الملك كائنا من كان ، فلما وضعته ملكوه .

ثلاثة من ملوك فارس آبن وأب وجد آسمهم واحد ، وهم بهرام بن بهرام بن بهرام ؛ ومثلهم من ملوك غسان من العرب الحارث بن الحارث بن الحارث . قال الشعالي : وهذا التناسق لا يقع إلا في الأكابرة والرؤساء وقد جاء من هذا النمط في سادات الإسلام الحسن بن الحسن بن الحسن السبط .

ملكان إسلاميان أول آسم كل واحد منهما عين قتل كل واحد منهما ثلاثة ملوك أول آسم كل واحد منهم عين ، أحدهما عبد الملك بن مروان قتل عمرو بن سعيد وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . والثاني أبو جعفر المنصور اسمه عبد الله قتل أبا مسلم الخراساني وأسمه عبد الرحمن وعمه عبد الرحمن بن علي وعبد الجبار بن عبد الرحمن والي خراسان .

قال الشعالي : أربعة في الإسلام قتل كل واحد منهم أكثر من ألف ألف رجل ، وهم الحجاج بن يوسف ، وأبو مسلم الخراساني ، وباك ، والبرقي .

قلت : وقد وقع لثيمور كور كان المعروف بتمرنك صاحب ما وراء النهر على رأس الثمانمائة من الهجرة ما هو أكثر من ذلك ، فإنه قد فتح من الهند إلى الخليج القسطنطيني ، وقتل من كل إقليم من الخلق ما لا يحصى حتى كان يبنى بالرؤوس في كل مدينة يفتحها منارا .

غرائب تتعلق بسراة الناس

ثلاثة بنو أعمام في زمن واحد ، كل منهم سيد جليل ، لم يصلح للإمامة أو الرياسة ثم كان لكل منهم ابن اسمه محمد كذلك ، وهم علي بن عبد الله بن عباس وأبنة محمد وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وأبنة محمد ، وعلي بن عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب وأبنة محمد . قال الجاحظ وهذا من غرائب ما يتفق في العالم ، فإن هذا أمر لم يشاركهم فيه أحد .

أب وأبن تقارب ما بينهما من العمر تقاربا شديدا وهما عمرو بن العاص وأبنة عبد الله كان بينهما في السن ثلاث عشرة سنة . قال الثعالبي ولا يعهد مثل ذلك . أخوان تباعد ما بينهما في السن تباعدا شديدا وهما موسى بن عبيدة الربذي المحدث^(١) وأخوه عبد الله كان بينهما في السن مائة سنة ولم يعرف مثل ذلك في غيرهما .

أربعة إخوة كل واحد منهم أسن من الآخر بعشر سنين ، وهم أولاد أبي طالب كان طالب أسن من عقيل بعشر سنين ، وعقيل أسن من جعفر بعشر سنين ، وجعفر أسن من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بعشر سنين .

ثلاثة إخوة ولدوا في سنة واحدة وقتلوا في يوم واحد وسن كل واحد منهم اثنتان وأربعون سنة ، وهم زيد ، وزباد ، ومدرِك أولاد المهلب بن أبي صفرة . وهذه من غرائب النوادر .

(١) في الأصل الزبيرى وهو تصحيف عن الربذى كما يعلم من الخلاصة للزرجى .

رجل مكث عشر سنين لا يولد له إلا رجل ولا يموت له إلا أنثى، وهو المهلب
ابن أبي صُفرة في غير أولاده الثلاثة المذكورين .

أربعة رجال في الإسلام لم يميت كل منهم حتى رأى من ولده وولد ولده أكثر
من مائة فيما قاله الثعالبي وغيره ، وهم أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وخليفة بن براء السعدي ، وعبد الرحمن بن عمر الليثي ، وجعفر بن سليمان
الهاشمي ؛ ومنهم من يذكر بدله أبا بكره مولى النبي صلى الله عليه وسلم .

خمسة إخوة تباعدت قبورهم أشد تباعد ، وهم بنو العباس بن عبد المطلب قبر
عبد الله بالطائف ، وقبر عبيد الله بالمدينة ، وقبر معدة بافريقية ، وقبر الفضل بالشام ،
وقبر قثم بسمرقند .

فاض قضى في الإسلام خمسا وسبعين سنة وهو شريح بن الحارث الكندي
استقضاه عمر على الكوفة فبقى بها خلافة عمر وما بعدها إلى تمام المدة المذكورة لم
يتعطل منها سوى ثلاث سنين امتنع فيها من القضاء في فتنة ابن الزبير .

أوصاف جماعة من المشاهير

”من كان من الخلفاء أصلع“ قال الثعالبي : كان الصلَع في عمر ، وعثمان ، وعلي ،
ومروان بن الحكم ، وعمر بن عبد العزيز ؛ قال ثم أقطع الصلَع من الخلفاء .

”من كان في غاية الطول“ ، كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كأنه راكب
والناس يمشون لطوله ؛ وكان عدي بن حاتم إذا ركب تكاد رجلاه تخط في الأرض ؛
وكذلك جرير بن عبد الله البجلي ، وكان قس بن ساعدة في نهاية الطول والجسام ،
وكان عبد الله بن زياد إذا رآه الرائي وهو ماش ، ظن أنه راكب لطوله ؛ وكان
علي بن عبد الله بن عباس في غاية من الطول ، وكان أبوه عبد الله أطول منه ، وجدّه

العباس أطول من أبيه ؛ ويقال إن جَبَلَةَ بن الأيهم النَّسَائِيَّ كان طوله اثني عشر شبرا .

”من كان في غاية القصر“ قال الثعالبي : كان عبدُ الله بن مسعود رضى الله عنه شديدَ القِصَرِ يكاد الجُلُوسُ يوازونه من قصره ؛ وكان إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قصيرا دَحْدَاحا ، وكان الحُطَيْيئة الشاعر مُفْرَط القصر ، ولذلك لُقِّبَ بالحُطَيْيئة ، وكان ذو الرِّمَّة الشاعر قصيرا جدًّا ؛ ورأيت في بعض التواريخ أن كثيرَ عَزَّة كان طوله ثلاثة أشبار ؛ وكان العباس بن الحسن في غاية من القصر وفيه قيل :

لَا تَنْظُرَنَّ إِلَى الْعَبَّاسِ مِنْ قِصَرٍ * وَأَنْظُرْ إِلَى الْفَضْلِ وَالْمُجَدِّ الَّذِي شَادَا
إِنَّ النُّجُومَ نُجُومَ الْجَوِّ أَصْغَرُهَا * فِي الْعَيْنِ أَبْعَدُهَا فِي الْجَوِّ إِصْعَادَا

”من عُرف بالدهاء من العرب“ معاوية بن أبي سفيان ، زيادُ ابن أبيه ، عمرو بن العاص ، المغيرة بن شُعبَةَ ، قيس بن سعد بن عبادة ، عبد الله بن بديل الخُرَاعِي .
”من نُسِبَ منهم إلى الحُتَّى“ عامر بن كُرَيْز ، معاوية بن مروان بن الحكم ، بَكَّارُ ابن عبد الملك بن مروان ، العاص بن هشام ، عبد الله بن معاوية بن أبي سفيان ، سهيل بن عمرو وأخوه سُهَيْل ، العاص بن سعيد بن العاص .

”المؤلفة قلوبهم في أول الإسلام“ قال الثعالبي : هم من قرئش أبو سفيان ابنُ حرب ، وسُهَيْل بن عمرو ، وَحُوَيْطِب بن عبد العُزَّى ، وَهَبَّار بن الأسود ، والحارث بن هشام ، وَحَكِيم بن حِرَام ، وَصَفْوَان بن أُمِيَّة ، وَأَنَس بن عدى . ومن فزارة عِيْنَةَ بن حِصْن . ومن تميم الأقرع بن حابس . ومن بنى سُليمان العباس بن مُرداس . ومن ثَقِيف العلاء بن الحارث .

”من أصيبت عينه“ أبو سفيان بن حرب ، ذهب عينه يوم الطائف ثم عمي بعد ذلك . الأشعث بن قيس ، ذهب عينه يوم اليرموك ، المغيرة بن شُعبَةَ كذلك

الأشتر النخعي جُرير بن عبد الله البجليّ ، عدى بن حاتم ، عتبة بن أبي سفيان ، المختار
أبن أبي عبيد ، الأحنف بن قيس ، المهلب بن أبي صفرة ، طاهر بن الحسين ، عمرو
أبن الليث الصفار .

”من سُمِلت عيناه من الخلفاء والملوك“ أما من الخلفاء فالقاهر ، والمتقى ،
والمكتفي ؛ وأما من الملوك فهُرْمُز بن أنوشروان أحد الملوك الأكاسرة ، صمصام
الدولة بن بويه ، منصور بن نوح بن منصور الساماني .

”من كان مكفوف البصر من أشرف الناس“ زهرة بن كلاب بن كعب ؛
عبد المطلب بن هاشم ؛ العباس بن عبد المطلب ؛ الحکم بن العاص ؛ أبو سفيان بن
حرب ؛ الحارث بن العباس بن عبد المطلب ؛ مطعم بن عدى بن نوفل بن
عبد مناف ؛ أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة ؛ عتبة بن
مسعود الهذلي ، عبد الله بن عبيد الله بن عتبة ؛ أبو أحمد بن بحش بن مسعود
الأسدي ؛ جابر بن عبد الله الأنصاري ، عبد الله بن أرقم ؛ البراء بن عازب ؛ حسان
ابن ثابت ؛ أبو أسيد الساعدي ؛ قتادة بن دعامة ؛ دريد بن الصمة الجشمي ؛ عزيمة
ابن نوفل الزهري ؛ الفاكه بن المغيرة المخزومي ؛ جذيمة بن حازم النهشلي ؛ أبو العباس
الشاعر ؛ علي بن زيد بن جدعان ؛ المغيرة بن مقسم الضبي ؛ الترمذي الكبير الحافظ
الفقيه ؛ منصور الشاعر المصري ؛ ابن سيده اللغوي ؛ أبو العلاء المعري ؛ بشار بن
برد ؛ أبو البقاء العكبري ؛ أبو العيّن هشام بن معاوية الضرير النحوي الكوفي ؛
أبو القاسم السميلي صاحب الروض الأنف ؛ أبو القاسم الشاطبي ؛ الصرصريّ
الشاعر ؛ أبو الحسن عليّ بن عبد الغني الحصري ؛ أبو عبد الله بن خلصة المغربي
النحوي ؛ أبو عبد الله بن الخياط .

أصحاب العاهات من الملوك

من ملوك اليونان الإسكندر، كان أحنف . ومن ملوك الفرس أنوشروان كان أعور، يزدجرد كان أعرج . ومن ملوك العرب جذيمة الوضاح، كان أبرص، النعمان ابن المنذر، كان أحمر العينين والشعر . ومن الخلفاء عبد الملك بن مروان أبحر، يزيد ابن عبد الملك أقمم، هشام بن عبد الملك أحوّل، مروان الحمار أشقر أزرق، موسى الهادي شفته العليا متقلصة، حتى كان أبوه المهدي قدرّبت له خادما يلازمه متى غفل وفتح فاه قال: موسى أطبق، إبراهيم بن المهدي كان أسود سمينا يلقب بالتنين .

ومن أشرف قريش وغيرهم أبو طالب أعرج، وأبو جهل أحوّل، أبو لهب كذلك، وكذلك زياد، وعدى بن زيد . الأحنف بن قيس، أحنف متراكب الأسنان، صعل الرأس، مائل الذقن . والربيع بن زياد أبرص، وكذلك الحارث بن حلزة، وأمين بن حريم، والحسن بن حنظلة، وكان عبيدة السلماني أصم، وكذلك ابن سيرين والككيت الشاعر، والمرقس الأكبر الشاعر أجدع .

أصحاب النوادر

ابن أبي عتيق، أشعب الطمع، أبو الغصن جحا، أبو العبر، أبو العنابس، ابن الحصص مزيد المدني .

أجواد الإسلام

عبيد الله بن عباس بن عبد المطب، عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، سعيد ابن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية، عبد الله بن عامر بن كرز، حمزة بن عبد الله بن الزبير بن العوام،^(١) عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي، خالد بن عبد الله

(١) في العقد الفريد اسم الجواد عبيد الله بن معمر القرشي ثم التيمي .

ابن خالد بن أسد بن العاص ، قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري ، عتاب بن أبي وراق الحنظلي ، أسماء بن خارجة بن حصن بن بدر الفراري ، عبد الله بن أبي بكرة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الطلحات المعروفون بالجود

طلحة الفيّاض — وهو طلحة بن عبيد الله أحد العشرة ؛ وطلحة الجود — وهو طلحة بن عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي ؛ وطلحة الدراهم — وهو طلحة بن عبد الله ابن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ؛ وطلحة الخير — وهو طلحة بن الحسن بن عليّ ابن أبي طالب ؛ وطلحة الندى — وهو طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري ؛ وطلحة الطلحات — وهو طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعيّ .

أزواد الركب ثلاثة من قريش وهم مسافر بن أبي عمرو بن أمية ، وزمعة (١) ابن الأسود بن المطلب بن عبد العزى بن قصي ، والمغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم : سُموا بذلك لأنهم لم يترؤد معهم أحد في سفر قطّ لجودهم .

من أشتهر عند أهل الأثر بلقبه

غَسِيل الملائكة ، وهو حنظلة بن أبي عامر الأنصاري أصيب يوم أُحد فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الملائكة غَسَلته . قتيل الجن ، هو سعد بن عبادة ، بال في مجر قتلته الجن . مُصَافِح الملائكة ، هو عمران بن حصين . حمى الدبر ، هو عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح ، حَمته النحل إلى أن كان الليل . ذو الشهادتين هو خزيمة بن ثابت الأنصاري ، شهد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بقضاء دين اليهوديّ حين أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه وفاه ، اعتمادا على خبر النبي صلى الله عليه

(١) في الأصل مسلطة وريبعة وهو سبق قلم من الناسخ والتصحيح من القاموس وشرحه .

وسلم ، فجعل صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادتين . ذو العَيْن ، هو قتادة بن النعمان ، أصيبت عينه يوم أحد فردّها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ . ذو اليدَيْن هو عبيد بن عبد عمرو الخزاعيّ كان يعمل بيديه معا . ذو العِمامة ، هو أبو أُحِيحة سعيد بن العاص بن أمية ، كان إذا لبس عمامته لم يلبس قرشيّ عمامته حتى يترعها . ذو النُدَيّة ، كانت إحدى يديه مُحَدّجة كاللثدي ، كان رأس الخوارج . ذو النَّفَنَات ، كان يقال ذلك لعليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب ، ولعليّ بن عبد الله بن عباس لما على أعضاء السّجّادات منهما من شبه نفنات البعير . ذو السّيفَيْن ، هو أبو الهيثم ابن التّيهان ، سمي بذلك لتقلّده في الحرب بسيفين . سيف الله ، هو خالد بن الوليد . أسدُ الله ، هو حمزة بن عبد المطلب . ذات النّطّاقَيْن ، هي أسماء بنتُ أبي بكر ، سميت بذلك لأنها شقّت نطاقها للسّفرة في الليلة التي هاجر النبي صلى الله عليه وسلم هو وأبوها إلى المدينة . عُرْوَة الصّعاليك ، هو عُرْوَة بن الوَرْد ، كان إذا شكّا إليه أحد أعطاه فرسا ورُحما وقال له : إن لم تستغنِ بذلك فلا أعناك الله . ^(١) سُلَيْك المَقانِب ، هو سُلَيْك بن سُلَيْكَة ، كان أعدى الناس حتى إن الفرس لا يُدرِكُه . طَفِيل الأعراس ، رجل من غَطَفان ؛ وقيل هو من موالى عُثْمان بن عفّان رضى الله عنه ، كان يتبع الأعراس فيأتيها من غير دَعْوَة وإليه تنسب الطّفيلية . أشجّ بن أمية هو عمر بن عبد العزيز . جبار بن العباس هو هارون الرشيد : لأنه أغزى ابنه القاسم الروم فقتل منهم خمسين ألفا ، وأخذ منهم خمسة آلاف دابة بالسّروج والبُئِم الفِضة ، وأغزى عليّ بن عيسى بن ماهان بلاد التّرك فقتل منهم أربعين ألفا ، وغزا هو بنفسه بلاد الروم ففتح هرّ قلة ، وأخذ الجزية من ملك الروم . بنات طارق ، هن بنات العلاء بن طارق بن أمية بن عبد شمس ؛ سُميّن بجدهنّ ، يضرب بهنّ المثل

(١) في الأصل سليل باللام وهو تصحيف انظر اللسان في مادة س ل ك .

في الحسن والشرف . بنات الحارث ، هنّ بنات الحارث بن هشام ؛ يُضرب بهنّ
المثل في الحُسْنِ وغلوّ المهر .

من كان فردا في زمانه بحيث يضرب به المثل في أمثاله

كان الإسكندر ، في طَوْفان الأرض ، وكسرى أُنُوشروان ، في العدل ، وزرقاءُ
اليمامة ، في حِدّة النظر ، وحاتم الطائيّ ، في الكرم ، وكعبُ بنُ مامة ، في الإيثار ،
وارسطاطاليس ، في الحكمة ، وبقرات ، في الطب ، وقُسن بن ساعدة ، في الفصاحة ،
وسُحبان وائل ، في البلاغة ، وعمرو بن الأَهمم ، في البيان ، وبقفل ، في العي ، وأبو بكر
الصديقي رضي الله عنه ، في معرفة الأنساب ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، في قوّة
الهيبة ، وعثمان بن عفان رضي الله عنه ، في التّلاوة ، وعليّ بن أبي طالب رضي الله
عنه ، في القضاة ، ومعاوية ، في كثرة الاحتمال ، وأبو عبيدة بن الجراح ، في الأمانة ،
وأبو ذر ، في صدق اللّهُجة ، وأبيّ بن كعب ، في القرءان ، وزيد بن ثابت ، في الفرائض ،
وأبن عباس ، في تفسير القرءان ، وعمرو بن العاص ، في الدّهاء ، وأبو موسى الأشعريّ ،
في سَلامة الباطن ، والحسن البصريّ ، في الوعظ والتذكير ، ووهب بن منبه ،
في القصص ، وأبن سيرين ، في تعبير الرؤيا ، ونافع ، في القراءة ، وأبو حنيفة ، في القياس
في الفقه ، وأبن إسحاق ، في المغازي ، ومقاتل ، في التأويل ، والكليّ ، في قصص القرءان ،
وأبن الكلبيّ الصغير ، في النسب ، وأبو الحسن المدائنيّ ، في الأخبار ، ومحمد بن جرير
الطبريّ ، في علوم الأثر ، والخليل بن أحمد ، في العرُوض ، وفُضيل بن عياض ، في العبادة ،
ومالك بن أنس ، في العلم ، والشافعيّ ، في فقه الحديث ، وأبو عبيدة ، في الغريب ، وعليّ
أبن المدينيّ ، في علل الحديث ، ويحيى بن معين ، في رجال الحديث ، وأحمد بن حنبل ،
في السنة ، والبخاريّ ، في نقد الصحيح ، والجنيد ، في التصوّف ، ومحمد بن نصر المروزيّ ،

في الاختلاف، وأبو علي الجبائي، في الاعتزال، وأبو الحسن الأشعري، في علم الكلام،
 وأبو القاسم الطبراني، في عوالم الحديث، وعبد الرزاق، في آرتحال الناس إليه، وآبن
 منده، في سعة الرحلة، وأبو بكر الخطيب، في سرعة القراءة، وآبن حزم، في مذهب
 الظاهر، وسيبويه، في النحو، وأبو الحسن البكري السيري، في الكذب، وإياس بن
 معاوية، في الذكاء والتفترس، وعبد الحميد، في الكتابة والوفاء، وأبو مسلم الخراساني،
 في علو الهمة والحزم، وإسحاق الموصليّ النديم، في الغناء، وأبو الفرج الأصفهاني
 صاحب الأغاني، في المحاضرة، وأبو معشر، في النجوم، والرازي، في الطب، وعمّار بن
 حمزة، في التيه، والفضل بن يحيى، في الجود، وجعفر بن يحيى، في التوقيع، وآبن
 زيدون، في سعة العبارة، وآبن القرية، في البلاغة، والجاحظ، في الأدب والبيان،
 والحريري، في المقامات، والبديع الهمداني، في الحفظ، وأبونوأس، في المجون والخلاعة،
 وآبن حجاج الشاعر، في سخر الألفاظ، وانتبني، في الحكم والأمثال شعرا، والزخشمري،
 في تعاطي العربية، والنسفي، في الجدل، وجرير الشاعر، في الهجاء الخبيث، وحمّاد
 الراوية، في شعر العرب، والاحنف بن قيس، في الحلم، والمأمون، في حبّ العفو،
 والوليد، في شرب الخمر، وعطاء السلمي، في الخوف من الله تعالى، وآبن البواب،
 في الكتابة، والقاضي الفاضل، في الترسل، والعباد الكاتب، في الجناس، وأشعب،
 في الطمع، وأبو نصر الفارابي، في معرفة كلام القدماء ونقله وتفسيره، وحنين بن
 إسحاق، في ترجمة اليوناني إلى العربي، وآبن سينا، في الفلسفة وعلوم الأوائل، والإمام
 نغر الدين الرازي، في الأطلاع على العلوم، والجاحظ في سعة العبارة، والسيف
 الآمدي، في التحقيق، والنصير الطوسي، في معرفة المجسطي، وآبن الهيثم، في الرياض
 ونجم الدين الكاتبي، في المنطق، وآبن الأعرابي، في الأطلاع على اللغة، وأبو العيناء،
 في الأجوبة المسكتة، ومزيد، في البخل، والقاضي أحمد بن أبي دواد، في المروءة

وحسن التقاضى؛ وآبن المعتز، فى التشبيه، وآبن الرومى، فى التطير، والصولى فى الشطرنج، والغزالى، فى الجمع بين المعقول والمنقول، وآبو الوليد بن رُشد، فى تلخيص كتب الأقدمين الفلسفية والطبية، ومحيى الدين بن عربى، فى علوم التصوف، وجابر ابن حيان فى علم الكيمياء .

غرائب اتفاق

اتفاقية جليلة — وُلِدَ النبى صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين، وبعث يوم الاثنين، وهاجر يوم الاثنين، وتُوِّفَى يوم الاثنين .

اتفاقية أخرى — قَتَلَ عبدُ الله بن زياد الحسين بن علىّ عليهما السلام يوم عاشوراء، وقتله الله على يد إبراهيم بن الأستر فى يوم عاشوراء .

أخرى — قال عبد الملك بن عمير اللبثى : رأيت فى قصر الإمارة بالكوفة رأس الحسين بن علىّ بين يدي عبد الله بن زياد علىّ ترُسُ، ثم رأيت فيه رأس عبد الله بن زياد بين يدي المختار بن أبى عبيد؛ ثم رأيت فيه رأس المختار بين يدي مُصعب ابن الزبير؛ ثم رأيت فيه رأس مُصعب بين يدي عبد الملك بن مروان . قال : فحدثت بهذا عبد الملك بن مروان فتطير منه ففارق مكانه .

أخرى — قال الصولى : حدثنى الحسين بن يحيى الكاتب أنه لما ولى المعتز لم تمض مدة لطيفة حتى أحضر الناس وأُخرج المؤيد وقيل أشهدوا أنه دُعِيَ فأجاب، وليس به أثر؛ ثم مضت مدة شهر فأحضر الناس وأُخرج المستعين وقال : إن منيته أتت عليه، وها هو لا أثر به فأشهدوا؛ ثم خلع المعتز، وأستخلف المهتدى؛ ولم يمض إلا مديدة حتى أُخرج المعتز ميتا وقال : أشهدوا، أنه قد مات حتف أنفه

ولأثر به ، ثم لم تكمل السنة حتى استخلف المعتمد فأخرج المهتدى مينا وقال : اشهدوا أنه قد مات حتف أنفه من جراحته ، فتعجب الناس من تلاخُطهم في مدة يسيرة .
 عبرة - مات المكتفى بالله عن مائة ألف ألف دينار ، ولما غُسل لم توجد بحجرة ينخر فيها إلا بحجرة من خرف أحمر ، وكان فيما خلف ألوف من مجامر الذهب والفضة .
 قال أحمد بن أبي دواد : لقد شددت لحيي المأمون ، والمعتم ، والوائق ، بعد موتهم فلم أجد خرقه أشد بها لحيي واحد منهم إلا ما أخرقه من الدراريح التي تكون على .
 لطيفة - في سنة ثلاث وثمانين ومائتين أمر المعتضد برد فاضل سهام المواريث على ذوى الأرحام ، وأبطل ديوان المواريث ، وكتب بذلك إلى الآفاق .

لطيفة - في سنة أربع وثمانين ومائتين أخبر المنجمون بغرق أكثر الأقاليم بسبب كثرة الأمطار وزيادة الأنهار فتحفظ الناس من ذلك فقلَّت الأمطار حتى استسقوا ببغداد مرَّات .

غريبة - ذكر ابن سينا في المقالة الأولى من كتابه الشفاء أنه نزل ببحر جان صاعقة من الهواء فنشبت في الأرض ، ثم نبت نبوة الكرة وسمع الناس لذلك صوتا عظيما هائلا فحفرُوا عليها فإذا هي قطعة من حديد تقدير مائة وخمسين مَنًا ، وهي أجزاء جاورشيَّة صغارٌ مستديرة ؛ التصق بعضها ببعض ، فكتب محمود بن سبكتكين ، صاحب نراسان بانفاذه إليه أو قطعة منه فتعذر نقله لثقله فحاولوا كسر قطعة منه فلم تعمل فيه الآلات ، فعُوج كسره فقطع منه قطعة لطيفة ، وحملت إليه فرام أن يطبع منها سيفا فتعذر عليه .

لطيفة أخرى - في سنة إحدى عشرة وخمسمائة جاء سيلٌ عظيم فغرق مدينة سنجان من بلاد الجزيرة ، وهدم المنازل ، وأغرق خلقا كثيرا . ومن غريب ما حكى

أن السيل حمل مهّدا فيه صبيّ صغير فتعلق المهّد بشجرة زيتون ، وغاض الماء ، وبقى المهّد معلقا بالشجرة فسلم الصغير .

أعجوبة — في سنة ستين وأربعمائة كان بمصر وقَلَسِطِينَ زلزلة عظيمة ، طلع فيها الماء من رؤوس الآبار ، وزال البحر عن الساحل مسيرة يوم ، فزل الناس إلى أرض البحر يلتقطون ما آنكشف البحر عنه مما في أرضه فرجع الماء عليهم فأهلك منهم خلقا كثيرا .

ثم في سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة وقع ببلاد الشام زلزلة عظيمة خربت شيزر ، وحماة ، وحمص ، وحِصْن الأكراد ، وطرابُلُس وأنطاكية ، وغيرها من البلاد التي حولها ؛ ووقعت الأسواق والقلاع حتى تداركها نور الدين الشهيد رحمه الله بالعمارة .
فائدة — في سنة اثنتين وخمسمائة قلع المقتدى الخليفةُ باب الكعبة ، وعمل عوضه بابا مصفّحا بالفضة المذهبية ؛ وعمل لنفسه من الباب الأول تابوتا ليُدْفَن فيه .

نادرة — في سنة خمس وستين وسبعمائة وقع نلجٌ عظيم بالشام فكسر الأشجار وقطع الطرق لا سيما بعكبراء وما حولها .

أخرى — في سنة سبعين وسبعمائة ظهر بالشام جراد عظيم لم يُسمع بمثله ، وأمتد من مكة إلى الشام ؛ وعظم بحورَان حتى أكل الأشجار ، والأخشاب ، وأبواب الدور ، وما وصل إليه من الأصبغة والقماش ، وسُدّت أعين الماء خوفا من أن يفسدها ، وكان من شأنه بَعَجُلُون أنه امتلأت منه المدينة وغلّقت الأسواق ، وطُبّقت أبواب الدكاكين والطاقات ، وسُدّت الأبواب وحضروا لصلاة الجمعة فملا عليهم الجامع ، وترامى على الخطيب على المنبر حتى شغله عن الخطبة ، وكذلك حير الناس حتى خرجوا من الجامع يُحِبُّون فيه خبا إلى الركب ؛ وأنتنت لكثرة ما قتل منه حتى صار أهل البلد يسمون القطران ليغطي رأئحته (وما يعلم جنود ربك إلا هو) .

أخرى — في سنة اثنتين وسبعين وسبعائة رأى أهل الشام في السماء بعد مغيب الشفق حمرة عظيمة من جهة الشمال ، ثم اشتدت الحمرة حتى صارت كالنار الموقدة وانتشرت في السماء حتى كاد يغطي ثلثها ، وعم بلاد الشام حتى كان يدمشق ، وبعبك وحلب ، وقاقون ، والرملة ، والقدس ، وطرابلس ؛ حتى خاف جميع أهل هذه البلاد على أنفسهم الهلاك ، وصرعوا إلى الله تعالى ، وأبتلوا إليه ، فكشف الله عنهم بعد نصف الليل .

قلت — : وقد رأيت مثل هذه الآية العظيمة بمصر في سنة اثنتي عشرة وثمانمائة : وهو أنه ظهرت حمرة عظيمة من جهة الغرب فوق حمرة النار ، وجاء من وراء تلك الحمرة برق ساطع ، فصار كما لمع البرق داخل تلك الحمرة يخال الناظر أنها نار لا محالة حتى داخلني منه أنه عذاب قد صب على الناس ، ثم أقشع بعد العشاء بقليل فلذلك لم ينتبه له أهل مصر . وبالجملة فوقائع الدهر ومعجائبه أكثر من أن تحصر ، ولا يحتمل هذا الموضع أكثر من هذا القدر .

وَاللَّيَالِي كَمَا عَلِمْتَ حَبَالِي * مُقْرِبَاتٌ يَلِدْنَ كُلَّ عَجِيبٍ

المقصد الثاني

(في وجه بيان استعمال الكاتب ذلك في خلال كلامه)

لا يخفى أن الكاتب إذا عرف أحوال المتقدمين وسيبرهم ، وأخبارهم ، ومن برع منهم ، صار عنده علم بما لعله يسأل عنه ، وأعداد لما يرد عليه من ذكر واقعة بعينها أو يحتج عليه به من صورة قديمة : ليكون على يقين منها ، مع ما يحتاج إلى إيراده في خلال مكاتباته ورسائله : من ذكر من حسن الاحتجاج بذكره في أمر من الأمور أو حالة من الحالات : كما كتب به البديع الهمداني إلى أبي الحسين بن

فارس وقد بلغه أنه ذكر في مجلسه فقال: إن البديع قد نسي حق تعليمنا إياه، وعقنا، وشمخ بأنفه عنا، والحمد لله على فساد الزمان، وتغير نوع الإنسان. فكتب إليه:

” نعم أطل الله بقاء الشيخ الإمام، إنه الحمأ المسنون، وإن ظننت الظنون؛ والناس لآدم، وإن كان العهد قد تقادم، وأرتكبت الأضداد، وأختلط الميلاد. والشيخ يقول فسد الزمان، أفلا يقول متى كان صالحاً؟ أفي الدولة العباسية، وقد رأينا آخرها وسمعنا أولها؟ أم المدة الروانية، وفي أخبارها ” لا تكسح الشؤل بأغبارها؟ “ أم السنين الحربية، والسيف يُعمد في الطلا، والرُح يُركز في الكلا، وميتٌ جحر في الفلا، والحرتان وكر بلا، أم البيعة الهاشمية، وعلى يقول: لبت العشرة منكم براس، من بنى فراس؟ أم الأيام الأموية، والتغير إلى الحجاز، والعيون إلى الأعمجاز؟ أم الإمارة العدوية، وصاحبها يقول: وهل بعد البزول إلا التزول؟ أم الخلافة التيمية، وصاحبها يقول: طوبى لمن مات في نأاة الإسلام؟ أم على عهد الرسالة ويوم الفتح قيل أسكتي يافلانه، فقد ذهب الأمانه؟ أم في الجاهلية وليد يقول:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْثَافِهِمْ * وَبَقِيَتْ فِي خَلْفٍ كَلْدُ الْأَجْرِبِ.

أم قبل ذلك وأخو عاد يقول:

بِلَادٌ بِهَا كُكَّا وَكُكَّا تُحِبُّهَا * إِذِ النَّاسُ نَاسٌ وَالزَّمَانُ زَمَانٌ.

أم قبل ذلك، ويروي لآدم عليه السلام:

تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا * فَوَجَّهُ الْأَرْضِ مُسَوِّدٌ قَبِيحٌ!

أم قبل ذلك والملائكة تقول: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾؟

وما قسد الناس، ولكن أطرده القياس؛ ولا ظلمت الأيام، إنما امتد الإطلام؛ وهل

(١) أي في أول الإسلام قبل أن يقوى أنظر اللسان.

يفسُد الشيء إلا عن صلاح، ويمسى المرء إلا عن صباح؛ ولعمري ! لئن كان كرم
العهد كتابا يرد وجوابا يصدرُ إنه لقريب المثال، وإنى على توبيخه لى لفقير إلى لقائه،
شفيق على بقاءه؛ منتسب إلى ولائه، شاكر لآلائه .

والغاية القصوى في ذلك ما كتب به ذو الوزارتين "أبو الوليد بن زيدون"
رحمه الله على لسان محبوبته ولادة بنت محمد بن عبد الرحمن الناصر إلى إنسان
استمالها عنه إلى نفسه وهى :

أما بعد أيها المصاب بعقله ، المورط بجهله ، البين سقطة ، الفاحش غلظه ، العائر
فى ذيل أغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره ، الساقط سُقوط الذباب ، على الشراب ،
المتهافت تهافت القَراش فى الشَّهاب ؛ فإن العُجب أ كذب ، ومعرفة المرء نفسه
أصوب ؛ وإنك راسلتنى مستهديا من صِلتي ما صَفِرت منه أيدى أمثالك ، متصدِّيا
من خُلتي لما قُدِعت فيه أنوف أشكالك ؛ مرسلا خيلتك مر تاده ، مستعملا
عشيقتك قواده ؛ كاذبا نفسك فى أنك ستزل عنها إلى ، وتخلف بعدها على :

وَلَسْتَ بِأَوَّلِ ذِي هِمَّةٍ * دَعْتَهُ لِمَا لَيْسَ بِالنَّائِلِ !

ولا شك أنها قلنتك إذ لم ترضن بك ، وملنتك إذ لم تفرغ عليك ؛ فإنها أعدرت
فى السَّفارة لك ، وما قصرت فى النيابة عنك ؛ زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه ،
والإنسانية أسم أنت جسمه وهيولاه ؛ قاطعة أنك أنفردت بالجمال ، وأستأثرت
بالكمال واستعليت فى مراتب الخلال ؛ حتى خيلت أن يوسف عليه السلام حاسنك
فغصصت منه ، وأن امرأة العزيز رأتك فسَلت عنه ؛ وأن قارون أصاب بعض
ما كترت ، والنظف عثر على فضل ماركرت ، وكسرى حمل غاشيتك ، وقصّر رعى
ماشيتك ؛ والإسكندر قتل دارا فى طاعتك ، وأردشير جاهد ملوك الطوائف بخروجهم
عن جماعتك ؛ والضحاك أستدعى مسالمتك ، وجذيمة الأبرش تمنى منادمتك ويشيرين

قد نافست بوران فيك ، وبلقيس غيرت الزباء عليك ؛ وأن مالك بن نويرة إنما أردف لك ، وعروة بن جعفر إنما رحل إليك ؛ وكليب بن ربيعة إنما حمى المرعى بعزتك ، وجساسا إنما قتله بأنفتك ، ومهلها إنما طلب ناره بهمتك ؛ والسموعل إنما وفى عن عهدك ، والأحنف إنما آحتبى فى بردك ؛ وحاتما إنما جاد بوفرك ، ولقى الأضياف يبشرك ؛ وزيد بن مهلهل إنما ركب بفخذك ، والسليك بن السلكة إنما عدا على رجلك ؛ وعامر بن مالك إنما لاعب الأسننة بيديك ؛ وقيس بن زهير إنما استعان بدهاك ، وإياس بن معاوية إنما استضاء بمصباح ذكائك ؛ وسحبان وائل إنما تكلم بلسانك ، وعمرو بن الأهم إنما سحر ببيانك . وأن الصلح بين بكر وتغلب تم برسالتك ، والحالات فى دماء عبس وذبيان أسندت إلى كفالتك ؛ وأن آحتيال هريم لعامر وعلقمة حتى رضيا كان عن إشارتك ، وجوابه لعمر ، وقد سأله عن أيهما كان ينفر وقع بعد مشورتك ؛ وأن الحجاج تقلد ولاية العراق بجذك ، وقتيبة فتح ما وراء النهر بسعدك ؛ والمهلب أوهن شوكة الأزارقة بأيدك ، وأفسد ذات بينهم بكيدك ؛ وأن هرمس أعطى بيلينوس ما أخذ منك ، وأفلاطون أورد على أرسطاطاليس ما حدث عنك ؛ وبطليموس سوى الإصطراب بتديرك ، وصور الكرة على تقديرك ؛ وأبقراط علم العلال والأمراض بلطف حسك ، وجالينوس عرف طبائع الحشائش بدقة حدسك ؛ وكلاهما قللك فى العلاج ، وسألك عن المزاج ؛ وأستوصفك تركيب الأعضاء ، وأستشارك فى الداء والدواء ؛ وأنت نهجت لأبى معشر طريق القضاء ، وأظهرت جابر بن حيان على سر الكيمياء ؛ وأعطيت النظام أصلا أدرك به الحقائق ، وجعلت للكيندى رسما أستخرج به الدقائق ؛ وأن صناعة الألحان اختراعك ، وتأليف الأنقار توليدك وأبتداعك ؛ وأن عبد الحميد بن يحيى بارى أقلامك ، وسهل بن هارون مدون كلامك ؛ وعمرو بن بحر مستمليك ، ومالك بن أنس مستفتيك ؛ وأنت الذى

أقام البراهين ، ووضع القوانين ؛ وحدّ الماهية ، وبين الكيفية والكيفية ؛ وناظر في الجوهر والعرض ، وميز الصحة من المرض ؛ وحلّ المعنى ، وفصل بين الأسم والمسمى ؛ وضرب وقسم ، وعدل وقوم ؛ وصنف الأسماء والأفعال ، ويوب الظرف والحال ؛ وبنى وأعرب ، ونفى وتعجب ؛ ووصل وقطع ، وثنى وجمع ؛ وأظهر وأخمر ، وأبدأ وأخبر ؛ وأستفهم وأهمل ، وقيد وأرسل ؛ وأسند وبحث ، ونظر وتصفح الأديان ، وزجج بين مذهبي ماني وغيلان ؛ وأشار بذبح الجعد ؛ وقتل بشرّ آبن بُرد ؛ وأنك لو شئت تحرقت العادات ، وخالفت المعهودات ؛ فأحلت البحار عذبه ، وأعدت السّلام رطبه ؛ ونقلت غداً فصار أمسا ، وزدت في العناصر فكانت نحسا ؛ وأنك المقول فيك "كلّ الصّيد في جوف الفراء" ، والمقول فيك :

ليس على الله بمستنكر * أن يجمع العالم في واحد

والمعنى بقول أبي تمام :

فلو صورت نفسك لم تردها * على ما فيك من كرم الطّباع

والمراد بقول أبي الطّيب :

ذكر الأناّم لنا فكان قصيدة * كنت البديع الفرد من أبياتها

فكدمت في غير مكرم ، وأستسمنت ذا ورم ، وففخت في غير صرم ، ولم تجد لمح مهزاً ، ولا لشفرة محرّاً ، بل رضيت من الغنيمة بالإياب ، وتمنت الرجوع بحفني حين ، لأنني قلت لها :

* لقد دَلَّ من بالث عليه الثعالب *

وأنشدت :

على أنّها الأيام قد صرن كُلهَا * عجائب حتى ليس فيها عجائب

ونخرت وكفرت ، وعبست وبسرت ، وأبدأت وأعدت ، وأبرقت وأرعدت ،

وَهَمَّتْ ولم أفعَل ، وَكِدْتُ وَلِيتَنِي ، وَلَوْلَا أَنْ لِلجِوَارِ ذِمَّةٌ ، وَلِلضَّيَافَةِ حُرْمَةٌ ، لَكَانَ الجِوَابُ فِي قَدَالِ الدُّمُسْتُقِ ؛ وَالنَّعْلُ حَاضِرَةٌ إِنْ عَادَتِ العَقْرَبُ ، وَالعُقُوبَةُ مِمكِنَةٌ إِنْ أَصَرَ المُنْذِبُ ؛ وَهَبَهَا لَمْ تَلَا حِظْكَ بَعِيْنٍ كَلِيْلَةٌ عَنِ عِيُوبِكَ مَأْوَاهَا حَبِيْبُهَا وَحَسَنٌ فِيهَا مِنْ تَوَدُّ ؛ وَكَانَتْ إِنَّمَا حَلَّتْكَ بِجِلَاكَ ، وَوَسَمَّتْكَ ، بِسِيَاكَ ، وَلَمْ تُعْرِكَ شِهَادَهُ ، وَلَا تَكَلَّفَتْ لَكَ زِيَادَهُ ؛ بَلْ صَدَقَتْ سِنَّ بَكَرْهَا فِيمَا ذَكَرْتَهُ عَنكَ ، وَوَضَعَتْ الهِنَاءَ مَوَاضِعَ النَّقَبِ فَمَا نَسَبْتَهُ إِلَيْكَ ؛ وَلَمْ تَكُنْ كَاذِبَةً فِيمَا أَثْنْتَ بِهِ عَلَيْكَ ، فَالمُعَيَّدِي تَسْمَعُ بِهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ ، هَيِّجُ النَّذَالِ ، أَرْعَنُ السَّبَالِ ، طَوِيْلُ العُنُقِ وَالعِلَاوَةِ ؛ مُفْرِطُ الحُجْقِ وَالعَبَاوَةِ ؛ جَافِي الطَّبَعِ ، سَيِّئُ الإِجَابَةِ وَالسَّمْعِ ، بَغِيضُ الهَيْئَةِ ، سَخِيْفُ الذَّهَابِ وَالجَيْئَةِ ، ظَاهِرُ الوَسْوَاسِ ، مُتَنِّ الأَنْفَاسِ ؛ كَثِيْرُ المَعَايِبِ ، مَشْهُورُ المَثَالِبِ ؛ كَلَامِكَ تَمْتَمُهُ ، وَحَدِيثِكَ غَمْغَمُهُ ؛ وَيَبْأُنْكَ فَهْفَهُهُ ، وَضَحْكُكَ قَهْقَهَهُ ، وَمَشِيْكَ هَرُولَهُ ، وَغِنَاكَ مَسْأَلَهُ ، وَدِيْنِكَ زَنْدَقَهُ ، وَعَلْمِكَ مَخْرَقَهُ :

مَسَاوٍ لَوْ قُسِمْنَ عَلَى العَوَانِي * لَمَّا أُمِهْرَتْ إِلَّا بِالطَّلَاقِ

حَتَّى إِنْ بَاقِلًا مَوْصُوفٌ بِالبَلَاغَةِ إِذَا قُرِنَ بِكَ ، وَهَبَبَقَّةٌ مَسْتَحَقٌّ لِأَسْمِ العَقْلِ إِذَا أُضِيفَ إِلَيْكَ ؛ وَأَبَا غَبْشَانَ مَجْهُودٌ مِنْهُ سَدَادُ الفِعْلِ إِذَا نَسَبَ إِلَيْكَ ، وَطُوَيْسًا مَأْتُورٌ عَنْهُ يَمُنُّ الطَّائِرُ إِذَا قَيْسَ عَلَيْكَ ، فَوْجُودِكَ عَدَمٌ ، وَالأَعْتَاءُ بِكَ نَدَمٌ ؛ وَالخَلِيَّةُ مِنْكَ ظَفَرٌ ، وَالجَنَّةُ مَعَكَ سَقَرٌ ؛ كَيْفَ رَأَيْتَ لُوْمَكَ لِكْرَمِي كِفَاءً ! وَضَعْتِكَ لِشَرْفِي وَفَاءً ؛ وَأَتَى جَهَلْتُ أَنْ الأَشْيَاءَ إِنَّمَا تَنْجَذِبُ إِلَى أَشْكَالِهَا ، وَالطَّيْرُ إِنَّمَا تَقَعُ عَلَى الآفَاهَا ، وَهَلَّا عَلِمْتُ أَنَّ الشَّرْقَ وَالعَرَبَ لَا يَجْتَمِعَانِ ، وَشَعَرْتُ أَنَّ نَارِي المَوْمِنِ وَالكَافِرِ لَا تَتْرَءِيَانِ ، وَقَلْتُ الخَلِيْبُ وَالتَّيْبُ لَا يَسْتَوِيَانِ ، وَتَمَثَّلْتُ :

* عَمْرَكَ اللهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ *

وذكرت أنى علق لأبياع من زاد، وطائر لا يصيده من أراد، وغرض لا يصيبه
إلا من أجاد، فما أحسبك إلا قد كنت تهيأت للتهنيه، وترشحت للترفيه،
لولا أن جرح العجاء جبار، للقيت ما لقي من الكواعب يساراً؛ فما هم إلا بدون
ما هممت به، ولا تعرض إلا لأيسر مما تعرضت له؛ أين أدعاؤك رواية الأشعار،
وتعاطيك حفظ السير والأخبار؛ أما ثاب لك قول الشاعر :

بنو دارم أكفاؤهم آل مسمع * وتكح في أكفائها الحبّاط

وهلا عشت ولم تغتر، وما أمّك أن تكون وافد البراجم، أو ترجع بصحيفة
التمسّس، أو أفل بك ما فعله عقيل بن علفة^(١) بالجهني الذي جاء خاطبا، فذهن
أسته بزيت وأدناه من قرية النمل؛ ومتى كثر تلاقينا، وأتصل ترائينا؟ فيدعوني
إليك مادعا ابنة الخس إلى عبدها من طول السواد، وقرب الوساد؛ وهل فقدت
الأرقام فأنكح في جنب، أو عضلني همّام بن مرة، فأقول زوج من عود، خير من
قعود، ولعمري لو بلغت هذا المبلغ لأرتفعت عن هذه الخطّة، وما رضيت بهذه
الخطّة، فالنار ولا العار، والمينة ولا الدنية، والحرة تجوع ولا تأكل بشديها :

فكيف وفي أبناء قومي منكح * وفتيان هزان الطوال الغرائقه

ما كنت لأتخطى المسك إلى الرماد، ولا أمتطي الثور دون الجواد؛ وإنما يتعم من
لا يجد ماء، ويرعى الهشيم، من عدم الجميم؛ ويركب الصعب من لاذلول له؛ ولعلك
إنما غرك من علمت صبوتى إليه، وشهرت مساعفتى له من أقمار العصر، ورياحين
المصر، الذين هم الكواكب علوهم، والرياض طيب شيم .
* من تلق منهم ثقل لاقيت سيدهم *
مهمه

(١) في الأصل علقمة وهو تصحيف أنظر مادة ع ل ف في القاموس .

فَخَنَّ قَدْحَ لَيْسَ مِنْهَا ، مَا أَنْتَ وَهْمٌ ؟ وَأَيْنَ تَقَعُ مِنْهُمْ ؟ وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا وَأَوْعَمَرُوا فِيهِمْ ؟
 وَكَالْوَشِيظَةَ فِي الْعِظَمِ بَيْنَهُمْ ؛ وَإِنْ كُنْتَ إِذَا بَلَغْتَ قَعْرَ تَابُوتِكَ ، وَتَجَافَيْتَ لَقَمِيصِكَ
 عَنْ بَعْضِ قُوَّتِكَ ؛ وَعَطَّرْتَ أُرْدَانَكَ ، وَجَرَّرْتَ هَمِيَانَكَ ؛ وَأَخْتَلْتِ فِي مِشِيَّتِكَ ،
 وَحَدَقْتِ فُضُولَ لِحْيَتِكَ ؛ وَأَصَابِحْتَ شَارِبِكَ ، وَمَطَطْتَ حَاجِبِكَ ؛ وَرَقَقْتَ خَطَّ
 عِدَارِكَ ، وَأَسْتَأْنَفْتَ عَقْدَ إِزَارِكَ ، رَجَاءَ الْاِكْتِنَانِ فِيهِمْ ، وَطَمَعًا فِي الْاِعْتِدَادِ مِنْهُمْ
 فَظَنَنْتِ عَجْزًا ، وَأَخْطَأْتَ أَسْتِكَ الْحُفْرَةَ . وَاللَّهِ لَوْ كَسَاكَ مَحْرَقُ الْبُرْدَيْنِ ، وَحَلَّتْكَ
 مَارِيَةٌ بِالْقُرْطَيْنِ ، وَقَدَّكَ عَمْرُو الصَّمْصَامَةِ ، وَحَمَلَتْكَ الْحَارِثُ عَلَى النَّعْمَةِ ، مَا شَكَّكَتُ
 فِيكَ ، وَلَا تَكَلَّمْتَ بَمَلءِ فَيْكَ ، وَلَا سَتَرْتُ اِيَّاكَ ، وَلَا كُنْتُ إِلَّا ذَاكَ . وَهَبِكَ سَامِيَّتَهُمْ
 فِي ذِرْوَةِ الْمَجْدِ وَالْحَسَبِ ، وَجَارِبَتَهُمْ فِي غَايَةِ الظَّرْفِ وَالْاَدْبِ ؛ أَلَسْتَ تَأْوِي إِلَى
 بَيْتِ قَعِيدَتِهِ لِكَعَاعٍ ، إِذْ كَلَّهُمْ عَزَبُ خَالِي الذَّرَاعِ ، وَأَيْنَ مِنْ أَنْفَرْدِ بِهِ مَنْ لَا غَلَبَ
 إِلَّا عَلَى الْاَقْفَلِ الْاِخْسُ مِنْهُ ؛ وَكَمْ بَيْنَ مَنْ يِعْتَمِدُنِي بِالْقُوَّةِ الظَّاهِرَةِ ، وَالشَّهْوَةِ الْوَافِرَةِ ،
 وَالنَّفْسِ الْمَصْرُوفَةِ إِلَى ، وَاللَّذَّةِ الْمَوْقُوفَةِ عَلَى ، وَبَيْنَ ائْخَرَقْدِ نَزَحَتْ بِيرِهِ ، وَنَضَبِ
 غَدِيرِهِ ، وَذَهَبِ نَشَاطِهِ ، وَلَمْ يَبْقِ إِلَّا ضَرَاطُهُ . وَهَلْ كَانَ يَجْتَمِعُ لِي فِيكَ إِلَّا الْحَشْفُ
 وَسُوءُ الْكِيلَةِ ، وَيَقْتَرِنُ عَلَى بَكَ إِلَّا الْعُنْدَةُ وَالْمَوْتُ فِي بَيْتِ سُلُوبِهِ :

تعالى الله يا سلم بن عمرو * أذل الحرض أعناق الرجال

مَا كَانَ أَخْلَقَكَ بَأْنَ تُقَدَّرُ بَذْرَعَكَ ، وَتَرَبَّعَ بِذَلِكَ عَلَى ظَلْعِكَ ، وَلَا تَكُونُ بَرَاقِشَ
 الدَّالَّةَ عَلَى أَهْلِهَا ، وَعِزَّ السُّوءِ الْمُسْتَثِيرَةَ لِحْتِفِهَا ؛ فَمَا أُرَاكَ إِلَّا قَدْ سَقَطَ الْعِشَاءُ بِكَ عَلَى
 سِرْحَانٍ ، وَبِكَ لَا يَطْبِيْ أَعْفَرٌ ؛ قَدْ اَعْدَرْتَ إِنْ اَعْنَيْتِ شَيْئًا ، وَأَسْمَعْتُ لَوْ نَادَيْتُ حَيًّا ،
 وَقَرَعْتُ عَصَا الْعِتَابِ ، وَحَدَّرْتُ سُوءَ الْعِقَابِ .

إِنَّ الْعَصَا قُرَعَتْ لِيذِي الْحِلْمِ * وَالشَّيْءُ تَحْقَرُهُ وَقَدْ يَنْبَغِي

فَإِنْ بَادَرْتُ بِالنَّدَامَةِ ، وَرَجَعْتَ عَلَى نَفْسِكَ بِالْمَلَامَةِ ؛ كُنْتُ قَدْ اشْتَرَيْتِ الْعَافِيَةَ
 لَكَ بِالْعَافِيَةِ مِنْكَ ؛ وَإِنْ قَلْتُ جَعَجَعَةً وَلَا طِخْنَ ، فُرْبٌ صَالِفٌ تَحْتَ الرَّاعِدَةِ ، وَأَنْشَدْتُ :

لا يُؤسِّنَكَ من مُحَدَّرَةٍ * قَوْلٌ تَغْلَظُهُ وَإِنْ جَرَحَا

فَعُدَّتْ لِمَا نَهَيْتُ عَنْهُ ، وَرَاجَعْتَ مَا اسْتَعْفَيْتُ مِنْهُ ، بَعَثْتَ مِنْ يُزْجِجُكَ إِلَى
الْخَضْرَاءِ دَفْعًا ، وَيَسْتَحِثُّكَ نَحْوَهَا وَكِرًا وَصَفْعًا ، فَإِذَا صَرْتَ إِلَيْهَا عَبَثْتَ أَكْرَاهَا بِكَ ،
وَتَسْلُطُ نَوَاطِيرُهَا عَلَيْكَ : فَمِنْ قَرَعَةٍ مُعْجِزَةٍ تَقُومُ فِي قَفَاكَ ، وَمِنْ فُجَلَةٍ مُنْتِنَةٍ تُرْمَى بِهَا
تَحْتَ خِصَاكَ ، ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ ، لَكِنِّي تَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِكَ ، وَتَرَى مِيزَانَ قَدْرِكَ :
فَمَنْ جَهَلَتْ نَفْسَهُ قَدْرَهُ * رَأَى غَيْرَهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى

فلولا المعرفة بالتاريخ، والإحاطة بالوقائع والسير، والأقاصيص، والأمثال السائرة
في معنى ذلك، لما تأتى للنائر الأقتدار على سبك هذه الوقائع، والتلويح بمقتضياتها.

النوع السابع عشر

(المعرفة بخزائن الكتب، وأنواع العلوم، والكتب المصنفة فيها
وأسماء الرجال المبرزين في فنونها، وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في ذكر خزائن الكتب المشهورة)

قد كان للخلفاء والملوك في القديم بها مزيد اهتمام، وكال اعتناء، حتى حصلوا منها
على العدد الجَمِّ، وحصلوا على الخزائن الجليلة. ويقال إن أعظم خزائن الكتب
في الإسلام ثلاثُ خزائن :

إحداها — خزانة الخلفاء العباسيين ببغداد، فكان فيها من الكتب ما لا يحصى
كثرة، ولا يقوم عليه نفاسة، ولم تزل على ذلك إلى أن دهمت التتر ببغداد، وقتل
ملكهم هولاء المستعصم آخر خلفائهم ببغداد، فذهبت خزانة الكتب فيما ذهب،
وذهبت معالمها، وأعفيت آثارها .

الثانية — خزانة الخلفاء الفاطميين بصر، وكانت من أعظم الخزائن، وأكثرها جمعا للكتب النفيسة من جميع العلوم على ما سيأتى ذكره في الكلام على ترتيب مملكة الديار المصرية في المقالة الثانية. ولم تزل على ذلك إلى أن انقرضت دولتهم بموت العاضد آخر خلفائهم، وأستيلاء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على المملكة بعدهم، فاشترى القاضي الفاضل أكثر كتب هذه الخزانة، ووقفها بمدرسته الفاضلية بدير ملوخيا بالقاهرة، فبقيت فيها إلى أن استولت عليها الأيدي فلم يبق منها إلا القليل.

الثالثة — خزانة خلفاء بني أمية بالأندلس؛ وكانت من أجل خزائن الكتب أيضا. ولم تزل إلى أنقراض دولتهم باستيلاء ملوك الطوائف على الأندلس، فذهبت كتبها كل مذهب.

أما الآن فقد قلت عناية الملوك بخزائن الكتب، اكتفاء بخزائن كتب المدارس التي آبنوها من حيث إنها بذلك أمس.

واعلم أن الكتب المصنفة أكثر من أن تُحصى، وأجل من أن تُحصَر؛ لا سيما الكتب المصنفة في الملة الإسلامية فإنها لم يصنّف مثلها في ملة من الملل، ولا قام بنظيرها أمة من الأمم؛ إلا أن منها كتب مشهورة قد توفرت الدواعى على نقلها، والإكثار من نسخها، وطارَت سُمعتها في الآفاق ورُغب في اقتنائها.

المقصد الثاني

(في ذكر العلوم المتداولة بين العلماء، والمشهور من الكتب المصنفة فيها ومؤلفيهم ويرجع المقصد فيها إلى سبعة أصول، يتفرع عنها أربعة ونحسون علما)

الأصل الأول

(علم الأدب، وفيه عشرة علوم)

الأول علم اللغة — من الكتب المختصرة فيه المنتخب، والمجرد لكراع؛ وأدب الكاتب لأبن قتيبة، وفتح اللغة للتحالي، والفضيح للعلب، وكفاية المتحفظ

لأبن الأجدابي، والألفية لأبن أصعب. ومن المتوسطة فيه المجلد لأبن فارس، وديوان الأدب للفارابي، وإصلاح المنطق لأبن السكيت. ومن المبسوطة الجامع للأزهري والعباب الزاخر للصاغاني، والصحاح للجوهري. قال في إرشاد القاصد: ولا أنفع ولا أجمع من المحكم لأبن سيده.

الثاني علم التصريف — من الكتب المختصرة فيه التصريف الملوكي لأبن جني والتعريف لأبن مالك. ومن المتوسطة تصريف أبن الحاجب، وهو من أحسن الكتب الموضوععة فيه وأجمعها. ومن المبسوطة فيه المتع لأبن عصفور، وشرح تصريف أبن الحاجب وغيره.

الثالث علم النحو — من الكتب المختصرة فيه الكافية لأبن الحاجب، والذرة الألفية لأبن معطى، والخلاصة لأبن مالك. ومن المتوسطة المفصل للزخشي والمقرب لأبن عصفور، والكافية الشافية لأبن مالك، وتسهيل الفوائد له وهو الجامع على شدة اختصاره. ومن المبسوطة كتاب سيبويه وشرحه، وشرح أبن قاسم على الألفية، وشرحه على التسهيل، وشرح شهاب الدين السمين عليه؛ وأوسع الكل شرح الشيخ أثير الدين أبي حيان على التسهيل.

(١)
الرابع علم المعاني — من الكتب المنفردة فيه مصنف تميم الحرسي، وهو عزيز الوجود.

الخامس علم البيان — من الكتب المنفردة به كتاب نهاية الإعجاز للإمام فخر الدين الرازي، والجامع الكبير لأبن الأثير الجزري.

السادس علم البديع — من الكتب المنفردة به المختصرة فيه زهر الربيع للطريزي. ومن المتوسطة فيه البديع للتيفاشي، وشرح البديعية للصفى الحلي. ومن المبسوطة كتاب التحبير لأبن أبي الأصعب.

(١) هكذا بهذا الرسم في الأصل ولم نعر عليه بعد البحث.

(تنبيه) ومن الكتب المشتملة على علوم المعاني والبيان والبديع روض الأزهار لابن مالك ، والإيضاح لابن مالك ، وأعظمها شهرة بالديار المصرية تلخيص المفتاح لقاضي القضاة جلال الدين أنقزويني وعليه عدة شروح . منها شرح الخلخالي ، وشرح الشيخ أكل الدين ، وشرح الشيخ بهاء الدين السبكي ، وهو من أجل شروحه ، والمعول عليه منها شرح الشيخ سعد الدين التفتازاني .

السابع علم العروض — من الكتب المختصرة فيه عروض ابن مالك ، ولابن الحاجب فيه لامية كافية ، اعتنى الناس بشرحها ، ومن شرحها الشيخ جمال الدين ابن واصل ، والشيخ جمال الدين الأسنوي . وللساوي لامية ضاهي فيها لامية ابن الحاجب ، وللإمام القزويني عليها شرح حسن ، وللأبي في مختصر بديع ، وللجوهري فيه مختصر . ومن المتوسطة فيه عروض ابن القطّاع ، وعروض ابن الخطيب التبريزي . ومن المبسطة كتاب الأمين المحلى ، وعروض الأستاذ أبي الحسن العروضي المعروف بأستاذ المقتدر . وقد نظم فيه صاحبنا شعبان الآثاري محتسب مصر ألفية فائقة سماها "هداية الضليل إلى علم الخليل" جمع فيها فأوعى .

الثامن علم القوافي — من الكتب المختصرة فيها قوافي الأيكي . ومن المتوسطة قوافي ابن القطّاع ، ومن المبسطة قوافي ابن سيده .

التاسع علم قوانين الخط — في أصول الخط ألفية لشعبان الآثاري ، ولابن الحسين كتاب في قلم الثلث ، ولابن الشيخ عز الدين بن عبد السلام مصنف في قلم النسخ ، وفي صناعة الهجاء المختصة بالقرءان الرائية للشاطبي ، وفي خلال كتب النحو الجامعة كالتمهيد وغيره جملة من الهجاء ، وقد أودعت في هذا الكتاب ما فيه كفاية من ذلك .

العاشر قوانين القراءة — فيه كتاب التنبيه لأبي عمرو الداني .

الأصل الثاني

(العلوم الشرعية، وفيه تسعة علوم)

الأول علم النواميس المتعلق بالنبوات - وفيه كتاب لأرسطاطاليس ، وكتاب لافلاطن ، وأكثر مسائله في "كتاب المدينة الفاضلة" لأبي نصر الفارابي ، وفي آخر الطوالع والمصباح للبيضاوي مسائل من ذلك .

الثاني علم القراءات - من الكتب المختصة فيه التيسير لأبي عمرو الداني ، ونظمه الشاطبي في قصيدته التي وسمها بحرز الأمانى ، فأغنت عما سواها من كتب القراءات وأعنتى الناس بشرحها ، ولأبن مالك دالية بديعة في علم القراءات لكنها لم تشتهر . ومن الكتب المبسطة فيه كتاب الروضة في القراءات ، وشرح الشاطبية كالفاسى وغيره .

الثالث علم التفسير - من الكتب المختصة فيه زاد المسير لأبن الجوزى ، والوجيز للواحدى ، والنهر لأبي حيان . ومن المتوسطة فيه الوسيط للواحدى والكشاف للزمخشري ، ومعالم التنزيل للبعوى . ومن المبسطة البسيط للواحدى ، وتفسير القرطبي ، وتفسير الامام نجر الدين ، والبحر المحيط لأبي حيان .

واعلم أن كل واحد من المفسرين قد غلب عليه فن من الفنون يميل إليه في تفسيره ، فالتيفاشي تغلب عليه القصص ، وأبن عطية تغلب عليه العربية ، وأبن عطية تغلب عليه أحكام الفقه ، والزجاج تغلب عليه المعانى وغير ذلك .

الرابع علم رواية الحديث - أضبط الكتب المصنفة فيه وأصحها رواية صحيح البخارى ، وصحيح مسلم رضى الله عنهما ، وبعدهما بقية كتب السنن المشهورة ، كسنن أبى داود ، والترمذى ، والنسائى ، وأبن ماجه ، والدارقطنى . والمستندات المشهورة كسنن أحمد ، وابن أبى شيبه ، والبرار ونحوها .

(١) هو كتاب البيضاوى في علم الكلام . (٢) هما مفسران أحدهما متقدم على الآخر وكلاهما مسمى بأبى محمد عبدالله إلا أن المتقدم دمشقى والمتأخر غرناطى كذا يؤخذ من كشف الظنون .

ومن كتب السير السيرة لأبن هشام ، وزهر الخمائل لأبن سيد الناس .
ومن الكتب المبسوطه المشتتملة على متون الأحاديث دون الرواة جامع الأصول
لأبن الأثير . ومن المتوسطة الجمع في ذلك الجمع بين الصحيحين للحميدى ، ومختصر جامع
الأصول لمصنفه . ومن المختصرة فيما يتعلق بالأحكام ، الإمام بأحاديث الأحكام ،
للشيخ تقي الدين بن دقيق العيد ، وعمدة الأحكام للمافظ عبد الغنى المقدسى .

ومما يتعلق بالترغيب والترهيب رياض الصالحين للنووى . ومما يتعلق بالأدعية
كتاب الأذكار له ، وسلاح المؤمن لأبن الامام . إلى غير ذلك من أنواع المصنّفات
المختلفة المقاصد مما لا يحصى كثرة .

الخامس علم دراية الحديث — من الكتب الموصلة للدخول في ذلك علوم الحديث
لأبن الصلاح ، وتقريب التيسير للنووى ، وعلوم الحديث للحاكم ، والكفاية للخطيب
أبى بكر ، وفي أول جامع الأصول المقدم ذكره في كتب رواية الحديث قطعة من
ذلك . ومن الكتب المبسوطه في أسماء الرجال الكمال . ومن الكتب المبسوطه
في معانى الحديث شرح البخارى لأبن بطلال ، وشرحه لأبن التين المغربى ، وشرحه
لمغلطاي ، وشرحه لاكرمانى ، وشرحه لشيخنا سراج الدين بن الملقن ، وشرح مسلم
للقاضى عياض ، وشرحه للشيخ محيى الدين النووى ، وشرح سنن أبى داود للخطابى ،
وشرح العمدة للشيخ تقي الدين بن دقيق العيد ، وشرحها للشيخ تاج الدين الفاكهاني .
ومن الكتب في غريب الحديث كتاب الغريبين للهروى ، والنهاية لأبن السعادات
أبن الأثير ، وغير ذلك من سائر الأنواع .

السادس علم أصول الدين — من الكتب المختصرة فيه الطوالع للقاضى ناصر الدين
البيضاوى ، والمصباح له ، وقواعد العقائد للخواجه نصير الدين الطوسى ، وكتاب الأربعين

للقاضى جمال الدين بن واصل . ومن المتوسطة المحصل للإمام نجر الدين ، والصحائف
 للسمرقندى ، وشرح الطوابع للسيد العبرى ، وشرحها للشيخ عز الدين الأصفهاني .
 السابع علم أصول الفقه — من الكتب المختصرة فيه مختصر آبن الحاجب ،
 ومنهاج البيضاوى ، والتنقيح للقرافى ، والقواعد لأبن الساعاتى . ومن المتوسطة فيه
 التحصيل للأرموى . ومن المبسوطه فيه الإحكام للآمدى ، والمحصل للإمام
 نجر الدين ، وشروح مختصر ابن الحاجب : كشرح القطب الشيرازى ، وشرى
 المسيلى ، وشرح الشيخ شمس الدين الأصفهاني ، وأتقن شرح عليه للعصدي ؛ وكشرح
 منهاج البيضاوى لأبن المطهر ، وشرحه للشيخ جمال الدين الأسنوى ، وغير ذلك ؛
 وكشرح التنقيح لمصنفه .

الثامن علم الجدل — من الكتب المختصرة فيه المغنى للأبهري ، والفصول للنسفي
 وأخلاصة للراغى ، والمعونة لأبن إسحاق الشيرازى . ومن المتوسطة فيه النفائس
 للعميدى ، والوسائل للأرموى . ومن المبسوطه تهذيب النكت للأبهري .
 التاسع علم الفقه — من كتب الشافعية المختصرة مختصر المزني ، ومختصر البويطى
 والوجيز للغزالي ، والتنبيه لأبن إسحاق الشيرازى ، والمحزر للرافعى ، والمنهاج للنووى
 والحاوى الصغير لعبد الغفار القزوينى ، والعجب العجاب ، وجامع المختصرات ،
 ومختصر الجوامع للشيخ كمال الدين الشيبانى . ومن المتوسطة المهذب لأبن إسحاق
 الشيرازى ، والوسيط للغزالي ، والشرح الصغير للرافعى ، والروضة للنووى ، والجواهر
 للقموى ، وأجمعها على اختصار المتقى للشيخ كمال الدين الشيبانى . ومن المبسوطه
 الأئم للإمام الشافعى ، والحاوى للآوردى ، والبحر للرويانى ، والنهاية لإمام الحرمين ،
 والبسيط للغزالي ، والشامل لأبن الصباغ ، والتتمة للتولى ، والعدة لأبن المكارم
 الرويانى ، والشرح الكبير على الوجيز للرافعى ، وشرح المهذب للنووى انتهى فيه إلى

أثناء الربا ، ولو كل لأغنى عن جُل كتب المذهب ، والكفاية في شرح التنبيه لأبن الرِّقعة ، والمطلب في شرح الوسيط له ، والبحر المحيط في شرح الوسيط للقمولي .
ومن محاسنها المهمّات على الرافعي ، والروضة للشيخ جمال الدين الأسنوي .
ومن كتب الحنفية المختصرة البداية ، والنافع ، والكتز ، ومجمع البحرين ، ومختار الفتوى . ومن المتوسطة الهداية . ومن المبسطة المحيط ، والمبسوط ، والتحرير والجامع الكبير وغير ذلك .

ومن كتب المالكية المختصرة التلقين للقاضي عبد الوهاب ، ومختصر ابن الجلاب ، ومختصر ابن الحاجب . ومن نفيس المختصرات فيها مختصر الشيخ خليل المالكي ، هذا فيه قريبا من حذو جامع المختصرات . ومن المتوسطة التهذيب للبرادعي ، والجواهر لأبن شاس ، ونظم الدرّ للشارمساحي . ومن المبسطة النوادر لأبن أبي زيد ، والبيان والتحصيل ، وكتاب آبن يونس ؛ وشرح التلقين للآزري ، وليس بكامل ، والذخيرة للقراقي .

ومن كتب الحنابلة المختصرة مختصر الحدّقي ، والنهاية الصغرى لأبن رزين . ومن المتوسطة المُقنِع ، والكافي . ومن المبسطة المغنى لأبن قدامة .
ومن كتب الخلاف في المذاهب الأربعة الاختلاف والجمع لأبن هبيرة الحنبلي .
ومن المشتمل على مذاهب السلف الإشراف لأبن المنذر .

الأصل الثالث

(العلم الطبيعي ، وفيه اثنا عشر علما)

الأوّل علم الطب — من الكتب المختصرة فيه الموجز لأبن النفيس ، والفصول لأبقراط ، ومن المتوسطة المختار لأبن هبل ، والمائة للسيحي ، والشافى لأبن القف .
ومن المبسطة كامل الصناعة المعروف بالملكي ، والقانون للرئيس أبي عليّ بن سينا

وهو الذى أخرج الطب من التلفيق إلى التهذيب والترتيب ، وهو أجمع الكتب وأبلغها لفظا وأحسنها تصنيفا .

- الثانى علم البيطرة — من الكتب المصنفة فيه كتاب حنين بن اسحاق .
- الثالث علم البيزرة — من الكتب المصنفة فيه كتاب القانون الواضح وفي كتاب العلاجين لابن العوام جملة كافية من البيطرة والبيزرة .
- الرابع علم الفِرَاسَة — من الكتب المصنفة فيه كتاب أرسطاطاليس وكتاب الفِرَاسَة للامام نحر الدين الرازى ، ولقيلن فيه كتاب مختص بالتفريس فى النساء .
- الخامس علم تعبير الرؤيا — من الكتب المختصرة فيه فوائد الفرائد لابن الدقاق ، وتعبير الخبلى المرتب على حروف المعجم . ومن المتوسطة فيه شرح البدر المنير للخبلى . ومن المبسطة فيه تأليف أبى سهيل المسيحي ، والبشرى فى شرح كتاب الكومانى .
- السادس علم أحكام النجوم — من الكتب المختصرة فيه مجمل الأصول لكوشيار ، والجامع الصغير لمحي الدين المغربى . ومن المتوسطة كتاب التاريخ والمغنى لابن هنبتا . ومن المبسطة مجموع أبى سريح . ومن الكتب المنفردة ببعض أجزاء الأدوار لأبى معشر ، والإرشاد لأبى الريحان البيرونى ، والمواليد للخصيبى ، والتحاويل للسحرتى ، والمسائل للقيصرانى ، ودرج الفلك لسكلوشا . ومن المدخل إليه مدخل القيصى ، والفهم للبيرونى مدخل إلى هذا الفن ، وفيه ما يحتاج إليه من الرياض أيضا .
- السابع علم السحر ، وعلم الحرف والأوقاف — ومن كتب السحر المعتبرة فى بعض طرائقه السر المكتوم المنسوب للامام نحر الدين ، وكتاب الجمهرة للخوازمى ، وكتاب طيارس لارسطاطاليس ، وفى غاية الحكم للجربطى فصول كافية فى بعض طرقه أيضا .
- ومن كتب علم الحرف كتاب اطائف الإشارات للبونى ، وشمس المعارف له ، وهو عزيز الوجود ، وفى النسخ المعتبرة من اللغة النورانية للبونى قطعة كافية منه .

الثامن علم الطَّلَسَات — في كتاب طبنا الذي نقله ابن وحشية عن النبط أمّوذج لعمل الطَّلَسَات ومدخل إلى علمها، وفي غاية الحكم للجريطي قواعد هذا العلم . قال في إرشاد القاصد إلا أنه ضنّ بالتعليم كل الضن، ولأبى يعقوب السكاسكى فيه كتاب جليل القدر .

التاسع علم السيميا — رأيت فيه كتبا مجهولة المصنّفين .

العاشر علم الكيمياء — من الكتب المطولة فيه كتب جابر بن حيان . قال في إرشاد القاصد : وأمثلة كتب الإسلاميين في ذلك التذكرة لأبن كونه ، ورثبة الحكيم للجريطي ، وشرح الفصول لعون بن المنذر . ومن النظم الرائق فيه نظم الشذورى . الحادى عشر علم الفلاحة — من الكتب المختصرة فيه الفلاحة المصرية . ومن المبسوطة فيه الفلاحة النبطية ، ترجمة أبى بكر بن وحشية .

الثانى عشر علم ضرب الرمل — من الكتب المصنفة فيه تجارب العرب ، وفي مثلثات ابن محقق^(١) حصر صوره .

تتبعه — لارسطاطاليس ثمانية كتب في الطبيعى يختص كل كتاب منها بجزء جردها أبى سينا في مختصر ترجمه بالمقتضبات ، ولخصها أبو الوليد بن رشد تلخيصا مفيدا، والمتأخرون جمعوا في غالب كتبهم بينه وبين الالهى في التصنيف كما فى الطوالع والمصباح للبيضاوى .

الأصل الرابع

(علم الهندسة، وفيه عشرة علوم)

الأول علم عقود الأبنية — من الكتب المصنفة فيه مصنف لأبن الهيثم ، ومصنف للكرخى .

(١) فى كشف الظنون محقوق .

- الثاني علم المناظر — من الكتب المختصرة فيه كتاب اقليدس . ومن المتوسطة كتاب علي بن عيسى الوزير . ومن المبسوطه كتاب ابن الهيثم .
- الثالث علم المرآيا المحرقة — من الكتب المصنفة فيه كتاب لابن الهيثم .
- الرابع علم مراكز الأثقال — من الكتب المعتبرة فيه كتاب ابن الهيثم ، وفيه كتاب لأبي سهل الكوهي .
- الخامس علم المساحة — من الكتب المختصرة فيه كتاب ابن مجلي الموصلي . ومن المتوسطة كتاب ابن المختار . ومن المبسوطه ، كتاب ارشميدس .
- السادس علم إنباط المياه — للكرنخي فيه مختصر جليل ، وفي خلال الفلاحة النبطية لابن وحشية مهمات هذا العلم .
- السابع علم جرّ الأثقال — فيه كتاب لفيلن .
- الثامن علم البنكومات — فيه كتاب لارشميدس عمدة في بابه .
- التاسع علم الآلات الحربية — فيه كتاب لبني موسى بن شاكر .
- العاشر علم الآلات الروحانية — أشهر كتبه الكتاب المعروف بجبل بني موسى ، وفيه كتاب مختصر لفيلن ، وكتاب مبسوط للبديع الجزري .

الأصل الخامس

(علم الهيئة ، وفيه خمسة علوم)

- الأول علم الزيجات — قال في إرشاد القاصد : أقرب الزيجات عهدا بالرصد الزيج العلامى . قال وأهل مصر في زماننا إنما يقيمون دقتر السنة من زيح لفقوه من عدة أزياج ولقبوه بالمصطلح ؛ وأتم الزيجات في زماننا الذى نحن فيه زيح الشيخ علاء الدين بن الشاطر الدمشقي ، وهو عزيز الوجود لم ينتشر ولم تكثر نسخه بعد .

الثانى علم المواقيت — من الكتب المختصرة فيه نفائس اليواقيت فى علم المواقيت . ومن المبسوطه جامع المبادئ والغايات لأبى على المرأكشى .
 الثالث علم كيفية الأرصاد — من الكتب المعتره فيه كتاب الأرصاد لابن الهيثم ، وكتاب الآلات العجيبه للهارثى يشتمل عليه .
 الرابع علم تسطيح الكره — من الكتب القديمه فيه كتاب تسطيح الكره لبطليموس . ومن الكتب المحدثه فيه الكامل للفرغانى ، والأستيعاب للبيرونى ، وآلات التقويم للتراكشى .
 الخامس علم الآلات الظليه — فيه عدّه مصنفات ، ولابراهيم بن سنان الخزانى فيه كتاب مبرهن .

الأصل السادس

(علم العدد المعروف بالارتماطيق ، وفيه خمسة علوم)
 الأول علم الحساب المفتوح — من الكتب المختصرة فيه مختصر آبن مجلى الموصلى ومختصر آبن فلوس الماردىنى ، ومختصر السموئل بن يحيى المغربى . ومن المتوسطه الكافى للكرخى . ومن المبسوطه الكامل لأبى القاسم بن السمح .
 الثانى علم حساب التخت والميل — من الكتب المصنفة فيه على طريق الهندى كتب معده ، ومن الكتب المصنفة فيه على طريق الغبار كتاب الحصار ، وكتاب المدخل وغيرهما .
 الثالث علم الجبر والمقابله — من الكتب المختصرة فيه نصاب الجبر لآبن فلوس الماردىنى ، والمفيد لآبن مجلى الموصلى . ومن المتوسطه فيه كتاب المظفر الطوسى . ومن المبسوطه جامع الأصول لآبن المجلى ، والكامل لأبى شجاع بن أسلم .
 الرابع علم حساب الخطأين — وفيه من الكتب الجامعه كتاب لزين الدين المعزى الخامس علم حساب الدور والوصايا — من الكتب المصنفة فيه كتاب لأفضل الدين الحوىجى .

الأصل السابع

(العلوم العملية ، وفيه ثلاثة علوم)

الأول علم السياسة — ومن الكتب المصنفة فيه كتاب السياسة لارسطاطاليس الذى ألفه لاسكندر، وكتاب المدينة الفاضلة لأبى نصر الفارابى، وللشيخ تقي الدين ابن تيمية كتاب حسن فى السياسة الشرعية .

الثانى علم الأخلاق — ومن الكتب المختصرة فيه ، كتاب للشيخ أبى على ابن سينا . ومن المتوسطة كتاب الفوز لأبى على بن مسكويه . ومن المبسطة كتاب للإمام نجر الدين الرازى .

الثالث علم تدبير المنزل — ويحصل الانتفاع فيها بالإطلاع على السير الفاضلة المحمودة للملوك وغيرهم ، ولا أنفع من السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام . فإذا عرف الكاتب هذه العلوم والفنون وما صنف فيها من الكتب ، أمكنه التصرف فيها فى كتابه بذكر علم نبيل لمساواته أو التفضيل عليه ، وذكركتاب مصنف فى ذلك حيث تدعو الحاجة إلى ذكره : كما وقع لى فى تقرير مولانا قاضى القضاة شيخ الإسلام جلال الدين عبد الرحمن ، أبى سيدنا شيخ الإسلام أبى حفص عمر البلقينى الكافى الشافعى ” إن تكلم فى الفقه فكأنما بلسان الشافعى تكلم ، والربيع عنه يروى ، والمنزى منه يتعلم ، أو خاض فى أصول الفقه قال الغزالى هذا هو الإمام بانفاق ، وقطع السيف الآمدى بأنه المقدم فى هذا الفن على الإطلاق ، أو جرى فى التفسير قال الواحدى هذا هو العالم الأوحى ، وأعطاه ابن عطية صفقة يده بأن مثله فى التفسير لا يوجد ، وأعترف له صاحب الكشاف بالكشف عن الغوامض ، وقال الإمام نجر الدين هذه مفاتيح الغيب وأسرار التنزيل فارتفع الخلاف واندفع المعارض ، أو أخذ فى القراءات والرسم أزرى بأبى عمرو الدانى ، وعدا شأو الشاطبى ”

في الرائية وتقدمه في حرز الأمانى ؛ أو تحدث في الحديث شهد له السفيانان بعلو الرتبة في الرواية ، وأعترف له ابن معين في التبريز والتقدم في الدراية ؛ وهتف الخطيب البغدادي يذكره على المتأبر ، وقال ابن الصلاح لمثل هذه الفوائد نثعين الرحلة ، وفي تحصيلها تنفد الحار ؛ أو أبدى في أصول الدين نظرا تعلق منه أبو الحسن الأشعري بأوفى زمام ، وسد باب الكلام على المعتزلة حتى يقول عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء ليتنا لم نفتح بابا في الكلام ؛ أو دقق النظر في المنطق بهر الأبهري في مناظرته ، وكتب الكاشي وثيقة على نفسه بالعجز عن مقاومته ؛ أو ألم بالجدل رمى الأرموى نفسه بين يديه ، وجعل العميدى عمدته في آداب البحث عليه ؛ أو بسط في اللغة لسانه أعترف له ابن سيده بالسيادة ، وأقر بالعجز لديه الجوهرى وجلس ابن فارس بين يديه مجلس الاستفاده ، وأنحا إلى النحو والتصريف أربى فيه على سيبويه ، وصرف الكسائى له عزمه فسار من البعد إليه ، أو وضع أنموذجا في علوم البلاغة ، وقف عنده الجرجاني ، ولم يتعد حده ابن أبي الأصبغ ولم يجاوز وضعه الرمانى ؛ أو روى أشعار العرب ، أزرى بالأصمعى في حفظه ، وفاق أبا عبيدة في كثرة روايته وغزير لفظه ؛ أو تعرض للعروض والقوافى استحقهما على الخليل ، وقال الأخفش عنه أخذت المتدارك وأعترف الجوهرى بأنه ليس له في هذا الفن مثيل ؛ أو أصل في الطب أصلا ، قال ابن سينا هذا هو القانون المعبر في الأصول ، وأقسم الرازى بحبي الموتى إن بقرط لو سمعه لما صنف الفصول ؛ أو جنح إلى غيره من العلوم الطبيعية فكأنما طبع عليه ، أو جذبه بزمام فاتقاد ذلك العلم إليه ، أو سلك في علوم الهندسة طريقا لقال اقليدس هذا هو الخط المستقيم ، وأعرض ابن الهيثم عن حل الشكوك ووثى وهو كظيم ، وحمد المؤمن بن هود عدم إكمال

كتابه الاستكمال، وقال عرفت بذلك نفسى وفوق كل ذى علم عليم، أو عرّج على علوم الهيئة لأعترف أبو الريحان البيرونى أنه الأتجوبة النادرة، وقال ابن أفلح هذا العالم قطب هذه الدائرة؛ أو صرف إلى علم الحساب نظره لقال السموعلى بن يحيى، لقد أحيا هذا العزّ الدارس، وأنجحت عن هذا العلم غيابه حتى لم يبق عمه لعاميه ولا عمّة على ممارس:

وقد وجدت مكان القول ذا سعة * فإن وجدت لسانا قائلا فقل

وسوف أورد هذه الرسالة فى موضعها من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى؛ وكذلك يجرى القول فيما يكتب به من إجازات أهل العلوم ونحوها فى كل علم، وقد تقدّم ذكر شىء مما يجرى هذا المجرى فى الكلام على النحو ونحوه.

تم الجزء الأول

ويليه الجزء الثانى، أوله "النوع الثامن عشر—المعرفة بالأحكام السلطانية"

فهرست الجزء الأول من كتاب صبح الأعشى

صفحة

- خطبة الكتاب ٥
- المقدمة في المبادئ التي يجب تقديمها قبل الخوض في كتابة الإنشاء؛
وفيه خمسة أبواب... ٣٥
- الباب الأول - في فضل الكتابة، ومدح فضلاء أهلها، وذم حماهم؛
وفيه فصلان ٣٥
- الفصل الأول - في فضل الكتابة ٣٥
- الفصل الثاني - في مدح فضلاء الكتاب وذم حماهم... ٤٦
- الباب الثاني - في ذكر مدلول الكتابة لغة وأصطلاحاً الخ؛
وفيه ثلاثة فصول ٥٠
- الفصل الأول - في ذكر مدلولها الخ ٥١
- الفصل الثاني - في تفضيل كتابة الإنشاء على سائر أنواع الكتابة ... ٥٤
- الفصل الثالث - في ترجيح الشعر على الشعر ٥٨
- الباب الثالث - في صفاتهم وآدابهم؛ وفيه فصلان ٦١
- الفصل الأول - في صفاتهم؛ وهي على ضربين ٦١
- الفصل الثاني - في آداب الكتاب؛ وهي على نوعين ... ٦٩
- النوع الأول - حسن السيرة وشرف المذهب، ولذلك شروط ولوازم
النوع الثاني - حسن العشرة التي هي من أفضل الخلائق الخ؛
وهي على خمسة أضرب... ٧٣

صحيفة

الباب الرابع - في التعريف بحقيقة ديوان الإنشاء الخ؛ وفيه فصلان ٨٩

الفصل الأول - في التعريف بحقيقته ٨٩

الفصل الثاني - في أصل وضعه في الإسلام وتفترقه عند بعد ذلك

في المالك ٩١

الباب الخامس - في قوانين ديوان الإنشاء وترتيب أحواله وآداب

أهله؛ وفيه أربعة فصول ١٠١

الفصل الأول - في بيان رتبة صاحب هذا الديوان ورفعته قدره الخ ١٠١

الفصل الثاني - في صفة صاحب هذا الديوان وآدابه ١٠٤

الفصل الثالث - فيما يتصرف فيه صاحب هذا الديوان بتديره الخ؛

وفيه اثنا عشر أمرا ١١٠

الفصل الرابع - في ذكر وظائف ديوان الإنشاء بالديار المصرية الخ؛

وفيه ضربان ١٣٠

المقالة الأولى

في بيان ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد؛ وفيه بابان ١٤٠

الباب الأول - فيما يحتاج إليه الكاتب من الأمور العلمية؛ وفيه

ثلاثة فصول ١٤٠

الفصل الأول - فيما يحتاج إليه الكاتب على سبيل الإجمال ١٤٠

الفصل الثاني - فيما يحتاج الكاتب إلى معرفته من مواد الإنشاء؛

وفيه طرفان (صوابه ثلاثة أطراف) ١٤٨

الطرف الأول - فيما يحتاج إليه من الأدوات؛ ويشتمل العرض منه

على خمسة عشر نوعا (صوابه تسعة عشر نوعا) ١٤٨

صحيفة

- النوع الأول — المعرفة باللغة العربية؛ وفيه أربعة مقاصد ... ١٤٨
- النوع الثاني — المعرفة باللغة العجمية الخ؛ وفيه مقصدان ... ١٦٥
- النوع الثالث — المعرفة بالنحو؛ وفيه مقصدان ... ١٦٧
- النوع الرابع — المعرفة بالتصريف ... ١٧٧
- النوع الخامس — المعرفة بعلوم المعاني والبيان والبديع؛
وفيه مقصدان ... ١٨٠
- النوع السادس — حفظ كتاب الله العزيز؛ وفيه مقصدان ... ١٨٩
- النوع السابع — الاستكثار من حفظ الأحاديث النبوية؛
وفيه مقصدان ... ٢٠١
- النوع الثامن — الإكثار من حفظ خطب البلغاء، والتفنن
في أساليب الخطباء؛ وفيه مقصدان ... ٢١٠
- النوع التاسع — مما يحتاج إليه الكاتب الخ؛ وفيه ثلاثة مقاصد ... ٢٢٧
- النوع العاشر — الاستكثار من حفظ الأشعار الراقية الخ؛
وفيه مقصدان ... ٢٧١
- النوع الحادي عشر — الإكثار من حفظ الأمثال؛ وفيه مقصدان ... ٢٩٥
- النوع الثاني عشر — معرفة أنساب الأمم من العرب والعجم ... ٣٠٦
- النوع الثالث عشر — المعرفة بمفاحرات الأمم ووفراتهم الخ؛
وفيه مقصدان ... ٣٧٢
- النوع الثالث عشر (مكرر) المعرفة بأيام الحروب الواقعة؛ وفيه
ثلاثة مقاصد ... ٣٩٠

صفحة

- النوع الرابع عشر - في أوابد العرب ٣٩٨
- النوع الخامس عشر - في معرفة عادات العرب ؛ وهي صنفان ... ٤٠٩
- النوع السادس عشر - النظر في كتب التاريخ والمعرفة بالأحوال ؛
وفيه مقصدان ٤١١
- النوع السابع عشر - المعرفة بجزائن الكتب وأنواع العلوم الخ ؛
وفيه مقصدان ٤٦٦